

فتوح الشام

تأليف

أبي عبد الله بن عمر الواقدي

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

انا فتحنا لك فتحا مبينا

بسم الله الرحمن الرحيم:

اقبال الجند

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه اجمعين .

(قال الامام الواقدي) رحمه الله تعالى آمين : حدثني ابو بكر بن الحسن بن سفيان بن نوفل بن محمد بن ابراهيم التيمي ، ومحمد بن عبد الله الانصاري ، وأبو سعيد مولى هشام ومالك بن أبي الحسن واسماعيل مولى الزبير ومازن بن عوف من بني النجار ، كل حدث عن فتوح الشام بما كان ، قالوا جميعا : انه لما توفي رسول الله (ص) واستخلف بعده أبو بكر الصديق (ر ض) قتل في خلافته مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة ، وقاتل بني حنيفة ، وأهل الردة وأطاعته العرب ، فعزم أن يبعث جيشه الى الشام وصرف وجهه لقتال الروم فجمع أصحاب رسول الله (ص) في المسجد وقام فيهم خطيبا فحمد الله عز وجل ، وقال : يا أيها الناس رحمكم الله تعالى : اعلموا ان الله فضلكم بالاسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وزادكم ايمانا وبقينا ونصركم نصرا مبينا ، وقال فيكم - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً - واعلموا ان رسول الله (ص) كان عول أن يصرف همته الى الشام فقبضه الله اليه واختار له ما لديه ، ألا واني عازم ان اوجه ابطال المسلمين الى الشام بأهلهم ومالهم فان رسول الله (ص) أنبأني بذلك قبل موته ، وقال « زويت لي الارض فرأيت مشارقتها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » ، فما قولكم في ذلك ؟ فقالوا يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت ، فان الله تعالى فرض علينا طاعتك . فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم - ففرح أبو بكر (ر ض) . ونزل عن المنبر وكتب الكتب الى ملوك اليمن وأهل مكة وكانت الكتب فيها نسخة واحدة . وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم .

(أما بعد) فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد

(ص) ، وقد عازمت أن أوجهكم الى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة فمن عول منكم على الجهاد والصدام ، فليبادر الى طاعة الملك العلام ، ثم كتب - انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله - الآية ، ثم بعث الكتب اليهم وأقام ينتظر جوابهم ، وقدمهم ، وكان الذي بعثه بالكتب الى اليمن أنس بن مالك خادم رسول الله (ص) قال : فما مرت الايام حتى قدم أنس (ر ض) يبشره بقدم أهل اليمن وقال : يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد الا وبادر الى طاعة الله ورسوله ، واجاب دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزرد النضيد ، وقد اقبلت اليك يا خليفة رسول الله مبشرا بقدم الرجال ، وأي رجال ، وقد أجابوك شعنا غبرا وهم أبطال اليمن وشجعانها ، وقد ساروا اليك بالذراري والاموال والنساء والاطفال ، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا اليك فتأهب الى لقائهم . قال فسر أبو بكر (ر ض) بقوله سرورا عظيما ، وأقام يومه ذلك حتى اذا كان من الغد اقبلوا الى الصديق (رض) وقد لاحت غبرة القوم لاهل المدينة . قال : فاخبروه فركب المسلمون من اهل المدينة وغيرهم واطهروا زينتهم وعددهم ونشروا الاعلام الاسلامية ورفعوا الالوية المحمدية فما كان الا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا ، قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة ، فكان اول قبيلة ظهرت من قبائل اليمن حمير وهم بالدروع الداودية والبيض العادية والسيوف الهندية وأمامهم ذو الكلاع الحميري (ر ض) . فلما قرب من الصديق (ر ض) أحب ان يعرفه بمكانه وقومه وأشار بالسلام وجعل ينشد ويقول :

أتتك حمير بالاهليين والولد أهل السوابق والعالون بالرتب
أسد غطارفة شوس عمالقة يردوا الكماء غدا في الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والضرب همتنا وذو الكلاع دعا في اهل والنسب
دمشق لي دوت كل الناس اجمعهم وساكنيها ساهويهم الى العطب

قال فتبسم أبو بكر الصديق (رض) من قوله ، ثم قال لعلي بن ابي طالب (ر ض) يا أبا الحسن أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فابشر بنصر الله علي أهل الشرك أجمعين » . فقال الامام علي صدقت وأنا سمعته من رسول الله (ص) . قال أنس رضي الله عنه : وسارت حمير بكتائبها وأموالها وأقبلت من بعدها كتائب مذحج أهل الخير العتاق والرماح الدقاق ، وأمامهم سيدهم

قيس بن هبيرة المرادي (رض) ، فلما وصل الى الصديق (رض) جعل يقول صلوا على طه الرسول :

أتتك كتائبنا سرعا ذوو التيجان أعني من مراد
فقدمنا أمامك كي ترانا نبيد القوم بالسيف النجادي

قال فجزاه أبو بكر (رض) خيرا وتقدم بكتائبه ومواليه ، وتقدمت من بعده قبائل طيء يقدمها حارث بن مسعد الطائي (رض) ، فلما وصل هم أن يترجل فأقسم عليه أبو بكر (رض) بالله تعالى أن لا تفعل فدنا منه فصافحه وسلم عليه وأقبلت الازد في جموع كثيرة يقدمها جندب بن عمرو الدوسي (رض) ، ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الامير ميسرة بن مسروق العبسي (رض) ، وأقبلت من بعدهم بنو كنانة يقدمهم غيثم بن اسلم الكناني وتتابع قبائل اليمن يتلو بعضها بعضا ومعهم نساؤهم وأموالهم ، فلما نظر أبو بكر (رض) الى نصرتهم سر بذلك وشكر الله تعالى وانزل القوم حول المدينة كل قبيلة متفرقة عن صاحبتها واستمروا فأضر بهم المقام من قلة الزاد وعلف الخيل وجدوبة الارض فاجتمع أكابرهم عند الصديق (رض) ، وقالوا : يا خليفة رسول الله انك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة في الجهاد وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا ، والمقام قد أضر بنا لان بلدك ليست بلد جيش ، ولا حافر ولا عيش ، والعسكر نازل فان كنت قد بدلت فيما عزمت عليه فأمرنا بالرجوع الى بلدنا وأقبل الجميع وخاطبوه بذلك ، فلما فرغوا من كلامهم قال أبو بكر (رض) : يا أهل اليمن ، ومن حضر من غيرهم . أما والله ما اريد لكم الاضرار ، وانما اردنا تكاملكم ، قالوا انه لم يبق من ورائنا أحد فاعزم على بركة الله تعالى .

وصية أبي بكر

(قال المؤلف رحمه الله تعالى) لقد بلغني أن أبا بكر الصديق (رض) قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من الاصحاب منهم عمر وعثمان وعلي (رض) ، وخرجوا الى ظاهر المدينة ووقع النداء في الناس وكبروا بأجمعهم فرحا لخروجهم ، وأجابتهم الجبال لدوي أصواتهم ، وعلا أبو بكر على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر اليهم قد ملثوا الارض فتهلل وجهه ، وقال : اللهم انزل عليهم الصبر وأيدهم ولا تسلمهم الى عدوهم - انك على

كل شيء قدير - وكان أول من دعاه أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وعقد له راية وأمره على ألف فارس من سائر الناس ودعا بعده رجلا من بني عامر بن لؤي يقال له ربيعة بن عامر ، وكان فارسا مشهورا في الحجاز فعقد له راية وأمره على ألف فارس ، ثم أقبل أبو بكر على يزيد بن أبي سفيان ، وقال له هذا ربيعة بن عامر من ذوي العلا والمفاخر قد علمت صولته وقد ضمته اليك وأمرتك عليه فاجعله في مقدمتك وشاوره في أمرك ولا تخالفه . فقال يزيد حبا وكرامة وأسرعت الفرسان الى لبس السلاح واجتمع الجند وركب يزيد بن أبي سفيان ، وربيعه بن عامر وأقبلا بقومهما الى أبي بكر (رض) فأقبل يمشي مع القوم . فقال يزيد يا خليفة رسول الله : الناجي من غضب الله من رضيت عنه لا نكون على ظهور خيولنا ، وأنت تمشي فأما ان تتركب وأما ان ننزل . فقال ما انا براكب وما أنتم بنازلين ، وسار الى ان وصل الى تنية الوداع فوقف هناك فتقدم اليه يزيد فقال يا خليفة رسول الله أوصنا ، فقال « اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على اصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على اصحابك وشاورهم في الامر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه لا افلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم ، - واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير - واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة المأكول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم ، وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون انهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم وستجدون قوما آخرين من حزب الشيطان وعبد الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم حتى كأنها مناحيض العظام فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاسلام او يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقد استودعتم الله ، ثم عانقه وصافحه وصافح ربيعة بن عامر ، وقال يا عامر اظهر شجاعتك على بني الاصفر بلغكم الله آمالكم ، وغفر لنا ولكم » . قال وسار القوم ورجع أبو بكر (رض) بمن معه الى المدينة قال فجد القوم في السير ، فقال ربيعة بن عامر ما هذا السير يا يزيد ، وقد أمرك أبو بكر أن ترفق بالناس في سيرك . فقال يزيد يا عامر ان أبا بكر (رض) سيعقد العقود ويرسل الجيوش فاردت ان اسبق الناس الى الشام فلعلنا ان نفتح فتحا قبل تلاحق الناس

بنا فيجتمع بذلك ثلاث خصال رضا الله عز وجل ، ورضا خليفتنا ، وغنيمة تأخذها . فقال ربيعة فسر الان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . قال فأخذ القوم في السير على وادي القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية الى دمشق . قال واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المنتصرة كانوا في المدينة ، فلما صبح عند الملك ذلك جمع بطارقتة في عسكره ، وقال لهم يا بني الاصفر : ان دولتكم قد عزمت على الانهزام ، ولقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتؤثرون الزكاة التي امركم بها الآباء والاجداد والقسيس والرهبان ، وتقيمون حدود الله التي امركم بها في الانجيل لا جرم انكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام الا وقهرتموه ولقد فصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على اعقابهم ، والان قد بدلتهم وغيرتم فظلمتم وجرتم ، وقد بعث اليكم ربكم قوما لم يكن في الامم اضعف منهم عندنا ، وقد رمتهم شدة الجوع اليانا واتى بهم الى بلادنا وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا ، ثم انه حدثهم بالذي سمعه من طرسيه .

فقالوا أيها الملك نردهم عن مرادهم ونصل الى مدينتهم ونخرب كعبتهم . قال فلما سمع مقالتهم وتبين اغتيالهم جرد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمر عليهم خمسة من بطارقتهم ، وهم البطاليق وأخوه جرجيس وصاحب شرطته ولوقا بن سمعان وصليب بن حنا صاحب غزة ، وكانت هذه الخمسة البطارقة يضرب بهم المثل في الشجاعة والبراعة ، ثم تدرعوا وظهروا زينتهم ، وصلت عليهم الامة صلاة العصر . فقالوا اللهم انصر من كان منا على الحق وبخروهم ببخور الكنائس ، ثم رشوا عليهم من ماء العمودية وودعوا الملك وساروا وأمامهم العرب المنتصرة يدلونهم على الطريق . قال حدثني رفاعة عن ياسر بن الحصين . قال بلغني أن اول من وصل الى تبوك كان يزيد بن سفيان وربيعه بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة ايام ، فلما كان في اليوم الرابع والمسلمون قد هموا بالرحيل الى الشام اذ أقبل جيش الروم ، فلما رآه المسلمون اخذوا على أنفسهم وكن ربيعة بأصحابه الالف وأقبل يزيد بأصحابه الالف ووعظهم وذكر الله تعالى . وقال لهم :

اعلموا ان الله وعدكم بالنصر وأيدكم بالملائكة ، وقال الله تعالى في كتابه

العزیز - کم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين -
وقد قال (ص) « الجنة تحت ظلال السيوف » وأنتم أول جند دخل الشام
وتوجه لقتال بني الاصفى فكأنكم بجند الشام ، وإياكم ان تطعموا العدو
فيكم وانصروا الله ينصرکم ، فبينما يزيد يعظ الناس واذا بطلائع الروم
قد اقبلت وجيوشها قد ظهرت فلما رأوا قلة العرب طمعوا فيهم وظنوا انه
ليس وراءهم أحد فبربر بعضهم على بعض بالرومية وقالوا : دونكم من يريد
أخذ بلادكم واستنصروا بالصليب فانه ينصرکم ، ثم حملوا وتلقاهم اصحاب
رسول الله (ص) بهم عالية وقلوب غير دانية ودار القتال بينهم وتكاثر
الروم عليهم وظنوا انهم في قبضتهم اذ خرج عليهم ربيعة بن عامر (رض)
بالكمين ، وقد اعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ،
وحملوا على الروم حملة صادقة ، فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسروا ،
والقى الله الرعب في قلوبهم فتقهقروا الى ورائهم ونظر ربيعة بن عامر الى
البطاليق وهو يحرض قومه على القتال فعلم انه طاغية الروم فحمل عليه
وطعنه طعنة صادقة فوقعت في خاصرته وطلعت من الناحية الاخرى ، فلما
نظر الروم الى ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار ونزل النصر على طائفة محمد
المختار . حدثنا سعد بن اوس عن السرية التي انفذها أبو بكر الصديق (رض)
مع يزيد بن ابي سفيان وربيعه بن عامر ، قال قد اجتمع بعساكر الروم في
ارض تبوك مع البطاليق وهزمهم الله تعالى على أيدينا ، وكان جملة من قتل
منهم الفا ومائتين ، ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلا . قال وان القوم
لما انهزموا قال لهم جرجيس وهو أخو المقتول يا ويلكم بأي وجه ترجعون الى
الملك ، وقد عملوا فينا عملا ذريعا ، وملثوا الارض من قتلانا ولا ارجع حتى
أخذ بشار أخي أو الحق به . قال واجتمع القوم وسمعوا منه ذلك ورجع بعضهم
الى بعض وعادوا الى القتال ، فلما استقروا في خيامهم بعثوا رجلا من العرب
المتنصرة اسمه القداح ، وقالوا له امضي الى بني عمك وقل لهم يبعثوا لنا رجلا
من كبارهم وعقلائهم حتى ننظر ما يريدون منا . قال فركب القداح جواده
واقبل نحو جيش المسلمين ، فلما رأوه مقبلا اليهم استقبله رجال من الاوس
وقالوا له ماذا تريد ؟ قال لهم ان البطارقة يريدون رجلا من عقلائكم
ليخاطبهم فيما يريد الله من صلاح شأن الجمعين . قال فأخبروا يزيد بن
ربيعة بما قال المتنصر . فقال ربيعة بن عامر أنا أسير الى القوم .

فقال يزيد يا ربيعة أنا أخاف عليك من القوم لانك قد قتلت كبيرهم بالامس . فقال ربيعة - قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون - واني أوصيك والمسلمين أن تكون همتكم عندي فاذا رأيتم القوم غدروا بي فاحملوا عليهم ثم ركب جواده وسار حتى اتى جيش الروم وقرب من سرداق اميرهم . فقال القداح : عظم جيش الملك وانزل عن جوادك . فقال ربيعة (رض) ما كنت بالذي انتقل من العز الى الذل ولست أسلم جوادي لغيري وما أنا بنازل الا على باب السرداق والا رجعت من حيث جئت لاننا ما بعثنا اليكم ، بل انتم بعثتم الينا قال فأعلم القداح الروم بما تكلم به ربيعة بن عامر . فقال بعضهم لبعض صدق العربي في قوله دعوه ينزل حيث اراد قال فنزل ربيعة على باب السرداق وجثا على ركبته وأمسك عنان جواده بيده وسلاحه . فقال له جرجيس يا أخا العرب لم تكن أمة أضعف منكم عندنا وما كنا نحدث انفسنا انكم تغزوننا وما الذي تريدون منا ؟ فقال ربيعة نريد منكم أن تدخلوا في ديننا ، وأن تقولوا بقولنا ، وان أبيتم تعطونا الجزية عن يد وانتم صاغرون والا فالسيف بيننا وبينكم . فقال جرجيس فما منعكم ان تقصدوا الفرس وتدعون الصداقة بيننا وبينكم ؟ فقال ربيعة بدأنا بكم لانكم اقرب الينا من الفرس ، وان الله تعالى أمرنا في كتابه بذلك قال الله تعالى - يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة - قال جرجيس : فهل لك أن تعقد الصلح بيننا وبينكم وأن نعطي كل رجل منكم دينارا من ذهب وعشرة أوسق من الطعام وتكتبوا بيننا وبينكم كتاب الصلح لا تغزون الينا ولا نغزو اليكم . قال ربيعة لا سبيل الي ذلك وما بيننا وبينكم الا السيف او اداء الجزية أو الاسلام . قال جرجيس : أما ما ذكرت من دخولنا في دينكم فلا سبيل الى ذلك ولو نهلك عن آخرنا لاننا لا نرى لديننا بدلا . واما اعطاء الجزية فان القتل عندنا أيسر من ذلك ، وما انتم بأشهى منا الى القتال والحرب والنزال لان فينا البطارقة وأولاد الملوك ورجال الحرب وارباب الطعن والضرب . قال جرجيس لاصحابه علي بأنفس صقالبة حتى يناظروا هذا البدوي في كلامه . قال وكان الملك هرقل قد بعث معهم قسيسا عظيما عارفا بدينهم مجادلا عن شرعهم . قال فأتى الحاجب به ، فلما استقر به الجلوس قال له جرجيس يا أبانا استخبر من هذا الرجل عن

شريعتهم ، وعن دينهم . فقال القسيس يا اخي العربي انا تجد في عملنا ان الله تعالى يبعث من الحجاز نبيا عربيا هاشميا قرشيا علامته ان الله تعالى يسري به الى السماء اكان ذلك ام لا ، قال نعم اسري به ، وقد ذكره ربنا في كتابه العزيز بقوله تعالى - سبحانه الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا - قال القسيس انا نجد في كتابنا ان ربنا يفرض على هذا النبي وأمته شهرا يصومونه يقال له شهر رمضان . قال ربيعة نعم ، وقد قرأنا في القرآن العظيم - شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان - فقال القسيس انا وجدنا في كتابنا أن من أحسن حسنة تكتب بعشرة . قال ربيعة نعم قال الله تعالى - من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الا مثلها وهم لا يظلمون - قال القسيس انا نجد في كتابنا ان الله يأمر أمته بالصلاة عليه . قال ربيعة نعم : وقد قال الله في كتابه العزيز - ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما - قال فعجب القسيس من كلامه وقال للبطارقة ان الحق مع هؤلاء القسوم . فقال بعض الحجاب ان هذا هو الذي قتل أخاك . فلما سمع ذلك ازورت عيناه وغضب غضبا شديدا وهم ان يثب على ربيعة ففهم ربيعة ذلك منه فوثب من مكانه اسرع من البرق وضرب بيده الى قائم سيفه وعاجل جرجيس بضربة فجندله صريعا قتيلا ووثب على فرسه فركبها فاسرعت البطارقة اليه وهو راكب فحمل فيهم ونظر يزيد بن أبي سفيان الى ذلك . فقال للمسلمين ان اعداء الله قد غدروا بصاحب رسول الله (ص) فدونكم واياهم ، فحمل المسلمون على المشركين واختلط الجيش بالجيش وصبرت الروم لقتال العرب فبينما هم في القتال اذ أشرفت جيوش المسلمين مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) ، فلما نظر المسلمون الى اخوانهم في القتال حملوا على القوم حملة صادقة وحكمت سيوفهم في قمم الروم .

(قال الواقدي) لقد بلغني ان الثمانية آلاف المذكورة من الروم لم ينج منهم أحد لان العرب التقطوهم بسبق الخيل وبعد الشام من تبوك ، ثم ان المسلمين اخذوا اموالهم وخيامهم ، ثم سلموا على شرحبيل ومن معه وجمعوا المال والغنائم . فقالوا نبعث الجميع الى أبي بكر الصديق (رض) فرضوا بذلك.

وبعثوا الجميع الا العدة والسلاح ، وبعثوا مع الغنائم والاموال شداد بن أوس (رض) في خمسمائة فارس ، ولما وصل بالمال الى المدينة المنورة وعابن المسلمون اموال المشركين رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، والصلاة على البشير النذير محمد (ص) ، وسمع الصديق بقدوم شداد بن أوس (رض) ومن معه من المسلمين ففرح بذلك فرحا شديدا ، ثم اقبلوا الى الصديق واعلموه بالفتح بعد ان سلموا عليه فسجد لله عز وجل ، ثم كتب كتابا الى أهل مكة يستدعيهم للجهاد مضمونه : بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر الى أهل مكة وسائر المؤمنين فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) .

(اما بعد) فاني قد استنفرت المسلمين الى الجهاد وفتح بلاد الشام ، وقد كتبت اليكم والى المسلمين ان تسرعوا الى ما أمركم به ربكم تبارك الله وتعالى : اذ يقول الله عز وجل - انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون - وهذه الآية فيكم وانتم أحق بها وأهلها ، وأول من صدق وقام بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره ، ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد ، فسارعوا الى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمهاجرين والانصار ، فمن اتبع سبيلهم كتب من الاولياء الاخيار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قال وختم الكتاب ودفعه الى عبد الله بن حذافة ، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها ، فاجتمعوا اليه فدفع اليهم الكتاب فقرأوه على أصحاب رسول الله (ص) ، فلما سمعوه قال سهل ابن عمرو والحرث بن هشام وعكرمة بن ابي جهل ، وقالوا : اجبنا داعي الله وصدقنا قول نبيه محمد (ص) ، فأما عكرمة فانه قال الى متى نبسط لانفسنا وقد سبقنا القوم الى المواطن ، وقد فاز من فاز بالصدق ، وان كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق بالسابقين يجعلنا من الفائزين . ثم خرج عكرمة بن ابي جهل في بني مخزوم وخرج الحرث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة خمسمائة رجل ، وكتب أبو بكر للطائف فخرجوا في اربعمائة رجل .

(قال الواقدي) خرج بهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص وكان غلاما نجيبا ، وذلك ان سعيد بن خالد أتى الى الصديق (رض) . فقال : يا خليفة رسول الله (ص) انك أردت ان تعقد لابي خالد راية ويكون قائدا

من قواد جيشك ، فتكلم فيه المتكلمون فعزلته حين رجع من بعثك ، وقد حبس نفسه في سبيل الله عز وجل ولم أزل مجيباً دعوتك في بعثك ، فهل لك ان تقدمني على هذا الجيش ، فوالله لا يراني الله وانما ابدا ولا عاجزا عن الحرب ، قال وكان سعيد بن خالد نجيباً انجب من ابيه وأفرس ، فعقد له أبو بكر راية ودفعها اليه وأمره على الفين من العرب . قال فلما سمع عمر بن الخطاب كلام سعيد بن خالد وانه خير من ان يكون أميراً كره لك ذلك وأقبل على الصديق (رض) . يا خليفة رسول الله عقدت هذه الراية لسعيد بن خالد على من هو خير منه ، ولقد سمعته يقول عندما عقدتها على رغم الاعادي والله لتعلم انه ما يريد بالقول غيري ، والله ما تكلمت في أبيه .

(قال الواقدي) فتقل ذلك على أبي بكر وكره ان لا يعقد له ، وكره ايضا ان يخالف عمر لمحبتة له ونصحه ومنزلته عند النبي (ص) ووثب قائماً ، ودخل على عائشة (رض) واخبرها بخبر عمر بن الخطاب (رض) ، وما كان من كلامه . فقالت عائشة : قد علمت ان عمر ينصر الدين ويريد النصر لرب العالمين ، وما في قلب عمر بغض للمسلمين . قال فقبل قول عائشة (رض) ، ثم دعا بأزد الدوسي وقال له : امض الي سعيد بن خالد وقل له رد علينا رايته . قال فردها ، وقال والله لاقتلن تحت راية ابي بكر حيث كان ، فاني قد حبست نفسي في سبيل الله .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان الصديق حال تفكره فيمن يقدم طليعة الجيش . قال فتقدم اليه سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهشام بن الحرث ، وقالوا اشهدوا اننا قد حبسنا أنفسنا في سبيل الله فلا نرجع عن القتال ابدا . فقال أبو بكر : اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون . ثم ان ابا بكر دعا عمرو بن العاص . فسلم اليه الراية وقال قد وليتك على هذا الجيش : يعني أهل مكة والطائف وهوران وبني كلاب فانصرف الي ارض فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده اذا أرادك ولا تقطع أمرا الا بمشورته : أمض بارك الله فيك وفيهم . قال فأقبل عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب (رض) وقال له : يا أبا حفص أنت تعلم شدتي على العدو وصبري على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً على أبي عبيدة ، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله (ص) واني أرجو ان يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الاعداء . قال عمر (رض) ما كنت بالذي اكذبك وما كنت بالذي اكلمه في ذلك ، فانه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولا بي عبيدة عندنا أفضل منزلة منك ، وأقدم سابقة منك

والنبي (ص) قال فيه « أبو عبيدة أمين الامة » قال عمرو ما ينقص من منزلته اذا كنت واليا عليه . قال عمر بن الخطاب : ويلك يا عمرو انك ما تطلب بقولك هذا الا الرياسة والشرف فاتق الله ولا تطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى ، فقال عمرو بن العاص : ان الامر كما ذكرت ثم امر الناس بالمسير تحت رايته فساروا ، وتقدم اهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطيء وهوزان وثقيف وتخلف المهاجرون والانصار ليسيروا مع ابي عبيدة بن الجراح .

وصية الصديق لعمرو بن العاص

وتقدم عمرو بن العاص وسار . قال ابو الدرداء : كنت مع عمرو بسن العاص في جيشه ، فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه : اتق الله في شرك وعلايتك واستحيه في خلواتك فانه يراك في عملك ، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة واقدم حرمة فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله وكن والدا لمن معك وارفق بهم في السير فان فيهم أهل ضعف ، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، واذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعه وشرحبيل ، بل اسلك طريق أيليا حتى تنتهي الى ارض فلسطين ، وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة ، فان كان ظافرا بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين ، وان كان يريد عسكرا فأنفذ اليه جيشا في أثر جيش ، وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وشعيب ابن خالد ، وإياك ان تكون وانيا عما نذبتك اليه ، وإياك والوهن ان تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به ، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع المشركين ونحن في قلة من عدونا ثم رأيت يوم حنين ما نصر الله عليهم . واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والانصار من أهل بدر ، فاکرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول : انما ولاني أبو بكر لاني خيرهم ، وإياك وخداغ النفس وكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك ، والصلاة ثم الصلاة ، اذن بها اذا دخل وقتها ولا تصل صلاة الا بأذان يسمعه أهل العسكر ، ثم ابرز وصل بمن رغب في الصلاة معك فذلك افضل له ، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن انت بعد ذلك مطلعا عليهم وأطل الجلوس بالليل

على أصحابك وأقم بينهم وأجلس معهم ولا تكشف استار الناس ، واثق الله اذا لاقيت العدو ، واذا وعظت اصحابك فأوجز واصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالامام ينفرد الى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته واني قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها ، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتعاهد عسكرك في سيرك وقدم قبلك طلائعك فيكونوا امامك ، وخلف على الناس من ترضاه ، واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخرا ، والزم اصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم ، وأعرض على زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك وكن من الائمة المدوحين في القرآن اذ يقول الله تعالى - وجلعناهم آئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وابتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين - قال فكان ابو بكر (رض) يوصي عمرو بن العاص وأبو عبيدة حاضر ، ثم قال سيروا على بركة الله تعالى وقاتلوا اعداء الله وأوصيكم بتقوى الله فان الله ناصر من ينصره . قال فسلم المسلمون عليه وودعوا وساروا في تسعة آلاف مع من ذكرنا يريدون أخذ فلسطين ، فلما كان بعدهم بيوم واحد عقد العقود والرايات الى أبي عبيدة بن الجراح وأمره بأن يقصد بمن معه ارض الجابية ، وقال يا أمين الامة قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص وودعه المسلمون ، فلما عاد ابو بكر والمسلمون دعا بخالد بن الوليد وعقد له راية ، وكانت له راية النبي (ص) وأمره على لخم وجذام وضم له جيش الزحف وكانوا شجعانا ما منهم الا من شهد الوقائع مع رسول الله (ص) وقال له يا أبا سليمان : قد وليتك على هذا الجيش فاقصد به ارض العراق وفارس وارجوا الله ان ينصركم ثم انه ودعه وسار خالد بمن معه يطلب العراق .

(قال) حدثني ربيعة بن قيس . قال كنت في الجيش الذي وجهه أبو بكر الصديق مع عمرو بن العاص الى فلسطين وايليا . وكان صاحب رايته سعيد بن خالد . قال وبعث ابو بكر مع كل جيش اميرا وهو يدعو لهم بالنصر وأخذه القلق على المسلمين حتى عرف ذلك في وجهه . فقال له عثمان بن عفان (رض) ما هذا الغم الذي نزل بك ؟ فقال اغتممت على جيوش المسلمين وارجوا الله ان ينصرهم على عدوهم . فقال عثمان والله ما خرج جيش سررت به الا هذا الجيش الذي سار الى الشام ، وهذا الذي اوصى الله نبيه به ، وليس

في قوله خلف موانا سنظهر على الروم وفارس ولكن ما ندري متى يكون أفي هذا البعث أو غيره ولكن احسن الظن بالله . قال وبات الصديق فرأى في منامه كأن عمرو بن العاص وجهه طرمة هو واصحابه ، ثم قصد عمرو ارضا خضرة سهلة وفرجة فحمل على فرسه ، ثم أتبعه اصحابه ، فاذا هم في ارض واسعة فنزلوا واستراحوا قال وانتبه أبو بكر من منامه فرحا بما رأى . فقال عثمان يدل على فتح الا انه يوشك ان يلقي عمرو في قتال المشركين مشقة عظيمة ثم يخلص منها .

(قال الواقدي) كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والاسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون في الشام ، فقدم بعض الساقطة الى المدينة ، وابو بكر ينفذ الجيوش وسمعوا كلام ابي بكر لعمر بن العاص ، وهو يقول عليك بفلسطين وايليا . قال فساروا بالخبر الى الملك هرقل . فلما سمع ذلك جمع أرباب دولته وبطارقته واعلمهم بالحديث الذي جرى وقال يا بني الاصفر هذا الذي كنت حذرتكم منه قديما وان أصحاب هذا النبي لا بد ان تملك ما تحت سريري هذا وقد قرب الوعد ، وان خليفة محمد قد انفذ لكم الجيوش وكأنكم بهم وقد اتوكم وقصدوا نحوكم فحذروا انفسكم وقاتلوا عن دينكم ، وعن حريمكم فان تهاونتم ملكت العرب بلادكم واموالكم . قال فبكى القوم . فقال لهم دعوا عنكم البكاء ، ثم قال له وزيره أيها الملك قد اشتهينا ان تدعو بعض من قدم بهذا الخبر عليك فأمر هرقل بعض حجابيه ان يأتي برجل من المنتصرة ممن قدم عليه بالاخبار برجل منهم ، فقال له الملك كم عهدك ؟ قال منذ خمسة وعشرين يوما . قال فمن المتولي عليهم ؟ قال له رجل يقال له ابو بكر الصديق وجهه جيوشه الى بلدك ، قال هل رأيت أبسا بكر . قال نعم وانه أخذ مني شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه وهو كواحد منهم ، وهو يمشي في ثوبين ويطوف بالاسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف . قال هرقل : صفه لي . قال هو رجل آدم اللون خفيف العارضين . فقال هرقل : وحق ديني هو صاحب احمد الذي كنا نجد في كتبنا انه يقوم بالامر من بعده ، ونجد في كتبنا أيضا ان بعد هذا الرجل رجلا آخر طويلا كالاسد الوئاب يكون على يديه الدمدمة والجلأ . قال فشهب المتنصر من قول هرقل . وقال ان هذا الذي وصفته لي رأيتته معه لا يفارقه . قال هرقل : هذا الامر والله قد صح وقد دعوت الروم الى الرشيد والصلاح ، فأبوا ان يطيعوني ، وأن ملكي سوف ينهدم ، ثم عقد صليبا من الجوهر ،

وأعطاه قائد جيوشه روبيس . وقال له قد ولينك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فانها بلد خصب كثيرة الخير وهي عزنا وجاهنا وتاجنا ، فتسلم روبيس الصليب وسار من يومه الى أجنادين واتبعه جيش الروم .

عمرو بن العاص في فلسطين

(قال الواقدي) : لقد بلغني ان عمرو بن العاص توجه الى ايليا ، حتى وصل الى ارض فلسطين هو ومن معه قال . فلما نزل المسلمون بفلسطين جمع عمرو المسلمين المهاجرين والانصار وشاورهم في امرهم فبينما هم في المشورة اذ اقبل عليهم عدي بن عامر ، وكان من خيار المسلمين ، وكان كثيرا ما يتوجه الى بلاد الشام ، وداس ارضهم وعرف مساكنها ومسالكتها . فلما أشرف على المؤمنين داروا به واوقفوه بين يدي عمرو بن العاص . فقال عمرو بن العاص ما الذي وراءك يا ابن عامر ؟ قال ورائي المتنصرة وجنودهم مثل النمل . فقال له عمرو : يا هذا لقد ملأت قلوب المسلمين رعبا وانا نستعين بالله عليهم . فقال له فكم حزرت القوم ؟ . فقال : أيها الامير اني قد علوت على شرف من الجبال عال ، فرأيت من الصليبان والرماح والاعلام ما قد ملأ الاجم ، وهو اعظم جبل بأرض فلسطين وهم زيادة عن مائة الف فارس ، وهذا ما غنّدي من الخبر قال فلما سمع عمرو ذلك قال :

لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم اقبل على من حضر من كبار المسلمين . وقال أيها الناس انا واياكم في هذا الامر بالسواء فاستعينوا بالله على الاعداء ، وقاتلوا عن دينكم وشرعكم فمن قتل كان شهيدا ، ومن عاش كان سعيدا ، فماذا أنتم قائلون ؟ قال فتكلم كل رجل بما حضر عنده من الرأي . فقالت طائفة منهم : أيها الامير ارجع بنا الى البرية حتى نكون في بطن البيداء فانهم لا يقدرّون على فراق القرى والحصون . فاذا جاءهم الخبر اننا توسطنا البرية يتفرق جمعهم وبعد ذلك نعطف عليهم وهم على غفلة فنهزمهم . ان شاء الله تعالى . فقال سهل بن عمرو : ان هذه مشورة رجل عاجز . فقال رجل من المهاجرين : لقد كنا مع رسول الله (ص) نهزم الجمع الكثير بالجمع القليل ، وقد وعدكم الله النصر وما وعد الصابرين الا خيرا ، وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة - قال سهل ابن عمرو : أما أنا فلا رجعت عن قتال الكفرة ولا رددت سيفي عنهم ، فمن شاء فلينهض ، ومن شاء فليرجع ، ومن نكص على عقبيه فأنا وراءه بالمرصاد ، قال فلما سمع المسلمون انه وافقه على ذلك عبد الله .

بن عمر بن الخطاب (رض) : قالوا أحسنت يا أبا الفاروق ، قال : ثم ان عمرو بن العاص عقد راية واعطاها عبد الله بن عمر بن الخطاب وضم اليه ألف فارس فيهم رجال من الطائف ومن ثفيف وأمرهم بالمسير فصار عبد الله ، وجعل يجد السير بقية يومه الى الصباح ، واذا بغبرة القوم قد لاحت . فقال عبد الله بن عمر : هذه غبرة عسكر واظنها طليعة القوم ، ثم وقف ووقف امامه اصحابه . فقال قوم من البادية اتركنا نرى ما هذه الغبرة . فقال لا تتفرقوا من بعضكم حتى نرى ما هي فوقف الناس ، واذا بالغبرة قد قربت وانكشفت عن عشرة آلاف من الروم وقد بعث معهم روبيس بطريقا من اصحابه ، وكانوا قد ساروا يكشفون خبر المسلمين . فلما نظرهم عبد الله بن عمر قال لاصحابه لا تمهلوهم لانهم لا بد لهم منكم ، والله ينصركم عليهم : واعملوا ان الجنة تحت ظلال السيوف ، قال فأعلن القوم بقول لا اله الا الله محمد رسول الله . فلما جهروا بها أجابهم الشجر والمدر والدواب والحجر ، وكان اول من حمل عكرمة بن أبي جهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك أيضا بالجملة وصاح في رجاله وحمل المهاجرون ، والانصار معهم والتقى الجمعان ، وعمل السيف في الفريقين . قال عبد الله بن عمر : وبينما انا في الواقعة اذ نظرت من القوم بطريقا عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد ، وهو يركض يمينا وشمالا ، فقلت ان يكن لهذا الجيش عين ، فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع ، وهو مرغوب من الحرب . فلما حملت عليه ومددت قناتي اليه ، نهر فرسه من الرمح فقربت منه واوهمته اني أريد الانهزام ، ثم عطفت عليه وطعنته ، فوالله لقد خيل لي اني ضربت بسيفي حجرا ، وسمعت طنين السيف حتى حسبت ان سيفي انفصل ، واذا هو صريع ثم عطفت عليه واخذت لامتة . فلما رأى المشركون صاحبهم مجندلا داخلهم الفزع والهلع وصددهم المسلمون في الضرب والقتال ، فله در الضحاك والحرث بن هشام ، لقد قاتلا قتالا شديدا ما عليه من مزيد ، فما كان غير قليل حتى انهزم الكفار من بين ايديهم هارين . قال فرجع المسلمون واجتمع بعضهم على بعض وجمعوا الغنائم والاموال . وقال بعضهم لبعض ما فعل الله بعبد الله بن عمر ، قال قائل منهم : الله خير بحسن زهده وعبادته . وقال اخرون : لقد أصبنا بآبن عمر فما كان يساوي هذا الفتحة شعرة من رأسه .

قال عبد الله بن عمر : وانا مع ذلك أسمع كلامهم خلف الراية . فاعلنت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وهززت الراية . فلما نظر المسلمون الراية سارعوا الي وقالوا : أين كنت فقلت اشتغلت بقتال صاحبهم ،

فقالوا أفلح والله وجهك فهذا والله فتح قد رزقنا الله اياه ببركتك . قال عبد الله ، بوجوهكم ، ثم حازوا الاموال والغنائم والخيول وستمائة أسير وقتل من المسلمين سبعة نفر فواروهم وصلى عليهم ابن عمر وانعطف الجيش الى عمرو بن العاص وحدثوه بما جرى ففرح وحمد الله تعالى ، ثم دعا بالاسرى واستنطق منهم بالعربية فما كان فيهم غير ثلاثة نفر من أنباط الشام فسألهم عن خبرهم وخبر اصحابهم فقالوا يا معشر العرب : ان هذا روبيس قد أقبل في مائة الف فارس ، وقد امره الملك ان لا يدع احدا من العرب يصل ايليا . . . وانه بعث بهذا البطريق طليعة ، وقد قتل وكأنكم به . فقال عمرو ان الله يقنله كما قتل صاحبكم ، ثم عرض عليهم الاسلام ، فما أحد منهم أسلم . فقال عمرو للمسلمين كأنكم بصاحبهم ، وقد أتى يأخذ ثأرهم وهؤلاء تركهم علينا بلاء ، ثم أمر بضرب اعناقهم وصاح بالمسلمين استعدوا فاني أظن ان القوم سائرون ، فان أتوا الينا فهم في شدة وقوة وسنلقي منهم تعباً في القتال وان سرنا اليهم نرجو من الله النصر والظفر بهم كما ظفرنا بغيرهم وما عودنا الله الا خيراً . قال ابو الدرداء : بننا مكاننا . فلما جاء الله بالصباح رحلنا فما بعدنا غير قليل حتى اشرقت علينا عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف فارس . فلما أشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيديا ، وأقام على الساقة أبا الدرداء وثبت عمرو في القلب ومعه أهل مكة ، وأمر الناس يقرأون القرآن . وقال لهم اصبروا على قضاء الله وارغبوا في ثواب الله وجنته ، ثم انه جعل يصفهم ويعبئهم تعبئة الحرب ونظر روبيس بطريق الروم الى عسكر المسلمين ، وقد صفهم عمر بن العاص لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب ، وهم كأنهم بنيان مرصوص ، وهم يقرأون القرآن . والنور يلمع من نواصي خيولهم فتسم منهم رائحة النصر وتبين من نفسه الجزع ، وعلم أن كل من معه كذلك فوقف ينظر ما يكون من المسلمين وانكسرت حميته . قال وكان اول من برز من جيش المسلمين سعيدي ابن خالد (رض) ، وهو اخو عمرو بن العاص من امه . فلما برز نادى برفيع صوته ابرزوا يا اهل الشرك ، ثم حمل على الميمنة فالجأها الى المسيرة ، وحمل على الميسرة فالجأها الى الميمنة وقتل رجالا وجندل ابطالا ، ثم اقتحم فيهم فشوشهم وزعزع جيشهم . قال فاجتمعوا عليه فقتلوه رحمة الله عليه . قال فحزن المسلمون على قتله حزنا عظيما واكثرهم عمرو بن العاص . وقال : واسعيدها ، لقد اشترى نفسه من الله عز وجل . ثم قال : يا فتيان من يحمل معي هذه الحملة حتى ننظر ما يكون

من امرها وأنظر حال سعيد . قال فاسرع بالاجابة ذو الكلاع الحميري وعكرمة .
بن أبي جهل والضحاك والحارث بن هشام ، ومعاذ بن جبل وابو الدرداء ، وعبد
الله بن عمر بن الخطاب (رض) عنهم اجمعين . قال عبد الله وكنا سبعين رجلا ،
وحملنا حتى دفنونا من القوم وهم لا يفكرون من حملتنا لانهم جبال من حديد .
(قال الواقدي) رحمة الله عليه : فلما رأى المسلمون ثبات الروم صاح
بعضنا لبعض ابعدوا دوابهم فما هلاكهم غير ذلك قال فبعجنا دوابهم بالاسنة
فتنكسوا فبعد انتكاسهم تفرق بعضهم عن بعض وحملوا علينا وحملنا عليهم .
وكنا فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الاسود وكان شعارنا يوم فلسطين :
لا اله الا الله محمد رسول الله يا رب انصر امة محمد (ص) قال ابو الدرداء :
فلقد شغلني الحرب عن مناشدة الاشعار ، ولقد كان احدا لا يدري أهو يضرب
أخاه أو عدوه من كثرة القتال قال فثبت المسلمون مع قتلهم وفوضوا امرهم الى
الله عز وجل وما كان احد من المسلمين يضرب الا وظهره ناطق بالدعاء يقول :
اللهم انصرنا على من يتخذ معك شريكا . قال عبد الله بن عمر بن الخطاب فلم
يزل الحرب بيننا الى وقت الزوال وهبت الرياح والناس في القتال اذ نظرت
الى السماء وقد انفرج فيها فرج وخرجت منها خيول شهب تحمل رايات خضراء
أسنتها تلمع ومناد ينادي بالنصر ابشروا يا امة محمد (ص) فقد أتاكم الله
بالنصر . قال فلما كان غير قليل اذ نظرت الى الروم منهزمين ، والمسلمون في
أعقابهم لان خيل العرب أسبق من خيل الروم . قال ابن عمر : فقتلنا في
هذه الواقعة قريبا من خمسة عشر الف فارس واكثر ولم نزل في آثارهم الى
الليل وعمرو بن العاص قد فرح بالنصر وقلبه متعلق بالمسلمين لاسراعهم .
وراء العدو ، وقال عمرو بن غياث : فنظرت الى عمرو بن العاص والراية في
يده ، وقد أوفى القناة على عاتقه وهو يعركها بيده ويقول من يرد الناس
على رد الله عليه ضالته اذ نظرت العرب قد عطفت راجعة كعطفة الام على
ولدها فاستقبلهم عمرو ، وهو يقول هنيئا لهذه الوجوه التي تعبت في رضا
الله تعالى أما كان لكم كفاية في ان خولكم الله حتى اتبعتم العدو ، فقالوا :
ما اردنا الغنيمة ، بل القتال والجهاد ، قال ولما رجع المسلمون لم يكن لهم
همة الا افتقاد بعضهم بعضا ففقد من المسلمون مائة وثلاثون رجلا ختم الله لهم
بالسعادة منهم سيف بن عبادة ونوفل بن دارم والاهب بن شداد والباقي
من اليمن ووادي المدينة . قال فاغتم عمرو لفقدهم ، ثم راجع نفسه وقال قد
نزل بهم خير ، وانت يا عمرو تأبى ذلك ثم ندب الناس الى الصلاة كما أمره
ابو بكر الصديق (رض) فصلى ما فاتته كل صلاة بأذان واقامة ، قال ابن

عمر : ما صلى خلفه الا قليل ، بل صلى الناس في رجالهم من تبعهم ولسم يجمعوا من الغنائم الا القليل وبات الناس ، فلما أصبح عمرو أذن وصلى بهم وأمر الناس بجمع الغنائم وأن يخرجوا أخوانهم المؤمنين من الروم فجعلوا يلتقطونهم : قال فخرجوا مائة وثلاثين رجلا ووجدوا سعيد بن خالد ، فلما نظر عمرو الى ما نزل به بكى ، وقال رحمك الله فقد نصحت لدين الله وأديت النصيحة ثم جعله في جملة المسلمين وصلى عليهم وأمر بدفنهم ، وذلك قبل أن يخمس شيئا من الغنائم ثم بعد ذلك جمعها اليه وكتب الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه :

كتاب عمرو بن العاص الى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص الى أمين الامة ، أما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) واني قد وصلت الى ارض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة الف فارس فمن الله بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر الف فارس وفتح الله على يدي فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلا فان احتجت الي سرت اليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . ودفع الكتاب الى أبي عامر الدوسي وأمره أن يسير الى أبي عبيدة . قال فأسرع ابو عامر بالكتاب فوجد أبا عبيدة وهو نازل بأرض الشام وجاهر بالدخول اليها غير انه امره كما امره ابو بكر . قال فلما وصل ابو عامر قال له ابو عبيدة ما وراءك ؟ قال خير هذا كتاب من عمرو بن العاص يخبرك بما فتح الله على يديه ، ثم سلم اليه الكتاب ، فلما قرأه خر ساجدا فرحا بنصر الله ثم قال والله قتل من المسلمين رجال اخيار منهم سعيد بن خالد . قال ابو عامر فكان خالد والده جالسا ، فلما سمع بأن ولده قد قتل قال : « وا ابناه » وجعل يبكيه حتى بكى المسلمون لبكائه ، ثم ان خالد اسرع الى فرسه فركبها وعزم الى ارض فلسطين لينظر الى قبر ولده . فقال ابو عبيدة كيف تسير وتدعنا . فقال انما انظر قبر ولدي وارجو الله ان يلحقني به ، قال وكتب ابو عبيدة كتابا لعمرو بن العاص يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم انما أنت مأثور فان كان ابو بكر امرك أن تكون معنا فسر الينا ، وان كان امرك بالثبات في موضعك فاثبت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وطوى الكتاب وسلمه الى خالد بن سعيد وسار مع أبي عامر الى ان اتيا الى جيش عمرو بن العاص فدفع له الكتاب وهو يبكي فوثب عمرو وصافح خالد ورفع منزلته وعزاه في ولده سعيد وعزاه

المسلمون . فقال خالد : يا أيها الناس هل أروى سعيد رمحه وسيفه في الكفار قالوا نعم . فلقد قاتل وما قصر ، ولقد جاهد في الدين ونصر . فقال ارونسي قبره ، قال فأروه اياه فأقام على القبر وقال : يا ولدي رزقني الله الصبر عليك والحقني بك وانا لله وانا اليه راجعون ، والله ان مكنني الله لأخذن بشأرك يا ولدي عند الله احتسبتك ، ثم قال لعمر بن العاص اني اريد أن أسري بسرية في طلب القوم فلعل أن أجده فيهم فرصة أو غنيمة واكون قد أخذت بشأرك ولدي ، فقال عمرو : ان الحرب امامك يا ابن الام . فاذا رأيت السروم فلا تبق عليهم . فقال خالد : والله لأسيرن اليهم ، ثم أخذ اهبطه للمسير وعزم ان يسير وحده فركب معه ثلثمائة فارس من فتيان حمير فساروا يومهم ذلك اجمع وارادوا النزول في الأودية ليعلفوا دوابهم ويسيروا ليلتهم اذ نظر خالد بن سعيد الى أشباح على ذروة جبل هناك عال منيع . فقال لاصحابه اني أرى أشباحا على ذروة هذا الجبل ونحن في هذا الوادي ، ثم قال كونوا في اماكنكم ثم نزل عن فرسه وتقلد سيفه والتحف بازاره وقال اعلموا ان القوم ما علموا بنا ولو نظروا الينا ما ثبتوا في اماكنهم فمن منكم يبذل نفسه ويصنع كما أصنع ؟ قالوا كلنا لك قال فطافوا في الجبل حتى أشرفوا على القوم وهم في اماكنهم فعند ذلك قال خذوهم بارك الله فيكم فأسرع اليهم المسلمون فقتلوا منهم ثلاثين واسروا اربعة فسألهم خالد بن سعيد فاذا هم من انباط الشام عن حالهم فقالوا نحن من أهل هذا البقيع والجامعة وكفار القرية وقد عظم علينا دخول العرب الى بلادنا وقد فرعنا منهم فرعا عظيما ، وقد هرب اكثرنا الى الحصون والقلاع ، وقد اعتصمنا نحن بهذا الجبل ، لانه ليس في الرستاق أحصن منه فعلونا عليه وانتم كبستمونا . قال خالد فما بلغكم عن جيش الروم ؟ قالوا بأجنادين وهذا البطريق أقبل الينا ليأخذ الميرة والعلوفة ، وقد جمعوا له الدواب والبغال والحمير تحمل الميرة وهم مع ذلك خائفون ان تلحقهم خيل العرب ، وهذا خبر قومنا ولا شك انهم رحلوا من يومهم ، قال فلما سمع خالد بن سعيد مقاتلتهم ، قال غنيمة للمسلمين ورب الكعبة ، ثم قال : اللهم انصرنا عليهم ثم سأل على أي طريق سار القوم قالوا على هذه الطريق التي انتم عليها لانها اوسع الطرق كلها ، واما الميرة فانها مجموعة من حول البلاد ، فلما سمع خالد كلامهم قال لهم .

أسلموا فقالوا له ما نعرف الا دين الصليب ، ونحن فلاحين قال فهم خالد بقتلهم . فقال رجل من اصحابه دعهم يدلونا على الطريق الى مسيرة القوم فأجابوهم الى ذلك وساروا وهم يدلونهم الى تل عظيم . قال فتوافسق

القوم وهم يحملون دوابهم حول التل ومعهم ستمائة لابس من القوم ، فلما نظر خالد الى ذلك • قال لاصحابه اعلموا ان الله قد وعدكم بالنصر على عدوكم وفرض عليكم الجهاد وهذا جيش العدو امامكم فارغبوا في ثواب الله تعالى واسمعوا ما قال الله عز وجل : ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وكأنهم بنيان مرصوص ، وها انا احمل فاحملوا ولا يخرج أحد عن صاحبه ثم ان خالدا حمل وحمل اصحابه قال فلما رأونا استقبلونا وانهزم من كان مع الدواب من الفلاحين وصبرت الخيل لقتالنا ساعة من النهار قال فبينما ذو الكلاع الحميري يشجع اصحابه ويقول يا اهل حمير ابواب الجنة فتحت والحرور العين قد تزخرفت واذا بصاحب القوم قد لقيه خالد فعرفه بلامته وحسن زيه • قال فاستقبله وصرخ فيه فأرعبه ثم قال يا لثأر ولدي سعيد وطعنه طعنة صادقة فجندله صريعا كانه برج من حديد وما بقى أحد الا قتل من الروم • قال فلما رأى الروم ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وقتل منهم ثلثمائة وعشرون فارسا وولى الباقيون منهزمين وتركوا الاثقال والبغال والميرة واخذ المسلمون الجميع بعون الله تعالى • قال واطلق سراح الفلاحين وعاد خالد ومن معه بالغنائم والميرة الى عمرو بن العاص ففرح بسلامتهم وشكر فعلهم وكتب كتابا الى ابي بكر الصديق ، وذكر له ما جرى مع الروم وبعث الكتاب مع ابي عامر الدوسي (رض) واخذه وقدم به المدينة وأعطاه أبا بكر الصديق (رض) • فلما قرأه على المسلمين فرحوا وضجوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، ثم ان ابا بكر استخبر عن أبي عبيدة • فقال له عامر انه قد اشرف على اوائل الشام ولم يجسر على الدخول اليها وانه سمع ان جيوش الملك قد اجتمعت من حول اجنادين وهم أمم لا تحصي وقد خاف على المسلمين أن يتوسط بهم عدوهم •

خالد بن الوليد في الشام

فلما سمع ابو بكر ذلك علم ان أبا عبيدة لين العريكة ولا يصلح لقتال الروم وعول أن يكتب الى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين وقاتل الروم واستشار المسلمين في ذلك فقالوا الرأي ما تراه ، وكتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عتيق بن أبي قحافة الى خالد بن الوليد سلام عليك : اما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) واني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وان تسارع الى سرضاة الله عز وجل وقاتل اعداء الله ، وكن ممن يجاهد في

الله حق جهاده ثم كتب - يا ايها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم - الآية وقد جعلتك الامير على ابي عبيدة ومن معه وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكناني فركب على مطيته وتوجه الى العزاق فرأى خالدا (رض) قد اشرف على فتح القادسية فدفع اليه الكتاب فلما قرأه قال : السمع والطاعة لله ولخليفة رسول الله (ص) ثم ارتحل ليلا واخذ طريقه عن اليمين وكتب كتابا الى ابي عبيدة يخبره بعزله وبسيره الى الشام ، وقد ولاني ابو بكر على جيوش المسلمين فلا تبرح من مكانك حتى اقدم عليك والسلام وبعث الكتاب مع عامر بن الطفيل (رض) ، وكان أحد أبطال المسلمين فأخذه وتوجهه يطلب الشام .

وأما خالد فلما وصل الى ارض السماوة قال : ايها الناس ان هذه الارض لا تدخلونها الا بالماء الكثير لانها قليلة الماء ونحن في جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الامر ؟ فقال له رافع بن عميرة الطائي (رض) ايها الامير اني أشير عليك بما تصنع ، فقال يا رافع أرشدك الله بما نصنع ووفقك الله مولانا جل وعلا للخير ، قال فأخذ رافع ثلاثين جملا وعطشها سبعة ايام ثم اوردها الماء فلما رويت خرم أفواهاها ، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا منزلا أخذوا عشرة من الابل يشقون بطونها ويأخذون ما يجدون من الماء في بطونها فيجعلونه في حياض الادم ، فاذا برد سقوه للخيول واكلوا اللحم ولم يزالوا كذلك حتى تمت الابل وفرغ الماء وقطعوا مرحلتين بلا ماء واشرف خالد ومن معه على الهلاك . فقال خالد لرافع ابن عميرة يا رافع قد اشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء نزل فيه .

(قال الواقدي) وكان رافع رمدت عيناه . فقال ايها الامير أتاني رمد كما ترى ، ولكن اذا اشرفتم على ارض سهلة فاعلموني . قال فلما اشرفوا عليها اعلموا رافعا بذلك . قال فرفع طرف عمامته عن عينيه ، وسار على راحلته يضرب يميننا وشمالا والناس من ورائه الى ان أقبل على شجرة من الاراك فكبر وكبر المسلمون ، ثم قال احفروا هنا . قال فحفرت العرب واذا الماء قد طلع كالبحر ، فنزل الناس عليه وشكروا الله تعالى واثنوا عليه وعلى رافع خيرا ، ثم وردوا الماء وسقوا خيلهم وابلهم ، ثم جدوا في طلب من انقطع من المسلمين ومعهم القرب بالماء . قال فسقوهم فارتجعت قوتهم . ثم لحقوا بالجيش وأراحوا انفسهم ، ثم في ثاني يوم جدوا في المسير الى ان بقي بينهم وبين أركة مرحلة واحدة ، فبينما هم كذلك اذ اشرفوا على حلة عامرة واغنام وابل قد سدت الفضاء

والمستوى ، فأسرع المسلمون الى الحلة واذا برأع يشرب الخمر والى جانبه رجل من العرب مشدود . قال فتبينه المسلمون واذا هو عامر بن الطفيل السدي أرسله خالد . قال فأقبل خالد ابن الوليد مسرعا حتى وقف عليه ، فلما رآه تبسم وقال : يا ابن الطفيل كيف كان سبب اسرك ؟ قال عامر ايها الامير اني اشرفت على هؤلاء القوم في هذه الحلة وقد اصابني الحر والعطش فملت الى هذا الراعي ليسقيني من اللبن فوجدته يشرب خمرا . فقلت له يا عدو الله أتشرب الخمر وهي محرمة . فقال لي يا مولاي انها ليست بخمر وانما هي ماء زلال ، فانزل كي تراه واستنشق ما في الجفنة فان كان خمرا فافعل ما بدا لك ، فلما سمعت كلامه انخت المطية ونزلت عن كورها وجلست على ركبتني في الجفنة واذا نا بالعبد قد طلبذ، بعصا كانت الى جانبه وضربني على رأسي فشجنني شجة موضحة ، فانقلبت على جانبي فأسرع العبد الي وشدني كتفا واوثقني رباطا وقال لي اظنك من اصحاب محمد بن عبد الله ولست ادعك من بين يدي او يقدم سيدي من عند الملك . فقلت له ومن سيدك من العرب ؟ فقال القداح بن وائلة واني عند هذا العبد كلما شرب الخمر حضرنى كما ترى والقي علي فضلة من كأسه . قال فلما سمع خالد بن الوليد كلام عامر بن الطفيل اشتد به الغضب ومال على العبد وضربه ضربة هائلة فجندله صريعا ونهب المسلمون المال والاغنام والابل وقلعوا الحلة بما فيها واطلق عامرا وقال له أين رسالتني يا عامر ؟ فقال يا مولاي هي في طرف عمايتي لم يعلم بها العبد . فقال خالد انطلق بها يا عامر على بركة الله تعالى . قال فركب عامر وسار يطلب الشام وارتحل خالد من موضعه ذلك فنزل بأركة وهي رأس الامانة لمن يخرج من العراق ، وكانت الروم تمسك بها القوافل وكان عليها بطريق من قبل الملك فأغار خالد عليها وأخذ ما كان فيها وتحصن أهلها بحصنها وكان يسكن فيها حكيم من حكماء الروم وقد طالع الكتب القديمة والملاحم ، فلما رأى المسلمين وجيشهم انتقع لونه وقال اقترب الوقت وحق ديني . فقال أهل بركة وكيف ذلك ؟ قال ان عندي ملحمة فيها ذكر هؤلاء القوم ، وان أول راية تشرف من خيلهم هي الراية المنصورة وقد دنا هلاك الروم ، فانظروا ان كانت رايتهم سوداء واميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل في وجهه اثر جديري فهو صاحب جيشهم في الشام وعلى يديه يكون الفتح .

قال فنظر القوم واذا الراية على رأس خالد وهي كما قال حكيمهم . قال

واجتمعوا على بطريقهم وقالوا له أنت تعلم ان الحكيم سمعان لا ينطق الا بالحق والحكمة وقد قال كذا وكذا . والذي وصفه لنا رأيناه عيانا ونرى من الرأي ان نعقد بيننا وبين العرب صلحا ونأمن على حريمنا وانفسنا . فلما سمع ذلك بطريقهم قال اخروني الى غد لارى من الرأي . قال فانصرفوا من عنده وبات البطريق يحدث نفسه ويدبر امره وكان عارفا عاقلا خبيرا بالامور ، وقال ان انا خالفتهم خفت أن يسلموني للعرب ، وقد تحقق أن روبيس سار بجيش عظيم فهزمهم العرب ولم يزل يراود نفسه الى أن أصبح الصباح فدعا قومه . وقال على ماذا عولتم ؟ قالوا عولنا على اننا نقيم الصلح بيننا وبين العرب . فقال البطريق : انا واحد منكم مهما فعلتم لا اخالفكم . قال فخرج مشايخ أركة الى خالد وكلموه في الصلح ، فأجابهم الى الصلح والان الكلام لهم وتلقاهم بالرحب والسعة ليسمع بذلك اهل السخنة ويبلغ الخبر لاهل قدمة ، وكان الوالي عليهم بطريق اسمه كوكب ، فجمع رعيته وقال لهم بلغني عن هؤلاء العرب انهم فتحوا أركة والسخنة وان قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم وانهم لا يطلبون الفساد وهذا حصن مانع لا سبيل لاحد علينا ، ولكن نخاف على نخلنا وزرعنا ، وما يضرنا ان نصالح العرب ، فان قومنا هم الغالبين فسرخنا صلحهم ، وان كان العرب ظافرين كنا آمنين . قال ففرح قومه بذلك وتهيئوا العلوقة والضيافة حتى خرج خالد (رض) من اركة ونزل عليهم فخرجوا اليه بالخدمة وصالحهم على ثلثمائة أوقية من الذهب وكتب لهم كتابا بالصلح ، ثم ارتحل عنها الى حوران وبلغ عامر بن الطفيل كتاب خالد الى عبدة ، فلما قرأه تبسم وقال : السمع والطاعة لله تعالى ولخليفة رسول الله (ص) ، ثم اعلم المسلمين بعزله وولاية خالد بن الوليد ، وكان ابو عبدة وجه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) الى بصرى في أربعة آلاف فارس . قال فسار على فنائها ، وكان على بصرى بطريق عظيم الشأن وألقدّر عند الملك وعند الروم اسمه روماس ، وكان قرأ الكتب السالفة والاخبار الماضية ، وكان يجتمع اليه الروم من اقصى بلادها ينظرون الى عظيم خلقته ويسمعون الفاظ حكمته) ، وكانت آهلة بالخلق عامرة بالناس ، وكان فيها ألف فارس ، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من اقصى اليمن وبلاد الحجاز ، فاذا كان في ايام الموسم ينصب لبطريقهم كرسي ليجلس عليه ويجتمع الناس اليه ، ويستفيدون من علمه وحكمته ، فبينما هم قد اجتمعوا اليه وقعت الضجة بقدوم شرحبيل بن حسنة وعسكره فبادر الى جواده

فركبه وصاح في قومه فأجابوه وقال لا تتحدثوا حتى نسمع كلام القوم وما عندهم ، ثم سار حتى قرب من شرحبيل بن حسنة وجيشه ، ونادى يا معشر المسلمين انا روماس واني اريد صاحبكم . قال فخرج اليه شرحبيل ، فلما قرب منه قال البطريق من انتم ؟ قال شرحبيل من أصحاب محمد (ص) النبي الامي القرشي الهاشمي المنعوت في التوراة والانجيل فقال روماس : ما فعل الله به ؟

فقال شرحبيل قبضه الله اليه ؟ فقال البطريق فمن ولي الامر بعده قال عتيق بن ابي قحافة بن بكر بن تيم بن مرة . فقال روماس : وحق ديني لقد أعلم بأنكم على الحق ولا بد لكم ان تملكوا الشام والعراق وانا اشفق عليكم اذا بتم في جمع يسير ونحن في جمع كثير ، ولكن ارجعوا الى بلادكم فانا لا نتعرض لكم . واعلم يا أخا العرب ان ابا بكر هو صاحبي ورفيقي ولو كان حاضرا ما قاتلني . فقال شرحبيل : لو كن ودا له او ابن عمه لما عفا عنه الا ان يكون من اهل ملته ، وليس له في الامر شيء لانه مكلف ، وقد امره الله ان يجاهدكم ولسنا نبرح عنكم الا باحدى ثلاث : اما ان تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية ، أو السيف . فقال روماس : وحق ما اعتقده من ديني : لو كان الامر الي ما أقاتلكم لاني أعلم انكم على حق ، وهؤلاء طواغية الروم وقوم مجتمعون ، واني أريد ان ارجع اليهم وانظر ما عندهم . فقال شرحبيل : ارجع اليهم فلا بد لكم بما ذكرت . قال فعاد روماس الى قومه وجمعهم ، وقال يا اهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية : ان الذي كنتم تعتقدونه في كتبكم من الخروج من بلادكم ودياركم ونهب اموالكم قد قرب ، وهذا وقته وزمانه ولستم اعظم جيشا من روبيس سار الى شرذمة من العرب بأرض فلسطين . فقتل وقتل من معه وانهزم الباقون ، ولقد بلغني ان رجلا منهم قد خرج من ارض السماوة صوب العراق اسمه خالد بن الوليد وقد فتح أركة والسخنة وتدمر وحوران ، وهو عن قريب يحضر اليكم ، والصواب أن تؤدوا الجزية عن يد الى هؤلاء العرب وينصرفون عنكم . قال : فلما سمع قومه ذلك غضبوا وشوشوا وهموا بقتله . فقال روماس : يا قوم انما اردت ان اختبركم ، وأرى حمية دينكم والان دونكم والقوم وانا في اولكم . قال فرجعت الروم الى عددها وعديدها وتظاهروا بالدروع البيض وقادوا الجنائب وتهيئوا للحملة . فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك وعظ اصحابه . وقال اعلموا رحمكم الله ان رسول الله (ص) قال : الجنة تحت ظلال السيوف وأحب ما قرب الى الله

قطرة دم في سبيل الله او دمعة جرت في جوف الليل من خشية الله . قال الله تعالى - يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون - ثم حمل وحمل المسلمون على جيش بصرى . قال عبد الله بن عدي : واجتمع علينا العدو وطمعوا فينا ، وحملوا علينا في اثني عشر الف فارس من الروم ، ونحن فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الاسود وصبرنا لهم صبر الكرام ، ولم يزل القتال بيننا وبينهم الى ان توسطت الشمس في قبة الفلك ، وقد طمع العدو فينا ، فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده الى السماء وهو يقول : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام ، اللهم انصرنا على القوم الكافرين . قال فوالله ما استم شرحبيل كلامه ودعائه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم ، وذلك ان القوم داروا بنا فرأينا غيرة قد اشرفت علينا من صوب حوران . فلما قربت لنا رأينا تحتها سوابق الخيل ، فلاح لنا الاعلام الاسلامية والرايات المحمدية ، وقد سبق اليها فارسان : احدهما ينادي ويزعق : يا شرحبيل يا ابن حسنة ابشر النصر لدين الله ، انا الفارس الصنديد والبطل المجيد ، انا خالد ابن الوليد ، والاخر يزعق ويقول : انا عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، واشرفت العساكر من كل جانب . قال واشرفت راية العقاب يحملها رافع بن عميرة الطائي . قال : حدثنا سالم بن عدي عن ورقاء بن حسان العامري عن مسيرة بن مسروق العبسي . قال :

« والله لقد خمدت اصوات الروم عند زعقة خالد (رض) ، واقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض ، واقبل شرحبيل بن حسنة الى خالد بن الوليد ، وسلم عليه . فقال خالد يا شرحبيل : أما علمت ان هذه مينا الشام والعراق ، وفيها عساكر الروم وبطارقتهم . فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين ؟ . قال كله بأمر أبي عبيدة . فقال خالد : أما أبو عبيدة فانه رجل خالص النية ، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمواقعها ، ثم أمر الناس بالراحة فنزلوا وارتاحوا من اتعابهم . فلما كان في اليوم الثاني : زحفت جيوش بصرى على المسلمين فقال خالد ان الروم زحفوا لعلمهم بتعبنا وتعب خيولنا فاركبوا بارك الله فيكم ، واحملوا على بركة الله تعالى . قال فركب المسلمون ، واخذوا اهبتهم للحرب فجعل من الميمنة رافع بن عميرة الطائي ، وجعل في الميسرة ضرار بن الازور . وكان غلاما فاتكا في الحرب ، وجعل على الدرك عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، ثم قسم جيش الزحف فجعل على

شطره المسيب بن نجيبه الفزاري ، وعلى الشطر الاخر مذعور بن غانم الاشعري، وأمرهم ان يزفوا الخيل اذا حملت . قال وبقي خالد في الوسط وهو يعظ الناس ويوصيهم ، وقد عزموا على الحملة ، واذا بصفوف الروم قد انشقت وخرج من وسطها فارس عظيم الخلقة كثير الزينة يلمع ما عليه من الذهب الاحمر والياقوت . فلما توسط الجمعين نادى بلسان عربي كأنه بدوي يا معشر العرب لا يبرز لي الا اميركم ، فأنا صاحب بصرى . قال فخرج اليه خالد (رض) كالاسد الضرغام وقرب منه . فقال له البطريق انت امير القوم ؟ قال كذلك يزعمون اني اميرهم ما دمت على طاعة الله ورسوله ، فان عصيته فلا امارة لي عليهم . قال البطريق اني رجل عاقل من عقلاء الروم وملوكهم وان الحق لا يخفى عن ذي بصيرة ، واعلم اني قرأت الكتب السابقة ، والاخبار الماضية ، فوجدت ان الله تعالى يبعث قرشيا واسمه محمد بن عبد الله . قال خالد والله نبينا . قال : انزل عليه الكتاب ؟ قال نعم القرآن . قال روماس البطريق أحرم عليكم فيه الخمر . قال خالد نعم من شربها حددناه ، ومن زنى جلدناه ، وان كان محصنا رجمناه . قال أفرضت عليكم الصلوات ؟ قال نعم خمس صلوات في اليوم والليلة . قال أفرض عليكم الجهاد قال خالد : ولولا ذلك ما جئناكم نبغي قتالكم . قال روماس والله اني لاعلم انكم على الحق واني احبكم وحذرت قومي منكم واني خائف منكم ، فأبوا . فقال خالد : فقل اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله يكون لك ما لنا وعليك ما علينا . فقال اني أسلمت واخاف ان يعجل هؤلاء بقتلي وسلبى حريمي ، ولكن أنا اسير الى قومي وارغبهم فلعل الله ان يهديهم . فقال خالد : وان رجعت الى قومك بغير قتال يكون بيني وبينك خفت عليك ، ولكن احمل علي حتى لا يتهموك وبعد ذلك اطلب قومك فحمل بعضهم على بعض ، وأرى خالد الفريقين ابوابا من الجرب حتى أبهر روماس . فقال لخالد شدد علي الحملة حتى يرى الديرجان فاني خائف عليك من بطريق بعث به الملك يقال له الديرجان . فقال خالد ينصرنا الله عليه ، ثم شدد على روماس الحملة حتى انه انهزم من بين يديه الى قومه : فلما وصل الى قومه قالوا : ما الذي رأيت من العرب ؟ قال ان العرب اجلاد ما لكم بقتالهم طاقة ولا بد لهم ان يملكوا الشام ، وما تحت سريري هذا فادخلوا تحت طاعتهم وكونوا مثل اركة والسخنة قال . فلما سمعوا كلامه زجروه وأرادوا قتله ، وقالوا له ادخل المدينة والزم قصرك ودعنا لقتال العرب ، فانصرف روماس ، وقال : لعل الله ينصر خالدا . ثم ان اهل بصرى

ولوا عليهم الديرجان ، وقالوا اذا فرغنا من المسلمين سرنا معك الى الملك ،
ونسأله ان ينزع روماس ويوليكم علينا . قال الديرجان : وما الذي تريدون ؟
قالوا نحمل ونطلب قتال العرب . قال فخرج الديرجان وطلب خالدا .
فقال عبد الرحمن لخالد يا أمير أنا اخرج اليه . فقال دونك يا ابن
الصديق ، فخرج عبد الرحمن وحمل على الديرجان ، فما لبثوا غير ساعة ،
وقد أحس الديرجان من نفسه بالتقصير فولى منهزما وراح الى قومه . فلما
رأوا ذلك منه نزل الرعب في قلوبهم وعلم خالد ما عند القوم من الفزع فحمل
وحمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وحمل المسلمون . فلما نظر اهل
بصرى الى حملة المسلمين حملوا وتلاقى الفريقان ، وضجت الرهبان بكلمة
كفرهم . فقال شرحبيل بن حسنة : اللهم ان هؤلاء اليك بلا اله الا انت ، وان
محمدا عبدك ورسولك ، الا ما نصرت هذا الدين على اعدائك المشركين ، ثم
حملوا حملة واحدة ، فلم يكن للروم ثبات مع العرب ، فولى المشركون الادبار ،
وركنوا الى الفرار . فلما حطوا داخل المدينة اغلقوا الابواب وتحصنوا
بالاسوار ، ورفعوا الصليبان ، وعولوا ان يكتبوا للملك ليمنهم بالخيل
والرجال . قال عبد الله بن رافع : فلما تحصنوا رجعنا عنهم وافتقدنا اصحابنا
فوجدنا قد قتل منا مائة وثلاثون فارسا ، وقتل من الاعيان بدریان . قال
وغنم المسلمون الاموال ، وصلى خالد على الشهداء ، وأمر بدفنهم . فلما كان
الليل تولى الحرس عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ومعمار بن راشد ومائة من
جيش الزحف . فبينما هم يدورون حول العسكر ، واذا بروماس صاحب
بصرى قد اقبل عليهم . وقال لهم ، أين خالد بن الوليد فاخبروه واتوا به
الى خالد . فلما رآه رحب به . فقال ايها الامير بعد ان فارقتك طردني قومي ،
واقبلوا : الزم قصرنا والا قتلناك فلزمت قصري ، وهو ملاصق للسور ولما وقع
لهم ما وقع وانهزموا تحصنوا . فلما جن الليل أمرت غلمانني بحفر السور
وفتحوا فيه بابا فأتيتهك فارسل معي من تعتمدعليه من اصحابك تستلمون
المدينة . فلما سمع خالد هذا الكلام أمر عبد الرحمن بن ابي بكر ان يأخذ
مائة من المسلمين ويسيروا مع روماس . قال ضرور بن الازور وكنت ممن دخل
المدينة . فلما صرنا في قصر روماس فتح لنا خزانة السلاح ، فلبسنا من
سلاحهم وقسمنا اربعة اقسام ، كل جانب خمسة وعشرون رجلا . وال لنا
عبد الرحمن اذا سمعتم التكبير فكبروا . فلما سرنا حيث امرنا اخذنا انفسنا
بالحملة على القوم .

(قال الواقدي) بلغني ممن اثق به من الرواة ان عبد الرحمن لما فارق

اصحابه لبس سلاحه هو وروماس يطلبون الدرج الذي عليه الديرجان ، وسار معهم ضرار رافع وشرحبيل بن حسنة . فقال لا اهلا ولا مرحبا بك ، ومن الذي معك . قال معي صديق لك ومشتاق الى رؤياك قال : ويحك ، ومن هو يا روماس ؟ قال هذا بن ابي بكر الصديق . فلما سمع الديرجان ذلك هم ان يقتله فلم تطاوعه نفسه فحمل عليه عبد الرحمن ، وهز سيفه في وجهه وضربه على عاتقه فتجندل صريعا يخور في دمه ، وعجل الله بروحه الى النار . قال وكبر عبد الرحمن فأجابه روماس وسمع اصحابه التكبير فكبروا من جوانب بصرى . قال واجابتهم الاحجار والاشجار . قال وكبر المسلمون من جوانب بصرى ووضعوا السيف في الروم ، وسمع خالد التكبير فصرخوا ، واذا بغلمان روماس واولاده قد فتحو لهم الابواب فعبر خالد ومن معه من المسلمين . فلما نظر أهل بصرى الى الابواب ، وقد فتحت بالسيف قهرا ضجوا بأجمعهم يقولون : الامان الامان . فقال خالد بن الوليد (رض) : ارفعوا السيف عنهم ، واقام خالد الى الصباح واجتمع اليه اهله . وقالوا يا أيها الامير لو صالحناك ما جرى شيء من ذلك ، ولكن نسألك بالذي ايدك ونصرك ما الذي فتح لك أبواب مدينتنا ؟ فاستحى خالد (رض) ان يقول ، فوثب روماس ، وقال انا فعلت ذلك يا اعداء الله واعداء رسوله ، وما فعلته الا ابتغاء مرضاة الله وجهادا فيكم . فقالوا أولست منا ؟ فقال اللهم لا تجعلني منهم ، رضيت بالله ربا وبالإسلام ديننا وبالكعبة قبلة وبالقرآن اماما ، وانا اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله . قال ففرح خالد بذلك . وأما أهل بصرى فغضبوا وأضمرُوا له شرا ، وعلم بذلك روماس . فقال لخالد انا لا اريد المقام عندهم ، واني أسير معك حيث سرت . فاذا فتح الله على يديك الشام وصار لكم الامر ردوني اليها لان الوطن عزيز .

(قال الواقدي) حدثني معمر بن سالم عن جده . قال كان روماس يجاهد معنا جهادا حسنا حتى فتح الله على ايدينا الشام ، فكان ابو عبيدة ي كاتب به عمر بن الخطاب (رض) في ايامه فولاه على بصرى فلم يلبث الا يسيرا حتى توفي رحمه الله ، وخلف عقبا يذكر به ، قال وأمر خالد رجلا يعينونه على اخراج رحله وماله من المدينة ففعلوا ذلك ، واذا بزوجه تخاصمه وتطلب فراقه . فقال لها المسلمون : ما الذي تريدین ؟ قالت أريد امير جيشكم يحكم بيننا فجاءوا بها الى خالد ، فقالت له : أنا استغيث بك من روماس ؟ فقال لها خالد وكيف ذلك ؟ فقالت اني كنت البارحة نائمة اذ رأيت شخصا ما رأيت منه وجها كأن البدر يطلع من بين عينيه ، وكأنه يقول : ان

المدينة فتحت على يد هؤلاء القوم والشام والعراق . فقلت له ومن انت يا سيدي ؟ . قال : محمد رسول الله ، ثم دعاني الى الاسلام فاسلمت ، ثم علمني سورنين من القرآن . قال فحدث الترجمان خالد بما كان منها . فقال ان هذا لعجيب ، ثم قال خالد للترجمان : قل لها ان تقرأ السورتين فقرأت الفاتحة ، وقل هو الله احد ، ثم جددت اسلامها على يد خالد بن الوليد ، وقالت يا أيها الامير اما أن يسلم روماس والا يتركني أعيش بين المسلمين . قال فضحك خالد من قولها ، وقال : سبحان الله الذي وفقنا جميعا . ثم قال للترجمان قل لها ان روماس اسلم قبلها ففرحت بذلك . ثم ان خالد احضر اهل بصرى وقررهم على اداء الجزية وولى عليهم من اتفق رأيه عليه : ثم كتب الى ابي عبيدة كتابا يبشره بالفتح ، ويقول له : يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا الى دمشق فالحقنا ا ليها . ثم كتب كتابا اخر الى ابي بكر الصديق يخبره برحيله ، ويقول له : يوم كتبت اليك هذا الكتاب ارتحلت الى دمشق فادع لنا بالنصر والسلام عليك ومن معك ورحمة الله وبركاته . ثم بعث الكتائبين كلاهما ، ثم ارتحل خالد الى نحو دمشق حتى اشرف على موضع يقال له الثنية فوقف هناك وركز راية العقاب فسميت بذلك ثنية العقاب . ثم ارتحل منها الى الدير المعروف الان بدير خالد ، وكان اهل السواد قد التجثوا الى دمشق ، وقد اجتمعت خلائق وامم لا تحصى من الرجال . واما اصحاب الخيل فكانوا اثني عشر الفا ، وقد زينوا اسوارهم بالطوارق والبيارق والصلبان ، واقام خالد على الدير ينتظر قدوم المسلمين .

(قال الواقدي) : ووصلت الاخبار الى الملك هرقل وما فتح خالد من الشام ، وكيف قدم على دمشق فغضب وجمع البطارقة وقال : يا بني الاصفر ، لقد قلت لكم وحذرتكم فأبيتهم وهؤلاء العرب قد فتحوا اركسة وتدمر والسخنة وبصرى ، وقد توجهوا الى الربوة ففتحوها فواكرباه لان دمشق جنة الشام وقد سارت اليها الجيوش وهم اضعاف العرب ، ثم قال أيكم يتوجه الى قتال العرب ويكفيني أمرهم ، فان هزمهم اعطيته ما فتحوه ملكا . فقال بطريق من البطارقة اسمه كلوس بن حنا ، و كان من فرسانهم ، وقد عرفت شجاعته في عساكر الروم والفرس أيها الملك أنا اكفيك وأردهم على اعقابهم منهزمين . قال فلما سمع الملك قوله سلم اليه صليبا من الذهب وقدمه على خمسة الاف فارس ، وقال له قدم صليبك أمامك فانه ينصرك . قال فأخذه كلوس وسار من يومه من انطاكية الى أن وصل حمص فوجدها مزينة بالسلاح ، فلما بلغ أهلها قدومه خرجوا الى لقائه ، وقد خرجت القسس والرهبان واستقبلوه ودعوا له

بالنصر وأقام بحمص يوما وليلة ، ثم ارتحل الى مدينة بعلبك فخرج اليه النساء لاطمات الخدود وقلن : أيها السيد ان العرب فتحوا اركة وهوران وبصرى ، فقال لهن : كيف قدرت العرب على حوران وبصرى ؟ . فقلن : أيها السيد ان الذين ذكرتهم لم يبرحوا من أماكنهم ، وان هذا الرجل قد أقبل من العراق ، وهو الذي فتح أركة . فقال وما اسمه ؟ قلن خالد بن الوليد . قال في كم يكون من العساكر ؟ قلن في ألف وخمسمائة فارس . فقال وحق المسيح لاجعلن رأسه على رأس سناني . ثم رحل فلم ينزل الا بدمشق ، وكان واليها بطريقا من قبل الملك هرقل اسمه عزازير ، فلما قدم كلوس اجتمع عليه عزازير وأصحابه وقرأوا عليهم منشور الملك ، ثم قال لهم أتريدون أن أقاتل عدوكم وأصده عن بلادكم ؟ قالوا نعم فقال اخرجوا عزازير عنكم حتى أكون وحدي في هذا الامر . فقالوا أيها السيد وكيف ينبغي أن يخرج صاحبنا من بلدنا ، وهذا العدو قاصد الينا . قال فغضب عزازير في وجه كلوس من كلامه ، وقد اتفق رأيهم على أن كل واحد يقاتل العرب يوما فثبتت عداوة عزازير في قلب كلوس .

(قال الواقدي) ولقد بلغني انهم كانوا يخرجون كل يوم من باب الجابية مقدار فرسخ ينظرون قدوم أبي عبيدة بن الجراح فلم يشعروا حتى قدم اليهم خالد بن الوليد من نحو الثنية ، قال حدثنا يسار بن محمد . قال أخبرنا رفاة بن مسلم . قال : كنت في جيش خالد بن الوليد لما نزل على الدير المعروف به ، واذا بجيش الروم قد زحف علينا وهو كالجراد المنتشر ، فلما نظر خالد ذلك تدرع بدرع مسلمة ، ثم صرخ في وجه المسلمين . وقال : هذا يوم ما بعده يوم ، وهذا العدو قد زحف بخيله فدو نكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممن باع نفسه لله عز وجل وكأنكم باخوانكم المسلمين قدموا عليكم مع أبي عبيدة بن الجراح ، ثم بعد ذلك استقبل الجيش وصرخ بملء رأسه فأرعب المشركين من صرخته وحمل شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور ، ومذ حمل ضرار لم يول عنهم بل قتل من الميمنة خمسة فرسان ومن الميسرة كذلك . ثم حمل ثاني مرة فقتل منهم ستة فرسان ، ولولا سهام القوم لما رد عن قتالهم فشكره خالد بن الوليد وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر (رض) : احمل بارك الله فيك . قال فحمل عبد الرحمن وفعل كما فعل ضرار بن الأزور وقاتل قتالا شديدا . ثم حمل من بعده خالد بن الوليد ورفع رمحه ورأى العسكر من أمور الحرب حتى جزع الروم من شجاعته .

فلما نظر اليه البطريق كلوس علم انه امير الجيش وعلم أنه يفصده فتأخر كلوس الى ورائه من مخافته . فلما نظر خالد الى قهقرة كلوس الى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورموه بالسهم فلم يلنفت اليهم خالد، ولم يعبأ بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين . ثم اننى بجواده بين الصفيين وجال بجواده بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه احد ، وقالوا : أخرجوا غيسره منكم . فقال : ويلكم ها أنا رجل واحد من العرب وكلنا في الحرب سواء فما منهم من فهم كلامه ، فأقبل عزازير على كلوس ، وقال : أليس الملك قد قدمك على جيشه وبعثك الى قتال العرب فدونك حام عن بلدك ورعيته .

فقال كلوس : أنت أحق مني بذلك لانك أفدم مني ، وقد عذمت أنك لا تخرج الا باذن الملك هرقل فما بالك لا تخرج الى قتال أمير العرب . فقال لهما العساكر تقارعا فمن وقعت عليه القرعة فلينزل الى قتال أمير العرب . فقال كلوس لا بل نحمل جميعا فهو أهيب لنا ، قال وخاف كلوس أن يبلغ الملك ذلك فيطرده من عنده أو يقتله . قال فتقارعا فوقعت القرعة على كلوس . فقال عزازير : اخرج وبين شجاعته ، فقال كلوس لاصحابه : أريد أن تكون همته عندي ، فان رأيتم مني تقصيرا فاحملوا وخلصوني . فقال أصحابه : هذا كلام عاجز لا يفلح أبدا ، فقال يا قوم ان الرجل بدوي ولغته غير لغتي فخرج معه رجل اسمه جرجيس ، وقال له أنا أترجم لك فصار معه . فقال كلوس : اعلم يا جرجيس ان هذا رجل ذو شجاعة فان رأيته غلبني فاحمل انت عليه حتى نقضي يومنا معه ، ويخرج له غدا عزازير فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقي . فقال له ما أنا أهل حرب ، وانما أخوفه بالكلام . قال فسكت وسارا حتى قربا من خالد فنظر اليهما . قال فهم أن يخرج اليهما رافع بن عميرة فصاح فيه خالد ، وقال مكانك لا تبرح فاني كفء لهما ، فلما دنوا من خالد . قال كلوس لاصحابه : قل له من أنت وما تريد وخوفه من سطواتنا فقرب جرجيس من خالد ، وقال له يا أخا العرب : أنا اضرب لك مثلا ان مثلكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلمها الى راع وكان الراعي قليل الجرأة على الوحوش فأقبل عليه سبع عظيم فجعل يلتقط منه كل ليلة رأسا الى ان انقضت الاغنام والسبع ضار عليها ولم يجد له مانعا عنها . فلما نظر صاحب الغنم ما حل بغنمه علم أنه لم يؤت الا من الراعي فانتدب لغنمه غلاما نجيبا فسلمه الغنم فكان كل ليلة يكثر الطوفان حول الغنم . فبينما الغلام كذلك اذ أقبل عليه السبع على عادته الاصلية واخترق الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضربه فقتله ، ولم يقرب الغنم وحش بعدها وكذلك

انتم نتهاون بأمركم لانه ما كان أضعف منكم لانكم جياع مساكين ضعفاء وتعودتم
أكل الذرة والشعير ومص النوى . فلما خرجتم الى بلادنا وأكلتم طعامنا
وفعلتم ما فعلتم ، وقد بعث لكم الملك رجالا لا تقاس بالرجال ولا تكثر
بالابطال ولا سيما هذا الرجل الذي بجانبى فاحذر منه أن ينزل بك ما انزل
الغلام بالاسد ، وقد سألتني أن أخرج اليك واتلطف بك في الكلام فأخبرني
ما الذي تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس ؟ فلما سمع خالد منه ذلك ، قال
يا عدو الله والله لا نحسبكم عندنا في الحرب الا كقابض الطير بشبكة ، وقد
قبضتها يميننا وشمالا فلم يخرج الا ما انفلت منه . وأما ما ذكرت من بلادنا وأنها
بلاد قحط وجوع فالامر كذلك الا أن الله تعالى ابدلنا ما هو خير منه ، فأبدلنا
بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل . وهذا كله قد رضىه لنا ربنا
ووعدنا به على لسان نبيه وأما قولك : ما الذي تريدونه منا ؟ فنريد منكم احدى
ثلاث خصال اما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية ، أو القتال . وأما قولك :
ان هذا الرجل الذليل الذي هو عندكم مسكين فهو عندنا أقل القليل وإن
يكن هو ركن الملك فأنا ركن الاسلام . أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن
الوليد . أنا صاحب رسول الله (ص) .

معارك الشام

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر
الى ورائه وقد تغير لونه ، فقال له كلوس : يا ويلك رأيتك في بدايتك تهيم
كالسبع فمالك قد تأخرت ؟ فقال وحق المسيح ما أعلم انه الفارس الجحجاح
وبطلهم الصفاح ، هذا صاحب القوم الذي ملأ الشام شرا . فقال كلوس يا
جرجيس اسأله ان يؤخر الحرب بيننا الى غد فالتفت الى خالد ، وقال له يا
سيد قومك هذا صاحبي يريد ان يرجع الى قومه ليشاورهم . فقال خالد :
ويحك أتريد ان تخدعني بالكلام وأقبل برمحه في وجه جرجيس . فلما نظر
جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هاربا . فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس
وحمل عليه وتطاعنا واحترز البطريق من طعنات خالد ، فلما نظر خالد احتراز
البطريق حط يده في أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه . فلما نظر المسلمون
فعل خالد كبروا بأجمعهم وتسابق الفرسان الى خالد ، فلما قربوا منه رمى
لهم البطريق ، وقال اوثقوه كثافا فصار يبرر بلسانه فأتى المسلمون بروماس
صاحب بصرى ، وقالوا له اسمع ماذا يقول ؟ . فقال لهم يقول لكم لا تقتلونني
فاني اجبت صاحبكم في المال والجزية . فقال خالد استوثقوا منه ثم نزل عن

جواده وركب جوادا أهده له صاحب تدمر وعزم أن يهجم على الروم . فقال،
 ضرار بن الازور أيها الامير دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت . فقال.
 يا ضرار : الراحة في الجنة غدا ، ثم عول خالد على الحملة فصاح به البطريق
 كلوس ، وقال وحق دينك ونبيك الا ما رجعت الي حتى أخاطبك فرجع خالد
 اليه ، وقال لروماس اسأله ما يريد . فقال أعلمه أني صاحب الملك ، وقد
 بعثني اليكم في خمسة الاف فارس لاردكم عن بلده وأهله ورعيته ، وقد
 تحجبت أنا وعزازير متولي دمشق وقدم الي معه كذا وكذا ، وأنا اسألك بحق
 دينك اذا خرج اليك فأقتله ، وان لم يخرج اليك فاستدعه وأقتله فانه رأس
 القوم . فان قتلته فقد ملكت دمشق . فقال خالد لروماس قل له انا لا نبقي
 عليك ولا عليه ولا على من أشرك بالله تعالى . ثم انه بعد ذلك الكلام حمل ،
 وهو ينشد ويقول :

لك الحمد مولانا على كل نعمة	وشكر لما أوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة	وأنقذتنا من حنّس الظلم والظلم
وأكرمتنا بالهاشمي محمد	وكشفت عنا ما نلاقي من الغم
فتمم اله العرش ما قد ترومه	وعجل لاهل الشرك بالبؤس والنقم
وألقهم ربي سريعا ببغيهم	بحق نبي سيد العرب والعجم

(قال الواقدي) لقد بلغني ممن أثق به أنه لما ولي جرجيس هاربا من
 بين يدي خالد الى أصحابه رأوه يرتعد من الفزع . فقالوا له ما وراءك ؟ فقال
 با قوم ورائي الموت الذي لا يقاتل ، والليث الذي لا ينازل ، وهو أمير القوم ،
 وقد آلى على نفسه ان يطلبنا اينما كنا ، وما خلصت روحي الا بالجهد فصالحوا
 الرجل قبل ان يحمل عليكم بأصحابه فلا يبقى منكم أحدا ، فقالوا له ما يكفيك
 انك انهزمت ، وقد هموا بقتله ، فبينما هم كذلك اذ أقبل أصحاب كلوس على
 عزازير وهم خمسة الاف وصاحوا به وقالوا له ما أنت عند الملك أعز من
 صاحبنا ، وقد كان بيننا وبينك شرط فاخرج انت الى خالد واقتله او أسره
 وخلص لنا صاحبنا والا وحق المسيح والمذبح والذبيح شننا عليك الحرب
 فقال عزازير ، وقد رجعت به مكره ودهاؤه : يا ويلكم أتظنون اني جزعت من
 الخروج الى هذا البدوي من أول مرة ، ولكني ما تأخرت عن الخروج اليه
 وتقاعدت عن قتاله حتى يتبين عجز صاحبكم وسوف وسوف ينظر الفريقان
 أينما أفرس وأشجع وأثبت في مقام القتال اذا نحن تشابكنا بالنصال ؟ ثم انه
 في الحال ترجل عن جواده ولبس لامته وركب جوادا يصلح للجولان ، وخرج
 الى قتال سيدنا خالد بن الوليد ، الفارس الصنديد (رض) ، فلما قرب منه -

قال يا أخا العرب ادن مني حتى أسألك وكان الملعون يعرف العربية ، فلما سمع خالد ذلك • قال يا عدو الله ادن أنت على أم رأسك ، ثم هم أن يحمل عليه • فقال على رسلك يا أخا العرب أنا أدنو منك فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه • فقال يا أخا العرب ما حملك ان تحمل انت بنفسك ؟ • أما تخشى الهلاك فلو قتلت بقيت أصحابك بلا مقدم • فقال خالد يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجلان من أصحابي لو تركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى ، وانما معي رجال ، وأي رجال يرون الموت مغنما والحياة مغرما ، ثم قال له خالد من أنت ؟ فقال أوما سمعت باسمي أنا فارس الشام أنا قاتل الروم والفرس أنا كاسر عساكر الترك • فقال خالد ما اسمك ؟ فقال أنا الذي تسميت باسم ملك الموت اسمي عزرائيل •

(قال الواقدي) فضحك خالد من كلامه ، وقال يا عدو الله تخوفني ان الذي تسميت باسمه هو طالبك ومشتاق اليك ليرديك الى الهاوية • فقال له عزازير وما منعك فعلت بأسيرك كلوس ؟ • فقال هو موثق بالقيود والاغلال • فقال له عزازير وما منعك من قتله ، وهو داهية من دواهي الروم ؟ • فقال خالد منعني من ذلك أني أريد قتلكم جميعا ، فقال عزازير : هل لك ان تأخذ ألف مثقال من الذهب وعشرة أثواب من الديباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتيني برأسه • فقال له خالد هذه ديتة فما الذي تعطيني أنت عن نفسك • قال فغضب عدو الله من ذلك ، وقال ما الذي تأخذ مني ؟ • قال الجزية وأنت صاغر ذليل ؟ فقال عزازير كلما زدنا في كرامتكم زدتم في اهانتنا فخذ الان لنفسك الحذر فاني قاتلك ولا أبالي ، فلما سمع خالد كلام عزرائيل حمل عليه حملة عظيمة كانه شعلة نار فاستقبله البطريق ، وقد أخذ حذره وكان عزازير ممن يعرف بالشجاعة في بلاد الشام فلما نظر خالد الى عدو الله أظهر شجاعته وبراعته تبسم • فقال عزازير : وحق المسيح لو أردت الوصول اليك لقدرت على ذلك ولكنني أبقيت عليك لانني أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك أسيري ، وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط انك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما اخذت من بلاد الشام ، فلما سمع خالد كلام عزازير قال له : يا عدو الله قد داخلك الطمع فينا ، وهذه العصاة قد ملكوا تدمر وحوران وبصرى وهم ممن باعوا أنفسهم بالجنة ، واختاروا دار البقاء على دار الفناء ، وستعلم أيننا من يملك صاحبه ويذل جانبه ، ثم ان خالدا أرى البطريق ابواب الحرب • قال فندم عزازير على ما كان منه من الكلام ، وقال يا أخا العرب أما تعرف الملاعبة • فقال خالد ملاعبتي الضرب في طاعة الرب ، ثم ان الملعون هاجم خالدا ولوح

اليه بسيفه وضربه به فلم يقطع شيئا فذهل عدو الله من جولان خالد وثبانه ، وعلم أنه لا يقدر عليه ولا على ملاقاته فولى هاربا ، وكان جواده أسبق من جواد خالد . قال عامر بن الطفيل (رض) : وكنت يوم حرب دمشق في القلب وشاهدنا ما جرى بين خالد وعزازير لما ولى هاربا وقصر جواد خالد عن طلبه فوق في قلبه الطمع ، وقال كأن البدوي خاف مني ومالي الا أن أقف حتى يلحقني وأخذه أسيرا ولعل المسيح ينصرني عليه ، فلما وقع ذلك في نفسه وقف حتى لحق به خالد ، وقد جلل فرسه العرق ، فلما قرب منه صاح عزازير ، وقال : يا عربي لا تظن أنني هارب خوفا منك ، وانما أبقيت عليك خوفا على شبابك فارحم نفسك ، وأن أردت الموت أسوقه اليك أنا قابض الارواح أنا ملك الموت ، فعند ذلك ترجل عن جواده وسحب السيف وسار اليه كأنه الاسد الضاري

فلما نظر عزازير الى ذلك والى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهم اليه يريد أن يعلو رأسه بالسيف فزاغ خالد عنها وصاح فيه وضرب قوائم فرسه بضربة عظيمة فقطعها فسقط عدو الله على الارض ثم ولى هاربا يريد أصحابه فسبقه خالد . وقال يا عدو الله ان الذي تسميت باسمه قد غضب عليك واشتاق اليك وها هو قد اقبل عليك يقبض روحك ليؤديك الى جهنم ، ثم هجم عليه وهم أن يجلد به الارض ونظرت الروم الى صاحبها ، وهو في يد خالد فهموا أن يحملوا على خالد ويخلصوه من يده اذ قد أقبلت جيوش المسلمين ، وأبطال الموحدين مع الامير أبي عبيدة بن الجراح (رض) كان قد سار من بصرى فوجدوه ، وقد أخذ عزازير في تلك الساعة ، فلما نظرت عساكر دمشق الى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفرع فوقفوا عن الحملة . قال حدثني عمر بن قيس عن شعيب عن عبد الله عن هلال القشعمي قال لما قدم الامير أبو عبيدة سأل عن خالد فقالوا انه في ميدان الحرب ، وقد أسر بطريق الروم فدنا أبو عبيدة اليه وهم ان يترجل فأقسم عليه خالد ان لا يفعل وأقبل عليه وصافحه ، وكان أبو عبيدة يحب خالد المحبة رسول الله (ص) . فقال أبو عبيدة لخالد يا أبا سليمان : لقد فرحت بكتاب أبي بكر الصديق حين قدمك علي وأمرك علي وما حققت في فلبسك عليك لاني أعلم مواقفك في الحرب . فقال خالد : والله لا فعلت أمرا الا بمشورتك ووالله لولا أمر الامام طاعة لما فعلت ذلك أبدا لانك اقدم مني في دين الاسلام وأنا صاحب رسول الله (ص) ، وأنت قال فيك : أبو عبيدة أمين هذه الامة فشكره أبو عبيدة وقدم لخالد جواده فركبه ، وقال خالد لابي عبيدة اعلم أيها الامير

أن القوم قد خذلوا ووقع الرعب في قلوبهم ، وأهينوا بأخذ كلوس وعزازير
قال وسار مع أبي عبيدة يحدثه بما صار من البطريقين ، وكيف نصره الله
عليهما إلى أن اتيا الدير فنزلا هناك ، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على
بعض . فلما كان الغد ركب الناس وتزينت المواكب وزحف أهل دمشق
للقتال وقد أمروا عليهم صهر الملك هرقل ، ولما أقبلوا قال خالد لأبي عبيدة ان
القوم قد انخدلوا ووقع الرعب في قلوبهم فاحمل بنا على القوم . قال أبو
عبيدة : افعل قال فحمل خالد وحمل أبو عبيدة وحمل المسلمون على عساكر
الروم حملة عظيمة وكبروا بأجمعهم فارتجت الأرض من تكبيرهم ووقع القتل
في الروم ، وجاهد أصحاب رسول الله (ص) جهادا عظيما ، وذهلت منهم
الكفار . قال عامر بن الطفيل : لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة
والمائة . قال فما لبثوا معنا ساعة واحدة حتى ولوا الادبار ، وركنوا إلى الفرار،
وأقبلنا نقتل فيهم من الدير إلى الباب الشرقي . فلما نظر أهل دمشق إلى
انهزام جيشهم أغلقوا الابواب في وجه من بقي منهم . قال قيس ابن هبيرة
(رض) : فمنهم من قتلناه ، ومنهم من أسرناه ، فلما رجع خالد عنهم قال لأبي
عبيدة ان من الرأي أن أنزل أنا على الباب الشرقي وتنزل انت على باب
الجباية . فقال أبو عبيدة : هذا هو الرأي السديد .

(قال حدثنا) سهل بن عبد الله عن أويس بن الخطاب أن الذي قدم مع
الامير ابي عبيدة من المسلمين من اهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل
عمان والطائف وما حول مكة كان سبعة وثلاثين الف فارس من الشجعان ، وكان
مع عمرو بن العاص تسعة الاف فارس ، والذين قدم بهم خالد بن الوليد
(رض) من العراق ألف فارس وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك سبعة واربعين
ألفا وخمسمائة غير ما جهز عمر بن الخطاب في خلافته ، وسند ذكر ذلك اذا
وصلنا إليه ان شاء الله تعالى ، هذا وان خالدا نزل بنصف المسلمين على الباب
الشرقي ونزل أبو عبيدة بالنصف الثاني على باب الجباية . فلما نظر أهل
دمشق إلى ذلك نزل الرعب في قلوبهم ، ثم ان خالدا أحضر البطريقين بين
يديه وهما كلوس وعزازير فعرض عليهما الاسلام فأبيا فأمر ضرار بن الازور أن
يضرب عنقيهما ففعل . قال : فلما نظر أهل دمشق ما فعلوا بالبطريقين كتبوا
إلى الملك كتابا يخبرونه بما جرى على كلوس وعزازير ، وقد نزلت العرب
على الباب الشرقي وباب الجباية ، وقد نزلوا بشبانهم وأولادهم وقد قطعوا
أرض البلقاء وأرض السواد ووصفوا له ما ملك العرب من البلاد فأدركنا والا
سلمنا اليهم البلد ، ثم سلموا الكتاب إلى رجل منهم وأعطوه أوفى أجره

وأدلوهُ بالحبل من أعلى الاسوار في ظلمة الاعتكار .
(قال الواقدي) وان الرجل وصل الى الملك هرقل ، وهو بأرض انطاكية فاستأذن عليه فأمر له بالدخول . فلما دخل سلم الكتاب اليه . فلما قرأه الملك رماه من يده وبكى ، ثم انه جمع البطارقة . وقال لهم : يا بني الاصفر لقد حذرتكم من هؤلاء العرب ، وأخبرتكم انهم سوف يملكون ما تحت سريري هذا فاتخذتم كلامي هزوا وأردتم قتلي وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجذب والقحط وأكل الذرة والشعير الى بلاد خصبة كثيرة الاشجار والثمار والفواكه فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا وليس يزرعهم شيء لما هم فيه من العزم والقوة وشدة الحرب ولولا أنه عار علي لتركتم الشام ورحلت الي القسطنطينية العظمى ، ولكن ها أنا أخرج اليهم وأقاتلهم عن أهلي وديني . فقالوا أيها الملك ما بلغ من شأن العرب ان تخرج اليهم بنفسك وقعودك أهيب قال الملك هرقل نبعث اليهم ، قالوا عليك أيها الملك بوردان صاحب حمص لانه ليس فينا مثله في القوة وملاقة الرجال ، ولقد بين لنا شجاعته في عساكر الفرس لما قصدونا . قال فأمر الملك بإحضاره ، فلما حضر وردان قال له الملك انما قدمتك لانك سيفي القاطع وسندي المانع فاخرج من وقتك وساعتك ولا تتأخر ، فقد قدمتك على اثني عشر الفا ، فاذا وصلت الي بعلبك فانفذ الي من بأجنادين بأن يتفرقوا في أرض البلقاء وجبال السواد فيكونوا هناك ولا تتركوا أحدا من العرب يلحق بأصحابه ، يعني عمرو بن العاص (رض) . فقال وردان : السمع والطاعة لك أيها الملك وسوف يبلغك الخبر أني لا أعود الا برأس خالد بن الوليد ومن معه اهزمهم جميعا وبعد ذلك أدخل الحجاز ولا أخرج حتى أهدم الكعبة ومكة والمدينة . قال فلما سمع الملك هرقل قوله قال وحق الانجيل لئن فعلت ذلك ووفيت بقولك لاعطينك ما فتحوه حرثا وخراجا وكتبت كتاب العهد انك الملك من بعدي ، ثم سوتره وتوجه وأعطاه صليبا من الذهب وفي جوانبه أربع يواقيت لا قيمة لها ، وقال اذا لاقيت العرب فقدمه أمامك فهو ينصرك ، قال فلما تسلم وردان الصليب من وقته دخل الكنيسة وانغمر في ماء المعمودية وبخروه ببخور الكنائس وصلى عليه الرهبان وخرج من وقته ف ضرب خيامه خارج المدينة . قال وأخذت الروم على أنفسهم بالرحيل ، فلما تكاملوا ركب الملك هرقل وسار لوداعهم وصحبته أرباب دولته فوصل معهم الى جسر الحديد بها فودعه الملك وسار الى أن وصل الى حماة فنزل بها وأنفذ من وقته كتابا الى من بأجنادين من جيوش الروم يأمرهم ليتفرقوا في سائر الطرقات . ليمنعوا عمرو بن العاص ومن معه أن

يصلوا الى خالد ، فلما سار الرسول بالكتاب جمع وردان اليه البطارقة وقال لهم : اني أريد أن أسير على حين غفلة على طريق مارس حتى أكبس على القوم ولا ينجو منهم أحد ، فلما كان الليل رحل على طريق وادي الحياة .

(قال حدثني شداد بن أوس) قال : لما دخل خالد بن الوليد (رض) بعد قتل البطريقين أمر المسلمين أن يزحفوا الى دمشق . قال فزحف منا الرجال من العرب وبأيديهم الحجف يتلقون بها الحجارة والسهام ، فلما نظر أهل دمشق إلينا ، ونحن قد زحفنا اليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلي الانسوار ، وضيقتنا عليهم في الحصار ، وأيقن القوم بالدمار . قال شداد ابن أوس فأقمنا على حصارهم عشرين يوما ، فلما كان بعد ذلك جاءنا ناوي بن مرة وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فركب خالد نحو باب المدينة الجابية الى أبي عبيدة يخبره بذلك ويستشيريه وقال يا أمين الامة اني رأيت أن ترحل من دمشق الى اجنادين ، ونلقى من هناك من الروم ، فاذا نصرنا الله عليهم عدنا الى قتال هؤلاء القوم . قال أبو عبيدة ليس هذا برأي قال خالد ولم ذلك ؟ . قال أبو عبيدة اذا رحلنا يخرج أهل المدينة فيملكون مواضعنا ، فلما سمع خالد ذلك من أبي عبيدة . قال يا أمين الامة اني أعرف رجلا لا يخاف الموت خبيرا بلقاء الرجال قد مات أبوه وجده في القتال . قال ومن هذا الرجل يا أبا سليمان ؟ . قال هو ضرار بن الازور بن طارق . قال أبو عبيدة : والله لقد صدقت ووصفت رجلا باذلا معروفا فافعل . قال فرجع خالد الى بابه واستدعى بضرار بن الازور فجاء اليه وسلم عليه . فقال : يا ابن الازور اني أريد أن أقدمك على خمسة الاف قد باعوا انفسهم لله عز وجل واختاروا دار البقاء والاخرة على الاولى ، وتسيروا الى لقاء هؤلاء القوم الذين وردوا علينا ، فان رأيت لك فيهم طمعا فقاتلهم ، وان رأيت أنك لا تقدر عليهم فابعث إلينا رسولاك . فقال ضرار بن الازور وافرحته ، والله يا ابن الوليد ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه فاتركني أسير وحدي . قال خالد لعمرى انك ضرار ، ولكن لا تلق نفسك الى الهلاك وسر بما ندب معك من المسلمين . قال فقام ضرار (رض) مسرعا فقال خالد ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش . فقال : والله لا وقفت ومن علم الله فيه خيرا أدركني ثم ركب ضرار وأسرع الى ان وصل الى بيت لهيا ، وهو الموضع الذي كان يصنع فيه الاصنام فوقف هناك حتى لحق به أصحابه . فلما تكاملوا نظر ضرار ، واذا بجيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون في الدروع وقد أشرقت الشمس على لأماتهم وطوارقهم .

فلما نظر اليهم أصحاب رسول الله (ص) قالوا لضرار : أما والله ان هذا الجيش عرمرم والصواب أننا نرجع . فقال ضرار ، والله لا زلت أضرب بسيفي في سبيل الله واتبع من أناب الى الله ولا يراني الله مهزوما ، ولا أولى الدبر لان الله تعالى يقول - فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله - وتكلم رافع بن عميرة الطائي وقال يا قوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج ؟ أما نصركم الله في مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة والجموع اليسيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرعوا الى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت - ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين - . فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الآخرة على الأولى كمن بهم عند بيت لها وأخفى أمره وجلس عاري الجسد بسرأويله على فرس له عربي بغير سلاح وبيده قناة كاملة الطول وهو يوصي القوم .

(قال الواقدي) هكذا حدثني تميم بن أوس عن جده عمرو بن دارم . قال كنت يوم بيت لها ممن صحب ضرار بن الأزور (رض) وهو بهذه الصفة رغبة منه في الشهادة . فلما قارب العدو كان أول من برز وكبر ضرار بن الأزور قبل فأجابه المسلمون بتكبيره واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجئوهم بالحملة ونظروا الى ضرار بن الأزور وهو في أول القوم وهو في حالته التي وصفناها فهاهم أمره ، وكان وردان في المقدمة والاعلام والصلبان مشتبكة على رأسه . قال فما طلب ضرار غيره لانه علم أنه صاحبهم فحمل عليه غير مكترث به وطعن فارسا كان في يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلا ، ثم انه طعن آخر في الميمنة فارداه وحمل يريد القلب ، وكان قد عاين وردان والصليب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه فعارضه ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته . قال فسقط الصليب منكسا الى الارض . فلما نظر وردان الى الصليب أيقن بالهلاك ، وهم ان يترجل لاخذه أو يميل في ركابه ليأخذه فما وجد لذلك سبيلا لما قد أحرق به وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه ونظر ضرار الى من ترجل لاخذ الصليب . فقال معاشر المسلمين ان الصليب لي دونكم وأنا صاحبه فلا تطمعوا فاني اليه راجع اذا فرغت من كلب الروم . قال فسمع ذلك وردان وكان يعرف العربية فعطف من القلب يريد الهرب . فقالت البطارقة الى أين أيها السيد أتفر من الشيطان فما رأينا أدنى من منظره ولا أهول من مخبره ، ونظر اليه ضرار وقد عطف راجعا فعلم

أنه قد عزم على الهرب فصاح بقومه ثم اقتحم في أثره ومد رمحه وهمز جواده فتصارخت به الروم وعطففت عليه المواكب من كل جانب فأنشد يقول :

الموت حق أين لي منه المفر وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر وكل هذا في رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسلمون في أثره فاحدقوا بهم من كل مكان ، ونظروا الى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عندما علم أنه اخترق القوم فمد اليه رمحه وقد احدثت به بطارقتة وضرار يمانع عن نفسه يمينا وشمالا فما طعن احدا الا اباده الى ان قتل من القوم خلقا كثيرا ، وهو يصرخ بقومه : ويقول - ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص - قال واكبت عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان واشتعل الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان الى ضرار بن الازور ورماه بسهم . فأصاب عصبه الايمن فوصل السهم اليه فأوهنه واحس ضرار بالالام فحمل على همدان وصمم عليه برمحه وطعنه . فأصاب بالطعنة فؤاده فوصل السنان الى ظهره فجذب الرمح منه فلم يخرج ، واذا به قد اشتبك في عظم ظهره فخرج الرمح من غير سنان فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيرا ، فنظر أصحاب رسول الله (ص) الى ضرار وهو اسير فعظم الامر عليهم وقاتلوا قتالا شديدا ليخلصوه فما وجدوا الى ذلك سبيلا وأرادوا الهرب . فقال رافع بن عميرة الطائي يا أهل القرآن الى أين تريدون ؟ أما علمتم ان من ولئ ظهره لعدوه فقد باء بغضب من الله ، وان الجنة لها أبواب لا تفتح الا للمجاهدين ، الصبر الصبر ، الجنة الجنة ، يا أهل الكتاب کروا على الكفار عباد الصلبان ، وها أنا معكم في أوائلكم ، فان كان صاحبكم أسر أو قتل فان الله حي لا يموت ، وهو يراكم بعينه التي لا تنام ، فرجعوا وحملوا معه . . .

قال ووصل الخبر الى خالد ان ضرار قد أسر بيد الروم ، وانه قتل من الروم خلقا كثيرا فعظم ذلك على خالد ، وقال في كم العدو ؟ قالوا اثني عشر ألف فارس . فقال والله ما ظننت الا أنهم في عدد يسير ، ولقد غررت بقومي ، ثم سأل عن مقدمهم من يكون ؟ ف قيل وردان صاحب حمص ، وقد قتل ضرار ولده همدان ، فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم ارسل الى أبي عبيدة يستشيريه فبعث اليه أبو عبيدة يقول له : اترك على الباب الشرقي من تثق به وسر اليهم فانك تطحنهم بإذن الله تعالى . فلما وصل الجواب الى خالد قال والله ما أنا ممن يبخل بنفسه في سبيل الله ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسي (رض) ومعه ألف فارس ، وقال له .

اجذر أن تنفذ من مكانك • فقال ميسرة حبا وكرامة وعطف خالد بالناس ، وقال لهم أطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة فاذا أشرفت على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار ان شاء الله تعالى ان كانوا أبقوا عليه ، والله ان كانوا عجلوا عليه لناخذن بثأره ان شاء تعالى وأرجو أن لا يفجعنا به ، ثم تقدم امام القوم وجعل يقول :

اليوم يوم فاز فيه من صدق لا ارهب الموت اذا الموت طرق
لاروين الرمح من ذوي الحديق لا هتكن البيض هتكا والدرق
عسى أرى غدا مقام من صدق في جنة الخلد والقي من سبق

خولة بن الازور

فبينما خالد يترنم بهذه الابيات ، اذ نظر الى فارس على فرس طويل وببيده رمح طويل وهو لا يبين منه الا الحديق والفروسية تلوح من شمائله وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لامته وقد خرم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه وقد سبق امام الناس كأنه نار ، فلما نظره خالد قال ليت شعري من هذا الفارس وايم الله انه لفارس شجاع ، ثم اتبعه خالد والناس ، وكان هذا الفارس اسبق الناس الى المشركين • قال وكان رافع بن عميرة الطائي (رض) في قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه اذ نظر خالدا وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين ، ونظر الى الفارس الذي وصفناه وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم ، ثم غاب في وسطهم فما كانت الا جولة الجائل حتى خرج وساناه ملطخ بالدماء من الروم ، وقد قتل رجالا وجندل أبطالا وقد عرض نفسه للهلاك ، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف وعطف على كراديس المروم في الناس وكثر قلقهم عليه ، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا إلا انه خالد وقالوا ما هذه الحملات الا لخالد فهم على ذلك اذ أشرف عليهم (رض) وهو في كبكبة من الخيل : فقال رافع بن عميرة من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته • فقال خالد والله انني أشد انكارا منكم له ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله • فقال رافع ايها الامير انه منغمس في عسكر الروم يطعن يميننا وشمالا •

فقال خالد معاشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله • قال فأطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة والتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم اذ نظر الى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل في أثره ،

وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل ، فعند ذلك حمل خالد ومن معه
ووصل الفارس المذكور الى جيش المسلمين . قال فتأملوه فأروه قد تخضب
بالدماء فصاح خالد والمسلمون لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله
وأظهر على الاعداء اكشف لنا عن لتامك . قال فمال عنهم ولم يخاطبهم
وانغمس في الروم فتصايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمون ، وقالوا
أيها الرجل الكريم : أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك
وحسبك لتزداد تعظيما فلم يرد عليهم جوابا ، فلما بعد عن خالد سار اليه
بنفسه وقال له ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك من أنت ؟ قال
فلما لج عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث ، وقال : انني
يا امير لم أعرض عنك الا حياء منك لانك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور
وبنات الستور ، وانما حملني على ذلك اني محرقة الكبد زائدة الكمد .
فعال لها من أنت ؟ قالت أنا خولة بنت الازور المأسور بيد المشركين أخي وهو
ضرار واني كنت مع بنات العرب وقد اتاني الساعي بأن ضرار أسير فركبت
وفعلت ما فعلت . قال خالد نحمل بأجمعنا ونرجو من الله ان نصل الى
أخيك فنفكه . قال عامر بن الطفيل : كنت عن يمين خالد بن الوليد حين
حملوا وحملت خولة أمامه وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من
خولة بنت الازور وقالوا ان كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من
طاقة ولما حمل خالد ومن معه اذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان
اليهم . فقال لهم اثبتوا للقوم فاذا رأوا ثباتكم ولوا عنكم ويخرج أهل دمشق
يعينونكم على قتالهم . قال فثبت المسلمون لقتال الروم وحمل خالد بالناس
حملة منكرة وفرق القوم يميننا وشمالا وقصد خالد مكان صاحبهم وردان عند
اشتباك الاعلام والصلبان واذا حوله اصحاب الحديد والزرذ النضيد وهم
محدقون به ، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتبك المسلمون بقتال الروم
وكل فرقة مشغولة بقتال صاحبها . وأما خولة بنت الازور فانها جعلت تجول
يميننا وشمالا وهي لا تطلب الا أخاها وهي لا ترى له اثرا ولا وقفت له على خبر
الى وقت الظهر وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على
الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة . قال وتراجعت كل فرقة الى مكانها وقد
كدت افئدة الروم مما ظهر لهم من المسلمين وقد هموا بالهزيمة وما يمسكهم
الا الخوف من صاحبهم وردان ، فلما رجع القوم الى مكانهم أقبلت خولة بنيت
الازور على المسلمين وجعلت تسألهم رجلا رجلا عن أخيها فلم تر من المسلمين
من يخبرهما انه نظره أو رآه أسيرا أو قتيلا ، فلما يئست منه بكت بكاء شديدا

وجعلت تقول يا ابن أمي ليت شعري في أي البداء طرحوك أم بأي سنان طعنوك أم بالحسام قتلوك ، يا أخي أختك لك الفداء لو اني أراك انقذتك من أيدي الاعداء ، ليت شعري اترى ألي أراك بعدها ابدا ، فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمره لا يخمد لهيبها ولا يطفأ ، ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي (ص) فعليك مني السلام الى يوم اللقاء . قال فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهم أن يعاود بالحمله اذ نظر الى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين . فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالامان . فقال خالد اقبلوا أمانهم وأئتوني بهم فأنوا اليه . فقال خالد من أنتم ؟ فقالوا نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا انه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا الامان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي اردتم في كل سنة ، فكل من في حمص يرضي بقولنا .

فقال خالد اذا وصلت الى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى ان كان لكم فيه أرب ، ولكن نحن ههنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا الى أن يقضي الله ما هو قاض ، ثم ان خالدا قال لهم هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم ؟ قالوا لعله عاري الجسد الذي قتل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا في ولده . قال خالد عنه سألتكم ؟ قالوا بعنه وردان عندنا أسيرا على بغل . ووكل به مائة فارس وأنفذه الى حمص ليرسله الى الملك ويخبره بما فعل . قال ففرح خالد بقولهم ، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي وقال : يا رافع ما أعلم أحدا أخبر منك بالمسالك وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الابل واوردتها الماء وأوردتنا أركة وما وطئها جيش قبلنا لمفازتها ، وأنت أوحده أهل الارض في الحيل والتدبير فخذ معك من أحببت واتبع اثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم ، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى . فقال رافع بن عميرة حبا وكرامة ، ثم انه في الحال انتخب مائة فارس شدادا من المسلمين وعزم على المسير فأنت البشارة الى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه طلب اخيها ضرار فتهلل وجهها فرحاً وأسرعت الى لبس سلاحها وركبت جوادها وأتت الى خالد بن الوليد ، ثم قالت له ايها الامير سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر الا ما سرحتني مع من سرحت فلعلي أن أكون مشاهدة لهم . فقال خالد لرافع انت تعلم شجاعته فخذها معك . فقال له رافع السمع والطاعة وارتحل رافع ومن معه ، وسارت خولة في أثر القوم ولم

تختلط بهم ، وسار الى أن قرب من سليمة . قال فنظر رافع فلم يجد للقوم اثرا ؟ فقال لاصحابه أبشروا فان القوم لم يصلوا الى ههنا ، ثم انه كمن بهم في وادي الحياة ، فبينما هم كامنون اذا بغيرة قد لاحت . فقال رافع لاصحابه ايقظوا خواطركم وانتبهوا ، فأيقظ القوم همهم وبقوا في انتظار العدو واذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار ، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارا وقتلوههم جميعا وأخذوا سلبهم . قال واذا بعساكر الروم قد اقبلت منهزمة وأولهم لا يلتفت الى آخرهم ، فعلم رافع ان القوم انهزموا فأقبل يلتقطهم بمن معه . قال وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة في طلب ضرار ليخلصه ومعه المائة فارس صدم وردان صدمة منسحب يحب الشهادة ويبتغي دار السعادة وصدم المسلمون الروم ، فما لبثوا ان ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وكان أولهم وردان واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزلوا في طلبهم الى وادي الحياة ، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائي وضرار بن الازور وسلموا عليهم وفرحوا بضرار (رض) وهنؤوه بالسلامة . قال واثني خالد على رافع خيرا ورجعوا الى دمشق وفرح المسلمون بالنصر واتصل الخبر الى الملك هرقل وان وردان قد انهزم وقتل ولده همدان . قال فأيقن بزوال ملكه من الشام فكتب الى وردان كتابا يقول فيه : أما بعد فاني قد بلغني جياح الاكباد عراة الاجساد قد هزموك وقتلوا ولدك رحمه المسيح ورحمك ، ولولا اني أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحل عليك سخطي والآن مضى ما مضى ، وقد بعثت الى اجنادين تسعين الفاء وقد أمرتك عليهم فسر نحوهم وانجد اهل دمشق وأنفذ بعضهم ليمنعوا من في فلسطين من العرب وحل بينهم وبين اصحابهم وانصر دينك وصاحبك . قال وانفذ اليه الكتاب مع خيل البريد ، فلما ورد عليه الكتاب وقراه سرى عنه بعض ما كان يجده وأخذ الالهبة الى اجنادين فسار فوجد الروم قد تجمعوا وأظهروا العدد والزرد وخرجوا الى لقاءه وسلموا عليه وتقدموا بين يديه وعزوه في ولده ، فلما استقر قراره قرأ عليهم منشور الملك فأجابوا بالسمع والطاعة واخذوا على أنفسهم .

(قال حدثني) روح بن طريف قال : كنت مع خالد بن الوليد على باب شرقي حين رجعنا من هزيمة وردان واذا قد ورد علينا عباد بن سعد الحضرمي ، وكان قد بعثه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) من بصرى يعلم خالدًا بمسير الروم اليه من اجنادين في تسعين ألف فارس فخذ أهبتك للقائهم . قال فلما سمع خالد ذلك ركب الى أبي عبيدة وقال له : يا أمين الامة هذا عباد بن

سعد الحضرمي قد بعث به شرحبيل بن حسنة يخبر أن طاغية الروم هرقل قد ولى وردان على من تجمع باجنادين من الروم وهم تسعون الفا فما ترى من الرأي يا صاحب رسول الله . فقال أبو عبيدة : اعلم يا أبا سليمان أن أصحاب رسول الله (ص) متفرقون مثل شرحبيل بن حسنة بأرض بصرى ، ومعاذ بن جبل بحوران ، ويزيد بن أبي سفيان بالبلقاء ، والنعمان بن المغيرة بأرض تدمر وأركة ، وعمرو بن العاص بأرض فلسطين ، والصواب ان تكتب اليهم ليفصدونا حتي نقصد العدو ومن الله نطلب المعونة والنصر . قال فكذب خالد الى عمرو بن العاص كتابا يقول فيه . بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن اخوانكم المسلمين قد عولوا على المسير الى اجنادين فان هناك نسعين الفا من الروم يريدون المسير الينا - يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون - فاذا وصل اليك كتابي هذا فاقدم علينا بمن معك الى اجنادين تجدنا هناك ان شاء الله تعالى والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وكتب نسخة الكتاب الى جميع الامراء الذين ذكرناهم ثم أمر الناس بالرحيل ترفعت القباب والهوانج على لهور الحمال وسافوا الغنائم والاموال . فقال خالد لابي عبيدة قد رأيت رابا أن أكون على السانة مع الغنائم والاموال والبنين والولدان والبنين والولدان وكن انت على المقدمة مع خاصة أصحاب رسول الله (ص) . فقال أبو عبيدة بل أكون أنا على الساقة وأنت على المقدمة مع الجيش . فان وصل اليك جيش الروم مع وردان يجندول على أهنة فتمنعهم من الوصول الى الحربم والاولاد فلا يصلون الينا الا وأنت فلت فيهم والا كنت أنا ومن معي غنيمة لهم اذا كنت أنا في المقدمة . فقال خالد لست أخالفك فيما ذكرت . ثم أن خالد قال أيها الناس أنكم سائرون الى جيش عظيم فأيقظوا هممكم . وان الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قوله تعالى - كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين - .

ثم ان خالد أخذ الجيش وسار في المقدمة وبقي أبو عبيدة في الب من المسلمين ، ونظر الى ذلك أهل دمشق فعطفوا عليهم واقبلوا بسيوفهم وهم يظنون أنهم منهزمون لاجل ما بلغهم من الجيش العظيم الذي هو باجنادين . فقال لهم عقلاؤهم ان كانوا سائرين على طريق بعلبك فإنهم يريدون فتحها وفتح حمص ، وان كانوا على طريق مرج راهط فالقوم لا شك هاربون الى الحجاز ويتركون ما اخذوا من البلاد . قال وكان بدمشق بطريق يقال له بولص وكان عظيما عند النصرانية ، وكان اذا قدم على الملك يعظمه ، وكان الملغون فارسا وذلك انهم كان عندهم شجرة فرماها بسهم فغاص السهم في الشجرة من قوة

ساعده . ثم ان من عجبه كتب عليها ان كل من يدعي الشجاعة فليزِم بسنهمه الى جانب سهمي ، وكان قد شاع ذكره بذلك ولم يحضر قتال المسلمين منذ دخلوا دمشق ، فلما اجتمعوا عليه قال لهم بولص ما الذي حل بكم ؟ فأعلموه بما جرى عليهم من المسلمين وقالو له : ان كنت تريد حياة الابد عند الملك وعند المسيح وعند اهل دين النصرانية فدونك والمسلمين فاخرج اليهم واخطف كل من تخلف منهم ، وان رأيت لنا فيهم مطمعا قائلناهم . فقال بولص انما كان سبب تخلفي عن نصرتكم لانكم قليلو الهمة لقتال عدوكم فتخلفت عنكم والآن لا حاجة لي في قتال العرب .

فقالوا . وحق المسيح والانجيل الصحيح لئن سرت في مقدمتنا لنثبتن معك وما منا من يولى عنك وقد حكمناك فيمن ينهزم أن تضرب عنقه ولا يعارضك في ذلك احد . قال فلما استوثق منهم دخل الى منزله ولبس لامته . فقالت له زوجته : الى أين عذمت ؟ قال أخرج في اثر العرب فقد ولاني اهل دمشق عليهم . فقالت لا تفعل والزم بيتك ولا تطلب ما ليس لك به حاجة فاني رأيت لك في المنام رؤيا . فقال لها وما الذي رأيته ؟ قالت رأيته كأنك قابض قوسك وانت ترمي طيوراً وقد سقط بعضها على بعض ، ثم عادت صاعدة فبينما أنا متعجبة اذ أقبلت نحوك سحابة من الجو فانقضت عليك من الهواء وعلى من معك فجعلت تضرب هاماتهم ثم وليتم هاربين ، ورأيته لا تضرب احدا الا صرخته ثم اني انتبهت وأنا مذعورة باكية العين عليك . فقال لها ومع ذلك رأيته فيمن صرع قالت نعم وقد صرعت فارس عظيم . قال فلطم وجهها وقال لا بشرك المسيح بخير لقد دخل رعب العرب في قلبك حتى صرت تحلمين بهم في النوم فلا بد أن أجعل لك أميرهم خادماً وأجعل أصحابه رعاة الغنم والخنازير . فقالت له زوجته أفعل ما تريد فقد نصحتك . قال فلم يلتفت الى كلامها وخرج من عندها وركب وسار معه من كان في دمشق من الروم ، ففرضهم فاذا هم ستة الاف فارس وعشرة الاف راجل من اهل النجدة والحمية وسار يطلب القوم .

معركة حول دمشق

وكان خالد في المقدمة وأبو عبيده يمشي مع الاموال والاغنام والجمال اذ نظر رجل من أصحابه ، وهو يتأمل الغبرة من ورائهم ، فسأله أبو عبيدة عن ذلك فقال أظنها غبرة القوم . فقال أبو عبيدة أن اهل الشام قد طمعوا فينا ، وهذا العدو قاصد الينا . قال فما استتم كلامه حتى بدت الخيل كأنها السيل وبولص في اوائلهم . فلما نظر الى أبي عبيدة قصده ومعه الفرسان وأخوه

بطرس قصد الحريم والمال فاقتطعوا منها قطعة . فلما احتوى عليها رجع بها
بطرس نحو دمشق . فلما بعد جلس هناك لينظر ما يكون من أمر اخيه . وأما
أبو عبيدة فإنه لما نظر الى ما فاجأه من الروم . قال والله لقد كان الصواب مع
خالد لما قال دعني في الساقة فلم أدعه وأنه قد وصل اليه بولص وقصده والاعلام
والصلبان على رأسه مشتبكة والنساء يولولن والصبيان يصيحون والالف من
المسلمين قد اشتغلوا بالقتال وقد قصد عدو الله بولص أبا عبيدة واشتد بينهم
الحرب ووقع القتال من أصحابه والروم وارتفعت الغبرة عليهم وهم في كر وفر
على أرض سحورا . قال وقد بلى أبو عبيدة بالقتال وصبر صبر الكرام . قال
سهيل بن صباح ، وكان تحتي الجواد محجل من خيل اليمن شهدت عليه اليمامة .
فقومت السنان وأطلقت العنان فخرج كأنه الريح العاصف ، فما كان غير بعيد
حتى لحقت بخالد بن الوليد والمسلمين فأقبلت اليهم صارخا وقلت : أيها الامير
أدرك الاموال والحريم . فقال خالد ما وراءك يا ابن الصباح ؟ . فقلت
أيها الامير الحق ابا عبيدة والحريم فان نفي دمشق قد لحق بهم ، وقد اقتطعوا
قطعة من النسوان والولدان وقد بلى أبو عبيدة بما لا طاقة لنا به . قال فلما
سمع خالد ذلك الكلام من سهل بن صباح قال انا لله وانا اليه راجعون ، قد قلت
لابي عبيدة دعني أكون على الساقة ، فما طاوعني ليقضي الله أمرا كان مفعولا ،
ثم أمر رافع بن عميرة على ألف من الخيل . وقال له كن في المقدمة وأمر
عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق على ألفين . وقال له ادرك العدو وسار خالد
في أثره ببقية الجيش .

قال فبينما أبو عبيدة في القتال مع بولص لعنه الله اذ تلاحقت به جيوش
المسلمين وحملوا على اعداء الله وداروا بهم من كل مكان ، فعند ذلك تنكست
الصلبان ، وأيقن الروم بالهوان ، وتقدم الامير ضرار بن لازور كأنه سُعلة نار
وقصد نحو بولص . فلما رآه عدو الله تبيل خاطره ووقعت الرعدة في فرائضه .
وقال لابي عبيدة : يا عربي وحق دينك الا ما قلت لهذا الشيطان يبعد عني
وكان بولص قد سمع به ورآه من سور دمشق وما صنع بعسكر كلوس عزازير
وسمع بفعاله في بيت لهيا ، فلما رآه مقبلا اليه عرفه . فقال لابي عبيدة قل
لهذا الشيطان لا يقربني فسمعه ضرار (رض) فقال له أنا شيطان ان قصرت عن
طلبك ، ثم انه فاجأه وطعنه ، فلما رأى بولص ان الطعنة واصله اليه رمى نفسه
عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه فسار ضرار في طلبه . وقال له أين تروح
من الشيطان وهو في طلبك ؟ ولحقه وهم ان يعلوه بسيفه . فقال بولص : يا
بدوي أبقى علي ففي بقائي بقاء أولادكم وأموالكم . قال قلما سمع ضرار .

قوله أمسك عن قتله وأخذه أسير ، هذا والمسلمون قد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة .

(قال حدثني) أسلم بن مالك اليربوعي عن أبي رفاعة بن قيس . قال كنت يوم وقعة سحورا مع المسلمين وكنت في خيل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) . قال فدرنا بالروم من كل جانب وبذلنا أسيافنا في القوم ، وكانوا ستة كئائب في كل كتيبة ألف فارس قال رفاعة بن قيس : فوالله لقد حملنا يوم فتح دمشق وأنه ما رجع منهم فوق المائة ووجه خبر لضرار أن خولة مع النسوان المأسورات فعظم ذلك عليه وأقبل على خالد وأعلمه بذلك ، فقال له خالد لا تجزع ، فقد أسرنا منهم خلقا كثيرا ، وقد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من أسر من حريمنا ولا بد لنا من دمشق في طلبهم ، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا . ثم انه سار في أثب فارس جريدة وبعث العسكر كله الى أبي عبيدة مخافة ان يلحقهم وردان بجيوشه خسار نفوم ويوجه خالد بمن معه في طلب المأسورات ، وقد قدم أمامه رافع بن عميرة الطائي وميسرة بن مسروق العبسي وضرار بن الازور .

(قال حدثني) سعيد بن عمر عن سنان بن عامر اليربوعي ، قال سمعت حبيب بن معصم يقول : لما اقتطعوا من ذكرنا من نساء العرب سار بهم بطرس أخو بولص الى أن نزل بهم الى النهر الذي ذكرناه ، ثم قال بطرس انا لا أبرح من ههنا حتى انظر ما يكون من أمر أخي ، ثم انه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منهن الا خولة بنت الازور أخت ضرار . قال بطرس هذه لي وأنا لها لا يعارضني فيها أحد ، فقال له أصحابه هي لك وانت لها . قال وكل من سبق الى واحدة يقول هي لي حتى قسموا الغنيمة على ذلك ، ووقفوا ينتظرون ما يكون من أمر بولص وأصحابه ، وكان في النساء عجائز من حمير ونبع من نسل العمالقة والقبيلة ركن قد اعتدن ركوب الخيل فقالت لهن خولة بنت الازور : يا بنات حمير بنية تبع أترضين بأنفسكن علوج الروم ، ويكون أولادكن عبيدا لأهل الشرك ، فأبن شجاعتك وبراعتك التي نتحدث بها عنكن في أحياء العرب ومحاضر الحضرة ولا أراكن الا بمعزل عن ذلك ، وأني أرى القتل عليكم أهون من هذه المصائب وما نزل بكم من خدمة الروم الكلاب .

فقالت عمرة بنت غفار الحميرية صدقت ، ووالله يا بنت الازور نحن في الشجاعة كما ذكرت ، وفي البراعة كما وصفت ، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام ، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير ان السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت ، وانما دهمنا العدو على حين غفلة ، وما نحن الا كالغنم

فقال خولة يا بنات التبابعة والعمالقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الاطناب ونحمل بها على هؤلاء اللثام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرة العرب ، فقالت عفرة بنت غفار والله ما دعوت الا ما هو احب اليينا مما ذكرت ، ثم تناولت كل واحدة عمودا من أعمدة الخيام وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة وسعت من ورائها عفرة وأم أبان بنت عتبة وسلمة بنت زراع ولبنى بنت حازم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان ، ومثل هؤلاء (رض) . فقالت لهن حولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكن النشتيت وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهن . قال فهجمت خولة امامهن ، فأول ما ضربت رجلا من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعا والتفت الروم ينظرون ما الخبر ، فاذا هم بالنسوة ، وقد أقبلن والعمد بأيديهن فصاح بطريق يا ويلكن ما هذا ، فقالت عفرة هذه فعالنا فلنضربن القوم بهذه الاعمدة ولا بد من قطع اعماركم وانصرام أجالكم يا أهل الكفر . قال فجاء بطرس ، وقال تفرقوا عن النسوة ولا تبدلوا فيهن السيوف ولا أحد منكم يقتل واحدة منهن وخذوهن اسارى ومن وقع منكم بمصاحبتني فلا ينلها بمكروه ، فتفرق القوم إليهن وحدثوا بهن من كل جانب وراموا الوصول اليهن فلم يجدوا الى ذلك سبيلا ولم تزل النساء لا يدنو اليهن أحد من الروم الا ضربن قوائم فرسه فاذا تنكس عن جواده بادرت النساء بالاعمدة فيقتلنه وبأخذن سلاحه .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان النسوة قتلن ثلاثين فارسا من الروم ، فلما نظر بطرس الى ذلك غضب غضبا شديدا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء والنساء يحرض بعضهن بعضا ويقلن متن كراما ولا تمتن لثاما ، وأظهر بطرس رأسه وتلهمه عندما نظر الى فعلهن ، ونظر الى خولة بنت الازور ، وهي نجول كالاسد وتقول :

نحن بنات تبسح وحمير وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الاكبر

قال فلما سمع بطرس ذلك من قولها ، ورأى حسننها وجمالها ، قال لها يا عربية اقصري عن فعالك فاني مكرمك بكل ما يسرك أما ترضين أن أكون انا مولاك وانا الذي بهابني أهل النصرانية ولي ضياع ورساييق وأموال ومواسى ومنزلة عند الملك هرقل ، وجميع ما أنا فيه مردود اليك ، أما ترضين أن تكوني سيده أهل ده تدق فلا تقتلي نفسك ، فقالت له يا ماعون ويا ابن ألف ملعون والله لئن ظفرت بك لاقطعن رأسك والله ما أرضى بك ان ترعى لى الابل فكيف أرضاك أن تكون لى كنوا . قال فلما سمع كلامها حرض أصحابه على القتال ، وقال أتروا .

عارا اكبر من هذا في بلاد الشام ان النسوة غلبنكم فاتفقوا غضب الملك ، قال فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام ، فبينما هم على ذلك اذ أقبل خالد بن الوليد (رض) ومن معه من المسلمين ، ونظروا الى الغبار وبريق السيوف ، فقال لاصحابه من يأتيني بخبر القوم فقال رافع بن عميره الطائي انا آتيك به قال ثم اطلق جواده حتى أشرف على النسوة وهن يقاتلن قتال الموت . قال فرجع وأخبر خالدا بما رأى ، فقال خالد لا أعجب من ذلك انهن من بنات العمالة ونسل التبابعة ، وما بينهن وبين تبع الا قرن واحد ، وتبع بن بكر بن حسان الذي ذكر رسول الله (ص) قبل ظهوره ، وشهد له بالرسالة قبل ان يبعث ، وقال :

شهدت بأحمد أنه رسول	من الله باريء كل النسم
وأمته سميت في الزبور	بأمة أحمد خير الامم
فلو مد عمري الى عصره	لكنت وزيرا له وابن عم

بطولة النساء

(قال الواقدي) قال خالد لا تعجب يا رافع واعلم ان هؤلاء النسوة لهن الحروب المذكورات والمواقف المشهورات ، وان يكن فعلهن ما ذكرت ، فلقد سدن على نساء العرب الى آخر الابد وأزلن عنهن العار فتهللت وجوه الناس فرحا ووثب ضرار بن الازور عندما سمع كلام رافع . فقال خالد مهلا يا ضرار ولا تعجل فانه من تأني نال ما تمنى ايها الامير لا صبر لي عن نصرة بنت ابي وامي فقال خالد قد قرب الفرج انشاءالله تعالى ثم ان خالد ووثب ووثب اصحابه ، وقال معاشر الناس اذا وصلتكم الى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم فعسى ان يخلص حريمتنا ، فقالوا حبا وكرامة . ثم تقدم خالد . قال فبينما القوم في قتال شديد مع النسوة اذ أشرفت عليهم المواكب والكتائب والاعلام والرايات ، فصاحت خولة يا بنات التبابعة ، قد جاءكم الفرج ورب الكعبة . ونظر بطرس الى الكتائب المحمدية ، وقد اشرفت فخفق فؤاده وارتعدت فرائضه وأقبل القوم ينظر بعضهم بعضا . قال فصاح بطرس يا معاشر النسوة ان الشفقة والرحمة قد دخلت في قلبي ، لان لنا أخوات وبنات وأمهات ، وقد وهبتكن للصليب . فاذا قدم رجالكن فأخبرنهم بذلك . ثم عطف يريد الهرب اذ نظر الى فارسين ، قد خرجا من قلب العسكر احدهما قد تكمى في سلاحه والآخر عاري الجسد ، وقد أطلقا عنانهما كأنهما أسدان . وكانا خالدا وضرارا ، فلما رأت خولة أخاها قالت له الى أين يا ابن وامي أقبل ؟ فصاح بها بطرس : انطلقني الى اخيك ، فقد وهبتك له . ثم ولى يطلب الهرب . فقالت له خولة ،

وهي تهزأ به ليس هذا من شيم الكرام تظهر لنا المحبة والقرب . ثم تظهر الساعة الجفاء والتباعد وخطت نحوه . فقال قد زال عني ما كنت أجد من محبتك . فقالت له خولة لا بد لي منك على كل حال . ثم اسرعت اليه ، وقد قصده ضرار . فقال له بطرس خذ اختك عني فهي مباركة عليك ، وهي هدية مني اليك . فقال له الامير ضرار قد قبلت هديتك وشكرتها واني لا أجد لك على ذلك الا سنان رمحي فخذ هذه مني اليك . ثم حمل عليه ضرار ، وهو يقول - واذا حييتم بتحيه فحيو بأحسن منها أو ردوها - ثم همهم اليه بالطعنة ووصلت اليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبا به الجواد ووقع عدو الله الى الارض فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فأطلع السنان من الجانب الآخر فتجندل صريعا الى الارض فصاح به خالد لله درك يا ضرار هذه طعنة لا يخيب طاعنها .

ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم فما كانت الا جولة جائل حتى قتل من الروم ثلاثة الاف رجل . قال حامد بن عامر اليربوعي : لقد عددت لضرار بن الازور في ذلك اليوم ثلاثين قتيلًا وقتلت خولة خمسة وعفراء بنت غفار الحميرية أربعة . وقال وانهزم بقية القوم ، ولم يزالوا في أدبارهم والمسلمون على اثرهم الى أن وصلوا الى دمشق فلم يخرج اليهم أحد بل زاد فزعهم واشتد الامر عليهم ورجع المسلمون وجمعوا الغنائم والخيل والسلاح والاموال ، ثم قال خالد : الحقوا بأبي عبيدة لئلا يكون وردان وجيوشه قد لحقوا به ، فسار ضرار والقوم ، وقل جعل ضرار رأس البطريق على سنان رمحه ، ولم يزل القوم سائرين الى أن لحقوا بأبي عبيدة في مرج الصفر ، وقد تخلف ابو عبيدة حتى اشرف المسلمون عليه فكبر وكبر خالد بن الوليد (رض) ومعه المسلمون . فلما اجتمع الناس سلم بعضهم على بعض ورأوا المأسورات وقد خلصن ، وأخبر خالد أبا عبيدة بما فعلت خولة وعفرة وغيرهن من الصحابة فاستبشر بنصر الله وعلموا أن الشام لهم . ثم دعا خالد ببولص ، فقال له أسلم والا فعلت بك كما فعلت بأخيك . فقال له وما الذي صنعت بأخي . قال قتلته ، وهذه رأسه ورمها ضرار قدامه . فلما رأى أخيه بكى ، وقال له لا بقاء لي بعده حيا فألحقوني به . قال فقام اليه المسيب بن يحيى الفزاري (رض) فضرب عنقه بأمر خالد ثم رحل القوم .

(قال الواقدي) حدثنا سعيد بن مالك . قال لما بعث خالد الكتب الى شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) والى يزيد بن أبي سفيان والى عمرو بن العاص قرأ كل واحد من الامراء كتابه . قال فساروا بأجمعهم الى اجنادين لعون اخوانهم وجاءوا بعددهم وعديدهم . قال سفينة ولى رسول

الله (ص) كنت في خيل معاذ بن جبل ، فلما أشرفنا بأجمعنا على اجنادين كنا كلنا على سيارة واحدة في يوم واحد ، وذلك في شهر صفر سنة ٢٠ من الهجرة ونبادر المسلمون يسلم بعضهم على بعض ، قال ورأينا جيوش الروم في عدد لا يحصى . فلما أشرفنا عليهم أظهرنا لنا زينتهم وعددهم واصطفوا مواكب وكتائب ومدوا صفوفهم ، فكانوا ستين صفا في كل صف الف فارس ، قال الضحاک بن عروة والله لقد دخلنا العراق ورأينا جنود كسرى فما رأينا أكثر من جنود الروم ولا أكثر من عددهم وسلاحهم . قال فنزلنا بازائهم . قال فلما كان من الغد بادرت الروم نحونا . قال الضحاک . فلما رأيناهم ، وقد ركبوا أخذنا على أنفسنا وتأهبنا ، وان خائفا ركب ، وجعل يدخل الصفوف : ويقولون اعلموا انكم لستم نرون للروم جيشا مثل هذا اليوم ، فان هزمهم الله على أيديكم فما يقوم لهم بعدها فائمة أبدا فأصدقوا في الجهاد وعليكم بنصر دينكم وإياكم أن تولوا الادبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكنوا المضارب ولا يحملوا حتى أمركم بالحملة وأيقظوا هممكم .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ممن اثق به أن وردان لما رأى اصحاب رسول الله (ص) اقد اجتمعوا وعولوا على حربهم جمع اليه الملوك والبطارقة وقال لهم : يا بنى الاصفر اعلموا أن الملك يعول عليكم ، واذا انكسرتم لا تقوم لكم بعدها فائمة أبدا وتملك العرب بلادكم وتسبي حريمكم عليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا واعلموا ان كل ثلاثة منا بواحد منهم واستعينوا بالصديق ينصركم ، فهذا ما كان من هؤلاء . وأما خالد (رض) فانه مشى على أصحابه وقال : معاشر المسلمين من فيكم يعذر لنا القوم وينذرهم ؟ فقال ضرار بن الازور أنا ايها الامير . فقال خالد انت لها والله ولكن يا ضرار اذا أشرفت على القوم فايك ان تحمل نفسك ما لا تطيق ، وان تغرر بنفسك وتحمل على القوم فما أمرك الله بذلك ، فقد قال الله تعالى ؟ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال فأطلق ضرار عنان جواده حتى أشرف على جيش الروم فرأى أنائهم وخيامهم وشعاع البيض والطوارق والرايات كأجنحة الطيور ، قال وكان وردان ينظر نحو جيش المسلمين اذ نظر الى ضرار ، وهو مشرف على القوم ، فقال للبطارقة اني أرى فارسا قد أقبل ولست اشك انه طليعة للقوم فأيكم يأتيني به فانتدب من القوم ثلاثين فارسا طلبوا ضرارا ، فلما نظر اليهم ضرار ولي من بين ايديهم فتبعوه وظنوا انه قد انهزم ، وانما أراد بذلك ان يبعدهم عن أصحابهم ، فلما بعدوا علم انه تمكن منهم فلوى رأس جواده اليهم وصوب السنان عليهم ، فأول ما طعن فارسا من القوم أرداه وننى على الآخر فأعدمه الحياة وصال فيهم صولة الاسد على الغنم ودخل رعبه في قلوبهم فولوا منهزمين فتبعهم ، وهو يصرع منهم فارسا

بعد فارس الى أن صرع منهم تسعة عشر فارسا .

فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعا الى خالد ومعه اسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان ، فقال له خالد ألم اقل لك لا تغرر بنفسك ولا تحمل عليهم ، فقال ان القوم طلبوني فخفت ان يراني الله منهزما فجاهدت باخلاص ولا جرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولا خوفا من ملائك لا حملن على الجميع . واعلم أن القوم غنيمة لنا . قال فرتب خالد عسكره ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين فجعل في القلب معاذ بن جبل وفي الميمنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وفي الميسرة سعيد بن عامر وفي الجناح الايسر شرحبيل بن حسنة ، وفي الساقة يزيد بن أبي سفيان في أربعة آلاف فارس حول الحريم والبنات والاولاد ، ثم التفت الى النسوة وهن عفراء بنت غفار الحميرية وأم أبان ابنة عتبة وكانت عروسا قد تزوج بها في هذا اليوم ابان بن سعيد ابن العاص والخصاب في يدها والعطر في رأسها ، وخولة بنت الازور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عرفن بالشجاعة والبراعة .

نصيحة خالد

فقال لهن خالد : يا بنات العمالة وبقية التبابعة قد فعلتن فعلا أَرْضِيْتَن به الله تعالى والمسلمين ، وقد بنى لكن الذكر الجميل ، وهذه أبواب الجنة قد فتحت لكن ، وأبواب النار قد أغلقت عنكن وفتحت لأعدائكن ، واعلمن اني اذقن بكن . فان حملت طائفة من الروم عليكن فعانلن عن أنفسكن ، وان رأيتن أحدا من المسلمين قد ولى هاربا فدونكن وإياه بالاعمدة وارمين بولده وقلبن له اين نوالى عن أهلك ومالك وولدك وحريمك فانكن نرصين بذلك الله تعالى . فقالت عفراء بنت غفار . أبها الامير والله لا يفرحنا الا أن نموت أمامك ، فلنضربن وجوه الروم ولنقاتلن الي أن لا تبقى لنا عين تطرف ، والله ما نبالي اذا رمينا الروم كله قال فجزاهن خيرا . ثم عاد الى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفرسه ، ويحرض الناس على القتال ، وهو ينادى برقيق صوته يا معاشر المسلمين : انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا نفوسكم في سبيل الله ولا تحملوا حنى أمركم بالحملة ، ولتكن السهام اذا خرجت من أكباد القسي كأنها من قوس واحدة . فادا تلاصعت السهام رشقا كالجراد لم يخل أن يكون مسما سهم صائب ، - واصبروا وصابروا ورايطوا وانقوا الله لعلكم تفلحون - ، واعلموا أنكم لم تلقوا بعد هذا عدوا مثله ، وان هذه الفئة جملتهم وأبطالهم وملوكهم فجردوا السيوف وأوتروا القسي وفوقوا السهام . ثم ان خالدا أقبل ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر قيس بن هبيرة ورافع بن عميرة وذى الكلاع الحميري وربعة بن عامر ونظائرهم . قال فلما نظر ودان الى

بجيش المسلمين قد زحف ، زحفوا وكانوا ملء تلك الارض في الطول والعرض من كثرتهم فترامى الجمعان وتلاقى الفريقان ، وقد اظهر أعداء الله الصلبان والاعلام ، ورفع المسلمون اصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير .

فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج الروم شيخ كبير وعليه قلنسوة سوداء . فلما قرب من المسلمين نادى بلسان عربي : أيكم المقدم فليخاطبني وليخرج الي وعليه أمان . قال فخرج اليه خالد بن الوليد . فقال له القس : انت أمير القوم ؟ . فقال خالد : كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله ، وان أنا غيرت أو بدلت فلا امارة لي عليهم ولا طاعة . قال القس : بهذا نصرتم علينا ، ثم قال : اعلم انك توسطت بلادا ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها ، وان الفرس دخلوها ورجعوا خائبين ، وان اثتبا بعة أتوها وأقنوا أنفسهم عليها وما بلغوا ما أرادوا ، ولكنكم أنتم نصرتم علينا وان النصر لا يدوم لكم وصاحبني وردان قد اشفق عليكم وقد بعثني اليكم وقال : انه يعطي كل واحد منكم دينارا وثوبا وعمامة ولك أنت مائة دينارا ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فان جيشنا على عدد الذر ولا تظن ان هؤلاء مثل من لقيت من جموعنا ، فان الملك ما انفذ في هذا الجيش الا عظماء البطارقة والاساقفة . قال خالد : والله ما نرجع الا باحدى ثلاث خصال : اما ان تدخلوا في ديننا ، أو تؤدوا الجزية ، أو القتال . وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذر فان الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد (ص) وأنزل ذلك في كتابه العزيز . واما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منا دينارا وعمامة وثوبا فعن قريب ان شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا . فقال الراهب اني راجع الى صاحبي أخبره بجوابك ، ثم لوى راجعا وأخبر وردان بما كان من جواب خالد . فقال وردان : أیظن أننا مثل من لقيه من قبل وانما هؤلاء لحقهم الطمع اذ تقاصرنا عن قتالهم والملك قد أرسل اليهم أكابر البطارقة وما بيننا وبينهم الا جولة الجائل ثم نتركهم صرعى ، ثم رتب اصحابه وزحف وقدم أمامه الرجال صفا أمام القوم والخيالة وبأيديهم المزاريق والقسى . قال فصاح عاذ بن جبل : معاشر الناس ان الجنة قد زخرت لكم والنار قد فتحت لاعدائكم والملائكة عليكم قد اقبلت والحدود العین قد تزينت للقائكم فابشروا بالجنة السرمدية ، ثم قرأ - ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة - بارك الله فيكم الحملة . فقال خالد : مهلا يا معاذ حتى اوصي الناس ، ومشى في الصفوف ورتبها وقال : اعلموا ان هؤلاء أضعافكم فطاولوهم الى وقت العصر ،

ثانها ساعة نرزق فيها النصر ، واياكم أن تولوا الادبار فيراكم الله منهزمين ،
أزحفوا على بركة الله تعالى .

فلما تقارب الجمعان رمت الاروام سهامهم رمية واحدة . قال فقتلوا رجالا
وجرحوا اناسا ، وخالد قد منع الناس من الجملة . فقال ضرار بن الازور :
وما لنا والوقوف والحق سبحانه وتعالى قد تجلى علينا ، والله ما يظن أعداء الله الا
أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا ، فأمرنا بالجملة حتى نحمل معك . قال فأنت لها
يا ضرار ، فخرج ضرار بن الازور ، وقال والله ما من شيء أشهى الى قلبي من ذلك .
ثم حمل ضرار ، وقد تدرع بدرع كان لبطرس أخي بولص ، وألقى الزرد على
وجهه وركب جواده ، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد اخذهما
أيضا من بطرس ، وقد اخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك ، وقد اطلق عنانه وقوم
سبانه وحمل في صفوف الروم فرشقوه بالسهم فلم يصل اليه منهم أذى ، وهو
يخترق صفوفهم ، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارسا ومنلها
رجالة . قال عنان بن عوف النجبي : كنت ممن يعد قتل ضرار بن الازور ،
وكنت كلما قتل فارسا من الروم أعده ، فكان جملة قتل ضرار في حملته هذه
مسانا ورجالا ثلاثين فارسا .

(قال عمر بن سالم) هكذا حدثني نوفل بن زياد . ثم انه رمى البيضة عن
رأسه والزرد عن وجهه ونادى بأعلى صوته : أنا الموت الاصفر ، أنا ضرار بن
الازور ، أنا صاحبكم ، أنا قاتل همدان بن وردان ، أنا البلاء المسلط عليكم وعلى
من أشرك بالرحمن . قال فلما سمعت الروم كلامه عرفوه وتقهقروا الى ورائهم .
قال فطمع فيهم وحمل على أثرهم ، فعند ذلك انطبقت عليه الروم . فقال وردان
من هذا البدوي ، فقالوا أيها الملك هذا الذي بقى طول عمره عاري الجسد ، ومرة
برمح ومرة بنبل . فلما سمع ذلك وبذكر ضرار بن الازور تنفس الصعداء وقال
هذا قاتل ولدي ، ولقد اشتهيت من يأخذ منه بشأري وله مني ما يريد . قال فبرز
اليه بطريق ، وكان صاحب طبرية ، وقال لوردان انا آخذ لك بالثأر ، ثم لوى
عنانه وحمل على ضرار فجالا أكثر من ساعة ، ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق
بها كبده الله فتنجدل صريعا ، فقال وردان لهم ما أتى به ولو أتى به عينا ما صدقته ، فان
هذا لا تطيق الانس أن تقاتله ، وأنا أرى لهذا غيري ، ثم ترجل وغير لامته وألقى
عليه درعا ، وجعل على رأسه التاج وركب جوادا من الخيول العربية وهم أن
يخرج الى ضرار بن الازور ، فتقدم اليه بطريق اسمه اصطفان ، وهو صاحب
عمان . قال وبأس ركاب وردان وقال ايها السيد ان آخذ بشأرك من هذا الذميم
أو أسرته لك أتزوجني ابنتك ، فقال له وردان هي لك وأشهد عليه من حضر من

موت السام . فلما سمع اصطفان بذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له ويحك قد نزل بك ما لا قدرة لك به . قال فلم يدر ضرار ما يقول غير انه أخذ حذره منه ، وقد أخرج اصطفان صليبا من الذهب ، وجعله في عنقه في سلسلة من الفضة وجعل يقبله ويرفعه على رأسه فعلم ضرار انه يستنصر به عليه ، فقال ضرار (رض) ان كنت تستنصر علي به فأنا أستنصر بالقرب المجيب اندي هو ممن دعاه قريب . ثم حمل عليه وأرى الناس أبوابا من الحرب حتى ضيغ الناس من قتالهما ، فصاح خالد يا ابن الازور ما هذا التكاسل والتغافل والجنة قد فتحت لك والنار قد فتحت لاعدائك ، واياك الكسل فان الله عز وجل يعينك قال فأيقظ ضرار نفسه وانقض من سرجه وحمل على خصمه ونصايحت الروم بصاحبها تشجعه وكلاهما في ضرب عظيم ، وقد حميت الشمس ونعب الجوادان . فأشار البطريق الى ضرار أن نرجل حتى نتقابل ، فهم ضرار أن يترجل سنقة على الجواد ، واذا بصدفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيبا امامهم ، وكان ذلك غلام البطريق ، فلما نظر اليه ضرار صاح في جواده ، وقال له : اجلد معي ساعة والا شكوتك الى رسول الله (ص) .

قال فحمحم الجواد وشمر اجنحته جريا واستقبل ضرار غلام البطريق بطعنة فقتله واخذ الجنيب فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناه لوه وعاد ضرار نحو البطريق . فلما رآه اقبل اليه بعد ما قتل غلامه وركب جواده ايقن عدو الله بالهلاك وعلم انه ان ولى قتله بلا محالة ، وان وفف اهلكه . فلما نثر ضرار الى عدو الله علم ما عنده فهجم عليه اذ نظر الى الروم وقد خرج منهم غمر دوس ، وذلك أن وردان لما نظر الى صاحبه وقد اشرف على الموت علم انه ان لم يدركه هلك ، فقال لقومه يا قوم ان هذا الشيطان قد أكل من كبدي قطعة ، واذا لم أقتله فتلت نفسي ولا بد لي من الخروج اليه . قال فخرج في عشرة من البطارقة وهم مدرعون ، وفي ارجلهم اخفاف من الحديد وسواعد من الحديد ، وبأبديةم اعمدة من الحديد ووردان فد لبس لامته وعلى رأسه تاج عظيم فخرجوا ووردان امامهم كأنه شعلة نار ونظر اصطفان الى من خرج فصرخ بضرار فلم يلتفت الى من خرج اليه الا أنه تأهب . فبينما هم كذلك اذ نظر خالد الى القوم وخروجهم ونظر الى التاج ، وهو يلمع على رأس صاحبهم . فقال ان التاج لا يكون الا على رأس الملك ولا شك انه صاحب القوم قد خرج الى صاحبنا فما الذي يفقدنا عن نصرته ؟ . ثم قال لاصحابه لا يخرج الا عشرة حنى نساوي القوم ، فخرج خالد في عشرة اصحابه وأطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة ، قال ووصل الروم الى ضرار فاستقبلهم بقلب اقوى من الحجر الجلمود ، قال فناده خالد

ابشر يا ضرار • فقد اسعدك الجبار ولا تجزع من الكفار ، فقال ضرار (رض) ما اقرب النصر من الله ، وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد وردان ، ولم يبرح ضرار عن خصمه اصطفان ، وقد كل ساعة وارتعدت فرائصه عندما نظر الى خالد ومن معه ، فنظر يميناً وشمالاً ليطلب الهرب فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنانه ، فلما أيقن بالموتلقى نفسه الى الارض وولى هارباً فبادر اليه ضرار والقى نفسه عن جواده وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضا على وجه الارض ، وكان عدو الله كالصخر الجلمود ، وكان ضرار نحيف الجسم غير ان الله تعالى اعطاه قوة الايمان • فلما طال بهم العراك ضرب بيده الى مراق بطنه وقلعه من الارض بحيله وجلد به الارض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية : ايها السيد انجذني مما انا فيه فقد هلكك فصاح وردان يا ويلك ومن ينقذني انا من هؤلاء السباع الكاسرة ، فسمع خالد ذلك فطمع فيه وحمل على وردان وهم ضرار بخصمه ونظر اليهما الفريقان ، وأقبل صاحب رسول الله (ص) ضرار فلم يمهل خصمه دون حتى برك على صدره وذبحه مثل البعير ، وكل واحد مشغل عن نصرة صاحبه • قال فأخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواده وحملت الروم على المسلمين ونادى سعيد بن زيد : يا معشر الناس اذكروا الوقوف بين يدي الله الملك الجبار فايكم ان تولوا الادبار فتستوجبوا دخول النار ، يا اهل الايمان با حملة القرآن اصبروا • قال فزاد الناس بقوله نشاطاً وتزاحم الفريقان • قال وجاء وقت العصر فافترفوا وقد قتل من الروم ثلاثة الاف وعشرة من ملوكهم ، ومنهم رومان صاحب الاميرة ، ودمر صاحب نوى ، وكوكب صاحب ارض البلقاء ، ولاوى بن حنا صاحب غزة • قال ثم افترف القوم ورجع وردان الى مكانه وغد امتلأ قلبه رعباً مما ظهر له من المسلمين من شدة صبرهم وقتالهم • فجمع البطارقة وقال لهم : يا اهل دين النصرانية ما تقولون في هؤلاء العرب فاني اراهم غالبين علينا وقد رأيت اسيا فهم قاطعة وخيلهم صابرة وسواعدهم بليدة ، وان القوم أطوع منكم لربكم وما خذلتكم الا بالظلم والجور والغدر ، وما مرادي منكم الا أن تتوبوا الى ربكم ، فان فعلتم ذلك رجوت لكم النصر من عدوكم ، وان لم تفعلوا ذلك فائذنوا بحرب من المسيح وبهلاك انفسكم ، فان الله عاقبكم اسد عقوبة اذ سلط عليكم اقواما لا تفكر بهم ولا نعدهم ، لان اكثرهم جياع وعبيد وعراة ومساكين اخرجهم الينا فحط الحجاز وجوعه وشدة الضرر والبلاء ، والان قد أكلوا من خبز بلادنا وفواكه أرضنا وأكلوا العسل والتين والعنب ، وأعظم ذلك سبي نسائكم واموالكم •

(قال الواقدي) فلما سمع القوم ذلك بكوا وقالوا نقتل عن آخرنا ولا يصل إلينا هؤلاء القوم وانا نرى أن نقاتلهم بالرماح . قال فلما سمع وردان ذلك منهم صاح بالبطارقة وقال لهم ما عندكم من الرأي ؟ . فقال رجل منهم يا وردان اعلم انك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم ، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرينا ولا يبالي من احد ولا يرجع حتى يقتل منهم ، وقد قال لهم نبيهم ان من قتل منكم صار الى الجنة . ومن قتل من الروم صار الى النار ، والموت والحياة عندهم سواء وما أرى لكم من القوم مطمعا الا أن نتحيل على صاحبهم فنقتله فان قتلتموه ينهزم القوم وانك لا تصل اليه الا بحيلة توفسه فيها . فقال وردان واي حيلة ندخل بها على القوم والحيل والخداع والمكر منهم ؟ .

فقال له البطريق : أنا أقول لك شيئا ان صنعته وصلت به الى امير العرب من حيث لا يصل اليك شيء ولا أذى ، وذلك أنك تنتخب عشرة من افرسان من ذوي الشدة والبأس ويكمنون في مكمن من جهة العسكر قبل خروجك اليه وبعد ذلك تخرج اليه وتشاغله بالحديث ثم اهجم عليه وأخرج قومك يبادرون من المكمن ويقطعون اربا اربا وتستريح منه وبعد ذلك تتفرق اصحابه ولا يجتمع منهم أحد . قال فلما سمع وردان ذلك من البطريق فرح فرحا عظيما . وقال : ما هذا الا رأي سديد فنعم ما أشرت به وقد أصبت فيما ذكرت غير ان هذا الامر يعمل في جنح الليل ولا يأتي الصباح الا وقد فرغنا مما نريد ، ثم ان وردان دعا برجل من العرب المنتصرة اسمه داود وكان في سكنه . وقال له يا داود أنا أعلم انك فصيح اللسان واني أريد ان تخرج الى هؤلاء العرب وتسألهم ان يقطعوا الحرب بيننا وبينهم ، وقل لهم لا يخرجون لنا بكرة النهار حتى أخرج بنفسي اليهم منفردا عن قومي ولعلنا نصطليح مع العرب . فقال داود ويحك وتخالف أمر الملك هرقل فيما أمرك به من الحرب وتصطليح انت والعرب فان الملك ينسبك الى الجزع والفرع وما كنت بالذي أخاطب العرب في ذلك أبدا فيبلغ الملك اني كنت السبب في ذلك فيقتلني . فقال له وردان يا ويلك انما دبرت حيلة على أمير العرب حتى أصل اليه بها فأقتله وتتفرق هؤلاء العرب عنا ثم انه حدثه بما عزم عليه من المكر بخالد بن الوليد . فقال لوردان ان الباغي مخذول في كل فعل فالتق الجمع بالجمع واترك ما عزمت عليه ، فقال وردان وقد غضب ويلك أنت تعاندني فيما أمرتك به دع عنك المحاجة . فقال حبا وكرامة ، ثم انه مضى وقال في نفسه ان وردان قد عزم ان يلحق بولده ، ثم اقبل حتى انه وقف قريبا من المسلمين ونادى برفيح صوته ، وقال يا معاشر العرب حسبكم من القتل وسفك الدماء فان الله تعالى يسألكم عن سفكها ،

وأريد أن يخرج الي أمير العرب حتى اخاطبه بما ارسلت به . قال فما استتم كلامه حتى خرج اليه خالد (رض) و هو كأنه شعلة نار .

فلما نظر اليه داود النصراني قال له : يا عربي على رسلك فما خرجت أحارب ولا أنا من رجال الحرب وما أنا الا رسول . فلما سمع خالد مقالته قرب منه . وقال اذكر مسألتك واستعمل الصدق تنج فمن صدق نجا ومن كذب هلك ، فقال صدقت يا عربي : ان أميرنا وردان كاره سفك الدماء ، وقد رأى شدتكم ولا يريد حربكم ، وقد نظر الي من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم ، وقد رأى ان يدفع لكم مالا ويحقق به دماء الناس لكن بشرط ان يكون بينك وبينه كتاب وشهد عليك كبراء قومك انك لا تتعرض له ولا لاحد من أصحابه ولا تحصن من حصونه ، فان فعلت ذلك وثق بقولك وهو يسألك أن تقطع الحرب بقية يومك ، فاذا اصبحت فاخرج بنفسك ولا يكن معك أحد ويخرج هو أيضا منردا فننظر ما تتفقان عليه عسى ان تحققنا دماء الناس بيننا وبينكم . قال فلما سمع خالد ما نطق به داود قال له : ان كان ما أخبر به صاحبكم يريد به حيلة أو مكيدة فنحن والله جرتومة الخداع وما متلنا يأتي بحيلة ولا بخديعة ، فان كان ذلك ضميره واعتقاده فما هو الا قرب أجله وانقطاع عمره وهلاك جموعكم والانفصال بيننا وبينكم ، وان كان ذلك حقا من قوله فلست اصالحه الا اذا أدى الجزية عن جماعته . وأما المال فلست براغب فيه الا على ما ذكرته لكم وعن قريب نأخذ اموالكم ونملك بلادكم . فقال داود وقد عظم عليه كلام خالد ما يكون الامر الا كما ذكرت فاذا نوافقتهم كان الانفصال بيننا ، وها اننا راجع فأذكر له ما ذكرت ثم لوى راجعا وقد امتلأ قلبه رعبا من خالد وفزع منه فزعا شديدا ، ثم قال في نفسه صدق والله أمير العرب وأنا اعلم والله ان وردان اول مقتول ونحن من بعده وما لي الا أن أصدق أمير العرب وأخذ لي ولاهلي منه أمانا ، ثم رجع الي خالد وقال له : يا امير اني قد أضمرت على سر وأريد أن أبديه لك لانني أعلم أن البلاد لكم ، ان وردان قد نوى على شيء . فقال خالد وما هو ؟ . فقال خذ لنفسك الحذر وكن مستيقظا فانه قد اضر لك كيذا ، ثم أخبره بالقصة من أولها الي اخرها ، ثم قال لخالد أريد منك الامان لي ولاهلي . فقال خالد الامان لك ولاهلك ولاولادك ان أنت لم تخبر القوم ولم تغدر قال داود لو أردت أن أغدر لما حدثتك . فقال خالد وأين كمين القوم ؟ . قال عند كثيب عن يمين عسكرهم ، ثم انه خلاه ورجع وأعلم وردان ففرح وقال الان ارجو أن يظفرنني الصليب بهم ، ثم انه دعا بعشرة من الابطال ، وقال لهم امضوا رجالة وأكمنوا وأمرهم أن يفعلوا ما دبروه . وأما خالد فانه رجع فلقيه امين الامة ابو عبيدة فرآه ضاحكا . فقال يا ابا سليمان اضحك الله سنك ما

الخبر ؟ فحدثه بما جرى . فقال ابو عبيدة على ماذا عزمتم . قال عزمتم ان اخرج الى القوم وحدي . فقال يا ابا سليمان لعمرك انك لكفاء ولكن ما أمرك الله ان تلقي بنفسك الى التهلكة والله تعالى يقول - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل نرهبون به عدو الله وعدوكم - وقد أعد لك عشرة ، وهو حادي عشر وما آمن عليك من اللعين ولكن اندب له رجالة كما ندب لك رجالة ويكمنون قريبا من القوم ، فاذا صرخ اللعين بقومه فاصرخ انت بقومك ونكون نحن متأهبين على خيولنا ، فاذا فرغت من عدو الله حملنا جميعا ونرجوا من الله النصر ، ثم قال : والمسلمون هم رافع بن عميره الطائي ، ومعاذ بن جبل ، وضرار بن الازور ، وسعيد بن زيد ، وقيس بن هبيرة ، وميسرة بن مسروق العبسي ، وعدي بن حاتم حتى استتم العشرة واخبرهم خالد بما قد عزم عليه الروم من الحيلة والمكيدة التي قد دبرها وردان . وقال اخرجوا رجالة بحيث لا يدري بكم احد حتى انكم تأتون الكتيب الذي عن يمين العسكر فاكمنوا هناك ، فاذا صرخت بكم فبادروا وانفروا للقوم كل واحد لواحد واتركوني لعدو الله فانني ان شاء الله تعالى كفء له فقال ضرار : ايها الامير اخاف ان يكثرك عليك الجمع الكثير فلا نأمن ان يصلوا بشرهم اليك ، وقد كنت ادبر لك حيلة اننا نسير من وقتنا هذا الى مكمن القوم فاذا وجدناهم رقادا قتلناهم وفرغنا منهم قبل الصباح ونكمن نحن في مواضعهم فاذا خلوت انت بعدو الله خرجنا عليكم بغير مفالة .

فقال خالد افعل يا ابا الازور ما ذكرت ان وجدت الى ذلك سبيلا وخذ معك هؤلاء الذين ندبتهم وانت الامير عليهم ، وارجو ان الله يبلغك ما تطلبه ، وخرج هو واصحابه في جنتج الليل رجالة وبأيديهم اسلحتهم وودعوا الناس ، وكان وقت خروجهم قد مضى ثلث الليل ، ثم سار ضرار حتى وصل الكتيب فارتف اصحابه وقال على رسلكم حتى استخبر لكم خبر القوم . فلما اشرف عندهم من بعيد سمع غطيظهم وهم نيام سكرى غرقوا في النوم لما نالهم من التعب والنصب وقد أمنوا من أحد ينظرهم . فقال ضرار في نفسه ان أنا دنوت من القوم لاقتلهم خشيت ان يوقظ بعضهم بعضا . قال فرجع الى اصحابه وقال لهم ابشروا فقد اتاكم الله بما تريدون ، وأذهب عنكم ما تحذرون ، فجردوا سيوفهم وسيروا الى القوم فاقتلوهم كيف شئتم ، ثم تقدم ضرار امامهم وهم في اثره الى ان وصل بهم اليهم فوجدوهم نياما كل واحد منهم سلاحه عند رأسه فانفرد كل واحد منهم بواحد ، فلم يلبثوا الا وقد فرغوا منهم عن اخرهم وأخذ كل واحد سلاح غريمه وأخذوا كل ما معهم من الزاد وغيره ، فقال لهم ضرارا أبشروا فان هذا اول النصر ان شاء الله تعالى ، وأقبلوا بقبيلة

ليلتهم يصلون. ويدعون الله ان ينصرهم على عدوهم ولم يزل كل واحد منهم في مصلاه الى ان اضاء الفجر فصلوا صلاة الفجر . فلما فرغوا من الصلاة لبس كل واحد ثياب غريمة ولباسه وغيبوا القتلى مخافة ان يرسل اليهم وردان خبرا . .

معركة اجنادين

(قال الواقدي) فلما اصبح الصباح صلى خالد بالناس ورتب اصحابه لاهبة الحرب ، فبينما هم كذلك اذ خرج من القلب فارس وقال : يا معاشر العرب اريد اميركم ليخرج الى صاحبنا وردان لننظر ما يتفقدان سفيه من امر الجيشين وحقن الدماء بينهما . قال فخرج اليه خالد بن الوليد . فقال له الفارس ان وردان يريد ان تنتظره حتى تتكلم معه . فقال خالد السمع والطاعة ارجع واخبره ، فعند ذلك خرج وردان وقد تزين بفلاذة جوهر وعلى رأسه تاج . فقال خالد عندما رآه هذه غنيمة للمسلمين ان شاء الله تعالى . قال فلما نظر عدو الله الى خالد ترجل عن جواده وكذلك خالد وجلس كلاهما ، وقد جعل عدو الله سيفه على فخذه . فقال له خالد قل ما تشاء ، واستعمل الصدق والزم طريق الحق ، واعلم انك جالس بين يدي رجل لا يعرف الحيل . فقال ما تريد ؟ فقال وردان يا خالد اذكر لي ما الذي تريدون وقرب الامر بيني وبينكم ، فان كنت تطلب منا شيئا فلا تبخل به عليك صدقة منا عليكم لاننا ليس عندنا امة اضعف منكم ، وقد علمنا انكم كنتم في بلاد قحط وجوع تموتون جوعا فاقنع منا بالقليل وارحل عنا . فلما سمع منه خالد هذا الكلام . قال له يا كلب الروم ان الله عز وجل اغنانا عن صدقاتكم واموالكم وجعل اموالكم نتقاسمها بيننا وأحل لنا نساءكم واولادكم الا ان تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله ، وان ابستم بالحرب بيننا وبينكم ، أو الجزية عن يد وانتم صاغرون ، وبالله اقسم ان الحرب اشهى لنا من الصلح . واما قولك يا عدو الله لم تكن امة اضعف منا عندكم فانتم عندنا بمنزلة الكلاب ، وان الواحد منا يلقي الفا منكم بعون الله تعالى وما هذا خطاب من يطلب الصلح ، فان كنت ترجو ان تصل الي بانفرادي عن قومي وقومك فدونك وما تريد ؟

قال فلما سمع وردان مقالات خالد وثب من مكانه من غير ان يجرد سيفه وتشابكا وثقابضا وتعانقا . قال فصاح عدو الله عندما وثق من خالد وقال لاصحابه : بادروا الان الصليب قد مكنتني من أمير العرب ، فما استم كلامه حتى بادر اليه الصحابة كأنهم عقبان يتقدمهم ضرار بن الازور ، وقد رموا

النشاب عنهم وجردوا سيوفهم وضرار عاري الجسد سراويله قابض على سيفه وهو يزأر كالأسد وأصحابه من ورائه فالتفت عدو الله ونظر الى القوم وهم يتسابقون اليه وهو يظن انهم قومه حتى انهم وصلوا اليه ونظر في أوائلهم ضرار بن الازور . فقال لخالد سألتك بحق معبودك ان تقتلني أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني . فقال خالد هو قاتلك لا محالة فهز ضرار سيفه وقال يا عدو الله اين خديعتك من خديعة اصحاب رسول الله (ص) . فقال خالد اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله ، ثم وصل اليه اصحاب رسول الله (ص) فهزوا سيوفهم في وجهه ومرادهم ان يقتلوه ونظر عدو الله الى ما دهمه فوقع الى الارض وهو يشير باصبعه الامان الامان . فقال خالد يا عدو الله لا نعطي الامان الا لاهل الامان وانت اظهرت لنا المكر والخديعة - والله خير الماكرين - فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله دون ان ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه ، ثم أخذ التاج من على رأسه . وقال من سبق الى شيء كان اولي به وقد أدركته سيوف المجاهدين فقطعوه اربا اربا وتبادروا الى سيفه فأخذوه ، ثم ان خالد قال لاصحابه اني اريد ان نحملوا على الروم لانهم مشتاقون الى اصحابهم . قال فأخذوا رأس عدو الله وردان وتوجهوا نحو عسكر الروم . فلما وصل خالد الصفوف نادى . يا اعداء الله هذا رأس صاحبكم وردان . انا خالد بن الوليد انا صاحب رسول الله (ص) ، ثم انه رمى الرأس وحمل عليهم وحمل المسلمون وحمل ابو عبيدة وقال احملوا يا اهل القرآن وحفاظ الدين وحماة المسلمين . فلما رأى الروم رأس وردان ولوا الادبار وركنوا الى الفرار ، ولم يزل السيف يعمل فيهم من وقت الصباح الى الغروب . قال عامر بن الطفيل الدوسي : كنت مع ابي عبيدة ونحن نتبع المنهزمين الى طريق غزة اذ اشرف علينا خيل فظننا انها نجدة من عند الملك هرقل فأخذنا على انفسنا واذا بالغبرة قد قربت منا ، فاذا هي عسكر من ارسلها ابو بكر الصديق ، وما رأوا احدا من المنهزمين الا قتلوه ونهبوا ما معه . (قال الواقدي) وكان الروم بأجنادين تسعين الفا فقتل منهم في ذلك اليوم خمسون الفا وتفرق من بقى منهم ، فمنهم من انهزم الى دمشق ، ومنهم من انهزم الى قيسارية وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها واخذوا منهم صلبان الذهب والفضة ، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان الى وقت القسمة وقال خالد لست أقسم عليكم شيئا الا بعد فتح دمشق ان شاء الله تعالى ، وكانت الواقعة باجنادين ليلة ست خلت من جمادي الاول سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية ، وذلك قبل وفاة ابي بكر بثلاث وعشرين ليلة ، ثم ان خالد (رض)

كتب كتابا الى ابي بكر يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد المخزومي الى خليفة رسول الله (ص) ، سلام عليك . اما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) ، وازيد حمدا وشكرا على المسلمين ودمارا على المتكبرين المشركين وانصداع بيعتهم ، وانا لقينا جموعهم بأجنادين وقد رفعوا صلبانهم وتقاسموا بدينهم ان لا يفروا ولا ينهزموا . . . فخرجنا اليهم واستعنا بالله عز وجل متوكلين على الله خالقنا فرزقنا الله الصبر والتصر ، وكتب الله على اعدائنا القهر فقاتلناهم في كل واد وسبب ، وجملة من احصيناهم ممن قتل من المشركون خمسون الفا وقتل من المسلمين في اليوم الاول والثاني اربعمائة وخمسون رجلا ختم الله لهم بالمسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سرا ، فلما فهم ما فيه قرأه على عشرون والباقي من اخلاط الناس ، ويوم كتبت لك الكتاب كان يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادي الاخر ، ونحن راجعون الى دمشق ان شاء الله تعالى فادع لنا بالنصر والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وسلمه الى عبد الرحمن بن حميد وامره بالمسير الى المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة واتم السلام ، وسار خالد بالمسلمين طالب دمشق .

(قال الواقدي) رحمة الله عليه : ولقد بلغني ان أبا بكر الصديق كان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر اذ أقبل عبد الرحمن بن حميد . فلما رآه تسابقت اليه أصغابه وقالوا له من أين أقبلت ؟ قال من الشام وان الله قد نصر المسلمين فسجد أبو بكر الصديق لله شكرا ، وأقبل عبد الرحمن ابن حميد الى أبي بكر وقال : يا خليفة رسول الله ارفع رأسك فقد أقر الله عينك شالمسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سرا ، فلما فهم ما فيه قرأه على المسلمين جهرا ، فتزاحم الناس يسمعون قراءة الكتاب ، فشاع الخبر في المدينة فهرعت الناس من كل مكان ، فقرأه أبو بكر ثاني مرة وتسامع الناس من أهل مكة والحجاز واليمن بما فتح الله على أيدي المسلمين وما ملكوا من أموال الروم فتسابقوا بالخروج الى الشام ورغبوا في الثواب والاجر ، وأقبل الى المدينة من أهل مكة وأكابرهم بالخييل والرماح وفي اوائلهم ابو سفيان والغيداق بن وائل ، وأقبلوا يستأذنون أبا بكر في الخروج الى الشام فكره عمر بن الخطاب خروجهم الى الشام وقال لابي بكر : لا تأذن للقوم فان في قلوبهم حقائق وضغائن ، والحمد لله الذي كانت كلمته هي العليا وكلمتهم هي السفلى وهم على كفرهم وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله

١٠ لا أن يتم نوره ، ونحن مع ذلك نقول : ليس مع الله غالب . فلما أن أعز الله ديننا ونصر شريعتنا اسلموا خوفا من السيف . فلما سمعوا ان جند الله قد نصروا على الروم أتونا لنبعث بهم الى الاعداء ليقاسموا السابقين الاولين ، والصواب أن لا نقر بهم . فقال أبو بكر لا أخالف لك قولا ولا أعصى لك أمرا . قال وبلغ أهل مكة ما تكلم به عمر بن الخطاب فأقبلوا بجمعهم الى أبي بكر الصديق في المسجد فوجدوا حوله جماعة من المسلمين وهم يتذاكرون ما فتح الله على المسلمين وعمر بن الخطاب عن يساره وعلي بن أبي طالب عن يمينه والناس حوله ، فأقبلت قريش الى أبي بكر فسلموا عليه وجلسوا بين يديه وتشاوروا فيمن يكون أولهم كلاما ، فكان أول من تكلم أبو سفيان بن حرب فأقبل على عمر بن الخطاب وقال : يا عمر كنت لنا مبغضا في الجاهلية ، فلما هدانا الله تعالى الى الاسلام هدمنا ما كان لك في قلوبنا لان الايمان يهدم الشرك وأنت بعد اليوم تبغضنا فما هذه العداوة يا ابن الخطاب قديما وحديثا ؟ اما آن لك ان تغسل ما بقلبك من الحقد والتنافر ، وانا لنعلم أنك أفضل منا وأسبق في الايمان والجهاد ، ونحن عارفون بمرتبتكم غير منكرين . قال فسكت عمر (رض) واستحى من هذا الكلام . فقال أبو سفيان اني اشهدكم اني قد حبست نفسي في سبيل الله وكذلك تكلم سادات مكة . فقال ابو بكر اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون ، وأجزهم باحسن ما يعملون وأرزقهم النصر على عدوهم ولا تمكن عدوهم فيهم - انك على كل شيء قدير - .

(قال الواقدي) فما تمت أيام قلائل حتى جاء جمع من اليمن وعليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي (رض) يريد الشام فما لبنوا حتى أقبل مالك بن الاشتر النخعي (رض) عنه فنزل عند الامام علي (رض) بأهله ، وكان مالك يحب سيدنا عليا ، وقد شهر معه الوقائع وخاض المعامع في عهد رسول الله (ص) وقد عزم على الخروج مع الناس الى الشام .

كتاب أبو بكر الى خالد

(قال الواقدي) واجتمع بالمدينة نحو تسعة الاف ، فلما نم امرهم كتب ابو بكر كتابا الى خالد بن الوليد يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي بكر خليفة رسول الله الى خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين . أما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ص) ، وأوصيكم وآمركم بتقوى الله في السر والعلانية ، وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين

من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل الى دمشق الى أن يأذن الله بفتحها على يدك فاذا تم لك ذلك فسر الى حمص وانطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وقد تقدم اليك أبطال اليمن وأبطال مكة ويكفيك بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الاشتر وانزل على المدينة العظمى انطاكية ، فان بها الملك هرقل فان صالحك فصالحه وان حاربك فحاربه ولا تدخل الدروب ، وأقول هذا وان الاجل قد قرب . تم كتب - كل نفس ذائقة الموت - ثم ختم الكتاب وطواه ودفعه الى عبد الرحمن ، وقال له أنت كنت الرسول من الشام وانت ترد الجواب فأخذه عبد الرحمن وسار على مطيته يطوي المنازل والمناهل الى أن وصل الى دمشق .

(قال حدثني) نافع بن عميرة قال لما بعث خالد بن الوليد الكتاب الى ابي بكر الصديق ارتحل يريد دمشق ، وكان أهلها قد سمعوا بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين فخافوا وتحصنوا بدمشق واعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الاسوار ونشروا الاعلام والصلبان ، فلما أخذوا على أنفسهم اشرف عليهم الامير خالد بن الوليد والجيش قد زاد عمرو بن العاص في تسعة الاف ويزيد بن أبي سفيان في الفين وشرجيل بن حسنة وعامر بن ربيعة في ألفين ، وأقبل السواد من ورائهم معاذ بن جبل في الفين ، فلما رأى أهل دمشق عسكر المسلمين منل البحر الزاخر ايقنوا بالهلاك ، وأقبل خالد في جيش الزحف فنزل على الدير المعروف به ، وبينه وبين المدينة أقل من ميل ، فلما نزل هناك دعا بالامراء فأحضرهم ، فقال لابي عبيدة انت نعلم ما ظهر لنا من غدر هؤلاء القوم عند انصرافنا عنهم وخروجهم في اثرنا فامض بمن معك من اصحابك وانزل بهم على باب الجابية ولا تسمح للقوم بالامان فيأخذوك بمكرهم ولتكن متباعدة عن الباب وابعث اليهم فوجا بعد فوج ، واجعل قتال الناس دولا ولا يضق صدرك من كثرة المقام ولا تبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين . فقال ابو عبيدة حبا وكرامة . ثم انه خرج حتى نزل بباب الجابية ونصب له بيتا من الشعر بالبعد من الباب .

حول دمشق

(قال الواقدي) حدثني مسلمة بن عوف عن سالم بن عبد الله عن حجاج الانصاري . قال قلت لجدي رفاعة بن عاصم ، وكان ممن قاتل بدمشق ، وكان في خيل أبي عبيدة فقلت يا جداه ما منع ابا عبيدة أن ينصب له قبة من بعض

قبيب الروم مما اخذه من اجنادين ومن بصرى ، فقد كان عندهم الوف من ذلك ، فقال يا بني منعهم من ذلك التواضع ولم يتنافسوا في زينة الدنيا وملكها حتى ينظر الروم انهم لا يقاتلون طلبا للملك ، وانما يقاتلون رجاء ثواب الله تعالى وطلب الاخرة ونصرة للدين ولقد كنا ننزل فننصب خيامنا وخيام الروم بالبعد . قال فلما نزل ابو عبيدة على باب الجابية أمر اصحابه بالقتال . ثم ان خالدا استدعى يزيد بن ابي سفيان ، وقال له يا يزيد خذ صاحبك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك ، وان خرج اليك احد لا يكون لك به طاقة فابعث السي حتى انجدك ان شاء الله تعالى . ثم استدعى بشر حبييل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) وقال له انزل على باب توما . ثم توجه بقومه واستدعى بعمر بن العاص وأمره ان يسير الى باب الفراديس . ثم استدعى بعده بقيس بن هبيرة ، وقال له اذهب بقومك الى باب الفرج . ثم نزل خالد الى الباب الشرقي ودعا بضرار بن الازور (رض) وضم اليه ألفي فارس ، وقال له تطوف حول المدينة بعسكرك ، وان دهمك أمر أو لاحت لك عيون القوم فأرسل الينا . قال ثم سار ضرار واتبعه قومه وبقي خالد على الباب الشرقي . ثم قدم عبد الرحمن بن حميد من المدينة بكتاب أبي بكر الصديق (رض) وعبدل الى ناحية خالد بن الوليد على الباب الشرقي وقد تقدم للقتال طائفة من اصحابه مع رافع بن عميرة . فلما رفع اليه الكتاب فرح بعد أن قرأه على المسلمين واستبشر بقدوم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأبي سفيان بن حرب . قال وشاع الخبر عند جميع الناس وبعث خالد كتاب ابي بكر الى كل باب فقرئ على الناس ويات الناس متأهبين للحرب يتحارسون الى الصباح وضرار يطوف حولهم ولا يقف في مكان واحد مخافة ان يكبس بهم العدو .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان اهل دمشق اجتمعوا الى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم . فقال بعضهم ما لنا الا الصلح ونعطي العرب جميع ما طلبوه منا ، وقال اخرون ما نحن بأكثر من جموع اجنادين . فقال لهم بطريق من الروم اطلبوا لنا صهر الملك توما نتشاور في هذا الامر لنسمع ما يقول ونطلب منه ان يكشف عنا ما نحن فيه فاما ان يصلحهم ، واما ان يحامي عنا . قال فمضى القوم الى توما وعليه رجال موكلون بالسلاح ، فقالوا لهم ما الذي تريدون ؟ فقالوا نريد صهر الملك توما نشاوره في هذا الامر . قال فأذنوا لهم فدخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه . فقال لهم ما الذي تريدون ؟ فقالوا أيها السيد انظر ما نزل ببلادنا ، وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به . فاما ان نصالح العرب على ما طلبوا . واما ان نرسل الى الملك فينجدنا او يمانع عنا فقد أشرفنا على

الهلاك ، فلما سمع ذلك منهم نبسم ضاحكا وقال : يا ويلكم أطمعتم العرب فيكم وحق رأس الملك ما أرى القوم أهلا للقتال ولا هم خاطرون لي على بال فلو فتح لهم الباب ما جسروا ان يدخلوا . فقالوا أيها السيد ان أكبرهم وأصغرهم يقاتل العسرة والمائة وصاحبهم داهية لا تطاق . فان كان ولا بد فاخرج بنا لقتالهم . فقال لهم توما انكم أكثر منهم ومدينتنا حصينة ولكم منل هذا العدد والسلاح ، وأما القوم فهم حفاة عراة ، فقالوا له أيها السيد ان معهم من عددنا واسلحتنا كثيرا مما أخذوه من واقعة فلسطين ومما أخذوه من بصرى ومن يوم لقائهم بكلوس وعزازير ومما أخذوه من أجنادين ، وأيضا ان نبيهم قال لهم ان من قتل منا صار الى الجنة فلاجل ذلك يبقون عراة الاجساد ليصلوا الى ما قال لهم نبيهم . قال فضحك من قولهم ، وقال لهم لاجل ذلك أطمعتم العرب فينا ولو صدقتم في الحرب والصدام لقتلتموهم لانكم اضعافهم مرارا .

فقالوا ايها السيد اكفنا مؤونتهم كيف شئت ، واعلم انك ان لم تمنعهم عنا فتحنا لهم الابواب وصالحناهم . فلما سمع توما كلامهم فكر طويلا وخشي أن تفعل القوم ذلك . فقال انا أصرف عنكم هؤلاء العرب واقتل اميرهم وأريد منكم ان تقاثلوا معي . قالوا نحن معك وبين يديك نقاتل حتى نهلك عن آخرنا . فقال لهم باكروا القوم بالقتال فانصرفوا عنه وهم له شاكرون ولامره منتظرون ، وبانوا بقية ليلتهم على الحصن وأصحاب رسول الله (ص) في مواضعهم ولهم ضجة بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وخالد بن الوليد عند الدير ومعه النساء والعيال والاموال والغنائم التي غنموها من أعدائهم ، ورافع بن عميرة على الباب الشرقي في عسكر الزحف وغيرهم ولم يزل الناس في الحرس الى ان برق الصباح وصلى كل امير بمن معه من قومه وصلى أبو عبيدة بمن معه . ثم أمر اصحابه بالزحف ، وقال لهم : لا تخلوا عن القتال واركبوا الخيل .

(حدثني) رفاعة بن قيس ، قال سألت والدي قيسا ، وكان ممن حضر فتوح دمشق الشام فقلت له أكنتم تقاتلون في دمشق خيالة او رجالا يوم حصار المسلمين ، فقال ما كان أحد منا فارسا الا زهاء ألفي فارس مع ضرار بن الازور ، وهو يطوف بهم حول العسكر وحول المدينة وكلما أتى بابا من الابواب وقف عنده وحرّض أهله على القتال ، وهو يقول صبورا صبورا لاعداء الله . قال وأقبل توما صهر الملك هرقل من بابه الذي يدعى باسمه ، وكان عندهم عابدا راهبا ولم يكن في بلاد الشرك أعبد منه ولا أزهّد في دينهم ،

وكان معظماً عند الروم فخرج ذلك اليوم من قصره والصليب الاعظم على رأسه وعلا به فوق البرج وأوقف البطارقة حوله والانجيل تحمله ذوو المعرفة قال ونصبوه بالقرب من الصليب ورفع القوم أصواتهم ، وتقدم توما ووضع يده على أسطر من الانجيل . وقال اللهم ان كنا على الحق فانصرنا ولا تسلمنا لاعدائنا واخذل الظالم منا فانك به عليم اللهم اننا نتقرب اليك بالصليب ومن صلب على دبه ، وأظهر الايات الربانية والافعال اللاهوتية انصرنا على هؤلاء الظالمين . قال وأمن الناس على دعائه . قال رفاعة بن قيس : هكذا حدثني شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) والذي فسر لنا هذا الكلام روماس صاحب بصرى ، وكان في جيش شرحبيل بن حسنة يقاتل على باب توما ، وكلما قال الروم شيئاً بلغتهم فسرهم لنا . قال ونهض شرحبيل وقصد الباب بحملته ، وقد عظم عليه قول توما اللعين ، وقال له يا لعين لقد كذبت ان ميل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب احياء متى شاء ورفعته متى شاء . ثم ان روماس ناوشه بالقتال ، فقاتل توما قتالا شديدا وهشم الناس بالحجارة ورمى الشباب رميا متداركا فجرح رجالا ، وكان ممن جرح أبان بن سعيد بن العاص أصابته نصابة ، وكانت مسمومة فأحس بلهيب السم في بدنه فتأخر وحمله اخوانه الى ان اتوا به الى العسكر فأرادوا حل العمامة . فقال لا تحلوها فان حللتهم جرحي تبعثها روعي أما والله لقد رزقني الله ما كنت أتمناه . قال فلم يسمعوا قوله وحلوا عمامته . فلما حلوها شخص الى السماء وصار يشير باصبعيه أشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، فما استتمها حتى توفي الى رحمة الله تعالى .

بطولة المرأة

وكانت زوجته بنت عمه ، وكان قد تزوجها باجنادين ، وكانت قريبة العهد من العرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها ، ولا العطر من رأسها ، وكانت من المترجلات البازلات من اهل بيت الشجاعة واليراعة ، فلما سمعت بموت بعلمها أته تتعثر في أذيالها الى ان وقعت عليه ، فلما نظرته صبرت واحتسبت ، ولم يسمع منها غير قولها هنئت بما أعطيت ومضيت الى جوار ربك الذي جمع بيننا ثم فرق ، ولا جهدن حتى الحق بك فاني لمتشوقة اليك ، حرام علي أن يمسنني بعدك أحد واني قد حبست نفسي في سبيل الله عسى ان الحق بك وأرجو أن يكون ذلك عاجلا ، ثم حفر له ودفن مكانه فقبره معروف ، وصلى عليه خالد بن الوليد ، فلما غيب في التراب لم تقف على قبره دون أن أتت الى سلاحه ولحققت الجيش من غير أن تعلم خالدا بذلك ،

وفالت على أى باب قتل بعلي ؛ ف قيل لها على باب توما والذي قتله هو صهر الملك ، قال فسارت الى أصحاب شرحبيل بن حسنة فاختلفت بهم ، وقاتلت مع الناس قتالا لم ير مثله ، وكانت أرمى الناس بالنبل ، وكان قد جعل لها قوس وكنانة . قال شرحبيل بن حسنة رأيت يوم حصار دمشق رجلا على باب توما يحمل الصليب وهو امام توما ، وهو يشير اليه اللهم انصر هذا الصليب ومن لاذ به ، اللهم اظهر له نصرته وأعل درجته . قال شرحبيل بن حسنة وانا دائما أنظر اليه اذ رمته زوجة ابان بنبلة فلم تخطيء رميتها ، واذا بالصليب قد سقط من يده وهوى الينا وكأني أنظر لمعان الجوهر من جوانبه فما فينا الا من بادر اليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق اليه ليأخذه ونظر عدو الله توما الى ذلك من تنكس الصليب الاعظم واهوائه الى المسلمين ، فعند ذلك كفر وعظم عليه الامر ، وقال يبلغ الملك ان الصليب الاعظم أخذ مني وملكته العرب ، لا كان ذلك أبدا ثم انه حزم وسطه وأخذ سيفه ، وقال : من شاء منكم فليتبعني ومن شاء فليقعد فلا بد لي من القوم عسى ان أشفي صدري ، ثم انحدر مسرعا وأمر بفتح الباب ، وكان هو أول مبادر . فلما نظرت الروم الى ذلك لم يكن فيهم الا من انحدر في أثره لما يعلمون من شجاعته وخرجوا كالجراد المنتشر . هذا والمسلمون محيطون بالصليب ، فلما خرج الروم ووقع صياحهم حذر الناس بعضهم بعضا ، فلما نظر المسلمون الى الروم سلموا الصليب الى شرحبيل بن حسنة وانفردوا لاعدائهم وحملوا في أعراضهم وأخذهم النشاب والحجارة ومن كل مكان من أعلى الباب ، فصاح شرحبيل بن حسنة : معاشر المسلمين تقهقروا الى ورائكم لتأمنوا النشاب من أعداء الله العالين على الباب ، قال فتقهقر الناس الى ورائهم الى أن آمنوا من ضرب النشاب فاتبعهم عدو الله توما ، وهو يضرب يمينا وشمالا وحوله أبطال المشركين من قومه ، وهو يهدر كالجمل . فلما نظر شرحبيل بن حسنة ذلك صرخ بقومه ، وقال معاشر الناس كونوا آيسين من آجالكم طالبين جنة ربكم وأرضوا خالقكم بفعلكم . فانه لا يرضى منكم بالفرار ولا أن تولوا الادبار فاحملوا عليهم واقربوا اليهم بارك الله فيكم ، قال فحمل الناس حملة منكرة واختلط الناس بعضهم ببعض وعملت بينهم السيوف وتراموا بالنبل ، وتسامع أهل دمشق ان توما خرج الى العرب من بابه وان صليبه الاعظم سقط اليهم من كف حامله فجعلوا يهرعون الى أن تزايد أمرهم وجعل عدو الله ينظر يمينا وشمالا وينظر الصليب فحانت منه التفاتة فنظر فرآه مع شرحبيل بن حسنة ، فلما نظر اليه لم يكن له صبر دون أن حمل وصاح

هات الصليب لا أم لك ، فقد لحقتك بوائقه .

قال ونظر شرحبيل بن حسنة الى عدو الله ، وهو مقبل فرمى الصليب من يده وصادمه . فلما رأى عدو الله الصليب مرميا على الارض صرخ بأصحابه صرخة هائلة ونظرت زوجة أبان ابن سعيد الى حملة عدو الله على شرحبيل . ففالت من هذا ؟ قيل هو صهر الملك ، وهو قاتل بعلك أبان بن سعيد ، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة منكرة الى أن فاربت ورمته بنبله ، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت اليهم دون أن حققت نبلتها على صاحبها ، وقالت بسم الله وبركة رسول الله (ص) تم أطففتها ، وكان عدو الله واصلا الى شرحبيل اذ جاءته النبله فأصابته عينه اليمنى فسكنت النبله فيها فتقهقر الى ورائه صارخا وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادرت اليها الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر اليها قوم من المسلمين يحامون عنها ، فلما أمنت من شر الاعداء اخذت ترمي بالنبل . ثم انها رمت علجا من الروم فأصابته صدره فسقط هاويا الى الارض ، وكان عدو الله أول من تقهقر ذلك اليوم هاربا من شدة حرارة النبله وصرخ صرخة عظيمة الى ان دخل الباب ونظر شرحبيل الى ذلك فصرخ بأصحابه يا ويلكم دونكم وكلب الروم احملوا على الكلاب عسى أن تدركوا عدو الله . قال فحمل الناس على الروم الى أن أوصلوهم الى الباب فحماهم قومهم من أعلى الباب بالحجارة والنساب . قال فتراجع الناس الى مواضعهم ، وقد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة وأخذوا أسلابهم وأموالهم وصليبهم ، ودخل عدو الله توما الى المدينة وأغلقوا الابواب وجاء الحكماء يعالجون في قلع النبله من عينه فلم تطلع فجذبوها فلم تنجذب ، وهو يضج بالصراخ فلما طال على القوم ذلك ولم يجدوا حيلة في اخراجها نشروها وبقي النصل في عينه ولم تزل في مكانها وسألوه المسير الى منزله فأبى وجلس داخل الباب الى ان سكن ما به وخف عنه الالم ، فقالوا له عد الى منزلك بقية ليلتك ، فقد نكبنا في يومنا هذا نكبتين نكبة الصليب ونكبة عينك كل هذا مما وصل الينا من النبال ، وقد علمنا ان القوم لا يصطلي لهم بنار ، وقد سألناك أن نصالح القوم على ما طلبوه منا ، قال فنضب توما من قولهم ، وقال : يا ويلكم يؤخذ الصليب الاعظم وأصاب بعيني وأغفل عن هذا ويبلغ الملك عني ذلك فينسبني للوهن والعجز ولا بد من طلبهم على كل حال وآخذ صليبي وآخذ في عيني الف عين منهم وسأوقع حيلة أصل بها الى كبيرهم وآخذ جميع ما غنموه وبعد ذلك اسير الى صاحبهم الذي هو في الحجاز وأقطع آثاره وأخرب دياره وأهدم مساكنه ، وأجعل بلده مسكنا للوحوش . ثم ان الملعون سار الى أعلى السور ، وهو معصوب العين وصار

يحرص الناس لكي يزيل عن قلوبهم الرعب وأقبل يقول لهم : لا تفزعوا ولا تجزعوا مما ظهر لكم من العرب ولا بد للصليب أن يرميهم وأنا الضامن لكم .
قال فثبت القوم من قومه وحاربوا حربا شديدا وبعث شرحبيل بن حسنة الى خالد بن الوليد يخبره بما صنع مع القوم . فقال الرسول : ان عدو الله توما قد ظهر لنا منه ما لم يكن في الحساب ونطلب منك رجالا لان الحرب عندنا اكثر من كل باب ، فلما سمع خالد ذلك الخبر حمد الله ، وقال كيف أخذتم الصليب من الروم ؟ فقال الرسول كان يجمل صليب الروم رجل وهو أمام توما صهر الملك فرمته زوجة أبان بنبله فوق الصليب الينا وخرج عدو الله فرمته زوجة أبان بنبله فاشتبكت في عين توما اليمنى .

فقال خالد ان توما عند الملك معظم وهو الذي يمنعهم عن الصلح ونرجو من الله أن يكفينا شره . ثم قال للرسول : عد الى شرحبيل وقل له كن حافظا ما أمرتك به فكل فرقة مشغولة عنك ولم تؤت من قبلهم وأنا بالقرب منك ، وهذا ضرار بن الازور يطوف حول المدينة وكل وقت عندك . قال فرجع الرسول فأخبره بذلك فصبر وقاتل بقية يومه ووصل الخبر الى أبي عبيدة بما نزل بشرحبيل بن حسنة من توما وبما غنم من صليبه فسر بذلك ، قال ولما أصبح الصباح بعث توما الى أكابر دمشق وأبطالهم . فلما حضروا بين يديه قال لهم يا أهل دين النصرانية انه قد طاف عليكم قوم لا أمان لهم ولا عهد لهم وقد أتوا يسكنون بلادكم فكيف صبركم على ذلك وعلى هتك الحريم وسيي الاولاد وتكون نساؤكم جوارى لهم وأولادكم عبيدا لهم وما وقع الصليب الا غضبا عليكم مما اضرتم لهذا الدين من مصالحة المسلمين واذلالكم للصليب وأنا قد خرجت ولولا أنني أصبت بعيني لما عدت حتى أفرغ منهم ولا بد من أخذ ثاري وان اقلع الف عين من العرب ثم لا بد أن أصل الى الصليب وأطالبهم به عن قريب . فلما سمعوا كلامه قالوا له : ها نحن بين يديك وقد رضينا بما رضيت لنفسك ، فان امرتنا بالخروج خرجنا معك وان امرتنا بالقتال قاتلنا ، فقال توما : اعلموا أن من خاض الحروب لم يخف من شيء واني قد عزمت على أن أهاجم هذه الليلة واكبسهم في أماكنهم فان الليل مهيب وانتم اخبر بالبلد من غيركم فلم يبق الليلة فيكم أحد حتى يتأهب للحرب ويخرج من الباب وأرجو أن لا أعود حتى تنقضي الاشغال فاذا فرغت من القوم أخذت أميرهم اسيرا وأحملة الى الملك يأمر فيه بأمره ، فقالوا حبا وكرامة فعند ذلك فرق القوم على الباب الشرقي فرقة وعلى باب الجابية فرقة وعلى كل باب جماعة ، وقال لهم : لا تجزعوا ، فان امير القوم متباعد عنكم وليس هناك الا الاراذل والموالي فاطحنوهم طحن الحصيد . قال

ودعا بفرقة أخرى الى باب الفراديس الى عمرو بن العاص وخرج توما من بابه واخذ معه أبطال القوم ولم يترك بطلا يعرف بالنسجاعة الا أخذه معه ورتب على الباب ناقوسا ، وقال لهم اذا سمعتم الناقوس فهي العلامة التي بيننا فافتحوا الابواب واخرجوا مسرعين الى اعدائكم ولا تجدوا رجالا نياما الا وتضعون السيف فيهم . فان فعلتم ذلك فرقتهم جمعهم في هذه الليلة وانكسروا كسرة لا يجبرون بعدها أبدا ، قال ففرح القوم بذلك وخرجوا الى حيث امرهم وقعدت كل فرقة على بابها وأفاموا ينتظرون صوت الناقوس ليبادروا الى المسلمين ، قال ودعا توما برجل من الروم ، وقال له خذ ناقوسا واعمل به على الباب فاذا رأيتنا قد فتحنا الباب فاضرب الناقوس ضربة خفيفة يسمعها قومنا ، وقد سار توما بقطعة من جيشه عليهم الدروع وبأيديهم السيوف وتوما في أوائلهم وبيده صفيحة هندية والفي على رأسه بيضة كسروية كان هرقل قد أهداها له ، وكانت لا تعمل فيها السيوف الفواطع حتى وصل الى الباب ، ثم وقف حتى تكامل القوم ، فلما نظر اليهم قال يا قوم فتحنا لكم الباب فأسرعوا الى عدوكم وجدوا في سعيكم الى أن تصلوا الى القوم ، فاذا وصلتكم اليهم فاحملوا ومكنوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالامان فلا تبقوا عليه الا أن يكون أمير القوم ومن أبصر منكم الصليب فليأخذه فقالوا حبا وكرامة .

القتال من فوق الاسوار

ثم أمر رجلا من أصحابه أن يسير الى الذي بيده الناقوس ويأمره أن يضربه ضربة خفيفة ثم فتح الباب وتبادر الرجال الى أصحاب رسول الله (ص) رهم في غفلة مما دبر القوم لهم الا أنهم في يقظة ، فلما سمعوا الصوت أيقظ بعضهم بعضا وتواثبت الرجال من أماكنهم كالأسود الضارية فلم يصل اليهم العدو الا وهم على حذر وحملوا عليهم وهم في غير ترتيب فتقاتل القوم في جنح الطلام وعمل السيف وسمع خالد بن الوليد فقام ذاهل العقل مما سمع من الزعقات فصاح واغوتاه واسلاماه كيد قومي ورب الكعبة اللهم انظر لهم بعينك التي لا تنام وانصرهم يا أرحم الراحمين . وسار خالد ومن معه وهم أربعمائة فارس من أصحابه ، وهو بغير درع قد لبس ثوب كتان من عمل الشام مكشوف الرأس . ثم جد في السير والاربعمائة فارس معه كأنهم الليوث العوابس الى ان وصلوا الى الباب الشرقي واذا بالفرقة التي هناك قد هاجمت أصحاب رافع بن عميرة الطائي . قال : وأصوات المسلمين عالية بالتهليل والتكبير ، والقوم من أعلى الاسوار قد أشرفوا وتصايحوا عندما استيقظ لهم المسلمون فحمل خالد بن الوليد على الروم ونادى برفع صوته أبشروا يا معشر المسلمين أتاكم

الغوث من رب العالمين ، أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد وحمل في
أوساط الناس بمن معه فجندل أبطالا وقتل رجالا ، وهو مع ذلك مستغل
القلب على أبي عبيدة والمسلمين الذين على الابواب وهو يسمع اصواتهم
وزعقانهم ، قال وتصايح الروم والنصارى واليهود .

(قال سنان بن عوف) قلت لابن عمي قيس هل كانت اليهود تقاتلكم ؟
قال نعم يقاتلوننا من أعلى الاسوار ويرمون بالسهام وخشي خالد على شرحبيل
ابن حسنة مما وصل اليه من عدو الله توما لانه ملازما الباب . وقال لقي
شرحبيل بن حسنة من عدو الله توما أمرا عظيما لم يلق احد منله وذلك أنه
هجم عليه توما في تلك الليلة ، وكان أول من وصل الى المسلمين عدو الله
توما قال فصبروا له صبر الكرام وقاتل عدو الله قتالا شديدا وهو ينادي أين
أميركم الذميم الذي أصابني انا ركن الملك الرحيم ، أنا ناصر الصليب . قال
فلما سمع شرحبيل صوته قصد جهته ، وقد جرح رجالا من المسلمين ، وقال
ها أنا صاحبك وغريمك ، أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم ، انا كاتب وحي
رسول الله (ص) فعطف عليه توما عطفة الاسد ورأى من شرحبيل بن حسنة
أمرا هائلا ولم يزالوا كذلك الى أن زال من الليل شطره وكل قرن مع قرنه
وكانت زوجة ابان مع شرحبيل وكانت في تلك الليلة احسن الناس صبورا
ورمت بنبالها ، وكانت لا تقع نبلة من نبالها الا في رجل من المشركين الى أن
قتلت من الروم مقتلة عظيمة بالنبال والروم يتحايدون عنها الى ان لاح رجل
من الروم فرمته بنبله فبعيت معلقة في نجره . قال فصرخ بالروم فهاجموها
وأخذوها أسيرة ومات عدو الله الذي رمته . قال ولقي شرحبيل من الروم ما
لا يلقاه احد وانه ضرب توما ضربة هائلة فتلقاها الملعون بدرقته فانكسر سيف
شرحبيل فطمع عدو الله فيه وحمل عليه وظن انه يأخذه اسيرا واذا بفارسين
قد أسرفا من ورائهما مع كبكبة من الفرسان فهجموا على الروم ونظروا واذا
بزوجة ابان قد خلصت وهجمت على الروم وهتفت فلحقها فارسان فبرز لهما
عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) ، وأبان بن عثمان بن عفان (رض)
فقتلا الرجلين ورجع عدو الله توما هاربا الى المدينة .

(قال حدثني) تميم بن عدي ، وكان ممن شهد الفتوحات . قال كنت
في خيمة ابي عبيدة وذلك أن أبا عبيدة كان يصلي فيها اذ سمع الصياح .
فقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم لبس سلاحه ورنب قومه ودنا من
القوم فنظر اليهم وهم في المعمة والحرب وعدل عنهم ميسرة وميمنة الى أن
جاوزهم وعطف نحو الباب وكبر وكبر المسلمون ، فلما سمع المشركون تكبيرهم

ظنوا أن المسلمين قد دهموهم من ورائهم في جمع كثير فولوا راجعين فتلقاهم
أبو عبيدة وقومه واخذوا عليهم المجاز وبذل أبو عبيدة السيف فيهم .
(قال الواقدي) ولقد بلغني أنه ما سلم من الروم تلك الليلة احد من
الذين هم غرماء ابي عبيدة ولقد قتلوا عن آخرهم فبينما هم في القتال اذ
أشرف عليهم ضرار بن الازور ، وهو ملطخ بالدماء . فقال له خالد ما وراءك يا
ضرار ؟ فقال أبشر أيها الامير ما جئتك حتى قتلت في ليلتي هذه مائة وخمسين
رجلا وقتل قومي ما لا يعد ولا يحصى ، وقد كفيتمك مؤنة من خرج من الباب
الصغير الى يزيد بن أبي سفيان ، ثم عطفت الى سائر الابواب فقتلت خلقا
كثيرا قال فسر بذلك خالد بن الوليد ، ثم ساروا جميعا حتى أتوا شرحبيل بن
حسنة وشكروا فعله وكانت ليلة مقمرة ولم يلق مثلها الناس فقتلوا في تلك
الليلة ألوفاً من الروم قال فاجتمع كبار أهل دمشق الى توما وقالوا له أيها
السيّد انا قد نصحناك فلم تسمع لقولنا وقد قتل منا أكثر الناس وهذا أمير
لا يطاق ، يعني خالد بن الوليد فصالح فهو أصلح لك ولنا وان لم تصالح
صالحنا وأنت وشأنك . فقال يا قوم أمهلوني حتى أكتب الى الملك واعلمه بما
نزل بنا ، فكتب من وقته وساعته كتابا يقول فيه : الى الملك الرحيم من صهرك
توما ، أما بعد فان العرب محدقون بنا كاحداق البياض بسواد العين ، وقد
قتلوا أهل اجنادين ورجعوا الينا وقد قتلوا منا مقتلة عظيمة ، وقد خرجت اليهم
وأصيبت عيني ، وقد عزمتم على الصلح ودفع الجزية للعرب فاما أن تسير
بنفسك ، واما ان ترسل لنا عسكريا تنجدنا بهم ، واما أن نأمرنا بالصلح
مع القوم ، فقد تزايد الامر علينا ثم طوى الكتاب وختمه وبعث به
قبل الصباح

فلما أصبح الصباح باكرهم المسلمون بالقتال . . . وبعث خالد لكل
أمير أن يزحف من مكانه فركب أبو عبيدة ووقع القتال واشتد الامر على أهل
دمشق فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى الا القتال ولم يزل كذلك الى أن ضاق بهم
الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع أهل البلد وقالوا لبعضهم ما لنا صبر
على ما نحن فيه من الامر وان هؤلاء ان قاتلناهم نصرنا علينا وان تركناهم أضر
بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحا على ما طلبوه منكم ، فقال لهم شيخ كبير
من الروم وقد قرأ الكتب السالفة : يا قوم والله اني أعلم أنه لو أتى الملك في
جيشه جميعا لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت في الكتاب ان صاحبهم محمدا خاتم
المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطيعوا القوم وأعطوهم ما طلبوا منكم فهو
وأفق لكم ، فلما سمع القوم مقالات الشيخ ركنوا اليه لما يعلمون من علمه

ومعرفته بالاخبار والملاحم . فقالوا كيف الرأي عندك ؟ فنحن نعلم ان هذا الامير الذي على باب شرقي رجل سفاك للدماء . فقال لهم : ان أردتم تقارب الامر فامضوا الى الذي على باب الجابية ، وليتكلم رجل يعرف بالعربية ، ويقول بصوت رفيع ، يا معاشر العرب الامان حتى ننزل اليكم ونتكلم مع صاحبكم . قال أبو هريرة (رض) : وكان أبو عبيدة قد انفذ رجلا من المسلمين مكرا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التي خلت ، وكانت النوبة تلك الليلة لبني دوس والامير عليها عامر بن الطفيل الدوسي . قال فبينما نحن جلوس فى مواضعنا من الباب اذ سمعنا اصوات القوم وهم ينادون قال أبو هريرة ، فلما سمعت بادرت الى ابي عبيدة قال وبشرته بذلك فاستبشر وقال أمض وكلم القوم وقل لهم لكم الامان قال فأتيت القوم وبشرتهم بالامان فقالوا من أنت ؟

فقلت أنا أبو هريرة صاحب رسول الله (ص) ولو أن عبيدا أعطوكم الامان والذمام ونحن في الجاهلية لما غدرنا فكيف وقد هدانا الله الى دين الاسلام . قال فنزل القوم وفتحوا الباب واذا هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم فلما قربوا من عسكر أبي عبيدة تبادر اليهم وأزّلوا عنهم الصلبان الى أن وصلوا خيمة أبي عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال ان نبينا محمدا (ص) قال « اذا أناكم عزيز قوم فأكرموه » وتكلموا في أمر الصلح وقالوا انا نريد منكم ان تتركوا كنائسنا ولا تنقضوا علينا منها كنيسة وهي الجامع الآن بدمشق ، فقال لهم أبو عبيدة جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها قال وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة سوق الليل وكنيسة انذار ، وهي عند دار عبد الرحمن ذرة فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والامان ولم يسم فيه اسمه ولا اثبت شهودا وذلك ، لانه لم يكن أمير المؤمنين ، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه وقالوا له قم معنا الى البلد . قال فقام أبو عبيدة وركب معه ابو هريرة ومعاذ بن جبل ونعيم بن عمرو وعبد الله بن عمرو الدوسي وذو الكلاع الحميري وحسان بن النعمان وجريز بن نوفل الحميري وسيف بن سلمة ومعمّر بن خليفة وربيعة بن مالك والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة بن المنذر وعوف بن ساعدة ، وعامر بن قيس ، وعبادة بن عتيبة ، وبشر بن عامر ، وعبد الله بن قرط الاسدي وجملتهم خمسة وثلاثون صحابيا من اعيان الصحابة (رض) ، وخمسة وستون من اخلاط الناس فلما ركبوا وتقدموا نحو الباب . قال ابو عبيدة أريد منكم رهائن حتى ندخل معكم فأتوه برهائن ، وقيل ان ابا عبيدة رأى في منامه أن رسول الله (ص) يقول له : نفتح المدينة ان شاء

الله تعالى في هذه الليلة ، فقلت يا رسول الله أراك على عجل قال لا حضر جنازة أبي بكر الصديق . قال فاستيقظت من المنام .

(قال الواقدي) وقد بلغني ان أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الانجيل والمباخر بالنند والعود ، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد لانه شد عليهم بالقتال . قال وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للصور مما يلي باب شرقي الذي عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال عليه السلام وكان فيها : ان الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة وبعلو دينهم على كل دين ، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعا وخرج على حين غفلة من أهله واولاده وقصد خالدا وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعا والآن أريد أمانا لي ولاهلي ولاولادي قال فأخذ خالد عهده على ذلك وانفذ معه مائة رجل من المسلمين اكثرهم من حمير ، وقال لهم اذا وصلتكم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الاقفال وأزيلوا السلاسل حتى تدخلوا ان شاء الله تعالى . قال ففعل القوم ما أمرهم به خالد (رض) وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج . فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب واعلنوا بالتكبير . قال فلما سمع المشركون التكبير ذهلوا وعلموا ان أصحاب رسول الله (ص) حطوا معهم في المدينة ، وأن أصحاب رسول الله (ص) قصدوا الباب وكسروا الاقفال وقطعوا السلاسل ، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم وهم مختلفون بين يديه الى ان وصل الى كنيسة مريم وخالد بن الوليد يأسر ويقتل .

(قال الواقدي) والتقى الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبي عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين ايديهم وما أحد من أصحاب أبي عبيدة جرد سيفه ، فلما نظر خالد اليهم ورأى ان لا أحد منهم جرد سيفه بهت وجعل ينظر اليهم متعجبا . قال فنظر اليه أبو عبيدة وعرف في وجهه الانكار . فقال أبا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحا وكفى الله المؤمنين القتال .

(قال الواقدي) ما خاطب ابو عبيدة خالدا يوم الفتح بدمشق الا بالامارة : فقال ايها الامير قد تم الصلح . فقال خالد وما الصلح ؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف ، وقد خضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الاولاد عبيدا وقد نهبت الاموال . فقال ابو عبيدة أيها

الامير : اعلم اني ما دخلتها الا بالصلح . فتال له خالد بن الوليد انك لم تزل مغفلا وأنا ما دخلتها الا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم . قال أبو عبيدة : اتق الله أيها الامير ، والله لقد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتب لهم الكتاب وهو مع القوم . فقال خالد وكيف صالحتهم من غير أمري وأنا صاحب رايتك والامير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى افنيهم عن آخرهم . فقال أبو عبيدة والله ما ظننت أن نخالفني اذا عقدت عقدا ورأيت رأيا فالله الله في أمري ، فوالله لقد حققت دماء القوم عن آخرهم واعطيتهم الامان من الله جل جلاله وامان رسول الله (ص) وقد رضي من معي من المسلمين ، والفدر ليس من شيمنا . قال وارتفع الصياح بينهما وقد شئخص الناس اليهما وخاند مع ذلك لا يرجع عن مراده ، ونظر أبو عبيدة الى ذلك فرأى أصحاب رسول الله (ص) مع خالد وهم جيش البوادي من العرب مستبكون على قتال الروم ونهب اموالهم . قال فنادى أبو عبيدة واثكلاه خفرت الله ونقض عهدي وجعل يحرك جواده ويشير الى العرب مرة يمينا ومرة شمالا وينادي معاشر المسلمين اقسمت عليكم برسول الله (ص) أن لا نمدوا ايديكم نحو الطريق الذي جئت منه حتى نرى ما نتفق أنا وخالد عليه ، فلما دعاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب واجتمع اليهما فرسان المسلمين والامراء واصحاب الرايات مثل معاذ بن جبل (رض) ويزيد بن ابي سفيان (رض) وعمر بن العاص (رض) وسرحبيل بن حسنة (رض) وربيع بن عامر (رض) وعبدالله بن عمر بن الخطاب (رض) أجمعين ونظرائهم ، والتقوا عند الكنائس واجتمع هناك فرسان للمسلمة والمناظرة . فقالت طائفة من المسلمين منهم معاذ بن جبل ويزيد بن ابي سفيان الرأي أن تمضي الى ما أمضاه أبو عبيدة بن الجراح وتكفروا عن القتال للقوم . فان مدن الشام لم تفتح ابدا ، وهرقل في انطاكية كما تعلمون ، وان علم اهل المدن صالحتهم وغدرتهم لم تفتح لكم مدينة صلحا ولان تجعلوا هؤلاء الروم في صالحكم خير من قتلهم ، ثم قالوا لخالد أمسك عليك ما فتحت بالسيف ويعينك أبو عبيدة بجانبه واكتب الى الخليفة وتحاكم اليه ، فكل ما أمر به فعلناه ، فقال لهم خالد بن الوليد قد أجبته الى ذلك وقبلت مشورتكم ، فاما اهل دمشق فقد امنتهم الا هذين اللعينين توما وهربيس وكان هربيس هو المؤتمر على نصف البلدة ولاء توما حين رجع الامر اليه . فقال أبو عبيدة ان هذين أول من دخل في صلحي فلا تخف دمتي رحمت الله تعالى . فقال خالد ، والله لولا ذمامك لقتلتهم جميعا ، ولكن يجر جان من الامير ابا سليمان قوله قول وعهده عهد ولا يفول الا الصدق قال فانطلق توما

الى المدينة فلعنهما الله حيث سارا .

قال ابو عبيدة وعلى هذا صالحتهما . قال ونظر توما وهربيس الى خالد وهو يتنازع مع أبي عبيدة وخافا الهلاك فأقبلا على أبي عبيدة ومعهما من يترجم عنهما وقال له ما يقول هذا يعني خالدا . قال الترجمان لابي عبيدة ما نقول انت وصاحبك فيه من المساورة : ان صاحبك هذا يريد غدرنا فنحن واهل المدينة دخلنا في عهدكم ونقض العهد ما هو من شيمكم ، واني أسألكم ان تدعوني أن أخرج أنا وأصحابي واسلك اي طريق أردت . فقال أنت في ذمتنا فاسلك اي طريق شئت ، فاذا صرت في أرض تملكونها فقد خرجت من ذمتنا أنت ومن معك . فقال نوما وهربيس نحن في ذمتكم وجواركم ثلاثة ايام أي طريق سلكنا ، فاذا كان بعد ثلاثة ايام فلا ذمة لنا عندكم ، فمن لقينا منكم بعد ثلاثة ايام وطفر بنا فنحن لهم عبيد ان شاء أسرنا وان شاء قتلنا . فقال خالد قد اجبتك الى ذلك ، لكن لا تحملوا معكم من هذا البلد الا الزاد الذي تتقوتون به . قال أبو عبيدة لخالد : هذا كلام داع لنقض العهد والصلح انما وقع بيننا انهم يخرجون برجالهم وأموالهم . فقال خالد سمحت لهم بذلك الا الحلقة يعني السلاح فاني لا أطلق لهم شيئا من ذلك . فقال توما لا بد لنا من السلاح نمنع به عن انفسنا في طريقنا ان طرقتنا طارق حتى نصل الى بلدنا ، والا فنحن بين ايديكم فاحكموا فينا بما أردتم . فقال ابو عبيدة اطلق لكل واحد قطعة من السلاح ان أخذ سيفا فلا يأخذ رمحا ، وان أخذ رمحا فلا يأخذ سيفا ، وان أخذ قوسا فلا يأخذ سكيناً . فقال توما لما سمع منهم ذلك الكلام قد رضينا بذلك وما يريد كل واحد منا الا قطعة من السلاح لا غيب ، ثم قال نوما لابي عبيدة اني خائف من هذا الرجل اعني خالد بن الوليد فليكتب لي بذلك قال ابو عبيدة نكثت امك انا معاصر العرب لا نغدر ولا نكذب وان الامير ابا سليمان قوله قول وعهده عهد ولا يقول الا الصدق قال فانطلق توما وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج . قال وكان الملك له خزانة ديباج وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج . قال وكان الملك له خزانة ديباج في دمشق فيها زهاء من ثلاثمائة حمل ديباج وحلل مذهبة فعزم على اخراجها وأمر نوما فضربت له خيمة من القز ظاهر دمشق وأقبلت الروم تخرج الامتعة والاموال والاحمال حتى اخرجوا شيئا عظيما ، فنظر خالد بن الوليد الى كسرة احمالهم . فقال ما اعظم رجالهم ، ثم قرأ قوله تعالى - ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون - الآية ، ثم نظر خالد الى القوم كأنهم حمر مستنفرة ولم يلتفت احد الى اخيه من شدة عجلتهم ، فلما نظر خالد الى ذلك رفع يديه الى السماء .

وقال : اللهم جعله لنا وملكننا اياه واجعل هذه الامتعة قوتا للمسلمين آمين
انك سميع الدعاء ، ثم اقبل على اصحابه وقال لهم اني رأيت أنا رأيسا
فهل انتم تتبعوني عليه ؟ فقالوا نتبعك ولا نخالف لك أمرا ، فقال خالد
قوموا بخيولكم حق القيام واحسنوا اليها ما استطعتم وانجزوا سلاحكم فاني
اسير بكم بعد ثلاثة ايام في طلب هؤلاء القوم وارجو من الله ان يغنمنا
هذه الغنيمة والاموال التي رأيتموها . وان نفسي تحدثني ان القوم ما تركوا
في دمشق متاعا ولا ثوبا حسنا الا وقد اخذوه معهم .

فقالوا افعل ما تريد فما نخالف لك أمرا ، تم اخذوا في اصلاح شأنهم ،
وتوما وهربيس قد جمعوا مال الرساتيق وجميع المال ، فلما جمعه جاءوا
به الى ابي عبيدة . فقال لهم وفيتم بما عليكم فسيروا حيث شئتم فلکم الامان
منا ثلاثة ايام . قال يزيد ابن ظريف فلما سلموا المال لابي عبيدة ارتحلوا
سائرين كأنهم سواد مظلم ، وكان قد خرج مع القوم خلق كثير من اهل دمشق
بأولادهم وكرهوا ان يكونوا في جوار المسلمين . قال واشتغل خالد عن
انباعهم بخلاف ما وقع بينهم وبين أهل دمشق في حنطة وشعير وجدوا في
المدينة منه شيئا كثيرا . فقال ابو عبيدة هو للقوم دخل في صلحهم فكادت
الفتنة ان تنور بين اصحاب خالد وبين اصحاب ابي عبيدة ، واتفق رأيهم أن
ان يكتبوا كتابا الى ابي بكر الصديق (رض) في ذلك وليس عندهم خبر انه
مات يوم دخولهم دمشق .

(قال عطية بن عامر) كنت واقفا على باب دمشق في اليوم الذي سارت
فيه الروم مع توما وهربيس ومعهم ابنة الملك هرقل . قال فنظرت الى ضرار
بن الازور وهو ينظر الى القوم شزرا ويتحسر على ما فاته منهم ، فقلت له :
يا ابن الازور مالي اراك كالمتحسر أما عند الله اكثر من ذلك فقال والله ما
اعني مالا وانما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا ، ولقد أساء ابو عبيدة
فيما فعل بالمسلمين . فقلت يا ابن الازور ما أراد أمين الامة الا خيرا للمسلمين
ان يحقن دمائهم وازواجهم من تعب القتال فان حرمة رجل واحد خير مما طلعت
عليه الشمس ، وان الله سبحانه وتعالى اسكن الرحمة في قلوب المؤمنين وان
! الرب بقول في بعض الكتب المنزلة ان الرب لا يرحم من لا يرحم . وقال تعالى :
والصلح خير . فقال ضرار لعمرى انك لصادق ، ولكن اشهدوا علي اني لا
ارحم من يجعل له زوجة ولدا .

(قال حدثني) عمر بن عيسى عن عبد الواحد بن عبد الله البصري عن
وائل بن الاسقع . قال كنت مع خالد بن الوليد في جيش دمشق ، وكان قد

جعلني مع ضرار بن الازور في الخيل التي تجوب من باب شرقي الى باب
توما الى باب السلامة الى باب الجابية الى باب الصغير الى باب قيان اذ سمعنا
صريو الباب وذلك قبل فتوح الشام واذا به قد خرج منه فارس فتركناه حتى
قرب منا فأخذنا قبضاً بالكف وقلنا ان تكلمت قتلناك فسكت واذا قد خرج
فارس اخر قام على الباب وجعل ينادي بالذي قد اخذناه ، فقلنا له : كلمه
حتى يأتي . قال نرطن له بالرومية ان الطير في الشبكة فعلم انه قد اسر فرجع
وأغلق الباب . قال فاردنا قتله ، فقال بعضنا لا تقتلوه حتى نمضي به الى
خالد الامير . قال فأتينا به خالدا ، فلما نظر اليه قال له من انت ؟ قال
له أنا من الروم واني تزوجت بجارية من قومي قبل نزولكم عليهم وكنيت
أحبها ، فلما طال علينا حصاركم سألت أهلها ان يزفوها علي فأبوا ذلك ،
وقالوا ان بنا شغلا عن زفافك وكنيت احب ان الفاها ولنا في المدينة ملاعب
نلعب فيها فوعدتها ان نخرج الي الملاعب فخرجت وتحدثنا فسألتنى ان
اخرج بها الى خارج المدينة ففتحنا الباب وخرجت انظر اخباركم فأخذني
أصحابك فنادوني . فقلت ان الطير وقع في الشبكة احذرها منكم مخافة عليها
ولو كان غيرها لهان علي ذلك . فقال خالد ما تقول في الاسلام ؟ فقال أشهد
ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فكان يقاتل معنا قتالا شديدا ،
فلما دخلنا المدينة صلحا أقبل يطلب زوجته . ففيل له انها لبست ثياب
الرهبانية فأقبل اليها وهي لا تعرفه . فقال لها ما حملك على الrehبانية ؟
قالت حملني على ذلك اني غررت بزوجي حتى أخذته العرب وترهبنت حزنا
عليه . قال أنا زوجك وقد دخلت في دين العرب . قال فلما سمعت ذلك قالت
وما تريد ؟ قال ان تكوني في الذمة . فقالت وحق المسيح لا كان ذلك ابدا
ومالي الى ذلك سبيل ، وخرجت مع البطريق توما ، فلما نظر الى امتناعها
أقبل الى خالد بن الوليد فشكا له حاله .

فقال له خالد ان ابا عبيدة فتح المدينة صلحا ولا سبيل لك اليها ولما علم
ان خالدا يسير وراء القوم . فقال أسير معه لعلني افع بها وأقام خالد بدمشق
الى اليوم الرابع ، ثم اقبل اليه يونس الدمشقي زوج الجارية وقال ايها الامير
قد لحزمت على المسير في طلب هذين اللعينين توما وهرييس واخذ ما معهما
قال بلى . فقال له وما الذي أقعدك عن ذلك . قال بعد القوم وبيننا وبينهم
اربعة ايام بلياليها وهم يسرون سير الخوف وما يمكن اللحاق بهم . فقال
يونس ان كان تخلفك لبعد المسافة بيننا وبينهم فأنا اعرف الديار وأسلك طريقا
فنلحقهم ان شاء الله تعالى ، ولكن البسوا زي لخم وجذام وهو العرب المنتصرة

وخذوا الزاد وسيروا . قال فسار خالد واخذ عساكر الزحف وهم اربعة
 آلاف فارس فامرهم ان يسيروا ويخفوا حمل الزاد ففعلوا ذلك ، وخالد ومن
 معه قد ساروا ويونس الدليل امامهم وهو يتبع اثار القوم وقد اوصى خالد
 أبا عبيدة على المدينة والمسلمين . قال زيد بن طريف وكان يونس دليلنا . قال
 فرأى اثار القوم وانهم اذا سقط منهم حمل حمل تركوه ، وسار خالد ومن معه
 كلما دخلوا بلدا من بلاد الروم يظنون انهم من العرب المنتصرة من لخم وجذام
 حتى أشرف بهم الدليل على ساحل البحر ونوى ان يطلب الاثر واذا بالقوم
 قد عدوا انطاكية ولم يدخلوها خيفة الملك . قال فوق للدليل عند ذلك حيرة
 في امره فعدل الى قرية هناك ، وسأل بعضا من الناس فاخبروه ان الخبر قد
 أنصل الى الملك بأن نوما وهرييس قد سلما دمشق للعرب فنقم عليهما ولم
 يدعهما يأنيان اليه ، وذلك انه جمع الجيوش وأرسلها الى اليرموك فخاف
 أن يتحدثوا بشجاعة العرب اصحاب رسول الله (ص) فنضعف قلوبهم فبعث
 الى نوما ومن معه ان يسيروا الى القسطنطينية ، فلما علم يونس ان القوم
 عدلوا واخذوا في طلب التحيز فكر في ذلك وغاب عن المسلمين فوقف خالد
 وصلى بالناس واذا بيونس قد اقبل وقال : ايها الامير اني والله قد غررت
 بكم وبلغت الغاية في الطلب . قال خالد وكيف الامر ؟ قال ايها الامير تبعنني
 في اثارهم في هذا المكان رجاء ان احقهم ، وان الملك منعهم من الدخول الى
 انطاكية نثلا يرعبوا عسكره وامرهم أن يطلبوا القسطنطينية ، وقد قطع بينكم
 وبينهم هذا الجبل العظيم وانتم في جبل هرقل وهو يجمع عسكره ويسير الى
 حربكم واني خائف عليكم ان تركتم هذا الجبل خلف ظهوركم هلكتم وبعد هذا
 فالامر اليك وكل ما أمرتني به فعلت . قال ضرار بن الازور فرأيت خالدا وقد
 انقنع لونه كالخضاب وكان ذلك منه جزعا وما عهدت به ذلك . فقلت يا
 أمبر على ماذا عولت ؟ فقال يا ضرار والله ما فزعت من الموت ولا من القتل ،
 وانما خفت ان يؤتى المسلمون من قبلي واني رأيت قبل فتح دمشق مناما
 افزعني وأنا منتظر تأويله وارجو ان يجعل الله لنا خيرا وينصرنا على عدونا .
 فقال ضرار خيرا رأيت وخيرا يكون ان شاء الله تعالى فما الذي رأيت ؟ قال :
 رأيت المسلمين في برية قفرة ونحن سائرون فبينما نحن كذلك واذا بقطيع من
 حمر الوحش كثيرة عظيمة اجسامها مهزولة اخفافا وهي لا تكدم برماحنا ونحن
 نضربها بأسيافنا وهي لا تكثرث فيما نزل بها من الاذى ولا تهلع مما ينزل
 فلم نزل مثل ذلك حتى اجتهدنا واجتهدت خيولنا وأني اقبلت على اصحابي وفرقتهم
 عليها من اربعة جوانب البرية وحملت عليهم فجفلت من أيدينا الى مضايق
 وتلال واودية خصبة فلم نأخذ منها الا اليسير فبينما نحن نطبخ ونشوي لحومها

واذا هي قد رجعت تطلب الحرب منا ، فلما نظرت اليها وقد طرحت المضايق والاجام صحت بالمسلمين اركبوا في طلبها بارك الله فيكم فاستوى المسلمون على خيولهم وركبت معهم وطلبناها حتى وقعت بها وتصيدت منها بعيرا عظيما فقتلته فجعل المسلمون يقتلون ويتصيدون فما بقي منها الا اليسير فبينما أنا فرح وأنا اريد الرجوع بالمسلمين الى وطنهم اذ عثرت فرسي فطارت عمامتي من على رأسي فهويت لآخذها فانتبهت من منامي وانا فزع مرعوب ، فهل فيكم احد يفسره ؟ فاني اقول الرؤيا ما نحن فيه . قال فصعب ذلك على القوم وجعل خالد يراود نفسه على الرجوع .

فقال له عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) : اما تفسير الوحوش فهؤلاء الاعاجم الذين نحن في طلبهم ، وأما سقوطك عن فرسك فانه أمر تنحط عليه من رفعة الى خفضة ، واما سقوط العمامة عن رأسك فالعمائم تيجان العرب وهي معرة تلحقك . فقال خالد : اسأل الله العظيم ان كان ذلك تأويل ما رأيته أن يجعله من أمر الدنيا ولا يجعله من أمر الآخرة وبالله استعين وعليه أتوكل في كل الامور . قال ثم سار خالد والدليل امامهم حتى قطعوا الجبل ، فلما كانت الليلة التي أردنا ان نصبح فيها القوم أتى مطر كافواه القرب وكان من توفيق الله عزوعلا ان حبس القوم عن المسير . قال روح بن طريف (رض) ، ولقد رأيتنا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كافواه القرب طول ليلتنا ، فلما اصبح الصباح وطلعت الشمس قال يونس : ايها الامير قف حتى أنظر القوم لانهم لا شك بالقرب منا وقد سمعت صياحهم . فقال له خالد بن الوليد أحقا سمعت صياحهم يا يونس قال نعم ايها الامير واريد منك أن تأذن لي بالمسير اليهم وآتيك بخبرهم . قال فعند ذلك التفت خالد بن الوليد الى رجل اسمه المفرط بن جعدة . قال له : يا مفرط سر مع يونس وكن له مؤنسا واحذر ان يأخذ خبركما القوم فقال المفرط السمع والطاعة لله ولك ايها الامير ، ثم انطلقا الى أن صعدا على جبل يقال له الابرش والروم تسمه جبل باردة . قال المفرط فلما علونا عليه وجدنا مرجا واسعا كثير الجنبات كثير النبات وفيه خضرة عظيمة ، وان القوم قد اصابهم المطر حتى بل رجالهم وقد حميت عليهم الشمس فخافوا اتلافها فاخرجوها واخرجوا الديباج ونشروها في طول المرج ، وقد نام اكثرهم من شدة السير والتعب والمطر الذي اصابهم . قال المفرط بن جعدة ، فلما رأيت ذلك فرحت فرحا شديدا ورجعت الى خالد بن الوليد وتركت صاحبي يونس ، فلما رأيته خالد وحدي اسرع الي وظن ان صاحبي كيد . فقال ما وراءك يا ابن جعدة اخبرني وعجل ياخير ؟ فقلت الخير والغنيمة يا امير القوم خلف هذا الجبل وقد اصابهم المطر وقد وجدوا الراحة بطلوع لشمس وقد

نشروا امتعتهم . فقال بشرك الله بالخير ، ثم ظهر لي من وجهه الخير والفرح والسرور ، فبينما نحن كذلك وإذا بيونس قد اقبل . فقال له خالد خيرا ، فقال له ابشر أيها الامير فان القوم امنوا على انفسهم ، ولكن اوصي اصحابك ان كل من وقع بزواجتي فليحفظها فما اريد من الغنيمة سواها . فقال له خالد هي لك ان شاء الله تعالى ، ثم ان خالدا قسم اصحابه اربع فرق فأمر ضرار بن الازور على الف فارس وعلى الالف الثاني رافع بن عميرة الطائي ، وعلى الالف الثالث عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق وبقي هو في الفرقة الرابعة . وقال سيروا على بركة الله تعالى واياكم ان نخرجوا اليهم دفعة واحدة : بل يخرج كل امير منكم بينه وبين صاحبه قدر ساعة ، ثم افترق القوم وحمل ضرار بن الازور والروم مطمئنون وحمل من بعده رافع بن عميرة الطائي ، ثم عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، ثم خالد بن الوليد سار في اخر القوم حتى وصلوا المرج . قال عبيد ابن سعيد لقد كدنا ان نعتنه من حسن منظره فزعق فينا خالد بن الوليد وقال عليكم باعداء الله ولا تشتغلوا بالغنائم ولا بالنظر الى المرج فانها لكم ان شاء الله تعالى .

ثم عطف خالد بن الوليد (رض) على الروم وقد نظرت الروم الى الخيل وقد خرجت عليهم وخالد امامهم ، فعلموا انها خيول المسلمين فبادروا الى السلاح وركبوا الخيل وقال بعضهم لبعض انها خيل قليلة ساقها المسيح اليكم وجعلها غنيمة لكم فبادروا اليها . قال فنبادر الروم وهم يظنون ان ليس وراء خالد احد ، واذا بضرار بن الازور قد خرج عليهم في ألف فارس وطلع رافع بن عميرة الطائي بعده وطلع عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق بعدهم وطلبت كل كتيبة فرقة من الروم وتفرقوا من حولهم وطلبوا ما في ايديهم وقد رفعوا اصواتهم يقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله وانصبت خيل المسلمين على الروم كأنها السيل المنحدر ونادى هربيس برجاله قاتلوا عن نعمكم فما لهؤلاء القوم حيلة ولا يخلصون من هذا المكان ابدا ، فانقسمت الروم طائفة معه وطائفة مع توما فكان من طلب خالدا توما وقد احدث به خمسماية فارس وقد رفع بين عينيه صليبا من الجوهر مقمعا بالذهب الاحمر فعدل خالد وحمل عليه وقال : يا عدو الله اظننتم انكم تفلنون منا والله تعالى يطوي لنا البلاد وكان توما أعور عورته امرأة ابان قال فحمل عليه وطعنه في عينه الاخرى ففقأها وارداه عن جواده وحمل اصحابه على رجال توما ولله در عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) ، فانه لما نظر الى توما وقد سقط عن جواده نزل وجلس على صدره واحتز رأسه ورفعها على السنان ونادى قد قتل والله توما اللعين فاطلبوا هربيس .

(قال الواقدي) ففرح العرب بذلك . قال رافع بن عميرة الطائي كنت في الميمنة مع خالد بن الوليد اذ نظر الي فارس زيه زي الروم ، وقصد نزل عن جواده ، وهو يقاتل علة مع نساء الروم وهي تظهر عليه مرة فدنوت انظرها . فاذا هو يونس الدليل وهو يقاتل زوجته ويصراعها صراع الاسد . قال رافع فدنوت ان انقدم اليهما فاعينه فقصد الي عشرة من النساء يرمين قومي بالحجارة فخرج حجر كبير من امرأة حسناء عليها ثياب الديباج . قال فوقع الحجر في جبهة جوادي فانكب على رأسه ، وكان جوادا شهدت عليه اليمامة فسقط الجواد ميتا . قال فأسرعت في طلبها فهربت من بين يدي كأنها طيبة الفناص وهربت النساء من وراءها فلحقتهن وقصدت قتلهن وزعقت عليهن وكنت اريد قتلهن ومالي قصد الا الجارية التي قتلت حصاني فدنوت منها وعلوت بالسيف على رأسها فجعلت تقول الغوث الغوث فرجعت عن قتلها وأقبلت اليها ، واذا عليها ثياب الديباج وعلى رأسها شبكة من اللؤلؤ فاخذنها أسيرة من النساء وأوثقتها كتافا ، ورجعت على اثري فركبت جوادا من خيل الروم . ثم قلت والله لامضين وانظر ما كان من امر يونس فوجدته ، وهو جالس وزوجته بجانبه وقد تلطخت بدمائها وهو يبكي عليها ، فلما رأيتهما قلت لها اسلمي ، فقالت لا وحق المسيح لا اجتمعت انا وانتم ابدا . ثم اخرجت سكيننا كانت معها فقتلت بها نفسها . فقلت ان الله عز وجل ابدلك ما هي اعظم منها وعليها ثياب الديباج وشبكة من اللؤلؤ وهي كأنها القمر فخذها لك بدلا عن زوجتك ، فقال اين هي ؟ فقلت ها هي معي .

قال فلما نظر اليها والى ما عليها من الحلى والزينة وتبين حسنهما وجمالها راطنها بالرومية وسألها عن امرها فرطنت عليه ، وهي تبكي فالتفت الي ، وقال لى أتدري من هذه ؟ قلت لا فقال هذه ابنة الملك هرقل زوجة توما وما مثلي يصلح لها ولا بد لهرقل من طلبها ويفديها بماله . قال واقتد المسلمون خالدا فلم يجدوا له اثرا فقلقوا عليه قلقا عظيما وخالد (رض) غائص في المعركة وقصد اللعين هربيس بعد قتل توما ، فبينما هو يحمل يمينا وشمالا اذ نظر علة من علوج الرومان عظيم الخلقة احمر اللون فظن خالد انه اللعين فأطلق جواده نحوه وطلبه طلبا شديدا ليقتله ، فلما نظر اليه العلةج والى حملته فر هاربا من بين يديه فوكزه خالد بالرمح ، واذا هو واقع على الارض على أم رأسه فانقض عليه خالد كالاسد ، وهو يقول ويلك يا هربيس أظننت انك تفوتني وذلك العلةج يعرف العربية . فقال يا عربي ما انا هربيس أظننت انك فابق علي ولا تقتلني . فقال خالد مالك من يدي خلاص الا اذا كنت تدلني على

هربيس . فاذا دللتني عليه اطلقتك . فقال له العليج انذا دللتك عليه تطلقني ،
 فقال خالد نعم لك ذلك . فقال العليج يا أبا العرب قم من على صدري حتى
 ادلك عليه فقام خالد من على صدره فوثب العليج ونظر يميناً وشمالاً . قال
 ثم قال لخالد أتري هذا الجبل وهذه الخيل الصاعدة اقصدها فان هربيس فيها .
 قال فوكل خالد بالعليج واحداً ، وهو ابن جابر ثم اطلق خالد عنان جواده
 حتى لحق بهم وصرخ عليهم ، وقال : يا ويلكم اني لكم مني خلاص ؟ فلما سمع
 هربيس ذلك ظنه من بعض العرب فزعق فيه ورجع ورجعت البطارقة بالسلاح .
 فقال لهم خالد يا ويلكم ظننتم ان الله لا يمكننا منكم أنا الفارس الصنديد أنا
 خالد بن الوليد . ثم طعن فارساً فرماه واخر فأرداه . فلما سمع هربيس كلام
 خالد ، قال لاصحابه يا ويلكم هذا الذي قلب السام على اصحابه ، هذا صاحب
 بصرى وحوران ودمشق وأجنادين دونكم واياه قال فطمع القوم فيه لانفراده عن
 اصحابه ، وكان المسلمون في قتال الروم ونهب الاموال وكل منهم مشتغل
 بنفسه . قال فترجلت البطارقة حول خالد لانهم في جبل كنير الوعر واحاطوا
 بخالد بن الوليد فعندها ترجل عن جواده واخذ سيفه وجحفته وصبر لقتالهم .
 قال حدثني شداد بن أوس وكان ممن حضر وقعة مرج الديباج ، وقال خالد
 قد صحت الرؤيا . فلما نرجل اقبل يقاتل بنفسه واقبل اليه هربيس ، وهو
 مشتغل بالقتال وأتاه من ورائه وضرب خالداً بالسيف فوقع السيف على
 البيضة ففقدها ، وقد عمامته وانقض السيف من يد هربيس وخاف خالد ان
 يلتفت الى ورائه فتهجم عليه الروم وخاف ان يفلت هربيس من بين يديه
 فعند ذلك صاح بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير كأنه مستبشر
 بشيء اغاثه او ادركه وذلك خديعة منه وحيلة يريد بها ان يتمكن من الاعلاج .
 فبينما هو كذلك اذ سمع من المسلمين زعقات ، وقد اخذت الروم من ورائهم
 وهم يصيحون بالتهليل والتكبير وقائل يقول : لا اله الا الله محمد رسول
 الله أتاك النصر من رب العالمين أنا عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق . فلما
 سمع خالد صوته لم يلتفت الى عبد الرحمن ولا الى من معه ومضى يفرق الاعلاج
 ذات اليمين وذات الشمال ، وما ان سمع اللعين هربيس اصوات المسلمين اراد
 الهرب فلحقه سيدنا خالد وضربه ضربة فأرداه قتيلاً وعجل الله بروحه الى
 الثار واستطال اصحاب رسول الله (ص) على اصحاب هربيس ونزلوا فيهم
 بالسيف حتى ابادوهم عن اخرهم ، وكان اكثرهم قتلاً من يد ضرار بن الازور .
 فلما انكشف الكرب عن خالد ونظر الى ما فعل ضرار . قال افلح الله وجهك
 يا ابن الازور فما زلت مباركاً في كل افعالك انجح الله اعمالك واصلح ربي

حالك • ثم سلم على عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) وعلى المسلمين ، وقال من اين علمتم مكاني هذا ، فقال عبد الرحمن يا امين بينما نحن في قتال الروم ، وقد نصرنا الله عليهم والمسلمون قد اشتغلوا بالغنائم اذا سمعنا هاتفا من الهواء يقول اشتغلتم بالغنائم وخالد قد احاطت به الروم • فلما سمعنا ذلك لم ندر اي مكان انت فيه ، وفقدنا شخصك فدلنا عليك عالج كان بيد رجل من اصحابك ، وقال ان صاحبكم انا الذي دلته على هربيس وانه معه في هذا الجبل فسرنا اليك •

فقال خالد لقد دلنا على عدونا ودل علينا المسلمين ، وقد وجب له الحق علينا ورجع خالد واصحابه الى المسلمين ، فلما رأوه بادروا وسلموا عليه فرد عليهم السلام • ثم ان خالدا (رض) دعا بذلك العالج الذي دله على هربيس ، وقال له انك وفيت لنا ونريد ان نوفي لك بما وعدناك لانك نصحت لنا فهل لك أن تكون من اصحاب دين الصلاة والصيام وملة محمد عليه الصلاة والسلام تكون من اهل الجنة ، فقال ما أريد بديني بدلا فأطلق خالد سبيله • قال نوفل بن عمرو فرأبته قد استوى على ظهر جواده يطلب بلاد الروم وحده • ثم ان خالدا (رض) امر بجمع الغنائم والاسارى فجمع ذلك اليه ، فلما رأى كثرتة حمد الله تعالى وشكره واثنى عليه ودعا بدليله يونس النجيب • ثم قال له ما فعلت بزوجتك فحدثه معها ، وما كان من امرها فعجب من ذلك ، فقال رافع بن عميرة ايها الامير اني أسرت ابنة الملك هرقل ، وقد سلمتها اليه بدلا من زوجته ، فقال خالد : وأين ابنة الملك هرقل فمكنت بين يديه فنظر الى حسننها وجمالها وما منحها الله به من الجمال فصرف وجهه عنها ، وقال سبحانك اللهم وبحمدك تخلق ما نشاء وتختار • ثم قرأ قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويخار - ثم قال ليونس اتريدها بدلا من زوجتك • قال نعم ولكني اعلم ان الملك هرقل لا بدله ان يئديها بالاموال او يخلصها بالقتال • فقال خالد خذها لك الان فان لم يطلبها فهي لك ، وان طلبها فالله يعوضك خيرا منها • فقال يونس ايها الامير انك في مكان ضيق ومكان صعب فاعزم على الخروج قبل ان يلحق بغير القوم • فقال خالد : الله لنا ومعنا وعطف راجعا يجد في مسيره والغنائم امامه والمسلمون في اثره فرحين بالغنيمة والسلامة والنصر •

(قال روح بن عطية) فقطعنا الطريق كلها وما عرض لنا من الروم احد ونحن نخوض في وسط ديار القوم خوضا ، فلما وصلنا مرج الصغير عند قنطرة أم حكيم نظرنا الى غبرة من وراءنا • فلما عايناها انكرنا ذلك فاسرع رجال من المسلمين الى خالد يخبرونه بالغبرة • قال أيكم يأتييني بخبرها فبادر بالاجابة

رجل من غفار يقال له صعصعة بن يزيد الغفاري . قال : انا ايها الامير . ثم نزل عن جواده ، وكان بجريه يسبق الفرس الجواد لقوة عزمه فورد الغبرة واختبرها ورجع على عقبه ، وهو ينادي ايها الامير ادركنا الصلبان من ورائنا وهم مصفدون في الحديد لم يبين منهم غير حماليق الحدق ، فدعا خالد بيونس الدليل عندما قاربته الخيل وقال يا يونس اقصد نحو الخيل وانظر ما يريدون . فقال السمع والطاعة . ثم دنا من الخيل وفاربهم ، ثم رجع الى خالد ، وقال له ألم أقل لك ايها الامير ان هرقل لا يغفل عن طلب ابنته وقد انفذ هذه الخيل يريدون ان يأخذوا الغنيمة من أيدي المسلمين ، فلما لحقوك ههنا قريبا من دمشق بعنوا رسولا يسألك في الجارية أما بيعها وأما هدية ، فبينما خالد يتحدث اذ أقبل اليه شيخ عليه لبس المسوح فأقبل حتى دنا من المسلمين فاوقفوه امام خالد ، وقال له قل ما تشاء . فقال الشيخ انا رسول الملك هرقل وانه يقول لك بلغني ما فعلت برجالي وقتلت توما زوج ابنتي وهتكت حرمتي ، وقد ظفرت وسلمت فلا تفرط بمن معك ، والان ما ان تبيع ابنتي أو تهديها الي فالكرم شيمتكم وطبعكم ولا يرحم من يرحم واني ارجو أن يقع بيننا الصلح ، فلما سمع خالد ذلك . قال للشيخ قل لصاحبك والله لا رجعت عنه وعن اهل ملته حتى أملك سريره وما تحت قدميه كما في علمك ، وأما ابناؤك علينا فلو وجدت الى ذلك من سبيل فماقصرت ، وأما ابنتك فهي لائمه هدية منا ثم ان خالدا اطلق ابنة الملك هرقل وسلمها للشيخ ولم يأخذ في فدائها شيئا ، فلما بلغ ذلك الرسول الى الملك هرقل قال لعظماء الروم هذا الذي اشترت عليكم فلم تقبلوه واردم قتلتي وسيكون الامر اعظم ، ولكن ليس هذا منكم بل هو من رب السماء .

(قال الواقدي) فبكت الروم بكاء شديدا وسار خالد حتى أتى دمشق ، وكان المسلمون وابو عبيدة قد أيسوا من خالد ومن معه فهم في أعظم القلق والاياس اذ قدم عليهم خالد (رض) والمسلمون فخرجوا الى لقائه وهنئوه بالسلامة وسلم المسلمون بعضهم على بعض ووجد خالد في دمشق عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الاشتر النخعي ومن كان معهما واقبل خالد الى جانب أبي عبيدة ، وهو يحدثه بما لاقى في غزوته وابو عبيدة يتعجب من شجاعته وجسارته ، فلما استقر بخالد مكانه اخذ الخمس من الغنائم وفرق الباقي على المسلمين ، ثم ان خالدا اعطى من ماله ليونس ، وقال خذ هذا فتزوج به او اشتر به جارية لك من بنات الروم . قال يونس والله لا اتزوج في هذا الدار الدنيا زوجة ابدا وما اريد الا ان اتزوج في الآخرة بعيناء من الحور

نعين . قال رافع بن عميرة الطائي فشهد معا القتال الى يوم اليرموك فما كنت أراه في حرب الا ويجاهد جهادا عظيما ، وقد أبلى في الروم 'بلاء حسنا فأتاه سهم في لبتة فخر ميتا رحمه الله تعالى . قال رافع فحزنت عليه واكثر من الترحم عليه فرأيت في النوم وعليه حلل تلمع وفي رجله نعلان من ذهب وهو يجول في روضة خضراء ، فقلت له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لـي واعطاني بدلا من زوجتي سبعين حوراء لو بدت واحدة منهن في الدنيا لكف ضوء وجهها نور الشمس والقمر فجزاكم الله خيرا فقصصت الرؤيا على خالد ، فقال ليس والله سوى الشهادة طوبى لمن رزقها .

كتب خالد بالفتح

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان خالدا (رض) لما رجع من غزوته ومسيره غانما ظن ان الخليفة ابا بكر الصديق (رض) حي لم يقبض فهم ان يكتب له كتابا بالفتح والبشارة وما غنم من الروم ، وابو عبيدة لا يخبره بذلك ولا يعلمه ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فدعا خالد بدواة وبياض وكتب :
بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله خليفة رسول الله (ص) من عامله على الشام خالد بن الوليد . اما بعد سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) ثم انا لم نزل في مكايده العدو على حرب دمشق حتى انزل الله علينا نصره وقهر عدوه وفتحت دمشق عنوة بالسيف من باب شرقي ، وكان ابو عبيدة على باب الجابية فخدعته الروم فصالحوه على الباب الاخر ومنعني ان اسبي واقتل ولقيناه على كنيسة يقال لها كنيسة مريم وامامه القسس والرهبان ومعهم كتاب الصلح ، وان صهر الملك توما واخر يقال له هربيس خرجا من المدينة بمال عظيم واحمال جسيمة فسرت خلفها في عساكر الزحف وانتزعت الغنيمة من ايديهما وقتلت الملعونين واسرت ابنة الملك هرقل ، ثم اهديتها اليه ورجعت سالما ، وانا منتظر امرك والسلام عليك ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم ، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه ، ودعا برجل من العرب يقال له عبد الله بن قرط فدفع اليه الكتاب وسار الى مدينة رسول الله (ص) فوردها والخليفة عمر بن الخطاب (رض) فقرأ عنوان الكتاب ، واذا هو : من خالد الى خليفة رسول الله (ص) فقال عمر أما عرف المسلمون وفاة ابي بكر (رض) ، فقال لا يا امير المؤمنين ، فقال قد وجهت بذلك كتابا الى ابي عبيدة وامرته على المسلمين وعزلت خالدا وما اظن ابا عبيدة يريد الخلافة لنفسه ، فسكت وقرأ الكتاب : قال اصحاب السير

في حديثهم ممن تقدم ذكرهم واسنادهم في اول الكتاب ممن روى فتوح
النساج ونقلوها عن التقاب منهم محمد بن اسحق وسيف بن عمرو وابو عبد
الله محمد بن عمر الواقدي (رض) كل حدث بما رواه وسمعه ثقة عن ثقة .
قالوا جميعا في اخبارهم : انه لما قبض ابو بكر الصديق (رض) وولى الامر
بعده عمر بن الخطاب (رض) وله من العمر اثنتان وخمسون سنة بايعه الناس
في مسجد رسول الله (ص) بيعة تامة ولم يتخلف عن مبايعته احد لا صغير ولا
كبير وانقطع في امارته الشقاق والنفاق وانحسم الباطل وقام الحق وقوي
السلطان في امارته وضعف كيد الشيطان وظهر أمر الله وهم كارهون ، ومن
أمره انه كان يجلس مع الفقير ويتلطف بالناس والمسلمين ويرحم الصغير
ويوقر الكبير ويعطف على اليتيم وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق
الى اهله ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان في امارته يدور في اسواق المدينة
وعليه مرفعة وبيده درته وكانت درته أهيب من سيف الملوك وسيوفكم هذه ،
وكان قوته في كل يوم خبز الشعير وادمه الملح الجريش ، وربما اكل خبزه
بغير ملح تزهدا واحتياطا وترفقا على المسلمين ورأفة ورحمة لا يريد بذلك
الا الثواب من الله سبحانه وتعالى ولا يشغله شاغل عن اداء الفريضة . وما
اوجب الله عليه من حقوقه وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام قالـت
عائشة (رض) : ولقد نولى والله عمر بن الخطاب (رض) الخلافة وجد في
التشمر وترك عن نفسه التكبر ، ولقد كان احرقه خبز الشعير والملح واراد
أكل الزيت واليابس من التمر ، وربما أخذ شيئا من السمن ، ويقول أكلت
الزيت وخبز الشعير والملح والجون اهون غدا من نار جهنم ، من حل بها لم
يمت ولم يجد فيها راحة ابدا ، قرارها بعيد وعذابها شديد وشرابها الصديد
لا يؤذن لهم فيعتذرون ، جند الجنود في امارته وبعث العساكر وفتح الفتوحات
ومصر الامصار ، وكان يحاف عذاب النار ، (رض) .

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : ولقد بلغني ان هرقل لما بلغه ان عمر
بن الخطاب (رض) قد ولى الامر من بعد ابي بكر الصديق (رض) جمع الملوك
والبطارقة وارباب دولته وقام فيهم خطيبا على منبر قد نصب له في كنيسة
القسيسين ، وقال يا بني الاصفر : هذا الذي كنت احذركم منه فلم تسمعوا
مني ، وقد اشتد الامر عليكم بولاية هذا الرجل الاسمر وقد دنا موعد صاحب
الفتوح المنتبه بنوح ، والله ثم والله لا بد ان يملك ما تحت سريري هذا الحذر
ثم الحذر قبل وقوع الامر ونزول الضرر ، وهدم الفصور وقتل القسس وتبطل
الناقوس ، هذا صاحب الحرب والجالب على الروم والفرس الكرب ، هذا

الزاهد في دنياه ، وهذا الغليظ على من أتبع في غير ملته هواه ، واني ارجو لكم النصر ان امرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وتركتم الظلم واتبعتم المسيح في اداء المفروضات ولزوم الطاعات وترك الزنا وانواع الخطايا ، وان ابيتم الا الفساد والفسوق والعصيان والركون الى شهوات الدنيا يسلط الله عليكم عدوكم ويبلوكم بما لا طاقة لكم به ، ولقد أعلم أن دين هؤلاء سيظهر على كل دين ولا يزال اهله بخير ما لم يغيروا ويبدلوا ، فاما ان ترجعوا اليه ، واما ان تصالحوا القوم على اداء الجزية ، فلما سمع القوم ذلك نفروا وبادروا اليه وهموا بقتله فسكن غضبهم بلين كلامه ولاطفهم . وقال لهم انما أردت أن أرى حميتكم لدينكم وهل تمكن خوف العرب في قلوبكم أم لا ؟

ثم استدعى برجل من المنتصرة يقال له طليعة بن ماران وضمن له مالا ، وقال له انطلق من وقتك هذا الى يشرب وانظر كيف تقتل عمر بن الخطاب ، فقال له طليعة نعم أيها الملك . ثم تجهز وسار حتى ورد مدينة رسول الله (ص) وكمن حولها ، واذا بعمر بن الخطاب (ض) خرج يشرف على أموال اليتامى ويفتقد حدائقهم فصعد المنصر الى شجرة ملتفة الاغصان فاستتر بأوراقها ، واذا بعمر (رض) قد اقبل الى أن قرب من الشجرة التي عليها المنتصر ونام على ظهره وتوسد بحجر ، فلما نام هم المنتصر ان ينزل اليه ليقتله ، واذا بسبع اقبل من البرية فطاف حوله وأقبل يلحس قدميه ، واذا بهاتف يقول يا عمر عدلت فأمنت ، فلما استيقظ عمر (رض) ذهب السبع ونزل المنتصر وتراعى على عمر (رض) فقبل يديه ، وقال بأبي أنت وأمي أفدى من الكائنات من السباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ، ثم أعلمه بما كان منه وأسلم على يديه .

(قال الواقدي) ثم ان عمر (رض) كتب كتابا لابي عبيدة بن الجراح يقول فيه : قد وليتك على الشام وجعلتك أميرا على المسلمين وعزلت خالد بن الوليد والسلام . ثم سلم الكتاب الى عبد الله بن قرط وأقام قلعا على ما يرد عليه من أمور المسلمين وصرف همته الى الشام .

تولية ابي عبيدة

(قال الواقدي) حدثني رافع بن عميرة الطائي . قال حدثني يونس بن عبد الاعلى ، وقد قرأت عليه بجامع الكوفة . قال حدثني عبد الله بن سالم الثقفي عن أشياخه الثقات . قال لما كانت الليلة التي مات فيها ابو بكر الصديق (رض) رأى عبد الرحمن بن عوف الزهري (رض) رؤيا قصها على

عمر (رض) ، وكانت تلك الليلة بعينها . قال رأيت دمشق والمسلمون حولها وكأنني أسمع تكبيرهم في أذني وعند تكبيرهم وزحفهم رأيت حصنا قد ساخ في الارض حتى لم أر منه شيئا ورأيت خالدا ، وقد دخلها بالسيف وكأن نارا أمامه وكأنه وقع على النار فانطفأت ، فقال الامام علي كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنهم اجمعين : أبشر فقد فتح الشام هذه الليلة أو قال يومك هذا ان شاء الله تعالى ، فبعد أيام قدم عقبة ابن عامر الجهني صاحب رسول الله (ص) ومعه كتاب الفتح ، فلما رآه قال يا ابن عامر كم عهدك ؟ قال قلت يوم الجمعة . قال ما معك من الخبر ؟ فقلت خير وبشارة واني سأذكرها بين يدي الصديق (رض) . فقال فبض والله حميدا وصار الى رب كريم ، وقلدها عمر الضعيف في جسمه فان عدل فيها نجا وان ترك أو خلط هلك . قال عقبة بن عامر فبكيت وترحمت على أبي بكر الصديق (رض) ، وأخرجت الكتاب فدفعته اليه ، فلما قرأه نظر فيه وكنتم الامر الى وقت صلاة الجمعة . فلما خطب وصلى ورقى المنبر واجتمع المسلمون اليه وقرأ عليهم كتاب الفتح فضج المسلمون بالتهليل والكبير وفرحوا ، ثم نزل عن المنبر وكتب الى أبي عبيدة (رض) بتوليته وعزل خالد ، ثم سلمني الكتاب وأمرني بالرجوع ، قال فرجعت الى دمشق فوجدت خالدا قد سار خلف، توما وهربيس فدفعت الكتاب الى أبي عبيدة فقرأه سرا ولم يخبر احدا بموت أبي بكر الصديق (رض) ثم كنتم أمره وكنتم عزل خالد وتوليته على المسلمين حتى ورد خالد من السرية فكتب الكتاب بفتح دمشق ونصرهم على عدوهم وبسا ملكوا من مرج الديباج واطلاق بنت الملك هرقل وسلم الكتاب الى عبد الله بن قرط ، فلما ورد به الى عمر بن الخطاب (رض) ، وقرأ عنوان الكتاب من خالد بن الوليد الى أبي بكر الصديق (رض) انكر الامر ورجعت حمرة الى البياض ، وقال : يا بن قرط أما علم الناس بموت أبي بكر (رض) وتوليته أبا عبيدة بن الجراح ؟ قال عبد الله بن قرط . قلت لا ، فغضب وجمع الناس اليه وقام على المنبر . ثم قال يا معاشر الناس اني أمرت أبا عبيدة الرجل الامين ، وقد رأيت له لأهلا ، وقد عزلت خالدا عن امارته ، فقال رجل من بني مخزوم : أت عزل رجلا قد أشهر الله بيده سيفا قاطعا ونصر به دينه ، وان الله لا يعذرك في ذلك ولا المسلمين ان انت أغمدت سيفا وعزلت أميرا أمره الله لقد قطعت الرحم ، ثم سكت الرجل ، فنظر عمر (رض) الى الرجل المخزومي فرآه غلاما حدث السن . فقال شاب حدث السن غضب لابن عمه ثم نزل على المنبر وأخذ الكتاب وجعله تحت رأسه وجعل يؤامر نفسه في عزل خالد ، فلما كان من الغد صلى صلاة

الفجر وفام فرقى المنبر خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر الرسول (ص)
فصلى عليه وترحم على أبي بكر الصديق (رض) ، ثم قال : ايها الناس اني
حملت امانة عظيمة واني راع وكل راع مسؤول عن رعيته ، وقد جئت لاصلاحكم
والنظر في معاشكم وما يقربكم الى ربكم أنتم ومن حضر في هذا البلد فاني
سمعت رسول الله (ص) يقول « من صبر على أذاها وشرها كنت له شفيعا
يوم القيامة » وبلادكم بلاد لا زرع فيها ولا ضرع ولا ماء أوقر به الابل لآمن
مسيرة شهر وقد وعدنا الله مغانم كثيرة واني أريدها للخاصة والعامة لأؤدي
الامانة والتوقير للمسلمين ٠٠٠ وما كرهت ولاية خالد على المسلمين الا لان
خالدا فيه تبذير المال يعطي الشاعر اذا مدحه ويعطي للمجد والفارس بين يديه
فوق ما يستحقه من حقه ولا يبقى لفراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئا ، واني
أريد عزله وولاية أبي عبيدة مكانه والله يعلم أني ما وليته الا أمينا فلا يقول
قائلكم : عزل الرجل الشديد وولى الامين اللين للمسلمين فان الله معه
يسدده ويعينه ، تم نزل عن المنبر وأخذ جلد آدم منشور وكتب الى أبي عبيدة
كتابا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى
أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو ،
وأصلي على نبيه محمد (ص) وبعد فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فان
الله لا يستحي من الحق ، واني أوصيك بتقوى الله الذي يبقي ويفني ما سواه
والذي استخرجك من الكفر الى الايمان ، ومن الضلال الى الهدى ، وقد
استعملتك على جند ما هنالك مع خالد فاقبض جنده واعزله عن امارته ولا تنفذ
المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنفذ سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو
لكم النصر فان النصر انما يكون مع اليقين والنقة بالله ، واياك والتغريب بالقاء
المسلمين الى الهلكة ، وغض عن الدنيا عينيك واله عنها قلبك ، واياك ان تهلك
كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم وانما بينك وبين
الآخرة ستر الخمار وقد تقدم فيها سلفك وأنت كأنتك منتظر سفرا ورحيلا من
دار قد مضت نضرتها وهبت زهرتها فأحزم الناس فيها الراحل منها الى غيرها
ويكون زاده التقوى وراع المسلمين ما استطعت ، وما الحنطة والشعير الذي
وجدت بدمشق وكثرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين ، وأما الذهب
والفضة ففيهما الخمس والسهام ، وأما اختصاصك انت وخالد في الصلح او
القتال فأنت الولي وصاحب الامر وان صلحك جرى على الحقيقة أنها للروم
فسلم اليهم ذلك والسلام ورحمة الله وبركاته عليك وعلى جميع المسلمين ،

واما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها الى ابيها بعد أسرها تفريط ، وقد كان يأخذ في قديتها مالا كثيرا يرجع به على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وختمه بخاتمة ، ثم دعا بعامر بن أبي وقاص أخي سعد ودفع الكتاب اليه ، وقال له انطلق الى دمشق وسلم كتابي هذا الى أبي عبيدة وامره أن يجمع الناس اليه واقرأه انت على الناس يا عامر واخبره بموت أبي بكر الصديق (ر ض) ثم دعا عمر (ر ض) شداد بن أوس فصافحه ، وقال له أمض انت وعامر الى الشام فاذا قرأ أبو عبيدة الكتاب فأمر الناس يبائعونك لتكون بيعتك بيعتي .

(قال الواقدي) فانطلقا يجسدان في السير الى ان وصلا الى دمشق والناس مقيمون بها ينتظرون ما يأتيهم من خبر أبي بكر الصديق (ر ض) وما يأمرهم به فأشرف صاحبها عمر (ر ض) على المسلمين ، وقد طالت اعناقهم اليهما وفرحوا بقدومهما فاقبلا حتى نزلا في خيمة خالد (ر ض) وقال له عامر بن أبي وقاص تركته يعني عمر بخير ومعني كتاب وانـه أمرني أن أقرأه على الناس بالاجتماع فاستنكر خالد ذلك واستراب الامر وجمع المسلمين اليه فقام عامر أبي وقاص فقرأ الكتاب فلما انتهى الى وفاة أبي بكر الصديق (ر ض) ارتفع للناس ضجة عظيمة بالبكاء والنحيب وبكى خالد (ر ض) ، وقال ان كان أبو بكر قد قبض وقد استخلف عمر فالسمع والطاعة لعمر وما أمر به وقرأ عامر الكتاب الى آخره ، فلما سمع الناس بما فيه من أمر المبايعة لشداد بن أوس بايعوه ، وكانت المبايعة بدمشق لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاث عشر من الهجرة .

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : قد بلغني أنه كان على العدو بعد عزله اشد فظاعة وأصعب جهادا لا سيما في حصن أبي القدس .

ذكر حديث وقعة أبي القدس

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : سألت من حدث بهذا الحديث عن حصن أبي القدس . قال ما بين عرقا وطرابلس مرج يقال له مرج السلسلة وكان بازائه دير وفيه صوامع وفيه صومعة راهب عالم بدين النصرانية وقد قرأ الكتب السالفة وأخبار الامم الماضية المتقدمة وكانت تفصده الروم وتقتبس من علمه وله من العمر ما ينوف عن مائة سنة ، وكان في كل سنة يقوم عند ديره عيد آخر صيام الروم وهو عيد الشعانين فتجتمع الروم والنصارى وغيرهم من جميع النواحي والسواحل ومن قبط مصر ويحدقون به فيطلع عليهم من ذروة له فيعلمهم ويوصيهم بوصايا الانجيل ، وكان يقوم في ذلك العيد سوق عظيم من السنة الى السنة ، وكان يحمل له الامتعة والذهب

والفضة ويبيعون ويشتررون ثلاثة ايام ، وما كان المسلمون يعلمون بذلك ولا يعرفونه حتى دلهم عليه رجل نصراني من المعاهدين وقد اصطفاه وأمنه وأهله ، فلما ولى أبو عبيدة أمر المسلمين أراد ذلك المعاهد أن يتقرب الى أبي عبيدة (رض) فعسى ان يكون فتح الدير والسوق على يديه فأقبل اليه وأبو عبيدة فد أطال الفكر فيما يصنع واي بلد من بلاد الروم يقصد ، فمرة يقول أسير الى بيت المقدس بالجيش فانها أشرف بلدهم وكرسي مملكة الروم بها قيام دينهم ، ووقتاً يقول اسير الى انطاكية وأقصد هرقل وأفرغ منه ، وبينما هو يفكر في أمره وقد جمع المسلمين اذ أقبل ذلك المعاهد وكان من نصارى الشام . فقال : أيها الامير انك قد احسنت الي وأمنتني ووهبتني أهلي ومالي وولدي وقد اتيتك ببشارة وغنيمة تغنمها المسلمون ساقها الله اليهم ، فأن أظفرهم الله بها استغنوه غنى لا فقر بعده . فقال أبو عبيدة أخبرنا ما هذه الغنيمة وأين تكون ؟ فما علمتك الا ناصحا . فقال أيها الامير انها بازائك على دير الساحل وهو حصن يعرف بأبي القدس وبازائه دير فيه راهب تعظمه النصرانية وينبركون بدعائه ويقتبسون من علمه وله في كل سنة عيد يجتمعون اليه من كل النواحي والقرى والامصار والضياح والاديرة ويقوم عنده سوق عظيم يظهرون فيه فاخر ثيابهم من الديباچ والذهب والفضة يقيمون عنده ثلاثة ايام او سبعة وقد قرب وقت قيام السوق فتأخذون جميع ما فيه وتقتلون الرجال وتسبون النساء والذراى ، وهذه غنيمة يفرح بها المسلمون ويوهن لها عدوكم .

(قال الواقدي فلما سمع ابو عبيدة ما قاله المعاهد فرح رجاء ان يكون ما قاله المعاهد غنيمة للمسلمين . فقال للمعاهد كم بيننا وبين هذا الدير ؟ قال عشرة فراسخ للمجد السائر . قال أبو عبيدة وكم بقي الى قيام السوق قال أيام قلائل قال أبو عبيدة فهل يكون لهم حامية يلي أمرهم ويصد عنهم قال المعاهد لسنا نعرف ما ذكرت في بلاد الملك لانه لا يصيب بعضنا بعضا لهيبة هرقل في قلوبهم ، فلما سمع ابو عبيدة قال هل بالقرب منه شيء من مدائن الشام ؟ قال نعم بالقرب من السوق مدينة تسمى طرابلس وهي مينا الشام اليها تقدم المراكب من كل مكان وفيها بطريق عظيم كثير التجبر وقد أقطعه الملك اياها من تجبره وهو يحضر السوق وما كنت أعهد ان لهذا السوق حامية من الروم الا أن يكون الآن لخوفهم منكم ولو سار الى الدير والسوق أدنى المسلمين لرجوت لهم الفتح ان شاء الله تعالى .

فقال ابو عبيدة : أيها الناس أيكم يهب نفسه لله تعالى وينطلق مع جيش

أبعثه فتحا للمسلمين فسكت الناس ولم يتكلم أحد ، فنادى أبو عبيدة ثانية وانما يريد خالدا بقوله واستحى أن يواجهه في ذلك لاجل عزله ، فقام من وسط الناس غلام شاب نبت شعر عارضيه واخضر شاربه وكان ذلك الشاب عبد الله بن جعفر (رض) ، وكانت أمه أسماء بنت عميس الختامية وكان أبوه جعفر (رض) قد مات في غزوة تبوك وخلف ولده عبد الله صغيرا فتزوجها أبو بكر الصديق (رض) ، فلما كبر وترعرع كان يقول لامه يا أماء : ما فعل أبي ؟ فتقول يا ولدي قتله الروم وكان يقول لئن عشت لآخذن بثأره ، فلما مات أبو بكر وتولى عمر (رض) جاء عبد الله الى الشام في بعث بعثه عمر مع عبد الله بن أنيس الجهني وكان فيه مشابهة من رسول الله (ص) في خلقه وخلقه وهو أحد الاصحاب الاسخياء ، فلما قال أبو عبيدة (رض) : ايها الناس من ينطلق الى هذا الدير وثب عبد الله بن جعفر الطيار (رض) . فقال أنا أول من يسير مع هذا البعث يا أمين الأمة ففرح أبو عبيدة وجعل يندب له رجالا من المسلمين وفرسان الموحدين وقال له : أنت الأمير يا ابن عم رسول الله (ص) وعقد له راية سوداء وسلمها اليه ، وكان على الخيل خمسمائة فارس منهم رجال من أهل بدر ، وكان من جملة من سيره مع عبد الله ابو ذر الغفاري وعبد الله بن أبي اوفي وعامر بن ربيعة وعبد الله بن أنيس وعبد الله ابن ثعلبة وعقبة بن عبد الله السلمي ووائل بن الاسقع وسهل بن سعد وعبد الله بن بشر والسائب بن يزيد ومثل هؤلاء السادات (رض) اجمعين .

(قال الواقدي) ولما ان اجتمعت الخمسمائة فارس تحت راية عبد الله بن جعفر وما منهم الا من شهد الوقائع وخاض المعامع لا يولون الادبار ولا يركنون الى الفرار عولوا على المسير . وقال أبو عبيدة لعبد الله بن جعفر : يا ابن عم رسول الله (ص) لا تقدم على القوم الا في أول قيام السوق ، ثم انه ودعهم وساروا .

(قال الواقدي) وكان في هذه السرية مع عبد الله بن جعفر وائل بن الاسقع وكان خروجهم من أرض الشام وهي دمشق الى دير ابي القدس في ليلة النصف من شعبان وكان القمر زائد النور . قال وأنا الى جانب عبد الله ابن جعفر . فقال لي يا ابن الاسقع ما احسن قمر هذه الليلة وأنوره فقلت يا ابن عم رسول الله (ص) هذه ليلة النصف من شعبان وهي ليلة مباركة عظيمة ، وفي هذه تكتب الارزاق والآجال وتغفر فيها الذنوب والسيئات وكنت أدري أن أقومها . فقلت ان سيرنا في سبيل الله خير من قيامها والله جزيل العطاء . فقال صدقت ثم اننا سرنا ليلتنا ، فبينما نحن سائرون اذ أشرفنا

على صومعة راهب وعليه برنس اسود ، فجعل يتأملنا وينظر في وجوهنا فتفقدنا واحدا بعد واحد ، ثم جعل يطيل النظر في وجه عبد الله ، ثم قال اهذا الفتى ابن نبيكم ؟ فقلنا لا قال ان نور النبوة يلوح بين عينيه فهل يلحق به . فقلنا هو ابن عمه . فقال الراهب هو من الورقة والورقة من الشجرة . فقال عبد الله : ايها الراهب وهل تعرف رسول الله (ص) ؟ . فقال وكيف لا أعرفه واسمه وصفته في التوراة والانجيل والزبور ، وانه صاحب الجمل الاحمر والسيف المشهر . فقال عبد الله فلم لا تؤمن به وتصدقه ؟ فرفح يده الى السماء وقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء فأعجبنا كلامه وسرنا والدليل بين ايدينا اذ أتى بنا الى واد كثير الشجر والماء أمرنا ان نكمن فيه ، ثم قال لعبد الله بن جعفر اني ذاهب أجس لكم الخبر . فقال له عبد الله : أسرع في مسيرك وعد الينا بالخبر . قال فانطلق مسرعا وأقام عبد الله بن جعفر يحرس المسلمين بنفسه الى الصباح . قال فلما اصبحتنا صلينا صلاة الصبح وجلسنا ننتظر رجوع الرسول فلم يأت وأبطأ خبره علينا فقلق المسلمون عليه لاحتباسه وخافوا من المكيدة ووسوس لهم الشيطان وساءت بالدليل الظنون فما من المسلمين الا من ظن بالمعاهد شرا الا أبا ذر الغفاري (رض) فانه قال : ظنوا بصاحبكم خيرا ولا تخافوا منه كيذا ولا مكرا ان له شأنا تعلمونه . قال فسكت الناس بعد ذلك واذا بصاحبهم قد اقبل . قال وائلة بن الاسقع فلما رأيناه فرحنا به وظننا أنه يأمر بالنهوض الى العدو فاقبل حتى وقف وسط المسلمين . وقال : يا أصحاب محمد وحق المسيح ابن مريم اني لا أكذبكم فيما احدثكم به واني رجوت لكم الغنيمة وقد حال بينكم وبينها ماء .

فقال له عبد الله (رض) : وكيف حيل بينا وبينها ؟ قال حال بينكم وبينها بحر عجاج ، وذلك اني اشرفت على السوق وقد قام فيه البيع والشراء ، فاجتمع فيه اهل دين النصرانية وقد دار أكثرهم بالدير دير أبي القدس واجتمع اليه القسس والرهبان والملوك والبطارقة ، فلما نظرت الى ذلك لم ارجع حتى اختبرت ما السبب الذي تجمعت له الخلق زيادة على كل سنة ، وذلك انسي مضيت واختلطت بالقوم واذا بصاحب طرابلس قد زوج ابنته ملكا من ملوك الروم ، وقد أتوا بالجارية الى الدير ليأخذوا لها من راهبهم قربانا وقد دار بها فرسان الروم المنتصرة في عددهم وعديدهم ، كل ذلك خوفا منكم لانهم يعلمون انكم بأرض الشام : يا معاشر المسلمين وما ارى لكم صوابا ان تصلوا الى القوم لانهم خلق كثير وجم غفير وجمع غزير . فقال عبد الله بن جعفر (رض) في

كم يكون القوم وكم خررتهم ؟ فقال اما السوق ففيه اكثر من عشرين الفا من عوام الروم والارمن والنصارى والقبط واليهود من مصر والشام وأهل السواد والبطارقة والمنتصرة ، وأما المستعدون للحرب فخمسة الاف فارس فما لكم بالقوة طاقة ، وان وقع طائح في بلادهم انضاف اليهم امثالهم فان بلادهم متصلة بهم ، وأما أنتم فعددكم يسير ، والعرب منكم بعيد .

(قال الواقدي) فصعب ذلك على عبد الله بن جعفر وعلى المسلمين وسقط في ايديهم وهموا بالرجوع . فقال عبد الله بن جعفر : معاشر المسلمين ، ما الذي تقولون في هذا الامر ؟ فقالوا نرى أن لا نلقي بأيدينا الى التهلكة كما امر ربنا في كتابه العزيز ، ونرجع الى الامير ابي عبيدة (رض) والله لا يضيع أجرنا . قال فلما سمع عبدالله قولهم قال أما أنا فأخاف ان فعلت ذلك ان يكتبني الله من الفارين وما ارجع او أبدى عذرا عند الله تعالى ، فمن ساعدني فقد وقع اجره على الله ، ومن رجع فلا عتب عليه ، فلما سمعوا ذلك من عبدالله بن جعفر اميرهم وبذل مهجته استحيوا منه وأجابوه بأجمعهم وقالوا افعل ما تريد فما ينفع حذر من قدر ففرح باجابتهم ، ثم عمد الى درعه فأفرغه عليه ووضع على رأسه بيضة وشد وسطه بمنطقة ونقله بسيف أبيه واستوى على متن جواده واخذ الراية بيده وامر الناس بأخذ الالهبة فلبسوا دروعهم واشتملوا بسلاحهم وركبوا خيولهم وقالوا للدليل سربنا نحو القوم فستعائين من اصحاب رسول الله (ص) عجباً . قال وائلة بن الاسقع فرأيت الدليل قد اصفر وجهه وتغير لونه وقالوا سيروا انتم برأيكم وما علي من امركم وخرج قال أبو ذر الغفاري فرأيت عبدالله بن جعفر يتلطف به حتى سار بين يديه يدلّه على القوم ساعة ، ثم وقف وقال أمسكوا عليكم فانكم قد قربتم من القوم فكونوا في مواضعكم كامنين الى وقت السحر ثم أغيروا على القوم . قال وائلة بن الاسقع فبتنا ليلتنا حيث امرنا ونحن نطلب النصر من الله تعالى على الاعداء ، فلما أصبح النهار صلي بهم عبدالله بن جعفر صلاة الصبح ، فلما فرغوا من صلاتهم قال ما ترون في الغارة ؟

فقال عامر بن عميرة بن ربيعة أدلكم على أمر تصنعونه قالوا قل . قال اتركوا القوم في بيعهم وشرائهم واظهار امتعتهم ، ثم اكبسوا عليهم على حين غفلة وغرة من امرهم ، فصوب الناس رأيه وصبروا الى وقت قيام السوق ، ثم اظهروا السيوف من أعمادها وأوتروا القسي وشرعوا لاماتهم ، وعبدالله بن جعفر امامهم الراية بيده ، فلما طلعت الشمس عمد عبدالله الى المسلمين

فجعلهم خمسة كراديس كل كردوس مائة فارس وجعل على كل مائة نقيباً وقال تأخذ كل مائة منكم قطراً من أقطار سوقهم ولا تشتغلوا بنهب ولا غارة ، ولكن ضعوا السيوف في المفارق والعواقق ، وتقدم عبدالله بن جعفر بالراية وطلع على القوم فنظر الى الروم متفرقين في الارض كالنمل لكثرتهم وقد احدث منهم بدير الراهب خلق كثير ، والراهب قد اخرج رأسه من الدير وهو يعظ الناس ويوصيهم ويعلمهم معالم ملتهم وهم اليه شخوص بابصارهم وابنة البطريق عنده في الدير والبطارقة وابناؤهم عليهم الديباج المتقسل بالذهب ، ومن فوقهم دروع وجواشن تلمع وبيض وهم ينظرون صيحة بين ايديهم او طارقاً يطرقهم من خلفهم ، ونظر عبد الله الى الدير والى ما احدث به ، والى الراهب وما حول صومعته فهاله ذلك من امرهم وصاح فيهم قبل الحملة . وقال يا صاحب رسول الله (ص) احمّلوا بارك الله فيكم ، فان كانت غنيمة وسرور فالفتح والسلامة ويكون الاجتماع تحت صومعة الراهب ، وان كان غير ذلك فهو وعدنا الجنة ونلتقي عند حوض رسول الله (ص) مع الصحابة . قال وطلب عبدالله الجم العظيم فغاص فيهم وجعل يضرب بسيفه ويطعن برمحه ويحمل المسلمون من ورائه ، وسمع الروم اصوات المسلمين مرتفعة بالتهليل والتكبير فتيقنوا ان جيوش المسلمين قد ادركتهم وكانوا لذلك منتظرين وعلى يقظة من امرهم ، فأما السوق فانه تبادروا الى اسلحتهم والمتع عن انفسهم وأموالهم وأخرجوا السيوف من الاغمدة وانعطفوا على قتال المسلمين عطفة الاسد الضاري ، وطلبوا صاحب الراية ولم يكن مع المسلمين راية غيرها فأحدثوا بالراية من كل جانب ومكان وقامت الحرب على ساق وثار الغبار وانعقد وأحدث الروم بالمسلمين ، فما كان المسلمون فيهم الا كشامة بيضاء في جلد بغير اسود ، وما كان اصحاب رسول الله (ص) يعرف بعضهم بعضاً الا بالتهليل والتكبير ، وكل واحد مشغول بنفسه عن غيره ، وقال ابو سبرة ابراهيم بن عبد العزيز بن ابي قيس ، وكان من السابقين والمتقدمين بايمانهم في الاسلام وصاحب الهجرتين جميعاً قال : شهدت قتال الحبشة مع جعفر بن ابي طالب (رض) وشهدت المشاهد مع رسول الله (ص) في بدر وفي احد وفي حنين ، وقلت اني لا اشهد ملها ، فلما قبض الله (ص) حزنت عليه ولم استطع ان اقيم بالمدينة بعد فقدته فقدمت مكة فأقمت بها فعوتبت في منامي من التخلف عن الجهاد ، فخرجت الى الشام وشهدت اجناديــــن والشام وسرية خالد خلف توما وهرييس وشهدت سرية عبدالله بن جعفر وكنت

معه علي دير ابي القدس فانستني وقعتها ما شهدت قبلها من الوقائع بين يدي رسول الله (ص) ، وذلك اني نظرت الى الروم حين حملنا عليهم في كثرتهم وعددهم وقلنا ماثم غيرهم وليس لهم كمين عظيم . قال فرأينا اجسادهم هائلة وعليهم الدروع وما يبين منهم الا حماليق الحدق لهم طقطقة وزمجرة عندما يحملون حتى نظرت الى المسلمين قد غابوا في اوساطهم ولا اسمع منهم الا الاصوات تارة يجهرون بها وتارة اقول هلكوا .

ثم انظر الى الراية بيد عبدالله بن جعفر (رض) مرفوعة بذلك ، وعبدالله يقاقل بالراية ويكر على المشركين ولا يتني ويجاهد على صغر سنة ولم تزل الحرب بيننا كلما طال مكنها اشتد ضرامها وعلا قتامها والتهب نارها ، وصار عبدالله في وسط القوم وهم حوله كالحلقة الدائرة والروم يحدقون به فجعل كلما حمل يمينا حملت يمينا وان حمل شمالا حملت شمالا ولم نزل في الحرب والفتال حتى كلت منا السواعد وخدرت منا المناكب . قال وعظم الامر علينا وهالنا الصبر وتتلهم سيف عبدالله في يده وكادت تنزع فرسه من تحته فالتجأ بأصحابه في موضع ، فاجتمع اصحابه اليه فنظر المسلمون الى رايته فقصدوها ، وما منهم الا مكلوم من المشركين فضاق لذلك ذرعه وما نزل في نفسه مثل ما نزل بالمسلمين فألجأ الى الله تعالى أمره وفوض الى صاحب السماء شأنه ورفع يده الى السماء وقال في دعائه يا من خلق خلقه وابلى بعضهم ببعض وجعل ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبي (ص) الا ما جعلت لنا من امرنا فرجا ومخرجا ، ثم عاد الى القتال واصحاب رسول الله (ص) يقاتلون معه تحت رايته ، قلله در ابي ذر الغفاري (رض) فانه نصر ابن عم رسول الله (ص) وجاهد بين يديه . قال عمرو بن ساعدة فلقد رايته مع كبر سنه يضرب بسيفه ضربا شديدا في الروم وينتمي الى قومه ويذكر عند حملانه اسمه ويقول انا أبو ذر ، والمسلمون يفعلون كفعلة الى ان بلغت القلوب الحناجر وظنوا ان في ذلك الموضع قبورهم .

(قال الواقدي رحمه الله تعالى) حدثني عبدالله بن انيس الجهني . قال كنت احب جعفرا واحب من اولاده عبدالله ، فلما قبض ابو بكر (رض) وكان قائما مقام ابيه نظرت الى أمه أسماء بنت عميس حزينة فكرهت ان انظر اليها في ذلك الحزن ، وايضا ان ابا بكر (رض) في المسير الى الشام فاستأذن عبدالله بن جعفر عمر بن الخطاب (رض) في المسير الى الشام . وقال لي : يا ابن انيس الجهني اشتهي ان ألحق بالشام ومعنا عشرون فارسا اكون مجاهدا أفتصحبني ؟ فقلت نعم فودع عمه عليا (رض) وودع عمر (رض)

وسار يريد الشام ومعنا عشرون فارسا حتى اتينا تبوك . فقال يا ابي-
 انيس اتدري موضع قبر ابي ؟ فقلت نعم فقال استهي ان اري الموضع . قال
 فما اتينا الموضع فأريته موضع مصرع أبيه وموضع الوقعة وقبر ابيه جعفر
 رحمه الله تعالى وعليه حجارة ، فلما نظر اليه نزل ونزلنا معه وبكى وترحم
 فأقمنا عنده الى صبيحة اليوم الثاني ، فلما رحلنا رايت عبد الله يبكي ووجهه
 مثل الزعفران فسألته عن ذلك . فقال رأيت ابي البارحة في النوم وعليه
 حلتان خضراوتان وتاج وله جناحان وبيده سيف مسلول اخضر فسلمه الي
 وقال يا بني قاتل به اعداءك فما وصلت الى ما ترى الا بالجهاد ، وكأني اقاتل
 بالسيف حتى تشلم . قال عبدالله بن انيس وسرنا حتى اتينا عسكر ابي عبيدة
 (ر ض) بدمشق ، فبعثه امير تلك السرية الى دير ابي القدس . قال عبدالله
 بن انيس فلما رأيت بينه وبين الروم ، قلت يوشك ان يذهب عبدالله فسرت
 كالبرق ورجعت الى ابي عبيدة (ر ض) ، فلما راني قال أبشارة يا ابن انيس
 ام لا ؟ فقلت انفذ المسلمين الى نصره عبدالله بن جعفر ومن معه ، ثم حدثته
 بالقصة فقال ابو عبيدة (ر ض) - انا لله وانا الله راجعون اصاب
 عبدالله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا ابا عبيدة وهي اول
 امارتك .

(قال الواقدي) ثم التفت خالد بن الوليد (ر ض) . فقال له يا ابا
 سليمان سألتك بالله . الحق عبد الله بن جعفر فأنت المعد لها . فقال خالد
 انا لها ان شاء الله وما كنت انتظر الا ان تأمرني فقال ابو عبيدة (ر ض)
 استحييت منك يا ابا سليمان فقال والله لو امر علي طفل صغير لاطيعن له ،
 فكيف اخالفك وانت اقدم مني ايمانا واسبق اسلاما سبقت باسلامك مع
 السابقين وسارعت بايمانك مع المسارعين وسماك رسول الله بالامين ، فكيف
 الحقك او انال درجتك ، والان اشهدك اني قد جعلت نفسي حبيسا في سبيل
 الله تعالى لا أخالفك ابدا ، ولا وليت امارا بعدها ابدا .

قال (قال الواقدي) فاستحسن المسلمون قوله ، فقال ابو عبيدة (ر ض)
 يا ابا سليمان الحق اخوانك رحمك الله . قال فوثب خالد (ر ض) كأنه الاسد
 وسار الى رحلة فأفرغ عليه درع مسيلمة الكذاب الذي سلبه منه يوم اليمامة
 والقي بيضة على رأسه واردها قلنسوة وتقلد بحسامه وانصب في سرجه
 كأنه السيل ونادى بجيش الزحف هلموا الى جزب السيوف فأجابوه مسرعين
 كأنهم العقبان وبادروا الى طاعة الرحمن واخذ خالد الراية بيده وهزها
 على ركابه ودار به عسكر الزحف من كل جانب وودع المسلمون بعضهم بعضا
 وساروا وسار خالد وعبدالله بن انيس يدلهم على الطريق . قال رافع بن عميرة

الطائي : كنت يومئذ من اصحاب خالد بن الوليد (ر ض) ولم يزل مجداً في السير والله عز وجل يطوي لنا البعيد ، فلما كان عند غروب الشمس اشرفنا على القوم والروم كالجراد المنتشر قد غرق المسلمون في كثرتهم . فقال خالد يا ابن انيس في اي جانب اطلب ابن عم رسول الله (ص) فقلت له انه واعد اصحابه ان يلتقوا عند دير الراهب او موعدهم الجنة .

(قال الواقدي) فنظر خالد نحو الدير فنساهد الراية الاسلامية ، وهي بيد عبدالله بن جعفر ، وما من المسلمين الا من اصيب بجرح ، وقد ايسو من الحياة الفانية وطعموا في الحياة السرمدية ، والروم تناوشهم بالحرب ونكثوا الطعن والضرب وعبدالله بن جعفر يقول لاصحابه دونكم والمشركين واصبروا لقتال المارقين واعلموا انه قد نجلى عليكم ارحم الراحمين ، ثم قرأ الآية فوله تعالى - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين - فلما نظر خالد (ر ض) الى صبرهم وتجلدهم على القتال اعدائهم لم يطق الصبر دون ان حمل عليهم وهز رايته ، وقال لاصحابه دونكم القوم القباح فأرووا من دمائهم السلاح ، وابشروا بالنجاح يا اهل حي على الفلاح .

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : فبينما اصحاب عبد الله بن جعفر في اشد ما يكونون فيه اذ خرجت عليهم خيل المسلمين وكتائب الموحدين كأنهم الطيور وعليها الرجال كأنهم العقبان الكاسرة والليوث الضارية وهم غائصون في الحديد ، وقد ارتفع لهم الضجيج ، وبخيلهم العجيج فلما نظر عبدالله واصحابه الى ذلك ظنوا انها نجدة الاعداء فأيقنوا بالهلاك والفناء وجعلوا ينظرون الى الخيل التي رأوها هي قاصدة اليهم ففرعوا وظنوا ان كميناً من الروم قد خرج لقتالهم فعظم عليهم الامر ، وقل منهم الصبر واخذهم البهر وقد لحق بالمشركين الدمار واتاهم حرب مثل النار، والسيوف تلمع ، والرؤوس من الرجال تقطع ، والارض قد امتلات قتلى وهم في ايدي المشركين كالاسرى والقوم في اشد القتال والسيوف يعمل في الرجال اذ نادى فيهم مناد وهتف بهم هاتف خذل الامن ونصر الخائف يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتهم على عبدة الصليبان ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، وعملت المرهفات البواتر ، واذا بفارس على المقدمة كأنه الاسد الزائر او الليث الهادر ويده تشرق بالأنوار كاشراف القمر فنادى الفارس باعلى صوته ابشروا يا معاشر حملة القرآن بالنصر المشيد أنا خالد بن الوليد فلما نظر المسلمون الرباية وسمعوا صوت خالد (ر ض) كأنهم كانوا في لجة واخرجهم فاجابوه بالتهليل والتكبير ، وكانت اصواتهم كالرعد القاصف والرياح العواصف ، ثم حمل خالد بن الوليد (ر ض) بجيش الزحف الذي لا يفارقه ووضع السيف في

الروم . قال عامر بن سراقه فما شبّهت حملته الا حملة الاسد في الغنم ففرقهم
يميناً وشمالاً . قال فنبئت المسلمون ، وكل عالج من الروم شهيد يمانع عن نفسه
وخالد يطلب ان يصل الى عبدالله بن جعفر .

ولما نظر المسلمون الى الخيل المقبلة عليها ولم يعلموا ما هي حتى سمعوا
صوت خالد بن الوليد (رض) ، فقال : يا ايها الناس دونكم الاعداء ، فقد جاءكم
النصر من رب السماء ، ثم حمل المسلمون معه . قال واثلة بن الاسقع لقد كنا
ايسنا من انفسنا واثقنا بالهلاك حتى اتتنا المعونة من الله عز وجل ، فحملنا
بحملة اخواننا . قال فما اختلطوا لظلام حتى نظرت الى خالد بن الوليد (رض)
والراية بيده ، وهو يسوق المشركين بين يديه سوق الغنم ، الى المراعي
والمسلمون يقللون ويأسرون فلله در ابي ذر الغفاري وضرار بن الازور والمسيب
بن نجية الفزاري لقد قرنوا المواكب وهزوا المضارب وقتلوا الروم من كل
جانب والتقى ضرار بعبدالله بن جعفر (رض) فنظر اليه والدم على اكماد درعه
كأكباد الابل فقال : شكر الله تعالى لك يا ابن عم رسول الله (ص) والله انك لقد
اخذت بثأر ابيك وشفيت غليلك ، فقال عبد الله بن جعفر (رض) : من الرجل
المخاطب لي ؟ وكان الظلام قد اعتكر وضرار ملثم لا يبين منه الا الحدق فلم
يعرفه عبدالله . فقال انا ضرار بن الازور صاحب رسول الله (ص) ، فقال
مرحبا بطلعتك وبأخ منا عدل لنا وقام لنصرتنا .

معركة ضرار

قال عبدالله بن انيس فبينما هم على ذلك اذ اقبل خالد بن الوليد
(رض) وجيتس الزحف . فقال شكر لك الله واحسن جزاءك ، ثم قال عبد الله
يا ضرار اعلم ان حامية الروم والبطارقة عند الدير لاجل ابنه صاحب طرابلس
وما معها من الاموال ، وقد احاط بها كل فارس من الروم ، فهل لك يا ابن
الازور ان تحمل معي ؟ فقال وأين هم ؟ فقال اما تنظر اليهم فمد عينه ، واذا
بحامية الروم وبطريق طرابلس وقد احدثوا بالدير يمنعون عن الجارية
والنيران مشتعلة والصلبان تلمع كضوء النار وكانهم سد من حديد . فقال
ارشدك الله للخيرات فنعم المرشد انت احمل حتى احمل معك بحملتك قال :
فحمل عبدالله بن جعفر من جهته وحمل ضرار بن الازور من جهته واتبعتهما
الرجال وزعقوا في الروم وحماة المشركين وهم يمانعون عن انفسهم وكان
اشدهم منعة بطريقهم فبرز امام القوم وهو يهدر كالبعير ويزأر زئير الاسد
يصيح بكلمة الكفر ويحمل حملات الشجعان فقصده ضرار بن الازور وباطشه
في الضرب والتقت الاقران ونظر ضرار الى العالج وعظم خلقته وتمكنه في

سرجه وشدة ضربه وحسن احترازه فاخذ ضرار منه حذره ، واحترز منسه البطريق وطلبه اشد الطلب وكل واحد منهما طامع في صاحبه ، فانفرد ضرار بن الازور مع صاحب القوم وكل قرن مع قرنه ، وليس مع ضرار احد المسلمين فانبسط ضرار بين ايديهم ليكر بهم وطلبه البطريق واصحابه وقصدوه بحملتهم ، فلما نظر ضرار الى ذلك قصد موضعا يصلح لمجال الخيل فاعترضه واحد من ظلمة الليل فكبابه الجواد فسقط الارض هاويا ثم ثار من سقطتته يروم اخذ الفرس فلم يجد الى ذلك سبيلا فوقف مكانه وسيفه وجحفتته بيده وجعل يجاهددهم بسيفه وصبر لهم صبر الكرام ولم يأخذه في الله لومة لائم فحقق عليه بطريق الروم واقبل يضرب بعموده ، فلما لازمه ورمى العمود عليه زاغ ضرار عن الضربة ، ثم وثب اليه وثبة الاسد وضربه ضربة ازعجت فرس البطريق من تحته وقام على رجليه وشك بيديه وضربه الثانية فوقعت ضربة ضرار في عين جواده فانتكس الجواد الى الارض ووقع العليج على ظهره ولم يقدر ان يقوم لانه مزرد في سرجه ، فعالجه ضرار قبل وصول غلمانة اليه وضربه على حبل عانقه فنبأ سيفه ولم يعمل شيئا فناهضه الملعج وقد ايكن بالهلاك وقبض عليه وكان كالجبل العظيم فرماه ضرار تحته وملك صدره واستوى على نحره ، وكان مع ضرار سكين من صنعة اليمن لا تفارقه فاستلها من غمدها وضرب صدر عدو الله الى سرتة فسقط عدو الله قتيلًا وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار .

ثم وثب ضرار وملك جواد عدو الله واستوى في سرجه ، وكان على الجواد كثيرا من الذهب والفضة والفصوص التي تساوي ثمنًا كثيرا ، فلما صار على ظهر الجواد حمل وكبر على المشركين ففرقهم يمينًا وشمالًا ، وكان ضرار لما انبسط امام القوم ملك عبدالله بن جعفر الدير ومن فيه ومن معه من المسلمين واحدقوا به ولم ياخذوا منه شيئا حتى رجع خالد (ر ض) من اتباع الروم ، وذلك ان خالدا اتبعهم الى نهر عظيم كان بينهم وبين طرابلس الشام ، والروم يعرفون مخاوضه فوقف خالد ورجع الى اصحاب رسول الله (ص) فوجددهم قد ملكوا الدير وقتلوا العليج وانتشرت الناس في جمع الغنائم وما كان في السوق والفراش والقماش والثياب والطعام وغيره قال واثلة بن الاسقع : فجعلنا نجمعه ونأكل الخيرات واخرجوا ما كان في الدير من ابيسة الذهب والفضة والستور والمراتب واخرجوا ابنة البطريق ومعها اربعون جارية لهن حلي وحلل ، والمال على البراذين والبغال والحمير فانقلب اصحاب رسول الله (ص) بالغنيمة والاموال الجسيمة .

(قال الواقدي) فنسبت تلك البسرية لثلاث : عبد الله بن جعفر صاحبها ،

وعبدالله بن انيس مدرکها ، وخالد بن الوليد منجدها ولقي خالد فيها مشقة وجراحا مؤلمة ، فلما سار واقبل خالد الى الدير فصاح بصاحبه يا راهب فلم يكلمه فهتف به مرة اخرى وهدده فاطلع عليه وقال ما تشاء وحق المسيح لي طالبك صاحب هذه الخضراء بدماء من قتلت . فقال خالد كيف يطالبنا وقد امرنا ان نقاتلكم ونجاهدكم ووعدنا على ذلك الثواب ، ووالله لولا رسول الله (ص) نهانا ان نتعرض لكم لاتركتك في صومعتك بل كنت قتلتك اشر قتلة فسكت الراهب عنه ولم يجبه وانقلب خالد والمسلمون بالغنائم التي دمشق وابو عبيدة (رض) فيها فشكر لهم وسلم خالد وعلى عبدالله بن جعفر (ر ض) ورجع الى مكانه فخمس الغنيمة وقسمها على الناس فدفع لضرار بن الازور فرس البطريق وسرجه وما عليه من حلى الذهب والفضة والجواهر والفصوص فأتى به ضرار الى اخته السيدة خولة (ر ض) قال فرأيتها تنزع فصوص الجواهر فنفرقتها على نساء المسلمين وان الفص منها ليساوي النمن الكثير قال وعرض السبي على ابي عبيدة (ر ض) وفي الجملة ابنة البطريق ، فقال عبد الله ابن جعفر اريدها . قال ابو عبيدة : حتى استأذن امير المؤمنين في ذلك فكتب اليه يعلمه بها وبمسألة عبدالله بن جعفر فكتب عمر بن الخطاب (رض) هي له ، فأخذها عبدالله واقامت زمنا عنده وعلماها الطبخ ، وكانت من قبل تعرف طبخ الفرس والروم واقامت عنده الى ايام يزيد فأخبر بها فاستدأها منه فأهداها له ، وكانت عنده ، وقال عامر بن ربيعة : اصابني من غنيمة سوق الدير اثواب ديباج حرير فيها صور الروم ، وكان في كل ثوب منها صورة حسنة وهي صورة مريم وعيسى عليهما السلام فحملت الثياب الى اليمن فبيعت بثمن كثير وكتب الى عمي وأنا مع ابي عبيدة : يا ابن اخي ابعث لي من هذه الثياب واكثر منها فانها تنفق .

(قال الواقدي) فلما رجع جيش المسلمين غانما كتب ابو عبيدة بن الجراح (ر ض) الى عمر بن الخطاب (ر ض) كتابا يخبره بما فتح الله على يديه وما غنم المسلمون من دير ابي القدس ويمدح خالدا ويشكره ويشني عليه ويخبره بما قال وما تكلم به وسأله في كتابه ان يكتب الى خالد يستشير في المسير الى هرقل او الى بيت المقدس وكتب اليه ايضا ان بعض المسلمين يشربون الخمر ، قال عاصم بن ذؤيب العامري ، وكان ممن شهد قتال الروم بالشام وفتح دمشق العرب الوافدين من اليمن فأخذوا في الشرب واستطابوا ذلك فانكر ذلك الامير ابو عبيدة . فقال رجل من العرب اظنه سراقا ابن عامر يا

معاشر المسلمين خلوا شرب الخمر فانها تزيل العقول وتكسب الاثم ، وان رسول الله (ص) لعن شارب الخمر حتى لعن حاملها والمحمولة اليه .
(وحدثني) اسامة بن زيد الليثي عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الغفاري قال : كنت مع ابي عبيدة بالشام فكتب الى عمر بن الخطاب (ر ض) يخبره بفتح الشام وفي الكتاب : ان المسلمين يشربون الخمر واستقلوا الحد فقدمت المدينة فوجدت عمر (ر ض) في مسجد رسول الله (ص) جالسا وعنده نفر في الصحابة وهم عنان وعلي وعبد الرحمن بن عوف يتحدثون فدفعت الكتاب اليه ، فلما قرأه جعل يفكر في ذلك ثم قال ان رسول الله (ص) جلد من شربها ، ثم سأل عمر عليا (ر ض) في ذلك وقال ما ترى في هذا فقال علي (ر ض) ان السكران اذا سكر هذي ، واذا هذي افترى فكتب اليه عمر ان من شرب الخمر فعليه ثمانون جلدة ولعمري ما يصلح لهم الا الشدة والفقر ، ولقد كان حقهم يراقبوا ربهم عز وجل ويعبدوه ويؤمنوا به ويشكروه فمن عاد فأقم عليه الحد .

قال الواقدي ق فلما ورد كتاب عمر (ر ض) وقراه نادى في المسلمين من من كان في نفسه حد فليعط ذلك من نفسه وليتب الى الله عز وجل ففعل ذلك كثير من الناس ممن كان شرب الخمر واعطى الحد من نفسه ، ثم قال ابو عبيدة (ر ض) اني عزمت على المسير الى انطاكيا وقصد قلب الروم لعل الله يفتح فتحا على ايدينا . فقال المسلمون : سر حيث شئت فنحن تبع لك نقاتل اعداءك فسر بقولهم وقال تأهبوا للرحيل فاني سائر بكم الى حلب فاذا فتحناها توجهنا منها ان شاء الله تعالى الى انطاكيا ، فاسرع المسلمون في اصلاح شأنهم واخذوا اهبتهم ، فلما فرغ ابو عبيدة (ر ض) من جميع شغله امر خالد بن الوليد (ر ض) ان يأخذ راية العقاب التي عقدها ابو بكر الصديق (ر ض) وامره ان يسير امام الجيش بعسكر الزحف فسار خالد على المقدمة ومعه ضرار بن الازور ورافع بن عمرة الطائي والمسيب بن نجبة الفزاري والناس يتبع بعضهم بعضا وترك على دمشق صفوان بن عامر السلمي وترك عنده خمسمائة رجل وسار ابو عبيدة بالمسلمين ومعه ناس من اليمن ومصر .

ذكر فتح حمص

قال الواقدي : وسار ابو عبيدة على طريق البقاع واللبوة ، فلما وصل الى هناك بعث خالد بن الوليد (ر ض) الى حمص قال : يا ابا سليمان انهض

على بركة الله تعالى وعونه ، ونازل القوم وشن الغارة على ارض العواصم
وفنسرين وأنا اسير الى بعلبك فلعل الله ان يسهل علينا فتحها ، ثم ودعه
وسار خالد (رض) بمن معه الى حمص وتوجه ابو عبيدة (رض) الى بعلبك اذ
ورد بطريق جوسية ومعه الهدايا والتحف وصالح المسلمين سنة كاملة وقال :
ان فتحتم بعلبك فانا بين ايديكم ولا نخالف لكم قولا فصالحهم ابو عبيدة (رض)
على اربعة الاف درهم وخمسين ثوبا من الديباج ، فلما انبرم الصلح سار ابو
عبيدة (رض) ، يطلب بعلبك فما بعد من اللبوة الا وقد اشرف عليه راكب
نجيب فاذا هو اسامة بن زيد الطائي ، فقال يا اسامة من اين اقبلت ؟ فأتاح
تجيبه وسلم على ابي عبيدة (رض) وعلى المسلمين وقال انيت من المدينة
وسلم اليه كتابا من عمر بن الخطاب (رض) ففضه ابو عبيدة (رض) ، واذا فيه :
لا اله الا الله محمد رسول الله ، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر
امير المؤمنين الى امين الامة : سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو
واعلي على نبيه محمد (ص) ، اما بعد فلا مرد لقضاء الله وقدره ، ومن كتب
ني النوح المحفوظ كافرا فلا ايمان له ، وذلك ان جبلة بن الايهم الغساني
كان قدم علينا ببني عمه وسراة قومه ، فأنزلتم واجسنت اليهم واسلموا
على يدي وفرحت بذلك اذ شد الله عضد الاسلام والمسلمين بهم ، ولم اعلم
ما كمن في الغيب وانا سرنا الى مكة حرسها الله تعالى وعظمها نطلب الحج ،
فطاف جبلة بالبيت اسبوعا فوطيء رجل من فزارة ازاراه فسقط ازاره عن
كتفه فالتفت الى الفزاري ، وقال يا ويلك كشفتني في حرم الله تعالى ، فقال
والله ما تعمدتك فلطم جبلة بن الايهم الفزاري لطمه هشم بها انفه وكسر ثناياه
الاربع فأقبل الفزاري الي مستعيا على جبلة ، فأمرت باحضاره وقلت له ما
حملك على ان لطمت اخاك في الاسلام وكسرت ثناياه الاربع وهشمت انفه ؟
فقال جبلة : انه وطئ ازارى برجله فحله ، ووالله لولا حرمة هذا البيت
لفتلته ، فقلت له اقررت على نفسك فاما ان يعفو عنك واما ان اخذ له منك
الفصاص ، فقال يقتص وانا ملك وهو من السوق ؟ قلت قد شملك واياه
الاسلام فما تفضله الا بالعافية ، فقال اتركني الى غدا او تقتص مني ؟ فقلت
للفزاري اتركه الى غد ؟ قال نعم . فلما كان الليل ركب في بني عمه وتوجه
الى الشام الى كلب الطاغية ، وأرجوا ان الله تعالى يظفرك به فانزل على
حمص ولا تنفذ عنها فان صالحك اهلها فصالحهم ، وان ابوا فقاتلهم وابعث
عيونك الى انطاكية وكن على حذر من المنتصرة والسلام عليك ورحمة الله وعلى
جميع المسلمين .

(قال الواقدي) فلما قرأ ابو عبيدة الكتاب في سره جهر به مرة اخرى ثم لوى يطلب حمص ، وكان خالد (ر ض) سبقه اليها بتلث الجيش فنزل عندها يوم الجمعة من شوال سنة اربع عشرة من الهجرة النبوية ، وكان عليها واليا بطريق من قبل هرقل اسمه لقيطا وكان قد مات قبل نزول خالد والمسلمين (ر ض) عنهم اجمعين فاجتمع المشركون في كنيستهم العظمى ، وقال كبيرهم اعلموا ان صاحب الملك قد مات وليس عند الملك خبر من هؤلاء العرب وقد نزلوا علينا وما طننا ذلك ، ولعد حسبنا انهم لا ينزلون علينا حتى يفتحوا جوسيه وبعلبك وان انتم قاتلتوهم وكاتبتم الملك ان يسير اليكم واليا وجيشا ، فان العرب لا تمكن احدا من جنود الملك ان يسير اليكم ولا يصل لكم ، وليس عندكم طعام يقوم بكم للحصار ، فقالوا ايها السيد فما الذي ترى ؟ قال تصالحون القوم على ما ارادوا وتقولون نحن لكم وبين ايديكم ان فتحتم حلب وقنسرين وهزمتهم جيش الملك ، فاذا توجه القوم عنا بعثنا الى الملك ان يمدنا بجيش عرمرم ويولي من اراد علينا ويستوثق لنا من الطعام والعدد ، وبعد ذلك نقانلهم فاستصوب القوم رأيه وقالوا دبرنا بحسن رأيك وتدبيرك فبعث البطريق الى ابي عبيدة (ر ض) جاثليقا كان عندهم معظما ليعقد الصلح بينهم وبين المسلمين فخرج الجاثليق ووصل الى ابي عبيدة (ر ض) وتكلم في الصلح معه بما تحدث به البطريق من امر سير المسلمين الى حلب وقنسرين والعواصم وانطاكية فأجابهم ابو عبيدة (ر ض) الى ذلك وصالح القوم وهم اهل حمص على عشرة الاف دينار ومائتي ثوب من الديباج وعقد الصلح مع القوم سنة كاملة اولها ذو القعدة وآخرها شوال سنة اربع عشرة من الهجرة . قال وانبرم الصلح وخرجت السوق من حمص الى عسكر المسلمين فباعوا واشتروا ورأى اهل حمص سماحة العرب من بينهم وشرائهم وربحوا منهم ربحا وافيا .

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد (ر ض)

(قال الواقدي) ان ابا عبيدة دعا بخالد وضم اليه اربعة الاف فارس من لخم وجذام وطى ونبهان وكهلان وستس وخولان وقال يا ابا سليمان شن الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرة واقرب من معرة حلب وشن بها الغارة على بلدة العواصم وارجع على اترك ونفذ عيونك وانظر ان كان للقوم نجدة او ناصر من قومهم ام لا ؟ فاجابه خالد الى ذلك واخذ الراية وتقدم امام الكتيبة وجعل ينشد ويقول :

أخذتها والملك العظيم وانني بحملها زعيم
لأنني كبش بني مخزوم وصاحب لآحمد الكريم
أسير مثل الأسد الغشوم يارب فارزقني قتال الروم

(قال الواقدي) وسار خالد بن الوليد الى شيزر ونزل على النهر المقلوب ، ودعا بمصعب بن محارب اليه خمسمائة فارس وأمره ان يشن الغارة على العواصم وقنسرين . وسار خالد بن الوليد الى كفر طاب والمراه والى دير سمعان وجعلت خيل المسلمين تغير يميناً وشمالاً على القرى والرسانيق ويأخذون الغنائم والأسارى فرجعوا الى خالد بن الوليد بالأسارى فسار بهم الى أبي عبيدة (رض) ، فلما نظر الى خالد وما معه من الغنائم والأموال فرح فرحاً شديداً وإذا خلف خالد سواد عظيم قد ارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على المبشير النذير . فقال أبو عبيدة (رض) ما هؤلاء يا أبا سليمان ؟

فقال خالد : هذا مصعب بن محارب اليشكري وقد عقدت له راية على خمسمائة فارس من قومه ، ومن أهل اليمن وأنه أغار بهم على العواصم وقنسرين وقد أتى بالغنائم والسبي والأموال ، فالتفت الأمير أبو عبيدة فنظر الى سرح عظيم من البقر والغنم وبراذين عليها رجال ونساء وصبيان ولهم دوي عظيم وبكاء شديد فقصدتهم أبو عبيدة (رض) وإذا برجال مقرونين في الحبال وهم يبكون على عيالهم ونهب أموالهم ، وخراب ديارهم . فقال أبو عبيدة (رض) لترجمانه : قل لهم ما بالكم تبكون ولم لا تدخلون في دين الإسلام وتطلبون الأمان والذمام لتأمنوا على أنفسكم وأموالكم ؟ فقال لهم الترجمان ذلك . فقالوا : أيها الأمير نحن كنا بالبعد منكم وكانت أخباركم تأتينا وما ظننا انكم نبلغون إلينا فما شعرنا حتى أشرف علينا أصحابكم فنهبوا أموالنا وأولادنا وساقونا في الحبال كما نرى .

(قال الواقدي) وكانت الأعلاج زهاء من أربعمائة عالج . فقال لهم الأمير ان مننا عليكم وأطلقناكم من أسركم ورددنا عليكم أموالكم وأهاليكم فهل تكونون في طاعتنا وتؤدون الجزية إلينا والخراج ؟ فقالوا : أوف لنا بذلك ونحن نفعل جميع ما شرطته علينا ، فعند ذلك أقبل أبو عبيدة (رض) الى المسلمين ، وقال لهم : قد رأيت من الرأي ان أؤمن هؤلاء من القتل وأرد عليهم أموالهم وعيالهم فيكونوا عبيداً لنا ويعمروا الأرض والبلاد وتأخذ خراجهم . وجزينهم فما أنتم قائلون فما كنت بالذي أقطع أمراً إلا بمشورتكم ، فقالوا : الرأي في ذلك أيها الأمير ان رأيت صلاحاً للمسلمين .

(قال الواقدي) ففرص على كل واحد اربعة دنانير وبذلك كتب الى عمر بن الخطاب (رض) ، فعند ذلك رد عليهم اموالهم واولادهم وامرهم على بلادهم وكتب اسماءهم وامرهم بالرجوع الى اوطانهم ، فلما استقروا في خيامهم اخبروا من كان بالعرب منهم بحسن سيرة العرب وما عاملوهم به من الجميل وقالوا : لقد ظننا انهم يفتلوننا ويستعبدون اولادنا والآن قد رحمونا واقرونا في بلادنا على اداء الجزية والخراج .

(قال الواقدي) فسمعت الروم ذلك فاقبلوا الى ابي عبيدة (رض) في طلب الامان واداء الجزية والخراج .

ذكر فتح قنسرين

(قال الواقدي) وبلغ الخبر الى اهل قنسرين ان الامير ابا عبيدة يعطي الامان من قصده فاحبوا ان يأخذوا الامان من ابي عبيدة (رض) واجمعوا رأيهم على ذلك وان ينفذوا رسولا من غير علم بطريقهم .

(قال الواقدي) وكان على قنسرين والعواصم بطريق من بطارقة الملك من اهل الشدة والبأس ، وكان اهل قنسرين يخافون منه ، وكان اسمه لوقا ، وصاحب حلب عسكره مثل عسكره وسطوته مثل سطوته ، وكان الملك هرقل قد دعا بهما اليه ، فقالا له ايها الملك ما كنا نترك ملكنا من غير ان نقايل قنالا شديدا فشكرهما الملك هرقل على ذلك ووعدهما ان يبعث اليهما جيشا عرمرميا وكانا منتظرين ذلك من وعد الملك لهما ، وكان مع كل واحد منهما عشرة آلاف فارس الا انهما لا يجتمعان في موضع واحد . قال فلما سمع صاحب قنسرين ما قد عزم عليه اهل قنسرين من الصلح مع ابي عبيدة غضب غضبا شديدا وعزم ان يمكر بهم فجمع اهل قنسرين اليه وقال لهم : يا بني الاصفر ما تريدون ان اصنع مع هؤلاء العرب وكأنكم بهم وقد اقبلوا الينا يفتحون بلادنا كما فتحوا اكثر بلاد الشام ؟ . فقالوا ايها السيد قد بلغنا انهم اصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا اكثر البلاد بالصلح والعدل ومن قاتلهم قاتلوه واستعبدوا اهلهم واولادهم ، ومن دخل تحت طاعتهم اقروه في بلده وكان آمننا من سطوتهم ، والرأي عندنا ان نصالح القوم ونكون آمنين على انفسهم واموالنا . فقال لهم البطريق : لقد اشرتم بالصواب والامر الذي لا يعاب ، لان هؤلاء العرب قوم منصورون على من قاتلهم ، وها أنا اعقد لكم الصلح معهم سنة كاملة الى ان توافينا جيوش الملك هرقل ونعطف عليهم وهم آمنون فنبيدهم عن آخرهم . فقالوا افعلوا ما فيه الصلاح .

(قال الواقدي) واتفق اهل فسرين والبطريق على صلح المسلمين وفي قلوبهم الغدر . قال وان لوقا البطريق دعا برجل من اصحابه اسمه اصطخر ، وكان قسيسا عالما بدين النصرانية فصيح اللسان فوي الجنان يعرف العربية والرومية ، وقد عرف الدينين اليهودية والنصرانية . فقال لوقا : يا ابانا سر الى العرب وفل لهم يصالحونا سنة كاملة حتى نبعد القوم بالحيلة والخداع . ثم كتب الكتاب الى الامير ابي عبيدة (رض) . فقال بعد كلمة كفره : اما بعد يا معاصر العرب ان بلدنا منيع كثير العدد والرجال فما تأتونا من قبله ولو اقمتم علينا مائة سنة ما قدرتم علينا ، وان الملك هرقل قد استنجد عليكم من حد الخليج الى رومية الكبرى ونحن قد بعثنا اليكم نصالحكم سنة كاملة حتى نرى لمن تكون البلاد ، ونحن نريد منكم ان تجعلوا بيننا وبينكم علامة من حد ارض فسرين والعواصم حتى اذا همت العرب بالغارة بدت العلامة تريككم حد ارضنا ، ونحن نصالحكم خفية من الملك هرقل لئلا يعلم فيقتلنا والسلام . ثم خلع على اصطخر خلعة سنوية واعطاه بغلة من مراكبه وعشرة غلماز ، وسار حتى وصل الى حمص فرأى الامير ابا عبيدة (رض) يصلي بالمسلمين صلاة العصر فوقف اصطخر ينظر ما يفعلون وبعبج من ذلك ، فلما فرغوا من صلاتهم ونظروا الى القسيس وثبوا اليه ، وقالوا له من انت ؟ ومن اين اقبلت . فقال : انا رسول ومعى كتاب ، فمثلوه بين يدي ابي عبيدة فهم القسيس بالسجود له فمنعه ابو عبيدة (رض) ، من ذلك ، وقال له نحن عبيد الله عز وجل فمنا شقي ومنا سعيد - فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض - فلما سمع اصطخر ذلك بهت وبقي لا يرد جوابا ، وهو متعجب مما تكلم به الامير ابو عبيدة (رض) ، فناداه خالد بن الوليد (رض) ، وقال له ما شأنك ايها الرجل ورسول من انت ؟ فقال اصطخر : أنت أمير القوم ؟ فقال خالد لا بل هذا اميرنا ، وأشار الى ابي عبيدة (رض) . فقال اصطخر انا رسول صاحب فسرين والعواصم ، ثم اخرج الكتاب ودفعه الى ابي عبيدة (رض) فأخذه وقرأه على المسلمين ، فلما سمع خالد بن الوليد (رض) ما في الكتاب من صفة مدينتهم وكثرة عددهم ورجالهم وتهديدهم بجيوش الملك هرقل حرك رأسه وقال لابي عبيدة : وحق من ايدنا بالنصر وجعلنا من امة محمد (ص) الطاهر ان هذا الكتاب من عند رجل لا يريد الصلح بل يريد حربنا ، ثم قال لاصطخر تريدون ان تخدعونا حتى اذا جاءت جنود صاحبكم ورأيتم القوم وقد جاءكم نقضتم صلحنا وكنتم اول من يقاتلنا ، وان رأيتم الغلبة لنا هربتم الى طاغيتكم هرقل ، فان اردتم ذلك فنواعدكم

الحرب مواعدة من غير ان يكون صلحا سنة كاملة ، فان لحق بكم جيش هذه السنة من الملك هرقل ، فلا بد من قتاله فمن اقام في المدينة ولم يقاتل مع الجيش فهو على صلحنا لا نتعرض له . قال اصطخر : قد اجبناكم الى ذلك فاكتبوا لنا كتابا بذلك . فقال خالد بن الوليد (رض) : ايها الامير اكتب لهم كتابا بمواعدة الحرب سنة كاملة اولها مستهل شهر ذي القعدة سنة اربع عشرة من الهجرة النبوية . قال فكتب له ابو عبيدة (رض) بذلك ، فلما فرغ من الكتاب . قال له اصطخر ايها الامير حد بلادنا معروف وبازائنا صاحب حلب وبلاده بحد بلادنا ونريد ان تجعل لنا علامة فيما بيننا وبينكم حتى اذا طلب اصحابكم الغارة لا يتجاوزون ذلك .

(قال الواقدي) فرضني ابو عبيدة (رض) بذلك ، وقال انا ابعث من يحدد لكم ذلك ، قال اصطخر ايها الامير ما نريد معنا احدا من اصحابك نحن نضع عمودا وننصحه ويكون عليه صورة الملك هرقل ، فاذا رآه اصحابك لا يجاوزنه . فقال ابو عبيدة (رض) افعل ذلك ، ثم دفع اليه الكتاب ونادى في عساكر المسلمين واصحاب الغارات من نظر الى عمود فلا يتعداه ولا يتجاوزه بل يشن الغارة على ارض حلب وحدها ولا يتجاوز العمود فليبلغ الشاهد الغائب .

(قال الواقدي) ورجع اصطخر الى بطريق قنسرين واعلمه بما جرى له مع خالد بن الوليد (رض) ودفع له الكتاب ، ففرح بذلك وقصد الى عمود عظيم وصنع عليه صورة الملك هرقل كأنه جالس على كرسي مملكته .

(قال الواقدي) وكانت خيل المسلمين تضرب غارتها الى اقصى بلاد حلب والعمق وانطاكية ويحيدون عن حد قنسرين والعواصم الا يقرىون العمود . قال عمر بن عبدالله الغبري عن سالم بن قيس عن ابيه سعد بن عباد (رض) قال : كان صلح المسلمين لاهل قنسرين والعواصم على اربعة الاف دينار ملكية ومائة اوقية من الفضة والالف ثوب من متاع حلب والقد يسق من طعام .

(قال الواقدي) حدثنا عامر . قال كنا في بعض الغارات اذ نظرنا الى العمود وعليه صورة الملك هرقل فجئنا عنده وجعلنا نجول حوله بخيولنا ونعلمها الكر والفر ، وكان بيد أبي جندلة قناة تامة فقرب به الجواد من الصورة ، وهو غير متعمد ذلك ففقا عين الصورة ، وكان عندها قوم من الروم وهم غلمان صاحب قنسرين يحفظون العمود فرجعوا الى البطريق وأعلموه بذلك فغضب غضبا شديدا ودفع صليبا من الذهب الى بعض اصحابه وضم اليه ألف فارس من أعلاج الروم وعليهم الديباج الرومسي وعليهم المناطق المجوفة وأمر اصطخر ان يسير معهم . وقال له ارجع الى امير العرب وقل له غدرتم بنا ولم توفوا بدمامكم ، ومن غدر جندل ، فأخذ اصطخر الصليب وسار مع ألف فارس من الروم حتى اشرف على ابي عبيدة (رض) ، فلما نظر المسلمون الى الصليب ، وهو مرفوع اسرعوا اليه ونكسوه فاستقبل ابو عبيدة القوم وقال من انتم ؟ قال اصطخر انا رسول صاحب قنسرين اليك ، وهو يقول لك غدرتم ونقضتم العهد الذي بيننا وبينكم ، فقال ابو عبيدة (رض) : وحق رسول الله (ص) ما علمت بذلك وسوف اسأل عنه ، ثم نادى يا معاشر الناس من فقا عين التمثال فليخبرنا بذلك ، فقالوا ايها الامير : ابو جندلة وسهل بن عمرو صنعا ذلك من غير ان يتعمداه . فقال ابو عبيدة (رض) لاصطخر ان صاحبنا فعل ذلك من غير ان يتعمد فما الذي يرضيك منا ؟ فقالت الاعلاج لا نرضى حتى تفقا عين ملككم يريدون بذلك ان يتطرقوا الى رقاب المسلمين . فقال ابو عبيدة (رض) ها أنا فاصنعوا بي مثل ما صنع بصورتكم . قالوا لا نرضى بذلك الا بعين ملككم الأكبر الذي يلي امر العرب كلها . فقال ان عين ملكنا تمنع من ذلك .

(قال الواقدي) وغضب المسلمون حين ذكر الاعلاج عين عمر بن الخطاب (رض) وهموا بقتل الاعلاج ، فنهاهم ابو عبيدة (رض) عن ذلك فقال المسلمون : ايها الامير نحن دون امامنا فنفديه بأنفسنا ونفقا عيوننا دون عينه . فقال اصطخر عندما نظر الى المسلمين وقد هموا بقتله وقتل من معه من الاعلاج : لا نفقا عين عمر ولا عيونكم ، ولكن تصور صورة اميركم على عمود

ونصنع به مثل ما صنعتكم بصورة ملكنا . فقالت المسلمون : ان صاحبنا فعل ذلك من غير تعمد وانتم تريدون العمد . فقال ابو عبيدة (ر ض) مهلاً يا قوم ، فاذا رضي القوم بصورتني فقد اجبتهم الى ذلك ولا يتحدث القوم عنا اننا عاهدنا وغدرنا فان هؤلاء القوم لا عهد لهم ولا عقل ، ثم اجابهم السق . ذلك .

(قال الواقدي) فصوروا ابي عبيدة (ر ض) على عمود وجعلوا له عينين من زجاج وافبل فارس منهم حنقا ففأ عين الصورة ، ثم رجع اصطخر الى صاحب قنسرين واخبره بذلك . فقال لقومه بهذا نالهم ما يريدون . قال واقام ابو عبيدة على حمص يغير يمينا وشمالا ينتظر خروج السنة لينظر ما بعد ذلك .

(قال الواقدي) وأبطأ خبر ابي عبيدة على عمر بن الخطاب (ر ض) ، ولم يرد عليه شيء من الكتب والفتح ، فأنكر عمر ذلك وظن به الظنون . وحسب انه قد داخله خبر وقد ركن الى القعود عن الجهاد ، فكتب اليه عمر بن الخطاب (ر ض) كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى امين الامة ابي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك ، فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) وآمرك بتقوى الله عز وجل سرا وعلانية ، وأحذركم عن معصية الله عز وجل وأحذركم وانهاكم ان تكونوا ممن قال الله في حقهم - قل ان كان آباؤهم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم - الآية ، وصلى الله على خاتم النبيين وامام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . فلما وصل الكتاب الى ابي عبيدة (ر ض) قراه على المسلمين ، فعلموا ان امير المؤمنين عمر يحرضهم على القتال ، وندم ابو عبيدة (ر ض) على صلح قنسرين ولم يبق احد من المسلمين الا بكى من كتاب عمر بن الخطاب (ر ض) . وقالوا :

ايها الامير ما يقعدك عن الجهاد فدع اهل شيزرو قنسرين واطلب بنا حلب وانطاكية ، فلعل الله ان يفتحهما على ايدينا وقد انقضى اجل الصلح

وما بقي الا القليل ، وما البقاء الا للملك الجليل ، فعزم ابو عبيدة على المسير الى حلب وعقد راية لسهل بن عمرو ، وعقد راية اخرى لمصعب بن محارب اليشكري ، وامر عياض بن غانم ان يسير على مقدمتهم واتبعه خالد بن الوليد وسار ابو عبيدة (ر ض) الى ان نزل على الرشيد وصالح اهلها وسار الى حماة فخرج اهلها اليه ومعهم الانجيل وقد رفعه الرهبان على اكفهم والقسس امام القوم يطلبون منه الصلح والذمام ، فلما رأهم ابو عبيدة (ر ض) وقف ، وقال لهم : ما الذي تريدون ؟ . فقالوا : ايها الامير نريد ان نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم احب الينا .

(قال الواقدي) فصالحهم ابو عبيدة وكتب لهم كتاب الصلح والذمام وخلف رجالا من المؤمنين وسار حتى نزل الى شيزر فاستقبلوه فصالحهم وقال لهم : اسمعتم للطاغية هرقل خيرا ؟ فقالوا ما سمعنا له خيرا غير انه اتصل بنا الخبر ان بطريق قنسرين قد كتب الى الملك هرقل يستنجد عليكم ، وقد بعث بجبل بن الايهم الغساني من بني غسان والعرب المنتصرة ومعه بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس وقد نزلوا على جسر الحديد فكن منهم على حذر ايها الامير . فقال ابو عبيدة (ر ض) : حسبنا الله ونعم الوكيل .

(قال الواقدي) واقام الامير ابو عبيدة على شيزر وبقي مرة يقول : اسير الى حلب ومرة يقول اسير الى انطاكية فجمع امراء المسلمين اليه . وقال : ايها الناس قد بلغني ان بطريق قنسرين قد نقض العهد وارسل للملك هرقل والخبر كذا وكذا فما انتم قائلون ؟ فقالوا ايها الامير دع اهل قنسرين والعواصم وسر بنا الى حلب وانطاكية . فقال خذوا اهبتكم رحمكم الله .

(قال الواقدي) وكان بقي من الصلح والعهد الذي بينهم وبين اهل قنسرين شهر او اقل من ذلك ، فأقام ابو عبيدة (ر ض) ينتظر انفصال العهد . قال وكانت عبيد العرب يأتون بجراثيم الشجر من الزيتون والرمان وغير ذلك من الاشجار التي تطعم الثمار فعظم ذلك على الامير ابي عبيدة

(ر ض) فدعا العبيد اليه وقال ما هذا الفساد ؟ فقالوا ايها الامير ان الاحطاب متباعدة منا وهذه الاشجار قريبة . فقال الامير ابو عبيدة عزيزة مني على كل حر وعبد قطع سجرة لها طعم ونمر لاجازينه ولانكلن به ، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالاحطاب من اقصى الدبار . قال سعيد بن عامر وكان معي عبد نجيب وكان اسمه مهجعا وقد شهد معي الوقائع والحروب وكان جريء القنب في القتال وكان اذا خرج في غارة او في طلب حطب بتوغل وبعده فخرج هو وجماعة من العبيد ممن شهد الوقائع في طلب الحطب ، فأبطأ خبره على سيده سعيد بن عامر ، فركب جواده وخرج في طلبه وجعل يقفو انره واذا لاح له تسخص وقد سال دمه على وجهه وصبغ سائر جسده وما كاد يمشي خطوة واحدة الا ويهوي على وجهه . قال سعيد بن عامر فنزلت اليه وقلت له ما وراءك من الاخبار ؟ فقال هلكة ودمار يا مولاي فقلت عليك يا ابن الاسود حدثني بخبرك . قال سعيد فلم يكذ يقف حتى سقط على وجهه ، فنضجت على وجهه ماء فسكن ما به . فقال : يا مولاي انج بنفسك والا ادركك القوم يصنعون بك مثل ما صنعوا بي . فقلت ما القوم الذين صنعوا بك ما ارى ؟ فقال خرجت يا مولاي أنا وجماعة من الموالي لنحطب حطبا ، فتباعنا كثيرا في البر واذا نحن بكتيبة من الخيل زهاء عن الف فارس كلهم عرب وفي اعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معتقلون بالذهب والفضة والرماح ، فلما نظروا الينا اسرعوا نحونا وداروا بنا وعزموا على قتلنا . فقلت لاصحابي دونكم واياهم !

فقالوا : ويحك ومن يقاتل وليس لنا طاقة بقتال هذه الكتيبة والخيل وما لنا الا ان نلقي بأيدينا الى الاسر فهو اهون من القتال . فقلت لا والله ما سلمت نفسي اليهم دون ان اقاتل قتالا شديدا ، فلما رأوا مني الجد فعلوا مثل فعلي فقاتلنا القوم وقاتلونا فقتلوا منا عشرة وأسروا عشرة ، وأما انا فأتخنت بالجراح حتى سقطت على وجهي فرجعوا عني وبقيت كما ترى . قال سعيد بن عامر الانصاري فغممني والله ما نزل بالعبيد فأردفته ورائي ورجعت على اتري واذا بالخييل قد طلعت من ورائي كأنها الريح الهبوب او الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب ، واذا بخيل غسان احدثت بالرماح الطوال وهم

يقولون : نحن بنو غسان من حزب الصليب والرهبان . قال سعيد بن عامر فناديتهم انا من اصحاب محمد المختار (ص) . فأسرع بعضهم الي وهم ان يعلوني بالسيف فناديته : يا ويلك اتقتل رجلا من قومك . فقال من اي الناس انت ؟ قلت انا من الخزرج الكرام ، فرد السيف وقال أنت طلبة سيدنا جبلة بن الايهم وحق المسيح ، فقلت ومن اين يعرفني جبلة حتى يطلبني ؟ فقال انه يطلب رجلا من اهل اليمن من انصار محمد بن عبد الله ، ثم قال سر بنا طائعا والا سرت كرها . قال سعيد بن عامر فسرت والجيس معي حتى اشرفنا على جيش عرمرم وعنده اعلام وصلبان قد رفعت فلم ازل مع القوم حتى اتوا بي الى مضرب جبلة بن الايهم واذا به جالس على كرسي من ذهب احمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت . فلما وقفت بين يديه رفع رأسه الي وقال : من اي عرب انت ؟ قلت أنا من اليمن ، قال اكرمت من ايها . فقلت انا من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو وبن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عبدالله بن الازور بن عوف بن مالك بن كهلان بن سبأ . فقال جبلة من اي المأ انت نسباً ؟ فقلت انا من ولد الخزرج بن حارثة من انصار محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . فقال جبلة : وانا من قومك من بنى غسان ؟ فقلت انا من القبيلة التي نسبت اليها ، فقال : انا جبلة بن الايهم الذي رجعت عن الاسلام . فما رضي صاحبكم عمر بن الخطاب ان يكون مثلي لهذا الدين ناصرا حتى يأخذ مني القود لعبدحفير وانا ملك اليمن وسيد غسان . فقلت : يا جبلة ان حق الله اوجب من حقك وديننا لا يقوم الا بالحق والنصفة ، وان عمر بن الخطاب (ر ض) لا يخاف ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فقال لي ما اسمك ؟ فقلت سعيد بن عامر الانصاري ، فقال اوطىء يا سعيد قال فجلست فقال لك عهد بحسان بن ثابت الانصاري . فقلت شاعر رسول الله (ص) ومن قال فيه المصطفى : انت حسان ولسانك حسام . فقال لي كم لك منذ فارقتك ؟ فقلت عهدي به قريب وقد دعاني الى دعوة صنعها وأمر مولاته ان تنشد بها شعرا فيك فانشدت :

لله در عصابة نادمتهم

يوما يجلق في الزمان الاول

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة انسابهم
شم الانوف من الطراز الاول

الملحقين فقيرهم بغنيهم
المشفقين على اليتيم الارمل

اولاد جفنة حول قبر ابيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

ثم خرجنا الى الشام وهذا آخر عهدي به . قال جبلة بن الايهم اوحفظ لي هذه المكرمة ؟ قلت نعم ، قال فأمر لي بثوب من الكتان الرومي وفيه شيء من الورق . وقال : أنا امرت لك بالكتان كي تلبسه ولا تحرمه ، ثم قال لي بحق ذمة العرب ما كنت تصنع في المكان الذي اسرت فيه ؟ فقلت ان الصدق اوفى ما استعمله الرجل ، انا من اصحاب الامير ابي عبيدة بن الجراح وقد قصدنا نريد حلب وانطاكية . فقال جبلة : اعلم ان الملك قد بعثني انا وهذا البطريق صاحب عمورية حتى ننصر صاحب قنسرين ، فانه قد كادكم بصلحه لكم وانا منتظر ان يلاقينا بهذا المكان ولكن ارجع الى صاحبك ابي عبيدة وحذره من اسيافنا وقل له يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من ايديكم ما قد ملكتموه من الشام . قال سعيد بن عامر : فركبت واردفت غلامي وسرت حتى اتيت عسكر المسلمين ، فأسرع الناس الي وقالوا اين كنت يا ابن عامر فأتيت خيمة الامير ابي عبيدة (رض) وحدثته بقصتي مع جبلة بن الايهم فقال لي لقد خلصك الله بذكرك لحسان بن ثابت الانصاري ، ثم جمع اصحاب رسول الله (ص) للمشورة ، ثم قال ايها الناس ما ترون من قصة هذا البطريق وقد وفينا له وكادنا ؟ فقال خالد بن الوليد (رض) : ان البغي مصرعة وان كادنا كان الله من ورائه بالمرصاد وسوف نكيده اعظم مكيدة وانا اسير الى لقائه بعشرة رجال من اصحاب رسول الله (ص) . فقال

أبو عبيدة أنت لها يا أبا سليمان ولكل كريهة فخذ من أحببت من أصحاب رسول الله (ص) . فقال خالد بن الوليد (ر ض) أين عياض بن غانم الأشعري ، أين عمرو بن سعيد ، أين مصعب بن محارب اليشكري ، أين أبو جندلة بن سعيد المخزومي ، أين سهل بن عمرو العامري ، أين رافع بن عميرة الطائي ، أين المسيب بن نجية الفزاري ، أين سعيد بن عامر الانصاري ، أين عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، أين عاصم بن عمر القيسبي ، أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (ر ض) ؟ فاجابوه بالتلبية .

(قال الواقدي) وكان ضرار بن الأزور (ر ض) رمد العينين لم يحضر هذه الواقعة ، فقال لهم خالد بن الوليد هلموا فوجدوه قد تدرع بدرع مسيلمة الكذاب الذي استلبه منه يوم اليمامة واشتمل بلامه حربه وركب جواده ، وقال لعبد همام : سر معي حتى ترى مني عجباً فسار معه وسار خالد بن الوليد (ر ض) والعشرة من أصحاب رسول الله (ص) وأبو عبيدة يا سعيد أما أخبرك جبلة بن الأيهم من أين يأتي البطريق صاحب قنسرين إليه؟ فقال نعم يا أبا سليمان أخبرني فقال له خذنا في الطريق الى جبلة بن الأيهم (ر ض) يدعوا لهم بالنصر . فأقبل خالد على سعيد بن عامر الانصاري وقال: حتى نكمن له فيه ، فاذا أتى البطريق صاحب قنسرين كدناه كما كادنا ودمرناه ومن معه ، فسار سعيد أمام القوم يدلهم ويجد السير طالب عسكر جبلة بن الأيهم ، وكان مسيرهم ليلاً فلما وصلوا الى قرب النيران وسمعوا اصوات القوم عدل بهم سعيد بن عامر الى صوب طريق البطريق وكمن بمن معه من الرجال الى وقت الصباح فلم يأت احد فصلى خالد بأصحابه صلاة الفجر وهم في المكنم فبينما هم في المكنم اذ اشرف عليهم جيش جبلة بن الأيهم والعرب المنتصرة وصاحب عمورية وهم طالبون ارض العواصم وقنسرين . فقال المسلمون لخالد يا أبا سليمان: أما ترى هذا الجيش الذي قد اشرف علينا في عدد الشوك والشجر ؟ فقال خالد بن الوليد (ر ض) فما يكون من

كثرتهم اذا كان النصر لنا والله معنا فاختلطوا بهم انتم وكونوا في جملتهم
كأنكم من جيشهم الى ان نلتقي بالبطريق صاحب قنسرين ويفعل الله تعالى
ما يشاء ويختار ، فعند ذلك اختلطوا بهم وصاروا في جملتهم وهم لا يفترقون .
قال رافع بن عميرة الطائي ، فلما اشرفنا على حد صلحنا ولاح لنا بلاد
العواصم وقنسرين اذا ببطريقها قد استقبلنا وقد رفع امامه الصليب واخرج
بين يديه القسوس والرهبان وهم يقرأون الانجيل وقد ارتفعت اصواتهم
بكلمة الكفر ودنا بعضهم من بعض .

وخرج البطريق امام الصحابة ليأتي الى جيلة بن الايهم يسلم عليه
فاستقبله خالد بن الوليد (ر ض) مواجهها له وحوله اصحاب رسول الله
(ص) فلما قرب البطريق منهم . قال سلمكم المسيح وأبقاكم الصليب . فقال
خالد ويا ويلك ما نحن من عباد الصليب ، بل نحن من اصحاب رسول الله
(ص) محمد الحبيب وكشف خالد بن الوليد (ر ض) وجهة ونادى : لا اله
الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله يا عدو الله انا خالد بن
الوليد انا المخزومي صاحب رسول الله (ص) وضرب بيده البطريق وقبض عليه
وانتزع من سرجه وبرز اصحاب رسول الله (ص) وسلوا السيوف على
اصحابه وارتفعت الضجة والجلبة واعلن العدو بكلمة الكفر ، وضج المسلمون
بكلمة التوحيد وسمع جيلة وصاحب عمورية اصوات المسلمين ، وقد ارتفعت
بالتهليل والتكبير فانزعجوا لذلك ونظروا الى السيوف وقد جردت والرماح وقد
شرعت فبرزوا نحو اصحاب رسول الله (ص) واحاطوا بهم من كل جانب
ومكان ، فلما نظر خالد الى ما دهمه ونزل بأصحابه الذين معه والبطريق
صاحب قنسرين لا يفارقه وقد ملك قياده وهو خائف ان ينفلت من يديه او
تجري عليه حادثة قبل ان يقتله هم خالد ان يقتله ورفع السيوف ليعلوه به
فتبسّم البطريق من فعالة وعجب خالد من ضحكك ، وقال ويلك مم ضحكك ؟
فقال البطريق لانك مقتول انت ومن معك وتريد قتلي ، وان انت ابقيت علي

فهو اصوب فتركه خالد ولم يقتله ثم صاح خالد بأصحابه اصحاب رسول الله-
(ص) كونوا حولي واحموا عني واصبروا على ما نزل بكم ولا يكثر عليكم
من احدق بكم فان اشد ما تخافون منه القتل والموت منية خالد في سبيل الله
واني والله اهدبت نفسي للقتل مرارا لعلي ارزق الشهادة ؛ واعلموا رحمكم
الله ان حجتنا واضحة ومفوضة الى الله عز وجل وكأني بكم ، وقد وصلتكم
الى ربكم وسكنتم دارا لا يموت ساكنها ، ثم قرأ - لا يمسه فيها نصب وملا
هم منها بمخرجين - .

جبله يحارب خالدا

(قال الواقدي) فاجتمع اصحاب رسول الله (ص) الى خالد (ر ض) وداروا من حوله وسار عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (ر ض) عن يمينه ورافع بن عميرة عن يساره وعبد همام من ورائه واصحابه محدقون به وسلم خالد البطريق صاحب قنسرين الى عبده همام وقال اوثقه الى جانبك ولا تبرح من مكانك وأبشر بالنصر من الله عز وجل .

(قال الواقدي) واقبلت اليهم العرب المنتصرة يقدمهم جبله بن الايهم في عنقه صليب من الذهب الاحمر وفيه طوق من الجواهر وعليه ثياب الديباج المزركش ومن فوقه درع مذهب الزرد وعلى رأسه بيضة من الذهب وعلى أعلاها صليب من الجواهر ، وفي يده رمح طويل رسنانه يضيء كالقنديل وصاحب عمورية كالبرج المشيد ومن حوله الاعلاج المدلجة وقد احدث بهم الجيش من كل جانب . فلما نظر صاحب عمورية الى خالد بن الوليد (ر ض) وقد ملك صاحب قنسرين وهو في يده اسير خاف ان يعجل عليه خالد ، فأقبل الى جبله وقال له وحق المسيح ما هؤلاء العرب الا شياطين الا تسرى الى هذا العربي ومعه وهم عشرة رجال وقد احدث بهم هذا الجيش العظيم وما يفكرون فيه وقد ملكوا صاحبنا وهو معهم اسير ولا يخلص من ايديهم واني خائف عليه ان يقتلوه وهو عزيز عند الملك هرقل فاخرج الى هذا العربي ، وقل له يخدي صاحبنا ويوصله الينا حتى نجود لهم بانفسهم ، فاذا اطلقوا صاحبنا حملنا عليهم وقتلناهم عن آخرهم . قال رافع ابن عميرة الطائي فبينما نحن وقوف حول خالد بن الوليد (ر ض) وجيش الروم والعرب المنتصرة محدقون بنا ونحن لا نفكر في كثرتهم لانا واثقون بالله عز وجل واذا بجبله بن الايهم وهو ينادي برفيع صوته ، ويقول : من انتم من اصحاب محمد المعروفين ؟ . . من انتم من العرب التابعين ؟ اخبرونا من قبل ان ينزل بكم الدمار ، فكان المكلّم له خالد وبادره بالخطاب وقال له : بل نحن من اصحاب محمد المختار المعروفين بأهل القبلة والاسلام والاكرام والانعام . وأما سؤالك عن انسابنا فنحن الآن من قبائل شتى وقد جعل الله كلمتنا واحدة ونحن مجتمعون عليها، وهي قول لا اله الا الله محمد رسول الله زاده

الله تعالى شرفا . فلما سمع جبلة كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا
اذ لم يفكر فيه ولا فيمن معه .

فقال جبلة : يا فتى انت امير هؤلاء العرب ؟ . فقال خالد لست اميرهم .
بل اخوهم في الاسلام ، وهم اخواني المؤمنون . فقال جبلة : من انت من
اصحاب محمد بن عبدالله (ص) ؟ فقال خالد انا المعروف بكبش بني مخزوم ،
انا خالد بن الوليد صاحب رسول الله (ص) ، وهذا الرجل الذي عن يميني
هو عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) ، وهذا الذي عن شمالي من
اهل اليمن من كرام طيء ، وهو رافع بن عميرة الطائي صهري وفؤادي ،
وذلك اني اخذت من كل قبيلة سجعها المعروف ، وبطلها الموصوف ، فلا
تزدربقتلنا ، ولا تفرح بكثرتهم ، فما انتم في القتال الا كطيور وقع عليها
صائدها وهي كامنة في اوكارها فألقى القانص الشبكة عليها فما انفلت منها
الا النجيب .

(قال الواقفي) فزاد غضب جبلة من كلام خالد ، وقال له ستعلم ان
كلامك عليك ميشوم اذا دارت بك الاسنة وبقيت انت ومن معك طعاما
للوحوش في هذه الفلاة نمزقكم بكرة وعشيا ، فقال له خالد ذلك لا يكسر
علينا وهو سهل لدينا . فأنت من العرب التي قد نسبت لعبادة الصليب ،
فقال انا سيد بني غسان ومن ملوك همدان ، انا ملك غسان وتاجها ، انا جبلة
بن الايهم ، فقال انت المرتد عن دين الاسلام ومن اختار الضلالة على الهدى ،
وسلك سبيل الغي وضل وغوى ، فقال جبلة لست كذلك انا الذي اخترت العز
على الذل والهوان ، فقال خالد : فانك على ذل نفسك حريص ، وانما الكرامة
غدا في دار البقاء والبعث عن دار الشقاء ، فقال جبلة يا اخا بني مخزوم لا تفرط
علينا في المقال فانما بقائي عليك وعلى اصحابك بسبب هذا الاسير الذي في
يدك لاني اخاف ان حملت عليكم قتلته وهو معظم عند الملك هرقل وقريب
عنده في النسب فأطلقه من يدك حتى اجود عليكم بأنفسكم ، فقال خالد : اما
اسيري فلا اطلقه من يدي حتى اقتله ولا ابالي بما صنع بي بعده ، واما قولك
تحمل علي وعلى من معي بهذه الجموع فما انصفت في المقال ، فاذا اردت
النصفة في القتال فجمعكم عظيم وعددكم كثير ، ونحن عشرة رجال وقد
بفارس وهذا اميركم ، فان قتلتمونا فقد خلصتم اسيركم ، وان اظفرنا الله
احدقت بنا اعنت خيولكم واسنة رماحكم وطيال سيوفكم فابرزوا فارسلوا
بكم وما النصر الا من عند الله فما يعظم عليكم هلاك اسيركم اذا هلكت انفسكم .
قبله .

قال الواقدي ، فعند ذلك نكس جبلة رأسه وأقبل يحدث صاحب عمورية بجواب خالد بن الوليد (رض) فغضب صاحب عمورية غضبا شديدا وانتضى سيفه فلما نظر خالد بن الوليد الى البطريق وقد جرد سيفه علم أنه يريد القتال ، فلما هم صاحب عمورية بالحملة أمسكه جبلة ومنعه عن الحملة وأوقفه تحت صليبه وأقبل جبلة على خالد بن الوليد ، وقال : يا أخا بني مخزوم ان الحرب كما ذكرت تحتمل النصفة وهؤلاء بنوا الاصفر اعلاج الروم غنم ما يعرفون النصفة في البراز وقد حدثتهم بحديثك معي وقد رضوا منك بالمبارزة فمن أراد منكم المبارزة فليبرز . قال رافع بن عميرة الطائي : فعزم خالد بن الوليد ان يبرز فمنعه عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) ، وقال يا أبا سلسمان وحق القبر الذي ضم أعضاء رسول الله (ص) وحق شعبة ابي بكر الصديق (رض) لا يبرز لهؤلاء القوم غيري وأبذل المجهود فيهم فلعلني الحق بأبي بكر الصديق فتركه خالد ، وقال اخرج شكر الله مقالك وعرف لك مفا لك . قال فخرج عبد الرحمن ابن ابي بكر الصديق (رض) ، وهو على فرس كان لعمر بن الخطاب (رض) وكان دفعه له من قسمة غنيمة وقعة أجنادين وكان الجواد من خيل بني لخم وجذام من العرب المنتصرة وكان كالطود العظيم وعبد الرحمن غارقا في الحديد والزرود النضيد ويده قتاة تامة الطول فجاء عبد الرحمن بجواده بين عساكر الروم والعرب المنتصرة ودعاهم الى القتال والبراز والنزال وقال دونكم والقتال فانا ابن الصديق ثم جعل يقول :

أنا ابن عبد الله ذي المعالي والشرف الفاضل ذي الكمال
أبي المجيد الصادق المقال أدين هذا الدين بالفعال

ثم طلب البراز . قال رافع بن عميرة : فخرج اليه خمسة فوارس من شجعان الروم فما كان يجول عبد الرحمن على الفارس الا جولة واحدة فيصرعه قتيلا فلما قتل الخمسة فوارس توقفوا عنه فهم بالحملة على عسكر الروم فخرج اليه جبلة بن الایهم وقد اشتد به الغضب ، فلما قرب من عبد الرحمن قال له يا غلام قد تعديت علينا في فعالك وبغيت علينا في قتالك ، فقال عبد الرحمن : وكيف ذلك وما البغي من شيمتنا ، قال جبلة لاني قد ملأت الارض من قتلانا وما خرجت اليك اقاتلك لانك لست لي كفوا في القتال ، وانما خرجت اليك لان رجلا من أصحابك قد خرج يعينك ، وليس هذا من شيم الاشراف والانصاف . قال فلما سمع عبد الرحمن كلام جبلة تبسم ، وقال يا ابن الایهم تريد ان تخذعني وانا تربية الامام علي بن ابي طالب (رض) ، وقد شهدت معه الوقائع والقتال . فقال جبلة لست مخادعا وما قلت الا حقا ، فقال عبد الرحمن : فأخرج بازاء من خرج معي فارسا من قومك ان كنت صادقا في مقالتك واحمل علي فاني كفء كريم .

(قال الواقدي) فلما نظر جبلة بن الایهم الى عبد الرحمن وانه لا يؤتي من قبل الخداع والحيل . قال هل لك يا غلام ان تلقي بيدك الينا واغمسك في ماء العمودية غمسة تخرج منها نقيا من الذنوب كما خرجت من بطن أمك وتكون من حزب الصليب والانجيل

وتأكل القربان وتأخذ الجائزة العظيمة من الملك هرقل وأزوجك ابنتي وأقسامك نعمتي
واتفضل عليك باكرامي وانعامي ، وأنا الذي مدحني شاعر نبيكم حيث يقول :
ان ابن جفنة من بقية معشر لم تغداهم آباؤهم باللوم باللوم
يعطي الجزيل ولا يراه بأنه الا كبعض عطية المذموم
لم ينسني بالشام اذ هو بارح يوما ولا متنصرا بالروم
ان جئته يوما تقرر بمنزل تسقي براحته من الخرطوم

فأسرع الى ما عرضته عليك لتنجو من المهالك وتكون في النعم والعيش السليم .
فقال عبد الرحمن : لا اله الا الله وحده لا شريك له يا ويلك يا ابن اللئام أتدعوني من
الهدى الى الضلال ومن الايمان الى الكفر والجهالة ، وأنا ممن وقر الايمان في قلبه
وعرف رشده من غيه وصدق نبي الله وأبغض من كفر بالله ، فدونك والقتال ودع
عنك الخديعة والمحال وتقدم الى ما عزمت عليه حتى أضربك ضربة أعجل بها حمامك
وأرغم بها أنفك وتستريح العرب من أن تنسب اليك لآنك كافر بالرحمن وعابد
لصلبان . قال فغضب جبلة من كلام عبد الرحمن وحمل عليه وهم به ورفع رمحه
يريد ان يطعنه فزاع عبد الرحمن من الطعنة وحمل على جبلة حملة عظيمة وتطاعنا
بالرمح حتى كل عبد الرحمن من حمل قناته فرماها من يده وانتضى سيفه وتعاركا
في الحرب فهجم عبد الرحمن على جبلة وضرب رمحه فبراه فرمى جبلة باقي الرمح
من يده وانتضى سيفه من غمده وكان من سيوف كندة من بقايا كانه صاعقة بارقة
ما ضرب به شيئا الا براه وحمل على عبد الرحمن (رض) حملة عظيمة . قال رافع
بن عميرة الطائي : فعجبنا والله من عبد الرحمن وصبره على قتال جبلة ومنازلته على
صغر سنه وقلة أعوانه ، ثم التقيا بضربتين واصلتين فسبقه عبد الرحمن بالضربة
فأخذها جبلة من حافته فقطع الدرق ونزل السيف الى البيضة فائسى سيف عبد
الرحمن عنها لانها ذات سقاية عظيمة فجرحه جرحا واضحا أسال دمه وضربه جبلة
ضربة واصله فقطع ما كان عليه من الزرد والدروع والثياب ووصلت الضربة الى
منكبه فجرحته ، فلما احس عبد الرحمن (رض) بالضربة قد وصلت اليه ثبت نفسه
وأرى قرينه كأن الضربة لم تصل وحرك جواده واطلق عنان فرسه حتى لحق بخالد
بن الوليد (رض) وأصحابه ، فلما وصل اليهم قال له خالد قد وصل اليك عدو الله
بضربته ؟ فقال نعم ، وأظهر له ضربته وما لحقه فأخذوه عن فرسه وسدوا جراحه .
فقال يا ابن الصديق ان كان جبلة قد وصل اليك بضربته فوحي بيعة أبيك لافجعهم
في أسيرهم كما فجعوني بك ثم صاح خالد بعبد همام وقال قدم هذا العليج فقدمه
بين يديه فضربه بسيفه فأطاح رأسه عن جسده ، فلما نظرت الروم الى صاحبهم وقد
قتله خالد فجعمهم ذلك وغضب جبلة ، وقال أبيت الا الغدر وقتلتهم صاحبنا ثم صاح
في الروم والعرب المتنصرة وهموا بالحملة ونظر خالد اليهم وقد حملوا على المسلمين
فقال لعبد همام قف أنت عند عبد الرحمن فامنع عنه من اراده بسوء ، ثم قال

لأصحابه أصحاب رسول الله (ص) لا يخرج أحد منكم عن صاحبه وكونوا حولي. فما أسرع الفرج والنصر من الله عز وجل ، فوقف أصحاب رسول الله (ص) حول خالد بن الوليد (رض) كما أمرهم وما قصدهم إلا من آيس من نفسه وحملت الروم والعرب المنتصرة بأجمعهم وببت لهم المسلمون الاخيار وعظم بينهم القتال ودارت بهم الاهوال . قال ربيعة بن عامر : والله لقد كان خالد بن الوليد كلما كثرت الخيل حولنا وازدحمت علينا يتقيها بنفسه ويفرقها بسيفه ولم نزل كذلك حتى أخذنا العطش والظما . قال رافع بن عميرة الطائي : فلما رأيت ذلك قلت لخالد بن الوليد يا أبا سليمان لقد نزل بنا القضاء . فقال والله لقد صدقت يا أبا عميرة لاني نسيت القلنسوة المباركة ولم أصحبها معي .

(قال الواقدي) وقد عظم عليهم الامر وعز منهم الصبر وأخذهم الانبهار وراوا من المشركين الدمار والارض قد ملئت من قتلى المشركين وهم بين الروم كأنهم أسرى واذا قد نادى بهم مناد وهتف بهم هاتف وهو يقول : خذل الآمن ونصر الخائف أبشروا يا حملة القرآن جاءكم الفرج من الرحمن ونصرتهم على عبدة الاوثان ، هذا وقد بلفت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر ودارت عليهم الحوافر .

(قال الواقدي) حدثنا بسرة عن اسحق بن عبدالله قال كنت مع أبي عبيدة (رض) فبينما نحن في شيرزة وأبو عبيدة في مضربه واذا به قد خرج في بعض الليل من مضربه وهو ينادي النفير النفير يا معشر المسلمين لقد أحيط بفرسان الموحدين قال فأسرعنا اليه من كل جانب ومكان وقلنا له ما نزل بك ايها الامير ؟ فقال الساعة كنت نائما اذ طرقتني رسول الله (ص) وجرتني وقال لي معنفا : يا ابن الجراح اتنام عن نصره القوم الكرام ، فقم والحق بخالد بن الوليد (رض) فقد أحاط به القوم اللثام وانك تلحق به ان شاء الله تعالى رب العالمين .

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : فلما سمع المسلمون قول أبي عبيدة (رض) تبادروا الى لبس السلاح والزرذ وركبوا خيولهم وساروا يريدون خالدا ومن معه قال فبينما الامير أبو عبيدة (رض) على المقدمة في أوائل الخيل اذ نظر الى فارس يسرع به جواده وهو أمام الخيل ويكر في سيره كرا فأمر أبو عبيدة (رض) رجالا من المسلمين ان الحقوا به فلم يقدرُوا على ذلك لسرعة جواده قال فلما كلت الخيل عن ادراكه نظر أبو عبيدة اليه وظن انه من الملائكة قد أرسله الله أمامهم غير انه نادى به الامير أبو عبيدة على رسلك ايها الفارس المجد والبطل المكذ أرفق بنفسك يرحمك الله ، فوقف الفارس حين سمع النداء ، فلما قرب أبو عبيدة من الفارس اذا هي أم تميم زوجة خالد بن الوليد (رض) . فقال لها أبو عبيدة ما حملت على المسير امامنا فقالت ايها الامير اني سمعتك وانت تصيح وتضج بالنداء وتقول ان خالدا أحاطت به الاعداء فقلت ان خالدا ما يخذل أبدا ومعه ذؤابة المصطفى (ص) اذ حانت مني التفاتة الى

القلنسوة المباركة وقد نسيها فأخذتها وأسرعت اليه كما ترى . فقال أبو عبيدة لله .
درك يا أم تميم سيري على بركة الله وعونه قالت أم تميم كنت في جماعة نسوة من
مذحج وغيرهم من نساء الغرب والخييل تطير بنا طيرا حتى اشرفنا على الفبرة والقتال
ونظرنا الاسنة والصوارم تلوح في القتال كأنها الكواكب وما للمسلمين حس يسمع
قالت فأنكرنا ذلك وقلنا ان القوم قد وقع بهم عدوهم فعند ذلك كبر الامير أبو
عبيدة (رض) وحمل وحملت المسلمون ، قال رافع بن عميرة : فبينما نحن قد آيسنا
من انفسنا اذ سمعنا التهليل والتكبير فلم تكن الا ساعة حتى احاط جيش المسلمين
بمعسكر الكافرين ووضعوا السيوف من كل جانب وعلت الاصوات وارتفعت الزعقات
قال مصعب بن محارب اليشكري فرأيت عبدة الصلبان وهم هاربون ورأيت خالد
بن الوليد (رض) وهو ثابت في سرجه متشوف الى الاصوات من أين هي ، واذا بفارس
قد خرج من الفبار وهو يسوق فرسان الروم بين يديه ويهربون منه حتى ازاح من
حولنا الكتائب والرجال فأسرع خالد بن الوليد اليه ، وقال : من انت أيها الفارس
الهمام والبطل الضرغام ؟ فقالت أنا زوجتك أم تميم يا أبا سليمان ، وقد أتيتك
بالقلنسوة المباركة التي تنصر بها على أعدائك فخذها اليك فوالله ما نسيتهما الا لهذا
الامر المقدر ، ثم سلمتها اليه فلمع من ذؤابة رسول الله (ص) نور كالبرق الخاطف .

(قال الواقدي) وعيش عاش فيه رسول الله (ص) ما وضع خالد القلنسوة
على رأسه وحمل على الروم الا قلب اوائلهم على أواخرهم وحملت المسلمون حملة
عظيمة ، فما كان غير بعيد حتى ولت الروم الادبار وركنوا الى الفرار ولم يكن في القوم
الا قتيل وجريح واسير ، وكان جبلة اول من انهزم والعرب المتنصرة اثره ، فلما رجع
المسلمون من اتباعهم اجتمعوا حول راية الامير ابي عبيدة (رض) واتباعه وسلموا على
الامير ابي عبيدة (رض) وعن المسلمين وشكروا الله على سلامتهم ، ونظر أبو عبيدة (رض)
الى خالد بن الوليد واصحابه وهم كأنهم قطعة أرجوان فصافحه وهناه بالسلامة ،
وقال لله درك يا أبا سليمان قد أشفيت الفليل وأرضيت الملك الجليل . ثم قال الامير
أبو عبيدة (رض) : يا معاشر الناس قد رأيت ان نسير من وقتنا هذا ونفیر على قنسرین
والعواصم ونقتل الرجال وننهب الاموال ، فقال المسلمون : نعم ما رأيت يا امين الامة .

(قال الواقدي) فانتخب أبو عبيدة (رض) فرسانا فجعلهم في المقدمة مع عياض
بن غانم الاشعري وساروا حتى اشرفوا على قنسرین والعواصم . فقال لاصحاب
رسول الله (ص) سنوا الفارات فشنوا الفارات عليهم وسبوا الذراري وقتلوا الرجال ،
فلما نظر اهل قنسرین الى ذلك غلقوا مدينتهم واذعنوا بالصلح وأداء الجزية ، فأجابهم
أبو عبيدة (رض) الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح وفرض على كل رأس منهم أربعة
دنانير ، وبذلك أمره عمر بن الخطاب (رض) .

(قال الواقدي) لما فتح أبو عبيدة (رض) قنسرین والعواصم . قال لاصحاب

ول الله (ص) اشيروا علي برايكم رحمكم الله ، فان الله تعالى يقول لنبيه (ص) :
وشاورهم في الامر فاذا عزمتم فتوكل على الله الآية ، فهل أسير الى حلب وقلاعها
وانطاكية وملوكها وعساكرها أو نرجع الى ورائنا ؟ فقالوا ايها الامير كيف نرجع الى
حلب وانطاكية ، وهذه ايام انقضاء الصلح الذي بيننا وبين اهل شيزر وارمين وحمص
وجوسية ولا شك انهم قد اخذوا الحصار وقوا بلادهم بالاطعمة والرجال ونخاف
ان يتغلبوا علينا ، فيما اخذناه من البلاد ويغيروا علينا لا سيما بعلبك وحصنها ، فانهم
اولو شدة وعديد ، ونرى من الراي انا نرجع اليهم ونقاتلهم فلعل الله عز وجل ان
يفتح على ايدينا . قال فاستصوب ورجع على طريقه فوجدوا البلاد كما قالوا ، قد
تحصنت بالعدد والرجال والطعام ولم يكن لابي عبيدة قصد الا حمص فوجدها قد
تحصنت بالعدد والعديد ، وقد بعث اليها الملك هرقل بطريقا من اهل بيته ، وكان
من اهل الشدة والبأس ومعه جيش عرمرم ، وكان اسم البطريق هرييس ، فلما نظر
ابو عبيدة الى ذلك ترك على حمص خالد بن الوليد (رض) ، وسار هو الى بعلبك ،
فلما قرب منها ، واذا بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس ومعهم البغال والدواب
وعليها من انواع التجارات ، وقد اقبلت من الساحل يريدون بعلبك ، فلما نظر
ابو عبيدة (رض) الى سوادها قال لمن حوله من الفرسان ما هذا الا جمع كثير امامنا .
فقالوا لا علم لنا بذلك . فقال علي بخبرهم فسارت الخيل اليهم واخذت اخبارهم
ورجع بعضهم ليخبرها والقافلة من قوافل الروم محملة متاعا . قال شداد بن عدي :
وكانت احمال القافلة أغلبها سكر ، وكانت لاهل بعلبك ، فلما سمع ابو عبيدة ذلك
قال : ان بعلبك لنا حرب وليس بيننا وبينهم عهد فخذوا ما قد ساقه الله اليكم ، فانها
غنيمة من عند الله .

(قال الواقدي) فاحتوينا على القافلة ، وكان فيها اربعمائة حمل من السكر
والفستق والتين وغير ذلك واخذنا اهلها اسارى ، فقال ابو عبيدة (رض) كفوا عن
القتل واطلبوا منهم الفداء فابتعناهم انفسهم بالذهب والفضة والثياب والدواب
وصنعنا من السكر العصيدة والفالودج بالسمن والزيت ودعس المسلمون دعينا وبتنا
حيث حوتنا القافلة ، فلما أصبح الصباح امرنا ابو عبيدة (رض) بالمسير الى بعلبك
والنزول عليها ، وكان قد هرب قوم من القافلة واخبروا اهل بعلبك بالقافلة .

(قال الواقدي) وكان على بعلبك بطريق عظيم يقال له هرييس وكان شديد
البأس شجاع القلب ، فلما اتاه الخبر بقدوم عساكر المسلمين جمع رجاله واهل الحرب
وامرهم بلبس السلاح والعدد وخرج بعسكره وجعل يسير ، وهو يعلم ان الامير
ابا عبيدة (رض) سائر اليهم بجيوش المسلمين ، فلما انتصف النهار وترأى الجمعان ،
وكان هرييس معه سبعة آلاف فارس سوى من اتبعه من سواد بلده ، ونظر طوالع
جيش ابي عبيدة (رض) ، ونظر المسلمون الى ذلك نادوا النفير فعندها تبادرت الفرسان

وتقدمت الشجعان وشرعوا رماحهم وجردوا سيوفهم وصف هرييس رجاله وعباهم تعبئة الحرب ، فقال له بعض بطارقتة ما الذي تريد ان تصنع مع العرب ، فقال اقاتلهم لئلا يطمعوا فينا فينزلوا على مدينتنا ، فقالوا له : الراي عندي ان لا تقاتل العرب وارجع سالما أنت ورجالك . فان اهل دمشق الشام ما قدروا عليهم ولا ردهم عساكر اجنادين ولا جيوش فلسطين ، وقد بلغك ما فيه كفاية مما جرى لهم بالامس مع صاحب قنسرين وصاحب عمورية والعرب المنتصرة ، وكيف ردهم هؤلاء العرب على اعقابهم منهزمين والصواب انك تفوز بنفسك وبمن معك وارجع .

فقال هرييس : لست افعّل ذلك ولا انهزم امام العرب ، وقد بلغني ان عسكرهم الكبير على حمص مع الامير ابي عبيدة الذي كان فيها خالد بن الوليد وهذه غنيمة ساقها المسيح لنا ، فقال ذلك البطريق الناصح : اما انا فلست اتبع رايك ولا اقاتل العرب . ثم لوى عنان فرسه راجعا الى بعلبك واتبعه خلق كثير من القوم ، واما هرييس فانه صف رجاله وزحف يريد القتال ، فلما نظر ابو عبيدة (رض) ذلك وانهم قد عولوا على الحرب صف رجاله وعساكره ، وقال ايها الناس اعلموا رحمكم الله تعالى ان الله قد وعدكم وايدكم بالنصر حتى هزم اكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التي انتم قاصدون اليها وسط ما فتحتموه من البلاد واهلها قد اكثروا من الزاد والعدد والقوة فاياكم والعجب وانتصروا واغزوا اعداء الدين وانصروا الله ينصركم واعلموا ان الله معكم . ثم حمل الامير ابو عبيدة وحمل المسلمون قال عامر بن ربيعة : وعيش عاش فيه رسول الله (ص) سيد المرسلين ما كان بيننا وبينهم الا جولة الجائل حتى ولوا الادبار وطلبوا الاسوار ودخل هرييس المدينة مع اصحابه وفيه سبع جراحات فتلقاه الذي اشار عليه لا تقاتل العرب ، وقال له واين غنائم العرب التي غنمتوها ؟ فقال هرييس قبحك المسيح اتهازا بي ، وقد قتلت العرب رجالي ، وقد جرحت هذه الجراحات ، فقال له البطريق : ألم اقل لك انك مهلك نفسك ورجالك .

(قال الواقدي) ثم ان الامير ابا عبيدة سار حتى نزل على بعلبك فنظر الى مدينة هائلة وحصن حصين والقوم قد أغلقوا الابواب ، وقد أحرزوا أموالهم ومواشيهم في جوفها واطلع المسلمون على الاموال كأنها الجراد المنتشر . قال فلما نظر الامير ابو عبيدة (رض) الى البلد وتحصينه وامتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك انه بلد لا يزايله البرد في الشتاء والصيف . فقال الامير ابو عبيدة (رض) لخواص اصحاب رسول الله (ص) ما الراي في ذلك ؟ فاجتمع رايهم على شورى واحدة ، وهو ان يحاصروا القوم ويضيقوا عليهم ، فقال معاذ بن جبل (رض) : أصلح الله الامير اني اعلم ان الروم ازدحم بعضهم ببعض من كثرتهم وأظن ان المدينة لا تسهمهم ، وان طاولناهم رجونا من الله النصر وان يفتحها الله على ايدينا ، فقال الامير يا ابن جبل من اين علمت ان القوم يتضايقون في مدينتهم ، فقال ايها الامير : اني كنت اول من أسرع بجواده

قبل وأشرفت على هذه المدينة والقلعة البيضاء ورجوت أن نلحق سوابق الخيل
فرايت القوم يدخلون المدينة من جميع الابواب مثل السيل المنحدر والمدينة مشحونة
بأهل السواد والقرى والمواشي ودوابهم فيها ، وقد ضاقت بهم وهذه أصوات القوم
في المدينة كأنهم النحل من كثرتهم ، فقال أبو عبيدة صدقت يا معاذ ونصحت وايم
الله ما عرفتك الا مبارك الراي سديد المشورة .

(قال الواقدي) وبات المسلمون تلك الليلة يحرس بعضهم بعضا الى الصباح .
ثم كتب أبو عبيدة (رض) الى أهل بعلبك كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم
من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم أبو عبيدة بن الجراح الى
أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين . أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى وله الحمد أظهر
الدين وأعز أوليائه المؤمنين على جنود الكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد ،
وان كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم وتقدمة الى كبيركم وصغيركم لانا قوم لا نرى في
ديننا البغي وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم . وان دخلتم فيما دخل فيه
المدن من قبلكم من الصلح والامان صالحناكم ، وان أردتم الذمام ذممناكم وان أبيتم
الا القتال استعنا عليكم بالله وحاربناكم فأسرعوا بالجواب والسلام على من اتبع
الهدى . ثم كتب - انا قد أوحى اليانا أن العذاب على من كذب وتولى - وطوى
الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين وأمره أن يسير به الى أهل بعلبك ويأتيه بالجواب
فاخذ المعاهد الكتاب وأتى به الى السور وخاطبهم بلغتهم ، وقال اني رسول اليكم
من هؤلاء العرب فدلوا حبلا فربطه في وسطه ، واخذ القوم اليهم وأتوا به الى بطريقهم
هرييس فناوله الكتاب فجمع هرييس أهل الحرب والبطارقة وقرا عليهم كتاب
أبي عبيدة (رض) ، وقال أشيروا علي برايكم ، فقال له بطريق من بطارقه ، وهو
صاحب مشورة الراي :

« عندي أن لا نقاتل العرب لانا ليس لنا طاقة بقتالهم ومتى صالحناهم كنا في امن
وخصب ودعة كما قد صار أهل أركه وتدمر وحوران وبصرى ودمشق ، وان نحن
قاتلناهم واخذونا في الحرب قتلوا رجالنا واستعبدونا وسبوا حريمنا والصلح خير
من الحرب ، فقال هرييس : لا رحمك المسيح فما رايت أجبن منك ولا أقل جلدا يا
ويلك كيف تأمرنا أن نسلم مدينتنا الى أوباش العرب ، ولا سيما وقد عرفت حربهم
وقتالهم واختبرت نزالهم واني في هذه النوبة لو حملت في ميسرتهم كنت هزمتهم ،
فقال له البطريق نعم كانت الميسرة والقلب يخافون منك . ثم تخاصما وتشاتما وافترقا
أهل بعلبك فرقتين فرقة يطلبون الصلح وفرقة يطلبون القتال ورمى هرييس الكتاب
الى المعاهد بعد أن مزقه وأمر غلمانه أن يدلوه الى ظاهر المدينة ففعلوا ذلك ووصل
المعاهد الى عسكر المسلمين وأتى أبا عبيدة (رض) وحدثه بما كان من القوم ، وقال
أيها الأمير ان أكثر القوم عولوا على القتال ، فقال أبو عبيدة (رض) للمسلمين شدوا

عليهم ، واعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم . فان بقيت كانت وبالا على من صالحتم ولا تقدرّون على سفر ولا على غيره ، قال فلبس أصحاب رسول الله (ص) السلاح والعدد ورجعوا الى الاسوار وعطف اهل بعلبك عليهم وتراموا بالسهم والاحجار ، وان هربيس قد نصب كرسيه وسريره على برج من أبراج القلعة من ناحية النملة ، وقد عصب جراحته ولبس سلاحه ولامته ولبس على رأسه صليبا من الجواهر وحوله البطارقة والديرجانية بالدرع المذهبة والعدد الكاملة وفي اعناقهم صلبان الذهب والجواهر وبأيديهم القسي والسهم . قال عامر بن وهب اليشكري شهدت حرب بعلبك ، وقد زحفت المسلمون الى سورها . قال ونشاب الروم كالجراد المنتشر ، وكان اناس من العرب بلا سلاح فأصابهم سهم القوم . قال ورايت القوم يتساقطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذهبت الى رجل سقط لاضرب عنقه فصاح الفوثن الفوثن وكنا قد عرفنا من الحرب ان من قال : الفوثن يعني الامان ، فقلت له يا ويلك لك الامان فما الذي القاك الينا من سوركم ؟ فجعل يكلمني بالرومية ، وانا لا أدري ما يقول . قال عامر ابن وهب اليشكري فسحبته الى خيمة ابي عبيدة ، وقلت له ايها الامير : اطلب من يعرف لغة هذا العليج فاني رايتهم يرمي بعضهم بعضا ، فقال ابو عبيدة (رض) لمن حضر من المترجمة اخبرنا بخبر هذا العليج وما قضيته ، ولم يرمي بعضهم بعضا ؟ فقال له المترجمان يا ويلك قد اعطيناك الامان فاصدقنا في الكلام وقل لنا لم يرمي بعضهم بعضا ؟ قال ان بعضنا لا يرمي بعضا ولكننا من اهل والقرى ، فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن اهل قنسرين التجأنا الى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنتحصن فيها لما نعلم من كثرة ما بها من الجيش فضيق بعضنا على بعض وسددنا طرقات المدينة ومضى بعضنا الى السور ، فاذا ليس لنا موضع ناوي اليه ولا مسكن نسكن فيه فجعلنا الابراج والاسوار مسكنا لنا . فلما زحفت الى القتال برز اليكم اهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدوسوننا بأرجلهم ، واذا اشتد الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منا فيلقيه اليكم .

(قال الواقدي) فلما سمع الامير ابو عبيدة (رض) ذلك فرح فرحا شديدا وقال ارجو من الله ان يجعلهم غنيمة لنا . قال واخذت الحرب مأخذها وطحنت رجالها وعلا الضجيج وحمى الروم أسوارهم فلم يقدر احد من المسلمين ان يصل اليها من كثرة السهم والحجارة . قال غياث بن عدي الطائي : حاربنا اهل بعلبك في اول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلا ، وأصيب من الروم على السور خلق كثير من اهل الحرب وغيرهم ، وانصرف المسلمون الى رحالهم وما لهم همة الى الطعام ولا الشراب ولا يريد احد منا الا الاصطلاء بالنار من شدة البرد . قال فبينما نحن ليلتنا نوخذ النار ونتناوب في الحرس الى الصباح ، فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل ابي عبيدة (رض) يقول : عزيمة مني على كل رجل من المسلمين لا يبرز الى حرب

هؤلاء القوم حتى ينفذ الى رحله ويصلح له طعاما حارا ياكله ليكون بذلك شديدا على لقاء العدو . قال فابتدرونا لاصلاح امورنا ، فلما نظر اهل بعلبك الى تأخرنا عن حربهم وقتالهم طمعوا فينا وظنوا أن ذلك فشل منا وعجز ، فصاح هربيس في الروم وقال اخرجوا لهم بارك المسيح فيكم . قال غياث بن عدي : فلم يشعر المسلمون الا والابواب قد فتحت والخيول والرجال قد طلعت اليها كالجراد المنتشر . قال وكان بعضنا قد مد يده الى الطعام وبعضنا ينضج له القرص واذا بمناد ينادي يا خيل الله اركبي وللجهاد تأهبي ، فدوونكم والقوم قبل ان يدهموكم . قال حمدان بن اسيد الحضرمي وكان لي قرص خبزته وقدمت شيئا من الزيت لاجعله ادامى للقرص واذا بالمنادي ينادي النفير النفير ، قال فوالله ما راعني ذلك حتى اخذت قطعة وغمستها في الزيت وهويت بها الى فمي ، سمعت النفير فقممت مسرعا وركبت جوادي عريانا من دهشتي لسرعة الاجابة وضربت بيدي على عمود من اعمدة الخيام وحملت على القوم ، فوالله ما شعرت بما صنعت ولا عقلت على نفسي حتى صرت في الروم فجعلت احطمهم حطما واهبرهم بالسيف هبرا . قال فنظرت الى خيل الروم متفرقة والأمير ابو عبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون اليها ، وان ابا عبيدة (رض) ينادي برفيع صوته اليوم يوم له ما بعده . قال ونظر ابو عبيدة الى شدة ضرب الروم وصبرهم على قتال المسلمين ، فحمل عليهم بالخيول العربية واحاط بالروم من كل جانب ومكان وكان في جملة خيله عمرو بن معد يكرب الزبيدي وعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) وربيع بن عامر ومالك بن الاشتر وضرار بن الازور (رض) وذو الكلاع الحميري فله درهم فلقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا ، فلما نظرت الروم الى فعلهم رجعوا الى اعقابهم طالبين الاسوار وغلقوا الابواب ، ورجع المسلمون الى عسكرهم واضرموا نيرانهم ودفنوا من استشهد منهم واقبلت رؤساء المسلمين الى الامير ابي عبيدة (رض) وقالوا : ايها الامير ما الذي قد عزمته عليه وما عندك من الراي يرحمك الله ؟ فقال ابو عبيدة (رض) : اعلموا أن من الراي أن نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالا لخيكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى . .

ثم دعا ابو عبيدة (رض) بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعقد له راية وامره على خمسمائة فارس وثلثمائة راجل وامرهم أن يهبطوا الى الوادي وأن يقاتلوا القوم على الابواب وأن يشغلوهم عن المسلمين ، ثم دعا ضرار بن الازور وعقد له راية وامره على خمسمائة فارس ومائة راجل سرحه الى باب الشام ، وقال : يا بن الازور اظهر شجاعتك على بني الاصفر فقاتل من هناك من الروم ، فقال حبا وكرامة . قال ومضت كل فرقة الى جهة من الجهات ، فلما أصبح الصباح فتحت الروم الابواب وخرجوا في خلق كثير الى أن تكاملوا حول بطريقهم هربيس . فقال لهم البطريق : اعلموا يا

معاشر النصرانية أن أهل هذا الدين من قبلكم قد فشلوا عن قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن قتالهم ونزالهم . فقالوا أيها السيد طب نفسا وقر عينا فانا كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم ، وقد علمنا أنهم إذا لاقوا حربنا لم يكونوا أصبر منا على الحرب ، لأن أحدهم يلقي الحرب وعليه ثوب خلق خام أو فروة خلقة ، ونحن علينا الدروع والزرد وقد وهبنا أنفسنا للمسيح .

(قال الواقدي) فلما نظر أبو عبيدة إلى كثرتهم نادى برفيع صوته : يا معاشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ربحكم واصبروا أن الله مع الصابرين . قال وان الروم داخلهم الخوف لما كانوا قد نالوه من غرة المسلمين بالامس فحملوا حملة عظيمة . قال سهل بن صباح العبسي شهدت قتال أهل بعلبك ، وقد خرج إلينا أهلها في اليوم الثاني وهم أطمع مما كانوا في اليوم الأول وقد حملوا علينا حملة عظيمة شديدة منكرة وكنت في ذلك اليوم أصابني جرح في عضدي الأيمن وما أطيق أن أحرك يدي ولا أحمل سيفاً فترجلت عن جوادي وجريت بين أصحابي وقلت في نفسي إذا قصدني أحد من هؤلاء الأعلاج لم يكن لي غنى أدفع عن نفسي فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته وأشرفت على العسكرين وجعلت أنظر إلى حربهم وقاتلهم وقد طمعت الروم في العرب والمسلمون ينادون بالنصر ، وأبو عبيدة يدعو لهم بالنصر والتحمت القبائل وافتخرت العشائر قال سهل بن صباح : وأنا على الجبل من وراء حجر أنظر إلى ضرب السيوف على البيض والحجف والشرر يطير من شعاعها وقد التقى الفريقان واختلط الجمعان فقلت في نفسي ويحي وما عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الأزور على الأبواب والأمير أبو عبيدة في مثل هذا الحرب وانهم والله على وجل أن ينكشفوا من عظم شدتهم وحربهم وهول ما يلقونه قال فأسرعت إلى جرائيم الشجر فجعلت أكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض وعمدت إلى زناد كان معي فأوقدت النار وأضرمتها فيه وعبيت عليه حطبا أخضر ويابسا حتى علا منه دخان عظيم وكانت علامتنا إذا أردنا أن يجتمع بعضنا إلى بعض بأرض الشام في الليل وقود النار وإثارة الدخان قال فما هو إلا أن علا الدخان وتساعد إلى الأفق حتى نظر إليه سعيد بن زيد وأصحابه وضرار بن الأزور وأصحابه فنادى بعضهم بعضا الحقوا الأمير أبا عبيدة رحمكم الله فان هذا الدخان ما هو إلا من شيء عظيم ، والصواب أن نكون بخيلنا في موضع واحد فأسرعوا بخيلهم وساروا حتى أشرفوا على المسلمين وهم في شدة الحرب وأعظم الكرب وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر وإذا بمناد هتف بهم : يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتكم على عبدة الصليبان ، وإذا قد أشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور في أوائل خيلهم وقد شرعا سنانهما وحملا في الروم وقد أيقن الروم أنهم الغالبون إذ ظهرت عليهم رايات المسلمين وكتائب الموحدين فالتفتوا ينظرون ما الخبر ، وإذا بالمسلمين من ورائهم وقد حالوا بينهم وبين

مدينتهم فنادوا بالويل والخراب وظنوا انه قد انى للمسلمين نجدة ومدد وقد غرر بهم البطريق ، فلما نظر البطريق الى تبلدهم زعق فيهم وقال يا ويلكم لا ترجعوا الى المدينة قد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكاييد العرب ، فلما سمعت الروم ذلك احاطوا ببطريقهم كالحلقة المستديرة يحمي بعضهم بعضا فعدل بهم البطريق نحو الجبل ذات الشمال ، وكان سعيد بن زيد وضرار بن الازور قد اقبلا بجيشهما عن يمين الحصن وشماله فحملوا عليهم وانبعوا آثارهم حتى طلوعوا الى الجبل والتجأت الروم الى ضيعة في الجبل حصينة خالية من اهلها فاستند الروم اليها وتحصنوا فيها وتبعهم سعيد بن زيد في الخمسمائة فارس الذين كانوا معه وذلك ان الامير ابا عبيدة (رض) لما نظر الى هزيمة الروم نادى في المسلمين معاشر الناس لا يتبعهم احد ولا يفرق جمعكم لاني اخشى ان تكون هزيمة القوم مكيدة لكم حتى اذا تفرق جمعكم زحفوا عليكم ، قال وان سعيد بن زيد لم يكن يسمع النداء ، ولو سمع النداء ما تبع القوم .

(قال الواقدي) لما تحصنت الروم في الضيعة قال سعيد بن زيد : هذه طائفة قد اراد الله هلاكها فدوروا بهم وحاصروا في كل مكان ولا تدعوا احدا يطلع رأسه الى ان تلحق بكم المسلمون ويأتي اليكم امر من الامير ابي عبيدة ثم اقبل الى رجل من عظماء المسلمين وقال له اخلفني في قومي حتى انظر رأي الامير ابي عبيدة ومن معه ثم اخذ معه زهاء من عشرين فارسا من أصحابه وسار حتى لحق بجيش المسلمين فلما نظر اليه الامير ابو عبيدة ومن معه قال يا سعيد اين رجالك وما صنعت بهم ؟ قال ابشر ايها الامير فان المسلمين في خير وسلامة وقد حاصروا اعداء الله في ضيعة في هذا الجبل ثم اخبره بالقصة من اولها الى آخرها . فقال ابو عبيدة : الحمد لله الذي هزمهم عن اوطانهم وجعلهم اشتاتا ، ثم اقبل ابو عبيدة على سعيد بن زيد وعلى ضرار بن الازور وقال لهما ما هذه المخالفة رحمكم الله ألم آمركم بالاقامة على ابواب المدينة والمشاغلة للقوم فما الذي ردكم الي وقد اربعتم قلبي وقلب من كان معي وظننت ان اهل المدينة كادوكم وهو الذي منعنا ان نتبع المنهزمين . فقال سعيد بن زيد ايها الامير والله ما عصيت لك امرا ولا خالفتك في قول وانني قد وقفت حيث أمرتني اذ راينا دخانا قد علا قتامة ولاح لنا بيانه فقلنا والله ما هذه الا داهية من دواهي الروم او نفيروا قد استدعانا به المسلمون فأسرعنا نحولك فعندها نادى الامير ابو عبيدة في المسلمين معاشر الناس : ايكم او قد نارا او دخن دخانا في هذا الجبل فليجب الامير ابا عبيدة ؟ قال سهل بن صباح فلما سمعت النداء اجبت المناادي واتي الامير ابا عبيدة . فقال ما الذي جراك على ذلك فقصصت عليه قصتي . فقال ابو عبيدة لقد وفقك الله تعالى الى الجنة فايك بعدها ان تحدث حديثا من غير اذن اميرك .

(قال الواقدي) فبينما الامير كذلك يحدث سهل بن صباح واذا برجل من

المسلمين منحدر من الجبل وهو ينادي النفير النفير يا أمة البشر النذير ادركوا
أخوانكم المسلمين فقد أحاط بهم الروم وهم في أشد ما يكون من القتال وانه قد دنا
البطريق من المسلمين ونادى بأصحابه ورجاله وقال يا عباد المسيح اليكم هذه الشرذمة
اليسيرة والعصابة الحقيرة التي قد أحاطت بكم فاقتلوهم وادخلوا المدينة فانكم ان
قتلتم القوم كسرتهم بذلك حدة العرب وانصرفوا عنكم . قال مصعب بن عدي : وكنت
في بعلبك من أصحاب سعيد بن زيد ، وقد جعلنا محاصرين البطريق والروم في الضيعة
ونحن دون الخمسمائة رجل فما شعرنا الا والبطريق والروم قد تبادروا الينا من
كل مكان فنادى بعضنا بعضا واجتمعنا قال والله لقد كبوا علينا الخيل وأحاطوا بنا
بعد ما كنا احطنا بهم وكان شعارنا في ذلك اليوم الصبر الصبر قال فبينما نحن كذلك
في أشد الحرب وأعظم الكرب اذ سمعنا صوتا عاليا قد ملأ الجبل ومناذيا ينادي
ويقول : اما من رجل يهب نفسه في الله ويسنهر المسلمين فانهم بالقرب منا ولا يعلمون
ما نزل بنا . قال مصعب بن عدي : فلما سمعت الصوت همزت جوادي بكعبي ،
وكان جواد عتيقا يسبق الريح الهبوب او الماء اذ انسكب من ضيق الانبوب وكأنه
الطود العظيم ، والله لقد خرج من تحتي كأنه البرق ولم تلحق منه الروم الا الفبار
بعد ما قتلت منهم رجلين ، ولقد نظرت الى فرسي ، وهو يشب الصخرة ويسلك
الوعرة حتى اشرفت على عساكر المسلمين فناديت النفير النفير يا أمة البشر النذير .

فلما سمع ابو عبيدة ذلك صاح بالرماة . فأجابه خمسمائة رام من أصحاب
القيسي العربية فضمامهم الى سعيد بن زيد ، وقال له ~~ابو عبيدة~~ يرحمك الله والحق بأصحابك
قبل ان يأتي العدو اليهم . ثم نادى بضرار بن الازور وأصحابه ، وقال له ادرك اخاك
سعيد بن زيد . قال فسار المسلمون مثل الجراد المنتشر حتى علوا على قلة الجبل
وأشرفوا على الروم وهم محدقون بأصحاب رسول الله (ص) ، وقال ابو زيد بن ورقة
بن عامر الزبيدي : وكنت ممن شهد القتال على الضيعة مع أصحاب سعيد بن زيد ،
وقد أحاطت بنا الروم ، وقد صبرنا لهم صبر الكرام ، وقد صرع منا سبعون رجلا
ما بين جريح وقتيل ، ونحن في أشد ما يكون من القتال والجراح ، وقد طمعت الروم
فيئنا حتى سمعنا التهليل والتكبير ولحقنا النفير ، فلما اشرفت علينا راية المسلمين
رجعت الروم على أعقابهم مدبرين الى الضيعة راجعين ولحقنا من تأخر منهم وكثر
فيهم القتل والجراح لكثرتهم وتحصن القوم في الضيعة فأحطنا بهم من كل جانب وما
تركنا منهم أحدا يخرج رأسه من كثرة النبل وورد الخبر الى الامير ابي عبيدة (رض)
بمن استشهد من المسلمين ومن قتل من الكافرين ، وان القوم قد لزمهم الحصار ،
وان لا زاد عندهم ولا ماء ، فقال ابو عبيدة الحمد لله . ثم قال للمسلمين معاشر الناس
ارجعوا الى أموالكم واضربوا خيامكم حول المدينة ، فان الله عز وجل كاد عدوكم ،
وهو منجز لنا ما وعدنا من نصره . قال فعندها رجع المسلمون الى أموالهم ومواضعهم

التي كانوا فيها اول مرة وضربوا خيامهم وانفذوا طوالعهم وارسلوا الى المرعى خيولهم وابلهم وسرحوا الى الحطب عبيدهم واضرموا النيران في عسكرهم وذهب منهم الخوف واتاهم الامان ، وان اهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم ويصيحون بلفتهم ، فقال الامير ابو عبيدة لبعض التراجمة : ما يقول هؤلاء ؟ فقال له الترجمان : ايها الامير انهم يقولون يا ويلهم يا عظم ما اصابهم يا خراب ديارهم يا فناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم .

(قال الواقدي) فلما دنا المساء ارسل الامير ابو عبيدة الى سعيد بن زيد يقول له : يا بن زيد الحذر الحذر على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله ان لا يفوتك من الروم احد ولا تفسح لهم قدما واحدا فيخرج منهم واحدا . . . فيتبع اولهم آخرهم ، فتكون بمن حصل في يده شيء فاضاعه ، فلما وصل الرسول الى سعيد بن زيد بهذه الرسالة ، امر المسلمين ان يحيطوا بالضيقة من كل جانب ، وان لا يخرجوا الى الحطب الا مائة بالسلاح ففعلوا ذلك واضرموا نيرانهم وباتوا طول ليلتهم يهللون ويكبرون وبالضيقة يطوفون ، فلما نظر البطريق هريس الى ذلك اقبل على اصحابه ورجاله وقال لهم : يا ويلكم لقد ايسنا من التدبير واخطانا الراي وما لنا مدد ولا نجدة ولا نصير ولو اجتهدنا لما اجتهدت العرب على ان يحبسونا في هذه الضيقة ، والان قد حبسنا انفسنا في حبس ليس فيه طعام ولا شراب ، وان دام علينا هذا يوما ثانيا او ثالثا ضعف قوينا ومات ضعيفنا وبطلت حيلتنا وسلمنا انفسنا كارهين فنقتل عن آخرنا ، فقالت البطارقة فما الذي تري ايها السيد ؟ فقال قد رايت من الراي ان اخدع العرب واحتال عليهم واسالهم السلاح لنا ولاهل مدينتنا كما قد طلبوا واضمن ان افتح لهم المدينة ، ونكون في ذمامهم فاذا دخلنا المدينة حاربناهم على سورنا ولعلنا نرسل الى صاحب عين الجوز والى صاحب جوسبة فلعلهما يقدمان الى نصرتنا فيكونان لقتال العرب من خارج المدينة ونحن من اعلى الاسوار ، ويكفينا المسيح هذه النوبة .

فقالت البطارقة : اعلم ايها السيد ان صاحب جوسية لا يجيبك الى نجدة ابدا لانه مشغول بنفسه وربما يكون محاصرا مثل حصارنا هذا ، فلقد بلغنا قبل نزول هؤلاء العرب علينا انهم صالحوهم وليس لهم من القدرة والقوة ان يقاتلوا العرب ، واما اصحاب عين الجوز فانهم في تجارتهم متفرقون في اقصى الشام وما اظن الا انهم في صلح العرب ، فانظر لنفسك ورعيتك ما فيه الصلاح ، فلما سمع البطريق هريس قولهم اجابهم الى ذلك ، فلما اصبح الصباح طلع البطريق على جدار الضيقة ونادى برفع صوته : يا معاشر العرب اما فيكم رجل يعرف كلامي انا هريس البطريق ، فلما سمعه بعض التراجمة اقبل على سعيد بن زيد وقال له : يا مولاي ان هذا العليج هو هريس صاحب القوم وهو يستدعي كلامك ، فقال له سعيد بن زيد ادن منه

وانظر ماذا يريد وما يقول ؟ قال فدنا الترجمان منه ، فقال له ما الذي تريد ؟ قال أريد أن يؤمنني أميركم هذا في ذمامه وذمام أصحابه ويدنوني حتى أخاطبه بما يعود صلاحه على الفريقين ، فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد ، فقال سعيد بن زيد : لا كرامة له حتى أدنو منه وأمشي إليه حتى يخاطبني فإن كان له حاجة فليأتني خاضعا ذليلا صاغرا حتى أسمع كلامه وأعلم مراده . قال فأعلم الترجمان هرييس بكلام سعيد بن زيد ، فقال هرييس فكيف أنزل إليه وأنا محارب له فأنا أخاف أن يقتلني ، فقال له الترجمان أنا آخذ لك منه الذمام فإن العرب لا تخون إذا أمنت ، فقال البطريق نعم قد تناهت إلينا أخبارهم ولكني أريد أن أستوثق لنفسي ولأصحابي وأهل بلدي لأنهم قوم قد لحقهم الحقد علينا وقد أصبنا منهم دما كثيرا واني أريد أن أرسل له شخصا يأخذ لي منه أمانا ، فقال الترجمان أنا أعرفه ذلك ، ثم أقبل الترجمان على سعيد بن زيد وقال له : ان البطريق هرييس يريد أن يوجه اليك رجلا من أصحابه يأخذ له منك أمانا ، فقال سعيد بن زيد دعه يوجه من يريد وأعلمه أن رسوله منا في أمان حتى يرجع إليه ، قال فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل البطريق على رجل من عظماء أصحابه ، وقال له ترى ما قد نزل بنا وكيف قد ملك العرب علينا الطريق وان بلاد الشام قد أذن المسيح بخرابها وقد نصرت العرب علينا وانا في شدة شديدة وان لم تأخذ من القوم الامان والا هلكنا وهلكت خيلنا ، وبعد ذلك يتحكمون في أولادنا وحرماننا ويقتسمون أموالنا وذراريها وليس لنا نجدة لان كل بلدة مشتغل بنفسه عن نصرتنا فانزل الى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أمانا واستوثق لنا منهم ، حتى أنزل انا اليهم فلعلنا نحري بينهم صلحا ولعلي أمكر بهم حتى نرجع الى المدينة ، ولعلي أرغب صاحبهم في شيء من المال فلعله يرغب وينصرف عنا الى أن نرى ما يكون بينهم وبين الملك هرقل .

(قال الواقدي) فنزل الرجل ووقف أمام الامير سعيد بن زيد وهم الرجل ان يسجد له فمنعه من ذلك وتبادرت اليه المسلمون فامسكوه ففزع الرجل وقال لم تمنعوني ان أعظم صاحبكم ؟ فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد ، فقال انما انا وهو عبدان الله تعالى ولا يجوز السجود والتعظيم الا لله الملك المعبود القديم ، فقال الرجل بهذا نصرتم علينا وعلى غيرنا من الامم فقال سعيد بن زيد فما الذي جاء بك ؟ قال جئت لأخذ منك أمانا لبطريقنا ان لا تنقض لنا عهدا فقال سعيد بن زيد ليس من اخلاق الامراء ، ومن يقود الجيوش ان يفدر بعد الامان ، ولسنا بحمد الله ممن ينقض عهدا ، وقد أعطيت صاحبك أمانا ولمن معه ممن ألقى السلاح وخرج يطلب الامان مستسلما ، فقال الرجل نريد منك الامان ومن أميرك ومن معك ، فقال سعيد لكم ذلك ، فعند ذلك رجع الرجل الى البطريق وأعلمه بجواب سعيد . وقال له اخرج وإياكم والفدر فانه يهلك صاحبه ، وان هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان البطريق هرييس خلع ما كان عليه من الثياب والديباج واللقى السلاح ولبس ثياب الصوف وخرج حافيا حاسرا ذليلا ومعه رجال من قومه حتى وقف بين يدي سعيد بن زيد فخر سعيد لله ساجدا وقال الحمد لله الذي ازال عنا الجبابرة وملكنا بطارتهم وملوكهم ثم اقبل عليه وقال له : ادن مني فدنا الى ان جلس الى جانبه وقال له : اهذا لباسك دائما ام غيرته ، فقال لا وحق المسيح والقربان ما لبست الصوف ابدا غير الحرير والديباج وما لبست هذا الا في وقتي هذا فاني ما اريد حربكم ولا قتالكم ثم قال لسعيد هل لك ان تصالحنى على اصحابي هؤلاء وعلى اهل المدينة ومن فيها ؟ فقال سعيد اما اصحابك هؤلاء فاني اوفيهم على شرط ان من دخل في ديننا فله ما لنا ، ومن اختار الإقامة على دينه واللقى السلاح كان آمنا من القتل وعليه العهد انه لا يحمل علينا سلاحا ولا يكون لنا حربا ابدا ، واما المدينة فالامير ابو عبيدة عليها وقد فتحها ان شاء الله تعالى ، ثم قال ان احببت ان تسير معي الى ابي عبيدة حتى يسمع كلامك وتصلح عن قومك فسر وانت في ذمامي فان اتفق بينكما الامر ، والاردتك الى موضعك هذا ومن اراد الرجوع معك من رجالك الى ان يحكم الله وهو خير الحاكمين . فقال البطريق انا افعل ذلك فعندها دعا سعيد بن زيد سعد بن ابي وقاص بن عوف العدوي ، وقال يا ابن ابي وقاص كن بشيرا للامير ابي عبيدة بما سمعت واسرع بالجواب . قال فاسرع ابن ابي وقاص بن عوف وركب جواده وكان حصانا شديد العدو وجعل يسير سيرا حثيثا حتى اشرف على الامير ابي عبيدة (رضي) ووقف بين يديه وسلم عليه ، وقال اصلح الله تعالى شأن الامير ابشرك بان البطريق هرييس قد اخذ الامان من سعيد بن زيد وهو يريد ان يقبل به عليك يسألك الصلح والامان له ولاهل مدينته ، فلما سمع الامير ذلك سجد لله شكرا ورفع راسه ، وقال ايها الناس تقدموا الآن الى قتال اهل المدينة واظهروا اسلحتكم عليها وكبروا تكبيرة واحدة لكي ترعبوا بها القوم ، قال ففعل المسلمون ذلك فارتجت المدينة وفزع اهل بعلبك وتداعوا للقتال واحاط المسلمون بالمدينة من كل جانب ، وكان اول من سبق الى المدينة واعطاهم خبر البطريق المرقال ابن عتبة وقال حصنوا انفسكم وأولادكم واموالكم بالصلح فان ابيتم ذلك فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبينا محمد (ص) ان يفتح لنا بلادكم وامصاركم وغيرها وان الله تعالى منجز امره . فلما سمع اهل بعلبك ذلك فزعوا فزعاً شديداً واغبرت وجوههم ورعبت قلوبهم وكلت من الحرب ايديهم ، وقالوا : اهلكنا البطريق وأهلك نفسه ولو كنا صالحنا العرب من قبل ان يوجئ بنا هذا الحصار لكان خيرا لنا . قال وشدد المسلمون عليهم القتال .

(قال الواقدي) فلما علم ابو عبيدة ان نيران الحرب قد اضرمت على المدينة ارسل الى سعيد بن زيد يقول له اسرع بالبطريق الينا وله الامان الذي امنت انت ، فزحزح لا ننقض لك عهدا ، فلما ورد رسول ابي عبيدة على سعيد بن زيد استخلف

على الضيعة رجلا من اصحابه وسار سعيد مع البطريق حتى وردا على الامير ابي عبيدة (رض) فلما وقف البطريق بين يديه ونظر الى زيه وزي من معه وشهد قتالهم وعظم ما تلقى المدينة من حربهم وقتالهم حرك البطريق رأسه وعض على انامله . فقال ابو عبيدة (رض) لترجمانه ما لهذا يحرك رأسه ويعض انامله كأنه يتأسف على شيء فاته ؟ قال فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل على الترجمان ، وقال له وحق المسيح وما مسح وحق البيعة والمذبح لقد ظننت انكم أكثر عددا من الحصى وأكثر مددا ، ولقد كان يخيل لنا عند حربكم وشدة ما تلقى منكم انكم على عدد الحصى والرمل من كثرتم ، ولقد كنا نرى خيلا شهابا وعليها رجال وبأيديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر فلما صرت بينكم لم أر من ذلك شيئا وما أراكم الا في قلة عدد وما أدري ما فعل جمعكم أبعثتموه الى عين الجوز او الى جوسية او مكان آخر ؟ فأخبر الامير الترجمان بذلك . فقال ابو عبيدة للترجمان قل له يا ويلك نحن معاشر المسلمين يكثرن الله تعالى في أعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر ، وبذلك فتح الله تعالى بلادكم وحصونكم علينا واذل ملوككم ، فلما سمع البطريق كلام ابي عبيدة (رض) على لسان الترجمان قال : لقد وطئتم الشام الذي عجزت عنه ملوك الفرس والترك والجرامقة وما ظننا أن يكون ذلك أبدا ، وأما مدينتنا فهي حصينة لا تعبأ بالحصار لأنها مدينة ليس بالشام مثلها ، بناها سليمان بن داود عليهما السلام لنفسه وعملها دار مقامه وخزانة للملكه ولولا ما سبق من تفريطنا وخروجنا عنها اليكم وانحرفنا عنها ما صالحناكم أبدا ولا هالنا حربكم ولو اقمتم علينا مائة سنة ، والآن فقد كان ذلك فهل لكم أن تصالحنوا حتى نصالحكم فتعدل فينا فهو اقرب رشدا لنا ولكم ، فوحق المسيح والانجيل الصحيح لئن فتحنا لكم هذه المدينة لا يصعب عليكم في الشام حصن ولا مدينة ، قال فلما أخبر الترجمان الامير ابا عبيدة (رض) بما قاله ، قال ابو عبيدة للترجمان قل له الحمد لله تعالى الذي ملكنا ارضكم ودياركم فلا بد أن تؤدوا الجزية ، وقد ظننت لنفسك امانا كاذبا حتى أراك الله الذل والصفار بعد العز والاقتدار ولا بد لنا أن نملك مدينتكم ان شاء الله تعالى ونقتل الرجال ونأسر الابطال ، فمن أراد حربنا وقتالنا فلا يدخل في صلحنا أبدا ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . فقال البطريق لما سمع ذلك على لسان الترجمان : لقد تيقنت أن المسيح قد غضب على أهل هذه المدينة اذ بعث بكم اليها وملككم عليها ، وقد اجتهدت في حربكم ومكرت بكم وما نفع مكرى واجتهادي لانكم قوم مسلطون ، وانما طلبت منكم السلم والقيث يدي في ايديكم بعد جهد مني ، لا شفقة مني على نفسي ولا بقاء مني على ملكي ولكن أردت صلاح البلاد لان الله تعالى لا يحب الفساد ، والآن فهل لكم أن تصالحوا على المدينة وما فيها وعلى اصحابي هؤلاء ؟ فقال له الامير ابو عبيدة (رض) فما الذي تبذل لنا في صلحك ؟ قال له البطريق : ايها الامير انظر ما الذي تريد ؟ فقال الامير ابو عبيدة : لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهباً وفضة ما كان أحب

الي من سفك دم رجل واحد ، لكن الله تعالى اعطى الشهداء في الآخرة اكثر من ذلك .
فقال البطريق انا اصالحكم على الف اوقية من الفضة البيضاء والف ثوب من الديباج .
(قال الواقدي) فتبسم الامير ابو عبيدة من كلامه واقبل على المسلمين وقال
لهم اما تسمعون ما يقول هذا البطريق ؟ قالوا نعم ، قال فما رأيكم فيما شرط على
نفسه . فقالوا يزيد عليه وشرطه يرضينا ، فأقبل الامير على البطريق وقال له : انا
اصالحكم على ألفي اوقية من الذهب الاحمر وألفي اوقية من الفضة البيضاء والف
ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف من مدينتكم وسلاح اصحابك الذين هم في
الضيعة محاصرون ، ولنا عليكم خراج ارضكم في العام الآتي واداء الجزية في كل عام
وانتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحا ولا تكاتبون ملكا ولا تحدثون حدثا ولا كنيسة
وترون النصح للمسلمين ، فلما سمع البطريق ذلك من شرط الامير ابي عبيدة (رض) .
قال لك ذلك كله علينا الا اني اريد ان اشرط عليك وعلى اصحابك شرطا . فقال له
الامير ابو عبيدة وما شرطك ؟ فقال لا يدخل الينا من اصحابك احد وتنزل صاحبك
الذي تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية وتدعني انا من
داخل المدينة من قبل الاصلاح بين الناس والنظر في احوالهم ، ونحن نخرج الى من
تخلفه علينا من اصحابك سوفا يكون فيه من جميع ما في مدينتنا ، ولا يدخلون الينا
مخافة ان يفلظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الامر بيننا وبينكم ويكون سببا للغدر
ونقض العهد . قال ابو عبيدة : فاذا صالحناكم نجاهد عدوكم لانكم تصيرون في ذمتنا
ويكون الرجل الذي نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيننا وبينكم . قال البطريق
هريس يكون خارج المدينة ويفعل ما يشاء ان يفعله من المحاماة . فقال ابو عبيدة :
لكم ذلك وما لنا في الدخول الى مدينتكم من حاجة . فقال البطريق : تم الصلح على
ذلك ، ثم سار البطريق الى المدينة وابو عبيدة معه ، فلما وصل الى الباب حصر
البطريق عن رأسه ورطن عليهم بلغه الروم فعرفوه عند ذلك ، فقالوا له : واين اصحابك
ورجالك ؟ . فقص عليهم قصته وأخبرهم بخبره وخبر اصحابه وأعلمهم بالصلح ،
فبكى القوم وقالوا تلفت النفوس وذهبت الاموال . فقال لهم البطريق : يا قوم وحق
المسيح ما صالحتم ولي وجه غير الصلح ، فقالوا له اذهب أنت وصالح عن نفسك .
واما نحن فلن نصالح العرب أبدا ولن ندع احدا منهم يملكنا ولا يدخل بلادنا ومدينتنا
وهي احصن مدينة في الشام . . وكان الامير ابو عبيدة (رض) قد أعلم المسلمين
بمصالحة البطريق وامرهم ان يكفوا عن القتال والحرب . فلما سمع الترجمان كلام
اهل بعلبك لبطريقهم أخبر الامير ابا عبيدة (رض) بذلك ، فأقبل البطريق فقال له
ابو عبيدة : هات ما عندك والا نرد الحرب كما كان . فقال البطريق : دعني والقوم ،
فوحق الانجيل الصحيح وعيسى المسيح لو لم يقبلوا مني لادخلتك بالكثرة اليهم فتضع
السيف فيهم وتقتل رجالهم وتسبي نساءهم وتنهب اموالهم لاني خير بعورات بلدهم
وبطرقاتها . قال ابو عبيدة (رض) ما شاء الله كان . قال وكان الروم على سورهم

يسمعون كلام البطريق لابي عبيدة (رض) فدخل الزعب في قلوبهم ، فعند ذلك اقبل البطريق على الروم وقال لهم ما تقولون في صلح العرب ؟ فاني اسير في ايديهم ورجالهم وبنو عمكم في قبضتهم ، فان لم تصالحوا العرب والا يقاتلونا جميعا ويرجعوا اليكم من بعدنا .

فقالوا ايها السيد : انا لا نطبق هذا المال . فقالوا يا ويلكم علي وحدي ربع ما طلبوا فطابت قلوبهم بذلك وقالوا انا لا نفتح الباب الا لك وحدك ولا يدخل معك أحد من العرب حتى نصلح مدينتنا ونرفع رحالنا ونخفي حريمنا . فقال البطريق : ويحكم فاني قد صالحت القوم على أن لا يدخل مدينتكم أحد منهم ، وان الرجل الذي يخلفونه عليكم يكون هو وأصحابه خارج المدينة وتخرجون اليه سوفا يتسوقون منه . قال ففرحت الروم بذلك وفتحوا له الباب فدخل اليهم ، وبعث الامير ابو عبيدة الى سعيد بن زيد ان يخلي عن الرجال الذين هم في الضيعة ، يحاصرون فخلي سعيد بن زيد سبيلهم وجاء بهم عند الامير ابي عبيدة وأخذ سلاحهم وتركهم عنده رهائن على المال الذي عندهم لانه خاف ان تركهم أن يرجعوا الى المدينة ويفدروا بالمسلمين ، فتركهم عنده في عساكره ، هذا والبطريق في المدينة يجبي المال بعد اثني عشر يوما وهم مع ذلك يحملون الى عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الاموال والثياب والسلاح وحملها البطريق الى ابي عبيدة (رض) وقال له تسلم الاموال على ما وافقتك عليه واخل عن الرجال ، وانظر الى من تخلفه علينا من أصحابك فأحضره لنا حتى ن شرط عليه بحضرتك أن لا يجور علينا ولا يطالبنا بما لا نطبق ولا يدخل مدينتنا . قال فدعا ابو عبيدة برجل من سادات قريش اسمه رافع ابن عبدالله السهمي وقال له : يا رافع بن عبدالله استعملتك على هذه المدينة وضم اليك خمسمائة فارس من بني عمك وعشيرتك وأربعمائة فارس من اخلاط المسلمين ، واني آمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق ثقائه ولا تكن الا من الولاة العادلين ، واياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين . واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق . واعلم اني سمعت رسول الله (ص) يقول « ان الله تبارك وتعالى اوحى الى موسى بن عمران عليه السلام : أن يا موسى لا تظلم عبادي أخرب بيتك من نفسك » فأقم الارصاد في اطراف البلاد فانك بين أعدائك ، وبعد هذا ما عرفتك الا استيقاظا ، وأحذر من السواحل وشن الفارة عليهم ، ولتكن غارتك في المائة والمائتين ، ولا تمكن أحدا من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى يطمع عدوكم فيه ، وأحسن معاملة من ساعدك وأصلح بينهم وأمرهم بالعدل ، وكن بينهم كأحدهم ، وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية ، والله تعالى خليفتي عليك ، والسلام عليك .

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص

(قال الواقدي) ثم هم ابو عبيدة (رض) بالرحيل الى حمص ، واذ قد ورد عليه

صاحب عين الجوز يطلب منه الصلح فصالحه على نصف ما صالحه عليه اهل بعلبك وولى عليهم سالم بن ذؤيب السلمي واوصاه بمثل ما اوصي به رافع بن عبدالله ورحل الامير ابو عبيدة (رض) يطلب حمص ، فلما وصل الى بين الراس والكفيلة لاقاه صاحب الجوسية ومعه هذية كثيرة فقبلها منه وجدد معه صلحا ، وسار الامير ابو عبيدة (رض) حتى نزل على حمص .

(قال الواقدي) حدثنا حبان بن تميم الثقفي . قال : كنت فيمن اقام مع رافع بن عبدالله السهمي في جملة اصحابه ، وذلك اننا نصبنا بيوت الشعر على العمدة واقمنا خارج المدينة لا يدخل اليها احد منا ، ونحن مع ذلك نشن الفارة على سواحل الروم وتكبس على العرب التي لم تكن في صلحنا ، وكنا اذا خرجنا بي سرية نبيع الفنائم في بعلبك ، ففرح اهلها ببيعنا وشرائنا ووجدونا قوما ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم احد وطابت قلوبهم وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالا عظيما ، فلما نظر البطريق هرييس الى ما ربح اهل بعلبك منا في تجارتهم ورخص ما يشترونه منا جمعهم اليه في كنيسة المدينة وهي الجامع اليوم وكان ذلك بميعاد وعدهم فيه الاجتماع ، فلما اجتمعوا عنده اقبل عليهم وقال للتجار والباعة والسوقة : لقد علمتم اني قد اجتهدت في اموركم واحرصت على سلامة نفوسكم واهاليكم واولادكم وانتم تعلمون ما ذهب مني من المال ، وانا اليوم واحد منكم وقد سلمت مالي وسلاحي وقتل اكثر غلماني ورجالي وبنو عمي وانتم قوم قد اصبتم مع هؤلاء العرب خيرا كثيرا في هذه التجارات وقد اديت وحدي ربع المال ، فقالوا صدقت ايها البطريق وقد عرفنا كل ما وصفت فما الذي تريد الآن ؟ فقال يا قوم انما كنت قبل هذا اليوم بطريقكم وانا اليوم واحد منكم واريد ان تردوا علي بعض ما بذلت من المال للعرب . فقالوا ايها البطريق واني لك بذلك ؟ فقال البطريق : يا قوم الست اكلفكم ان تخرجوا من اموالكم ولا مما حوته منازلكم شيئا ، وانما اريد ان تجعلوا في هذه البيوع والاشربة العشر مما تاخذون وتعطون . قال فاضطرب القوم اضطرابا شديدا لذلك وعظم عليهم واقبل بعضهم على بعض وقالوا يا قوم هذا رجل منا وصاحب ملكنا وقد اجتهد في امورنا وحامي بعاله ونفسه عنا وما عسى يصيب منا في مالنا . قال فاجابوه الى ذلك وجعلوا له عليهم العشر فنصب عليهم من قبله عشارا يأخذ منهم اعشارهم ويجمعها ويحملها اليه فاقام على ذلك اربعين يوما ، فلما نظر هرييس الى كثرة ما قد اجتمع له من المال العشر قال : انا اعلم ان هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة ما راي اهل بعلبك مثل هذا ابدا ، ثم جمعهم في الكنيسة مرة ثانية وقال لهم يا قوم قد علمتم ما بذلت من المال على صلحكم وهذا الذي تعطوني اياه من العشر ليس يحزنني ، فان اردتم ان تردوا علي مالي وتجعلوني كأحدكم فاجعلوا الى الربيع في اموالكم حتى يرجع الي مالي سريعا والا فمتى اخلف من هذا العشر مالي وسلاحي وغلماني .

(قال الواقدي) فأبى القوم وضجوا عليه وأشهروا عددهم ووقفوا في الطريق بقلمانه فقطعوه اربا اربا وارتفع ضجيجهم ، فجزع المسلمون لذلك وهم لا يعلمون بالقصة فاجتمعوا الى أميرهم رافع بن عبدالله السهمي وقالوا أيها الأمير : أما تسمع أصوات هؤلاء القوم في مدينتهم . فقال يا قوم قد سمعت كما سمعتم فما عسى أن أصنع بهم ولا يحل لنا الدخول اليهم ، وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم ، ونحن أحق بمن أوفى بعهد الله تعالى ، فان هم خرجوا الينا وأعلمونا بأمرهم صالحنا بينهم ونظرنا في أمورهم .

(قال الواقدي) فما استتم الأمير رافع بن عبدالله كلامه حتى خرج أهل بعلبك يهرعون اليه ، فلما وقفوا بين يديه قالوا : انا بالله وبك أيها الأمير ، ثم أعلموه بقصتهم وما فعل البطريق بهم اول مرة وما فعل بهم ثاني مرة . قال رافع بن عبدالله انا لا نمكنه من ذلك ، فقالوا أيها الأمير انا قد قتلناه وجميع غلماناه فصعب ذلك على اصحاب رسول الله (ص) . فقال لهم رافع فما الذي تريدون ؟ . فقالوا نريد أن تدخلوا الى المدينة فانا قد أطلقنا لكم الدخول اليها . فقال رافع بن عبدالله انا لا أقدر أن أدخل المدينة الا باذن الأمير أبي عبيدة لانه ما اذن لي بذلك ، ثم كتب رافع بن عبدالله الى الأمير أبي عبيدة يعلمه بالقصة وبحديث البطريق وبحديثهم الذي قالوه ، فكتب له بالدخول الى المدينة كما قد اذنوا له فدخل رافع واصحابه .

(قال الواقدي) حدثنا موسى بن عامر قال حدثنا يونس بن عبدالله قال حدثنا سالم بن عدي عن جده عبد الرحمن بن مسلم الربيعي ، وكان ممن حضر فتوح الشام اوله وآخره . قال لما فتح الله بعلبك على يد المسلمين وترك أبو عبيدة رافع بن عبدالله وتوجه الى حمص للحوق بخالد بن الوليد ، فلما قرب من حمص موضع يقال له الزراعة وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسي وعقد له راية سوداء معلمة بالبياض ، وضم اليه خمسة آلاف فارس من المسلمين ، فلما سار ميسرة حتى وصل الى حمص خرج خالد بن الوليد (رض) الى لقائه وسلم عليه وعلى من معه من المسلمين ، ثم بعث أبو عبيدة بعده ضرار بن الازور في خمسة آلاف فارس وبعث بعده عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وقدم أبو عبيدة (رض) ببقية الجيش ، فلما اشرف أبو عبيدة على حمص قال : اللهم عجل علينا فتحها واخذل من فيها من المشركين واستقبلهم المسلمون بأجمعهم وسلموا عليه وعلى من معه ، ونزل أبو عبيدة (رض) على النهر المقلوب ، فلما استقر به القرار كتب الى أهل حمص وبطريقها الجديد وهو هريس كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على الشام وقائد جيوشه : أما بعد فان الله تعالى قد فتح علينا بلادكم ولا يفرنكم عظم مدينتكم وتشبيد بنيانكم وكثرة رجالكم ، فما مدينتكم عندنا اذا اتاكم الحرب الا كالبرمة قد نصبناها في وسط عسكرنا والقينا اللحم فيها وجميع العساكر يتوقع الاكل منها

وقد داروا بها ينتظرون نضجها واكل ما فيها ، ونحن ندعوكم الى دين ارتضاه لنا ربنا عز وجل ، فان اجبتم الى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالا منا يعلمونكم امر دينكم وما فرض الله تعالى عليكم ، وان ابيتم الاسلام قررناكم على اداء الجزية ، وان ابيتم الاسلام والجزية فهلموا الى الحرب والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، ثم طوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين ، وكان ذلك الرجل يحفظ بالعربية والرومية وقال له انطلق الى حمص واثنتنا بالجواب ، فأخذ المعاهد الكتاب وسار حتى وصل الى السور فهم اهل حمص ان يرموه بالسهم والحجارة . فقال لهم بالرومية : يا قوم امسكوا عليكم فاننا رجل معاهد وقد جئتم بكتاب من هؤلاء العرب .

(قال الواقدي) فدلوا له حبلا فربط وسطه به وشالوه اليهم واتوا به الى بطريقهم ، فلما وقف بين يديه خضع له وناولوه الكتاب . فقال له البطريق ارجعت عن دينك الى دين هؤلاء العرب ؟ قال لا ، ولكن في ذمتهم وعهدتهم انا واولادي واهلي ومالي وما راينا من القوم الا خيرا والصواب عندي ان لا تقاتلوهم ، فان القوم اولو بأس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم افضل من الحياة ، وقد أقسم بدينهم لا يبرحون عن مدينتكم حتى تسلموها اليهم او يفتحها الله على ايديهم ، وحق ديني انكم احب الي من العرب وأريد النصر لكم دون القوم ، ولكني خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا .

(قال الواقدي) فلما سمع البطريق هريس كلامه غضب غضبا شديدا ، وقال وحق المسيح والانجيل الصحيح لولا أنك رسول لامرت بقطع لسانك على جرائتك علينا ، فلما قرا الكتاب وعلم ما فيه امر كاتبه ان يكتب الى الامير ابي عبيدة بجواب كتابه فكتب كلمة الكفر . ثم قال يا معاشر العرب انه وصل الينا كتابكم وعلمنا ما فيه من التهديد والوعد والوعيد ولسنا كمن لاقيتم من اهل الشام ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاداه وعلى من قصد اليه من العساكر والآن فلا بد لنا من الحرب والقتال ، فان سورنا شديد وابوابنا حديد وحربنا عتيد والسلام . وطوى الكتاب وسلمه الى المعاهد وامر غلمانه ان يدلوه بالحبال من السور وسار حتى وصل الى الامير ابي عبيدة وسلمه الكتاب ففضه وقراه . . . فلما سمع المسلمون ما فيه عولوا على الحرب والقتال وقسم الامير ابو عبيدة عسكر المسلمين اربع فرق فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزاري فنزل بهم على باب الجبل مما يلي باب الصغير ، وبعث فرقة اخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن ابي وقاص فنزل بهم على باب الرستق ، وبعث فرقة اخرى مع يزيد بن ابي سفيان فنزل على باب الشام ونزل الامير ابو عبيدة وخالد بن الوليد على باب الصغير وزحف المسلمون اليهم من كل مكان وقاتلوهم بقية يومهم هذا وسهام الروم تصل اليهم فيتلقونها بالحجف ونبال العرب تصل اليهم والى من بأعلى السور فأثرت لاجل ذلك ضرا فانفضوا عند المساء ، فلما كان الغد جمع خالد

بن الوليد كل عبد كان في عسكر المسلمين وامرهم ان يتقلدوا بالسيوف ويتنكبوا بالحجف ويزحفوا الى سور حمص ويضربوا السور بأسياهم ويتلقوا السهام بحجفهم . فقال الامير ابو عبيدة : وما عسى ان يفني عنا هذا يا ابا سليمان ، فقال خالد (رض) على رسلك ايها الامير ولا تخالفني فيما صنعت فاني عزمتم ان اقاتلهم بالعبيد ونعلمهم ان ليس لهم عندنا من القدر شيء فما نقاتلهم بأنفسنا الا ان يخرجوا الينا ، فقال ابو عبيدة (رض) افعل ما شئت فالله تعالى يوفقك ، فعند ذلك امرهم خالد بن الوليد (رض) بالزحف على الاسوار وكانوا اربعة آلاف عبد ، وأمر خالد الفا من العرب ان تترجل معهم ففعلوا ذلك وزحفوا على السور ، وقد استتروا بالحجف والعرب من ورائهم فرموا بالنبل وضربوا بسيوفهم فمنها ما تثلم ، ومنها ما انكسر .

(قال الواقدي) وأشرف عليهم هرييس صاحب حمص ، وقد دارت بطارقه واصحاب الرتب فجعلوا يتأملون الى افعالهم ، فقال هرييس يا معاشر البطارقة وحق المسيح ما ظننت ان العرب بهذه الصفة واذا هم كلهم سودان . فقال له بعض من لحقه بأجنادين وسائر المواطن لا ايها السيد بل هؤلاء عبيدهم وهذه من بعض مكاييد العرب في الحرب وقد قدم هؤلاء السودان والعبيد الى حربنا وقاتلهم معنا ، وان ليس لنا عندهم من القدر ان يلقونا بأنفسهم او نخرج اليهم ، فقال هرييس وحق المسيح ان هؤلاء اشد من العرب بأسا وأقوى مراسا واعلموا انه ما لزق قوم بسور مدينتنا ولا دنوا منها الا وقد هان عليهم امرها واقترب على ايديهم فتحها .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان العبيد قاتلوا يومهم قتالا شديدا وهجموا على الابواب مرارا ولم يزالوا بقية يومهم حتى اقبل الليل ورجعت الموالي الى عسكر المسلمين وبعث هرييس من ليلته رسولا الى الامير ابي عبيدة (رض) فأقبل الرسول والظلام معتكر فأحس جيوش المسلمين به فهموا به ، فقال انا رسول من البطريق هرييس صاحب حمص وأريد الجواب عن هذا الكتاب فسلم اليهم كتاب هرييس فأخذه ابو عبيدة (رض) وقراه ، فاذا فيه : يا معاشر العرب انا ظننا ان عندكم عقلا تدبرون به الحرب وتستعينون به على الامور ، واذا انتم بخلاف ذلك لانكم في اول حربكم لنا تفرقتم على الابواب ، فقلنا هذا اشد ما يكون من الحصار وأعظم ما يقدرون عليه من الاضرار . .

فلما كان الفد تأخرتم عن حربنا وبعثتم هؤلاء المساكين الى حربنا يقطعون أسياهم ويكسرون سلاخهم فيا ليت شعري هل تصبر سيوفهم على فساد سورنا ، وقد بان لنا عجز رأيكم وتدبيركم في القتال وملاقة الرجال والان فأنا أشير عليكم بأمر فيه الصلاح لنا ولكم ، وهو ان تسيروا الى الملك هرقل وتفتحوا ما بين ايديكم كما فتحتما ما وراءكم واياكم واللجاج والبغي فانهما قاتلان لمن اتبعهما وراجعان على من بدأ بهما او نحن نخرج اليكم صبيحة هذه الليلة والله ينصر من يشاء منا ومنكم ممن على الحق .

قال فلما قرأ الامير أبو عبيدة كتاب هرييس صاحب حمص استشار المسلمين فيما يصنع ، وكان قد حضر عنده رجل كبير من اكابر خثعم وسيد من ساداتهم اسمه عطاء بن عمرو البختمي ، وكان كبير السن قديم الهجرة سديد الرأي قد قاد الرجال وولى امر الجيش وحزم العساكر ، فلما سمع كتاب هرييس وثب قائما على قدميه ، وقال للامير أبي عبيدة (رض) : أقسمت عليك أيها الامير برسول الله (ص) الا ما سمعت مقالتي ، فان فيه صلاحا للمسلمين فالله وفقني لمقالة أريد المسلمين بها ، قال أبو عبيدة (رض) : قل يا أبا عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين . قال فدنا من الامير أبي عبيدة وسارره ، وقال له أصلح الله الامير اعلم ان خبرك عند هؤلاء منذ نزلت على هؤلاء اللثام وهذا البطريق أشد منعة وأعظم جولة ممن كان قبله ، وقد علم بفتوح بعلبك وانك لا بد أن تنزل على حصارها ، وقد استدعى بالطعام والعلوفة وآلة الحصار ، وقد شحنا بالرجال وما ترك في رسائيقها وقراها طعاما الا وقد خزنوه ، عندهم ما يكفيهم أعواما ، وان نحن حاصرناهم يطول الامر كما طال امرنا على دمشق ، والرأي عندي أن تخدعهم بخديعة وتحتال عليهم بحيلة . فان تمت لنا عليهم الحيلة فتحنا المدينة عن قريب ان شاء الله تعالى . قال أبو عبيدة (رض) : وما الحيلة عندك يا ابن عمرو ؟ فقال الرأي عندي ان نكتب الى هؤلاء القوم ان يجبرونا بالزاد والعلوفة ونضمن لهم ان نرتحل عنهم الى ان يفتح الله تعالى عليك غير مدينتهم ونرجع اليهم ، وقد قل زادهم وانتشروا في سوادهم وتفرقوا في أمصارهم وتجاراتهم ونشن عليهم غارة فنملك ما ظهر منهم ويهون عليك أمر من بقي في حمص مع قلة الزاد والعلوفة ، فقال أبو عبيدة أصبت الرأي يا ابن عمرو اني سوف أفعل ما ذكرته ونرجو من الله التوفيق والعون .

ثم دعا أبو عبيدة (رض) بدواة وبياض وكتب جواب الكتاب يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فاني رأيت في قولك صلاحا لنا ولكم ولسنا نريد البغي على أحد من عباد الله عز وجل . وقد علمت ان عسكرنا كثير وخيلنا وابلنا كثير ، فان اردتم ان نرتحل عنكم فابعثوا لنا ميرة خمسة أيام وانتم تعلمون ان الطريق الذي أمامنا بعيد وما نلقي بعدكم الا كل حصن منيع وأبواب حديد فاذا مونتمونا رحلنا عنكم الى بعض مدائن الشام ، فاذا فتح الله علينا بعض مدائن الشام رجعنا عنكم كما زعمتم ، فان فعلتم ذلك كان صلاحا لكم . وطوى الكتاب وسلمه الى الرسول وسار الى حمص ، فلما قرأ هرييس الكتاب فرح بذلك وجمع الرؤساء والرهابين ، وقال لهم اعلموا ان العرب قد بعثوا يطلبون منكم الزاد والميرة حتى يرحلوا عنكم فان العرب مثلهم كمثلي السبع اذا وجد فريسته لم يرجع الى غيرها . وهم قد لحقهم الجوع في مدينتكم ، واذا اشبعناهم انصرفوا عنا . فقالوا أيها الامير : نخاف من العرب ان يأخذوا الزاد والعلوفة ولا يرحلوا عنا . فقال : انا نأخذ لكم عليهم العهود والمواثيق انكم اذا أمرتموهم يرحلون عنكم . فقالوا : افعل ما بدا لك ، واستوثق لنا ولك . قال فبعث هرييس وأحضر

القسوس والرهبان وأمرهم أن يخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة (رض) ويأخذوا عليهم العهود والمواثيق إذا أمرناهم يرحلون عنا .

قال فخرجوا وقد فتح لهم باب الرستن فساروا حتى وصلوا إلى الأمير أبي عبيدة وأخذوا عليهم ميثاقا وعهدا أن يرحلوا عنهم إذا هم ماروهم ولا يرجع عليهم حتى يفتح الله على يديه مدينة من مدائن الشام شرقا أو غربا سهلا كان أو جبلا ، فقال الأمير أبو عبيدة (رض) : قد رضيت بذلك وتم الصلح على ذلك ، وأخرج لهم أهل حمص مما كانوا قد ادخروه من الزاد والعلوفة شيئا عظيما له ولعسكره ما يكفيهم مدة خمسة أيام ، فأقبل أبو عبيدة عليهم ، وقال يا أهل حمص قبلنا ما حملتموه لنا من الزاد والعلوفة ، فإذا رأيتم الآن أن تبيعوا من الزاد والعلوفة ، فقالوا نحن نفعل ذلك ، فعندها نادى الأمير أبو عبيدة بشراء الزاد والعلوفة ولتكثرنا من ذلك ، فان قدامكم طريقا واسعا قليل الزاد والعلوفة ، فقالوا أيها الأمير بماذا نشترى الزاد ، وعلى أي شيء نحمله ؟ فقال أبو عبيدة من كان معه شيء من الذي غنمتموه من الروم فليشتر به الزاد والعلوفة . قال حسان بن عدي الفطفاني خفف الله عن أبي عبيدة الحساب كما خفف عنا ما كنا نحمله من البسط والطنافس مما كان قد أثقلنا وأثقل دوابنا فأخذنا به الزاد والعلوفة من القوم وكانت العرب تسمح لهم في البيع والشراء ويشترى منهم أهل حمص ما يساوي عشرين دينارا بدينارين ورغب أهل حمص في شراء الرخيص ولم يزل أهل حمص كذلك ثلاثة أيام وأهل حمص فرحون برحيل العرب عنهم . قال وكان للروم في عسكر العرب جواسيس وعيون يأخذون لهم الأخبار ، فلما نظرت الجواسيس إلى أهل حمص ، وقد فتحوا مدينتهم وهم يميرون العرب ظنوا أنهم دخلوا في طاعتهم فسارت الجواسيس إلى انطاكية طالبين وجعلوا كلما اجتازوا ببلد من البلد أو حصن من الحصون يقولون ان أهل حمص قد دخلوا في طاعة العرب وفتحوا مدينتهم صلحا فكان يعظم ذلك على الروم ويزيدهم خوفا ورعبا ، وكان ذلك توفيقا من الله عز وجل للمسلمين ، وكانت الجواسيس أربعين رجلا فدخل ثلاثة رجال منهم إلى شيزر فأشاعوا ذلك وأشيع فيها ذلك .

ذكر فتح الرستن

(قال الواقدي) وسار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرآها حصنا منيعا وماؤها غزير وهي مشحونة بالرجال والعدد العديد فبعث اليهم رسولا يأمرهم أن يكونوا في ذمته فأبوا ذلك ، وقالوا لا نفعل حتى نرى ما يكون من أمرهم مع الملك هرقل ، وبعد ذلك يكون ما شاء الله تعالى ، فقال الأمير أبو عبيدة (رض) فانا متوجهون إلى قتال الملك هرقل ومعنا رجال وأمتعة وقد أثقلتنا واشتهينا أن نودعها عندكم إلى وقت رجوعنا ، قال فأتى أهل الرستن إلى بطريقهم ، وكان اسمه نقيطاس وشاوروه في ذلك ، فقال يا قوم ما زالت الملوك والعساكر يودع بعضهم بعضا وما يضرنا

ذلك ، ثم بعث الى الامير ابي عبيدة يقول له مهما كان لك من حاجة فنحن نقضيها ونريد منكم المراعاة لاهل سوادنا حتى نرى ما يكون من امركم مع الملك هرقل ، فقال الامير ابو عبيدة : ونحن نفعل ان شاء الله تعالى .

(قال الواقدي) عن ثابت بن قيس بن علقمة . قال كنت ممن حضر عند ابي عبيدة (رض) ، فعند ذلك دعا اهل الراي والمشورة من اصحاب رسول الله (ص) وقال لهم ان هذا حصن شديد منيع ليس لنا الى فتحه سبيل الا بالحيله والخديعة واريد ان اجعل منكم عشرين رجلا في عشرين صندوقا وتكون الاقفال عندهم من باطنها ، فاذا صاروا في المدينة فثوروا على اسم الله تعالى فانكم تنصرون على من فيها من المشركين ، فقال خالد الوليد : فاذا عزمت على ذلك فلتكن الاقفال ظاهرة ويكون اسفل الصناديق اثني في ذكر من غير شيء يمسكها فاذا حل اصحابنا في حصن من هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة ويكبرون . فان النصر مقرون بالتكبير ، فأجابه ابو عبيدة الى ذلك واخذ صناديق الطعام المنتخبة عند الروم ففض أسافلها وجعلها ذكرا في اثني فأول من دخل في الصناديق ضرار بن الازور والمسيب ابن نجية وذو الكلاع الحميري وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والمرقال وهاشم بن نجعة وقيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ومالك بن الاشتر وعوف بن سالم وصابر بن كلكل ومازن بن عامر والاصيد بن سلمة وربيعه بن عامر وعكرمة بن ابي جهل وعتبة بن العاص ودارم بن فياض العبسي وسلمة بن حبيب والفارح بن حرملة ونوفل بن جرعل وجندب بن سيف وعبدالله بن جعفر الطيار وجعله اميرا عليهم وسلموا الصناديق الى الروم ، فلما حطت الصناديق في الرستن القاها نقيطاس في قصر امارته ، وارتحل الامير ابو عبيدة (رض) وسار حتى نزل في قرية يقال لها السودية ، فلما اظلم الليل بعث خالد بن الوليد (رض) بجيش الزحف الى الرستن ينظر ما يكون من اصحابه وما فعلت الصحابة (رض) فسار خالد بن الوليد برجاله حتى وصل القنطرة واذا بالصياح قد علا والتهليل والتكبير من داخل مدينة الرستن .

(قال الواقدي) كان من امر الصحابة انه لما تركهم نقيطاس في دار امارته ركب الى البيعة مع بطارقه واهل مدينته ليصلوا صلاة الشكر ، لاجل رحيل المسلمين عنهم وارتفعت اصواتهم بقراءة الانجيل وسمع اصواتهم اصحاب رسول الله (ص) فخرجوا من الصناديق وشدوا على انفسهم ، وشهروا سلاحهم وقبضوا على امرأة نقيطاس وحريمه وقالوا نريد مفاتيح الابواب فسلمتها اليهم ، فلما حصلت للمفاتيح في ايديهم رفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير وكبس القوم على ابواب مدينتهم فلم يجسروا عليهم لانهم بدون عدة وسلاح وبعث عبدالله بن جعفر الطيار ربعة بن عامر والاصيد بن سلمة وعكرمة ابن ابي جهل وعتبة بن العاص والفارح بن حرملة وسلم اليهم المفاتيح ، وقال افتحوا الابواب وارفعوا اصواتكم بالتهليل

والتكبير ، فان اخوانكم المسلمين من حول المدينة كاملون فتبادر الخمسة الى الباب القبلي وهو باب حمص وفتحوه ورفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة واذا هم بعسكر الزحف ، وعلى المقدمة خالد بن الوليد (رض) فأجابوهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وسمع اهل الرستن اصوات اصحاب رسول الله (ص) فعلموا انهم في قبضتهم وان مدينتهم قد اخذت من ايديهم فاستسلموا جميعا وخرجوا اليهم وقالوا لهم انا لا نقاتلكم ونحن الآن اسرى لكم فاعدلوا فينا فانتم احب الينا من قومنا .

قال فعرض خالد بن الوليد (رض) الاسلام عليهم فاسلم منهم كثير وبقي الاكثر يؤدون الجزية ، واما اميرهم نقيطاس فانه قال لا اريد بديني بدلا . فقال له خالد بن الوليد : الآن فاخرج باهلك عنا وحدث قومك بعدلنا فأخرجوه من الرستن فتوجه بأهله وامواله الى حمص ، وأعلى أهلها بفتح الرستن فصعب ذلك على أهل حمص وعلموا ان العرب تصبحهم او تمسيهم بالفارة وبعث عبدالله بن جعفر الطيار الى ابي عبيدة يخبره بالفتح والنصر فسجد لله شكرا وبعث اليهم ألف رجل من اليمن ووصاهم بحفظ الرستن وامر عليهم هلال بن مرة اليشكري ، فلما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد (رض) وعبدالله بن جعفر وأهلهم وعساكرهم وتوجهوا الى حماة وكان أهل حماة في صلح المسلمين كما ذكرنا وكذلك أهل شيزر الا ان بطريق أهل شيزر مات وبعث اليهم الملك هرقل بطريقا عاتيا جبارا اسمه نكس ففسخ الصلح واذاق أهل شيزر ضرا وشرا وكان يصادرهم ويأخذ أموالهم ويحتجب عنهم لاهيا في اكله وشربه ، فلما بلغ الخبر الامير ابا عبيدة بعث خيلا جريدة الى شيزر ففارت الخيل على بلدهم ووقعت الضجة بشيزر وسمع البطريق نكس الضجة فنزل اليهم من قلعته وأظهر لهم بعض حجابهم وجلس في بيعتهم المعظمة عندهم وجمع الرؤساء منهم وقال لهم يا أهل شيزر انتم تعلمون ان الملك هرقل قد استخلفني عليكم احفظ مدينتكم وامنع عن حريمكم واموالكم ثم فتح خزانة السلاح وفرق عليهم العدد وامرهم بالحرب والقتال فبينما القوم كذلك اذ اشرف عليهم خالد بن الوليد في أصحابه ومعه جيش الزحف فنزلوا بأزائهم واشرف بعده يزيد بن ابي سفيان بأصحابه فنزل عليهم واشرف بعد الامير ابو عبيدة في عساكره جميعهم ، فلما نظر أهل شيزر تلاحق العساكر بهم هالهم ذلك وعظم عليهم وخارت ابصارهم .

(قال الواقدي) فلما نظر ابو عبيدة (رض) كتب الى أهل شيزر كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد يا أهل شيزر فان حصنكم ليس بامنع من حصن بعلبك ولا من الرستن ولا رجالكم اشجع فاذا قرأتم كتابي هذا فادخلوا في طاعتي ولا تخالفوني فيكون وبالا عليكم وقد بلغكم عدلنا وحسن سيرتنا فكونوا مثل سائر من صالحنا ودخل في طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام . وطوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين وبعثه اليهم فلما وصل الكتاب اليهم أعطوه بطريقهم نكس فقرأه

عليه ، فلما فهم ما فيه قال : ما تقولون يا أهل شيزر فيما ذكرت العرب ؟ فقالوا : صدقت العرب أيها البطريق الكبير فان حصننا ليس بأمنع من الرستن ولا بعلبك ولا دمشق ولا بصرى وأنت أعلم شدة أهل حمص وحدة شجاعتهم ، وقد صالحوا العرب وكذلك أهل فلسطين ومدنها والاردن وحصنها ، فكيف تمنع عنهم شيزر وهي حصن لطيف فان عصيت هؤلاء العرب فانك معول على هلاكنا وخراب مدينتنا .

(قال الواقدي) وكثر فيهم الخطاب وعلا الكلام وأقبل البطريق نكس يسب أهل شيزر وأمر غلمانه بضربهم ، فلما نظر أهل شيزر ذلك غضبوا وأظهروا سلاحهم عليه وعلى غلمانه ووقع القتال بين الفريقين فعرف المسلمون ذلك وقالوا : اللهم اهلكهم ببأسهم . . . ولم يزل أهل شيزر في القتال حتى نصروا على البطريق وعلى غلمانه وقتلوه عن آخرهم ، ثم أخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة (رض) رجالا إلى لقائه بغير سلاح ، فلما وقفوا بين يدي الأمير أبي عبيدة سلموا عليه وقالوا أيها الأمير انا قتلنا بطريقنا في محبتكم ، قال : يا أهل شيزر بيض الله وجوهكم وأدر رزقكم فقد كفيتمونا الحرب والقتال ، ثم قال للمسلمين ألا ترون إلى حسن طاعة هؤلاء الروم وفعالهم ببطريقهم في محبتكم والدخول في طاعتكم ، وقد رأيت من الرأي أن أحسن إلى القوم وأنعم عليهم . فقال المسلمون نعم ما رأيت حتى يصل ما تصنع إلى غيرهم ويفتح الله علينا البلاد ان شاء الله تعالى .

(قال الواقدي) فأقبل على أهل شيزر ، وقال : أبشروا فاني لست أكره أحدا منكم فمن أحب منكم الدخول في ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا والخراج موضوع عنكم سنتين ومن أقام على دينه فعليه الجزية وقد وضعنا عنه الخراج سنة كاملة ، ففرح الروم بذلك ، وقالوا أيها الأمير سمعنا وأطعنا وهذا قصر بطريقنا فانت أحق بما فيه وهو هدية منا إليك فدونك وإياه وما فيه من الرجال ، والآنية والاموال ، فأخرج أبو عبيدة (رض) منها الخمس وقسم الباقي على المسلمين بالسوية ، ونادى أبو عبيدة (رض) : يا معاشرة المسلمين قد فتح الله على أيديكم هذه المدينة أسير فتح وأهونه ، وقد خرج أهل حمص من ذمتكم ووفبتهم لهم ما عاهدوكم عليه نأرجعوا بنا عليهم رحمكم الله تعالى .

(قال الواقدي) فركب المسلمون ظهور خيولهم وهموا بالمسير واذ قد لاح لهم غبرة مرتفعة من وراء النهر المقلوب وهي منقلبة من طريق انطاكية وقد أخذت عرضا فأسرعت خيل المسلمين إليها ، فإذا معها قسيس كبير من قسوس الروم ومعه مائة برذون موسوقة بالاحمال ومن حولها مائة عالج من علوج الروم يحفظونها .

(قال الواقدي) ولم يكن للقسيس خبر بنزول المسلمين على شيزر فصاح بهم خالد بن الوليد (رض) وكبر المسلمون معه وأحدقوا بهم من كل جانب وأخذوا العلوج أسرى وأخذوا البراذين ، وأقبل خالد على القسيس ، وقال له يا ويلك من أين أقبلت

بهذه الاحمال . قال فرطن القسيس بالرومية فلم يدر خالد ما يقول هذا القسيس الميشوم ، فبدا اليه رجل من اهل شيزر وقال يا ايها الامير انه يذكر انه من القسوس المعظمة عند الملك هرقل ، وقد بعثه وبعث معه الى هربيس هذه الاحمال فيها ديباج احمر منسوج بقضبان الذهب وعشرة احمال مملوءة دنانير وباقي الاحمال مملوءة من الثياب والدنانير فأخذوها وأخرجوا منها مالا عظيما وغنم المسلمون غنيمة عظيمة لم يفنموا مثلها ، وساق خالد بن الوليد الاحمال الى الامير ابي عبيدة (رض) فوجده على النهر المقلوب مما يلي شيزر وتحتته عباءة قطوانية وعلى رأسه مثلها تظله من حر الشمس فأقبل خالد بن الوليد (رض) بالقسيس فأوقفه بين يديه . فقال أبو عبيدة : ما هذا يا أبا سليمان . فقال خالد : انهم قوم من انطاكية ومعهم هدية لهربيس صاحب حمص من ملك الروم هرقل .

(قال الواقدي) وعرض عليه الغنيمة ففرح الامير أبو عبيدة بها فرحا شديدا وقال : يا أبا سليمان لقد كان فتح شيزر علينا مباركا ، ثم دعا بترجمان كان معه لا يفارقه ، وقال : اسأل هؤلاء عن ملك الروم الطاغية هرقل هل هو في جمع كثير ام لا ؟ فكلم الترجمان القسيس ساعة فقال القسيس : قل للامير ان الملك هرقل قد بلغه انكم فتحت دمشق وبعلبك وجوسية وأنكم لم تنزلوا على حمص فبعث معي هذه الهدية الى هربيس البطريق وكتب اليه يأمره بقتالكم ويعدده بالنجدة وقدم العساكر اليه لان الملك هرقل قد استنجد عليكم كل من يعبد الصليب ويقرأ الانجيل فأجابته الرومية والصقالبة والافرنج والارمن والدقس والمفليط والكرج واليونان والعلف والفرنجة واهل رومية وكل من يحمل صليبا والعساكر قد وصلت الى الملك هرقل من كل جانب ومكان قال فحدث الترجمان الامير أبا عبيدة (رض) بكل ما أعلمه القسيس به فعظم ذلك على الامير ابي عبيدة وعرض على القسيس الاسلام ، فقال القسيس للترجمان قل للامير ابي عبيدة اني البارحة رأيت رسول الله (ص) في المنام وقد أسلمت على يديه ففرح الامير أبو عبيدة بذلك وعرض على الاعلاج الاسلام فأبوا ذلك فضربت زقابهم ، ورحل أبو عبيدة (رض) متوجها الى حمص ، وقد سير الخيل جريدة في مقدمته فما يشعر أهل حمص الا والخيل قد أغارت عليهم فرجع القوم الى المدينة وقد غلقوا الابواب ، وقالوا غدرت العرب وحق المسيح . قال ونزل المسلمون حول حمص وداروا بها من كل جانب ومكان ، وقد نفذ الزاد من المدينة واكثر أهلها قد خرجوا الى تجارتهم وفي طلب الميرة ، وقد تفرقوا في البلاد فلما نزل الامير أبو عبيدة (رض) على حمص ، دعا بالعبيد والموالي وأمرهم أن يتفرقوا على الطرقات والمحارس وقال لهم كل من وجدتموه قد رجع الى حمص بزاد أو تجارة فائتوني به ، ففعل العبيد ذلك ، وصعب على هربيس صاحب حمص وكتب الى الامير ابي عبيدة كتابا يقول فيه : أما بعد يا معاشر العرب فانا لم نخبر عنكم بالغدر ولا بنقض العهد ، أستم صالحتونا

على الميرة فمرناكم ، فطلبتم منا البيع فابتعناكم فلم نقضتم ما عاهدناكم عليه ؟ فكتب
الامير ابو عبيدة (رض) يقول : اريد ان ترسل الى القسوس والرهبان الذين ارسلتهم
الي حتى اوقفهم على ما عاهدتهم عليه ليعلموك اننا لم نغدر ولا مثلنا من يفعل ذلك ان
شاء الله تعالى ، فلما قرا هرييس الكتاب احضر القسوس والرهبان وبعث بهم الى
الامير ابي عبيدة ، فخرجوا اليه وفتح لهم باب حمص وساروا الى ان وصلوا للامير
ابي عبيدة ، فسلموا عليه وجلسوا بين يديه ، فقال لهم ابو عبيدة (رض) الم تعلموا اني
عاهدتكم وحلفت لكم اني منصرف عنكم حتى افتتح مدينة من مدائن الشام سهلا كان
او جبلا ، ثم يكون الراي لي ان شئت رجعت اليكم او سرت الى غيركم فقالوا بلى وحق
المسيح ، فقال لهم : ان الله تعالى قد فتح علينا شيزر والرستن في اهن وقت ، وقد
غنمنا الله مال بطريقهم نكس وغيره مما لم تؤمله في هذه المدة اليسيرة والآن فلا عهد
لكم عندنا ولا صلح الا ان تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا وامانتنا ، فقال
القسوس والرهبان لقد صدقت ايها الامير ليس عليكم لوم وقد وفيتم بدمتكم ، وقد
بلغنا فتحكم شيزر والرستن والخطا كان منا اذ نستوثق لانفسنا والآن الامر بيد
بطريقنا ونحن نرجع اليه ونعلمه بذلك ، ثم رجعوا الى مدينتهم ودعا الامير ابو
عبيدة (رض) بالرجال والابطال واهل الحرب ، وقال : خذوا اهبتكم فان القوم بلا زاد
ولا مدد ياتي اليهم من عند طاغيتهم ولا نجدة فاستعينوا بالله وتوكلوا على الله . . .

فلبس المسلمون السلاح والعدد ورجعوا الى الابواب والاسوار واجتمع اهل حمص
بطريقهم هرييس وقالوا : ما عندك من الراي في امر هؤلاء العرب . فقال : الامر عندي
ان نقاتلهم ولا نريهم منا ضعفا قالوا فان الزاد قد نفذ من مدينتنا ، وقد اخذه القوم
منا وما سمعنا بمثل هذه الحيلة ، فقال هرييس : ما لكم تعجزون عن حرب عدوكم
وما قتل منكم قتيل ولا جرح منكم جريح ولم تصبكم شدة ولا جوع ، وانما اصابوا
منكم على غرة ولو دخلوا المدينة لما قدروا عليكم واقل الرجال على السور يكفيكم اياهم
وعندي من الزاد في قصري ما يعم كثيركم المدة الطويلة وما احسب ان الملك هرقل
يفغل وسيبلغه خبركم ويوجه العساكر .

(قال الواقدي) وكان عند البطريق هرييس في قصره جب عظيم مملوء طعاما
ففتحه وفرق الطعام على اهل حمص فسكنت بذلك نفوسهم وجعل البطريق يفرق
على كبيرهم وصغيرهم بقية يومهم ذلك ، وقد انحصر اهل حمص جميعهم فنقد ذلك
اليوم نصف ما في الجب وقال لهم اقنعوا بما اعطيتكم ثلاثة ايام وبرزوا الى حرب
عدوكم ، ثم اخذوا اهبة الحرب وعرض عسكره وانتخب منهم خمسة آلاف فارس
من اولاد الزراوة والعمالقة لا يساويهم غيرهم فيهم ألف مدبجة ملكية وفتح خزانة
جده جرجيس وفرق عليهم الدروع والجواتن والبيض والمفافر والقسي والنتاب
والحراب واقبل يحرضهم على القتال ويوعدهم بالمدد والنجدة من الملك هرقل . . .

تم دعا بالفسوس والرهبان وقال لهم : خذوا أهبتكم وادعوا المسيح أن ينصرنا على العرب فان دعاءكم لا يحجب ولا يرد قال فدخلوا كنيسةهم المعظمة عندهم وهي كنيسة جرجيس وهي الجامع اليوم ونشروا المزامير وضجوا بالتهمير واقبلوا يستهلون بكلمة الكفر وباتوا ببقية ليلتهم على مثل ذلك ، فلما كان الصباح دخل هرييس الى البيعة وتقرب وصلوا عليه صلاة الموتى فدخل قصره وقدم له خنوص مشوي فأكله حتى أتى على آخره وقدم بين يديه باطية الذهب والفضة فشرب حتى انقلبت عيناه في أم رأسه ثم لبس ديباجا محشوا بالفرو والزررد الصفار المضعف العدد ولبس فوقها درعا من الذهب الاحمر وعلق في عنقه صليبا من الياقوت ونقلد بسيف من صنعة الهند وقدم له مهر كالطود العظيم فاستوى على ظهره ، وخرج من قصره طالبا باب الرستن فأحاطت به بطارقه من الروم من كل جانب ومكان ، وفتحت أبواب حمص وخرجت الروم من كل جانب ومكان في عددهم وعديدهم وراياتهم وصلبانهم وبين يدي هرييس خمسة آلاف فارس من علوج الروم وهم بالعدد العديد ، والزررد النضيد ، فصفهم هرييس امام المدينة كأنهم سد من حديد ، أو قطع الجلمود ، وقد وطنوا نفوسهم على الموت دون اموالهم وذرائعهم فتبادر المسلمون اليهم مثل الجراد المنتشر ، وحملوا عليهم حملة عظيمة والعلوج كأنهم حجارة نابتة ماولوا عن مواضعهم ولا فكروا فيما نزل بهم ، فعندها صاح البطريق هرييس على رجاله وزجرهم فتبادرت الروم وصاح بعضهم ببعض وركب المسلمون وحملوا عليهم ورشقوا الرجال بالسهام واشتبكت الحرب واختلط الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا ما عليه من مريد ، الا ان المسلمين رجعوا القهقري ، وقد فشا فيهم القتل والجراح ...

فلما نظر الأمير ابو عبيدة الى ذلك من هزيمة المسلمين عظم عليه وكبر لديه وصاح فيهم بصوته يا بني القرآن الرجعة الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من أيام الله تعالى فاحملوا معي بارك الله فيكم فتراجع الناس وحملوا على اهل حمص حملة عظيمة وشدوا عليهم الحملة ، وحمل خالد بن الوليد (رض) في جمع كثير من بني مخزوم وجعلوا يضربون فيهم بسيوفهم ويطعنون برماحهم حتى طحنوهم طحن الحصيد ووضع المسلمون فيهم السيف ، وحمل ابن مسروق العبسي في طائفة من قومه من بني عبس ، وقد رفعوا اصوانهم بالتهليل والتكبير وصدموا الروم صدمة عظيمة فتراجعت الروم الى الاسوار وقد فشا فيهم القتل ، فبربرت الروم بلفاتها وتراجعت على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان ورشقت العلوج بالنشاب وطعنوا في المسلمين بالحراش ، وقد استتروا بالدرق والطوارق . قال فلما نظر خالد بن الوليد الى ذلك برز باللواء وكان هو صاحب اللواء يوم حمص وصاح خالد بأصحابه وقال شدوا عليهم بالحملة بارك الله فيكم فانها والله غنيمة الدنيا والآخرة . قال فبينما خالد بن الوليد يحرض أصحابه على القتال اذ حمل عليه بطريق من عظماء الروم وعليه لامة

مانعة وهو يهدر كالاسد فحمل خالد بن الوليد عليه وضربه على رأسه فوق سيفه على البيضة فطار السيف من يد خالد بن الوليد وبقيت قبضته في يده فطمع العليج فيه وحمل عليه ولاصقه حتى حك ركابه بركاب خالد وتعانقا جميعا بالسواعد والمناكب فضم خالد العليج الى صدره واحتضنه بيده وشد عليه بقوته فطحن اضلاعه وأدخل بعضها في بعض فأرداه قتيلا ، وأخذ خالد سيف العليج وهزه في يده حتى طار منه الشرر ووضع رأسه في قربوس سرجه وحمل وصاح في بني مخزوم فحملوا حملة عظيمة وهاجوا في أوساطهم وخالد بن الوليد (رض) يفرقهم يمينا وشمالا وهو ينادي برفيع صوته .

أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله (ص) ، ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد حتى توسطت الشمس في كبد السماء وحمى الدرع على خالد بن الوليد (رض) فخرج من المعركة وبني مخزوم يتقاطرون من خلفه والدم يسيل ملء درعهم وسواعدهم كأنها شقائق الأرجوان ، وخالد بن الوليد (رض) في أوائلهم وهو يقول :

ويل لجمع الروم من يوم شغب اني رايت الحرب فيه تلتهب
وكم لقوا منا مواقع النصب وكم تركت الروم في حال العطب

قال فناده الامير ابو عبيدة : لله درك يا أبا سليمان لله درك لقد جاهدت في الله حق جهاده ، فلما نظر المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى غفلة الروم صاح في بني زهرة وحملوا في ميمنة الروم وحمل ميسرة بن مسروق العبسي في قومه وحمل عكرمة بن أبي جهل وحوله جمع كثير من بني مخزوم ، وحمل المسلمون بأجمعهم وقد اطاعوا على الشهادة وأيقنوا بالعناية .

معركة حمص

(قال الواقدي) فلم يكن يوم حمص اشد حربا ولا اقوى جلدا من بني مخزوم غير ان عكرمة بن أبي جهل كان اشدهم بأسا واقداما وهو يقصد الاسنة بنفسه فقبل له اتق الله وارفق بنفسك ، فقال يا قوم انا كنت اقاتل عن الاصنام ، فكيف اليوم وأنا اقاتل في طاعة الملك العلام واني ارى الحور متشوقات الي ولو بدت واحدة منهن لاهل الدنيا لاغنتهم عن الشمس والقمر ولقد صدقنا رسول الله (ص) فيما وعدنا ، ثم سل سيفه وغاص في الروم ولم يزد الا اقداما وقد عجبت الروم من حسن صبره وقاتله . فبينما هو كذلك اذ حمل عليه البطريق هربيس صاحب حمص وبيده حربة عظيمة تضيء وتلتهب وهزها في كفه وضربه بها فوقعت في قلبه ومركت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله تعالى بروحه الى الجنة ، فلما نظر خالد بن الوليد الى ابن عمه وقد وقع صريعا اقبل حتى وقف عليه وبكى ، وقال يا ليت عمر بن الخطاب نظر الى ابن عمي صريعا حتى يعلم انا اذا لاقينا العدو ركبنا الاسنة ركوبا . قال ولم يزالوا في

الاهوال الشديدة حتى هجم الليل عليهم وتراجعت الروم الى مدينتهم وغلقوا الابواب وطلعوا على الاسوار ورجعت المسلمون الى رحالهم وخيامهم وباتوا ليلتهم يتحارسون ، فلما اصبح الصباح قال الامير ابو عبيدة (رض) : يا معاشر المسلمين ما بالكم قد صدكم هؤلاء القوم ؟ وبعد الطمع فيهم ما بالكم هزمتهم وجزعتم منهم والله البسكم عافية مجللة وسلامة سابغة وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع ، فما هذا التقصير والله تعالى مطلع عليكم ؟

فقال خالد بن الوليد (رض) : هؤلاء فرسان الروم اشد الرجال ليس فيهم سوقة ولا جبان ، وقد تعلم انهم يكونون اشد في الحرب لانهم يمنعون عن الداراي والنسوان . فقال ابو عبيدة (رض) : فما الراي عند يا ابا سليمان يرحمك الله ؟ . فقال خالد بن الوليد (رض) : ايها الامير قد رايت من الراي اننا ننكشف للقوم غدا وندع لهم سوائنا وابلنا فاذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالاسنة ونفطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم . فقال ابو عبيدة : نعم الراي ما رايت يا ابا سليمان ولقد اشرت واحسنت . قال وتواعد المسلمون على ان ينكشفوا بين ايدي الروم وان يتركوا لهم سوائهم ، فلما اصبح الصباح فتحت ابواب حمص وخرجت الروم من جميع الابواب وزحفوا يريدون القتال ، فسألهم العرب كفوا القتال واروهم التقصير والخوف واطمعوهم في انفسهم وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تضاحى النهار وانبسطت الشمس وطاب الحرب وطمعت الروم في المسلمين لما بان لهم من تقصيرهم فشدد الروم بالحملة عليهم ، فانهزمت العرب من بين ايديهم وتركوا سوائها .

قال نوفل بن عامر حدثنا عرفة بن ماجد النيمي عن سراقعة النخعي وكان ممن حضر يوم حمص . قال لما انهزمت العرب امام الروم وتبعنا هربيس البطريق في خمسة آلاف اشهب وكانوا اشد الروم . قال سراقعة بن عامر وانهزمتنا امام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية ، وادركتنا البطارقة وبعضهم مال الى السواد طمعا في الزاد والطعام .

(قال الواقدي) وكان بحمص قسيس كبير السن عظيم القدر عند الروم قد حنكته التجارب وعرف ابواب الحيل والخداع ، وكان عالما من علماء الروم وقد قرأ التوراة والانجيل والزبور والمزامير وصحف شيث وابراهيم ، وأدرك حوارى عيسى ابن مريم عليه السلام ، فلما اشرف ذلك القسيس ونظر الى العرب وقد ملك الروم سوادهم جعل يصيح ويقول وهو ينادي : وحق المسيح ان هذه خديعة ومكر ومكيدة من مكاييد العرب ، وان العرب لا تسلم اولادها وابلها ولو قتلوا عن آخرهم . قال وجعل القسيس يصيح وأهل حمص قد وقعوا في النهب وليس يفنيهم سوى الزاد والطعام ، والبطريق هربيس قد الح في طلب المسلمين في خمسة آلاف فارس ، فلما أبعدها عن المدينة صاح الامير ابو عبيدة (رض) برفيع صوته : اعطفوا على الروم كالسباع

الضارية والعقبان الكاسرة فردوا عليهم كردوسا واحدا حتى احاطوا بالطريق واصحابه من كل جانب وداروا بهم مثل الحلقة المستديرة واحدقوا بهم كاحداق البياض بسواد العين ، وبقيت الروم في اوساطهم كالشامة السوداء في الثور الابيض فعند ذلك نصبت العلوج نشابها على العرب ، والمسلمون يكرون عليهم مثل الاسود الضارية ويحومون عليهم كما تحوم النسور ويضربونهم بالسيوف ويصرعونهم يمينا وشمالا حتى انكسر اكثرهم .

(قال عطية بن فهر الزبيدي) فلما نظرت الروم الى فعلنا بهم تكالبت علينا ، فلما حميت الحرب ابتدر خالد بن الوليد (رض) من وسط العسكر وهو على جيّاد أشقر وعليه جوشن مذهب كان لصاحب بعلبك اهداه له يوم فتح بعلبك ، وكان خالد بن الوليد (رض) قد عمم نفسه بعمامة حمراء وكانت تلك العمامة عمامته في الحرب وجعل يهدر كالاسد الحردان وقد انتضى سيفه من غمده وهزه حتى طار منه الشرر ونادى برفيع صوته : رحم الله رجلا جرد سيفه وقوى عزمه وقاتل اعداءه فعندها انتضب المسلمون سيوفهم وصدموا الروم صدمة عظيمة ونادى الامير ابو عبيدة يا بني العرب قاتلوا عن حريمكم ودينكم واموالكم فان الله مطلع عليكم وناصركم على عدوكم . قال وكان معاذ بن جبل قد انفرد في خمسمائة فارس الى السواد والاموال وانقض على الروم فما شعرت الروح والعلوج ممن انغمس في الغارة وحمل الزاد والرحال والامتعة الا والطنن قد اخذهم بأسنة الرماح من كل جانب كأنها السنة النار المضرمة ونادى مناد يا فتيان العرب اطلبوا الباب لئلا ينجو احد من الروم برحالنا وأولادنا ، فجعل المسلمون يطلبون الابواب وكانت علوج الروم قد غرقت في رحال المسلمين ، فلما نظروا الى معاذ وقد حمل عليهم في رحاله عادت وقد رمت الرحال وطلبت الهرب فانفلت منهم من انفلت وقتل من قتل . قال صهيب بن سيف الفزاري : فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هرييس صاحب حمص الا ما ينوف عن مائة فارس . قال واتبعنا القوم الى الابواب فكان اعظم المصيبة قتلنا اياهم على الابواب ، لان اكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا في المدينة . قال سعيد بن زيد : شهدت يوم حمص وكنت ممن اولع بعدد القتلى فعددت خمسة آلاف وستة غير اسير وجريح فدنوت من الامير ابي عبيدة (رض) وقلت البشارة ايها الامير فاني عددت خمسة آلاف وستة غير اسير وجريح . فقال الامير ابو عبيدة بشرت بخير يا سعيد يا ابن زيد فهل ترى قتل بطريقهم هرييس . فقال سعيد بن زيد : ايها الامير اذا كان قتل بطريقهم هرييس فما قتله غيري . فقال الامير ابو عبيدة وكيف علمت انه قتيلك يا سعيد . فقال سعيد بن زيد : ايها الامير اني رأيت فارسا عظيم الخلقة طويلا ضخما أحمر اللون وبيده سيف وعليه لامة حربه صفتها كذا وكذا وهو في وسط الروم كأنه البعير الهائج فحملت عليه وقتلت في حملتي : اللهم اني اقدم قدرتك على قدرتي وغلبتك

على غلبتي : اللهم اجعل قتله على يدي وارزقني أجره . فقال له أبو عبيدة أما اخذت سلبه يا سعيد . قال لا ، ولكن علامتي فيه نبلة من كنانتني اثبتها في قلبه فخر يهوي عن جواده ونفرت عنه أصحابه فلحقته فضربته بسيفي ضربة فصرمت حقوته ونبلتي في قلبه . قال أبو عبيدة (رض) أدركوه رحمكم الله وسلموا سلبه الى سعيد ففعلوا ذلك . (قال الواقدي) فلما اخذت الحرب أوزارها أخذ المسلمون الاسلاب والدروع والشهابي ومثلوا الجميع امام الامير ابي عبيدة (رض) فأخرج منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقي على المجاهدين . قال ووقع الصياح والبكاء في حمص على من قتل منهم من فرسان الكفار ورجالهم . قال واجتمع مشايخ حمص ورؤساؤهم الى بيعتهم وتحدثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص الى المسلمين ، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم الى ابي عبيدة (رض) وصالحوه على تسليم المدينة اليه وأن يكونوا تحت ذمائه وأمانه ، فصالحهم أبو عبيدة (رض) ، وقال لست ادخل مدينتكم حتى نرى ما يكون بيننا وبين الملك هرقل وأراد اهل حمص أن يكرموا المسلمين بالاقامة والعلوفة فنهاهم الامير أبو عبيدة عن ذلك ولم يدخل احد من المسلمين الى حمص الا بعد وقعة اليرموك كل ذلك ليتقرب المسلمون الى الروم بالعدل وحسن الصحبة .

(قال جرير بن عوف) حدثنا حميد الطويل . قال حدثني سنان بن راشد اليربوعي . قال حدثنا سلمة بن جريج قال حدثنا النجار وكان ممن يعرف فتوح الشام ، قال لما صالحنا اهل حمص بعد قتل هرييس خرج اهل حمص ودفنوا قتلاهم فافتقدنا القتلى الذين استشهدوا من أصحاب رسول الله (ص) فوجدنا من استشهد من المسلمين مائتين وخمسة وثلاثين فارسا كلهم من حمير وهمدان الا ثلاثين رجلا من اهل مكة : وهم عكرمة بن أبي جهل وصابر بن جرىء والريس بن عقيل ومروان بن عامر والمنهال بن عامر السلمي ابن عم العباس (رض) ، وجمع بن قادم ، وجابر بن خويلد الربيعي ، فهؤلاء من المسلمين الذين استشهدوا يوم حمص والباقون من اليمن وهمدان ومن أخلاط الناس .

ذكر وقعة اليرموك

(قال الواقدي) واتصلت الاخبار الى الملك هرقل أن المسلمين ، قد فتحوا حمص والرسن وشيزر ، وقد أخذوا الهدية التي بعثها الى هرييس البطريق فبلغ ذلك منه دون النفس وأقام ينتظر الجيوش والعساكر من أقصى بلاد الروم لانه قد كان كاتب كل من يحمل الصليب فما مضى عليه الا أيام قلائل حتى صار أول جيوشه عنده بانطاكية وآخرها في رومية الكبرى وانه بعث جيشا الى قيسارية ساحل الشام يكون حفظه على عكاء وطبرية وبعث بجيش آخر الى بيت المقدس وأقام ينتظر قوم ماهان الارمني ملك الارمن ، وقد جمع من الارمن ما لا يجمعه احد من أهالي الملك هرقل ، وبعد أيام قدم على الملك هرقل للقاءه في أرباب دولته ، فلما قرب منه ترجل ماهان

وجنوده وكفروا بين يديه ورفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب مما وصل اليهم من فتح المسلمين بلادهم فنهاهم عن ذلك ، وقال يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد حذرتكم وخوفتكم من هؤلاء العرب ولم تقبلوا مني فوحق المسيح والانجيل الصحيح والقربان ومذبحنا المعمدان لا بد لهؤلاء العرب أن يملكوا ما تحت سريري هذا والآن البكاء لا يصلح الا للنساء ، وقد اجتمع لكم من العساكر ما لم يقدر عليه ملك من ملوك الدنيا ، وقد بذلت مالي ورجالي كل ذلك لاذب عنكم وعن دينكم وعن حريمكم فتوبوا للمسيح من ذنوبكم وانووا للرعية خيرا ولا تظلموا وعليكم بالصبر في القتال ولا يخامر بعضكم بعضا واياكم والعجب والحسد فانهما ما نزلا بقوم الا ونزل عليهم الخذلان واني اريد ان اسألكم واريد منكم الجواب عما أسألكم عنه ، فقالت العظماء من الروم والملوك : اسأل ايها الملك عما شئت .

قال : انكم اليوم اكثر عددا واغزر مددا من العرب واكثر جمعا واكثر خياما واعظم قوة فمن ابن لكم هذا الخذلان وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم وتفزع من حربكم وشدتكم ، وقد قصدوا اليكم مرارا ورجعوا منكسرين والآن قد علا عليكم العرب وهم اضعف الخلق عراة الاجساد جياع الاكباد ولا عدد ولا سلاح ، وقد غلبوكم على بصرى وحوران واجنادين ودمشق وبعليك وحمص قال فسكت الملوك عن جوابه ، فعندها قام قسيس كبير عالم بدين النصرانية ، وقال ايها الملك اما تعلم لم نصرت العرب علينا ؟ قال لا وحق المسيح ، فقال القسيس ايها الملك لان قومنا بدلوا دينهم وغيروا ملتهم وجحدوا باجابه المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه وظلموا بعضهم وليس فيهم من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وليس فيهم عدل ولا احسان ولا يفعلون الطاعات وضيعوا اوقات الصلوات واكلوا الربا وارتكبوا الزنا وفشت فيهم المعاصي والفواحش ، وهؤلاء العرب طائعون لربهم متبعون دينهم رهبان بالليل صوام بالنهار ولا يفترون عن ذكر ربهم ولا عن الصلاة على نبيهم وليس فيهم ظلم ولا عدوان ولا يتكبر بعضهم على بعض شعارهم الصدق ودثارهم العبادة ، وان حملوا علينا لا يرجعون ، وان حملنا عليهم فلا يولون ، وقد علموا ان الدنيا دار الفناء ، وان الآخرة هي دار البقاء .

(قال الواقدي) فلما سمع القوم والملك هرقل ما قاله القسيس ، قالوا : وحق المسيح لقد صدقت ، بهذا نصرت العرب علينا لا محالة ، واذا كان فعل قومنا ما ذكرت فلا حاجة لي في نصرتهم واني قد عولت ان اصرف هذه الجيوش والعساكر الى بلادها واخذ اهلي ومالي وانزل من ارض سورية وارحل الى اسبوك ، يعني القسطنطينية فاكون هناك آمنا من العرب ، قال فلما سمع القوم ذلك من الملك صفوا بين يديه ، وقالوا ايها الملك لا تفعل ولا تخذل دين المسيح فيطالبك بذلك يوم القيامة وتعيرك الملوك بذلك ويستضعفون رايتك وايضا تشمت بنا اعداؤنا اذا انت خرجت من جنة

الشام وسكن بعدنا فيها العرب ، وقد اجتمع لنا مثل هذا الجيش الذي ما اجتمع
لملك من ملوك الدنيا ، ونحن نلقى العرب ونصبر على قتالهم ولعل المسيح أن ينصرنا
عليهم فاعزم وقدم من شئت واطركننا ننهض الى قتال العرب .

قال ففرح الملك هرقل بقولهم ونشاطهم وعول على أن يبعث الجيش مع خمسة
ملوك من الروم ، فأول ما عقد لواء من الديباج المنسوج بالذهب الاحمر وعلى رأسه
صليب من الجواهر وسلمه الى قناطير ملك الروسية وضم اليه مائة ألف فارس من
الصقالبة وغيرهم وخلع عليه وتوجه ومنطقه وسوره ، ثم عقد لواء آخر من الديباج
الابيض فيه شمس من الذهب الاحمر وعلى رأسه صليب من الزبرجد الاخضر وسلمه
الى جرجير وهو ملك عمورية وملورية وخلع عليه وسوره ومنطقه وضم اليه مائة ألف
فارس من الروم والفردانة ومن سائر الاجناس الرومية ، ثم عقد لواء ثالثا من
الدستري الملون عليه صليب من الذهب الاحمر وسلمه الى الديرجان صاحب
القسطنطينية وضم اليه مائة ألف فارس من المغليط والافرنج والقلن وخلع عليه
ومنطقه وسوره .

ثم عقد لواء رابعا مرصعا بالدر والجواهر عليه قبضة من الذهب وعليه صليب
من الياقوت الاحمر وسلمه الى ماهان ملك الارمن وكان يحبه محبة عظيمة لانه كان من
اهل الشجاعة والتدبير ، وقد قاتل عساكر الفرس والترك وهزمهم مرارا فلما عقد
له لواء خلع عليه الثياب التي كانت عليه وتوجه وسوره ومنطقه وقلده بالقلائد التي
لا يتقلد بها الا الملوك الاكابر ، وقال له يا ماهان : قد وليتك على هذا الجيش كله ولا
أمر على أمرك ولا حكم على حكمك . ثم قال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين
وهم ملوك الجيش : اعلموا أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم اليه فلا تصنعوا
أمرا الا بمشورته ورأيه واطلبوا العرب حيث كانوا ولا تفشلوا ، وقاتلوا عن دينكم
القديم وشرعكم المستقيم وافترقوا على أربع طرق فانكم ان أخذتم على طريق واحدة
لم تسعكم وتهلكوا الارض ومن عليها . ثم خلع على جبلة بن الايهم الفساني وضم اليه
العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام ، وقال لهم : كونوا في المقدمة ، فان هلاك كل
شيء بجنسه والحديد لا يقطعه الا الحديد ، ثم أمر القسوس أن يغمسوهم في ماء
المعمودية ويقرءوا عليهم ويصلوا عليهم صلاة الموتى .

(قال حدثنا) نوفل بن عدي عن سراقه عن خالد . قال أخبرنا قاسم مولى
هشام بن عمرو ابن عتبة ، وكان ممن حضر فتوح الشام كله ، قال : فكانت جملة من
بعث الملك هرقل الى اليرموك من العساكر ستمائة ألف فارس من سائر طوائف أهل
الكفر ممن يعتقد الصليب .

(قال وحدثنا) جرير بن عبدالله عن يونس بن عبد الأعلى أن جملة من بعث
الملك هرقل سوى جيش انطاكية الى اليرموك سبعمائة ألف فارس . قال راشد بن

سعيد الحميري كنت احضر اليرموك من اوله الى آخره ، فلما اشرفت علينا عساكر الروم باليرموك نحونا صعدت على سحر من الارض مرتفع واقبلت الروم بالرايات والصلبان فعددت عشرين راية . فلما استقرت الروم باليرموك بعث الامير ابو عبيدة (رض) روماس صاحب بصرى ليحذر عدد القوم . قال فتنكر روماس وغاب عنا يوما وليلة ، ثم عاد الينا . فلما رأيناه اجتمعنا عنده وسأل ابو عبيدة روماس عن ذلك . فقال ايها الامير سمعت القوم يذكرون ان عددهم الف الف فلا ادري اهم يتحدثون بذلك ليسمع جواسيسنا ويحدثوا بذلك أم لا ؟ فقال ابو عبيدة يا روماس كم عهدك بهم وكم يكون تحت كل راية من عساكر الروم ؟ فقال ايها الامير : اما ما عهدت في عساكر الروم فتحت كل راية خمسون الف فارس ، فلما سمع ابو عبيدة ذلك . قال الله اكبر ابشروا بالنصر على الاعداء ، ثم قرأ الآية - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين -

(قال الواقدي) ثم ان الملك هرقل لما قلد امر جيوشه ماهان ملك الارمن وامره بالنهوض الى قتال المسلمين ركب الملك هرقل وركب الروم وضربوا بوق الرحيل وخرج الملك هرقل ليتبع عساكره على باب فارس وسار معهم يوصيهم ، وقال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين : ليأخذ كل رجل منكم طريقا وامر كل واحد منكم نافذ على جيشه . فاذا لقيتم العرب فالامر فيكم لماهان ، ولا يد على يده ، واعلموا انه ليس بينكم وبين هؤلاء الا هذه الواقعة ، فان غلبوكم فلا يقنعوا ببلادكم بل يطلبونكم حيث سلكتهم ولا يقنعون بالمال دون النفس ويتخذون حريمكم وأولادكم عبيدا فاصبروا على القتال وانصروا دينكم وشرعكم .

(قال الواقدي) ثم وجه قناطير بجيشه على طريق جبلة واللاذقية ، وبعث جرجير على طريق الجادة العظمى وهي ارض العراق وسومين ، وبعث قورين على طريق حلب وحماة ، وبعث الديرجان على ارض العواصم وسار ماهان في اثر القوم بجيوشه والرجال امامه ينحتون له الارض ويزيلون من طريقهم الحجارة ، وكانوا لا يمرون على بلد ولا مدينة الا اضروا بأهلها ويطلبونهم بالعلوفة والاقامات ولا قدرة لهم بذلك فيدعون عليهم ويقولون لاردكم الله سالمين . قال وجبلة بن الايهم في مقدمة ماهان ومعه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجدام .

(قال الواقدي) حدثني من اتق به ان الطاغية هرقل لما بعث جيوشه الى قتال المسلمين ، وكان للامير ابي عبيدة في جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون له الاخبار ، فلما وصل جيش الروم الى شيزر فارقتهم عيون ابي عبيدة وساروا طالبين عسكر المسلمين فلم يجدوهم على حمص فسألوهم عنهم فأخبروهم انهم حلوا لان الامير ابا عبيدة (رض) لما فتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذي تركه عندهم رجال من اهل حمص من كبرائهم ورؤسائهم وجعل الجواسيس

يسرون حتى وصلوا الى الجابية وحضروا بين يدي الامير ابي عبيدة (رض) واخبروه بما راوه من عظم الجيوش والعساكر ، فلما سمع ابو عبيدة ذلك عظم عليه وكبر لديه ، وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وبات قلقا لم تغمض له عين خوفا على المسلمين ، فلما طلع الفجر اذن فصلى بالمسلمين ، فلما فرغ من صلاته أقسم على المسلمين ان لا يبرحوا حتى يسمعوا ما يقول ، ثم قام فيهم خطيبا وحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي (ص) ، وترحم على ابكر الصديق (رض) ودعا للمسلمين بالنصر ، وقال : يا معاشر المسلمين اعلموا رحمكم الله ان الله ابتلاكُم ببلاء حسن لينظر كيف تعملون وذلك عندما صدقكم الوعد وايدكم بالنصر في مواطن كثيرة ، واعلموا ان عيوني اخبروني ان عدو الله هرقل استنجد علينا من كبار بلاد الشرك ، وقد سيرهم اليكم وانقلهم بالزاد والسلاح - يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون - واعلموا انهم قد ساروا اليكم في طرق مختلفة ووعدهم طاعتهم ان يجتمعوا بازائكم على قتالكم ، واعلموا ان الله معكم وليس بكثير من يخذله الله تعالى وليس بقليل من يكون الله تعالى معه فما عندكم من الرأي رحمكم الله تعالى ؟ ثم قال لبعض عيونه قم واخبر المسلمين بما رايت فقام الرجل واخبر الناس بما راي من الجيوش الثقيلة وعددها وعبيدها ، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع ، وجعل بعضهم ينظر الى بعض ولم يرد احد منهم جوابا ، فقال ابو عبيدة (رض) ما هذا السكوت عن جوابي رحمكم الله فاشيروا على ايديكم . فان الله عز وجل يقول لنبيه محمد (ص) - وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل عن الله - .

(قال الواقدي) فتكلم رجل من اهل السبق وقال ايها الامير : انت رجل لك رفعة ومكان وقد نزلت فيك آية من القرآن ، وانت الذي جعلك رسول الله (ص) امين هذه الامة . فقال عليه السلام : لكل امة امين وامين هذه الامة ابو عبيدة (رض) عامر بن الجراح اشر انت علينا بما يكون فيه الصلاح للمسلمين . فقال الامين ابو عبيدة (رض) : انما انا رجل منكم تقولون واقول وتشيرون وأشير والله الموفق في ذلك . فقام اليه رجل من اهل اليمن ، وقال : ايها الامير الذي نشير به عليك ان تسير من مكانك وتنزل في فرجة من وادي القرى ، فيكون المسلمون قريبا من المدينة والنجدة تصل الينا من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) واذا طلب القوم اثرنا واقبلوا الينا كنا عليهم ظاهرين . فقال الامير ابو عبيدة (رض) : اجلسوا رحمكم الله فقد اشرتُم بما عندكم من الرأي واني ان برحت من موضعي هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك واخذ يعنفني ويقول تركت مدائن فتحها الله على يدك ونزحت عنها ، وكان ذلك هزيمة منك ، ثم قال اشيروا علي برايكُم رحمكم الله تعالى .

فقام اليه قيس بن هبيرة المرادي وقال يا امير المؤمنين لاردنا الله الى اهلنا سالمين ان خرجنا من الشام ، وكيف ندع هذه الانهار المتفجرة والزروع والاعناب والذهب

والفضة والديباج ونرجع الى قحط الحجاز وجد به واكل خبز الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش الرغد ، فان قتلنا فالجنة وعدنا ونكون في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا . فقال أبو عبيدة (رض) صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق ، ثم قال يا معشر المسلمين اترجعون الى بلاد الحجاز والمدينة وتدعون لهؤلاء الاعلاج قصورا وحصونا وبساتين وأنهارا وطعاما وشرابا وذهبا وفضة ما لكم مع ما لكم عند الله عز وجل في دار البقاء من حسن الطعام ولقد صدق قيس بن هبيرة في قوله لنا ولسنا ببارحين منزلنا هذا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال فوثب قيس بن هبيرة وقال صدق الله قولك أيها الامير وأعانك على ولايتك ولا تبرح من مكانك وتوكل على الله وقاتل أعداء الله ، فان فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل . فقال أبو عبيدة (رض) شكر الله فضلك وغفر لنا ولك والرأي رأيك وتتابع قول المسلمين بحسن رأيهم الا خالد بن الوليد (رض) فانه ساكت لا يقول شيئا . فقال أبو عبيدة (رض) يا أبا سليمان أنت الرجل الجريء والفارس الشهم ومعك رأي وعزم فما تقول فيما قال قيس بن هبيرة . فقال خالد (رض) نعم ما أشار به قيس الا ان الرأي عندي غير رايه ولكن لا أخالف المسلمين ، فقال ان كان عندك رأي فيه صلاح فأت به وكلنا لرأيك تبع ، فقال خالد بن الوليد (رض) اعلم أيها الامير انك ان اقمتم في مكانك هذا فانك تعين على نفسك ، لان هذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها قسطنطين ابن الملك هرقل في أربعين ألف فارس وأهل الاردن قد اجتمعوا اليه خوفا منكم ، والذي أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أذرعاً خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك ، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) قريبا منكم متلاحقا بكم وانتم على فتح لقتال عدوكم وهي أرض واسعة لمجال الخيل . قال فلما نطق خالد بن الوليد بهذا الكلام . قال المسلمون نعم ما أشار به خالد ، وقال أبو سفيان بن حرب أيها الامير : افعل برأي خالد بن الوليد (رض) وابعته الى ما يلي الرمادة فيكون بين عساکرنا وعساکر الروم المقيمة بالاردن لئلا ندهي منهم عند رحيلنا فانه سيكون لرحيلنا ورحيل عساکرنا بين هذه الاشجار ضجة عظيمة وجلبة هائلة فيداخل عدوكم فيكم الطمع فان اقبلوا يريدون غارة ومكيدة لقيهم خالد بن الوليد (رض) بمن معه . فقال خالد بن الوليد والله يا ابن حرب لقد نطقت عن ضميري وهكذا الرأي عندي .

فعند ذلك أمر أبو عبيدة الناس بالرحيل من الجابية فرحلوا ودعا أبو عبيدة بجيش خالد بن الوليد الذي أقبل به من أرض العراق وهو جيش الزحف وهو يومئذ أربعة آلاف فارس وأمر خالد بن الوليد (رض) أن يسير بهم ويكون على طلائع المسلمين وحرسهم من وراء ظهورهم . قال ووقعت الضجة للمسلمين عند رحيلهم حتى سمع ضجيجهم من مسيرة فرسخين وطلبوا اليرموك وسمع الروم المجتمعة بالاردن ضجة المسلمين عند رحيلهم فظنوا أنهم هاربون الى الحجاز لما بلغهم من جيش هرقل فطمعوا

فيهم وهموا بالغارة على أطرافهم فلقبهم خالد بن الوليد (رض) فصاح في رجاله وقال دونكم والقوم فهذه علامة النصر ، قال فانتضى المسلمون السيوف ومدوا الرماح وحمل خالد بن الوليد (رض) وحمل ضرار بن الأزور (رض) والمرقال وطلحة بن نوفل العامري وزاهد بن الأسد وعامر بن الطفيل وابن أكال الدم وغير هؤلاء من الفرسان المعدودين للبراز فلم يكن للروم طاقة بهم فولوا منهزمين والمسلمون يقتلون ويأسرون حتى وصلوا إلى الأردن ففرق منهم خلق كثير ، ورجع خالد بن الوليد (رض) ، وأما الأمير أبو عبيدة فإنه نزل باليرموك وجعل أذرعاً من خلفه وكان هناك تل عظيم فعمد أبو عبيدة (رض) إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك التل وأقام الحراس والطلائع على سائر الطرقات ، فلما وصل خالد بن الوليد (رض) بالأسارى والغنائم فرح أبو عبيدة (رض) فرحاً شديداً ، وقال : أبشروا رحمكم الله تعالى هذه علامة النصر والظفر وأقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعداً وعدوا به وبلغ الخبر إلى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك ، وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم فبعث رسولا إلى الملوك يستضعف رأيهم في إبطاء أمرهم ويحثهم على قتال المسلمين ، فلما ورد رسوله إلى ماهان دعا بالملوك والبطارقة وقرا عليهم كتاب قسطنطين ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير ، فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضاً لا يمرون ببلد من مدائن الشام التي فتحها المسلمون إلا ويعنفون أهلها ويقولون لهم : يا ويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم إلى العرب . فيقولون لهم انتم أحق باللامة منا لأنكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن أنفسنا فيعرفون الحق فيسكتون ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولا وعرضا ، فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله (ص) وكان جبلة بن الأيهم في المقدمة في ستين ألف فارس من العرب المنتصرة من غسان ولخم وجدام وهم على مقدمة ماهان ، فلما نظر أصحاب رسول الله (ص) إلى كثرة جيوش الروم قالوا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال عطية بن عامر : فوالله ما شبهت عساكر اليرموك إلا كالجراد المنتشر إذا سد بكثرته الوادي . قال ونظرت إلى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأبو عبيدة (رض) يقول - ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين - قال وأخذ المسلمون أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسسون له خبر القوم وعددهم وعديدهم وسلاحهم ، وقال أبو عبيدة (رض) : أنا أرجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا .

(قال الواقدي) فلما نزل ماهان بعساكره بأداء المسلمين على نهر اليرموك أقام

اياما لا يقاتل ولا يثير حربا .

جيلة بن الايهم

(قال الواقدي) وكان تأخير ماهان لامر ، وذلك أن رسولا ورد عليه من الملك هرقل يقول له لا تنجز الحرب بينك وبين المسلمين حتى نبعث اليهم رسولا ونعدهم منا كل سنة بمال كثير وهدايا لصاحبهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم ، ويكون لهم من الجابية الى الحجاز ، فلما وصل الرسول الى ماهان قال هيهات هيهات ان كانوا يجيبون الى ذلك أبدا . فقال له جرجير وهو من بعض ملوك الجيش وما عليك في هذا الذي ذكره الملك هرقل من المشقة . فقال ماهان : اخرج أنت اليهم وادع منهم رجلا عاقلا وخاطبه بالذي سمعت واجتهد في ذلك . قال فلبس جرجير ثياب الديباج وتعصب بعصابة من الجواهر وركب شهباء عالية . بسرج من الذهب الاحمر المرصع بالدر والجواهر وخرج معه ألف فارس من المدبجة ، وسار حتى أشرف على عساكر المسلمين ، ووقف جرجير أصحابه وقرب من المسلمين ووقف بازائهم وقال يا معاشر العرب أنا رسول من الملك ماهان فليخرج الي أميركم والمقدم عليكم حتى نعرض عليه مقالنا ولعلنا نصطليح ولا نسفك دم بعضنا . قال فسمعه المسلمون فأعلموا الأمير ابا عبيدة (رض) بذلك فخرج بنفسه اليه وعليه ثوب من كرايس العراق وعلى رأسه عمامة سوداء وهو متقلد بسيفه وسار الى أن وصل الى جرجير ورفس فرسه حين التقت عنق فرسيهما والناس ينظرون اليهما . فقال أبو عبيدة (رض) يا أخا الكفر قل ما أنت قائل واسأل عما تريد . فقال جرجير يا معاشر العرب ! لا يفرنكم أن تقولوا هزمنا عساكر الروم في مواطن كثيرة وفتحنا بلادهم وعلونا أكثر أرضهم فانظروا الآن ما قد اتاكم من السساكر فان معنا من سائر الاجناس المختلفة وقد تحالف الروم أن لا يفروا ولا يهزموا وأن يموتوا عن آخرهم ، وليس لكم على ما ترون من طاقة فانصرفوا الى بلادكم وقد نلتهم ما نلتهم من بلاد الملك هرقل ، وقد عول الملك أن يتعود الاحسان اليكم وهو يهب لكم ما أخذتم من بلادهم منذ ثلاث سنين وقد أخذتم السلاح والذهب والفضة وقد كنتم من الهالكين . فقال الأمير أبو عبيدة : أما ما ذكرت من عساكر الروم وانهم لا يفرون ولا يهزمون ، فلو رأت الروم سفار سيوفنا هربت ناكصة على أعقابها ، وأما تهويلك لنا بكثرة عددكم فقد رأيت قتلنا وضعف أجسامنا ، وكيف لقينا جموعكم وكثرتها وعظم عددها وسلاحها وأحب الأشياء اليها يوم مشاجرتكم بالحرب والقتال حتى يعرف من الذي يثبت للحرب ، فلما سمع جرجير كلام الأمير أبو عبيدة التفت الى رجل من أصحابه يقال له بهيل . فقال يا بهيل :

— الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا ، ثم لوى رأس جواده ورجع الى ماهان وأخبره بما قال أبو عبيدة . . . فقال له ماهان دعوتهم الى الموعد ؟ فقال لا وحق المسيح اني لم أفاتحه في شيء من ذلك لكن أبعث لهم بعض العرب المنتصرة ، فان

العرب يميل بعضهم الى بعض . قال فعندها دعا ماهان بجيلة بن الايهم الفساني . وقال يا جيلة : اخرج الى هؤلاء وخوفهم من كثرتنا وتواتر عددنا وألق في قلوبهم الرعب وأحط بهم مكرك . قال فخرج جيلة بن الايهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين ونادى برفيع صوته : يا معاشر العرب ليخرج الي رجل من ولد عمرو بن عامر لآخاطبه بما أرسلت به .

فلما سمع الأمير أبو عبيدة (رض) كلام جيلة بن الايهم . قال قد بعث اليكم القوم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرباة فابعثوا اليه رجلا من الانصار من ولد عمرو بن عامر ، فأسرع اليه بالخروج عبادة بن الصامت الخزرجي (رض) وقال لابي عبيدة : أيها الأمير أنا اخرج اليه وأنظر ماذا يقول فأجيب عنه ، ثم خرج عبادة نحوه بجواده الى أن وقف امام جيلة بن الايهم فنظر جيلة الى رجل أسمر طويل شديد السمرة كأنه من رجال شنوءة فهابه ودخل الرعب في قلبه من عظم خلخته ، وكان عبادة بن الصامت من الخطاط (رض) . فقال له جيلة يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال عبادة: أنا من من ولد عمرو بن عامر، فقال جيلة: حييت فمن أنت؟ فقال عبادة بن الصامت صاحب رسول الله (ص) : فاسأل عما تريد . فقال جيلة : يا ابن العم انما خرجت اليكم لاني أعلم أن أكثركم من الرحم والقرباة فخرجت اليكم ناصحا ومشيرا ، وأعلم أن هؤلاء القوم الذين قد نزلوا بازائكم معهم جنود لا قبل لكم بها وخلفهم عساكر وحصون وقلاع وأموال ولا تقولوا كسرنا وهزمنا عساكر الروم ، وأعلم أن الحرب دول وسجال ، وإن هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجأ غير الموت ، وهؤلاء القوم أن انهزموا يرجعون الى بلادهم وعساكرهم والخزائن والحصون ، وما قد نلتُم نيلا فخلدوه وامضوا الى بلادكم سالمين .

(قال عبادة بن الصامت) : يا جيلة أما علمت ما لقينا من جموعكم المتقدمة باجنادين وغيرها وكيف نصرنا الله عليكم وهرب طائفتكم ونحن نعلم من بقي من جموعكم قد تيسر علينا أمره ونحن لا نخاف ممن يقدم علينا من جموعكم وقد ولفنا في الدماء فلم نجد أحلى من دماء الروم ، وأنا يا جيلة أدعوك الى دين الاسلام وأن تدخل مع قومك في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ولا تكون تابع عليج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وأنت رجل من سادات العرب وملوكهم ، وإن ديننا ظهر أولاً وآخره يظهر كما ظهر أولاً فاتبع سبيل من أناب الى الحق وصنق به ، فقل : لا اله الا الله محمد رسول الله : اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

(قال الواقدي) فغضب جيلة بن الايهم من كلام عبادة بن الصامت ، وقال لست مفارقا ديني . فقال عبادة بن الصامت فان أبيت الا ما أنت عليه من الكفر فإياك أن تلقاني في الموعد الاول فان لنا وقعة عظيمة ، فان أخذتك سفارسيوفنا فلا تخلص من سفارها ودعنا وعساكر الروم فهم أهون علينا فان أبيت الا ما أنت عليه حل بك

مثل ما حل بهم .

(قال الواقدي) فغضب جبلة بن الايهم وقال لماذا تخوفني من سيوفكم : اما نحن عرب مثلكم رجل لرجل . فقال عبادة بن الصامت قد علمنا أنك انما خرجت الينا مخادعا ومعيانا ولسنا كأنتم يا ويلكم نحن على قلتنا نوحده ربنا ونتبع سنة نبينا محمد وان وراءنا عسكرا يعلو الاقطار ويسد القفار . فقال جبلة لست اعرف وراءكم جيشا غير هذا الجيش ولا من ينصركم غيرهم . فقال عبادة بن الصامت كذبت والله يا ابن الايهم في قولك وان وراءنا رجالا انجادا وابطالا شدادا يرون الموت مفنما والحياة مفرما كل واحد بنفسه يلقي جيشا حافلا يا ويلك انسييت عليا وسطوته وعمر وشدته وعثمان وبراعته والعباس وطلعته والزبير مع ما يجتمع اليهم من فرسان المسلمين من مكة والطائف واليمن وغير ذلك . قال فلما سمع جبلة ذلك من كلام عبادة بن الصامت قال يا ابن العم انا ما خرجت الا اريد النصيحة لكم فان أبيتم ذلك فاسال قومك يجيبونا الى الصلح . فقال عبادة بن الصامت لا صلح بيننا الا باداء الجزية او الاسلام او السيف وهو حكم بيننا وبينكم ، والله لولا ان الغدر يقبح بنا لعلوتك بسيفي هذا ، فلما سمع جبلة كلام عبادة وانه قد حاف عليه في الكلام لم يرد عليه جوابا . . . غير انه ننى رأس جواده واتى الى ماهان فزعا مرعوبا وقد امتلأ قلبه رعبا من كلام عبادة بن الصامت ، فلما وقف بين يدي ماهان تبين في وجهه الجزع والفرع . فقال لجبلة ما وراءك ؟ فقال أيها الملك اني خوفت وأرعبت ومنيت فكان ذلك كله عندهم بالسواء وقالوا ما بيننا الا الحرب والقتال . فقال له ماهان فما هذا الفرع الذي اراه في وجهك وهم عرب مثلكم وانتم عرب مثلهم وقد بلغني انهم ثلاثون الف فارس ، وانتم ستون الف فارس اما يقاتل الرجلان منكم الرجل الواحد منهم ، دونك يا جبلة فسر أنت وابناء عمك من العرب المنتصرة الى قتالهم وأنا وراءكم ، فان ظفرتهم بهم كان الملك مشتركا بيننا وبينكم وتكون اقرب الناس الينا ويسلم اليكم ما فتحه العرب من بلاد الشام .

(قال الواقدي) وجعل ماهان يرغب جبلة في العطاء ويلينه ويحرضه على القتال في المسلمين حتى اجابه الى ذلك ، واخبر قومه وبني عمه من بني غسان ولخم وجدام وغيرهم من العرب المنتصرة وامرهم بأخذ الاهبة للحرب والقتال ففعل القوم ذلك وركبوا في سابغ الحديد والزررد النضيد وهم ستون الف فارس ما يخالطهم من غير العرب أحد يقدمهم جبلة بن الايهم وعليه درع من الذهب الاحمر متقلد بسيف من عمل التبابعة وعلى رأسه الراية التي عقدها له الملك هرقل ، فسار جبلة نحو الصحابة في ستين الف فارس حتى اشرف على عساكر المسلمين وأبو عبيدة يتحدث مع عبادة بن الصامت بما جرى بينه وبين جبلة بن الايهم اذ اشرفت عليهم العرب المنتصرة ، فلما رآهم المسلمون صاح بعضهم على بعض يا معاشر المسلمين قد أقبلت عليكم العرب المنتصرة لقتالكم فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نقاتلهم ونرجو من الله تعالى الظهور عليهم والمعونة وعلى غيرهم وهموا بالحملة فصاح عليهم خالد بن الوليد (رض) وقال اصبروا رحمكم الله ولا تعجلوا حتى أكيدهم بمكيدة يهلكون بها وقال لابي عبيدة (رض) ايها الاميران القوم قد استعانوا علينا بالعرب المنتصرة وهم اضعاف عددنا وان نحن نقاتلهم بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا وضعفا واريد ان ابعث لهم رسولا من بني عمهم يكلمهم في شأن ردهم عنا فان فعلوا كان ذلك كسرا لهم وللمشركين ووهنا عظيما ، وان ابوا الا الحرب والقتال خرج منا نفر يسير يردونهم على أعقابهم بعزة الله عز وجل ، قال فتعجب أبو عبيدة (رض) وقال يا أبا سليمان افعل ما تريد .

فعند ذلك دعا خالد بن الوليد بقيس بن سعد وعبادة بن الصامت الخزرجي وجابر بن عبد الله وأبي أيوب بن خالد بن يزيد رضوا الله عليهم أجمعين ، فلما وقفوا بين يديه . قال لهم يا انصار الله تعالى ورسوله هؤلاء العرب المنتصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بنو عمكم في النسب فاخرجوا إليهم وخاطبواهم واجتهدوا في ردهم عن حربكم وقاتلكم فان فعلوا ذلك والا اخذهم السيف منا ومنكم وكنا لقاتلهم كفؤا .

(قال الواقدي) فخرج أصحاب رسول الله (ص) الى العرب المنتصرة فوجدوا جبلة بن الايهم قد نزل بازاء المسلمين يريد حربهم وقاتلهم ، فلما قربوا من بني غسان نادى جابر ابن عبد الله وقال يا معاشر العرب من لخم وغسان وجذام اننا بنو عمكم ونريد الدنو اليكم . قال فأذن لهم جبلة بالدنو اليه فدخلوا عليه . فاذا هو في مضرب من الديباج ، وقد فرش بالحريز الاصفر وهو جالس وحوله ملوكه وملوك جفنة فحيوه بتحية ملوك العرب فرفع جبلة أقدارهم وأدنى مزارهم وقال يا بني العم انتم من الرحم ومن القرابة واني خرجت اليكم من جهة هذا الجيش الذي يرهقكم فخرج الي رجل منكم فأفرط علي في المقال فما الذي اتى بكم الي ، فكان أول من كلمه جابر بن عبد الله ، وقال : يا ابن العم : لاتؤاخذنا فيما تكلم به صاحبنا فان ديننا لا يقوم الا بالحق والنصيحة وان النصيحة لك منا واجبة لانك ذو قرابة ورحم ، وقد أتينا اليك ندعوك الى دين الاسلام وتكون من اهل ملتنا ، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا فان ديننا شريف ونبينا ظريف فقال : وما احب ذلك ولا غيره انني ضنين بديني وانتم يا معاشر الاوس والخزرج رضيتم لانفسكم أمرا ونحن رضينا لانفسنا أمرا لكم دينكم ولنا ديننا . فقال له الانصاري : ان كنت لا تحب ان تفارق دينك الذي انت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة فان كانت لنا واردت الدخول في ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا ، وان أقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لأبائك وأجدادك .

فقال جبلة أخشى ان تركت حربكم وقاتلكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن ان

يتقووا على بلدي ، لان الروم لا ترضى مني الا ان اكون مقاتلا لكم وقد رأسوني على جميع العرب وأنا لو دخلت دينكم كنت دنيئاً ولا اتبع ، فقال الانصاري فان أبيت ما عرضناه عليك فان ظفرنا بك قتلناك فاعتزل عنا وعن سيوفنا فانها تفلق الهام وتبري العظام فتكون الوقعة بفيرك احب اليها من الوقعة بك وبمن معك قال وكانت الانصار يريدون بهذا الكلام تخويفه وترغيبه كي ينصرف عنهم وجيلة يابى ذلك . فقال وحق المسيح والصليب لا بد ان اقاتل عن الروم ولو كان لجميع الاهل والقراة . فقال له قيس بن سعد يا جيلة أبيت الا ان يحتوي الشيطان على قلبك فيهوى بك في النار فتكون من الهالكين ، وانما اتينا لندعوك الى دين الاسلام لان رحمك متصلة برحمتنا فان أبيت فستعابن منا حرباً شديداً يشيب فيه الطفل الصغير ، ثم وثب قيس بن سعد وقال لقومه انهضوا على بركة الله تعالى وعونه وحسن طاعته فبعدا له وسحقا فقام جيلة فاستعد للقتال بعدته قال فركب الانصار خيولهم ورجعوا الى الامير ابي عبيدة وخالد بن الوليد (رض) وأعلموهما بمقالة جيلة وانه ما يريد الا القتال . فقال خالد بن الوليد (رض) أبعد الله تعالى ، فوعيش عاش فيه رسول الله (ص) سيد المرسلين لينظرون منا جيلة ما ينظر .

ثم قال خالد بن الوليد (رض) : اعلموا معاشر المسلمين ان القوم في ستين ألف فارس من العرب المنتصرة وهم حزب الشيطان ونحن ثلاثون ألف فارس من حزب الرحمن ونريد ان نلقي هذا الجمع الكبير فان قاتلنا جيلة بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا ، ولكن ينتدب منا أبطال ورجال الى قتال هؤلاء العرب المنتصرة ، فقال ابو سفيان صخر بن حرب لله درك يا ابا سليمان ، فلقد اصببت الرأي فاصنع ما تريد وخذ من الجيش ما احببت . فقال اني قد رايت من الرأي ان نندب من جيشنا ثلاثين فارساً فيلقى كل واحد ألفي فارس من العرب المنتصرة .

(قال الواقدي) فلم يبق احد من المسلمين الا عجب من مقالة خالد بن الوليد (رض) وظنوا انه يمزح بمقالته ، وكان اول من خاطبه في ذلك ابو سفيان صخر بن حرب ، وقال يا ابن الوليد هذا كلام منك جد أو هزل . فقال خالد بن الوليد (رض) لا وعيش عاش فيه رسول الله (ص) ما قلت الا جداً . فقال ابو سفيان فتكون مخالفاً لامر الله تعالى ظالماً لنفسك وما أظن ان لك في هذه المقالة مساعداً ولو قاتل الرجل منا مائتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منا ألفين وان الله عز وجل رحيم بعباده فرض علينا ان الرجل منا يقاتل الرجلين والمائة والمائتين والالف والالفين وانك تقول ثلاثون رجلاً منا تلقى الستين ألف فارس فما يجيبك احد الى ذلك وان اجابك رجل لما قلته فانه ظالم لنفسه معين على قتله . فقال خالد بن الوليد (رض) : يا ابا سفيان كنت شجاعاً في الجاهلية فلا تكن جباناً في الاسلام وانظر لمن انتخب من رجال المسلمين ، وابطل الموحدين فانك اذا رايتهم علمت انهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله عز وجل

وما يريدون بقتالهم غير الله تعالى ، ومن علم الله عز وجل ذلك من ضميره كان حقا على الله أن ينصره ولو سلك مفضعات النيران . فقال أبو سفيان يا أبا سليمان الأمر كما ذكرت وما أردت بقولي إلا شفقة على المسلمين فإذا قد صبح عزمك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلا ليقاتل الرجل منهم ألف فارس من العرب المنتصرة .

فقال الأمير أبو عبيدة (رض) : نعم ما أشار به أبو سفيان يا أبا سليمان . فقال خالد بن الوليد (رض) والله يا أيها الأمير ما أردت بفعلي هذا إلا مكيدة لعدونا لأنهم إذا رجعوا إلى أصحابهم منهزمين بقوة الله عز وجل ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثون رجلا يداخلهم الرعب منا ويعلم ما هان أن جيشنا كفاء له . فقال أبو عبيدة (رض) أن الأمر كما ذكرت إلا أنه إذا كان ستون رجلا منا يكونون عصابة ومعينا بعضهم بعضا . فقال خالد بن الوليد (رض) أنا انتدب من المسلمين رجلا أعرف صبرهم وقرارهم واقدامهم في الحرب وأعرض عليهم هذه المقالة فإن أحبوا لقاء الله ورغبوا في ثواب الله عز وجل فإنهم يستجيبون إلى ذلك وإن أحبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد إلا أن يبذل مهجته لله عز وجل والله الموفق لما يحبه ويرضاه .

(قال أبو عبد الله) حدثنا عمرو بن سالم عن جده برعي بن عدي قال كنت بين يدي خالد بن الوليد (رض) فدعا بستين رجلا من أصحاب رسول الله (ص) فأول ما دعا خالد ابن الوليد . قال أين عمرو التميمي أين شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) أين خالد ابن سعيد بن العاص ، أين يزيد بن أبي سفيان الأموي ، أين صفوان بن أمية الجمحي ، أين سهل ابن عمرو العامري ، أين ضرار بن الأزور الكندي ، أين رافع بن عميرة الطائي ، أين زيد الخيل أبيض الركابين ، أين حذيفة بن اليمان ، أين قيس بن سعد ، أين كعب بن مالك الأنصاري ، أين سويد بن عمرو الفنوي ، أين عبادة بن الصامت ، أين جابر بن عبد الله ، أين أبو أيوب الأنصاري ، أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) أجمعين ، أين عبد الله ابن عمرو بن الخطاب العدوي ، أين رافع بن سهل ، أين يزيد بن عامر ، أين عبيد بن أوس ، أين مالك بن نصر ، أين نصر بن الحرث ، أين عبد الله بن ظفر ، أين أبو لبابة بن المنذر ، أين عوف ، أين عابس بن قيس ، أين عبادة بن عبد الله الأنصاري ، أين رافع بن عجرة ، أين عبيد بن عبد الله ، أين معقب بن قيس ، أين هلال ، أين الصابرون يوم أحد ، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه — فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين — ، أين أسيد الساعدي ، أين كلال بن الحرث المازني ، أين حمزة بن عمر الأسلمي ، أين يزيد بن عامر .

(قال الواقدي) وقد سمي خالد بن الوليد (رض) الرجال الذين دعاهم لقتال جبلة بن الأيهم ، إلا أنني اختصرت في ذكرهم وقدمت ذكر الأنصار (رض) لأن خالد بن الوليد (رض) انتخب أكثر الرجال من الأنصار . فلما كثر النداء فيهم قالت الأنصار

ان خالدا اليوم يقدم ذكر الانصار ويؤخر المهاجرين من ولد المفيرة بن قصي ، ويوشك انه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك ، ويشفق على ولد المفيرة .

(قال الواقدي) فلما سمع خالد بن الوليد (رض) ذلك من قولهم ، اقبل يخطو بجواده حتى توسط جميع الانصار ، وقال لهم والله يا اولاد عامر ما دعوتكم الا لما ارتضيته منكم وحسن يقيني بكم وبايمانكم فأنتم ممن رسخ الايمان في قلبه ، فقالوا انك صادق في قولك يا ابا سليمان ، ثم صافحه القوم .

(قال الواقدي) فلما انتخب خالد بن الوليد من فرسان المسلمين ستين رجلا كل واحد منهم يلقي جيشا بنفسه . قال لهم خالد بن الوليد (رض) يا انصار الله ما تقولون في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد أتى يريد حربكم وقتالكم ، فان كان لكم صبر وايدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتهم هؤلاء العرب المنتصرة ، فاعلموا انكم لجيش الروم غالبون ، فاذا هزمتهم هؤلاء العرب وقع الرعب في قلوبهم فينقلبون خاسرين . فقالوا يا ابا سليمان افعل بنا ما تريد والى ما تشاء فوالله لنقاتلن اعداءنا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوته ونبذل في طلب الآخرة مهجنا . فجزاهم خالد بن الوليد (رض) خيرا ، وكذلك الامير ابو عبيدة (رض) ، وقال لهم : تأهبوا رحمكم الله وخذوا اسلحتكم وعدتكم وليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحا فان الرمح خوان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فانها منايا منها المخطيء ومنها المصيب ، والسيف والحجف عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السابق النواحي ولا يركب الرجل منكم الا جواده الذي يصبر به ، وتواعدوا ان يلتقى عند قبر المصطفى (ص) . قال فقدموا على اهلهم وودعوهم . فأما ضرار بن الازور فانه عمد الى خيمته ليستعد بما يريد ، ويسلم على اخته خولة (رض) بنت الازور فلما لبس لامة حربه قالت له اخته خولة : يا اخي مالي اراك تودعني وداع من ايقن بالفراق اخبرني ماذا عزمته عليه ؟ فأخبرها ضرار بما قد عزم عليه وانه يريد ان يلقي العدو مع خالد بن الوليد (رض) فبكت خولة وقالت يا اخي افعل ما تريد ان تفعل والى عدوك وانت موقن بالله تبارك وتعالى ، فانه لكم ناصر وان عدوك لا يقرب اليك أجلا بعيدا ولا يبعد عنك أجلا قريبا فان حدث عليك حدث او لحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لا هدايات خولة على الارض او تأخذ بثأرك فبكى ضرار بن الازور لبكائها وأعد آلة الحرب وكذلك الستون من اصحاب رسول الله (ص) ولم يناموا طول ليلتهم ، حتى ودعوا اولادهم واهاليهم وباتوا في بكاء وتضرع وهم يسألون الله تعالى النصر على الاعداء الى ان أصبح الصباح فصلى بهم الامير ابو عبيدة (رض) صلاة الفجر ، فلما فرغ من صلاته كان اول من أسرع الى الخروج خالد بن الوليد (رض) وحرص اصحابه على الخروج وهو ينشد ويقول :

هبوا جميع اخوتي ارواحا نحو العدو نبتفي الكفاحا

نرجو بذاك الفوز والنجاحا اذا بدلنا دونه ارواحا
ويرزق الله لنا صلاحا في نصرنا الغدو والرواحا
(قال الواقدي) وانشد بيتا آخر لم ادر ما هو وخرج امام المسلمين واصحابه
يقدمون اليه واحدا بعد واحد حتى اجتمع اليه الستون رجلا الذين انتخبهم وكان
آخر من اقبل عليه الزبير بن العوام (رض) ومعه زوجته أسماء بنت ابي بكر
الصدیق (رض) وهي سائرة الى جانب أخيها عبد الرحمن بن ابي بكر الصدیق (رض)
وهي تدعو لهم بالسلامة والنصر وتقول لآخيها يا آخي لا تفارق ابن عمه رسول
الله (ص) ووقت الحملة اصنع كما يصنع ولا تأخذكم في الله لومة لائم . قال وودع
المسلمون الستين اصحابهم ، وساروا بأجمعهم وخالد بن الوليد (رض) في اوساطهم
كأنه اسد قد احتوشته الاسود ولم يزالوا حتى وقفوا بازاء العرب المنتصرة .
(قال الواقدي) ونظرت العرب المنتصرة الى اصحاب رسول الله (ص) وقد
اقبلوا نحوهم وهم نفر يسير فظنوا انهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جيلة
بالعرب المنتصرة وحرضهم ليرهب المسلمين ونادى يا آل غسان اسرعوا الى نصرة
الصليب وقاتلوا من كفر به فبادروا بالاجابة واخذوا الالهة للحرب ورفعوا الصليب
واصطفوا للقتال وقد طلعت الشمس على لامة الحرب فلمع شعاعها على الحديد والزررد
والبيض كأنها شغل نار ووقفوا يبصرون ما يصنع اصحاب رسول الله (ص) الى ان
قاربوا صلبان العرب المنتصرة ونادى خالد بن الوليد (رض) يا عبدة الصليبان ويا اعداء
الرحمن هلموا الى الحرب والطعان ، فلما سمع جيلة كلام خالد (رض) علم أنهم ما
خرجوا رسلا ، وانما خرجوا للقتال فخرج جيلة من بين اصحابه وقد اشتمل بلامه
حربه وهو يقول :

انا لمن عبدوا الصليب ومن به نسطو على من عابنا بفعالنا
ولقد علونا بالسيح وامه والحرب تعلم انها ميراثنا
انا خرجنا والصليب اماننا حتى تبددكم سيوف رجالنا

ثم قال جيلة من الصائح بنا والمستنهض لنا في قتالنا ؟ فقال خالد بن الوليد (رض)
انا فاخرج الى حومة الحرب . فقال جيلة نحن قد رتبنا امورنا لحربكم وقتالكم وانتم
تتربصون عن قتالنا فوحق المسيح لا اجبناكم الى الصلح ابدا فارجعوا الى قومكم
واخبروهم اننا ما نريد الا القتال قال فآظهر خالد التعجب من قوله وقال له يا جيلة
اتظن اننا خرجنا رسلا اليك ؟ . فقال جيلة اجل . فقال خالد بن الوليد (رض) لا تظن
ذلك ابدا فوالله ما خرجنا الا لحربكم وقتالكم فان قلت اننا شرذمة فان الله ينصرنا
عليكم . فقال جيلة يا فتى قد غررت بنفسك وبقومك اذ خرجت الى قتالنا ونحن
سادات غسان ولخم وجدام . فقال خالد بن الوليد (رض) لا تظن ذلك واننا قليلون
فقتالكم رجل منا لالف منكم وتخلف منا رجال أشهى اليهم الحرب من العطشان الى

الماء البارد ، فقال جبلة يا اخا بني مخزوم لقد كنت أفضلك في عقلك وأروم بك مرام
الابطال حتى سمعت منك هذا الكلام انك انت والستين رجلا ترومون قتالنا ونحن
سادات غسان وابطال الزمان ها انا أحمل بهذه الستين ألف فارس فلا يبقى منكم
أحد ، ثم صاح جبلة بقومه يا آل غسان الحملة .

فلما سمعوا كلام سيدهم حملت الستون ألف فارس في وجه خالد بن الوليد
والستين رجلا فتبت لهم أصحاب رسول الله (ص) واشتبك الحرب بينهم فما كنت
تسمع الا زئير الرجال وزمجرة الابطال ووقع السيف على البيض الصقال حتى ما ظن
أحد من المسلمين ولا من المشركين أن خالدا ومن معه ينجو منهم أحد فبكى المسلمون
وأخذهم القلق على اخوانهم وجعل بعضهم يقول لقد غرر خالد بن الوليد بأصحاب
رسول الله (ص) وأهلكهم والروم تقول ان جبلة أهلك هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصِل
بأيدينا لا محالة ولم يزل القوم في الحرب والقتال حتى قامت الشمس في كبد السماء
قال عبادة بن الصامت لله در خالد بن الوليد (رض) والزبير بن العوام وعبد الرحمن
بن ابي بكر الصديق (رض) والفضل بن العباس وضار بن الازور وعبد الله بن عمر بن
الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين ، لقد رأيت هؤلاء الستة قد قرنوا مناكبهم في
الحرب وقام بعضهم بجانب بعض وهم لا يفترقون وزادت الحرب اشتعالا وخرقت
الاسنة صدور الليوث حتى بلغت الى خزائن القلوب لانقطاع الآجال ولم يزالوا في
القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد . قال عبادة بن الصامت فحملت معهم وكنت
في جملتهم ، وقلت يصيبني ما يصيبهم ونادى خالد بن الوليد وقال يا أصحاب رسول
الله (ص) ههنا المحشر وقد أعطى خالد القلب مناه ، فلما حمى بينهم القتال حمل خالد
بن الوليد وهاشم والمرقال وتكاثر عليهم الرجال لله در الزبير ابن العوام والفضل
بن العباس وهم ينادون أفرجوا يا معاشر الكلاب وتباعدوا عن الاصحاب نحن الفرسان
هذا الزبير بن العوام ، وانا الفضل بن العباس انا ابن عم رسول الله (ص) قال عبادة
بن الصامت (رض) فوحق رسول الله (ص) لقد احصيت للفضل بن العباس عشرين
حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والابطال وحملوا على المشركين
حملة عظيمة ولم يزالوا في القتال يومهم الى أن جنحت الشمس الى الفروب ،
والمسلمون قد جهدهم القلق على اخوانهم . اما الامير ابو عبيدة (رض) فانه صاح
بالمسلمين وقال يا أصحاب رسول الله (ص) هلك خالد بن الوليد ومن معه لا محالة
وذهبت فرسان المسلمين فاحملوا بارك الله فيكم لننظر ما كان من امر اخواننا فكل
أجاب الى قوله وأشارته الا ابا سفيان صخر بن حرب (رض) فانه قال للامير ابي
عبيدة (رض) لا تفعل ايها الامير فانه لا بد للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم
قال فلم يلتفت ابو عبيدة (رض) الى كلامه وهم أن يحمل وقد أخذه القلق فبينما هو
كذلك واذا جيش العرب المنتصرة منهزمون وأصوات الصحابة (رض) قد ارتفعت

بالتهليل والتكبير كل ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، والعرب المنتصرة منهزمة على أعقابهم كأنما صاح بهم صائح من السماء فبدد شملهم. وأقبل خالد بن الوليد من وسط المعمة يلتهب بما لحقه من التعب ، وكذا أصحابه الذين كانوا معه .

قال وان خالد بن الوليد افتقد أصحابه الستين رجلا فلم يجد منهم الا عشرين فجعل يلطم على وجهه وهو يقول أهلكت المسلمين يا ابن الوليد فما عذرك غدا عند الرحمن وعند الامير عمر بن الخطاب (رض) ؟ فبينما هو متجبر في ذلك اذ اقبل عليه الامير ابو عبيدة (رض) وفرسان المسلمين وأبطال الموحدين فنظر ابو عبيدة (رض) الى خالد بن الوليد وما يصنع بنفسه ، وقد اشتغل عن متابعة المشركين . فقال ابو عبيدة يا ابا سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين . فقال خالد بن الوليد : أعلم أيها الامير ان الله قد هزم الجيش ، ولكن أعقبك الفرحة ترحة . فقال ابو عبيدة (رض) ، وكيف ذلك ؟ فقال خالد أيها الامير فقدت أربعين رجلا من أصحاب رسول الله (ص) فيهم الزبير بن العوام ابن عمه رسول الله (ص) وفيهم الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد (رض) يسمي فرسان المسلمين واحدا بعد واحد حتى سمي أربعين رجلا فاسترجع ابو عبيدة (رض) ، وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقال لخالد لا بد لعجبك يهلك المسلمون . فقال سلامة بن الاحوص السلمي أيها الامير دونك والمركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله (ص) فان رأيتموهم والا فالقوم أسرى او قد تبعوا المشركين فأمر ابو عبيدة فأتوا بهوادي النيران ، وكان الظلام قد اعتكر فافتقدوا المركة بين القتلى فاذا قتل من العرب المنتصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وهما رفاعة بن مطعم الفساني والآخر شداد بن الاوس ووجدوا من قتل المسلمين عشرة رجال منهم اتنان من الانصار أحدهما عامر الاوسي والآخر سلمة الخزرجي . فقال ابو عبيدة (رض) يوشك ان بعض الصحابة قد تبع المشركين فقال ابو عبيدة (رض) اللهم أثنتا بالفرج القريب ولا تفجعنا بابن عمه نبيك الزبير بن العوام ولا بابن عمه الفضل ابن العباس ثم قال ابو عبيدة معاشر المسلمين من يقفوا لنا اثر القوم ويتعرف خبر الصحابة وأجره على الله عز وجل ؟ فكان اول من أجابه خالد بن الوليد (رض) . فقال له الامير ابو عبيدة لا تفعل يا ابا سليمان لانك تعبت من شدة الحرب . فقال خالد والله لا يمضي في طلبهم غيري ثم غير جواده بفرس من خيول المسلمين وهو فرس حازم بن جبير بن عدي من بني النجار فركبه خالد ابن الوليد (رض) وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين فما سار خالد بعيدا حتى سمع خالد التهليل والتكبير فأجابهم بمثله فأقبل القوم وفي أوائلهم الزبير بن العوام والفضل ابن العباس وهاشم والمراقال ، فلما نظر خالد اليهم فرح فرحا شديدا ورحب بهم وسلم عليهم وقال خالد بن الوليد (رض) للفضل بن العباس يا ابن عم

رسول الله (ص) ما كان أمركم ؟

فقال يا أبا سليمان هزم الله المشركين وردهم على أدبارهم خائبين فتبعنا آثارهم وان رجالا منا أسروا فرجوننا خلاصهم فلم نرهم ولا شك أنهم قتلوا . فقال خالد (رض) ان القوم في الاسر لا محالة فقال الزبير بن العوام : من أين علمت ذلك يا أبا سليمان ؟ فقال خالد (رض) انا لم نجد في المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وأنتم خمسة وعشرون وقد أسر خمسة رجال لا محالة وكان الاسرى رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الازور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا الى أبي عبيدة (رض) ، فلما نظر الى الفضل بن العباس والى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكرا لله تعالى . فقال خالد بن الوليد (رض) معاشر المسلمين ، لقد بذلت مهجتي ان اقتل في سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان أجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي ان شاء الله تعالى قال وباتت الفرسان في فرح وسرور وبات الروم في نوح عظيم حين كسرت حامية عسكرهم .

(قال الواقدي) حدثني من اثق به ان الامير ابا عبيدة (رض) لما نظر الى عساكر الروم معولة على قتاله كتب الى عمر بن الخطاب (رض) كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبي عبيدة عامر بن الجراح عامله ، سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) . واعلم يا امير المؤمنين ان كلب الروم هرقل قد استفز علينا كل من يحمل الصليب ، وقد سار القوم الينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقرب من أرض الرماة والخولان والعدو في ثمانمائة الف مقاتل غير التبع وفي مقدمتهم ستون الفا من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام ، فأول من لقينا جبلة بن الايهم في ستين ألف فارس وأخرجنا اليه ستين رجلا ، فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم - وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم - وقتل من أصحابنا عشرة رجال ، وهم راعلة وجعفر بن المسيب ونوفل بن ورقة وقيس بن عامر وسلمة بن سلامة الخزرجي ، وأسر منهم خمسة رجال ، وهم رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الازور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان ونحن على نية الحرب والقتال فلا تففل عن المسلمين وأمدنا برجال من الموحدين ، ونحن نسأل الله تعالى ان ينصرنا وينصر الاسلام وأهله والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته . وطوى الكتاب وسلمه الى عبدالله بن قرط الازدي وأمره ان يتوجه الى مدينة يثرب . قال عبدالله بن قرط فركبت من اليرموك يوم الجمعة في الساعة العاشرة بعد العصر ، وقد مضى من شهر ذي الحجة اثنا عشر يوما والقمر زائد النور فوصلت يوم الجمعة في الساعة الخامسة والمسجد مملوء بالناس فأنخت ناقتي على باب جبريل عليه السلام وأتيت الروضة وسلمت على رسول

الله (ص) وعلى أبي بكر الصديق (رض) وصليت فيها ركعتين ونشرت الكتاب الى عمر بن الخطاب (رض) . قال فضجت المسلمون عند رؤيته وتناولت الى عمر بن الخطاب (رض) وقبلت يديه وسلمت عليه ، فلما فتح عمر الكتاب انتقع لونه وتزعزع كونه ، وقال : انا لله وانا اليه راجعون . فقال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وغيرهم من الصحابة : يا امير المؤمنين اطلعنا على ما في هذا الكتاب من امر اخواننا المسلمين ، فقام عمر (رض) ورقى المنبر خطيبا وقرا الكتاب على الناس ، فلما سمعوا ما فيه ضجوا بالبكاء شوقا الى اخوانهم وشفقة عليهم وكان اكثر الناس بكاء عبد الرحمن بن عوف (رض) ، وقال يا امير المؤمنين ابعت بنا اليهم ولو قدمت انت الى الشام لشدت بك ظهور المسلمين فوالله ما املك الا نفسي ومالي وما ابخل بهما على المسلمين . قال فلما سمع عمر بن الخطاب كلام عبد الرحمن بن عوف ونظر الى اشفاق المسلمين وجزعهم على اخوانهم اقبل على عبدالله . وقال يا بن قرط من المقدم على عساكر الروم فقلت خمسة بطارقة احدهم ابن اخت الملك هرقل وهو قورين والديرجان وقناطير وجرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الارمني وهو الملك على الجميع وجبله بن الايهم الفساني مقدم على ستين ألف فارس من العرب المنتصرة فاسترجع عمر وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم قرأ عمر : يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ثم قال ما تشيرون به علي رحمكم الله تعالى . فقال له علي بن أبي طالب (رض) ابشروا رحمكم الله تعالى فان هذه الواقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنين لينظر افعالهم وصبرهم فمن صبر واحتسب كان عند الله من الصابرين واعلموا ان هذه الواقعة هي التي ذكرها لي رسول الله (ص) التي يبقى ذكرها الى الابد هذه الدائرة المهلكة ، فقال العباس : علي من هي يا ابن أخي ، فقال : يا عماء علي من كفر بالله واتخذ معه ولدا فثقوا بنصر الله عز وجل ، ثم قال لعمر يا امير المؤمنين اكتب الى عاملك أبي عبيدة كتابا وأعلمه فيه ان نصر الله خير له من غوثنا ونجدتنا فيوشك انه في امر عظيم فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بالمسلمين ، فلما فرغ من صلاته كتب الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى امين الامة أبي عبيدة بن الجراح ومن معه من المهاجرين والانصار سلام عليكم فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) أما بعد فان نصر الله خير لكم من معونتنا ، واعلموا انه ليس بالجمع الكثير يهزم الجمع القليل وانما يهزم الجمع القليل وانما يهزم بما أنزل الله من النصر وان الله عز وجل يقول - ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وان الله مع المؤمنين - وربما ينصر الله العصابة القليل عددها على العصابة الكثيرة وما النصر الا من عند الله ، وقد قال تعالى - فمنهم من قضى

نحبه ومنهم من ينتظر - الآية ، يا طوبى للشهداء ويا طوبى لمن يتكل على الله . فالبق العدو بمن معك من المسلمين ولا تياس بمن صرع من المسلمين ، فقد رأيت من صرع بين يدي رسول الله (ص) وما عجزوا عن عدوهم في مواطن كثيرة حتى قتلوا في سبيل الله ، ولم يهابوا لقاء الموت في جنب الله تعالى بل جاهدوا في سبيل الله حق جهاده - وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا وتبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله نواب الدنيا وحسن نواب الآخرة والله يحب المحسنين - ، فاذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على المسلمين وامرهم ان يقاتلوا العدو في سبيل الله عز وجل واقرا عليهم - يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون - والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم طوى الكتاب وسلمه الى عبدالله بن قرط ، وقال له : يا ابن قرط اذا اشرفت على المسلمين وقد استوت الصفوف فسر بين صفوف الموحدين وقف على اصحاب الرايات منهم وخبرهم انك رسولي اليهم وقل لهم ان عمر بن الخطاب يسلم عليكم ويقول لكم : يا اهل الايمان اصدقوهم الحرب عند اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف وليكونوا عليكم اهون من الذباب فانكم المنصورون عليهم ان شاء الله تعالى ، ثم اقرا عليهم - الا ان حزب الله هم الغالبون - . قال عبدالله بن قرط قلت له يا امير المؤمنين ادع الله تعالى لي بالسلامة والسرعة في السير .

فقال عمر بن الخطاب (رض) : اللهم احمه وسلمه واطو له البعيد انك على كل شيء قدير . قال عبدالله بن قرط وخرجت من المسجد من باب الحبشة ، فقلت في نفسي لقد اخطأت في الرأي اذ لم اسلم على قبر رسول الله (ص) فما أدري اراه بعد اليوم ام لا ، قال عبدالله فقصدت حجرة رسول الله (ص) وعائشة (رض) جالسة عند قبره ، وعلى بن ابي طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين في حجر علي والحسن في حجر العباس (رض) وهم يتلون سورة الانعام وعلي (رض) يتلو سورة هود ، فسلمت على رسول الله (ص) فقال علي (رض) يا ابن قرط عولت على المسير الى الشام فقلت نعم يا ابن عم رسول الله (ص) وما اظن ان اصل اليهم الا والجيش قد التقى والحرب دائرة واذا اشرفت عليهم لا يرون معي مدادا ولا نجدة خشيت عليهم ان يهنوا ويجزعوا وكنت احب ان اصل اليهم قبل التقائهم بعدوهم حتى اعظمهم واصبرهم . فقال علي (رض) فما منعك ان تسأل عمر بن الخطاب ان يدعو لك ، اما علمت يا ابن قرط ان دعاءه لا يرد ولا يحجب وان رسول الله (ص) قال فيه « لو كان نبي ثان بعدي لكان عمر بن الخطاب » اليس هو الذي يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى (ص) « لو نزل من السماء الى الارض عذاب ما نجا منه الا عمر بن الخطاب » ، اما علمت ان الله تعالى انزل فيه آيات بينات ، اما هو الزاهد التقى ، اما هو العابد ، اما هو المشبه بنوح النبي فان كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه

بالاجابة . فقال عبدالله بن قرط ما ذكرت شيئا الا وانا عارف به من فضل عمر بن الخطاب (رض) ولكنني اردت الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله (ص) ولا سيما عند قبر الرسول المعظم المكرم . قال فرفع العباس (رض) عند يديه وعلي (رض) كذلك وقالوا : اللهم انا نتوسل بهذا النبي المصطفى والرسول المجتبي الذي توسل به آدم فأجبت دعوته ، وغفرت خطيئته الا سهلت على عبدالله طريقه وطويت له البعيد وايدت أصحاب نبيك بالنصر انك سميع الدعاء ، ثم قال سر يا عبدالله بن قرط فالله تعالى اكرم من ان يرد دعاء عمر وعباس وعلي والحسن والحسين وازواج رسول الله (ص) وقد توسلوا اليه بأكرم الخلق عليه . قال عبدالله بن قرط فخرجت من الحجرة وانا فرح مستشر واستويت على كور المطية وركبت الفلاة وانا فرح بدعاء علي والعباس وعمر (رض) اجمعين . قال عبدالله خرجت من المدينة بعد العصر من يومي ذلك الذي دخلت فيه المدينة وانا ارقب الطريق ، فلما اختلط الظلام واسبل الليل سجدته ارخيت زمام المطية فحسبت انها تطير بي ولم ازل سائرا ثلاثة ايام . فلما كانت صلاة العصر من اليوم الثالث اشرفت على اليرموك وسمعت ضجيج اذان المسلمين . قال عبدالله فقصدت خيمة الامير ابي عبيدة (رض) وانخت ناقتي وسلمت عليه وكان لي منذ فارقتة عشرة ايام فأخبرته بدعاء عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب والعباس والحسن والحسين (رض) . فقال ابو عبيدة صدقت يا ابن قرط وانهم لكرام على الله عز وجل وان دعاءهم لا يرد ، ثم قرأ الكتاب على المسلمين فطابت قلوبهم بذلك ، وقالوا ايها الامير ما منا الا من يطلب الشهادة فالله تعالى يبلغنا اياها .

(قال الواقدي) حدثني عمرو بن العلاء ، قال حدثنا ماجد عن الثقات ، قال لما سار عبدالله ابن قرط من المدينة يوم الجمعة ، فلما كان يوم السبت وقد صلينا الصبح خلف عمر بن الخطاب ونحن نقرأ من القرآن ما تيسر ، اذ سمعنا ضجة عظيمة وجلبة هائلة ففزعت قلوبنا فخرجنا مبادرين واذا نحن بقوم من اليمن من صدوان وأرض سبأ وحضرموت واجتمعوا للجهاد ، وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربيعي ، فترجلت ساداتهم وسلموا على امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فأمرهم بالنزول ، فلما اقبل الظلام جاء الف فارس من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا بأزاء اهل اليمن ، فلما كان يوم الاحد حمل عمر ضعيفهم وزودهم وعقد راية حمراء على قناة تامة وسلمها الى سعيد بن عامر . قال سعيد بن عامر فهممت بالمسير ، فقال عمر على رسلك يا ابن عامر حتى اوصيك . ثم اقبل عمر بن الخطاب يمشي راجلا ومعه عثمان بن عفان والعباس وعلي بن ابي طالب وعبد الرحمن بن عوف ، فلما قربوا من الجيش وقف عمر والناس حوله ، وقال لسعيد بن عامر : يا سعيد اني وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم الا ان نتقي الله فاذا سرت فارفق بهم ما استطعت ، ولا تشتم اعراضهم ولا تحتقر

صغيرهم ولا تؤثر قويمهم ولا تتبع سواك ولا تسلك بهم المفاوز واقطع بهم السهل ولا ترقد بهم على جادة الطريق والله تعالى خليفتي عليك وعلى من معك من المسلمين ، فقال له علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : اسمع وصية امامك امير المؤمنين الذي ختم الله تعالى به الاربعين وسميت به الامة مؤمنين وهو الذي قال فيه رسول الله (ص) « ان تطيعوه تهتدوا وترشدوا » فسر يا سعيد واذا وصلت الى ابي عبيدة والتقى بكم الجيش الذي لا تلقون مثله ، وصعب عليكم امره فاكتبوا الى امير المؤمنين عمر حتى يوجهني اليكم حتى اقلب ارض الشام على من فيها من المشركين ان شاء الله تعالى . قال فسار بن عامر وهو يقول :

نسير بجيش من رجال اعزة على كل عجاج من الخيل يصبر
الى شبل جراح وصحب نبينا لننصره والله للدين ينصر
على كل كفار لعين معاند تراه على الصلبان بالله يكفر

قال وسار يجد السير . قال سعيد بن عامر وكنت عارفا ببلاد الشام وطرقه وكنت اسير اليه في السنة مرة او مرتين عسفا من غير جادة طريق اسير على الكواكب ، فلما سرت من المدينة وانا بين يدي المسلمين سلكت بهم على طريق بصرى فضلت عن الطريق وعدلت عن الجادة وانا محترز من العدو وخائف على المسلمين فجعلت احيد عن العمارات واسلك الفلاة توفيقا من الله واکراما ولطفا بعباده المؤمنين ، فلما ضللت اشكل علي الطريق كاني ما سلكته يوما قط فوقفت حائرا حتى تلاحق بي المسلمون فلم أعلمهم بأمرى ولا اني ضللت عن الطريق ، وانا اقول : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فسرت يومين وليلتين وانا اتيه بالناس والمسلمون يسألونني عن ذلك ، وانا اقول لهم اني على طريق ، فلما كان في اليوم العاشر من مسيرنا من المدينة لاح لي جبل عظيم فنظرت اليه وحققته فلم أعرفه ، فقلت غررت والله بالمسلمين ، وانا اقول في نفسي اترى هذا جبل بعلبك وقد سهل علينا الطريق ، وكان الجبل قد لاح لنا من بعيد من اول النهار وما أدركناه الا والليل قد اقبل ، فلما صرنا بقربه اعترضنا واد عظيم فيه شجرة عظيمة كبيرة قال فلما تأملت الشجرة عرفتھا ، وقلت لاصحابي ابشروا فقد وصلنا الى بلاد الشام وفتح المسلمين ودخلنا الوادي واذا به وعر ليس فيه جادة ولا طريق فلحق المسلمين من هوله تعب عظيم . قال سعيد بن عامر وكان اكثر المسلمين رجالة ، واما كان يحمل بعضهم بعضا ويتعقبون على ظهور الخيل والابل .

فلما نظرت المسلمون الى وحشة ذلك الوادي ووعورة مسلكه قالوا يا سعيد انا نظن انك قد اخطأت الطريق وسلكت بنا غير طريقنا فأرحنا في هذا الوادي قليلا فقد اضر بنا المسير قال فأجبتهم الى ذلك ، وكان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمون عليها فشربوا وسقوا خيلهم وابلهم ورعت الخيل والجمال ورق الشجر ونام اكثر الناس وبعضهم يصلي على محمد . قال سعيد بن عامر وكنت جلست في

آخر الناس أحرسهم ، وأنا أتلو القرآن العظيم ، وأدعو الله لنا بالسلامة اذ غلبتني عيني فنمت فرايت في منامي كأنني في جنة خضراء كثيرة الاشجار والثمار وكأنني أكل من ثمرها وأشرب من أنهارها وأجني من ثمرها وأناول أصحابي وهم يأكلون ، وأنا فرح مسرور . فبينما أنا كذلك اذ خرج من بين تلك الشجر اسد عظيم فزار في وجهي وهم أن يفترسني ، وأنا من ذلك فزع مرعوب اذ خرج على الاسد اسدان عظيمان فصرعا في موضعه فسمعت له خوارا عظيما فانتبهت من نومي وحلاوة ذلك الثمر في فمي الاسود تتمثل بين يدي . قال سعيد بن عامر ففسرتها انها غنيمة يأخذها المسلمون ويمنعنا منها مانع ونظفر به . فقلت في نفسي الجنة هي الشهادة . قال سعيد بن عامر ولم أزل جالسا أتلو القرآن ، وأنا قلق اذ سمعت هاتفا يهتف بي عن يمين الوادي ، وهو يقول :

يا عصابة الهادي الى الرشاد	لا تفزعوا من وعر هذا الوادي
ما فيه من جن ولا معادي	ستعلمون معشر العباد
لطف الذي يرفق بالاولاد	ويطرح الرحمة في الاكباد
سيصنع الله بكم رشاد	وتغنموا المال مع الاولاد

قال سعيد بن عامر ، فلما سمعت شعر الهاتف وما يشير به من الغنيمة سجدت لله تعالى شكرا واستيقظ المسلمون لصوت الهاتف . قال سعيد بن عامر وكنت قد حفظت من الهاتف بيتا وحفظ سماح ثلاثة أبيات ، وأنشدني اياها وفرح المسلمون بما سمعوا من الهاتف وطابت قلوبهم بالغنيمة وأقام المسلمون في الوادي حتى أصبح الصباح وصلى بهم سعيد بن عامر صلاة الفجر ، فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي وحقت تلك الارض والجبل ، واذا به جبل الرقيم ، فلما رأته عرفته فرفعت صوتي بالتكبير ، وقلت الله اكبر وكبرت المسلمون لتكبري ، وقالوا ما الذي رأيت يا ابن عامر ؟ فقلت وصلنا الى بلاد الشام ، وهذا جبل الرقيم . قال سعيد واكثر من معي طماعو العرب . قالوا يا سعيد وما الرقيم ؟ أما تعرفه فحدثهم بحديث الرقيم ، قال سعيد فعجبوا من ذلك . ثم اقبلت بهم الى الغار فصلوا فيه ، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان . قال سعيد بن عامر فعدلت الى قرية هناك يقال لها الجنان فنظرت الى دهاقين القرية وهم خارجون منها ومعهم الاهل والاولاد ، فلما رأهم المسلمون حملوا عليهم من غير اذن لهم وأخذوا بعضهم أسارى فرجع القوم الى القرية ، وكان فيها حصن منيع فتحصنوا فيها منا ، قال سعيد بن عامر فقربت من الحصن وصحت بهم ، وقلت يا ويلكم ما بالكم كنتم خارجين من قريتكم فرجعتم فأشرف علي واحد منهم ، وقال لي يا معاشر العرب اعلموا اننا كنا خارجين من المدينة ففرعنا منكم وذلك أن صاحب عمان بعث إلينا وأمرنا بالمسير الى عمان لنكون من تحت كنفه في عمان ، والآن يا معاشر العرب هل لكم أن تكون في ذمامكم وامانكم .

قال سعيد نعم فوق الصلح بيننا على عشرة آلاف دينار وكتبت لهم كتاب الصلح ، فلما هممت بالمسير . قالوا يا معاشر العرب قد صالحناكم ونحن خائفون من قومنا وأعلموا ان نقيطاس صاحب عمان لا بد أن تلقى منه شدة عظيمة فلو ظفرتكم به لكان خيرا لنا ولكم ، فقلت : فكيف نظفرتكم به ؟ فقالوا ان الملك ماهان مقدم العساكر قد بعث بذلك اليه ، وان أنتم ظفرتكم بصاحب عمان ملكتم غنيمة جسيمة ، فقال سعيد بن عامر (رض) وفي كم يكون جيش عمان ، فقالوا في خمسة آلاف فارس ، ولكن قد وقع خوفكم في قلوبهم فلن يفلحوا اذا أبدا ، فقال سعيد بن عامر يا معاشر المسلمين ما تقولون في لقاء هذا البطريق صاحب عمان واخذ غنيمته ، فقالوا افعل ما تريد فان قتله الله على أيدينا كان ذلك صلاحا للمسلمين ووهنا على المشركين . فقال سعيد بن عامر لاهل القرية على أي طريق يأتي القوم ، فقالوا على هذا الطريق .

قال فدلونا على طريق عمورية فسرنا الى واد عظيم وكمننا فيه يوما وليلة فلم يأتنا أحد ، فلما أصبح الصباح قال سعيد يا معاشر المسلمين ان الذي وجهنا اليه عمر بن الخطاب من نجدة أبي عبيدة والمسلمين افضل من مقامنا هنا فاخرجوا رحمكم الله . فانا اذا أشرفنا على المسلمين في سبعة آلاف فارس كان ذلك وهنا على المشركين وذلة للكافرين ، فقال المسلمون يا ابن عامر ان قلوبنا توقن بالفنيمة فلا تحرمنا ذلك قال فبينما هم في المحاورة اذا أشرف عليهم جماعة من القسوس والرهبان وعليهم ثياب الشعر وفي أيديهم الصلبان ، وقد حلقوا أوساط رؤوسهم فابتدر المسلمون اليهم وأخذوهم وأوقفوهم بين يدي سعيد بن عامر ، فقال لهم من أنتم وكان فيهم قس كبير فكلهم سعيدا ، وقال نحن رهبان هذه الاديرة والصوامع ونريد أن نصل الى قسطنطين ولد الملك هرقل حتى ندعو للعساكر بالنصر قال سعيد فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال فما وراءكم من الاخبار ، قالوا وراءنا صاحب عمان في خمسة آلاف فارس من فرسان النصرانية وعباد الصليب ، فقال سعيد اللهم اجعلهم غنيمة لنا . ثم قال سعيد للقسيس الذي خاطبه اسمع أيها الشيخ ان نبينا أمرنا أن لا نتعرض لراهب حبس نفسه في صومعة ولولا أنكم تنذرون العدو لخلينا سبيلكم ، ثم أمر المسلمين أن يوثقوهم كتافا فأوثقوهم بزنانيرهم التي في أوساطهم ، فبينما نحن كذلك اذا أشرف علينا جيش عمان والرجالة أمامهم يعزلون لهم الحجر من الدروب ، فلما أشرفوا علم المسلمون حمل عليهم المسلمون من غير أهبة ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فقتلوا الرجالة عن آخرهم فأخبر صاحب عمان بذلك ، فلما نظر الى صنع المسلمين أمر أصحابه بالحملة فحملوا عليهم حملة عظيمة واقتتلوا قتالا شديدا ، قال سعيد بن عامر ونظرت الى المسلمين وهم يقتلون الروم قتلا ذريعا ويضجون بالتهليل والتكبير ، فلما نظر البطريق صاحب عمان ما صنع المسلمون بأصحابه ولى منهزما طالب عمان وتبعه قومه وتبعهم المسلمون وبعضهم مال الى الفنيمة

والبطريق نقبطاس صاحب عمان في الهرب ، وكان قد سبق فوقف حتى تلاحق به المنهزمون من قومه ، قال فبينما هم كذلك اذ اشرف عليهم خيل من ورائهم تسرع بركابها ، وقد اطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة وهم زهاء من ألف فارس يقدمهم فارسان كأنهما أسدان أحدهما الزبير بن العوام والآخر الفضل بن العباس فحملوا على الروم فقتلوه قتلًا ذريعًا وحمل الزبير بن العوام على نقيطاس بطريق عمان وهو واقف تحت الصليب فطعنه الزبير فتناهبه عن جواده وعجل الله بروحه الى النار واقبل الفضل بن العباس يجندل الفرسان وينكس الابطال ، قال واشرف سعيد بن عامر على الموضع فرأى الحرب قائمة فظن أنه وقع بينهم الخلف ، فلما قربوا منهم سمعوا التهليل والتكبير ، فقالوا هذه دعوة الحق لمن قالها فاقترح سعيد ابن عامر المعركة فسمع الفضل بن العباس ، وهو ينتمي باسمه ، ويقول أنا ابن عم رسول الله (ص) .

قال سعيد بن عامر فوالله ما انفلت من القوم أحد ، فقلت له الله درك يا ابن العباس ومن معك من أصحاب رسول الله (ص) ، فقال معي الزبير بن العوام ابن عمه رسول الله (ص) . قال سعيد بن عامر فوالله ما انفلت من القوم أحد الا بين أسير وقتيل وغنم المسلمون غنيمة عظيمة وسلم بعضهم على بعض واقبل الزبير على سعيد بن عامر ، وقال يا ابن عامر ما الذي حبسك عن المسير جهتنا ، وقد جاءنا سالم بن نوفل العدوي واخبرنا بمسيرك الينا ، وقد ساءت بك ظنوننا فأرسلنا أبو عبيدة لنغير على عمان والحمد لله على سلامة المسلمين ودمار المشركين ، ثم أمر الزبير برؤوس القتلى فسلخت وحملتها العرب على أسنة الرماح فكانت الرؤوس أربعة آلاف رأس والأسرى ألف أسير . قال واطلق سعيد بن عامر الرهبان وسار المسلمون حتى اشرفوا على أبي عبيدة (رض) ، ورفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير واجابهم جيش المسلمين بمثل ذلك فانزعجت قلوب الروم لذلك ونظروا الى ثمانية آلاف فارس والرؤوس معهم على الاسنة فبهتوا لذلك وحدث سعيد بن عامر ابا عبيدة بالنصر وغنيمتهم من الروم فسجد شكرا لله عز وجل وأمر بالالف أسير فضربت اعناقهم والروم ينظرون اليهم . قال قطبة بن سويد واخبرت الروم انه لم ينج أحد من جيش عمان .

(قال الواقدي) لما أسر الخمسة من أصحاب رسول الله (ص) اغتم لفقدهم أصحاب رسول الله (ص) وكان أكثرهم غما أبو عبيدة بن الجراح واقبل على البكاء والتضرع يدعو لمن أسر بالخلاص ، وأما الخمسة فانهم مثلوا بين يدي ماهان لعنه الله تعالى وغضب عليه ، فلما نظر اليهم استحقق شأنهم ، وقال لجبله بن الايهم من هؤلاء ؟ قال أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين ، وقد كانوا ستين رجلا فقتلت أكثرهم واسرت هؤلاء وما بقي في عسكرهم من تخاف غائلته الارجل واحد وهو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي ، وهو الذي فتح اركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق ، وهو الذي كسر عساكر أجنادين وتبع توما وهرييس وقتلهم في مرج الديباج وأسر ابنة

الملك هرقل وهو خالد بن الوليد . قال فلما سمع ماهان ذلك قال لا بد لي ان احتال على هذا الرجل حتى احصله عندي واقتله مع هؤلاء الخمسة الاسرى ، ثم دعا ماهان برجل من الروم اسمه جرجة وكان حكيما فاضلا عند الروم فصيحاً بلسان العرب . فقال يا جرجة اريد ان تمضي الى هؤلاء العرب وتقول لهم يبعثوا لنا رسولا وليكن هذا الرسول الرجل المسمى بخالد قال فركب جرجة وسار نحو عساكر المسلمين فالتقى بخالد بن الوليد . فقال له ما الذي تريد ؟ فقال ان الملك ماهان قد بعثني اليكم حتى تبعثوا رجلا منكم فلعل الله ان يحقن دماءنا ودماءكم فقال خالد بن الوليد (رض) انا اكون الرسول اليه واوقف رسول الروم بين يديه ويدي ابي عبيدة (رض) واخبره انه يريد المسير الى ماهان . فقال ابو عبيدة امض يا ابا سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى ان يهديهم او يدعونا للصلح واذا الجزية ، فتحقن الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد احب الى الله تعالى من اهل الشرك جميعا . فقال خالد بن الوليد (رض) : انا اطلب من الله تعالى العون .

ثم وثب خالد بن الوليد (رض) الى خيمته ولبس خفين حجازيين وتعمم بعمامة سوداء وشد وسطه بمنطقة من الاديم وتقلد سيفه الذي استلبه من مسيلمة الكذاب يوم اليمامة وامر عبده عمان ان يأخذ قبته الحمراء وكانت من الاديم الطائفي وفيها شمعات من الذهب الاحمر وحليتها من الفضة البيضاء وكان خالد قد اشتراها من امرأة ميسرة بن مسروق العبسي بثلاثمائة دينار فحملها على بقل وركب خالد جواده ، فلما هم بالمسير قال له ابو عبيدة يا ابا سليمان خذ معك رجلا من المسلمين يكونون لك عوناً . فقال خالد ايها الامير احب ذلك ولكن لا اكراه في الدين ، وليس لي عليهم طاعة فامر من شئت ، فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد (رض) . قال معاذ بن جبل يا ابا سليمان انك من اهل الفضل ولو امرتنا بأمر امتثلناه لانك سائر في طاعة الله تعالى ورسوله .

(قال الواقدي) فاستركب معه مائة فارس من المهاجرين والانصار منهم المرقال بن عتبة بن ابي وقاص وشرحبيل بن حسنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي وميسرة بن مسروق العبسي وقيس بن هبيرة المرادي وسهل بن عمرو العامري وجريز بن عبدالله البجلي والققعاق بن عمرو التميمي وجابر بن عبدالله الانصاري وعبادة بن الصامت الخزرجي والاسود بن سويد المازني وذو الكلاع الحميري والمقداد بن الاسود الكندي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي (رض) اجمعين ، ولم يزل خالد ينتخب مثل هؤلاء السادات (رض) حتى كمل منهم مائة فارس كل فارس منهم يرد جيشا وحده فاخذوا زينتهم واشتملوا بلباس الحرب وتوشحوا بالابراد وتعمموا بالعمائم وتمنطقوا بالخناجر وتقلدوا بالسيوف وركبوا الخيل العتاق ، وسار خالد بن الوليد (رض) وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الاسود الكندي والمائة فارس محدقون

به . قال معاذ بن جبل (رضي) وسرنا ونحن نعلن بالتهليل والتكبير . قال نصر بن سالم المازني فنظرت الى ابي عبيدة (رضي) حين سار خالد بمن معه يقرأ آية من القرآن ودموعه جارية على خده . فقلت ايها الامير ما يبكيك ؟ فقال يا بن سالم هؤلاء والله انصار الدين فان اصاب رجل منهم في اماراة ابي عبيدة فما يكون عذري عند رب العالمين وعند امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي) .

(قال الواقدي) فلما اشرف خالد بن الوليد (رضي) ومن معه على عساكر الروم نظر المسلمون الى عساكر الروم وهم خمسة فراسخ في العرض ، وعن نوفل بن دحية ان خالد بن الوليد لما ترجل عن جواده وترجل المائة جعلوا يتبخثرون في مسيرهم ويجرون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الحجاب والبطارقة ولا يهابون احدا الى ان وصلوا الى النمارق والفراش والديباج ولاح لهم ماهان وهو جالس على سريره ، فلما نظر اصحاب رسول الله (ص) الى ما ظهر من زينته وملكه عظموا الله تعالى وكبروه وطرحوا لهم الكراسي فلم يجلسوا عليها ، بل دفع كل واحد منهم ما تحته وجلسوا على الارض ، فلما نظر ماهان الى فعلهم تبسم وقال يا معاشر العرب لم تأبون كرامتنا ولم ازلتم ما تحتكم من الكراسي وجلستم على الارض ولم تستعملوا الادب معنا ودستم على فراشنا ؟ . قال فقال خالد بن الوليد ان الادب مع الله تعالى افضل من الادب معكم وبساط الله اطهر من فرشكم لان نبينا محمدا (ص) قال جعلت لي الارض مسجدا وطهورا ثم قرأ قوله تعالى - منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى - .

(قال حدثني) عاصم بن رواح الزبيدي قال حدثنا بن عبد الله الشيباني قال حدثنا طرفة بن شيبه الخولاني عن عمه جرير وكان محالفا لخالد بن الوليد (رضي) قال لم يكن بين خالد وماهان ترجمان يبلغ عنهما ، بل كانا يتحدثان كلاهما . فقال خالد يا ماهان اني اكره ان ابدالك بالكلام فتكلم انت بما تريد فاني لست ابالي بما تتكلم ولكل كلام جواب ، فان شئت فتكلم وان شئت بدأتك ، قال ماهان : انا ابدؤكم الحمد لله الذي جعل سيدنا الروح المسيح كلمته وملكنا افضل الملوك وامتنا خير الامم ، قال فعظم ذلك على خالد بن الوليد وقطع خالد كلامه فقال الترجمان لا تقطع كلام الملك يا اخا العرب واستعمل حسن الادب فابى خالد ان يسكت ، بل قال خالد : الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الانبياء وجعل اميرنا الذي وليناه امورا كبعضنا لو زعم انه يملك علينا لعزلناه فلسنا نرى ان له فضلا علينا الا ان يكون اتقى الله عز وجل منا وقد جعل الله امتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتقر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، قال فاصفر وجه ماهان وسكت قليلا .

ثم قال : الحمد لله الذي ابلانا واحسن البلاء الينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الامم واعزنا ومنعنا من الضيم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يفشوننا ويلتمسون نائلنا

ورفدنا وجوائزنا ونحن نحسن اليهم ونكرمهم ونكرم ضعيفهم ونعظم قدرهم ونتفضل عليهم ونفي لهم بالوعد وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسدينا من عطايانا الجميلة لهم ، فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيال والرجل وظننا انكم تطلبون منا طلب اخوانكم فاذا انتم على خلاف رأي اولئك ، جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الاموال وتهدمون الاطلال وتطلبون أن تخرجونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا ، وقد طلب منا ذلك من كان قبلكم ممن هو أكثر منكم عددا وأكثر أموالا وسلاحا وظهرا فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريد وطريح فأول ما فعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على عقبه بالخيبة والذل وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم وانتم لم يكن في أمة من الأمم أصغر منكم مكانا ولا أحقر شأننا لانكم أهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء وانكم مع ذلك تظلمون في بلادكم وبلادنا وحواليها أمة كثيرة العدد وشوكتنا شديدة وعصبتنا عظيمة ، وانما قبلتم علينا لانكم خرجتم من جدوبة الأرض وقحط المطر فانجليتم الى بلادنا وافسدتم كل الفساد وركبتم مراكب ليست كمرابكم ولبستم ثيابا ليست كثيابكم وتمتعتم ببنات الروم البيض الاوانس فجعلتموهن خدما لكم واكلتم طعاما ليس كطعامكم وملئت ايديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ، ولقد لقيناكم الآن ومعكم أموالنا وما غنمتموه من قومنا وأهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولا نعتب عليكم فيما تقدم من فعالكم والآن فاخرجوا من بلادنا فان أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمة فنترككم كأمس الدابر ، وان جنحتهم للصلح نأمر لكل واحد من عسكريكم بمائة دينار وثوب ولا ميركم أبي عبدة بألف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار وعلى انكم تحلفون لنا أن لا تعودوا الى حربنا .

(قال الواقدي) وماهان يرغب تارة ويرهب أخرى وخالد مطرق لا يتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه . فقال خالد : ان الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه ونتكلم ويسمع كلامنا ، ثم قال خالد بن الوليد (رض) : الحمد لله الذي لا اله الا هو ، فلما سمع ماهان ذلك مد يده الى السماء وقال نعم ما قلت يا عربي . فقال اشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبي (ص) . فقال ماهان ما أدري أمحمد رسول الله أم لا ولعله كما تقول وتزعم وتذكر . فقال خالد (رض) : حسب الرجل دينه ، ثم قال أفضل الساعات وخيرها الساعات التي يطلع فيها الله رب العالمين فالتفت ماهان الى قومه ، وقال بلسانه انه رجل عاقل يتكلم بالحكمة . فقال خالد ما الذي قلت لقومك فأخبره بمقالته . فقال خالد ان كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك ، وقد سمعنا نبينا محمدا (ص) يقول « لما خلق الله تعالى العقل وصوره وقدره قال أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فادبر . فقال الله تعالى وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أحب الي منك بك تنال طاعتي وتدخل جنتي » . فقال ماهان :

إذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك ، قال خالد بن الوليد (رض) جئت بهم لاشاورهم . قال ماهان وانت مع جودة عقلك وحسن رأيك وبصيرتك تحتاج الى مشورة غيرك ، قال خالد : نعم بهذا أمر الله عز وجل نبينا محمدا (ص) . فقال الله تعالى في كتابه العزيز - وشاورهم في الامر فاذا عزمتم فتوكل على الله - وقال (ص) « ما ضاع امرؤ عرف قدره ، ولا ضاع مسلم استشار » فأنا وان كنت ذا رأي وعقل كما تزعم وكما بلغك ، فاني لا استغني عن رأي ذي رأي ومشورة اصحابي . قال ماهان : وهل في عسكركم من له رأي مثل رأيك وحزم مثل حزمك . قال نعم : ان في عسكرنا أكثر من ألف فارس لا يستغني عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان : ما كنا نظن ذلك فيكم ، وانما كان يبلغنا عنكم انكم طماعون جهال لا عقول لكم يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم اموال بعض . فقال له خالد (رض) : ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله عز وجل فينا نبينا محمدا (ص) فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا ، وفهمنا الخير من الشر ، والهدى من الضلال . فقال ماهان : يا خالد انك قد أعجبتني بما أراه من رأيك وبصيرتك ، وقد أحببت أن أؤاخيك فتكون أخي وخليلي . فقال خالد بن الوليد (رض) : وافرحاه ان تتم الله مقالتي ، فتكون اذا سعيدا ولا نفترق . فقال ماهان وكيف ذلك ؟ . قال خالد تقول : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله الذي بشر به عيسى ابن مريم : فاذا فعلت ذلك كنت أخي وكنت أخاك وتكون خليلي واكون خليلك ولا نفترق الا لامر يحدث . فقال ماهان : أما ما دعوتني اليه من الترك لديني والدخول في دينكم فمالي الى ذلك من سبيل . فقال خالد بن الوليد : وكذلك أيضا لا سبيل الى مؤاخاتي لك وانت مقيم على دينك دين الضلال . قال ماهان : أريد أن ألقى الحشمة بيني وبينك واكلمك كلام الإخ لاخيه : فأجبنني عن كلامي الذي دعوتك اليه حتى أسمع ما تقول .

قال خالد : اما بعد فانك تعلم أن الذي ذكرته مما فيه قومك من الفنى والعز ومنع الحريم والظهور على الاعداء والتمكن في البلاد ، فنحن عارفون به ، وكل ما ذكرته من انعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه ، ولكن انما فعلتم ذلك ابقاء لنعمتكم ونظرا منكم لانفسكم وذرائعكم وزيادة لكم في مالكم وعزا لكم فتستكثرون جموعكم وتلقون الشوكة على من أرادكم ، وأما ما ذكرته من فقرنا ورعيانا الابل والشاة فما منا من لم يرع وأكثرنا رعاة ، ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع ، وأما قولك بأننا أهل فقر وفاقة وبؤس وشقاء ، فنحن لا ننكر ذلك ، وانما ذلك من أجل انا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلا ليس فيه انهار ولا اشجار ولا زرع الا قليل وكنا أهل جاهلية جهلاء لا يملك الرجل منا الا فرسه وسيفه وأباعره وشياحه ويأكل قويننا ضعيفنا ، ولا يأمن بعضنا بعضا الا في الاربع الاشهر الحرم نعبد دون الله الاصنام والاوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ونحن عليها مكبون ولها حاملون ، فبينما نحن

كذلك على شفا حفرة من النار من مات منا مات مشركا وصار الى النار ومن بقى منا كان كافرا بربه قاطعا لرحمه حتى بعث الله لنا نبيا نعرف حسبه ونسبه هاديا مهديا رسولا نبيا ، واماما تقيا أظهر الاسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته جاءنا بقرآن مبين وصراط مستقيم ختم الله تعالى به النبيين ، وأمرنا بعبادة رب العالمين نعبده ولا نشرك به شيئا ولا نتخذ من دونه وليا ، ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولدا لا شريك له ولا ضد ولا ندله ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصليب ولا للقربان ، ولا نسجد الا لله وحده لا شريك له ونقر بنبوة نبينا محمد (ص) وعلى آله وصحبه أنزل الله عليه كلامه الذي هدانا به مولانا فاستجبنا له واطعنا أمره ، فكان مما أمرنا به أن نجاهد من لا يدين بديننا ولا يقول بقولنا ممن كفر بالله واتخذ معه شريكا جل ربنا وتعالى عن ذلك لا تأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان أخانا وصار له ما لنا وعليه ما علينا ومن أبى الاسلام كانت عليه الجزية يؤديها اليها عن يد وهو صاغر فاذا أداها حقن بها ماله ودمه وولده ومن أبى الاسلام وأن يؤدي الجزية فالسيف حكم بيننا وبينه حتى يقضي الله جل جلاله بحكمه ، وهو خير الحاكمين ، ونحن ندعوكم الى هذه الخصال الثلاث ليس غيرها اما أن تقولوا : نشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أو الجزية في كل عام على كل محتلم من الرجال وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته ، قال ماهان فهل بعد قول : لا اله الا الله غير هذا ، فقال خالد نعم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت الحرام وتجاهدوا من كفر بالله تعالى وتأمرؤا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتوالوا في الله تعالى وتعادوا في الله ، فان أبيتم ذلك فالحرب بيننا وبينكم حتى يورث الله أرضه من يشاء والعاقبة للمتقين . قال ماهان فافعل ما تشاء فاننا لا نرجع عن ديننا ولا تؤدي الجزية ، وأما ما ذكرت من أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فلقد صدقت فانها لم تكن لنا ولا لكم بل كانت لقوم غيرنا وغيركم فقاتلناهم عليها حتى ملكناها منهم والحرب بيننا وبينكم فابرزوا على اسم الله تعالى ، فقال خالد بن الوليد (رض) ما أنتم بأشهى منا الى الحرب وكأني بجيوشكم ، وقد انهزمت والنصر يقدمنا وتساق أنت والحبل في عنقك ذليلا حقيرا وتقدم بين يدي عمر بن الخطاب فيضرب عنقك . قال فلما سمع ماهان كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا . قال فلما نظرت البطارقة والحجاب والهرقلية والقياصرة الى غضب ماهان هموا بقتل خالد الا انهم صبروا ينظرون أمره ، فقال ماهان لخالد وقد استشاط غضبا : وحق المسيح لاحضرن أصحابك الخمسة الاسارى وأضربن أعناقهم وأنت تنظر اليهم ، فقال له خالد اسمع ما أقول لك يا ماهان أنت أقل وأذل وأحق من ذلك واعلم ان هؤلاء الذين في يدك هم منا ونحن منهم ، فوحق الدعوة المستجابة وحق بيعة أبي بكر الصديق (رض) وخلافة عمر بن الخطاب لئن قتلتهم لاقتلنك بسيفي هذا ويقتل كل رجل منا من قومك بعددهم وزيادة . ثم وثب خالد (رض) من موضعه وانتضى سيفه

من غمده وفعل أصحاب رسول الله (ص) كفعله ، وهو يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله وجردوا سيوفهم وهاجوا كالجمال او كالسباع الضواري واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة في ذلك المكان .

(قال الشيخ أبو عبدالله محمد الواقدي) مؤلف هذا الكتاب والله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح الا الصدق وما نقلت أحاديثها الا عن ثقات وعن قاعدة الحق لا ثبت فضائل أصحاب رسول الله (ص) وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض اذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين ، فله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه ، وثبتوا للقاء الاعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفر عن سريرته وتقهقر ، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر - فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - .

(قال الواقدي) حدثني مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن . قال كنت مع خالد يوم سرنا الى ماهان وكنا في سرادقة ، فلما جذبنا السيوف وهممنا بالقوم وما في اعيننا من جيوش الروم شيء ، وقد ايقنا بالحشر من ذلك الموضع .
(قال الواقدي) فلما رأى ماهان الحقيقة منا ومن خالد وتبين الموت في سفار سيوفنا نادى ماهان مهلا يا خالد لا تكن بهذه العجلة تهلك وأنا أعلم انك ما قلت ذلك القول الا أنك رسول والرسول يحمل ولا يقتل ، وأنا انما تكلمت بما تكلمت لاختبركم وانظر ما عندكم والآن فما أواخذك فارجع الى عسكري واعزم على القتال حتى يعطي الله تعالى النصر لمن يشاء ، فلما سمع ذلك أغمد سيفه ، وقال يا ماهان ما تصنع في هؤلاء الاسرى ؟ فقال ماهان : اطلقهم كرامة لك واخلي سبيلهم فيكونون عوناً لك ولن تعجزونا في الحرب غدا ففرح خالد بذلك وأمر ماهان بتخيلة أصحاب رسول الله (ص) . قال فأطلقوا من وثاقهم وهم خالد بالمسير ، فقال ماهان يا خالد اني كنت أحب أن يصلح الامر بيني وبينكم واني أسألك حاجة ، فقال خالد سل ما تريده ، فقال ان قبلك هذه الحمراء قد أعجبتني واني أريد أن تهبها لي وانظر في عسكري ما أعجبك من شيء فأهبه لك . فقال خالد : والله لقد فرحتني اذ طلبت ما أملكه وهي موهوبة لك ، وأما ما عرضت علي من عسكري فلا حاجة لي فيه ، فقال ماهان لله درك أنت تكرمتم وأجملت . فقال خالد (رض) وأنت أيضاً قد تكرمت علينا بما صنعت من اطلاق أصحابي من الاسر ثم انثنى خارجاً من عند ماهان وأصحابه من حوله ، وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله (ص) وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم . قال ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه الى الأمير أبي عبيدة (رض) أجمعين وسلموا عليه وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله (ص) وحدث خالد أبا عبيدة بكل ما جرى لهم : ثم قال خالد وحق المنبر والروضة ما كان

ماهان ليطلق لنا أصحابنا الا فزعا من سيوفنا .

فقال أبو عبيدة حين سمع ما مر لخالد ولماهان من الخطاب والجدال هذا رجل حكيم الا أن الشيطان غلب على عقله فعلام افترقتم ؟ قال على أننا نلتقي معهم ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلما سمع أبو عبيدة (رض) ذلك جمع عظماء المسلمين وقام فيهم خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي (ص) وأخبرهم أن العدو يصبحهم بالقتال في غداة غد وأمرهم بالاهبة ، وأقبل فرسان المسلمين يحرض بعضهم بعضا وأقبل خالد على أصحابه وهم عسكر الزحف ، وقال لهم اعلموا أن هؤلاء الكفرة الذين نصركم الله عليهم في المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموع بلادهم ، واني دخلت الى عسكرهم ونظرت اليهم فكأنهم النمل ولكنهم اصحاب عدة بلا قلوب ولا لهم من ينصرهم عليكم وهذه الواقعة بيننا وبينهم ، وقد ايقنا إن القتال في غداة غد وانتم اهل البأس والشدة فما عندكم رحمكم الله تعالى ، قال فتكلم اصحاب خالد وقالوا ايها الامير القتال بفيتنا والقتل في سبيل الله تعالى مسرتنا ولا نزال نصبر لهم على الحرب والظعن والضرب حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ففرح خالد بقولهم ، وقال لهم وفقكم الله تعالى وارشدكم .

(قال الواقدي) فلم يبق أحد منهم تلك الليلة الا وقد اخذ عدته واهبته واستعد بآلة الحرب والقتال وباتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب ، فلما أصبح القوم ولاج الفجر اذن المؤذنون في عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة بالتوحيد وأسبفوا الوضوء لصلاتهم خلف ابي عبيدة ، فلما صلوا ركبوا خيولهم الى قتال عدوهم وعبوا صفوفهم للقتال وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة اول الصف لا يرى آخره ، وأقبل خالد بن الوليد على ابي عبيدة (رض) ، وقال ايها الامير من تجعل في الميسرة . قال كنانة بن مبارك الكناني او قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي والله اعلم ايهما كان فولاه الميسرة وأمره ان يكون مكانه في الميسرة ففعل وضم الى كنانة قيسا . قال فسار لما أمره أبو عبيدة (رض) .

(قال الواقدي) حدثني فضالة بن عامر . قال حدثني موسى بن عوف عن جده يوسف بن معن . قال كان هذا الفلام كنانة عارفا بالحرب صاحب شجاعة وغارة ، وقد ذكر إنه كان من شجاعته وشدة فراسته أنه كان يخرج من حي قومه بني كنانة وحده ويسير حتى يأتي احياء العرب المعادين له ، فاذا اشرف عليهم صرخ بهم وانتفى باسمه فتثور الرجال على اعناق الخيل ، فلا يزال يقاتلهم ويقاثلونه ، فان ظفر بهم كان مراده وان رأى منهم غلبة وعظم عليه أمرهم نزل عن جواده وسعى بين أيديهم فلا يلحقون منه الا الفبار .

(قال الراوي) لما ولاه أبو عبيدة وقف حيث أمره ، والتفت أبو عبيدة الى خالد ، وقال يا ابا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجال من شئت ، فقال

خالد ابن الوليد (رض) سأولي أمرهم رجالا لا يؤتي المسلمون من قبلهم . ثم نادى بهاشم بن عتبة ابن أبي وقاص ، وقال له ولاك الامر على الرجالة ، فقال ابو عبيدة (رض) انزل يا هاشم وكن معهم رحمك الله وأنا أوافقك .

(قال الواقدي) ورتب ابو عبيدة صفوف المسلمين وعبأهم . قال خالد بن الوليد (رض) ابعث الآن الى اصحاب الرايات وقل لهم يسمعون مني ، فدعا ابو عبيدة (رض) بالضحاك بن قيس ، وقال له يا بن قيس اسرع الى اصحاب الرايات ، وقل لهم ان الامر ابا عبيدة يأمركم ان تسمعون لخالد وتطيعوا أمره ففعل الضحاك ذلك ، وجعل يدور على اصحاب الرايات حتى انتهى الى معاذ بن جبل وقال له مثل ذلك . قال معاذ بن جبل : سمعا وطاعة ، ثم اقبل معاذ على الناس ، وقال : اما انكم قد امرتم بطاعة رجل ميمون الغرة مبارك الطلعة ، فان امركم بأمر فلا تخالفوه فيما يأمركم به ، فما يريد غير صلاح المسلمين والاجر من رب العالمين . قال فقلت لمعاذ بن جبل انك لتقول في خالد قولاً عظيماً ، فقال ما أقول الا ما قد عرفته فالحق دره ، وقال الضحاك : فرجعت الى خالد وأخبرته بما تكلم به معاذ بن جبل وبما أثنى به عليه فأثنى عليه ، وقال هو اخي في الله تعالى ، ولقد سبقت له ولاصحابه سوابق لا يفعلها خالد بن الوليد فمن يناله . قال الضحاك : فرجعت الى معاذ بن جبل وأخبرته بما قال خالد وبما أثنى به عليه وما ذكره من أمره وبما أورده من علي شأنه ، فقال معاذ والله اني أحبه في الله تعالى ، وأرجو من الله أن يكون قد أتاه بحسن نيته ونصيحته للمسلمين .

(قال الواقدي) فلما وصى الضحاك بن قيس اصحاب الرايات بقول أبي عبيدة بالطاعة لخالد بن الوليد (رض) جعل خالد يسير بين الصفوف ويقف على كل راية ، ويقول : يا أهل الاسلام ان الصبر قد عزم ان شاء الله تعالى على صحبتكم ، والفشل والجبن سببان من اسباب الخذلان ، فمن صبر كان حقاً على الله نصره على عدوه لان الله معه ، ومن صبر على حد السيوف فانه اذا قدم على الله تعالى اكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين . قال وما زال خالد (رض) يقول هذا الكلام لاهل كل راية حتى مر بجماعة الناس . ثم ان خالداً جمع اليه خيل المسلمين من اهل الشدة والصبر ومن شهد معه الزحف ، فقسّمهم اربعة ارباع فجعل على احدثهم قيس بن هبيرة المرادي ، وقال له أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل واصنع كما اصنع ، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العبسي وأوصاه بمثل ذلك ، ودعا عامر بن الطفيل على الربع الثالث وأوصاه بمثل ذلك ووقف خالد مع عسكر الزحف . (قال الواقدي) فلم تطلع الشمس الا وقد فرغوا من تعبئة صفوفهم للحرب . وأما ماهان الارمني فانه أمر الروم بالزينة والاهبة للحرب ففعلوا ذلك ، الا ان المسلمين كانوا أسرع في التعبئة . قال وزحف الروم الى اصحاب رسول الله (ص) ونظر الروم

الى تعبيتهم فكان عسكر المسلمين صفوفًا كالبنيان المرصوص ، وكان الطير تظلمهم والصفوف متلاصقة والرماح مشرعة مشتبكة . قال فلما رأى الروم ذلك داخلهم الفرع والجزع وألقى الله الرعب في قلوبهم ، ثم إن ماهان عبي عسكره فجعل العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام في مقدمة الصفوف ، وجعل عليهم جيلة وقدم أمامهم صليبا من الفضة وزنه خمسة أرطال وهو مطلي بالذهب ، وفي أربعة أركانه أربع جواهر تضيء كأنها الكواكب .

(قال الواقدي) حدثني سنان بن أوس الربيعي . قال حدثني عدي بن الحرث الهمداني ، وكان ممن حضر الفتوح من أولها الى آخرها . قال وكانت الصفوف التي صفها ماهان ثلاثين صفا كل صف منها مثل عسكر المسلمين كله ، وقد أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وهم يتلون الانجيل ويترنمون وأكثر من الرايات والاعلام والصلبان ، فلما تكاملت صفوفهم وإذا ببطريق عظيم الخلقة قد برز وعليه درع مذهب ولامة حرب مليحة وفي عنقه صليب من الذهب مرصع بالجواهر. وتحتة فرس أشهب ، وكان البطريق من عظماء الروم ممن يقف عند سرير الملك ، فلما برز جعل يرطن بكلام الروم بصوت كالرعد فعلم المسلمون أنه يطلب البراز فتوقف المسلمون عن الخروج اليه فصاح خالد ، وقال يا أصحاب رسول الله هذا العليج الاغلف يدعوكم لقتاله وأنتم تتأخرون، فإن لم تخرجوا اليه والا خرج خالد، وهم بالخروج وإذا بفارس قد خرج من المسلمين على برزون أشهب عظيم الخلقة يشبه برزون المشرك وعلى المسلم لامة حسنة وعدة سابغة وقصد نحو البطريق فلم يكن في رجال خالد من يعرف الفارس الذي خرج ، فقال خالد لهما مولاة : أخرج الى هذا الفارس وانظر من هو من المسلمين ومن أي العرب هو ومن قومه ؟ فمضى همام يهتف به وقد هم أن يقرب من البطريق فصاح به من أنت يا ذا الرجل ؟ من المسلمين رحمك الله ، فقال أنا روماس صاحب بصرى فلما أخبر خالد به . قال اللهم بارك فيه وزد في نيته ، فلما صار بازاء العليج كلمه بلسانه ، فقال الرومي وقد عرفه يا روماس كيف تركت دينك وصبأت الى هؤلاء القوم ، فقال روماس هذا الدين الذي دخلت فيه دين جليل شريف ، فمن تبعه كان سعيدا ومن خالفه فقد ضل .

ثم حمل روماس على العليج وحمل العليج على روماس وتقاتلا ساعة حتى عجب الجمعان منهما ، فوجد العليج من روماس غفلة فضربه ضربة أسال دمه . قال فأحس روماس بالضربة وقد وصلت اليه فانشى راجعا نحو المسلمين فأتبعه العليج طالبا له لا يقصر عن طلبه ، وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين من الميسرة والميمنة فقوي قلب روماس وداخل العليج الجزع والخوف من صياحهم والهلع وقصر عن طلبه ، ودخل روماس عسكر المسلمين والدم على وجهه فائر فأخذه جماعة من المسلمين فشدوا جراحه وشكروه على فعله ووعدوه بالففران من الله تعالى وهنئوه بالسلامة .

قال ولما رجع روماس منهزما أعجب العليج بنفسه وأظهر عناده وأغلظ في كلامه وطلب البراز فهم أن يخرج اليه ميسرة بن مسروق العبسي ، فقال له خالد يا ميسرة ان وقوفك في مكانك أحب الي من خروجك الى هذا العليج وانت شيخ كبير وهذا عاج عظيم الخلق ، والشباب شجاع ولا أحب أن تخرج اليه ، فانه لا يكاد الشيخ الكبير يقاوم الشباب الحدث ، ولا سيما ان شعرة من مسلم أحب الى الله تعالى من جميع اهل الشرك فرجع ميسرة الى مكانه وهم أن يخرج اليه عامر بن الطفيل ، وقال ايها الامير انك قد عظمت قدر هذا الرومي الذميم وأدخلت في قلوب المسلمين منه الرعب فقال خالد ان الفرسان تعرف اكفاءها في الحرب وما يخفى علي ما هو فيه من الشجاعة والشدة وانت لا تقاومه لانه ما برز بين أصحابه وبين شجاعته الا وهو فارس في قومه فقف في مكانك فوقف عامر بن الطفيل في مكانه ولم يخالف ، قال والعليج يدعو الى البراز والحرب فأقبل الى خالد الحرث بن عبدالله الأزدي ، فلما وقف بين يديه قال ايها الامير اخرج اليه قال خالد لعمرى ان لك جسارة وقوة وشدة وما علمتك الا شهما ، فان شئت ان تخرج فاخرج على اسم الله واعزم فأخذ الأزدي أهبطه وهم ان يخرج . فقال خالد (رض) على رسلك يا عبدالله حتى أسألك فقال أسأل قال خالد هل بارزت احدا قبله قال لا قال فارجع يا ابن اخي ولا تخرج فانك غير مجرب الحروب وهذا فارس قد جرب الحرب وجربته وعرف مصادرها ، وما أحب أن يخرج اليه الا رجل مثله بصير بالحروب وجعل خالد يقول ذلك وينظر الى قيس بن هبيرة... فقال: يا ابا سليمان اني اظنك تعرض بي واياي تعني أنا أبرز اليه ..

قال خالد : أبرز على اسم الله تعالى فانك كفاء والله تعالى يعينك عليه وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحه نحو البطريق وهو يقول بسم الله وعلى بركة رسول الله (ص) وقرب من البطريق فلما نظر العليج الى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فعدل نحوه وقصد اليه وتحاملا قال فبادره قيس بن هبيرة وضربه على هامته فتلقاها العليج في خجفته فقد سيف ابن هبيرة الحجفة ووصل الى البيضة فاشتبك فيها وهم أن يخرج سيفه فامتنع عليه وضرب العليج قيس بن هبيرة على حبل عاتقه فثبت للضربة والتقيا بعد الضربتين فطرح العليج نفسه عليه يريد أسره وهو جبار من الجبابرة ، وكان قيس بعد رجوعه من قتال اهل الردة قد عود نفسه الصيام والقيام وهو نحيف الجسم ، فلما نظر قيس الى العليج وقد ظهر عليه انجذب من يده وبعد عنه وجعل ينظر اليه شزرا ويضمه له مكرا الى أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفاً ويعود الى القتال وقد آيس من نفسه ، فلما عطف راجعا صاح العليج في أثره وسعى في طلبه فقصر قيس بن هبيرة في سيره وقال في نفسه أنت مرادك الشهادة وتهرب من هذا العليج فرجع الى العليج فصاح به خالد يا قيس سألتك بالله ورسوله الا رجعت

وتركت حدثها علي فقال قيس يا خالد لقد اقسمت علي بعظيمين ولكن ان رجعت اليك اتزيد في اجلى ؟ قال لا قال فلم اخنار الفرار واكون من اصحاب النار ، بل اصبر وافوز بالففران من الله تعالى نم انه عطف على قرنه وليس في يده سيف بل استل خنجرًا كان معه على وسطه ، قال ونظر خالد الى قيس بن هبيرة وليس في يده سيف . فقال من يأخذ هذا السيف ويدفعه الى قيس ابتغاء ثواب الله تعالى قال عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) أنا يا أبا سليمان .

فقال خالد أنت والله لها يا ابن الصديق ، ثم أخذ عبد الرحمن سيفه ولحق قيس بن هبيرة يريد أن يناوله السيف ، فلما نظرت الروم الى عبد الرحمن وقد لحق بقيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيسا على صاحبهم فخرج عليه بطريق آخر وأقبل الى صاحبه ووقف بازائه ، قال فدفع عبد الرحمن السيف الى ابن هبيرة ووقف معه وجعل البطريق الآخر يتكلم بكلام لا يفهمه عبد الرحمن . فقال عبد الرحمن يا ويلك ما الذي تقول فما نعرف كلامك فخرج اليه ترجمان وقال له يا معشر العرب الستم ذكرتكم انكم اصحاب نصفة وحق قال عبد الرحمن بلى وقال الترجمان فما رأينا من نصفتكم شيئا يخرج فارسا الى فارس . قال عبد الرحمن انما خرجت لاعطي صاحبي هذا السيف وأرجع ولو خرج الينا منكم مائة لواحد ما كبر علينا ولا عظم لدينا وها انتم ثلاثة وأنا واحد وأنا لكم كفاء ، قال فأخبر الترجمان صاحبه بذلك فجعل ينظر اليه شزرا ، فقال عبد الرحمن يا قيس قد تعبت فقف وتفرج علي وانظر ما يكون مني ومنهم ثم حمل عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) على الذي كان يخاطبه فطعنه في نحره فأخرج السنان يلمع من ظهره فوقع مجندلا ونظر العلجان الى صاحبهما مجندلا فحملا على عبد الرحمن وقصداه فأراد قيس بن هبيرة أن يعاونه عليهما . فقال له عبد الرحمن سألتك برسول الله (ص) وبحق ابي بكر الا تركت عبد الرحمن يصطلي بهما فان قتلت فأنت شريك في الثواب وأقرىء عائشة مني السلام وقل لها اخوك قد لحق ببعلك وأبيك ، فتأخر قيس عنه وقد عجب من فعالة فحمل عبد الرحمن على أحد العلجين وهو الاول فطعنه برمحه فاستبك السنان في درعه فرمى عبد الرحمن الرمح من يده وانتضى سيفه وقام في الركاب وضرب العلج بسيفه ضربة طرحة بها نصفين ونظر العلج الثالث الى عبد الرحمن وجراءته فبقى حائرا متعجبا من حاله ونظر الى البطريق وهو متحير باهت فبانت له فيه غفلة . فقال ما يوقفك يا قيس وحمل على البطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط الى الارض صريعا ، فلما نظرت الروم الى أصحابهم قال بعضهم لبعض ما هؤلاء العرب الا شياطين .

(قال الواقدي) وأخبر ماهان بفعالهم . فقال لقومه ان الملك كان أخبر بهؤلاء القوم وحق المسيح لقد أعلم أن لكم أمرا فان لم تحملوا عليهم بكثرتكم والا فما تقوم لكم قائمة ، قال فأتاه بطريق من البطارقة وسارر ماهان في أذنه طويلا ثم انزاح عنه ،

وقد اصفر وجه ماهان وسكت كأنه أخرس فاستخبروا ماهان عما حدثه البطريق فلم يخبرهم قال فحدث من رأى ذلك أنه سأل جبلة بن الايهم . فقال لما أخبر ماهان بخبر الثلاثة وفيهم البطريق الاول قال ماهان انهم منصورون عليكم . فقال له البطريق في اذنه : أيها الملك الحق ما قلت اعلم اني رأيت البارحة في منامي كأن رجالا نزلوا من السماء الى الارض وهم على دواب بلق وشهب وعليهم كامل السلاح وأحدقوا بهؤلاء العرب ونحن قيام بازائهم لا يخرج أحد من عسكرنا الا قتلوه حتى اتوا على اكثرنا واظن أنهم هؤلاء الذين نراهم في اليقظة لان واحدا منهم قتل ثلاثة منا وما هم الا منصورون علينا من السماء قال فكسر بهذا قلب ماهان فلم يرد جوابا فاجتمع القوم يسألونه عما قاله البطريق فلم يخبرهم ، فلما اكثروا عليه السؤال تكلم فيهم كالخطيب ، وقال يا اهل هذا الدين انكم ان لم تقاتلوا كنتم من الخاسرين وغضب عليكم المسيح وان الله عز وجل لم يزل لدينكم ناصرا ومظهرا وان لله الحجة عليكم اذ بعث فيكم رسولا وانزل عليه كتابا ولم يتبع رسولكم الدنيا وامركم ان لا تتبعوها وفي كتابه لا تظلموا فانه لا يحب الظلم ولا الظالمين ، فلما اتبعتم الدنيا وظلمتم وخالفتم نصر اعدائكم عليكم فما عذرکم عند خالفكم وقد تركتم امر نبيكم وما انزل عليكم في كتاب ربكم ، وهؤلاء العرب بازائكم يريدون قتل فرسانكم وسبي ذراريكم ونسائكم وانتم على المعاصي والذنوب ولا تخافون من علام الفيوب فان نزع الله سلطانكم من ايديكم وأظهر عدوكم عليكم فذلك بحق منه وعدل لانكم لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر .

(قال الواقدي) وكان ماهان لما سمع كلام البطريق الذي رآه في المنام امره ان يكتمه ، واما قيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق فأخذا سلاحهم واسلابهم ورجعا الى المسلمين فدفعوا السلب الى ابي عبيدة فقال هو لكما ، ومن قتل فارسا فله سلبه فكذا عهد الينا عمر بن الخطاب فأخذا السلب ووقف قيس في موضعه الذي أقامه خالد فيه ورجع عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق الى ميدان الحرب فجال بين الصفين ، وكان قد ركب اشهب البطريق الذي قتله فرآه لا ينبعث تحته كما عهد من خيل العرب فرجع وغيره من تعته بفارس غيره وحمل على ميمنة الروم فشوش صفوفهم وقتل منهم فارسين ورجع فحمل على القلب ثم انثنى على الميسرة فرشق بالسهم فرجع حتى وقف في صدر الجيش وجعل يفرع الروم باسمه ويدعو الى البراز فخرج اليه عالج من علوج الروم فما جال غير ساعة حتى قتله فخرج اليه آخر فقتله . فقال خالد : اللهم ارعه بعينك واحفظه فان عبد الرحمن قد اصطلى اليوم الحرب بنفسه ، ثم ان خالد اصاح به يا عبد الرحمن بحق شعبة ابيك وبيعته الا رجعت الى مكانك فرجع حين اقسام عليه قال حزام بن غنم قلت لرجل ممن شهد اليرموك اكانت النساء معكم مشاهدات القتال ؟ قال نعم احداهن أسماء بنت ابي بكر زوجة الزبير بن العوام وخولة بنت الازور ونسيبة بنت كعب وأم ابان زوجة عكرمة بن ابي جهل وعزة

بنت عامر بن عاصم الضمري مع زوجها مسلبة بن عوف الضمري ورملة بنت طليحة الزبيري ورعلة وأمامة وزينب وهند ويعمر ولبنى وأمثالهن (رض) عنهن فلقد كن يقاتلن قتالا يرضين به الله ورسوله .

نساء المسلمين في المعركة

(قال الواقدي) حدثني عبد الملك بن عبد الحميد وكان قد شهد وقعة اليرموك وقال أولها شرر نار وآخرها ضرام الحرب ، وان كل يوم يأتي من القتال أصعب من اليوم الآخر ، قال عمرو بن جرير فشهدنا في اليوم الاول حربا يسيرا وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن من قتل وحمل المسلمون عليهم فالتقت الرجال بالرجال فنظر أبو عبيدة وكان واقفا الى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الامر يصعب فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وجعل يتلون قوله تعالى - الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل - ، قال ولم يزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس في قبة السماء الى أن همت بالفروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرق الليل بينهم ، فحينئذ افترق الجمعان وهم ما يعرفون الا بالشعار وخرج كل قوم من العرب يهتفون بشعارهم وينادون بأنسابهم ورجعت كل فئة الى مكانها واستقبل المسلمون نساءهم فصارت تجعل المرأة مرطها تمسح به عن وجه زوجها وتقول له أبشر بالجنة يا ولي الله وبات المسلمون في خير وسرور وأوقدوا النيران وذلك أن القتلى في أول يوم لم يتبين في الفريقين ، بل قتل من الروم يسير ومن المسلمين عشرة رجلان من حضرموت أحدهما يقال له مازن والثاني يقال له صارم وثلاثة من عسافان رافع ومجلي وعلي وواحد من الانصار وهو عبدالله بن الاخرم وثلاثة من بجيلة وواحد من مراد وهو سويد ابن أخي قيس بن هبيرة فحزن عليه قيس لما فقدته فعلم انه في القتلى فخرج قيس وخرج معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه فلما هم بالرجوع نظر الى نار قد أقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الوقعة وهم يطلبون بطريقا كان معظما عندهم . فقال قيس لجماعته أخدموا ناركم فوالله لاخذن بشار ابن أخي من هؤلاء القوم قال فأخدموا نارهم ورقدوا بين القتلى وتاهبوا للقتال واذا بالروم قد أتوا وهم نحو مائة وهم في زينة عظيمة وآلة وعدة وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له : ان القوم مائة ونحن سبعة وقد تولانا التعب . فقال قيس ارجعوا انتم واني والله أطلب الموت لا أريد غيره واجاهد في الله حق جهاده فعجبوا من قوله ووقفوا معه وقف الكرام وأقبلت الاعلاج يريدون المعركة ويدورون بين القتلى وقد وقفوا بالعلاج وهو الذي برز أولا وقتله ابن أبي بكر الصديق ، فلما احتملوه وولوا يريدون عسكرهم صاح فيهم قيس من ورائهم وتابعه أصحابه بالصياح فذهلوا ورموا البطريق ووضع المسلمون السيف فيهم وجعلوا يقتلونهم قتلا

ذريعا وكان قيس اذا ضرب فيهم يقول هذا عن ابن اخي قال فقتل منهم ستة رجلا وقتل اصحابه اكثر القوم وانفلت الباقون ، فلما فرغ قيس من القوم عاد يابن اخيه نحو عسكر الروم فسمع انينا فأقبل نحوه ، فاذا هو ابن اخيه سويد بهرام المرادي ، فلما عرفه بكى ، فقال ما ابكاك يا ابن اخي ؟ فقال يا عماه اني ت القوم فرجع الي واحد منهم وطعنني في صدري واني لاعالج منها امرا عظيما ، وه الحور العين في حدائي ينتظرون خروج روحي ، قال فبكى قيس وقال : يا ابن اخي اجل كتاب ولعل ان يكون في اهلك طول فقال هيهات والله يا عم افتقدر ان تح الى عسكر المسلمين فأموت هناك قال اجل ، قال ثم احتملته على ظهري واقبلت الى عسكر المسلمين وقصدت به الى رخله وسجيته وسمع ابو عبيدة بمجيء ق فأتى اليه ورأى الفلام وجود بنفسه فجلس عند رأسه وبكى وبكت المسلمون فقال ابو عبيدة كيف تجددك يا ابن اخي فقال بخير والله وغفران وجزى الله محمدا عنا ولقد صدقنا في قوله وهذه الحور تنادي وتشخص فمات قال فما برحنا حتى وار بالتراب قال وخبره قيس بمن قتل في تلك الليلة من المشركين ففرح فرحا شدا وعلم ان ذلك علامة النصر قال وبات الناس في ليلتهم يقرأون القرآن ويصلون ويسأ المعونة والنصر .

قال واما ماهان فانه لما رجع الى عسكره اجتمع اليه البطارقة والره والقسوس فقدموا له طعاما ومدوا له سمطا فلم يأكل منه شيئا مما وقع في نفسه الرؤيا التي رآها البطريق وكان ماهان يود لو ترك الامر وصالح على اداء الجزية ولا كان مغلوبا على امره واقبلت الملوك والقسوس والبطارقة والرهبان على ماهان وقا ما بال الملك امتنع من الطعام ؟ فان كان ذلك من غمه على من مات وعلى ما جرى من الحرب فان الحرب سجال فيوم لك ويوم عليك ، واعلم ايها الملك ان القوم ظافرون وما نملكهم الا ان نحمل عليهم فلا يبقى منهم احد ، قال ماهان ما اظنكم منصورين الا من تفرأديانكم والجور في سلطانكم فبهذا نصرت العرب عليكم ، فا اليه رجل وقال ايها الملك عشت الدهر وانا رجل من اهل دينكم وكان لي مائة را من الفم وكان فيها ولدي يرعاها ف ضرب عظيم من عظماء اصحابك الفسطاط ا جانبها ثم انه عدا عليها فأخذ منها حاجته واخذ بقيتها اصحابه فجاءته زوج تشكو اليه انتهاب غنمي ، فلما رآها امر بها فأدخلت اليه فطال مكثها عنده فلما را ولدها ذلك دنا من الفسطاط فاذا هو يجامع امه فصاح الفلام فأمر البطريق بقا الفلام فقتل فأتيت اريد خلاص ولدي وزوجتي فأمر بي ف ضربت بالسيف فتلقى الضربة بيدي فقطعها ، ثم انه اخرج يده فاذا هي مقطوعة ، قال ففضب ماهان عند ذا غضبا شديدا وقال للمعاهد اتعرف هذا البطريق الذي فعل بك ذلك قال نعم هو ه واوما بيده الى بطريق من البطارقة فنظر اليه ماهان مغضبا قال ففضب البطريق

وغيظ البطارقة لغضبه ومالوا على المعاهد فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه وماهان ينظر اليهم فزاد غضبه وقال خذلتهم وهلكتم وحق المسيح يا ويلكم ترجون النصر وانتم تفعلون هذا الفعل أما تخافون القصاص غدا وان الله ينتقم منكم وينزع منكم صالح ما اعطاكم ويعطيه غيركم ممن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فوالله انتم الآن عندي كالكلاب وسوف ترون عاقبة هذا كله والي اي مصير مصيركم . يكون ، قال ثم انه قام وتركهم ، فلما انصرف القوم ولم يبق عنده الا بطريق واحد قال له ايها الملك والله ان القوم لكما تقول وما اظن الا اننا مغلوبون ، واعلم اني رايت في منامي كأن رجلا نزلوا من السماء على خيل شهب فأحدقوا بهؤلاء العرب وعليهم كامل السلاح ونحن وقوف بازائهم فنظرت اليهم ولا يخرج منا أحد الا قتلوه حتى اتوا على اكثرنا وذكر له كما قال ذاك الاول فأقبل ماهان يفكر طول ليلته فيما يصنع في امر المسلمين ، فلما أصبح الصباح عى المسلمون صفوفهم ونظروا الى عسكر الروم واذا فيه ارتعاد وانزعاج فعلموا ان لهم امرا .

(قال أبو عبيدة) دعوهم ولا تبقوا عليهم فان الباغي مخذول ، قال واجتمعت البطارقة والملوك الاربعة الا ماهان ، وهم قناطر وجرجير والديرجان وقورين وهم اصحاب الجيش يستأذنونه في الحرب فقال ماهان : وكيف لي ان اقاتل بقوم يظلمون ان كنتم احرارا فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا عن حريمكم ، فقالوا الآن احببنا الحرب فوحق المسيح لا نفارقهم حتى ننفيهم من الشام الى بلادهم او يقتلونا او نقتلهم فثق بقولنا وانهض بنا اليهم ، فاذا عزمتم على القتال فدع كل واحد منا يقاتل يوما حتى تعرف منا من هو افرس واشد ويضجر المسلمون من المطاولة ونجمع عيالنا واطفالنا واموالنا ، فان كانت على العرب رددنا كل شيء الى مكانه ، وان كانت للعرب علينا الحقوا ببلادهم وقومهم ويكون الامر بيننا وبينهم في يوم واحد او يومين ، فقال له ماهان لعنه الله هذا هو الراي امهلوا الى ان اكتب الى الملك بمثل ذلك ثم انه كتب الى هرقل : اما بعد فأسأل الله لك ايها الملك ولجيشك النصر ولاهل سلطانك العز والنصر وانك بعثتني فيما لا يحصى من العدد واني قدمت على هؤلاء العرب فنزلت بساحتهم واطمعتهم فلم يطمعوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا وجعلت لهم جعلاً على ان ينصرفوا فلم يفعلوا وقد فزع جند الملك منهم فزعا شديدا واني خشيت ان يكون الفشل قد عمهم والرعب قد دخل في قلوبهم وذلك لكثرة الظلم فيهم وقد جمعت ذوي الراي من اصحابي وذوي النصيحة للملك وقد اجمع راينا على النهوض اليهم جميعا في يوم واحد ولا نرايهم حتى يحكم الله بيننا فان اظهر الله عدونا علينا فارض بقضاء الله ، واعلم ان الدنيا زائلة عنك فلا تأسف على ما فات منها ولا تفتبط منها بشيء في يدك والحق بمعاقلك وبتدار ملكك بالقسطنطينية واحسن الى رعيته يحسن الله اليك وارحم ترحم وتواضع لله يرفعك الله فانه لا يحب المتكبرين ولقد عملت حيلة في احضار اميرهم

خالد ومنيته ورغبته فما اجاب ورايته على الحق. مقيما فأردت ان افتك به وامكر فخفت عاقبة المكر والفدر وما نصر هؤلاء الا بالعدل واتباع الحق بينهم والسلام ، ثم طوى ثم طوى الكتاب وبعث به مع أصحابه من العلوج .

(قال الواقدي) وبقي ماهان سبعة ايام اخر بعد الواقعة الاولى لم يقاتل المسلمين ولم يقاتلوه ، وبعث ابو عبيدة برجل من عيونهم ينظر ما الذي اخر الروم عن القتال فغاب الرجل يوما وليلة ثم عاد وأخبر ابا عبيدة ان ماهان قد كاتب الملك وهو منتظر الجواب فقال خالد ابن الوليد ما تأخر ماهان عن قتالنا الا وقد وقع الفزع في قلبه فازحف بنا اليهم . فقال ابو عبيدة (رض) : لا تعجل فان العجلة من الشيطان .

(قال الواقدي) وكان ابو عبيدة رجلا لين العريكة يحب الرفق ، فلما كان في اليوم الثامن نظر ماهان الى تلهف أصحابه على الحرب والقتال فعزم ان يلقي بهم المسلمون وقد فرح بنشاطهم فدعا برجل من المنتصرة من لخم وقال له اذهب فادخل هؤلاء العرب وتجسس لي اخبارهم وانظر ما عندهم ، قال فمضى اللخمي حتى دخل عسكر أصحاب رسول الله (ص) فأقام فيهم يوما وليلة يطوف في عسكرهم وليس احد من المسلمين ينكره وهم آمنون وليس لهم همة الا اصلاح شأنهم والصلاة والقرآن والتسبيح ، وليس فيهم عدوان ولا ظلم ولا احد يتعدى على احد ، وقصد الموضع الذي فيه ابو عبيدة (رض) فنظر اليه كأنه أضعف ضعيف في العرب ساعة يجلس على الارض وساعة ينام عليها ، فاذا كان وقت الصلاة قام وأسبغ الوضوء وأذن المؤذنون وصلى بالناس ونظر المنتصر الى المسلمين وهم يصنعون كصنعه . فقال المنتصر ان هذه طاعة حسنة ويوشك انهم ينصرون ، قال فرجع الى ماهان وحدثه بما رأى من القوم وما عاينه ، وقال ايها الملك اني جئتكم من قوم يصومون النهار ويقومون الليل ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رهبان في الليل ليوث بالنهار ولو سرق واحد منهم ولو كان كبيرهم قطعوه ، ولو زنا رجموه لا يغلب هواهم على الحق ، بل الحق عندهم غالب ، وإميرهم كأضعف من فيهم الا أنه مطاع عندهم ، ان قام قاموا وان قعد قعدوا ، مناهم القتال ، وشهوتهم النزال ومرادهم ان يموتوا شهداء في قتالكم وما تأخروا عن قتالكم الا ليكون البقي منكم اذا بدأتموهم . فقال ماهان هؤلاء القوم منصورون غير اني قد وجدت حيلة أعملها عليهم . فقال المنتصر ما الحيلة ايها الملك ؟

فقال ماهان : الست زعمت انهم لا يبدأون بالقتال حتى نقاتلهم فنكون نحن الباغين . قال : نعم . قال : فانا لا نطلب الحرب بل نطول بيننا وبينهم وندهمهم على حين غفلة دون عدة منهم ولا اخذ حذرهم فعسى ان نظفر بهم . قال ثم ان ماهان جمع الملوك وجعل يعقد لهم الرايات والصلبان حتى عقد ستين ومائة صليب تحت كل صليب عشرة آلاف ، وكان اول صليب عقد لقناطر وكان نظيره في الرتبة وأمره ان يكون في الميمنة . ثم عقد صليباً للديرجان وضم اليه الارمن والنجد والنوبة والروسية

والصقالبة . ثم عقد لابن اخت الملك صليبا على الافرنج والهرقلية والقياصرة واليرقل والدوقس ، وعقد لجبله بن الايهم عقدا وضم اليه المتنصرة من لخم وجدام وغسان وضبة وامره ان يكون على المقدمة ، وقال انتم عرب واعدائنا عرب والحديد لا يقطعه الا الحديد ، ثم فرق الاعلام في اجناد عسكره . فما انفجر الفجر وبان الصباح واضاء بنوره ولاح حتى فرغ من تعبئة جيوشه وترتيب طلائعه وامر بمضرب له فضرب على كتيب عال على جانب اليرموك يشرف منه على العسكرين ، وأوقف عن يمينه الف فارس عتاة حماة الروم شاكين السلاح وعن يساره كذلك وهم الملكية واصحاب السرير وامرهم باليقظة . وقال : اي كرب يكون على العرب اعظم من هذه فانكم على تعبئة وهم على غير اهبة ، فاذا طلعت الشمس ورايتهم المسلمين على غير تعبئة ، فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان ، فما هم في عسكرنا الا كالشامة البيضاء في جلد الثور الاسود . هكذا سمعت اياد بن غالب الحميري يذكر وكان من المعمرين . قال حدثني جواد ابن اسيد السكاسكي عن ابيه اسد بن علقمة ، فلما انشق الفجر اذن المؤذن وتقدم ابو عبيدة وصلى بالناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهاة فقرأ في اول ركعة - والفجر وليال عشر - حتى قرأ - ان ربك بالمرصاد - اذ هتف بهم هاتف وهم في الصلاة وهو يقول : ظفرتهم بالقوم ورب العزة وما يغني عنهم كيدهم شيئا وما أجرى الله هذه الآية على لسان اميركم الا بشارة لكم . فلما سمع المسلمون كلام الهاتف عجبوا مما سمعوا ، ثم قرأ في الركعة الثانية - والشمس وضحاها ، الى قوله : فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها - واذا بالهاتف يقول : تم الفأل وصح الزجر وهذه علامة النصر . فلما فرغ ابو عبيدة من صلاته . قال يا معاشر المسلمين : هل سمعتم الهاتف ؟ قالوا نعم سمعنا قائلا يقول كذا وكذا ، فقال ابو عبيدة والله هذا هاتف النصر وبلوغ الامل فابشروا بنصر الله ومعاونته فوالله لينصركم الله وليرسلن عليهم سوط عذاب كما انزل على القرون الاول ، ثم قال ابو عبيدة : معاشر القوم اني رايت الليلة في منامي رؤيا تدل على النصر على الاعداء والمعونة من الملائكة ، فقالوا اصلح الله شأن الامير فما الذي رايت ؟

قال : رايت كأنني واقف بازاء اعدائنا من الروم اذ حف بنا رجال وعليهم ثياب بيض لم ار كهيئتها حسنا ، لبياضها اشراق ونور يفشى الابصار وعلى رؤوسهم عمائم خضر وبأيديهم رايات صفر وهم على خيول شهب ، فلما اجتمعوا حولي قالوا تقدموا على عدوكم ولا تهابوهم فانكم غالبون ، فان الله ناصركم ، ثم دعوا برجال منكم وسفوهم بكاس كان معهم فيه شراب ، وكأني انظر عسكرنا وقد دخل في عسكر الروم فلما راونا ولوا بين أيدينا منهزمين ، فقال رجل من المسلمين : اصلحك الله ايها الامير وانا رايت الليلة رؤيا ، فقال ابو عبيدة خيرا تكون ان شاء الله تعالى ما الذي رايت يرحمك الله ؟ فقال رايت كأننا خرجنا نحو عدونا فصاففناهم للحرب ، وقد انقضت عليهم من السماء

طيور بيض لها أجنحة خضر ومخاليب كمخاليب النسور ، فجعلت تنقض عليهم كاتقضاض العقبان ، فاذا جاءت للرجل ضربته ضربة فيقع قطعاً . قال فرح المسلمون بتلك الرؤيا وقال بعضهم لبعض : ابشروا فقد أمنكم الله وأيدكم بالنصر وأمدكم بملائكته تقاتل معكم كما فعل بكم يوم بدر . قال فسر أبو عبيدة بذلك ، وقال هذه رؤيا حسنة ، وهي حق تأويلها النصر واني أرجو من الله تعالى النصر وعاقبة المتقين ، فقال رجل من المسلمين : أيها الأمير ما وقوفنا عن هؤلاء الكلاب الاعلاج وما انتظارك للحرب وعدو الله . يريد كيدنا بمطاولته وما تأخر عنا الا لبلية يريد أن يوقعنا بها . قال أبو عبيدة ان الامر اقرب مما تظنون . قال سعيد بن رفاعة الحميري فبينما نحن كذلك اذ سمعنا الاصوات قد علت والزعقات قد ارتفعت من كل جانب يهتفون بالقتال وان الروم قد زحف الينا فظن أبو عبيدة أن المسلمين قد كبسوا في وجه السحر فقام ليرى وكان على حرس المسلمين تلك الليلة سعيد بن زيد وعمرو بن نفيل العدوي (رض) ، اذ أقبل سعيد وهو ينادي : النفير النفير حتى وقف امام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنصرة ، فقال : أيها الأمير ماهان كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب ، وها هو قد عصى عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا ، ونحن على غير أهبة ولا عدة ، وهذا الرجل قد أقبل الينا راغباً في الاسلام محذراً لنا من بأسه ويزعم أن ماهان قد قدم الينا حماة البطارقة ، وقد اتفق رأيهم على أن يقاتلنا كل ملك من ملوكهم بمن معه وهذا أصعب القتال . ونظر المسلمون الى رايات الروم تقرب منهم والصلبان تدنو . فقال أبو عبيدة : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ثم قال اين أبو سليمان خالد بن الوليد ؟ فأجابه بالتلبية ، فقال له انت لي يا أبا سليمان فابرز في أبطال المسلمين وصد عن التحريم الى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بالآلات حربها ، فقال حبا وكرامة ...

فنادى خالد : اين الزبير بن العوام ، اين عبد الرحمن بن أبي بكر ، اين الفضل بن العباس ، اين يزيد بن أبي سفيان ، اين ربيعة بن عامر ، اين ميسرة بن مسروق العبسي ، اين ميسرة بن قيس ، اين عبدالله بن أنيس الجهني ، اين صخر بن حرب الاموي ، اين عمارة الدوسي ، اين عبدالله بن سلام ، اين غانم الفنوي ، اين المقداد بن الاسود الكندي ، اين أبو ذر الغفاري ، اين عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، اين عمار بن باسر العبسي ، اين ضرار بن الازور ، اين عامر بن الطفيل ، اين ابان بن عثمان بن عفان ، وجعل خالد يدعوهم رجلاً بعد رجل من أصحاب رسول الله (ص) وكل رجل منهم يلقي جيشاً فاجتمعوا الى خالد بأجمعهم واشتغلوا بالحرب واشتغل أبو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبية العساكر فأقبل أبو سفيان الى أبي عبيدة ، وقال له أيها الأمير مر نساءنا أن يعلون على هذا التل . قال نعم الرأي ما رأيت فأمرهن بذلك ففعلن وعلون على التل وحصن أنفسهن وأولادهن ومعهن الاطفال والاولاد ، فقال لهن أبو

عبيدة خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرضن المؤمنين على القتال ، فان كان الامر لنا والظفر فكن على ما أنتن عليه وان رايتن أحدا من المسلمين منهنزما فاضربن وجهه بأعمدتكن واحصبينه بحجارتكن وارفعن اليه اولادكن وقلن له قاتل عن اهلك وعن دين الاسلام ، فقال النساء أيها الامير ابشر بما يسرك .
(قال الواقدي) فلما حصن أبو عبيدة النساء على التل أقبل يعبي جيشه وقد والعدة وقسم الخيالة ثلاثة فرق فجعلها في الثلاثة صفوف ، واستعمل عليهم ثلاثة من ابتدر الناس القتال بعدما عباهم ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين وقدم أصحاب الرايات وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها ابيض وأخضر وأسود وسائر القبائل أيضا راياتهم مختلفة ، وجعل المهاجرين والانصار في القلب وأظهر المسلمون العدة والسلاح وجعل عسكره ثلاثة صفوف فصاف فيه النبلة من أهل اليمن ، وصاف فيه اصحاب الخيل

المسلمين ، أحدهم غياث بن حرملة العامري : والثاني مسلمة بن سيف اليربوعي ، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي ووقف المسلمون تحت راياتهم ووقف أبو عبيدة تحت رايته التي عقدها له أبو بكر الصديق (رض) يوم مسيره الى الشام ، وهي راية رسول الله (ص) الصفراء التي سار بها يوم خيبر ، قال ومع خالد راية العقاب وكانت سوداء وجعل على الرجال شرجيل بن حسنة وعلى الجناح الايمن يزيد بن أبي سفيان وعلى الايسر قيس بن هبيرة ، فلما ترتبت الصفوف سار أبو عبيدة بين الصفوف وجعل يحرض المؤمنين على القتال ويقول - ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم - والزموا الصبر فان الصبر منجاة من الكرب ومرضاة للرب ، ومقمة للعدو فلا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة الا وانتم تذكرون الله ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت الا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم ، ثم رجع الى مقامه من القلب فوقف فيه ثم خرج من بعده معاذ بن جبل فطاف على الناس محرضا لهم يقول : يا اهل الدين ويا انصار الهدى والحق اعلموا رحمكم الله تعالى ان رحمة الله لا تنال الا بالعمل والنية ولا تدرك بالمعصية والتمني بغير عمل مرضي ، ولا تدخل الجنة الا بالاعمال الصالحة مع رحمة الله ، ولا يؤتي الله الرحمة والمفخرة الواسعة الا الصابرين والصادقين ، ألم تسمعوا قوله جل من قائل - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الدين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون - واستحيوا من الله ان يراكم في فرار من عدوكم وانتم في قبضته ليس لكم ملجأ من دونه ولم يزل معاذ يقول ذلك الى ان رجع الى مقامه ، ثم خرج سهل بن عمرو فمشى بين الصفوف وهو شاكي السلاح وراكب فرسه متقلد سيفه وهو يقول مثله ، ثم رجع وخرج من بعده أبو سفيان فطاف بين الصفوف وهو شاكي السلاح وراكب فرسه

متقلد سيفه معتقل رمحه وهو يقول : معاشر العرب الكرام السيادة العظام قد أصبحتم في ديار الاعلاج منقطعين عن الاهل والاطوان ، ووالله لا ينجيكم منهم الا الطعن الصائب في اعينهم والضرب المتدارك في هاماتهم ؛ وبذلك تبلفون اربكم وتنالون الفوز من ربكم . واعلموا ان الصبر في موطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الهم فاصدقوا القتال فان النصر ينزل مع الصبر فان صبرتم ملكتم بلادهم وامصارهم واستعبدتم ابنائهم ونساءهم ، وان وليتم فليس بين ايديكم الا مفاوز لا تنقطع الا بالزاد الكثير والماء الغزير ولا ترجعوا الى دور ولا الى قصور فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حق جهاده ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، قال ثم خرج من بين الصفوف واقبل على النساء وهن على التل وفيهن المهاجرات وبنات الانصار وغيرهن من نساء المسلمين ومعهن اولادهن . فقال لهن ان رسول الله (ص) والجنة امامكم والشيطان والنار وراءكم واقبل حتى وقف مكانه ولم تغن مكيدة ماهان شيئا ورجعت الروم الى ورائها حين نظروا خالدا زحف اليهم في خمسمائة فارس ، فخافوا لذلك ورجعوا حتى اصطفت الصفوف وعبي المسلمون كتابهم . فقال ماهان ما يوقفكم عن قتالهم فازحفوا اليهم ، فزحف الروم الى المسلمين فنظر خالد الى جيش عرمرم . قال وكان ماهان قد انفذ ثلاثين الفا من عظمائهم فحفروا لهم في اليمين حفائر ونزلوا فيها وشدوا ارجلهم بالسلاسل واقرن كل عشرة في سلسلة التماسا لحفظ عسكرهم وحلفوا بعيسى بن مريم والصليب والقسيسين والرهبان والكنائس الاربعة ان لا يفروا حتى يقتلوا عن آخرهم ، فلما نظر خالد الى ما صنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف هذا يوشك ان يكون يوما عظيما ، ثم قال اللهم ايد المسلمين بالنصر ، ثم اقبل على ابي عبيدة وقال ايها الامير ان القوم قد اقترنوا في السلاسل وزحفوا الينا بالقواضب ويوشك ان يكون على الناس يوما عظيما . فقال لهم ان العدو عدده كثير وما ينجيكم الا الصبر ، ثم قال لخالد فما الذي ترى من الراي يا ابا سليمان .

(قال الواقدي) وكان ماهان قدم من الروم من عرفت شجاعته وعلمت براعته واشتهر بالثبات في بلادهم وهم مائة الف . فلما نظر خالد اليهم شهد لهم بالقروسية وانهم من اهل الشدة وقال لابي عبيدة : ان الراي عندي ان توقف في مكاننا الذي انت فيه سعيد بن زيد وتقف انت من وراء الناس في مائتين وفي ثلثمائة من اصحاب رسول الله (ص) . فاذا علم الناس انك من ورائهم استحيوا من الله ثم منك ان يفروا . قال فقبل ابو عبيدة مشورته ودعا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو احد العشرة المشهود لهم بالجنة فأوقفه ابو عبيدة مكانه ، ثم انتخب ابو عبيدة مائتي فارس من اليمن وفيهم رجال من المهاجرين والانصار ووقف بهم من وراء الجيش بحذاء سعيد بن زيد .

(قال حدثني) ورقة بن مهلهل التنوخي وكان صاحب راية ابي عبيدة يوم

اليرموك . قال وكان أول من فتح باب الحرب يوم اليرموك في جيش السلاسل غلام من الازد حدثا كيسا . فقال لابي عبيدة أيها الامير اني أردت أن أشفي قلبي وأجاهد عدوي وعدو الاسلام وأبذل نفسي في سبيل الله تعالى لعلني أرزق الشهادة ، فهل تأذن لي في ذلك وان كان لك حاجة الى رسول الله (ص) فاخبرني بها . قال فبكى أبو عبيدة وقال اقرئ رسول الله (ص) وأخبره انا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . قال ثم دفع الغلام الازدي جواده وحمل يريد الحرب فخرج اليه عالج من الروم قام من الرجال على فرس اشهب ، فلما رآه الغلام قصد نحوه وقد احتسب نفسه في سبيل الله تعالى فلما قرب منه قال :

لا بد من طعن وضرب صائب بكل لدن وحسام قاضب
عسى أنال الفوز بالمواهب في جنة الفردوس والمراتب

قال وبعد شعره حمل كل منهما على صاحبه وابتدأ الغلام الازدي الرومي بطعنة فجندله صريعا وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك لرجل من قومه وعاد الى البراز فخرج اليه آخر فقتله وثالث ورابع فقتلهم فخرج اليه خامس فقتل الازدي ففضبت الازد عند ذلك ودنت من صفوف المشركين فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين . فقال أبو عبيدة ان أعداء الله قد زحفوا عليكم فنكلوهم واعلموا أن الله معكم وثبتوا نفوسكم بالصبر والصدق واللقاء والنصر من الله ، ثم رمق الى السماء بطرفه وقال : اللهم اياك نعبد واياك نستعين ولك نوحى ولا نشرك بك شيئا وان هؤلاء أعداؤك يكفرون بك وبآياتك ويتخذون لك ولدا : اللهم زلزل اقدامهم وارجف قلوبهم وانزل علينا السكينة والزمنا كلمة التقوى وآمنا عذابك يا من لا تخلف الميعاد : اللهم انصرنا عليهم يا من قال في كتابه العزيز - واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير - قال فبينما هو يدعو بهذه الدعوات اذ حملت الروم على ميمنة المسلمين ، كان فيها الازد ومدحج وحضرموت وخولان فحملت عليهم الروم حملة منكرة فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالا شديدا وتبتوا ثباتا حسنا وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبرا جميلا وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة ، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو المقدم على زبيد والامير عليهم وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة الا أن همته الشجاعة ، فلما نظر الى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه : يا آل زبيد يا آل زبيد تفرون من الاعداء وتفزعون من شرب كاس الردى أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة فما هذا الانزعاج من كلاب الاعلاج : اما علمتم ان الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين ، فاذا نظر اليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة ارضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار . قال فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن

معد يكره رجوعوا اليه وعطفوا عليه عطفة الابل على اولادها فاجتمعوا حوله زهاء من خمسمائة فارس وراجل وشدوا على القوم شدة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة فأزالوا الروم عن أماكنهم وحملت دوس مع أبي هريرة وهز رايته وهو يحرض قومه على القتال ويقول : أيها الناس سارعوا الى معانقة الحور العين في جوار رب العالمين ، وما من موطن أحب الى الله من هذا الموطن : الا وان الصابرين قد فضلهم الله على غيرهم الذين لم يشهدوا مشهدهم ، فلما سمعت دوس كلامه طافوا به وحملوا على الروم حملة منكرة ودارت بينهم الحرب كما تدور الرمح وتكاثرت جموع الروم على ميمنة المسلمين ، فعادت الخيل تنكص باذناها راجعة على أعقابها منكشفة كانكشاف الفم بين أيدي الاسد ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء يا بنات العرب دونكن والرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا الى الحرب . قالت سعيدة بنت عاصم الخولاني كنت في جملة النساء يومئذ على التل ، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة بنت غفار وكانت من المترجلات البازلات ونادت : يا نساء العرب دونكن والرجال واحملن اولادكن على أيديكن واسقبلنهم بالتحريض فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة ، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادي قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته ، وجعل النساء يقلن لزوجهن لستم لنا ببعولة ان لم تمنعوا عنا هؤلاء الاعلاج . قال العباس بن سهل الساعدي كانت خولة بنت الازور وخولة بنت ثعلبة الانصارية وكعب ابنة مالك بن عاصم وسلمى ابنة هاشم ونعم ابنة فياض وهند ابنة عتبة بن ربيعة ولبنى ابنة جرير الحميرية متحزمت وهن امام النساء والمزاهر معهن ، وخولة تقول هذه الابيات :

يا هاربا عن نسوة ثقات	لها جمال ولها ثبات
تسلموهن الى الهنات	تملك نواصينا مع البنات
اعلاج سوق فسق عتاة	ينلن منا أعظم الشتات

قال ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال ، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء وخرجت هند ابنة عتبة ويدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرين وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أحد وهو هذا :

نحن بنات طارق	نمشي على النمارق
مشي القطا الموافق	قيدي مع المرافق
ومن أبى نفارق	أن تغلبوا نمارق
او تدبروا نفارق	فراق غير واثق
هل من كريم عاشق	يحمي عن العواتق

قال ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فرائتهم منهزمين فصاحت بهم الى أين تنهزمون أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم ونظرت الى زوجها أبي سفيان

منهزما فضربت وجه حصانه بعمودها ، وقالت له الى أين يا ابن. صخر ارجع الى القتال وابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله (ص) . قال الزبير بن العوام ، فلما سمعت كلام هند لابي سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله (ص) . قال فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند وعطف المسلمون معه ونظرت الى النساء ، وقد حملن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل ولقد رأيت منهن امرأة ، وقد أقبلت الى عالج عظيم ، وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته ، وهي تقول هذا بيان نصر الله المسلمين ، قال الزبير بن العوام وحمل المسلمون حملة منكرا لا يريدون غير رضا الله ورسوله ، وقاتلت الازد مع أبي هريرة وفشا فيهم القتل وأصيب منهم خلق كثير لانهم تلقوا الصدمة الاولى بانفسهم واستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم . قال سعيد بن زيد كان القتال في الميمنة شديدا وكان المسلمون ينهزمون تارة ويعودون مرة وساعة نصبر وساعة نتأخر . قال ونظر خالد بن الوليد الى الميمنة ، وقد وصلت الى القلب فصاح بمن معه من الخيل ومال عليهم فمالوا وكانوا زهاء ستة آلاف فكبر وحمل على الروم فنكى بهم نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة والقلب الى أن ردت الى مواضعها ووقف خالد أمامهم يطارد من كان قريبا للمسلمين ، قال فانكسر الروم أمام خالد ونظر خالد الى فرسانه فرآهم متبديدين فنادى يا أهل الاسلام والايمان ويا حملة القرآن ويا أصحاب محمد (ص) قد تبينت في الروم الكسرة العظيمة ولم يبق عند الروم من الجلد والقتال الا ما رأيتهم وقد كسر الله حدتهم فردوا عليهم الكسرة وشبدوا عليهم الكرة رحمكم الله ، فوالذي نفس خالد بيده اني لارجو أن يمنحكم الله اكتافهم فنادى المسلمون من كل جانب احمل حتى نحمل معك . قال فانتضى خالد سيفه وحمل وحملت أصحابه معه . قال عبد الرحمن بن الحميدي الجمحي كنت ممن حمل مع خالد فوالله لقد انكشفت الروم بين أيدينا وولت كما تولى الغنم بين يدي الاسد وتبعهم المسلمون وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشافا قبيحا ، وأما المسلسلة فما برحوا من مواضعهم وكانوا يرمون بالسهم وهم حماة القوم .

الشعار

قال عبد الرحمن وكان خالد أمامنا في حملته ونحن من ورائه ، وكان شعارنا يا محمد يا منصور أمتك أمتك فلم يزل خالد في حملته ونحن من ورائه حتى وصل الى الديرجان وكان قائما في موضعه الذي أقامه فيه ماهان معه صليب من الجواهر ومعه أصحابه ينتظرون حملته فيحملون معه ، فلما وصلت خيل خالد الى موضعه . قال له البطارقة أيها الملك أما آن لك أن تحمل نحمل معك أو تولي فقد خالطتنا خيل العرب . فقال لأصحابه اعلّموا أن يوم السوء لا أحبه ولا أحب أن أراه ولا أحضره ، وقد أحضرني الملك الى هذا الموقف وأنا كارهه ولكن لفوا وجهي ورأسي في هذا الثوب

كشعاع الشمس وتحتته فرس من نسل خيول عاد ، فلما خرج جبلة الى عامر بن الطفيل قال له من اي الناس انت قال انا من دوس . قال جبلة انك من القرابة فابق على نفسك وارجع الى قومك ودع عنك الطمع ، فقال له عامر قد اخبرتك من انا ومن قبيلتي فأنت من اي العرب . قال انا من غسان وأنا سيدها جميعها انا جبلة بن الايهم الفساني ، وانما خرجت اليك حين نظرت اليك ، وقد قتلت هذا البطريق الشديد وهو نظير ماهان وجرجير في الشجاعة فعلمت انك كفؤ فخرجت لاقتلك وأحظى عند ماهان وهرقل بقتلك ، فقال عامر بن الطفيل اما ما ذكرت من شدة القوم وعظم خلقهم فالله أشد منعة ، وهو مهلك الجبابرة ، وأما قولك انك تحظى بقتلي عند مخلوق مثلك فاني أريد ان أحظى بجهادي عند رب العالمين بقتلك وحمل عامر على جبلة بن الايهم والتقى بضربتين فخرجت ضربة عامر بن الطفيل غير ممكنة وخرجت ضربة جبلة ممكنة فقطعت من قرنه الى كتفه فسقط عامر قتيلا فجال جبلة على مصرعه ووقف يعجب بنفسه وبما صنع وطلب البراز فخرج إليه ولد المقتول ، وهو جندب بن عامر بن الطفيل وكانت معه راية أبيه فأقبل الى أبي عبيدة ، وقال ايها الامير ان أبي قد قتل وأريد ان آخذ بثاره أو أقتل فادفع رايته لمن شئت من دوس فأخذ أبو عبيدة الراية ودفعها لرجل من دوس فحملها وخرج جندب الى قتال جبلة بن الايهم ، وهو ينشد ويقول :

سأبذل مهجتي أبدا لاني	أريد العفو من رب كريم
وأضرب في العدا جهدي بسيفي	وأقتل كل جبار لثيم
فان الخلد في الجنات حق	تباح لكل مقدم سليم

قال ودنا من جبلة ، وقال له اثبت يا قاتل أبي لاقتلك به ، فقال جبلة ومن انت من المقتول قال ولده . قال جبلة ما الذي حملكم على قتل نفوسكم وأولادكم وقتل النفوس محرم ؟ . قال جندب ان قتل النفس في سبيل الله محمود عند الله وننال به الدرجة العالية ، فقال له جبلة اني لا أريد قتلك ، فقال جندب وكيف ارجع وأنا المفجوع بأبي والله لا رجعت أو آخذ بثار أبي أو الحق به ثم حمل على جبلة وجعلا يقتلان وقد شخصت نحوهما الابصار ، ونظر جبلة الى الفلام وما أبدى من شجاعته فعلم انه شديد البأس صعب المراس فأخذ منه حذره وغسان ترمق صاحبها فرائت الفلام جندبا وقد ظهر على صاحبهم وقارنه في الحرب ، فصاح بعضهم على بعض وقالوا ان هذا الفلام الذي برز الى سيدكم غلام نجيب وان تركتموه ظهر عليه فانجدوه ولا تدعوه فتأهب غسان للحملة ليستنقذوه ونظر المسلمون الى جندب وما قد ظهر منه ومن شجاعته وشدته ففرحوا بذلك ونظر الامير أبو عبيدة الى ذلك وما فعل . فبكى وقال هكذا يكون من يبذل مهجته في سبيل الله اللهم تقبل له فعله .

(قال جابر بن عبدالله) شهدت قتال اليرموك فما رأيت غلاما كان أنجب من جندب بن عامر بن الطفيل حين قاتله جبلة وبعد ذلك حمل على جبلة وضربه ضربة

أوهته بها وضربه جبلة فقتله وعجل الله بروحه الى الجنة وتحقق منام أبيه عامر بن الطفيل ، وجال جبلة على مصرعه وطلب البراز فصاح به قومه ارجع الينا فقد قضيت ما يجب عليك فرجع وهو معجب بنفسه حتى وقف تحت صليبه . قال وبعث اليه ماهان يشكره وأصيب المسلمون بعامر بن الطفيل وولده جندب . قال فعندها صاحت دوس الجنة الجنة خذوا بثار سيدكم عامر وساعدتها الازد وكانوا احلافهم وحملوا على غسان ولخم وجذام وتناشدوا الاشعار فصاح ابو عبيدة بالمسلمين ، وقال أيها الناس سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الآية ومعاينة الحور العين في جنات النعيم فما من موطن أحب الى الله من هذا الموطن الا وان الصابرين فضلهم الله على غيرهم ممن لم يشهد مشهدهم ، هذا ولما سمعت الازد ذلك حملت مع دوس وكان شعارهم يومئذ الجنة الجنة .

(قال الواقدي) حدثني موسى بن محمد عن عطاء بن مراد ، قال سألت رجلا عدة ما كان شعار المسلمين يوم اليرموك فأخبرت ان شعار أبي عبيدة أمت أمت وشعار عيس يا لعبس وشعار اليمن من أخلاط الناس يا أنصار الله وشعار خالد ومن معه يا حزب الله وشعار حمير الفتح وشعار دارم والسكاسك الصبر الصبر وشعار بني مراد يا نصر الله أنزل ، فهذه كانت شعار المسلمين يوم اليرموك . قال فلما حملت دوس تبعها الازد وقصدت العرب المنتصرة وطلبت صليبهم وفرقتهم تفريقا صعبا حتى وصلوا الى الصليب فطلب رجل منهم حامل العلم الذي لفساز فارداه عن فرسه ووقع الصليب من يده منكوسا وقتل من الازد ودوس رجال الا أنهم كانوا مثل الشامة البيضاء في جلد البعير الاسود . ثم كرت غسان تريد أخذ صليبهم فاقتتلوا عنده قتالا شديدا حتى قتلوا خلقا كثيرا .

(قال الواقدي) حدثني هشام بن عمار عن أبي الجريري عن نافع عن جبير بن الحويرث عن عبد الله بن عدي . قال شهدت اليرموك فكان المسلمون خمسة وعشرين ألفا ، ففضب الحويرث وقال كذب من حدثك بهذا الحديث . فان المسلمين كانوا يوم اليرموك احدا واربعين ألفا وقد أدت اليك ما سمعته ممن أثق به من الرواة . (قال الواقدي) وهذا اثبت الاقويل لان المسلمين كانوا يوم أجنادين اثنين وثلاثين ألفا وجاءت الامداد بعد ذلك .

(قال الواقدي) حدثني ابن أبي نمرة عن عبد الحميد بن سهل عن جده قال : لما حملت الازد يوم اليرموك ودوس ودوخت المشركين دوخة عظيمة وحمل المشركون حملة هائلة انكشف المسلمون وكان صاحب لوائهم عياض بن غنم الاشعري فولى منهزما واللواء بيده فصاح به الناس انما ثبات القوم وأهل الحرب بالوئيتهم ، فابتدر لاخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وفتح الله على أيدي المسلمين ، وكان اليوم الثالث من اليرموك يوما

حتى لا أرى الحرب قال فلفوا وجهه ورأسه في ثوب ديباج والناس يقتتلون حتى انهزمت الروم بين أيدي المسلمين ووصلوا الى الديرجان وهو ملفوف الرأس فحمل عليه ضرار بن الازور فقتله .

(قال الواقدي) وكان احسن صنع الله تعالى بالمسلمين أن جرجير وقناطر اختلفا وتنازعا وكان جرجير في الميمنة مع الارمن وقناطر في الميسرة تحته ، فقال جرجير لقناطر احمل على العرب فما هذا وقت الوقوف ، فقال قناطر تأمرني أن أحمل وكيف لا تجمل أنت . فقال جرجير لقناطر وكيف لا آمرك ، وأنا أمير عليك فقال قناطر كذبت أنت أمير وأنا أمير عليك وفوقك وأنت مأمور لي بالطاعة فاختلعا وغضب جرجير من قول قناطر فحمل على المسلمين حملة شديدة وكانت حملته على كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان وهم يومئذ فيما بين الميسرة والقلب فكشف الروم المسلمين حتى زالت عن مصافهم ولم يبق منهم الا اصحاب الرايات فقاتلوا من يليهم قتالا شديدا وركب الروم اكتاف المسلمين المنهزمين الى أن دخلوا معهم الى معسكرهم فاستقبلهم النساء بالعمد يضربن وجوه الخيل ويرمين وجوهها بالحجارة وينادين بهم الى أين تنهزمون يا أهل الاسلام عن الامهات والاخوات والبنين والبنات اتريدون أن تسلمونا للعلاج ؟ . قال منهال الدوسي فلقد كانت النساء اشد علينا غلظة من الروم فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضا - وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر - وعطفوا على الروم عطفة عظيمة . قال وكان قتامة بن ايشم الكناني امام المسلمين يضرب في عراض المشركين تارة بالسيف وتارة بالرمح حتى كسر ثلاثة رماح ، وهو يقول :

سأحمل في الروم الكلاب النوايح واضربهم ضربا بحمد الصفائح
وارضي رسول الله خير مؤمل نبي الهدى للدين اشرف ناصح

(قال الواقدي) ثم حمل حتى كسر سيفين وجعل كلما كسر رمحا أو سيفاً يقول من يعيرني سيفاً أو رمحاً في سبيل الله وأجره على الله ، ثم نادى يا معاشر قيس خذوا نصيبكم من الاجر والصبر ، فان الصبر في الدنيا عز ومكرمة وفي الآخرة رحمة وفضيلة - فاصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون - . قال فاجابه قومه ونشطوا للقتال . قال قتامة بن ايشم الكناني فما رأيت مثل حملة قناطر وقومه ولقد اختلطوا بنا واختلطنا بهم . قال ورجع خالد من دهمته ومعه الفان من أصحابه ، وقد وضعوا السيوف في الروم وقتلوهم قتلاً ذريعاً والقتل لا يبين فيهم لكثرتهم ، واقتبل خالد على الناس من كرتة فرأى الناس يقولون جزى الله قتامة بن الايشم خيراً عن الاسلام فشكره وجزاه خيراً . قال واقتبلت ذرعة ابنة الحرث منحدره عن البتل وهي تقول ما فعل خالد حتى وقفت بين يديه ، وقالت يا ابن الوليد أنت من العرب الكرام ، وانما الرجال بامرائها ، فان ثبتوا ثبتت الرجال معهم وان انهزموا انهزمت الرجال معهم ، فقال لها خالد ما كنت من المنهزمين وما كنا الا نقاتل في الاعلاج . فقالت قبح

الله وجهه عبد نظر الى اميره ثابتا وهو منهزم عنه .

(قال الواقدي) ونظر ماهان لعنه الله الى الميمنة من عسكره وقد عركت عراك
الاديم فبعث اليهم يحرضهم على القتال . فعندها خرج عالج من الروم وعليه درع
سابع السلاح كأنه قطعة جبل وهو على شهباء عظيمة الخلقة فبرز بين الصفيين وجال
على شهبائه وسأل القتال فخرج اليه غلام من الازد فما جال معه جولة حتى قتله العالج
ثم دعا بالبراز فهم أن يخرج اليه معاذ بن جبل ، فقال أبو عبيدة يا معاذ سألتك بحق
رسول الله (ص) الا ما ثبت مكانك ولزمت رايتك ولزومك الراية أحب الي من برازك
الى هذا العالج فوقف معاذ بالراية ونادى يامعاشر المسلمين من أراد فرسا يقاتل عليه
في سبيل الله فهذا فرسي وسلاحي فجاءه ولده عبد الرحمن فقال انا يا أبت وكان غلاما
لم يحتلم . قال فلبس السلاح وركب الجواد ، وقال يا أبت انا خارج الى هذا العالج ،
فان صبرت فالمنة لله علي وان قتلت فالسلام عليك وان كان لك الى رسول الله (ص)
حاجة فأوصني بها . فقال له معاذ : يا بني أقرئه مني السلام وقل له جزاك الله عن
امتك خيرا ، ثم قال يا بني اخرج وفقك الله لما يحب ويرضي ، فخرج عبد الرحمن بن
معاذ الى العالج كأنه شعلة نار وحمل على العالج وضربه بالسيف فمال عنه العالج ومال
اليه وضربه على رأسه فقطع العمامة وشجه شجة فاضحة أسالت دمه ، فلما رأى العالج
ذلك البدم ظن انه قتل فتأخر الى ورائه لينظر كيف يسقط عن جواده ، فلما نظر
عبد الرحمن الى العالج وقد تأخر عنه انثنى راجعا الى المسلمين ، فقال له معاذ ما بك
يا بني . قال قتلني العالج قال له ما الذي تريد من الدنيا يا بني ثم انه شد جرحه .
قال فعندها صال العالج وحمل فردته الازد . قال أبو عبيدة فمن له منكم فخرج اليه
عامر بن الطفيل الدوسي وكان من أصحاب الرايات ممن شهد اليمامة مع خالد بن
الوليد وكان قد رأى يوم اليمامة في منامه في قتال مسيلمة الكذاب كأن امرأة لقيته
ففتحت له فرجها فدخل فيه ونظر اليه ابنه فأسرع ليدخل مكانه ، ثم استيقظ وقص
ذلك على المسلمين فلم يدر أحد ما تأويله ، فقال ابن الطفيل أما انا فأعرف تأويلها قالوا
وما تأويلها يا ابن الطفيل قال : تأويله اني اقتل لان المرأة التي ادخلتني فرجها هي
الارض وابني سيصيبه جراح ويوشك أن يلتقي بي . قال فقاتل يوم اليمامة وأبلى
بلاء حسنا وسلم ولم يلحقه أذى ، فلما كان يوم اليرموك شهد فيه الحرب وخرج الى
قتال العالج وهو كأنه شعلة حريق أو صاعقة وطعن البطريق ، وكانت قناته قد شهدت
معه المشاهد فاندقت بين يديه وانتضى سيفه وهزه وضرب به العالج على عاتقه فخالط
امعاه فتنكس العالج صريعا عن جواده وأسرع عامر بن الطفيل فرمى به الى المسلمين
وسلمه الى ولده وانثنى راجعا نحو الروم وحمل على الميمنة وعلى الميسرة وعلى القلب .

ثم قصد المتنصرة فقتل منهم فارسا ودعا للبراز وخرج اليه جبلة بن الايهم
وعليه درع من الديباج المثقل بالذهب وتحتها درع من دروع التبابعة وعليه بيضة تلمع

شديدا انهزمت، فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالاطفال اليهم فيرجعون الى القتال ولم يزل القتال قائما الى ان اقبل الليل بسواده ورجعت الروم الى مواضعها والقتل فيهم كثير وفي المسلمين قليل الا ان الجراح فيهم فاشية من الشباب ، فلما دخل الليل بسواده رجعت كل فرقة الى اماكنها وباتوا تحت السلاح ، قال واما المسلمون فما كانت همتهم الا الصلاة وبعد ذلك شدوا الجراح ، وصلى ابو عبيدة (رض) وقال : ايها الناس اذا عظم البلاء فانتظروا الفرج فانه ياتي من عند الله فاضرموا نيرانكم وتحارسوا واطهروا التهليل والتكبير ، وفام ابو عبيدة يمشي في الناس هو وخالد بن الوليد يتفقدان الجرحى ويقولان : ايها الناس ان عدوكم يالم كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وباتا طول ليلهم كله وهما طائفتان على المسلمين الى ان أصبح الصباح ، قال وانحازت الروم الى جانب اليرموك مع ماهان الارمني فجمع بطارقته ووبخهم وزجرهم . وقال لهم قد علمت ان هذا يكون منكم ، وقد رايت فشلكم وخوفكم وجزعكم من هؤلاء العرب الضعاف قال فاعتذروا اليه وقالوا غدا نبارزهم فان فينا فرسانا وشجعانا لم يقاتلوا اصلا وغدا نصدقهم الحرب فتكون لنا العاقبة . قال فسكت عن توبيخهم وامرهم ان يتاهبوا لذلك وبات الفريقان يتحارسون ، وقد رعبت الروم من كثرة القتل فيهم ، واما المسلمون فانهم اقوى قلوبا لشدة دينهم ويقينهم .

قال فلما أصبح الصباح صلى بهم ابو عبيدة صلاة الخوف واذا بالصلبان قد بدت وبريات القوم قد طلعت في عدد الشوك والشجر كأنهم لم يلاقوا قتالا قط فوقفوا في مصافهم ونصب ماهان سريره على الكثيب الذي كان عليه بالامس وهو يشرف منه على العساكر فامرهم ان يعبوا مصافهم ، فلما نظر امير المؤمنين الى سرعة الروم صاح كل امير برجاله وحرصهم على القتال فانقلبوا من الصلاة الى خيولهم ولبسوا السلاح وركبوا خيولهم ورجع كل امير الى مكانه وهو يعظ اصحابه ويوصيهم ويعددهم من الله بالنصر ، وسار ابو عبيدة بين الصفوف وهو يصف لهم فضل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين الصابرين وخلف على الدراري والنساء والاموال والاولاد عمرو بن سعيد ابن عبدالله الانصاري وجعل من الرماة خمسمائة في الميسرة وخمسمائة في القلب وطاف ابو عبيدة عليهم ، وقال لهم معاشر الرماة الزموا مراكزكم فان رايتم القوم زحفوا اليها فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند رميكم ولا تتركوها مفرقة ولتخرج سهامكم كانها من كبد قوس واحدة ، فان هم زحفوا اليكم فاثبتوا مكانكم حتى ياتيكم امري ففعلوا ما امرهم به الامير ، وتقدم ابو سفيان الى ولده يزيد والراية في يده وحوله اصحابه وقد عزم على الحملة والجهاد . فقال يا بني ان احسنت احسن الله اليك عليك بتقوى الله والصبر فاتق الله حق تقاته وانصر دين الله وشرع نبيه (ص) ، واياك والجزع فما قضاه ربنا قد امضاه فاصبر مع اصحابك صبر اولى العزم ، واياك تم اياك ان يراك الله

منهزما فتبوء بفضب من الله . قال يزيد : سأصبر جهدي وطاقتي والله أسأله أن يكون معينا لي وناصرا .

ثم صاح يزيد برجاله وهز الراية وندبهم الى القتال وحمل على من يليه من الروم فقاتلوا قتالا عظيما ولم يزالوا حتى انكوا العدو نكاية عظيمة وأبلوا بلاء حسنا ، وكان قتالهم من جانب القلب ولم يزالوا كذلك حتى برز اليهم بطريق من البطارقة وبيده رمح عظيم وعليه صليب من الذهب وحوله زهاء من عشرة آلاف فارس من الروم فحملوا على الميمنة وكان فيهم عمرو بن العاص ومن معه فرجعوا على أعقابهم منهزمين حتى دخلت الروم في أوائل عسكر المسلمين مما يلي عمرا ومن معه وهم يتراجعون على الرجال فيكرون تارة ويرجعون تارة حتى تكاثرت عليهم الروم فكشفوهم حتى الصقوهم بالتل الذي عليه النساء واحاطوا بالتل فصاحت امرأة ابن أنصار الدين ابن حماة المسكين ، وكان الزبير ابن العوام جالسا عند زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق يداوى عينه وكان أرمدا ، فلما سمع صوت المرأة وهي تنادي ابن أنصار الدين ؟ قال يا أسماء ما لهذه المرأة تصيح ابن أنصار الدين . فقالت له عفرة ابنة عثمان : يا ابن عمه رسول الله (ص) انهزمت ميمنة المسلمين حتى الجأهم الروم إلينا واحاط بنا الإعلاج ، وهذه نساء الانصار مستصرخة بانصار الدين . فقال الزبير والله اني انا من انصار الدين ولا يراني الله جالسا في مثل هذا الوقت . قال ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالسا على متن جواده فأخذ قناته وتسمى باسمه وقال في حملته : انا الزبير بن العوام ، انا ابن عمه رسول الله (ص) ، وجعل يطعن فيهم طعنا متداركا حتى ردهم على أعقابهم وخيلهم تنكص باذئابها . قال ليث بن جابر : فله در الزبير بن العوام لقد رد الروم بنفسه وحده اذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردهم الى عسكرهم وتراجعت خيل عمرو ورجاله وهو ينادي الرجعة الرجعة الحزم الحزم يا أهل الاسلام الصبر الصبر فتراجعوا بعد ادبارهم .

(قال الواقدي) وحمل جرجير الارمني في ثلاثين ألفا من الارمن على شرحبيل ابن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) فانكشف أصحاب شرحبيل بن حسنة ولم يثبت غيره لقتال الروم في عصابة من قومه دون الخمسمائة فجعل شرحبيل يحمل على الارمن وهو يقول : يا أهل الاسلام لا فرار من الموت الصبر الصبر . قال فتراجع أصحابه اليه وحملوا على الارمن فردوهم على أعقابهم وجعلوا يضربون فيهم حتى أصابوا من الارمن ما لم يصبه الارمن منهم ، فرجع شرحبيل الى مكانه ودار به أصحابه فجعل يعنفهم بالقتال ويقول لهم ما الذي أصابكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرة وانتم الحماة البررة وأهل القرآن وعباد الرحمن أما سمعتم قوله عز وجل - ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بفضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير - وقال الله تعالى - ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم

الجنة - وانتم تهربون . فقالوا يا صاحب رسول الله (ص) زلة من الشيطان مثل يوم أحد وحنين وها نحن معك فاحمل حتى نحمل معك فجزاهم خيرا ووقف مكانه وكان موقفه مما يلي سعيد بن زيد وقد لزموا مواقفهم لم يتحركوا التماسا للحفيظة ، ونظر قيس بن هبيرة الى خيل شرحبيل وقد تراجعت فحمل بمن معه ونادى هو واصحابه بشعارهم وكان شعارهم يا نصر الله انزل يا منصور امت امت وكان هذا شعارهم يوم بدر واحد ، وحمل خالد بن الوليد بمن معه ذات اليمين ، وحمل قيس من ذات الشمال فقاتلوهم قتالا شديدا والله در الزبير بن العوام وهاشم بن المرقال وخالد بن الوليد : لقد حملوا حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان وتواقعت الروم على سرادقات ماهان وخيامه ، فلما نظر ماهان الى ذلك نزل عن سريره هاربا وصاح بالروم وعنفهم فتراجعوا يطلبون القتال وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحمل بمن معه وهو ينادي : لا اله الا الله يا منصور امت امت فأقبلوا يقتلون في الروم قتلا ذريعا ، فبينما المسلمون في حملتهم اذ سمعوا قائلا يقول : يا نصر الله انزل يا نصر الله اقرب ايها الناس الثبات الثبات . قال عامر بن أسلم فتأملنا الصارخ فاذا هو أبو سفيان وتحت رايته ابنه يزيد . قال وشدت الامراء بأجمعهم على من يليهم وقاتلوا قتالا شديدا ولم يكن في الروم اثبت من اصحاب السلاسل فانهم ثبتوا في أماكنهم يمنعون من اتاهم ، وأما الرماة وهم مائة الف رام فكانوا اذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس ، فلولا النصر والمعونة من الله لكان المسلمون هلكوا وانفصل المسلمون فرحين مستبشرين والمشركون قد هلك اكثرهم وبرز عالج من اعلاج الروم كأنه نخلة باسقة وعليه درع مذهب وعلى رأسه بيضة مذهب وعليها صليب من ذهب مرصع بالجواهر وهو راكب على شهباء وعليه زرد من حديد وبيده رمح فجال واشهر نفسه وسأل البراز ، فنظر المسلمون الى عظم خلقته وهول جثته فجعلوا ينظرون اليه . فقال أبو عبيدة لا يهولنكم ما ترون من خلقته فكم رايتم من هو عظيم خلقته ولا قلب له فمن له منكم يخرج اليه واستعينوا بالله عليه ؟ .

قال فخرج اليه عبد من عبيد العرب وبيده سيفه وحجفته وهو زاجل ، فلما اراد ان يدنو من العالج صاح به موله ذو الكلاع الحميري ، فلما رجع خرج اليه ذو الكلاع وجال عليه وكان ذو الكلاع من اهل الشدة والبأس فتواقعا وكل منهما رامح فتطاعنا طعنا شديدا اشد من الجمر ، ثم انهما تجاذبا سيوفهما والتقيا فضرب ذو الكلاع العالج ضربة وضرب العالج ضربة ، وكان سيف العالج قاطعا وساعده قويا فقطع سيفه درقة ذي الكلاع وسيفه ودرعه وما تحته من الثياب ووصلت الضربة الى عضده الايسر فجرحته جرحا بليغا وثقلت يده ، فلما نظر ذو الكلاع الى ما لحقه من العالج عطف بجواده يريد المسلمين ونظر العالج الى ذي الكلاع سابقا فلم يلحقه حتى لحق بالمسلمين فأتى قومه والدم يفور من جرحه ، فاجتمع فرسان قومه فقال لهم يا فرسان

حمير اياكم ان تتكلوا في قتالكم على السلاح ومنعته ولكن اتكلوا في قتالكم على الله عز وجل . قالوا وكيف ذلك ايها السيد ؟ قال لاني رددت عبيدي عن القتال شفقة عليه اذ ليس معه لامة حرب وقلت اني افرس منه واجود عدة ولامه فصنع بي هذا الاغلف ما ترون والله ما لحقني قبلها في حرب مثلها قط فشدوا جرحه ووقف مكانه ، ثم انه صاح بقومه يا رجال حمير ان كان سيدكم قد رجع كلالا فما منكم من يأخذ بشاره فانتدب فارس من فرسان حمير وعليه صباغ اليمن من الابراد والحبر كانه جمره نار وحمل نحو العليج مصمصا وجال جولة عظيمة وطعنه طعنة أثبتها في صدره فأرداه قتيلا وعجل الله بروحه الى النار ، فهم الحميري أن ينزل عن جواده ويأخذ سلبه فحمل عليه كردوس من الروم ليكشفوه عنه فردهم الحميري صاغرين ، ثم رجع اليه وأخذ سلبه وأقبل به على أبي عبيدة فأعطاه اياه فدفع السلب الى قومه ورجع الى مقامه في القتال فخرج اليه آخر فقتله وآخر فقتله فخرج اليه عليج رابع فقتل الحميري ونزل ليأخذ سلب الحميري فرماه رجل من رماة الانصار بنبله فوضعها في لبته فجندله صريعا وعجل الله ببرحه الى النار ، قال فانقلبت الروم على وجوها وهابوا جميع المسلمين ، وكان ذلك البطريق الذي قتل بالنبله من عظمائهم ويقال انه كان صاحب نابلس فصاح بهم ماهان وسكنهم عن اضطرابهم وخرج الى القتال ملك اللان واسمه مريوس وعليه لامة الملوك وعليه ديباجة وفي وسطه منطقة مرصعة بالجواهر فجال بين الصفيين وشهر نفسه وقال انا ملك اللان فلا يبرز لي الا اميركم ، فخرج اليه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) وبيده لواؤه وعليه درع من حديد وهو ممنطق بمنطقة من الاديم وهو على جواده . فقال ابو عبيدة من هذا الذي خرج قالوا له شرحبيل بن حسنة فبعث اليه ابو عبيدة يقول له: ادفع الراية لمن شئت واخرج من غير راية، فلما سمع ذلك سلم الراية لرجل من قومه وقال له قف بها موضعي ، فان قدر علي فسلم الراية الى الامير أبي عبيدة يدفعها لمن يريد ، وان رجعت اخذتها فأخذها الرجل وخرج شرحبيل كاتب وحي رسول الله (ص) نحو ملك اللان وهو يقول :

سأحمل في اللثام بني الاعادي بكل مثقف لدن حداد
فيا بؤسا لقيصر يوم ناتي وجمع الروم شرد في البلاد

قال فسمع البطريق شعر شرحبيل فلم يفهمه وكان يفهم قليلا بالعربية . فقال له : يا عربي ما الذي تقول . قال أقول كلاما تقوله العرب عند الحرب تشجع به نفوسها وتثق بوعد الله الذي وعد به نبينا . فقال ملك اللان وما الذي وعدكم به نبيكم ؟ . فقال شرحبيل وعدنا الله أن يفتح لنا الارض في الطول والعرض ونملك الشام ونكون من الظافرين بنصر الله لنا . قال ملك اللان : ان الله لا ينصر من يبغي وأنتم تبغون علينا وتطلبون ما ليس لكم بحق . فقال شرحبيل نحن قوم أمرنا الله أن نفعل ذلك والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، واني أراك تعرف

كلام العرب فلو تركت بما أنت عليه من عبادة الصليب ودخلت في دين الاسلام كنت من أهل الجنة وسعدت . فقال ملك املان ما أترك دين المسيح أبداً فان دينه حق ؟ فقال شرحبيل لا تقل انه اله معبود ولا تقل صلب وقتل ، فان الله سبحانه وتعالى أحياه في الارض ما شاء ثم رفعه الى السماء ثم قال ملك اللان لن أرجع عن قولي ، ثم استخرج صليبا من عنقه فرفعه ووضعته على عينه وأقبل يستنصر به ففضب شرحبيل من فعالة . فقال له يا ويلك تبا لك ولمن معك ولمن يقول بقولك ، ثم حمل عليه وأخذا في القتال وجالا جولانا عظيما فرمقتهما الابصار وجعل المسلمون يدعون لشرحبيل بالنصر والمعونة ، ونظر شرحبيل الى شدة الكافر ففر بين يديه كأنه منهزم فتبعه عدو الله ، فلما علم شرحبيل انه قد قاربه ثنى عنان جواده فطعنه بقنانه يريد أن يجعلها في نحره فزاغ المشرك عن الطعنة ونجا منها سالما ، ثم قال معاشر العرب انتم لا تدعون الخديعة والمكر . فقال شرحبيل ويلك اما علمت أن الحرب خدعة والمكر رأسها . فقال العليج فما الذي نفعلك من حيلتك ؟ . قال فتضاربا حتى انقطع السيفان في أيديهما فاعتنقا معانقة شديدة وكان المشرك أعظم جثة وأشد منعة ، وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام فضفط عليه المشرك ضفطة أوجعه بها وهم أن يقتله في سرجه والفريقان ينظران اليهما . قال ضرار بن الازور فداخلني والله الفيظ . فقلت في نفسي ويحك يا ضرار يقتل هذا العليج كاتب وحي رسول الله (ص) وانت تنظر اليه فما يمنعك من نصرته .

(قال الواقدي) فخرج ضرار نحوهما يسعى على قدميه كالظبية الخمضاء حتى قرب منهما ولا يعلمان به جميعا وكان في يده خنجر ف ضرب به العليج من ورائه فأطلع الخنجر من قلبه فسقط العليج قتيلاً وخلص شرحبيل من الضفطة . قال فلما سقط العليج عن ظهر جواده نزل اليه شرحبيل وسلب ما كان عليه من لامية حربه ، وركب ضرار جواده وانشى راجعا هو وشرحبيل نحو المسلمين فهنا المسلمون شرحبيل وشكروا ضرارا على فعله . قال ثم ان شرحبيل أخذ سلب العليج فنازعه ضرار فيه . فقال السلب لي وأنا قتلته ، وقال شرحبيل انا أخذ السلب فأتيا ابا عبيدة فخاف ابو عبيدة أن يحكم بينهما فلا يرضون بحكمه ، فكتب الى عمر بن الخطاب (رض) يقول : يا امير المؤمنين ان رجلا خرج الى البراز وقاتل عليجا من الاعلاج وبلغ معه الجهد جهيد ، فخرج آخر من المسلمين فأعان الرجل وقتل العليج : قال ولم يسم ابو عبيدة الرجلين فلمن السلب منهما ؟ ، فجاء الجواب من عمر بن الخطاب ان السلب للقاتل فأخذ السلب ابو عبيدة من شرحبيل وأعطاه ضرارا . فقال - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،

(قال الواقدي) ولما قتل ضرار ملك اللان غضبت الروم ، فخرج فارس شجاع وطلب البراز فخرج اليه الزبير بن العوام (رض) فقتله وأخذ سلبه وخرج اليه ثان وثالث ورابع فقتلهم وأخذ أسلابهم . فقال خالد لابي عبيدة : ان الزبير قد تجرد

للمسلمين وبذل نفسه لله ولرسوله وأخاف عليه من التعب فصاح عليه ابو عبيدة واقسم عليه فراجع الزبير الى مقامه . قال وخرج من الروم بطريق فخرج اليه خالد بن الوليد وكان ملك الروسية فقتله خالد وكان زوج بنت ملك اللان فقوم سلبه وتاجه ومنطقته وصليبه ودرعه بخمسة عشر الفا . قال فأخبر ماهان بذلك فغضب وقال سيدان منا قتلا في يوم واحد واني اظن أن المسيح لا ينصرنا ثم أمر الرماة أن يرموا عن يد واحدة فرموا سهامهم وأطلقوا نحو المسلمين دفعة واحدة مائة ألف سهم ، فكان الشباب يقع في عساكر المسلمين كسقوط اليرد من السماء فكثرت الجراح في الناس وأور من المسلمين سبعمائة عين فسمى ذلك اليوم يوم التعوير ، وكان ممن أصيب بعينه المغيرة ابن شعبة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل التميمي وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن سعيد وكان الرجل بعد ذلك يلقي الرجل . فيقول له ما الذي أصاب عينك ؟ فيقول الآخر لا تقل مصيبة بل هي محنة من الله . قال وعظم وقع السهام في عسكر المسلمين حتى ما كنت تسمع الا من يصيح وأعيننا وابصراه واحداً وعظم اضطراب المسلمين من ذلك . قال فجذبت العرب أعنة خيولها راجعة . قال ونظر ماهان اللعين الى اضطراب جيش المسلمين فحرض الرماة والروم وصاح برجاله وزحفت المسلسلة نحو المسلمين فهالهم ذلك وحمل جرجير وقناطر وقورين ، وقال ماهان اثبتوا على الحملة وارموا العرب بالشباب فزادت الرماة في رميها وزحفت المسلسلة بحديدتها والبوارق تلمع من أكف الرجال كمقاييس النيران والحرب قائمة على ساق ، وأخذ المسلمون على أنفسهم اشفاقاً مما نزل بهم ووصل اليهم من قلع الاحداق ، قال عبادة بن عامر فنظرت الى جيش الشرك وهو نحونا سائر وفرسان المسلمين متأخرة وخيولهم ناكسة . فقلت لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم : اللهم أنزل علينا نصرك الذي نصرتنا به في المواطن كلها ، ثم صحت في رجال حمير تهربون من الجنة الى النار ما هذا الفرار أما تخافون العار ؟ : أما أنتم بين يدي الجبار : أما هو عالم الاسرار فررتهم من الكفار . قال فما أجابني والله أحد كأنهم صم لا يسمعون ؟ قال فقلت كان قبيلتك خرسست عن الجواب فجعلت أهتف بقبائل العرب فكل قد شغل بنفسه عن أجابتي فجعلت أكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فما كان غير بعيد حتى نزل النصر من الله . وذلك أن المسلمين قد انقلبوا راجعين نحو تل النساء ولم يثبت غير أصحاب الرايات . قال عبدالله بن قرط الاسدي شهدت القتال كله فلم أر قتالا أشد من يوم التعوير ورجعت الخيل على أذنانها وقاتلت الامراء بأنفسها والرايات بأيديهم حتى كان أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمسبب بن نجية الفزاري وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والفضل بن العباس يقاتلون قتالا شديداً . قال عبدالله بن قرط : فقلت في نفسي وكم مقدار ما يقاتلون هؤلاء وهم نفر يسير حتى ساعدتنا النساء اللاتي شهدن مع رسول الله (ص) المشاهد يداوين الجرحى ويسقين الماء ويبرزون الى القتال ولم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول

الله (ص) ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن بالسيوف ضربا وجيعا ، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب (رض) ، وكان قد انضم النساء المهاجرات لغيرهن وقامت الحرب على ساق وتنادى النساء بأنسابهن وأمهاتهن وألقابهن ، وجعلن يقاتلن قتال الموت ويضربن وجوه الخيل بالعمد ويلوحن بالاطفال ، وجعل النساء بعضهن يقاتلن المشركين وبعضهن يقاتلن المسلمين حتى رجعوا الى قتال المشركين وبعضهن يسقي الماء وبعضهن يشد الجراح . قال فبينما هن يقاتلن وقد هجمت الرجال اذ انهزمت نساء لخم وجدام وخولان ، فخرجت خولة بنت الازور وأم حكيم ابنة حكيم بنت الحرث وسلمى بنت لؤي ، وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعمد ويقلن اخرجن من بيننا فانتن توهن جمعنا . قال فرجعت نساء لخم وجدام يقاتلن قتال الموت ، وقاتلت أم حكيم بنت الحرث أمام الخيل بالسيوف وما نسمع يومئذ صوت واحدة من النساء غير صوت واعظة تعظ ، وأما أم حكيم فانها جعلت تنادي يا معاشر العرب احصدوا الفلف بالسيوف ، وأما أسماء بنت أبي بكر فانها قرنت عنانها بعنان زوجها الزبير ابن العوام فما كان يضرب الا ضربت مثله . قال فتراجع المسلمون الى القتال حين راوا النساء يقاتلن قتال الموت ويقول الرجل لمن يليه ان لم نقاتل نحن هؤلاء . . والا فنحن احق بالخدور من النساء ، فله در نساء قريش يوم اليرموك .

(قال الواقدي) حدثني عبد الرحمن بن الفضل عن يزيد بن أبي سفيان عن مكحول قال كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة ، قال أبو عامر وحملت خولة بنت الازور على عالج من الاعلاج كان قد حمل علينا فاستقبلته وجعلت تشالسه بالسيوف فضربها العالج بسيفه على قصتها فأسال دمها وسقطت الى الارض فصاحت عفيرة بنت عفان حين نظرتها صريعة ونادت فجع والله ضرار في اخته فأخذت رأسها على ركبته والدم قد صبغ شعرها كالشقائق فقالت لها كيف تجدك قالت أنا بخير ان شاء الله تعالى ولكني هالكة لا محالة فهل لك على أخي ضرار . فقالت عفيرة يا ابنة الازور ما رأيته ؟ فقالت خولة : اللهم اجعلني فداء لآخي ولا تفجع به الاسلام قالت عفيرة فجهدت ان تقوم معي فلم تقم فحملناها الى ان اتينا بها موضعها ، فلما كان الليل رأيته وهي تدور تسقي الرجال وكان ليس بها الم قط ونظر اليها اخوها والضربة في رأسها . فقال لها ما بك ؟ فقالت ضربني عالج قتلته عفيرة . فقال لها يا اختاه ابشري بالجنة فقد اخذت لك بشار الضربة مرارا وقتلت منهم اعدادا قال ولم يزل الحرب من أول النهار وكلما قرب الليل يزيد ويشتعل ضرامها وأبو عبيدة يقاتل برايته والامراء يفعلون كفعله الى ان فصل بينهما الظلام ، وقد قتل من الروم يوم التعوير أربعون الفا أو يزيدون ، ونقل عن خالد انه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف ولقد أخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال كان يعد قتال خالد بمائة

رجل من شجعان الرجال ، قال حازم بن معن وبرز من المشركين في قلب الواقعة أصحاب الديباج والحرير والتجافيف على الخيول الشهب والبلق كأنها من الجبال الراسيات ، فلما برزوا غاصوا في القلب وكروا كرة واحدة ورفعوا في وسطهم صليبا من الجوهر وحملت ميمنتهم على ميسرتنا وميسرتهم على ميمنتنا ، وقد شردوا الى النساء والنساء يضربن وجوههم فجعلن يصحن بهم الله الله لا تفموا الاسلام بهزيمتكم واتقوا ربكم . قال كان بين يدي ابي عبيدة رجل من محرز اسمه نجم بن مفرح وكان من خطباء العصر وافصح العرب لسانا واجرئها جنانا وكان رفيع الصوت حسنه جدا فقصده العرب والفصحاء يسمعون ما ينطق به من نظمه ونثره .

(قال الواقدي) حدثني عبد الملك بن محمد عن ابيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عوف عن موسى بن عمران اليشكري قال رايت نصر بن مازن وهو بجامع النيل يحدث عن وقعة اليرموك . قال مارد الناس عن الهزيمة بعد قضاء الله الى نصره الاسلام الا غلام رجل من بني محارب يقال له نجم بن مفرح وكان لا يتكلم الا بالسجع يؤلفه بحسن نظمه ولقد حفظنا منه يوم اليرموك ما نحن نذكره عنه ، ولقد بلغني أن البلغاء الفصحاء المتأخرين مثل الاصمعي وابي عبيدة اللغوي ينسجان على منواله في حسن كلامه فكان من جملة ما وعظ به المسلمين يوم اليرموك وقت هزيمتهم : ايها الناس هذا يوم له ما بعده وقد عاينتم قربه من بعده ولن ننال الجنة الا بالصبر على المكاره وتالله لا ينالها من هو للجهاد كاره وينشد :

ولله في عرض السموات جنة ونكنها محفوفة بالمكاه
واعلى الدرجات درجة الشهادة فأرضوا عالم الغيب والشهادة وهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في استراقه واخفى نفاقه في نفاقه وانتم أصحاب نبي العصر فأيستم من الثبات والنصر بشروا روح المصطفى بشباتكم وقوموا العزم بصفاء نياتكم واياكم ان تولوا الادبار فتستوجبوا عذاب النار وغضب الجبار ، فوالذي قدر الاقدار ، وادار الفلك الدوار ، وكل شيء عنده بمقدار لقد تزينت لكم الحور العين بأيديهن اباريق وكأس من معين ، فمن طلب دار البقا هان عليه ما يلقي ، فحققوا حملتكم تنالوا بفيتكم واطعنوا الصدور تنالوا الحور وشرعوا الاسنة تنالوا الجنة واغتنموا الصبر يكتب لكم الاجر ، بشروا المؤمنين بحسن عملكم واياكم ان تضلوا عن سبيلكم لا توافقوا الكفار في جهنم واعدلوا عن طريق قولهم ووافقوا من سلف من اسلافكم في فعلهم واسمعوا ما نزل في القرآن من اجلهم - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون - سيروا فقد سبق المفردون ، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون - يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون -

قال وحمل خالد بن الوليد بعصابة حمراء وهو يفرغ الروم باسمه ويقول : أنا خالد ابن الوليد فبرز اليه بطريق يقال له النسطور وعليه الديباج فأقبل يدعو خالدا ويهمهم وخالد في القتال لا يشعر به ولا يدري ما يقول فعندما سمعه يرطن عطف عليه فاقتتلا قتالا شديدا فبينما هما في اشد القتال اذ كبا بخالد الجواد فوقع الفرس على يديه وهوى خالد على ام رأسه . فقال الناس : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

(قال الواقدي) وخالد يقول : حي حي فعلا البطريق على ظهر خالد في عثرته وقد سقطت قلنسوته من رأسه فصاح قلنسوتي رحمكم الله فأخذها رجل من قومه من بني مخزوم وناولها اياها فأخذها خالد ولبسها فقبل له فيما بعد : يا ابا سليمان أنت في مثل هذا الحال من القتال وأنت تقول قلنسوتي . فقال خالد ان رسول الله (ص) لما خلق رأسه في حجة الوداع أخذت من شعره شعرات . فقال لي ما تصنع بهؤلاء يا خالد ؟ فقلت أتبرك بها يا رسول الله وأستعين بها على القتال قتال أعدائي فقال لي النبي (ص) لا تزال منصورا ما دامت معك فجعلتها في مقدمة قلنسوتي فلم ألق جمعا قط الا انهزموا ببركة رسول الله (ص) ، قال ثم شدها بعصابة حمراء وحمل على النسطور وضربه على عاتقه أخرج السيف من علائقه وانسر من بقي من ملوكهم وكرهوا البراز بعد ذلك فكان يدعوهم الى البراز فلا يخرج اليه أحد ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كل فاشفق عليه الحرث بن هشام المخزومي فقال لابي عبيدة : اياها الامير لقد قضى خالد ما يجب عليه وأدى السيف حقه فلم لا أمرته ان يريح نفسه قال فمشى ابو عبيدة اليه وجعل يعزم عليه ان لا يتقدم ويسأله ان يريح نفسه . فقال خالد اياها الامير : أما والله لا طلبن الشهادة بكل وجه فان أخطأني فالله يعلم نيتي وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها ، وذلك ان كل المسلمين استعفوه في حملته وأقبلوا على القتال من بعد هزيمتهم والنساء امام الرجال ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الروم على أعقابها وقد قتل منهم ألوف عديدة ، وأما أصحاب السلاسل فانحطم أكثرهم ووطئتهم الخيل بحوافرها ولم يزل القتال بينهم حتى مالت الشمس بفرونها وانفصل الجمعان وقد جرت الدماء بينهم وفرشت الارض بالقتلى والجراح فاشية في الجمعين لكن في الروم أكثر ورجع كل قوم الى اصلاح شأنهم ومداواة جراحهم ، وأما النساء فأصلحن الطعام وتددن الجروح وداوين السقام ، ولم يقل ابو عبيدة لاحد من المسلمين من يكون الليلة على حرس المسلمين لما عندهم من التعب بل انه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين ، قال فبينما هو يدور اذ رأى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه فكلما قال لا اله الا الله قالا محمد رسول الله فقرب ابو عبيدة منهما فاذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت ابي بكر الصديق فسلم عليهما وقال يا ابن عمه رسول الله (ص) ما الذي أخرجكما ؟ . قال الزبير نحرس المسلمين ، وذلك ان أسماء قالت لي يا ابن عمه رسول الله (ص) ان المسلمين مشتغلون بأنفسهم في هذه

الليلة عن الحرس بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم فهل لك ان تساعدني على حرس المسلمين ؟ فأجبتها الى ذلك فشكرهما أبو عبيدة وعزم عليهما أن يرجعا فلم يفعلوا ولم يزالا كذلك الى الصباح .

(قال الواقدي) حدثني أبو عبيدة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبيران أبا الجعيد كان رئيسا من رؤساء أهل حمص ، فلما اجتمعت الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة ، وكان أبو الجعيد هذا قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص اليها فنزل عسكر الروم على الزراعة عنده وكان فيها عرس لابي الجعيد وزوجته تزف عليه في تلك الليلة . قال فتكلف أبو الجعيد بضيافة الروم وأكرمهم وأطعمهم وسقاهم الخمر ، فلما فرغوا من أمورهم قال هات امرأتك الينا فأبى ذلك وسبهم فأبوا الا اخذ العروس ، فلما شنع عليهم بذلك عمدوا الى العروس واخذوها كرها منه وعبثوا بها بقية ليلتهم فبكى أبو الجعيد من حزنه ودعا عليهم فقتلوا اولاده ، وكان له ولد من زوجة غيرها قال فأقبلت ام الفتى فأخذت رأس ولدها في خمارها وأقبلت به الى مقدم ذلك الجيش ورمت الرأس اليه وشكت حالها ، وقالت له انظر ما صنع اصحابك بولدي فخذ بحقي فلم يعبأ بكلامها . فقالت له ام الفتى والله لتنصرن العرب عليكم ورجعت وهي تدعو عليه فما كان الا يسير حتى هلكوا في أيدي المسلمين ، قال فلما كان يوم اليرموك بعدما قتل النسطور أتى أبو الجعيد الى عساكر المسلمين ، وقال لخالد اعلم ان هذا الجيش النازل بازائكم جيش عظيم ولو سلموا أنفسهم اليكم للقتل لما فرغتم من قتلهم الا في المدة الطويلة فان كدتهم لكم في هذه الليلة مكيدة تظفرون بها عليهم ماذا تعطوني قالوا : نعطيك كذا وكذا ولا تؤدي جزية انت وولدك وأهل بيتك ونكتب لك بذلك عهدا الى آخر عقبك .

(قال الواقدي) فلما استوثق منهم لنفسه مضى الى الروم وهم لا يعلمون وأتى الى واد عظيم مملوء ماء فأنزل الروم الى جانبه ، وقال لهم ان هذا المنزل به العرب وانا سأكيد لكم العرب بمكيدة يهلكون بها . قال وجعل الناقوصة فيما بين الروم والعرب ولم يعلم أحد من الروم ما عمقها . قال فلما كان يوم التعوير وعلم أبو الجعيد ان النصر للعرب وان العرب هم المنصورون ، جاء أبو الجعيد الى أبو عبيدة فوجده يطوف تلك الليلة هو وجماعة من المسلمين المهاجرين . فقال لهم : ما قعودكم ؟ قالوا : وما نصنع ؟ قال اذا كان ليلة غد فأكثروا من النيران . ثم رجع الى الروم لينصب عليهم حيلة . فلما كانت الليلة الثانية أوقد المسلمون أكثر من عشرة آلاف نار ، فلما اشتعلت النيران أقبل اليهم أبو الجعيد ، فقالوا قد اشعلنا النيران كما أردت فما بعد ذلك ؟ قال اريد منكم خمسمائة رجل من ابطالكم حتى أشير عليهم بما يصنعون .

(قال الواقدي) فاختار من المسلمين خمسمائة رجل من جملتهم ضرار بن الازور

وعياض ورافع وعبدالله بن ياسر وعبدالله بن أوس وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر وغانم بن عبدالله ومثل هؤلاء السادات ، فلما اجتمعوا سار بهم أبو الجعيد على غير المخاضة وقصد بهم عسكر الروم ، فلما كادوا يخالطونهم اخذ أبو الجعيد منهم رجالا ودلهم على المخاضة ولم يكن يعلم بها أحد سواه ممن سكن اليرموك وقال لهم ناوشوهم الحرب ، ثم انهزموا ودعوني واياهم . ففعلوا ذلك وصاحوا فيهم وحملوا ثم انهزموا قدامهم نحو المخاضة ، فعند ذلك صاح أبو الجعيد برفيع صوته يا معاشر الروم دونكم ومن انهزم هؤلاء المسلمون ، قد اوقدوا نيرانهم وعولوا على الحرب . قال فأقبلت الروم على حال عجلة يظنون أن ذلك حق ، فبعضهم ركب جواده عريانا وبعضهم راجل وساروا في طلب المنهزمين وأبو الجعيد يعدو بين أيديهم الى أن اوقفهم على الناقوسة وقال لهم : هذه المخاضة دونكم واياهم فاقبلوا يتساقطون في الماء كتساقط الجراد حتى هلك في الماء ما لا يعد ولا يحصى عددا ولا يدركه جنان فسمتها العرب الناقوسة لنقص الروم .

(قال الواقدي) هذا ما جرى للروم ، ولا يعلم الاول بما جرى للآخر حتي أصبحوا ، فنظروا المسلمين في اماكنهم فعلموا أنهم قد دهموا في الليل وقل عددهم وتبدد شملهم فقال بعضهم لبعض من كان الصائح في ليلتنا . قال الرجل الذي عبثتم بزوجه وقاتلتم ولده وقد اخذ بثأره منكم . قال فلما أصبح ماهاان وعلم الحقيقة وعلم ما نزل بأصحابه علم أنه هالك لا محالة وأن العرب ظافرون عليه ، فبعث الى قورين ، فقال ما ترى أن اصنع وقد ظهرت العرب علينا وان حملوا علينا حملة لم ينفلت منا أحد ، فهل لك أن تسألهم أن يأخروا القتال حتى نفعل الحيلة في خلاص أنفسنا ؟ قال قورين أفعل ذلك . قال فدعا ماهاان برجل من لخم وبعثه الى المسلمين يقول لهم : اعلموا أن الحرب سجال والدنيا زوال وقد مكرتم بنا فلا تبغوا فالبغي له مصرع وأخروا الحرب عنا يومنا هذا ، فاذا كان غد يكون الانفصال بيننا وبينكم . قال فأقبل اللخمي الى أبي عبيدة وبلغه الرسالة فهم أبو عبيدة أن يجيبهم الى ذلك فمنعه خالد من ذلك وقال له لا نفعل أيها الأمير فما عند القوم خير بعد ذلك . فقال أبو عبيدة ارجع الى صاحبك وقل له لا تؤخر عنك القتال وأنا على عجل من أمرنا فرجع الرسول الى ماهاان فأعلمه بجواب أبي عبيدة فعظم عليه وكبر لديه وكفر وتجبر وقال : لقد كنت اتربص بنفسي عن العرب أرجو بذلك الصلح فوحق الصليب لا يبرز لهم غيري ثم صرخ بالروم وأصحاب سرير الملك ، ومن كان يتكل عليه في الشدائد وأمرهم أن يأخذوا الالهة فاستعدوا وخرج ماهاان في مقدمة الجيش والصليب امامه واذا بالمسلمين اخذوا مصافهم للقتال ، وذلك أن أبا عبيدة صلى بالمسلمين صلاة الفجر وأمرهم بالسرعة للقتال واخذوا مواضعهم للحرب ففعلوا وقد ايقنوا أنهم منصورون على عدوهم ، وصف أبو عبيدة اصحاب الرايات ووقف هو وخالد في الخيل المعروفة بخيل الزحف وطلعت

الشمس وخرج جرجير هو وبعض ملوك الروم ردعا بالبراز وقال لا يبرز لي الا امير العرب فسمعه ابو عبيدة فسلم الراية الى خالد ، وقال انت للراية يا ابا سليمان فان عدت من قتاله فالراية لي وان هو قتلني فامسك رايتك حتى يرى عمر رايه . فقال خالد انا لقتاله دونك فقال ابو عبيدة لا هو طلبني ولا بد لي من الخروج اليه وانت شريك في الاجر ، فخرج ابو عبيدة وما أحد من المسلمين الا وهو كاره لذلك فأقبلوا يسألونه فلج في الخروج فتركوه ورايه ، فلما قرب ابو عبيدة من جرجير وعايته قال له انت امير هذا الجيش . فقال ابو عبيدة انا ذلك وقد أجبتك الى ما طلبت من امر البراز فدونك وعرض الميدان ، فأما هزمتكم او قتلتك واقتل ماهان بعدك . فقال جرجير أمة الصليب تغلبكم وحمل جرجير على ابي عبيدة وحمل ابو عبيدة على جرجير وطال بينهما القتال وبقي خالد ينظر الى ابي عبيدة ويدعو له بالسلامة والنصر وجميع المسلمين يدعون له . قال وفر جرجير امام ابي عبيدة واخذ في عرض الجيش وطلب في فراره جيش المشركين في الميمنة وتبعه ابو عبيدة على اثره فعندها عطف عليه جرجير وخرج كأنه البرق والتفيا بضربتين فكان ابو عبيدة اسبق فوقعت الضربة على عاتق جرجير فخرجت من علاقته فكبر عند ذلك ابو عبيدة وكبر المسلمون ووقف ابو عبيدة على مصرع جرجير وجعل يتعجب من عظم جثته ولم يأخذ من سلبه شيئا فناده به خالد لله درك ايها الامير ارجع الى رايتك فقد قضيت ما يجب عليك فلم يرجع ابو عبيدة فأقسم عليه المسلمون ان يرجع فرجع وأخذ الراية من يد خالد ونظر ماهان الى جرجير فعظم ذلك عليه وكبر لديه لانه كان ركنا من أركانهم فهم بالهزيمة ، ثم قال في نفسه ماذا يكون عذري عند هرقل ولا بد ان ابرز الى الحرب ، فان قتلت فقد استرحنت من العار وان سلمت كان لي عند الملك عذر احسن من ان اولي الادبار ، ثم انه اعلم رجاله انه يريد المبارزة بنفسه واخذ عدته ولبس زينته وخرج كأنه جبل ذهب يلعب ثم جمع اليه البطارقة والقسوس والرهبان ، وقال لهم ان الملك هرقل كان اعلم منكم بهذا الامر وافه اراد الصلح فخالفتموه فما انا ابرز اليهم بنفسي فتقدم اليه بطريق من بطارقة السرير وكان فيه نسك ودين وكان يعظم الكنائس والرهبان ويتبع ما فرض عليه في الانجيل وكان يقرب من جرجير في النسب ، فلما علم بقتله عظم عليه وقال وحق الصليب لا يبرزن الى المسلمين واخذ بالثار ، فاما ان الحق به واما ان اقتل قاتله . . .

ثم قال لماهان : قد تعين علي الجهاد وانا اؤدي فرض المسيح ولا بد لي من المبارزة ، قال فتركه ماهان فخرج وكان اسمه جرجيس وكان عليه درع وعلى الدرع ثوب حديد متقلد بسيفه ومعه قنطارية وعوذته القسوس وبخروه ببخور الكنائس واقبل اليه راهب عمورية واعطاه صليبا كان في عنقه وقال هذا الصليب من ايام المسيح يتوارثه الرهبان ويتمسحون به فهو ينصرك فأخذه جرجيس ونادى البراز بكلام عربي فصيح حتى ظن الناس انه عربي من المنتصرة فخرج اليه ضرار بن الازور كأنه شعلة

نار ، فلما قاربه ونظر اليه والى عظم جثته بدم على خروجه بالعدة التي أثقلته . فقال في نفسه وما عسى يغني هذا اللباس اذا حضر الاجل ثم رجع موليا فظن الناس انه ولي فزعا فقال قائل منهم ان ضارا قد انهزم من العليج وما ضبط عنه قط انه انهزم وهو لا يكلم احدا حتى صار الى خيمته ونزع ثيابه وبقي بالسراويل واخذ قوسه وتقلد بسيفه وجحفته وعاد الى الميدان كانه الظبية الخمصاء فوجد مالكا النخعي قد سبقه الى البطريق وكان مالك من الخطاط اذا ركب الجواد تسحب رجلاه على الارض فنظر ضارا فاذا بمالك ينادي العليج تقدم يا عدو الله يا عابد الصليب الى الرجل النجيب ناصر محمد الحبيب فلم يجبه العليج لما داخله من الخوف منه قال فجال عليه وهم ان يطعنه فلم يجد للطعنة مكانا لما عليه من الحديد فقصد جواده وطعنه في خاصرته فأطلع السنان يلمع من الجانب الآخر فنفر الجواد من حرارة الطعنة وهم مالك أن يخرج الرمح فلم يقدر لانه قد اشتبك في ضلوع الجواد وهو على ظهره لم يقدر أن يتحرك ، لانه مزور في ظهر الجواد بزنانير الى سرجه فنظر المسلمون الى ضارا وقد أسرع اليه مثل الظبية حتى وصل اليه وضربه بسيفه على هامته فشطرها نصفين واخذ سلبه فأثاه مالك وقال ما هذا يا ضارا نشاركني في صيدي فقال ما انا بشريكك ، وانما انا صاحب السلب وهو لي . فقال مالك انا قتلت جواده ؟ فقال ضارا رب ساع لقاعد آكل غير حامل فتبسم مالك ، وقال خذ صيدك هناك الله به قال ضارا انما انا مازح في كلامي خذه اليك فوالله ما آخذ منه شيئا وهو لك وانت أحق به مني ثم انتزع سلب العليج وحمله على عاتقه وما كاد ان يمشي به وهو يتصبب عرقا قال زهير بن عابد ولقد رأيته وهو يسير به وهو راجل ومالك فارس حتى طرحه في رحل مالك . فقال ابو عبيدة بأبي وامي والله قوم وهبوا انفسهم الله وما يريدون الدنيا قال فلما قتل البطريق قص جناح ماهان فصاح بقومه وجمعهم اليه وقال لهم اسمعوا يا اصحاب الملك وبلغوه عني اني ما تركت جهدي في نصره هذا الدين وحاميت عن الملك وقاتلت عن نعمته وما اقدر ان اغالب رب السماء ، لانه قد نصر العرب علينا وملكهم بلدنا والآن مالي وجه ارجع به الى الملك حتى اخرج الى الحرب وأبرز الى مقام الطعن والضرب وعزمت ان اسلم الصليب الى أحدكم وأبرز الى قتال المسلمين ، فان قتلت فقد استرحت من العار ومن توبيخ الملك لي ، وان رزقت النصر وانرت في المسلمين اثرا ورجعت سالما علم الملك اني لم اقصر عن نصرته فقالوا ايها الملك لا تخرج الى الحرب حتى نخرج نحن الى القتال قبلك فاذا قتلنا فافعل بعدنا ما شئت ، قال فحلف ماهان بالكنائس الاربع لا يبرز احد قبله ، قال فلما حلف امسكوا عنه وعن مراجعته ثم انه دعا بابن له فدفع اليه الصليب وقال قف مكاني وقدم لماهان عدة فأفرغت عليه

(قال الواقدي) وبلغنا ان عدته التي خرج بها الى الحرب تقومت بستين ألف دينار لان جميعها كان مرصعا بالجواهر ، فلما عزم على الخروج تقدم له راهب من

الرهبان ، فقال ايها الملك ما ارى لك الى البراز سبيلا ولا احبه لك ، قال ولم ذلك ؟ قال لاني رايت لك رؤيا فارجع ودع غيرك يبرز . فقال ماهان لست افعل والقتل احب الي من العار ، قال فبخروه وودعوه وخرج ماهان الى القتال وهو كأنه جبل ذهب يبرق واقبل حتى وقف بين الصفيين ودعا الى البراز وخوف باسمه فكان اول من عرفه خالد بن الوليد فقال : هذا ماهان هذا صاحب القوم قد خرج ، ووالله ما عندهم شيء من الخير قال وماهان يرعب باسمه فخرج اليه غلام من الاوس وقال والله انا مشتاق الى الجنة وحمل ماهان وبيده عمود من ذهب كان تحت فخذه فضرب به الغلام فقتله وعجل الله بروحه الى الجنة . قال ابو هريرة (رض) فنظرت الى الغلام عندما سقط وهو يشير باصبعه نحو السماء ولم يهله ما لحقه فعلمت أن ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين قال فجال ماهان على مصرعه وقوي قلبه ودعا الى البراز فسارع المسلمون اليه فكل يقول : اللهم اجعل قتله على يدي ، وكان اول من برز مالك النخعي الاشتر (رض) وساواه في الميدان فابتدر مالك ماهان بالكلام وقال له ايها العليج الاغلف لا تفتر بمن قتلته ، وانما اشتاق صاحبنا الى لقاء ربه وما منا الا من هو مشتاق الى الجنة ، فان اردت مجاورتنا في جنات النعيم فانطق بكلمة الشهادة او اداء الجزية والا فانت هالك لا محالة . فقال له ماهان : انت صاحبي خالد بن الوليد ؟ قال : لا انا مالك النخعي صاحب رسول الله (ص) فقال ماهان لا بد لي من الحرب ثم حمل على مالك وكان من اهل الشجاعة فاجتهدا في القتال فأخرج ماهان عموده وضرب به مالكا على البيضة التي على رأسه ففاصت في جبهة مالك فشترت عينيه فمن ذلك اليوم سمي بالاشتر قال فلما رأى مالك ما نزل به من ضربة ماهان عزم على الرجوع ثم فكر فيما عزم عليه فدبر نفسه ، وعلم أن الله ناصره قال والدم فائر من جبهته وعدو الله يظن انه قتل مالكا وهو ينظره متى يقع عن ظهر فرسه واذا بمالك قد حمل واخذته أصوات المسلمين يا مالك استعن بالله يعينك على قرينك قال مالك فاستعنت بالله عليه وصليت على رسول الله (ص) وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن فعلمت أن الاجل حصين ، فلما أحس ماهان بالضربة ولى ودخل في عسكره .

(قال الواقدي) ولما ولى ماهان بين يدي مالك الاشتر منهزما صاح خالد بالمسلمين يا اهل النصر والبأس احملوا على القرم ما داموا في دهشتهم ثم حمل خالد ومن معه من جيشه وحمل كل الامراء بمن معهم وتبعهم المسلمون بالتهليل والتكبير فصبرت لهم الروم بعض الصبر ، حتى اذا غابت الشمس واطلم الافق انكشف الروم منهزمين بين أيديهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون كيف شاءوا فقتلوا منهم زهاء مائة الف وأسروا مثلها وغرق في الناقوسة منهم مثلها وأمم لا تحصي وتفرق منهم في الجبال والودية وخيول المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون ويأتون من الجبال بالاسارى ولم يزل المسلمون يقتلون ويأسرون الى ان راق الليل . فقال ابو عبيدة

اتركهم الى الصباح فتراجعت المسلمون وقد امتلأت ايديهم من الفنائم والسرادات وآنية الذهب والفضة والزلازل والتمارق والطنافس .

(قال الواقدي) ووكّل أبو عبيدة رجالا من المسلمين بجمع الفنائم وبات المسلمون فرحين بنصر الله حتى أصبحوا ، فاذا ليس للروم خبر ووقع اكثرهم في الناقوصة في الليل .

(قال عامر بن ياهر) حدثني نوفل بن عدي عن جابر بن نصر عن حامد بن مجيد . قال اراد أبو عبيدة ان يحصى عدد المشركين فلم بقدر ان يحصي ذلك فأمر بقطع القصب من الوادي وجعل على كل قتيل قسبة ، ثم عدوا القصب فاذا القتلى مائة ألف وخمسة آلاف والاسارى اربعون الفا غير من غرق في الناقوصة وقتل من المسلمين اربعة آلاف ووجد أبو عبيدة رؤوسا في اليرموك فلم يعلم أهم من العرب أم من الروم . قال ثم انه صلى على قتلى المسلمين وسار في طلبهم الى الجبال والادوية واذا هم براع قد استقبلهم فسألوه هل مر بك احد من الروم . قال نعم مر بي بطريق ومعه زهاء من اربعين الفا .

(قال الواقدي) وكان ذلك ماهان لعنه الله فاتبعهم خالد بن الوليد وجعل يقفو أثرهم ومعه عسكر الزحف فأدركهم على دمشق ، ولما أشرف عليهم كبر وكبر المسلمون وحملوا ووضعوا فيهم السيف فقتل مقتلة عظيمة ، وكان ماهان قد ترجل عن جواده ، وقيل انه ترجل ينكر نفسه ويسلم من القتل فاتاه رجل من المسلمين فحامي عن نفسه فقتله الرجل ، وكان قاتله النعمان ابن جهلة الازدري وعاصم بن خوال اليربوعي وقد اختلفوا في أيهما قتل ماهان .

(قال الواقدي) وخرج اهل دمشق الى لقاء خالد وقالوا له نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم . قال خالد انتم على عهدكم ومضى في طلب الروم يقتلهم حيث وجوههم حتى انتهى الى ثنية العقاب واقام تحتها يوما ، ثم مضى الى حمص ونزل بها وبلغ ذلك ابا عبيدة فسار حتى لحق به فيمن معه قال والامراء في طلب الروم من كل جهة من الشام ثم اجتمعوا وعادوا الى دمشق وجمع أبو عبيدة الفنائم وأخرج منها الخمس وكتب الى عمر بن الخطاب (رض) كتاب البشارة والفتح : بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على نبيه المصطفى ورسوله المجتبي (ص) ، من ابي عبيدة عامر بن الجراح : أما بعد فأنا أحمد الله الذي لا اله الا هو وأشكره على ما أولانا من النعم وخصنا به من كرمه ببركات نبي الرحمة وشفيع الامة (ص) ، واعلم يا امير المؤمنين اني نزلت اليرموك ونزل ماهان مقدم جيوش الروم بالقرب منا ولم ير المسلمون اكثر جمعا منه فأقصى الله تلك الجموع ونصرنا عليهم بمنه وكرمه وفضله فقتلنا منهم زهاء من مائة ألف وخمسة آلاف واسرنا منهم اربعين الفا واستشهد من المسلمين اربعة آلاف ختم الله لهم بالشهادة ووجدت في المعركة رؤوسا مقطوعة لم أعرفها فصليت عليها

ودفنتها وقتل ماهان على دمشق قتله عاصم بن خوال ، وقد كان قبل وقعة الانفصال نصب عليهم رجل منهم يقال له أبو الجعيد من أهل حمص حيلة فالتقاهم في موضع يقال له الناقوصة ففرق منهم ما لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وأما من قتل من المشركين في الاودية والجبال من المنهزمين وغيرهم وأخذت عدتهم فتسعون ألفا وقد ملكنا أموالهم وخیولهم وحصونهم وبلادهم وكتبنا اليك هذا الكتاب بعد الفتح ونزلنا في دمشق والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين ، وطوى الكتاب وختمه ودعا بحذيفة بن اليمان ودفع الكتاب اليه وضم اليه عشرة من المهاجرين والانصار وقال لهم سيروا بكتاب الفتح والبشرى الى أمير المؤمنين وبشروه بذلك وأجركم على الله ، فأخذ حذيفة الكتاب وسار هو والعشرة من وقتهم وساعتهم يجدون السير ليلا ونهارا حتى قربوا من المدينة .

(قال الواقدي) قال عبدالله بن عوف المالكي عن أبيه قال : لما هزم الله الروم في اليرموك وكان من أمرهم ما كان رأى عمر بن الخطاب ليلة هزيمة الروم رسول الله (ص) جالسا في الروضة ومعه أبو بكر الصديق (رض) ، وكان عمر يسلم عليهما ويقول : يا رسول الله ان قلبي مشغول على المسلمين وما يصنع الله بهم ، وقد بلغني أن الروم في ألف ألف وستين ألفا . فقال يا عمر أبشر فقد فتح الله على المسلمين وقد انهزم عدوهم وقتل كذا وكذا ، ثم تلا رسول الله (ص) - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - الآية . قال فلما كان من الغد صلى عمر بالناس صلاة الفجر وأعلم الناس بما رأى في منامه . قال فاستبشر المسلمون وفرحوا وعلموا أن الشيطان لا يتمثل بالنبي (ص) وأرخوا تلك الليلة فكانت كما ذكره النبي (ص) فسجد عمر لله شكرا ووصله الكتاب فقراه عمر على الناس فارتفعت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير . ثم قال يا حذيفة فهل قسم أبو عبيدة الفنائم ؟ فقال يا أمير المؤمنين هو منتظر كتابك وأمرك . فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام سلام عليك . أما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين من نصرتهم وانهزام عدوهم ، فاذا وصل اليك كتابي هذا فاقسم الغنيمة بين المسلمين وفضل أهل السبق واعط كل ذي حق حقه واحفظ المسلمين واكلاهم واشكرهم على صبرهم وفعالهم ، وأقم بموضعك حتى يأتيك أمري ، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وسلمه لحذيفة ابن اليمان فأخذه حذيفة وسار حتى ورد على أبي عبيدة فوجده على دمشق ، فسلم عليه وعلى المسلمين وناولته الكتاب ، فلما قراه على المسلمين قسم الفنائم فأصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من الذهب الأحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة وأعطى الفرس الهجين سهما والفرس العتيق سهمين والحق

القادمين على الخيل بالعرايب ، فلما فعل أبو عبيدة ذلك . قال أصحاب الحمر الحقنا بالعرايب . فقال أبو عبيدة اني قسمت عليكم بما قسم النبي (ص) الفنيمة بين أصحابه فلم يقبلوا قوله فكتب الى عمر بذلك يعلمه باختلاف الناس في الخيل والهجين والعرايب فكتب اليه عمر يقول : اما بعد فقد عملت بسنة رسول الله (ص) ولم تتعد حكمه ، فأعط الفرس العربي سهمين والهجين سهما ، واعلم أن رسول الله (ص) عرب العربيين وهجن الهجين يوم خيبر فجعل للهجين سهما وللعربي سهمين ، فلما ورد الكتاب على أبي عبيدة وقراه على المسلمين . قال ما أراد أبو عبيدة أن يحقر رجلا منكم ، ولكن تبعت سنة رسول الله (ص) .

(قال الواقدي) فلما قسم أبو عبيدة الفنائم على المسلمين . قال له خالد بن الوليد : ان رجلا من المسلمين تشفع بي اليك أن تلحق فرسه الهجين بفرسه العتيق العربي وتعطيه سهمين فأبى أبو عبيدة ، وقال والله ان سف التراب أحب الي من ذلك . وروى عثمان أن ابن الزبير . قال شهدت جدي الزبير بن العوام يوم اليرموك ومعه فرسان يتعقب عليهما للقتال يركب هذا يوما وهذا يوما ، فلما كان وقت قسم الفنائم اعطاه أبو عبيدة ثلاثة أسهم له سهم ولفرسه سهمان . فقال الزبير اما تصنع بي كما صنع بي رسول الله (ص) يوم خيبر كان معي فرسان فأسهمني رسول الله (ص) يوم خيبر خمسة أسهم لفرسي أربعة وأعطاني سهما ، وقال المقداد ابن عمرو كنت أنا وأنت يوم بدر ومعنا فرسان لا غيرهما فأعطى رسول الله (ص) سهمين سهمين للفرسين ، قال أبو عبيدة انك لصادق يا مقداد أنا أتبع فعل رسول الله (ص) وأعطى الزبير وأقبل جابر بن عبد الله الانصاري فشهد عند أبي عبيدة أن رسول الله (ص) أعطى الزبير يوم خيبر خمسة أسهم ، فلما فعل ذلك أتى رجال من رجال العرب لكل واحد منهم أربعة أفراس وخمسة أفراس فقالوا الحقنا بالزبير قال فاستأذن عمر في ذلك . فقال صدق الزبير ان رسول الله (ص) اعطاه يوم خيبر خمسة أسهم فلا تعط غيره مثله .

وروى عروة عن أبي الزبير . قال لقي الزبير غلاما كان قد وقع بيده يوم غنيمة عمان فهرب منه ، فلما كان يوم اليرموك قبل قسم الفنائم عرفه فقبض عليه وأخذ بيده فقال له الموكل على حفظ الغنيمة لست أدعك فبينما هما في المحاورة اذ أقبل أبو عبيدة ، فقال ما بالكما ؟ فقال الزبير أيها الأمير هذا غلامي وصل الى من غنيمة عمان وهرب مني وقد رأيتاه الآن فلا بد لي منه فقال أبو عبيدة صدق ابن عمه رسول الله (ص) هو له وأنا سلمته له من غنيمة عمان فسلمه اليه فأخذه الزبير ، قال زيد المرادي هربت منا جارية الى العدو وظفرنا بها يوم اليرموك في قسم الفنائم فكلمنا أبا عبيدة فيها فكتب الى عمر فرد اليه الجواب ، ان كانت جارية حربية ففيها السهام والا فلا سبيل اليها وان كانت لم تجر فيها السهام فردوها فكأن القوم لا يرضون بهذا من أبي عبيدة . فقال أبو عبيدة والله الذي لا اله الا هو هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

يحكم بما امرتكم فقبل قوله ودفع الجارية الى القسم .
(قال الواقدي) حدثني لؤي بن عبد ربه عن سالم مولى حذيفة بن اليمان عن القاسط بن سلمة بن عدي بن عاصم عن حدثه عن فتوح الشام . قال لما هزم الله الروم باليرموك على يد أصحاب رسول الله (ص) وبلغ الخبر الى هرقل بهزيمة جيشه وقد قتل ماهان وجرجير وغيرهما ، قال علمت ان الامر يصل الى هنا ثم اقام ينتظر ما يجري من المسلمين .

ذكر فتح مدينة بيت المقدس

(قال الواقدي) وأما ما كان من المسلمين فانهم اقاموا على دمشق شهرا فجمع ابو عبيدة أمراء المسلمين وقال لهم اثيروا علي بما أصنع وأين أتوجه ؟ فاتفق رأي المسلمين اما الى قيسارية واما الى بيت المقدس . فقال فما الذي ترون منهما ؟ . فقالوا أنت الرجل الأمين وما تسير الى موضع الا ونحن معك . فقال معاذ بن جبل اكتب اى أمير المؤمنين سمر بن الخطاب فحيث أمرك فسر واستعن بالله . فقال أصبت الرأي يا معاذ فكتب الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يعلمه انه قد عزم على قيسارية أو الى بيت المقدس وانه ينتظر ما يأمره به والسلام ، وارسل الكتاب مع عرفة بن ناصح النخعي وأمره بالمسير فصار حتى وصل المدينة فأرسل الكتاب لعمر (رض) فقرأه على المسلمين واستشارهم في الامر . فقال علي (رض) : يا أمير المؤمنين مر صاحبك ان يصير الى بيت المقدس فيحذقوا بها ويقاتلوا أهلها فهو خير الرأي وأكبره ، وإذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعد ان شاء الله تعالى كذا أخبرني رسول الله (ص) . قال صدقت يا أبا الحسن فكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام أبي عبيدة . أما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه ، وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه اليها ، وقد أشار ابن عم رسول الله (ص) بالسير الى بيت المقدس فان الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك ، ثم طوى الكتاب ودفعه الى عرفة وأمره ان يعجل بالمسير فصار حتى قدم على أبي عبيدة فوجده على الجابية ، فدفع الكتاب اليه فقرأ على المسلمين ففرحوا بمسيرهم الى بيت المقدس ، فعندها دعا أبو عبيدة بـخالد بن الوليد وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف وسرحه الى بيت المقدس ، ثم دعا يزيد بن أبي سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف وأمره ان يلحق بـخالد الى بيت المقدس ، وقال له يا ابن أبي سفيان ما علمتك الا ناصحا ، فاذا أشرفت على بلد ايلياء فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الانبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدي المسلمين ، فأخذ يزيد الراية وسار يريد بيت المقدس فصار ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي (ص) وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف

فارس من أهل اليمن وقال له سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك ، ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وضم إليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على أنر شرحبيل ابن حسنة وقال له انزل على حصنها وأنت منعزل عن أصحابك ، تم عقد راية خامسة فسلمها للمسيب ابن نجية الفزاري وأمره أن يلحق بأصحابه وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل ، وعقد راية سادسة وسلمها الى قيس بن هبيرة المرادي وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءه ، تم عقد راية سابعة وسلمها الى عروة بن مهلهل بن يزيد الخيل وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم ، فكان جملة من سرحه ابو عبيدة الى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفا وسارت السبعة امراء في سبعة أيام في كل يوم أمير ، وذلك كله يهرب به أعداء الله فبقي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه .

فكان اول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد ، فلما أشرف عليهم كبر وكبر أصحابه ، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعت قلوبهم وصعدوا على أسوار بلدهم ، فلما نظروا الى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلي باب أريحاء ، وأقبل في اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان ، وفي اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة ، وأقبل في اليوم الرابع المرقال ، وأقبل في اليوم الخامس المسيب بن نجية ، وأقبل في اليوم السادس قيس بن هبيرة فنزل ، وأقبل في اليوم السابع عروة بن مهلهل بن زيد الخيل فنزل مما يلي طريق الرملة . قال عبدالله بن عامر بن ربيعة الفطفاني ما نزل أحد من المسلمين على بيت المقدس الا وكبر وصلى ما قدره الله عليه ودعا بالنصر والظفر على الأعداء ، ويقال ان خالدا كان هو وأبو عبيدة . قال فلما مضى العسكر قام أبو عبيدة وخالد وبقية المسلمين والذراري والسواد والفنم وما أفاء الله على المسلمين من المواشي والاموال فلم يبرحوا من مكانهم . قال وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزهم حرب ولا ينظرون رسولا يأتي اليهم ولا يكلمهم أحد من أهلها الا أنهم قد حصنوا أسوارهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة ، قال المسيب بن نجية الفزاري ما نزلنا ببئذ من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم الا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة الا أهل بيت المقدس نزلنا بازائهم ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة ، فلما كان في اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة : أيها الأمير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو بكم فلا ينطقون أو عمي فلا يبصرون ازحفوا بنا اليهم ، فلما كان في اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان اول من ركب من المسلمين من الامراء لسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان فشهر سلاحه

وجعل يدنو من سورهم وقد اخذ معه ترجمانا يبلغه عنهم ما يقولون فوقف بازاء سورهم بحيث يسمعون خطابه، وهم صامتون .

فقال لترجمانه قل لهم أمير العرب يقول لكم ماذا تقولون في اجابة الدعوة الى الاسلام والحق وكلمة الاخلاص وهي كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله حتى يفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنوا بها دماءكم ، وان أبيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو أعظم منكم عدة واشد منكم ، وان أبيتم هاتين الحالتين حل بكم البوار وكان مصيركم الى النار . قال فتقدم الترجمان اليهم وقال لهم من المخاطب عنكم فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال انا المخاطب عنهم ماذا تريد ؟ . فقال الترجمان : ان هذا الامير يقول كذا وكذا ويدعوكم الى احدى هذه الخصال الثلاث : اما الدخول في الاسلام ، او اداء الجزية ، واما السيف . قال فبلغ القس من وراءه ما قال الترجمان . قال فضجوا بكلمة كفرهم وقالوا لا نرجع عن ديننا والقبول وان قتلنا أهون علينا من ذلك فبلغ الترجمان ذلك ليزيد . قال فمشى الى الامراء واخبرهم بجواب القوم . قال لهم ما انتظازكم بهم . فقالوا ان الامير ابا عبيدة ما امرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب الى امين الامة فان امرنا بالزحف زحفنا ، فكتب يزيد بن ابي سفيان الى ابي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر ؟ فكتب اليهم ابو عبيدة يأمر بالزحف وانه واصل في اثر الكتاب ، فلما وقف المسلمون على كتاب ابي عبيدة فرحوا واستبشروا وباتوا ينتظرون الصباح .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان المسلمين باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادما يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس ، وكل أمير يريد أن يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر الى آثار الانبياء ، قال فلما اضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر قال فقرا يزيد لاصحابه — يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا — الآية فيقال ان الامراء اجري الله على سنتهم في تلك الصلاة ان قراوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد ، فلما فرغوا من الصلاة نادوا النفير النفير يا خيل الله اركبي . قال فأول من برز للقتال حمير ورجال اليمن وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية ، ونظر اليهم أهل بيت المقدس وقد انشروا لقتالهم فنشطهم ورشقوا المسلمين بالنشاب فكانت كالجراد ، فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم تزل الحرب بينهم من الغد الى الغروب يقاتلون قتالا شديدا ولم يظهروا فزعا ولا رعبا ولم يطمعوه في بلدهم ، فلما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون ما فرض الله عليهم واخذوا في اصلاح شأنهم وعشائهم ، فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران واستكثروا منها ، لان الحطب عندهم كثير فبقي قوم يصلون ، وقوم يقرأون ، وقوم يتضرعون ، وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل ، فلما كان الغد بادر

المسلمون اليهم وذكروا الله كثيرا واثنو عليه وصلوا على رسول الله (ص) ، وتقدمت رماة النبل واقبلوا يرمون ويذكرون الله وهم يضجون الى الله بالدعاء .

(قال الواقدي) ولم يزل المسلمون على القتال عدة ايام واهل بيت المقدس يظهرون الفرح وانه ليس على قلوبهم من هم ولا جزع ، فلما كان اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فرسان المسلمين وأبطال الموحدين وقد أحدقوا بأبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر عن يساره وجاءت النسوان والاموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب في قلوب أهل بيت المقدس فانقلب كبارهم وعظماؤهم وبطارقتهم الى البيعة العظمى عندهم وهي القمامة ، فلما وقفوا بين يدي جائلقيهم وكانوا يعظمونه ويجلونه ، فلما سمعوا تلك الضجة دخلوا عليه ووقفوا بين يديه وخضعوا له وقالوا يا أبانا قد قدم أمير القوم الينا ومعه بقية المسلمين وهذه الضجة بسببه ، فلما سمع بتركهم وجائلقيهم تغير لونه وتغير وجهه وقال هي هي . قالوا ما ذلك أيها البترك والاب الكبير . قال وحق الانجيل ان كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام . قالوا وكيف ذلك ؟ قال لانا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين ان الذي يفتح الارض في الطول والعرض هو الرجل الاسمر الاحور المسمى بعمر صاحب نبينهم محمد ، فان كان قد قدم فلا سبيل لقتاله ولا طاقة لكم بنزاله ولا بد لي ان أشرف عليه وأنظر اليه والى صورته ، فان كان اياه عمدت الى مصالحته واجبته الى ما يريد ، وان كان غيره فلا نسلم اليه قط لان مدينتنا لا تفتح الا على يد من ذكرته لكم والسلام ، ثم انه وثب قائما والقسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصليبان على رأسه وفتحوا الانجيل بين يديه ودارت البطارقة من حوله وصعد على الصور من الجهة التي فيها أبو عبيدة فنظر الى المسلمين وهم يسلمون عليه ويعظمونه ، ثم يرجعون الى القتال كأنهم الاسد الضارية فناداهم رجل ممن كان يمشي بين يدي البترك . فقال : يا معاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى نستخبركم ونسألكم . قال فأمسك الناس عن القتال فناداهم رجل من الروم بلسان عربي فصيح : اعلموا ان صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الارض عندنا ، ان كان هو أميركم فلا نقاتلكم بل نسلم اليكم وان لم يكن اياه فلا نسلم اليكم أبدا .

(قال الواقدي) فلما سمع المسلمون ذلك أقبل نفر منهم الى أبي عبيدة وحدثه بما سمعوه . قال فخرج أبو عبيدة اليهم الى ان حاذاهم ، فنظر البترك اليه وقال ليس هو هذا الرجل فابشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحريمكم ، فلما سمعوا قوله رفعوا أصواتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم وأقبلوا يقاتلون القتال الشديد وعاد البترك الى القمامة ولم يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة ، بل أمر قومه بالحرب والقتال وعاد أبو عبيدة الى أصحابه . فقال خالد ما كان منك أيها الأمير ؟ فقال لا علم لي غير اني خرجت

اليهم كما رأيت وأشرف علي شيطان من شياطينهم الذي يضلهم ، فما هو غير ان نظر لي وتأملني حتى ضجوا ضجة واحدة وولى عني ولم يكلمني . فقال خالد يوشك ان يكون لهم في ذلك تأويل ورأي فنقف عليه ونعلم نبأه ، ثم قال شدوا عليهم الحرب . والقتال فشد عليهم المسلمون .

(قال الواقدي) وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في ايام الشتاء والبرد وظنت الروم ان المسلمين لا يقدرّون عليهم في ذلك الوقت . قال وزحف المسلمون اليهم وبرزت النبالة من أهل اليمن ، وصمم أصحاب القسي ورشقوهم بالنبل وكانوا غير محترزين من النبل لقلة اكرائهم به حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم من وراء ظهورهم وهم لا يشعرون . قال مهلهل لله در عرب اليمن فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم ، فلما رأوا ما صنع بهم النبل احترزوا منه وستروا السور بالحجف والجلود وبما يرد النبل . قال ونظرت الروم الى ضرار بن الازور وقد اقبل نحو الباب الاعظم وعليه بطريق كبير وعلى رأسه صليب من الجوهر وحوله غلمان وعليهم الطوارق وبأيديهم القسي الموترة والعمد وهو يحرض القوم على القتال . قال عوف بن مهلهل الى ضرار وقد قصد نحوه وهو يختفي ويستتر الى أن قرب من البرج الذي عليه البطريق ثم اطلق اليه نبله ، قال عوف فنظرت الى النبلة مع علو هذا الجدار وقد خرجت من قوس ضرار والبرج عال رفيع . فقلت وما تكون هذه النبلة مع علو هذا الجدار وما الذي تصنع في هذا العليج وعليه هذه اللامة اللامعة فأقسم بالله لقد وقعت هذه النبلة في فيه فتردى الى أسفل برجة فسمعت للقوم ضجة عظيمة ورجولة هائلة فعلمت أنه قتل ، قال ولم يزل ابو عبيدة ينازل ميم المقدس اربعة اشهر كاملة ، وما من يوم الا ويقاثلهم قتالا شديدا والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر . فلما نظر أهل بيت المقدس الى شدة الحصار وما فزل بهم من المسلمين قعدوا التمامة ووقفوا بين يدي بتركيهم وسجدوا بين يديه وعظموه وقالوا له : يا إبنانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا أن يأتينا مدد من قبل الملك ، ولا شك أنه اشتغل عنا بنفسه من أجل هزيمة جيشه وانهم أشهى منا للقتال وانهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقارا منا لهم ، والان قد عظم علينا الامر وانا نريد منك أن تشرف على هؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا ، فان كان أمرهم قريبا أجبنا الى ما يريدون ويطلبون ، وان كان صعبا فتحنا الابواب وخرجنا اليهم فاما أن نقتل عن آخرنا واما ان بهزمهم عنا فاجابهم البترك الى ذلك واشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسوس والرهبان حوله وبأيديهم الاناجيل مفتحة والمباخر حتى اشرف على المكان الذي فيه ابو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يا معاشر العرب ان عمدة دين النصرانية وصاحب شريعته قد اقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم فاخبروا أبا عبيدة بمقالهم .

فقال والله اني لاجيبه حيث دعاني ، تم قام أبو عبيدة وجماعة من الامراء والصحابة ومعه ترجمان ، فلما وقف بازائه قال لهم الترجمان : ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة ؟ ومن قصدها يوشك أن الله يفضب عليه ويهلكه فأخبره الترجمان بذلك . فقال قل لهم نعم انها شريفة ومنها أسرى بنينا الى السماء ودنا من ربه - كقاب قوسين أو أدنى - وانها معدن الانبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكنا الله اياها كما ملكنا غيرها . قال البترك فما الذي تريدون منا ؟ قال أبو عبيدة خصلة من ثلاث : أولها أن تقولوا لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فان أجبتكم الى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا . قال البترك انها كلمة عظيمة ونحن قائلوها الا أن نبيكم محمدا ما نقول انه رسول . قال أبو عبيدة كذبت يا عدو الله انك لم توحيد قط وقد أخبرنا الله في كتابه انكم تقولون المسيح ابن الله : لا اله الا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . قال البترك هذه خصلة لا نجيبكم اليها فما الخصلة الثانية . فقال أبو عبيدة تصالحوننا عن بلدكم أو تؤدون الجزية الينا عن يد وانتم صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام .

قال البترك هذه الخصلة أعظم علينا من الاولى وما كنا بالذي يدخل تحت الدل والصفار أبدا . فقال أبو عبيدة ما نزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم ، وتستعبدون أولادكم ونساءكم ونقتل منكم من خالف كلمة التوحيد وعكف على كلمة الكفر . فقال البترك : فانا لا نسلم مدينتنا أو نهلك عن آخرنا ، وكيف نسلمها وقد استعددنا بآلة الحرب والحصار ، وفيها العدة الحسنة والرجال الشداد ، ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فانهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من اذا سأل المسيح ودعاه أجاب دعوته ، فقال أبو عبيدة كذبت والله يا عدو الله - ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام - فقال أنا أقسم بالمسيح انكم لو اقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبدا وانما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا ولسنا نجد صفته ونعته معك أبدا ، فقال أبو عبيدة وما صفة من يفتح مدينتكم ؟ . قال البترك لا نخبركم بصفته لكن نجد في كتبنا وما قرأناه من علمنا انه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم ، قال فلما سمع أبو عبيدة ذلك من كلام البترك تبسم ضاحكا ، وقال فتحنا البلد ورب الكعبة . ثم أقبل عليه ، وقال له اذا رأيت الرجل تعرفه ؟ . قال نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندي وعدد سنينه وأيامه . قال أبو عبيدة : هو والله خليفتنا وصاحب نبينا . فقال البترك : ان كان الامر كما ذكرت ، فقد علمت صدق قولنا فاحقن الدماء وابعث الى صاحبك يأت فاذا رأيناه وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غيرهم ولا تكذب وأعطينا الجزية . فقال أبو عبيدة : فاني أبعث اليه بأن يقوم علينا أفتحبونا

القتال أم نكف عنكم ؟ . فقال البترك : معاشر العرب الا تدعون بفيكم . . انخبركم باننا قد صدقناكم في الكلام طلبا لحقن الدماء وانتم تأبون الا القتال . قال ابو عبيدة نعم ، لان ذلك اشهى الينا من الحياة نرجو به العفو والففران من ربنا . قال فأمر ابو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البترك .

(قال الواقدي) فجمع ابو عبيدة الامراء والمسلمين اليه واخبرهم بما قال البترك فرفع المسلمون اصواتهم بالتهليل والتكبير ، وقالوا افعل ايها الامير واكتب الى امير المؤمنين بذلك فلعله يسير الينا ويفتح هذا البلد علينا ، فقال شرحبيل بن حسنة اصبر حتى نقول لهم ان الخليفة معنا ويتقدم خالد اليهم . فاذا نظروا اليه فتحو الباب وكفينا التعب وكان خالد اشبه الناس بعمر بن الخطاب (رض) ، فلما أصبح الصباح . قال له الترجمان قد جاء الخليفة وكان قد قال ابو عبيدة لخالد فركبوا جميعا ، وقالوا قد جاء الرجل الذي تطلبونه فعرفوا البترك فأقبل الى ان وقف على السور ، وقال له قل له يتقدم بحيث نراه عيانا فتقدم خالد قتبينه ، وقال وحق المسيح كانه هو ولكن باقي العلامات ما هي فيه فبحق دينك من انت ، فقال انا من بعض أصحابه ، فقال البترك : يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف ما نفتح لخم ولا يرجع احد منا يكلمكم ولو اقمتم علينا عشرين سنة ثم ولى ولم يتكلم ، فقال المسلمون عند ذلك اكتبوا الى امير المؤمنين وعرفوه بذلك فعسى ان يأتي ويتشرف بهذه البقعة فكتب ابو عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الى عبد الله امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله ابي عبيدة عامر بن الجراح . اما بعد السلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) واعلم يا امير المؤمنين انا منازلون لاهل مدينة ايلياء نقاتلهم أربعة اشهر كل يوم نقاتلهم ويقاثلوننا ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والامطار الا انهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم ، فلما كان اليوم الذي كتبت اليك الكتاب فيه اشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه ، وقال انهم يجدون في كتبهم انه لا يفتح بلدهم الا صاحب نبينا واسمه عمر وانه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم وقد سألنا حقن الدماء فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله ان يفتح هذه البلدة علينا على يدك . ثم انه طوى الكتاب وختمه ، وقال يا معاشر المسلمين من ينطلق بكتابي هذا واجره على الله فأسرع بالاجابة ميسرة بن مسروق العبسي ، وقال : انا اكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب (رض) ان شاء الله تعالى .

قال ابو عبيدة فخذ الكتاب بارك الله فيك فأخذه ميسرة واستوى على ناقة له كوماء ولم يزل سائرا الى ان دخل المدينة فدخلها ليلا ، وقال والله لا نزلت عند احد من الناس فأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله (ص) وعلى قبر ابي بكر الصديق (رض) ، ثم اتى مكانا في المسجد فنام وكان له ليال

عدة لم ينم فأخذته عيناه فما استيقظ الا على اذان عمر وكان يغلس في الاذان ، فلما اذن دخل المسجد وهو يقول الصلاة رحمكم الله . قال ميسرة فقامت وتوضأت وصليت خلف عمر صلاة الفجر ، فلما انحرف عن محرابه قامت اليه وسلمت عليه ، فلما نظر الي صافحني واستبشر ، وقال ميسرة ورب الكعبة . ثم قال ما وراءك يا ابن مسروق . قلت الخير والسلامة يا امير المؤمنين نم ناولته الكتاب فقرأه على المسلمين فاستبشروا به ، فقال ما ترون رحمكم الله فيما كتب به ابو عبيدة ؟ فكان اول من تكلم عثمان بن عفان (رض) ، فقال يا امير المؤمنين ان الله قد اذل الروم واخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر اصحابنا مدينا ايلياء وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلا وضعفا ورعبا فان انت اقامت ولم تسر اليهم راوا انك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلا يلبثون الا اليسير حتى ينزلوا على الصفار ويعطون الجزية ، فلما سمع عمر ذلك من مقال عثمان جزاه خيرا ، وقال هل عند احد منكم رأي غير هذا ؟ . فقال علي بن ابي طالب (رض) نعم عندي غير هذا الرأي ، وانا أبديه لك رحمك الله ، فقال عمر وما هو يا ابا الحسن ؟ . قال ان القوم قد سألك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين ، وقد اصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام واني اري انك ان سرت اليهم فتح الله هذه المدينة على يديك وكان في مسيرك الاجر العظيم في كل ظمأ ومخهصة وفي قطع كل واد وصعود جبل حتى تقدم اليهم . فاذا انت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الامن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن ان يياسوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم فيدخل فلا يتخلفون عنه ، والصواب ان تسير اليهم ان شاء الله تعالى . قال ففرح عمر بن الخطاب بمشورة علي (رض) وقال : لقد احسن عثمان النظر في المكيدة للعدو واحسن علي المشورة للمسلمين فجزاها الله خيرا ولست آخذ الا بمشورة علي فما عرفناه الا محمود المشورة ميمون الفرة ، ثم ان عمر (رض) امر الناس بأخذ الاهبة للمسير معه والاستعداد فأسرع المسلمون الى ذلك واستعدوا وتأهبوا وأمر عمر ان يكونوا خارج المدينة ، ففعلوا ذلك واتى عمر المسجد فصلى فيه أربع ركعات ثم قام الى قبر رسول الله (ص) فسلم عليهم وعلى ابي بكر (رض) واستخلف على المدينة علي بن ابي طالب وخرج من المدينة وأهلها يشيعونه ويودعونه .

(قال الواقدي) وخرج عمر من المدينة وهو على بعير له احمر وعليه غارتان في احدهما سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قرية مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد وخرج معه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليرموك وعادوا الى المدينة منهم الزبير وعبادة بن الصامت وسار عمر نحو بيت المقدس فكان اذ نزل منزلا لا يبرح منه حتى يصلي الصبح فاذا انقفل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال : الحمد لله الذي اعزنا بالاسلام واکرمنا بالايمان وخصنا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلالة

وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى والف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكن لنا في بلادهم وجعلنا اخوانا متحابين فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة والمن الظاهرة . فان الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ويتم نعمته على الشاكرين . ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سويقا ويصف التمر . حولها ويقرب للمسلمين ويقول كلوا هنيئاً مريئاً فياكل ويأكل المسلمون معه ، ثم يرحل فلم يزل كذلك في مسيره . قال عمرو بن مالك العبسي كنت مع عمر بن الخطاب حين سار الى الشام فمر على ماء لجدام وعليه طائفة منهم نزول والماء يدعى ذات المنار فنزل بالمسلمين عليه ، فبينما هو كذلك واصحاب رسول الله (ص) حوله اذ اقبل اليه قوم من جدام ، فقالوا يا امير المؤمنين ان عندنا رجلا له امرأتان وهما اختان لاب وام . قال ففضب عمر وقال علي به فأتى بالرجل اليه ، فقال له عمر ما هاتان المرأتان ؟ . قال الرجل زوجتي قال فهل بينهما قرابة ؟ . قال نعم هما اختان قال عمر فما دينك الست مسلما ؟ قل بلى قال عمر وما عملت ان هذا حرام عليك والله يقول في كتابه - وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف - فقال الرجل ما علمت وما هما علي حرام ففضب عمر وقال كذبت والله انه لحرام عليك ولتخليين سبيل احدهما والا ضربت عنقك . قال الرجل : افتحكم علي قال اي والله الذي لا اله الا هو ، فقال الرجل ان هذا دين ما اصبنا فيه خيرا ولقد كنت غنيا عن ان ادخل فيه ، قال عمر ادن مني فدنا منه فخفق رأسه بالدرة خفقتين ، وقال له اتتشاءم بالاسلام يا عدو الله وعدو نفسه ، وهو الدين الذي ارتضاه الله للملائكة ورسله وخيرته من خلقه خل يا ويلك سبيل احدهما والا جلدتك جلدة المفثري ، فقال الرجل كيف اصنع بهما واني احبهما ، ولكن اقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي ، وان كنت لهما جميعا محبا فأمر عمر فاقترع فوقعت القرعة على احدهما فأمسكها واطلق سبيل الثانية ، ثم اقبل عليه عمر ، وقال له اسمع يا ذا الرجل وع ما أقول لك انه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه فاياك ان تفارق الاسلام واياك يبلغني انك قد اصببت أخت امرأتك التي فارقتها فانك ان فعلت ذلك رجمتك .

(قال الواقدي) وسار عمر حتى مر على حي من بني مرة . فاذا بقوم منهم قد اقاموا في الشمس يعذبون فقال لهم عمر : ما بال هؤلاء يعذبون ؟ فقيل : عليهم خراج فهم يعذبون قال فما يقولون . قال يقولون ما نجد ما نؤدي ، فقال عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول الله (ص) يقول « لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة » فخلى سبيلهم . ثم سار حتى اذا كان بواد القرى أخبروه ان شيخا على الماء وله صديق يوده ، فقال له صديقه هل لك ان تجعل لي في زوجتك نصيبا واكفيك رعي ابلك والقيام عليها ولي فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة ؟ قال له الشيخ : قد فعلت ذلك ورضي . فلما أخبر عمر بذلك أمر بهما فأحضرا . فقال ويلكما ما دينكما ؟ قالا الاسلام . قال عمر فما الذي بلغني عنكما ؟ قالا وما هو ؟ فأخبرهما

عمر بما سمعه من العرب ، فقال الشيخ قد كان ذلك يا أمير المؤمنين . فقال عمر : أما علمتما أن ذلك حرام في دين الاسلام ؟ قالوا لا والله ما علمنا ذلك . فقال عمر للشيخ وما دعائك أن صنعت هذا القبيح ؟ قال أنا شيخ كبير ولم يكن لي أحد أثق به ولا اتكل عليه فقلت يا هذا أتكفيني الرعي والسقي وتعينني على دوابي وأنا أجعل لك نصيبا في امرأتي والآن علمت أنه حرام فلا افعله فقال لي عمر خذ بيد امرأتك فلا سبيل لي عليها ، ثم قال للشباب اياك أن تقرب منها فانه ان بلفني ذلك ضربت عنقك ثم ارتحل عمر يريد بيت المقدس حتى دنا من أول الشام وأشرف عليه . قال أسلم ابن برقان مولى عمر ، فلما أشرفنا على الشام وأشرف عليه المسلمون نظرنا الى طائفة من خيل المسلمين . فقال عمر للزبير أسرع وانظر ما هذه الخيل فأسرع الزبير اليها ، فلما قرب منها واذا هي خيل من اليمن قد بعث بها أبو عبيدة يأخذون له خبر عمر (رض) ، قال الزبير فسلموا علي وقالوا يا فتى من أين أقبلت ؟ فقلت من مدينة رسول الله (ص) قالوا كيف خلفت أهلها ؟ قلت بخير ، قالوا فما فعل عمر هل قدم علينا أم لا ؟ قال الزبير من أنتم قالوا نحن من عرب اليمن قد وجهنا أبو عبيدة لناخذ له خبر عمر ، قال فرجع الزبير الى عمر وحده قال : أصبت يا أبا عبد الله ، فأقبل علينا جمع آخر فسلموا علينا وسألونا عن عمر . فقال لهم ها أنا عمر فما تريدون ؟ قالوا يا أمير المؤمنين قد ذرفت العيون وطالت الاعناق بطول قدومك فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك .

(قال الواقدي) ثم رجعوا على أعقابهم حتى أشرفوا على عسكر المسلمين وأبي عبيدة ونادوا بأصواتهم أبشروا يا مسلمون بقدوم عمر قال فارتج الناس وهموا أن يركبوا لاستقباله بأجمعهم . فقال لهم أبو عبيدة عزيمة على كل رجل أن لا يخرج من مركزه ثم سار أبو عبيدة في أناس من المهاجرين والانصار حتى أشرف بمن معه على عمر قال ونظر عمر الى أبي عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه وهو راكب على قلوصله مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصله من شعر ، فلما نظر أبو عبيدة الى عمر (رض) أناخ قلوصله وأناخ عمر بعيره وترجل كلاهما ومد أبو عبيدة يده فصاح عمر وتعانقا جميعا وسلم بعضهما على بعض وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبوا جميعا وجعلوا يسيران أمام الناس وهما يتحادثان ولم يزالا كذلك حتى نزلا بيت المقدس ، فلما نزل صلى عمر (رض) بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة فقال في خطبته : الحمد لله الحميد المجيد ، القوي الشديد ، الفعال لما يريد ، ثم قال ان الله تعالى قد أكرمنا بالاسلام وهذانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأزاح عنا الضلالة وجمعنا بعد الفرقة والفرقة بين قلوبنا من بعد البغضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد فقد قال الله تعالى - لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد ، ثم قرأ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا - قال فلما تلا عمر ذلك قام قس من النصارى كان حاضرا بين يديه . فقال ان الله لا

يضل أحدا ، فلما كررها قال عمر انظروا ان عاد الى قوله فاضربوا عنقه فعرف القس ما قال عمر فأبسك ومضي عمر في خطبته . فقال :

اما بعد فاني اوصيكم بتقوى الله عز وجل الذي يبقي ويفني كل شيء سواه ، الذي بطاعته ينفع اوليائه ، وبمعصيته يفني أعداءه ، أيها الناس ادوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكورا أفهموا ما توعظون به فان الكيس من أحرز دينه ، وان السعيد من اتعظ بغيره الا ان شر الامور مبتدعاتها وعليكم بالسنة سنة نبيكم (ص) فالزموها فان الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة والزموا القرآن فان فيه الشفاء والثواب ، أيها الناس انه قام فينا رسول الله (ص) كقيامي فيكم وقال الزموا اسحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف فمن اراد بحبوة الجنة فليزم الجماعة ، وتعوذوا من الشيطان ولا يخلون احد منكم بامرأة فانهم من حائل الشيطان ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ، والصلاة الصلاة ، فلما فرغ من خطبته جلس فجعل ابو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم وعمر باهت ، فتارة يبكي وتارة يهدأ فلم يزل كذلك الى ان حضرت صلاة الظهر . فقال الناس يا امير المؤمنين اسأل بلالا ان يؤذن لنا ، وكان بلال مقيما ببلد ، فلما بلغه ان عمر قد وصل سار مع ابي عبيدة حتى سلم على عمر فعظم قدره ، فلما حضرت صلاة الظهر وسأل المسلمون عمر ان يسأل بلالا . فقال له يا بلال ان اصحاب رسول الله (ص) يسألون ان تؤذن لهم وتذكرهم اوقات نبيهم (ص) فقال بلال نعم فلما قال الله اكبر خشعت جلودهم واقشعرت ابدانهم ، قال فلما قال : اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله بكى الناس بكاء شديدا حتى كادت قلوبهم ان تتصدع عند ذكر الله ورسوله ، فلما فرغ بلال من اذانه وجلس قال بلال يا امير المؤمنين ان امراء المسلمين واجناد الشام يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي وما لا يلحق ضعفاء الناس وما لا تناله ايديهم وان الكل يفني وما له الى التراب ومصيرنا اليه . فقال له يزيد بن ابي سفيان : ان سعر بلادنا هذه رخيص وانا لنصيب ما قاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به انفسنا مدة من الزمان في الحجاز . فقال عمران الامر كما ذكرت فكلوا هنيئا مريئا ولست ابرح من مكاني حتى تجمعوا الي من في المنازل وان تكتبوا الى فقراء المسلمين ممن في المدن والقرى فأفرض لكل اهل بيت ما يجزيهم من البر والشعر والعسل والزيت وما يحتاجون اليه ولا بد لهم منه ثم قال عمر : هذا لكم من امرائكم غير ما ياتيكم مني من بيت مال المسلمين ، فان قطعت عنكم امراؤكم فأمروني حتى أعزلهم عنكم ثم أمرهم بالرحيل ، فلما هم بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها اربع عشرة رقعة بعضها من ادم .

(قال الواقدي) بلغني ممن اثق به انها كانت مرقعة من صوف . فقال له المسلمون يا امير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جوادا ولبست ثيابا بيضا . قال ففعل

قال الزبير أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهما وطرح على عاتقه منديلا من كتان ليس جديدا ولا بالخلق دفعه اليه أبو عبيدة وقدم اليه برذون اشهب من براذين الروم ، فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به ، فلما نظر عمر الى البرذون وفعاله نزل عنه مسرعا وقال اقبلوا عثرتي اقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد اميركم ان يهلك بما دخل من العجب والكبر واني سمعت رسول الله (ص) يقول « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر » ولقد كاد أن يهلكني ثوبكم الابيض وبرذونكم المهملج ، ثم ان عمر (رض) نزع ما كان عليه ثم عاد الى لبس مرقعته .

(قال الواقدي) كنا يوم نقرا فتوح الشام وفتوح بيت المقدس عند قبر ابي حنيفة ، وكان الفتوح يقرأ على عبادة بن عوف الدينوري وكان من اهل الفضل ، وكان يسجع كلامه . فلما وصل الى ما ذكرناه من لبس عمر لمرقعته . قال قد سمع خاطري بما انا قائله .

(قال الواقدي) قلت قل ولا تخف الصدق فتھوى في النار ، وان الصدق امانة والكذب خيانة . قال لما لبس عمر مرقعته وجعل يميز في شمائل فقره ، والكائنات تتعجب من زهده وصبره عندما تزينت له الدنيا بملابسها وتراءت له في حلل امنيته بواسطة حدثان مشيئتها ، وقد جعلت أشباح شهواتها على قمة رأس مرآتها واقبلت رافلة في حلة مراودته ، مطلقة عند الطمع في طلب زوال مجاهدته ، معرضة بملابس جمالها على سوق معارضته في سناء قبلة مرآة تبهرجها في عين مشاهدته ، واقفة على قدم الاستدراج الى ترك خدمته ، جاعلة ودادها ذريعة الى وصلته ، وعمر قد أمسك عرا طاعته بيد عصمته ، فلما نصبت له حبائل بلاها ، ولم تره وقع في اشراك هواها ، أسمعت في معناها ، قد شففها حبا انا لنراها ، وقالت يا عمر قد وليت أرضي فلا بد من القيام بفرضي ، فالولاية لا تقوم الا بالملابس الهنية والمآكل الشهية ، والظلم في الرعية ، فقال عمر : اذهبي فلسست من رجالك ولا ممن يقع في حبالك ولا في أحوالك . اما علمت اني قد تجردت لمعاندتك ولا حاجة لي في مشاهدتك ، وها انا على قدم تجردت لاقامة دعوة سيد الامم ، حتى أفتح بلاد الروم والعجم ، ثم أظهر في وجهها صارم اجتهاده من معنى قوله - وجاهدوا في الله جهاده - .

(قال الواقدي) فاستحسننت هذا الكلام والحقت ما قاله في هذا الموضع بقول رسول الله (ص) « ان من البيان لسحرا » قال وان عمر سار يريد العقبة ليصعد منها الى بيت المقدس فلقية قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر ان يحثوا التراب في وجوههم ، وان تمزق عليهم ، ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس ، فلما نظر اليها قال الله أكبر : اللهم افتح لنا فتحا يسيرا . واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا ، ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب

العقود وسار عمر حتى نزل بالموضع الذي كان فيه أبو عبيدة وضربت له خيمة من شعر وجلس فيها هناك على التراب . ثم قام يسلي أربع ركعات .

(قال الواقدي) وعلت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مزعج بالتهليل والتكبير ، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة ، فقال لهم البترك يا ويلكم ما شأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شيء فاشرفوا عليهم وانظروا ما شأنهم .

(قال الواقدي) فاشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية ، فقال : يا معاشر العرب أخبرونا ما قصتكم ؟ قالوا ان أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا ، وهذه الضجة من فرح المسلمين به . قال فرجع وأعلم البترك فأطرق الى الأرض ولم يتكلم ، فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر . قال لأبي عبيدة يا عامر تقدم الى القوم وأعلمهم اني قد أتيت . قال فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال يا أهل هذه البلدة ان صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم . قال فأعلموا البترك فخرج من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسوس والاساقفة معه ، وقد حمل بين يديه صليب لا يخرجونه الا في عيدهم وسار معه البطاليق الوالي عليهم وهو يقول : للبترك يا أبانا ان كنت تعرفه معرفة حقيقية والا فلا تفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فاما ان نبيدهم ، واما ان يبيدونا ، قال البترك انا أفعل ذلك ، ثم صعدا على الصور ووقف البطاليق الى جانبه والصليب أمامهم وأشرف على أبي عبيدة وقال ما تشاء أيها الشيخ الباهي ، قال أبو عبيدة : هذا أمير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد أتى فأخرجوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة وأداء الجزية . فقال البترك يا ذا الرجل ان كان صاحبك الذي ليس عليه أمير قد أتى فدعه يدن منا فانا نعرفه بنعته وصفته وأفردوه من بينكم وليقف بازائنا حتى نراه ، فان كان صاحبنا الذي نعته في الانجيل نزلنا اليه وعقدنا معه الامان وأقررنا له بالجزية ، وان كان غير الذي نجد نعته في الانجيل وصفته فما لكم عندنا غير القتال ، قال فرجع أبو عبيدة الى عمر وأخبره بما قاله البترك فهم عمر بالقيام . فقال له أصحابه يا أمير المؤمنين تخرج اليهم منفردا ، وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وانا نخشى عليك منهم غدرا أو مكرا فينالون منك . فقال عمر - قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون - ثم أمر ببعيره فقدم اليه فاستوى في ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبي عبيدة (رض) وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور والبترك والبطاليق عليه ، فتكلم أبو عبيدة وقال يا هؤلاء هذا أمير المؤمنين قد أتى فمسح البترك عينه ونظر اليه وزعق بأعلى صوته هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ، ثم انه قال لأهل بيت المقدس يا ويحكم انزلوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة ، هذا والله صاحب محمد بن عبدالله .

(قال الواقدي) فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ففتحوا الباب وخرجوا الى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية ، فلما نظر اليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخر ساجدا على قتب بعيره ثم نزل اليهم وقال ارجعوا الى بلادكم ولكم الذمة والعهد اذ سألتمونا وأقررتكم بالجزية . قال فرجع القوم الى بلادهم ولم يفلقوا الابواب ورجع عمر الى عسكره فبات فيه ليلة ، فلما كان الغد قام فدخل اليها وكان دخوله يوم الاثنين وأقام بها الى يوم الجمعة وخط بها محرابا من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة فهمت الروم بغدرهم وكان أبو الجعيد الذي احتال على الروم باليرموك بيت المقدس هو وأهله وماله فقالوا ما ترى في غدر هؤلاء العرب اذا هم اشتغلوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ولا ما يحترزون به من الضرب والقتل ؟ . فقال لهم أبو الجعيد يا قوم لا تفعلوا ولا تفدروا بهم فان فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون ان تفعلوا بهم فقالوا وما الذي نصنع ؟ فقال أبو الجعيد اظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا فان متاع الدنيا وما فيها لا يصبر صاحبهما عنهما ، فان طلبوهما بغدر ففسانكم وما تريدون ، قال فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن فأظهروه وصفوه في طريق المسلمين وشوارعهم ، فجعل المسلمون ينظرون الى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم ولم يمل أحد منهم اليه ولم يلمسه وهم يقولون الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا ، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقي كافرا منها شربة ماء ، قال عوف بن سالم فوالله ما من المسلمين من جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه . فقال لهم أبو الجعيد هؤلاء القوم الذين وصفهم الله في التوراة والانجيل وانهم لا يزالون على الحق ولا يقر بهم احد ما داموا على ما هم عليه .

(قال الواقدي) وأقام عمر في بيت المقدس عشرة ايام . قال شهر بن حوشب سمعت كعب الاحبار يقول : ان عمر بن الخطاب لما صالح اهل بيت المقدس ودخلها اقام فيها عشرة ايام فأقبلت اليه وكنت في قرية من فلسطين ، وتقدمت اليه لاسلم عليه واسلم على يديه ، وذلك ان أبي كان اعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران وانه كان لي محبا وعلي مشفقا ولم يكتم علي شيئا الا أعلمني اياه مما كان يعلم الناس ، فلما حضرته الوفاة ، دعاني اليه وقال لي يا بني انك تعلم اني ما ادخرت عنك شيئا مما كنت أعلمه لاني خشيت ان يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتتبعهم وقد جعلت هاتين المورقتين في هذه الكرة التي ترى فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما الى ان تسمع بخبر نبي يبعث في آخر الزمان اسمه محمد ، فان يرد الله بك خيرا فأنت تتبعه ، ثم مات بعد وصيته اياي . قال كعب فدفنته ، فما كان شيء أحب الي بعد انقضاء العزاء من النظر في الورقتين وقراءة ما فيهما ففتحهما ، فاذا فيهما لا اله الا الله محمد رسول الله

خاتم النبيين لا نبي بعده ، مولده بمكة ، ودار هجرته طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال السنتهم رطبة بالتهليل والتكبير وهم منصورون على كل من عاداهم من أعدائهم أجمعين يفسلون وجوههم ويسترون أوساطهم أناجيلهم في صدورهم تراحمهم بينهم تراحم الأنبياء بين الأمم ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم . قال كعب الاحبار فلما قرأت ذلك قلت في نفسي وهل علمني أبي شيئا أعظم من هذا ثم مكثت بعد وفاة والدي ما شاء الله الى أن بلغني ان النبي (ص) الموصوف قد ظهر بمكة وهو يظهر مرة بعد أخرى . فقلت هو والله لا محالة ولم أزل أبحث عن أمره حتى قيل انه خرج ونزل بيثرب فجعلت أترقب أمره حتى غزا غزوات ونصر على أعدائه ، فتجهزت أريد المسير اليه فبلغني انه قد قبض (ص) وانقطع الوحي . فقلت في نفسي لعله ليس الذي كنت أنتظره حتى رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة وقائل يقول قد قبض رسول الله (ص) وانقطع الوحي عن أهل الأرض فرجعت الى دار قومي وجاءنا الخبر انه تقدم أمته خليفة اسمه أبو بكر فقلت أقدم عليه فلم البث حتى جاءتنا جنوده الى الشام ثم جاءتنا وفاته ، ثم قيل انه استخلف عليهم رجل اسمه عمر . فقلت لا أدخل هذا الدين حتى أحققه ولم أزل متوقفا حتى قدم عمر بن الخطاب (رض) ببيت المقدس وصالح أهلها ونظرت الى وفائهم بعهدهم وما صنع الله بأعدائهم ، وقلت انهم أمة النبي الأمي فحدثت نفسي بالدخول في هذا الدين ، فوالله اني كنت ذات ليلة على سطحي واذا أنا برجل من المسلمين يقول - يا أيها الدين أوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أديبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا - .

قال كعب فلما سمعت هذه الآية خفت والله ان لا أصبح حتى يحول وجهي فما كان شيء أحب الي من الصباح ان يرد ، فلما أصبحت غدوت من منزلي وسالت عن عمر فقيل لي انه ببيت المقدس فقصدت اليه واذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة فأقبلت اليه وسلمت عليه فرد علي السلام ، وقال لي : من أنت ؟ فقلت له : انا كعب الاحبار وانني جئت أريد الاسلام والدخول فيه فاني وجدت صفة محمد (ص) وأمنه في الكتب المنزلة ، وان الله عز وجل أوحى الى موسى عليه السلام اني ما خلقت خلقا أكرم علي من أمة محمد (ص) ولولاه ما خلقت جنة ولا نارا ولا سماء ولا أرضا ، وأمنه خير الأمم ودينه خير الأديان ، بعثته آخر الزمان ، أمته مرحومة ، وهو نبي الرحمة ، وهو النبي الأمي التهامي القرشي الرحيم بالمومنين ، الشديد على الكافرين ، سريره مثل علانيته ، وقوله لا يخالف فعله ، القريب والبعيد عنده سواء ، أصحابه متراحمون متواصلون ، فقال عمر أحقا ما تقول يا كعب ؟ . قال أي والله والله يسمع ما أقول ويعلم ما تخفي الصدور . فقال عمر : الحمد لله الذي أعزنا وأكرمنا وشرفنا

ورحمنا برحمته التي وسعت كل شيء وهدانا بمحمد (ص) فهل لك يا كعب في الدخول في ديننا ؟ ، فقال كعب يا امير المؤمنين في كتابكم الذي انزل اليكم في امر دينكم ذكر ابراهيم . فقال عمر نعم وقرا - ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون - . ثم قرا - ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما - ثم قرا - افغير دين الله يبفون وله اسلم - الآية . ثم قرا - ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه - الآية ، ثم قرا - قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديننا قيما - الآية ، ثم قرا - وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل - الآية . قال كعب فلما سمعت هذه الآيات . قلت يا امير المؤمنين انا اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، ففرح عمر باسلام كعب الاحبار . ثم قال هل لك ان تسير معي الى المدينة فنزور قبر النبي (ص) وتتمتع بزيارته ؟ . فقلت نعم يا امير المؤمنين انا افعل ذلك . قال وارتحل عمر بعد ان كتب لاهل بيت المقدس كتابا : اي عهدا واقرهم في بلدهم على الجزية وسار بمن معه من العساكر الى الجابية فأقام بها ودون الدواوين واخذ الخمس الذي لله مما افاء الله على المسلمين ، ثم قسم الشام قسمين فأعطى ابا عبيدة من حوران الى حلب وما يليها وامره بالمسير الى حلب وان يقاتلوا اهلها الى ان يفتحها الله على يديه وأعطى ارض فلسطين وارض القدس والساحل ليزيد بن ابي سفيان ، وجعل ابا عبيدة واليا عليه وامر يزيد ان يحارب اهل قيسارية الى ان يفتحها الله على يديه ، وكان قد اعطى اكثر الاجناد لابي عبيدة مع خالد وسير عمرو بن العاص الى مصر واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الانصاري ثم سار عمر (رض) يريد مدينة الرسول (ص) وأخذ كعب الاحبار معه وكان اهل المدينة يظنون ان عمر يقيم بالشام لما يرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص اسعارها ولما يخبرون عنها انها بلاد الانبياء وهي الارض المقدسة وفيها المحشر فبقى الناس يتطاولون نحوه ويخرجون في كل يوم ينظرونه حتى قدم عمر (رض) فارتجت المدينة يوم قدومه واستبشر اصحاب رسول الله (ص) برؤيته وسلموا ورحبوا به وهنئوه بما فتح الله على يديه ، فأول ما بدأ بالمسجد سلم على قبر رسول الله (ص) وعلى ابي بكر الصديق (رض) ، ثم صلى ركعتين وعاد بكعب الاحبار . وقال حدث المسلمين بما رايت في الورقتين فازداد الناس ايمانا .

(قال ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي) حدثنا احمد بن الحسين بن العباس المعروف بأبي سفيان النحوي . قال حدثنا ابو جعفر بن احمد بن عبيد الناسخ . قال حدثني عبدالله بن اسلم الزهري وعبدالله بن يحيى الزرقى عن حدثه ممن تقدم ذكرهم واسماؤهم اول الكتاب وحديث القوم قريب بعضه من بعض والله يعيدنا من

الزيادة والنقصان ، لان الصدق امانة والكذب خيانة والله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في خبر هذه الفتوح الا على الصدق وما حدثت حديثه الا على قاعدة الحق لاثبت فضل اصحاب رسول الله (ص) وجهادهم حتى ارغم بذلك اهل الرفض الخارجين على اهل السنة ، اذ لولاهم بمشيئة الله تعالى لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين فله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده لا جرم ، وقد قال فيهم الملك المقتدر - فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - .

(قال الواقدي) وذلك انه لما بعث عمر بن الخطاب ابا عبيدة وجعله امير الشام وامره بالمسير الى حلب ونطاكية والمفرق وما يليهم من الحصون بعث عمرو بن العاص الى مصر ويزيد بن ابي سفيان الى ساحل الشام فنازلوا قيسارية وهي آهلة بالخلق كثيرة الجند وكان عليها قسطنطين الى ان نزل يزيد وقسطنطين هذا ابن الملك هرقل وكان معه ثمانون الفا من الروم والعرب المنتصرة والروسية ، فلما نظر قسطنطين الى نزول يزيد بن ابي سفيان عليه بعث الى ابيه يستنجده فبعث اليه هرقل بصاحب مرعش وعشرين الفا من ابطال الروسية وانفذ له المراكب بالزاد والعلوفة ، فلما نظر يزيد الى ذلك وان لا قدرة له على ذلك كتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد بن ابي سفيان العامل على بعض الشام الى عمر بن الخطاب (رض) اني نازلت اهل قيسارية وهي مدينة آهلة بالخلق كثيرة الجند وليس اليها سبيل وان قسطنطين قد استنجد بابيه وقد انجده بصاحب مرعش وعشرين الفا والمراكب ترد عليه كل يوم بالعلوفة والزاد واريد النجدة والسلام . وبعث الكتاب مع عمرو بن سالم بن حميد النخعي فلما ورد المدينة وسلم الكتاب الى عمر بن الخطاب . قال عمر من اين هذا الكتاب قال من عاملك يزيد بن ابي سفيان فقراه ، فلما اتى على آخره تفكر في امر يزيد وما وقع له حتى دخل عليه علي بن ابي طالب كره الله وجهه فأراه كتاب يزيد من قيسارية الشام يطلب منه نجدة . فقال علي لا تغتم على المسلمين فان الله يفتحها على يدك رغما فانجد يزيد وانفذ اليه الكتاب .

ذكر فتح مدينة حلب وقلاعها

(قال الواقدي) كان مع ابي عبيدة عشرون الفا ومع يزيد وعمرو بن العاص عشرة آلاف .

(قال الواقدي) فلما وصل كتاب عمر الى ابي عبيدة انفذ الى يزيد ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدي وبقي أبو عبيدة في سبعة عشر الفا واكثرهم من اليمن ، وكان أبو عبيدة قد صالح اهل قنسرين والعواصم على خمسة عشر ألف مثقال من الذهب ومثلها من فضة وألف ثوب من اصناف الديباج وخمسماية وسق من التين والزيت ، فلما تم الصلح وجاءوا بما ضمنوه من مدينتهم كتب لهم كتابا وشرط فيه الشروط ودخل أبو عبيدة وخالد في رجال من المؤمنين وسادات المسلمين فحطوا بها مسجدا ،

فبلغ ذلك أهل حلب من الصلح لقنسرين ومسير العرب فاضطربوا اضطرابا شديدا وكان عليهم رئيسان أخوان لاب وأم وكانا يسكنان في القلعة ولم تكن القلعة محيطة بالمدينة بل كانت المدينة منفردة بذاتها وكان البطريقان يقال لاحدهما يوقنا والآخر يوحنا وكان أبوهما ملك البلد وأعماله وضياعه ورسايقه الى حدود الضروب والى حدود الفرات وقد ملك حلب سنين لا ينازعه فيها منازع ، وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ولا يحاربه كل ذلك لبقاء ملكهم واجتماع كلمتهم لانه كان قد انتزع من رومية الى أقصى البلاد لثلا يجيش عليه أحد جيشا ولا ينازعه في ملكه لكثرة شره وتدبيره وشدة بني عمه ، فلما نزل بالعواصم استخلص لنفسه قلعة حلب وبناها وحصنها ومكن في البلاد ، فلما هلك آل الامر بعده لولده يوقنا وكان الكبير وكان شجاعا بطلا جامعا للاموال مقداما للحروب لا يصطلي له بنار ولا يدفع شره وكان أخوه يوحنا ديننا قد نزع يده من الرياسة وترهب وكان أعلم الناس في أهل زمانه وانه لما بلغهم الخبر أن أبا عبيدة قد قصد اليهم قال لأخيه يوقنا على ماذا عولت ؟ قال على قتال العرب ولا أدعهم يقربون من أرضنا وبلادنا حتى يرى العرب اني لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولا من غيرها وكان يوحنا قد درس الانجيل وقرأ المزامير ، وليس له همة الا عمارة الكنائس والاديرة وتشبيد المواضع وكثرة الشماسية والقسوس والرهبان والقيام بأمورهم ، فلما بلغ هذين الأخوين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحا وان العرب نازلون عليها وان خيلهم تضرب الى الفرات والعواصم والبقاع فأقبل يوحنا على أخيه الأكبر يوقنا . وقال : يا أخي أريد أن أختلي بك الليلة وأشاورك وأطلعك على سري ورأيي وأشرف على سرك ورأيك . قال نعم ، فلما اجتمعا في الليل في دار كانت لابيهم في القلعة وجلسا للمشورة أقبل يوقنا على أخيه يوحنا وقال يا أخي الا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع الاكباد العراة الاجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الاموال وانهم لا ينزلون مدينة من مدن الشام الا فتحوها وملكوا أهلها. فما ترى أن تصنع في أمر هؤلاء فكأنني بهم وقد أشرفوا علينا .

(قال الواقدي) فقال يوحنا يا أخي اذ قد استشرتني في أمرك فاني أنصحك ولا أغشك اذا قبلت النصيحة وان كنت أصفر منك سنا فاني أعلم منك بصيرة ، فوحق المسيح والقربان لئن قبلت مشورتي ليعلون أمرك ويسلم لك مالك ونفسك . فقال يوقنا يا أخي ما علمتك الا ناصحا فما عندك من الرأي ؟ . فقال الرأي عندي أن ترسل رسولا الى العرب وتبذل لهم ما شاءوا وتسألهم الصلح وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم في كل عام ما دامت الغلبة لهم ، فلما سمع يوقنا ذلك من كلام أخيه يوحنا أقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال قبحك المسيح ما أعجز رأيك ما ولدتك أمك الا راهبا أو قسيسا ولم أقلدك لا ملكا ولا محاربا ولا مقاتلا ، والرهبان ليس لهم قلوب لاكلهم العدس والزيت والبقل ولا يأكلون اللحم ولا يعرفون النعيم وليس لهم بالقتال

بصيرة ولا بملاقة الرجال خبرة ، وأما أنا فملك ابن ملك وليس بيني وبينهم الا الحرب ولا ترى الملوك العجز ويملك كيف نسلم ملكنا العرب ونعطيهم القياد من أنفسنا من غير حرب ولا قتال . قال فلما سمع يوحنا ذلك من أخيه تبسم من كلامه وتعجب كل العجب وقال يا أخى ، وحق المسيح ان أجلك قد اقترب لانك صاحب بغي تحب سفك الدماء وقتل النفس وما اظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها باليرموك مع مهران ويوم أجنادين ، وهؤلاء القوم قد أيدهم الله علينا فاتق الله ولا تسع في قتل نفسك . فلما سمع يوقنا كلام أخيه داخله الغضب وقال له قد أكثرت وأطلت في مدحك العرب واني لست كمن لا قوه من هذه الجموع التي ذكرتها ولا أقاس بهم ومع ذلك أعلم ان كل من ذكرت من أهل المدن وغيرها أسلم بلده عنوة لو صلحا قبل ان يقاتل بلا عذر في القتال ويبلبل المجهود عن نفسه ، وانما جمعت الاموال من قبل الى الآن لادفع بها الاذى عن نفسي واني مجمع على قتال العرب ومجاربتهم ، فان اظفرتني الصليب بهم واعانني المسيح عليهم طلبت العرب الى ان ادخل خلفهم الحجاز واسود على سائر الملوك وارجع الى الشام ملكا فلا يقدر هرقل ان ينازعني ، وان هزمتني العرب طلعت الى قلعتي هذه ولزمتها فاني قد عبيت فيها من الزاد والاطعمة ما يكفيني طول دهري واكون فيها عزيزا الى ان اموت ولا القي يدي الى العرب ولا ابذل اموالي من غير طلب فلا تعارضني في شيء من امر العرب ولا تدعني الى الصلح والا بطشت بك قبلهم .

(قال الواقدي) واحتوى الشيطان على قلب يوقنا وقد سولت له نفسه العمل ، فلما سمع يوحنا من أخيه يوقنا هذا المقال قال له كلامك علي حرام ابدا حتى ترجع الى رأيي ونعود الى قولي ثم قام عنه مغضبا ، فلما كان من الغد جمع يوقنا اليه جميع من التجأ اليه من العسكر من الارمن والمنتصرة وغيرهم وعرضهم على نفسه ، فمن اراد سلاحا اعطاه وفرق فيهم الاموال وجعل يهون العرب عليهم ويقول انما هم قليل ونحن أكثر منهم ، لان جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه الى مصر .

(قال الواقدي) وعزم على قتال ابي عبيدة قبل ان يصل اليه والى بلده ، ثم عمد الى بطريق من بطارقه يقال له كراكس وضم اليه الف فارس ووكله بحفظ بلده وسار يوقنا بمن معه يريد ان يلقي جيش ابي عبيدة والمسلمين هو وقومه في اثني عشر الف مدرع غير من كان معه بغير درع ونشرت امامه الاعلام والصلبان وكان فيها صليب من الذهب والجوهر ومن حوله الف غلام عليهم ثياب الديباج المنسوج بالذهب . قال ابن ثعلبة الكندي فاقام ابو عبيدة على مدينة قنسرين بعد ان فتحها بالصلح وبعد ان اتاه يزيد بكتاب صمر بن الخطاب (رض) يأمره ان يبعث الى يزيد بن ابي سفيان طائفة من جيشه فبعث له بثلاثة آلاف فارس لابسين السلاح الكامل وعول ابو عبيدة على المسير الى حلب فدعا برجل من بني ضمرة وكان بطلا مجريا بشدة البأس وكان اذا

ثبت على وجه الارض للقتال لا يهاب الجحافل قلت او كثرت فضم اليه الف فارس وسيره على مقدمته وقال يا كعب لا تقاتل جيشا لا تطيقه واختبر امر هذا العلاج واعرف خبره وانا راحل من ورائك فسار كعب بن ضمرة يريد حلب وكان يوقنا قدم امامه عيوننا يأتونه بالاخبار فأتته جواسيسه يخبرونه ان خيول العرب قد اتت تريد بلده وقتاله . فقال لهم في كم اتت العرب ؟ قالوا في الف فارس وهم على ستة اميال من بلدك نزول . قال فكمن يوقنا كميناً ثم سار اليهم بجيوشه وبطارقته ، فلما اشرف عليهم وهم نزول على نهر يسقون خيلهم ويتوضئون فبينما هم كذلك اذ اشرف عليهم يوقنا بجيوشه وبطارقته والصليب امامه ، فنادى المسلمون بعضهم بعضا واستودوا على متون خيولهم ، وورد كعب بن ضمرة على فرسه وسبق في اول الخيل واشرف على جيش يوقنا فحزره انه في خمسة آلاف فارس وكان يوقنا قد قسم عسكره شطرين النصف معه والنصف مع الكمين ، فلما نظر كعب الى يوقنا وجيشه انقلب الى أصحابه وقال يا انصار دين الله اني نظرت عسكر عدوكم وحزرته فهو في خمسة آلاف وهم لكم مغنم ويقاتل الواحد منكم خمسة . قالوا بلى والله ، واقبل أصحابه يشجع بعضهم بعضا فقربت الفئة من الفئة وصاح يوقنا بأصحابه ورجاله وغلماناه وعبيده وبطارقته وأمرهم بالحملة على المسلمين فحملوا بأجمعهم حملة صعبة وحمل عليهم المسلمون والتقى الجمعان واشتبك الحرب وقاتل الجمعان قتال الموت وقد ايقن المسلمون بالظفر والغنيمة فطلع عليهم الكمين من ورائهم واكبوا عليهم جميعا .

قال مسعود بن عون العجي : شهدت الخيل التي بعثها ابو عبيدة طلائع مع كعب بن ضمرة وكنت فيها يوم التقى الجمعان وقد خرج علينا الكمين ونحن في القتال ، ونحن لا نظن ان لهم كميناً يطلع من ورائنا واذا بأصوات حوافر الخيل اكبت علينا وايقنا بالهلكة بعدما كنا موقنين بالغلبة وصرنا في وسط عسكر الكفار فلم يكن لنا بد من القتال فافترقت المسلمون ثلاث فرق فرقة منهم منهزمة وفرقة قصدت قتال الكمين وفرقة مع كعب بن ضمرة قصدت قتال يوقنا ومن معه . قال مسعود بن عون فله در كندة يومئذ لقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا ووهبوا انفسهم لله تعالى حتى قتل منهم ذلك اليوم مائة رجل في مقام واحد وعمل اهل الكمين عملا عظيما وكعب بن ضمرة قلق على المسلمين فجاهد عنهم وهو يجول بالراية وينادي يا محمد يا محمد يا نصر الله انزل معاشر المسلمين اثبتوا انما هي ساعة ويأتي النصر وانتم الاعلون ، فاجتمع المسلمون عليه والجراح فيهم فاشية وقتل من المسلمين مائة وسبعون رجلا من الاعيان : منهم عباد بن عاصم النخعي وزفر بن أم راضي وحازم ابن شهاب المقرئ وسهل بن أشيم ورفاعة بن محصن وغانم بن برد ، وسهيل بن مفلج وكان ممن شهد يوم السلاسل وتيوك بين يدي رسول الله (ص) وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد . قال مسعود بن عون : والله لقد تأسفنا على قتله ووجدنا نيه اربعين ضربة كلها في

مقدمه (رض) ولم نجد واحدة في ظهره وكان الاعيان اربعين رجلا ، لان الرجل منا ما قتل حتى قتل عددا من المشركين ، فلما نظروا الى ثبات المسلمين مع قلتهم وما هالهم ممن قتل منهم هم المشركون ان ينهزموا فثبتهم يوقنا وقال ويلكم ما العرب الا مثل الذئاب ان صدمت ولت وان تركت طمعت ، ولما نظر كعب بن ضمرة الى من قتل تحت رايته اغتم لذلك غما شديدا فنزل عن فرسه ولبس درعا من فوق درعه وشد وسطه بمنطقة ومسح وجهه فرسه ومنخره وقبله بين عينيه وكان قد شهد معه المواطن وجاهد معه بين يدي رسول الله (ص) وكان قد سماه الهطال . فقال يا هطال هذا يومك المحمود عاقبته فاثبت للقتال في طاعة الله ، ولما استوى على متنه وقف امام المسلمين وجعل ينظر الى القتلى وهو متفكر في امره والراية بيده وهو ينتظر من ابي عبيدة جيشا يقبل عليه او طليعة تنجده فلم ير لذلك اثرا .

وذلك ان ابا عبيدة ما قطعه من المسير اليه الا قدوم اهل حلب عليه ، وذلك انه لما سار يوقنا الى حرب المسلمين اجتمع مشايخ اهل حلب والروسية بعضهم الى بعض وقالوا يا قوم تعلمون ان هؤلاء العرب قد اطاعهم اهل دين النصرانية والصليب ودخلوا في دينهم ومنهم من رجع الى دينهم ومنهم من قاتلهم . فاما الذي قاتلهم فخبير فهل لكم ان تسيروا الى امير المؤمنين ونسأله الصلح ونصالح عن مدينتنا وندفع اليه ما احب من اموالنا ، فان ظفر المسلمون بالطريق يوقنا نكن نحن آمنين غير وجلين منهم ونقر عينا من بأسهم ، وان صالح يوقنا القوم نكن نحن قد سبقناه الى الصلح ، وان غلب ورجع سالما لم نبلغه ولم نعلمه ، واستوى رأيهم على ذلك فخرج منهم ثلاثون رجلا من رؤسائهم وسلكوا طريقا غير طريق يوقنا حتى اشرفوا على عسكر المسلمين فنادوا الفوث الفوث وكان العرب قد علمت ان الفوث بالرومية هو الامان ، وقال لهم الامير فمن سمعتموه يقولها فلا تعجلوا عليه بالقتل لئلا يطالبكم الله يوم القيامة وعمر بريء منه فكان العرب يعرفونها ، فلما سمع المسلمون منهم ذلك اسرعوا اليهم وأوقفوهم بين يدي ابي عبيدة . فقال خالد : يوشك ان هؤلاء يطلبون الصلح والامان لانفسهم وهم اهل حلب . قال ابو عبيدة ارجو ذلك ان شاء الله تعالى ، وان صالحوني صالحتهم وهو لا يعلم ما اصابه من الحرب الشديد والقتل العتيد وكان قدومهم عليه ليلا والنيران تضرم بين يديه وكان في العسكر رجال قيام في صلاتهم يتلون القرآن فجعل بعضهم يقول لبعض بهذه الفعال ينصرون علينا ، فلما سمع الترجمان مقالهم اخبر ابا عبيدة بما قد تناجوا بينهم . فقال ابو عبيدة انا قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا وانا رجال لا نريد من الله ورسوله بدلا ولن نجزع من قتال الاعداء فأخبرهم الترجمان بذلك ، ثم قال لهم من انتم ؟ قالوا نحن سكان حلب من تجارها وسوقتها ورؤسائها وقد جئنا نطلب منكم الصلح . فقال ابو عبيدة فكيف نصالحكم وقد بلغنا ان بطريقكم قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها ما يقوته سنين واتخذ الجند واكثر من ذلك

وما لكم عندنا صلح . فقالوا ايها الامير ان صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم وقتالكم . قال ابو عبيدة : ومتى خرج ؟ قالوا خرج سحر ونحن من بعده وسلكنا طريقا غير طريقه وانا نرجو انه هالك لا محالة لانه ركب البقي ولم يرض بالصلح وقد اطاع هواه فقد وقع في شرك الردى ، فلما سمع ابو عبيدة بخروج البطريق خاف على طليعته منه . فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم هلك والله كعب ومن معه انا لله وانا اليه راجعون ، ثم اطرق الى الارض فقالوا لبعض متساخ اهل حلب كلم لنا الامير في الصلح قال فكلمه . فقال ابو عبيدة بضجر لا صلح لكم عندنا ، قال فخاف التسيوخ على انفسهم وقالوا انا قد اجتمع عندنا من القرى والرسانيق خلق كثير ، فان صالحتمونا عمرنا لكم الارض وكنا لكم عوناً على عمارتها وعشنا في ظلكم ايام عدلكم ، وان انتم ابيتتم ذلك فر الناس عنكم وطلبوا أقصى البلاد وشاع الخبر عنكم انكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم احد . قال فأعلمه الترجمان بما قالوا فجعل ينظر اليهم واذا قد برز من القوم وصاح رجل احمر الوجه وكان من حكماء الروم فصيحاً بلسان عربي . فقال ايها الامير اسمع ما القيه اليك من العلم الذي انزل الله في الصحف على الانبياء . قال ابو عبيدة قل لنسمع فان كان حقاً علمناه ، وان كان غير حق لا نسمعه ولا نعمل به وكان اسمه دحداح . فقال ايها الامير ان الله سبحانه وتعالى انزل على انبيائه يقول : انا الرب الرحيم خلقت الرحمة واسكنتها في قلوب المؤمنين واني لا ارحم من لا يرحم من احسن احسنت اليه ومن تجاوز تجاوزت عنه ومن عفا عفوت عنه ومن طلبني وجدني ومن اغاث ملهوا فامنته يوم القيامة وبسطت له في رزقه وباركت له في عمره واكثرث له اهله ونصرته على عدوه ومن شكر المحسن على احسانه فقد شكرني وانا قد اتيناك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنا وآمن روعاتنا واحسن الينا .

قال فبكى ابو عبيدة من قوله وقرا - ان الله يحب المحسنين - ثم قال اللهم صل على محمد وعلى جميع الانبياء ، فهذا والله ارسل نبينا ارسله الله الى جميع الخلق والحمد لله على هدايته لنا ، ثم اقبل على المسلمين وهم حوله وفيهم الرؤساء من المهاجرين والانصار وقال لهم : الحمد لله على هدايته ، ثم قال ان هؤلاء اهل متجر وسوقة وضياع وهم مستضعفون وقد رأينا ان نحسن اليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم ومتى كانت المدينة في ايدينا والسوقة معنا فانهم يميروننا بالعلوفة ويعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عوناً لنا عليه . فقال رجل من المسلمين اصلح الله الامير ان مدينة القوم بالقرب من القلعة ولا تأمن ان القوم يدلون على عوراتنا ويخبرون بأحوالنا وما انى القوم ليخدعونا الا ترى الى بطريقهم وقد خرج يبغى قتالنا وحربنا فكيف يطلب هؤلاء الصلح منا ؟ ولا شك انهم مكروا بكعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين . فقال ابو عبيدة احسن ظنك بالله وثق بالله فان الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا ، فرحم الله من قال خيراً او صمت واذا اشرط عليهم النصيحة في صلحهم للمسلمين ، ثم

أقبل على القوم وقال اني اريد ان تبدلوا في صلحكم ما بذله اهل قنسرين . فقالوا ايها الامير ان قنسرين اقدم من مدينتنا واكثر جمعا ومدينتنا خالية من السكان لجور صاحبنا لانه قد اخذ اموالنا وغلاتنا واصعد الكل الى قلعته وما بقي عندنا الا الضعفاء ومن لا مال له وانا نسالك الترفق بنا والعدل فينا والاحسان الينا . فقال ابو عبيدة فما الذي تريدون ان تبدلوا في صلحكم ؟ قالوا نعطي نصف ما اعطى اهل قنسرين فقال ابو عبيدة قد قبلت منكم ذلك على اننا اذا نزلنا بصاحبكم اعنتمونا بالميرة والعلوفة وتبيعون وتشترون في عسكرنا ولا تكتموا عنا خبرا تكونون تعلمونه من اعدائنا ولا تتركوا جاسوسا يتجسس علينا وان رجع اليكم بطريقكم منهزما تمنعوه ان يصل الى القلعة . فقالوا ايها الامير اما قولك هذا ان نمنع البطريق ان لا يصعد الى القلعة فما نجد الى ذلك من سبيل ولا نقول لك ما لا نفعله ، ما لنا به طاقة ولا بمن معه من اعوانه وجندوه . قال ابو عبيدة فلا تمنعوه من الصعود الى القلعة وعليكم عهد الله وميثاقه والايمان المؤكدة الفليضة ان لا تقولوا هذا القول وان توفوا لنا كل شرط تم عليكم ، ثم حلفهم بالايمان التي يعرفونها فحلف القوم عن آخرهم وصالحوا عن رجالهم ودوابهم وابنائهم ونسائهم وعبيدهم وسائر اهاليهم وانتهوا على ذلك . فقال ابو عبيدة انكم قد حلفتم وقد قبلنا قولكم وايمانكم فان اصبنا احدا قد اخلف او علم من البطريق علما ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل ، واخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته ، ومتى نقضتم ما شرطنا عليكم فلا عهد لكم غندنا ولا ذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية في العام المقبل . قال سعيد بن عامر التنوفي فرضي اهل حلب بما شرطه عليهم ابو عبيدة واخذوا عهدهم وكتب اسماءهم وعزم القوم على الانصراف الى ديارهم ، وقال لهم ابو عبيدة على رسلكم حتى ابعث معكم من يسير معكم الى مامنكم فقد وجب علينا حفظكم الى ان تعودوا سالمين الى بلدكم . فقال له الدحداح ايها الامير : اننا نرجع من الطريق الذي جئنا منه وما نريد احدا يسير معنا ، فتركهم ابو عبيدة وبات بقية ليلته قلقا على كعب بن ضمرة ومن معه .

(قال الواقدي) ورجع القوم من ليلتهم الى حلب وانفجر الصبح ولم يصلوا ، فلما اشرفوا على حلب نظر اليهم بعض اعلاج البطريق وهم راجعون فأقبل اليهم وسالهم من اين اقبلتم ؟ وما صنعتهم فظنوا انه من اهل حلب فأخبروه بصلحهم مع ابي عبيدة فتركهم ومضى وان القوم استقبلهم اهل حلب فسألوهم فأخبروهم بالصلح وفرحوا بذلك واقبل العليج حتى اشرف على عسكر يوقنا وهو نازل على اصحاب رسول الله (ص) وقد احاط بهم وهو يظن انه قد ملكهم وهو يتوقع الصباح اذ اتى عليه العليج . فقال له ايها البطريق انك غافل عما نزل بك ودهمك . قال له وما ذاك يا ويلك ؟ قال له ان اهل بلدك قد صالحوا العرب وكانك بهم وقد ملكوا القلعة واخذوا الاموال والنسوان ، فلما سمع يوقنا ما اخبر به العليج خشي على قلعته ان يملكوها في

غيبته فانعكس عليه ما كان يؤمل أن يفوز به من الظفر بأصحاب رسول الله (ص) . وكان قد قتل من المسلمين نيف عن المائتين ، وكعب قد أجهد نفسه في الحرب وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة . قال كعب بن ضمرة : وكنت ذلك اليوم صاحب القوم وأنا أثبتهم في الحرب ، وإلى الحرب انهضهم بهمتي وأدفع عنهم بمهجتي فإذا أجحفتي القتال وركبني الحرب التجأت إلى أصحابي وأنا مع ذلك أتوقع فرجا من الله تعالى وأترقب راية أبي عبيدة أن تطلع فبعد علينا ذلك ولم تزل الحرب بيننا يوما وليلة إلى الصباح من اليوم الثاني ، فأقسم بالله أن كان أحدا ليصلي ولا حصل له زاد يأكله ولا ماء يشربه وأنا بين اليأس والرجاء أترقب طريق قنسرين أن تطلع منه علينا راية الاسلام فما أرى لها أثرا ، فرأيت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت لهم ضجة عظيمة من جميع جوانبه فقلت ما هذا إلا مدد لحقهم من البلد أو من الملك فالتجأت إلى كلمة الشدائد ، وهي لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال كعب بن ضمرة ، فوعيش رسول الله (ص) ما قلت الكلمة حتى رأيت جيش العدو وقد انكشف عنا على عقبة فقلت الحمد لله حمد الشاكرين واني أظن أن صائحا صاح بهم من السماء فبدهم أو ملائكة نزلت عليهم كيوم بدر فلم أر لهم أثرا . قال كعب : فهمت أن أتبعهم فصاح المسلمون إلى أين يا كعب أما كفاك ما نحن فيه أنزل بنا إلى الأرض وأرض بما نحن فيه من التعب والنصب ونؤدي فرضنا ونريح خيولنا فما رد الله هؤلاء القوم إلا بمشيئته وقدرته . قال فنزل كعب وشربوا الماء وأسبغوا الوضوء وصلوا ما فاتهم وأكلوا زادهم واستقبلوا الراحة .

(قال الواقدي) وأبطأ خبر كعب على أبي عبيدة ، فلما صلى الصبح انفتل من صلاته وأقبل على المسلمين وخاطب من بينهم خالدا ، وقال يا أبا سليمان إن أخاك أبا عبيدة ما رقد الليلة غما ، وأنه كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا ، وإن نفسي تحدثني بأن الذين مع كعب ابن ضمرة قد قتلوا لما أخبرني هؤلاء الذين يسألون الصلح أن صاحبهم يوقنا قد سار إليهم ولم أر أثرا وأظن أنه صادف أصحابنا وقتلهم وأفناهم عن آخرهم ، فقال خالد . والله اني ما نمت مثلك من الفم عليهم فما الذي عزمتم أن تصنع ؟ قال الرحيل ، ثم أمر الناس بالرحيل وارتحلوا ، وساروا يريدون حلب ، وعلى المقدمة خالد بن الوليد ، وعلى الساقة أبو عبيدة ، فما كان غير بعيد حتى أشرف على المسلمين خالد بن الوليد وهم نيام ، وقد أقاموا لهم من الديدبان من يحرسهم ، فلما أشرف عليهم خالد والراية في يده رفعها فوق رأسه ، فلما رآها الديدبان صاح النفر يا أنصار الدين فثاروا عن مضاجعهم كأنهم أسد نائرة واستووا في متون خيولهم واستقبلوا صاحب الراية فعرفوه فصاح بعضهم ببعض : هذه والله راية الاسلام والمسلمين ، فنزل خالد وسلم عليهم واتصلت بهم الساقة وأقبل أبو عبيدة فلما نظروا كعب بن ضمرة حمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع القتلى مطروحين وما كان من

المسلمين وراوهم ، فلما نظروا الى ذلك عاد فرحهم ترحا واسترجعوا وقالوا : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون ، وسأل كعبا : كيف قتل اصحابك هؤلاء ومن قتلهم ؟ فأخبره كعب بقتال يوقنا وأنه أشرف هو وقومه ، ومن كان معه على الهلاك حتى لم يبق فيهم حركة ونمنا ليلتنا هذه ، فلما أصبحنا وإذا هم قد صاحوا وانقلبوا راجعين عنا من غير قتال ، فقال ابو عبيدة فسبحان مسبب الاسباب ليت ابا عبيدة قتل امامهم ولم يقتلوا تحت رايته ، ثم أمر بدفن المسلمين بعدما جمعهم زمرا زمرا وصلى عليهم ودفنهم بأسلابهم ودمائهم ، ثم قال سمعت رسول الله (ص) يقول « يحشر الله الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة ودمائهم على اجسادهم : اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، والنور يتلألا عليهم ويدخلون الجنة » فلما واروهم في حفرهم قال لخالد : ان كان عدو الله يوقنا رجع الى القوم ، وعلم بصلحهم لنا فيلقون منه تعباً عظيماً فالحق بهم فقد وجب علينا ان نذب عنهم لانهم تحت ذمتنا وارتحل ابو عبيدة يريد حلب فلما وصل اليها رأى البطريق وجنوده قد احدثوا بأهل البلد وهم يريدون قتلهم ويقال لهم يا ويلكم صالحتم العرب عن انفسكم وصرتم عوناً لهم علينا ، قالوا قد فعلنا ذلك وانهم قوم منصورون فقال يا ويلكم ان المسيح لا يرضى بفعلكم فوحق المسيح لاقتلنكم عن آخركم او تخرجون معي الى قتالهم وتنقضون ما بينكم وبينهم من العهد والميثاق فأخبروني بمن بدأ بهذا الامر حتى ابدا به قال فلم يطيعوه على ذلك . فقال لعبيده ادخلوا عليهم واثبوني بهم لاقتلهم ، فقد أخبرني فلان انه لقيهم وعرفني بهم فهجم العبيد عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وابواب منازلهم فسمع اخوه يوحنا الضجة في البلد وهم في القلعة فنظر الى اخيه وهو يقتل في الناس وقد قتل من اهل البلد ثلثمائة ، فصاح بهم وبأخيه على رسلك لا تفعل فان المسيح يفضب عليك وقد نهانا ان نقتل عدونا فكيف بمن هو على ديننا ؟ . فقال يوقنا لآخيه انهم صالحوا العرب عن البلد وصاروا لهم عوناً علينا . فقال يوحنا : وحق المسيح لا أبقت عليك العرب ابدا وان لهم من يقتص منك .

قال : ومن يقتص مني ؟ قال : المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب ، فقال يوقنا : انت حملتهم على ذلك وانت اول من ابطش به ، ثم عمد الى أخيه وقبض عليه وجرد سيفه ليعلوه به ، فلما نظر يوحنا الى أخيه وقد جرد سيفه وعلم انه هالك رفع رأسه الى السماء وقال : اللهم اشهد على اني مسلم واني مخالف لدين هؤلاء القوم ، وانا اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله ، ثم قال لآخيه اصنع ما انت صانع فان كنت قاتلي فاني صائر الى جنات النعيم ، فورد على يوقنا من اسلام أخيه مورد عظيم ومن اهل بلده ومن فزعه من المسلمين فحملة الفيظ على أن يرمي برأس أخيه عن جسده والتفت الى اهل البلد فوجدتهم يستغيثون فلا يفاثون ويسألونه فلا يجيبهم ولا يكف عنهم فكثر منهم الضجيج وعلت الجلبة ، وقد أخذوا عليهم البلد من سائر

جوانبها ، وقد ايس اهل حلب من نفوسهم ، واذا بالفرج وقد اتى ، والمعونة وقد ادركتهم واشرفت عليهم رايات المسلمين وابطال الموحدين وهم ينادون بكلمة التوحيد ويقدمهم خالد بن الوليد ، فلما نظر خالد الى اهل حلب ولهم ضجيج بالصياح والبكاء قال لابي عبيدة ايها الامير هلك والله اهل صلحك وذمامك كما ذكرت فصاح بجواده وحملة الراية وزعق في القوم وقال افرجوا معاشر الاعلاج عن اهل صلحنا ثم اجاد فيهم الطعن وحمل المسلمون معه ، وبذلوا السيف في الاعلاج ، فلما نظر يوقنا الى ذلك انهزم الى القلعة ومعه بطارقتة . قال محصن بن عترة : فرج الله عن اهل البلد بقتل الاعلاج يوم حلب في البلد فمن لجأ الى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه قال محصن فكان جملة من قتل يوقنا من اهل صلحنا ، ثلثمائة وقتلنا نحن من اصحابه ثلاثة آلاف او يزيدون فكانت وقعة عجيبة ففرح المسلمون بها ، فلما قتل من قتل وفرج الله عن اهل حلب ما يجدون اخبروا ابا عبيدة كيف قتل يوقنا اخاه يوحنا وبالقصّة جميعها .

(قال الواقدي) فلما سمع يوقنا سيوف المسلمين صعد القلعة هو ومن معه من جنده واستعد للحصار ونصب المجانيق ونشر السلاح على الاسوار وكثر آلة الحصار ، واما اهل حلب فانهم اخرجوا لعساكر المسلمين اربعين اسيرا من البطارقة . فقال لهم ابو عبيدة لاي سبب اسرتم هؤلاء قالوا لانهم من اصحاب يوقنا هربوا الينا فلم نر ان نخفيهم منك لانهم ليسوا منا ولا معنا في الصلح قال فعرض عليهم الاسلام فاسلم منهم سبعة ، واما الباقون فابوا فضرب رقابهم وقال لهم لقد نصحتكم في صلحكم وسترون منا ما يسركم وصار لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وهذا بطريقكم قد تحصن في هذه القلعة فهل تعرفون لها عورة تدلونا عليها حتى نقاتلهم منها فان فتحها الله علينا جعلناها لكم غنيمة مع ما غنمتم من قومكم حتى نكافئكم بفعلكم الجميل فقالوا ايها الامير : والله ما نعرف لها عورة وان يوقنا قد شحن طرقاتها وقطع مسالكها ، ووعر فجاجها ، وهذا ما نعلمه ولولا انه قتل يوحنا لكان اخذها سهلا لكم . فقال ابو عبيدة وما جرى له ؟ فاخبروه بخبره وحديثه مع اخيه وانه اسلم بعدما رفع يديه الى السماء وما ندرى ما قال غير اننا سمعنا طرف كلامه وهو يقول : اللهم اني اشهد ان لا اله الا انت وان عيسى عبدك ورسولك ومحمدا عبدك ورسولك ختمت به الانبياء وجعلته سيد المرسلين ولا دين اعلى من دينه فاصنع ما انت صانع ، فلما اسلم قتله . قال فلما سمع ابو عبيدة ذلك قال في اي موضع قتله ؟ ثم وثب واخذ خالدا معه وجماعة من المسلمين واتوا الى موضع قتله وهو رأس سوق الساعة فوجده ملقى على ظهره وكأنه البدر ليلة تمامه مشيرا بأصبعه الى السماء وقد مات وأصبعه قائمة فأخذه ابو عبيدة وكفنه وصلى عليه ودفنه في مقام ابراهيم ، فلما واروه اتى الى ابي عبيدة رجل من المسلمين ، فقال اصلح الله الامير انظر الى هؤلاء القوم فان كانوا من حزبنا نصحوا ودلونا على عورات قومهم . فقال لا والله ما يفعلون ذلك أبدا فعندها أقبل ابو عبيدة على المسلمين ، وقال

أشيروا علي رحمكم الله ، فقال له ذلك الرجل وكان اسمه يونس بن عمرو الفساني وكان رجلا بصيرا بالشام وجباله ومدنه وجميع أرضه وعارفا بطريق الشام أصلح الله الأمير انظر الى ما أعرفه من البلد وما عندي من الرأي .

قال أبو عبيدة : تكلم يا ابن عمرو فانت عندنا ناصح للمسلمين . فقال ان الله قد فتح على يدك الشام وسهله وجبله وحزنه ووعره وقتل طاغية الكفر وحاميته ، وأما بقايا عساكرهم فهي من وراء الدروب وهي جبال وعرة ومضايق والقوم قد رعبت قلوبهم مما أباد الله منهم ، وليس لهم قلوب يقاتلون بها المسلمون فحاصر هذه القلعة وبث الخيل وشن الغارات في بقايا البلاد وشاطئ الفرات فما لهم زاد يقوم بهم فتبسم خالد من كلام الفساني ، وقال هذا والله هو الرأي وأنا أشير عليكم بمشورة أخرى : أن نزحف نحو القلعة فلعل الله أن يفتحها في وقتنا هذا فاني أخشى أن طال بنا المقام أن تعطف علينا جيوش الروم من جهة أخرى فيحولوا بينها وبيننا . قال أبو عبيدة : يا أبا سليمان لقد أشرت فأحسننت وقلت فصدقت ، ثم أمر أبو عبيدة بالزحف الى القلعة فترجلت الفرسان عن خيولهم وتجردت من ثيابهم واختلط العبيد والسادات وافتخرت القبائل وانبثت العشائر وتجاوبوا بالاشعار وتداعوا بالانساب . قال مسروق بن مالك فوالله ما رأيت في قتال حصون الشام يوما كان أعظم من ذلك اليوم لاننا كنا نشبه دوران الحرب كدوران الرمح تهشم ما دارت عليه وقد برزنا اليهم في أول حربهم وتبادرت أبطال اليمن وسادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضا وجعلوا يطلبون القلعة من حيث لا طريق عليها . فاذا دنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورموهم بالمجانيق والفراقات ، وكنت أنا وأصحابي أقرب الناس الى الأرض ففرعنا راجعين على أعقابنا يدفع بعضنا بعضا لا نظن أن ينجو منا أحد فوقعت الخدلة في المسلمين وقد شدخت منا الحجارة خلقا كثيرا ، فقتلت بعضنا وبعضنا رمته فكان من جملة من قتل يوم حصار قلعة حلب بالحجارة عامر بن الأصلع الربيعي ، ومالك بن خزعل الربيعي وحسان بن حنظلة ومروان بن عبدالله وسليمان بن فارغ العامري وعطاف بن سالم الكلابي وسراقة بن مسلم بن عوف العدوي ورجال من أهل اليمن من آل عامر ومن بني كلاب وغيرهم وسبعة من بني عبدالله . قال مرزوق بن مالك فلقد كنا نرى بعد ذلك بسنين خلقا كثيرا عرجا من يوم حصار قلعة حلب فعندها نصب أبو عبيدة رأيته خارج المدينة وجعل ينادي بالمسلمين فاجتمعوا انيه . فقال أيها الناس انكم قاتلتم اليوم على غرة فادفنوا الشهداء وشدوا كل من أصابه جرح فانتدب المسلمون الى ذلك وفرح الروم بهزيمة المسلمين وما قد نزل بهم . فقال لهم يوقنا ان العرب لا تدنوا من القلعة بعد هذا اليوم أبدا ، وان حاصرونا فلا يكيدنهم ولا هبطن الى عسكرهم .

(قال الواقدي) ولقد حدثني عبدالله بن سليمان الدينوري وكان ممن نقل أخبار الشام وفتوحه عن ثقات المسلمين . قال حدثني عمرو : أن يوقنا انتخب الفين من خيار

بطارقه وأبطاله ، وقال لهم : انزلوا مسرعين وليحذر بعضكم بعضا وميلوا على طرف
عسكر المسلمين اذا خمدت نيرانهم واغتنموا غرتهم وأمر عليهم وزيره ، فنزلوا ليلا من
القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر الى ان اتوا الى مكان ، وقد خمدت نيرانهم ، وكان
القوم بادية من أهل اليمن مثل مراد وبني كلاب وعبيدهم . قال عبدالله بن صفوان
البكي : كنا تلك الليلة غادين من عدونا آمنين لكثرتنا وقد غفل حرسنا ، فلم نشعر الا
وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلفتهم وقد اعلنوا التبهرج بزينتهم فلا نعلم
ما يقولون ووضعوا السيف فينا فكان النجيب منا من استوى على جواده وطلب النجاة
وهو لا يعلم من أين هي ولا كيف يتخلص ، وقد وقعت الجندلة في ابطال المسلمين
وعساكرهم والقوم ينادون النفير النفير دهينا ورب الكعبة ، وهم يسرعون الى خيمة
أبي عبيدة وينادون أيها الأمير كبسنا يوقنا ، فعندها ركب الأمير في بعض الرجال وجعل
يدور حول العسكر فنظر صاحب الروم الى العرب وقد لحقته ، فصاح بأصحابه نزل
كان اخذ شيئا فليتركه ويطلب نجاة نفسه . قال عبدالله بن صفوان : أخذوا من رجالنا
نحو خمسين رجلا من اخلاط الناس واكثرهم من ربيعة ومضر ومضوا يجمع بعضهم
بعضا ويطلبون القلعة ، فلما نظر خالد الى ذلك حمل في أصحابه واقتطع من الروم زهاء
من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم فلما وصل أصحاب يوقنا الى
القلعة فتح لهم وأدخلهم ، فلما أضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقنا بالمسلمين
الخمسين رجلا وهم موثقون بالحبال ، فقربهم الى موضع ينظرهم المسلمون ويسمعون
أصواتهم وهم يقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله حتى قتلوا عن آخرهم ، فلما نظر
أبو عبيدة الى ذلك أمر مناديا ينادي في عسكره عزيمة من الله ورسوله ومن الأمير أبي
عبيدة : على كل رجل لا يكل حرسه الى غيره ، ولكن كل رجل منكم حارس نفسه ، ولا
يتكلم بعضكم مع بعض . قال فأخذ القوم حذرهم وأعدوا حرسهم ، وأقبل يوقنا يدبر
أمره في مكيدة أخرى ليكيد بها المسلمين اذ علم أنهم محاصرون ومع ذلك جواسيسه
تأتيه بالاخبار في الليل والنهار وكان أعظم جواسيسه من متصرة العرب لانهم كانوا
يحسنون لسان الرومية .

قال فبينما يوقنا ذات يوم جالس في قلعته والبطارقة من حوله وقد اضر بهم
الحصار واشد ما كان عليهم من أهل المدينة لانهم لا ينظرون الى رجل من أصحابه
يعرفونه الا اخذوه وسلموه للمسلمين ، واذا بجاسوس قد أقبل وهو من عيونهم ، فقال
له : أيها السيد ان أردت ان تكيد العرب فهذا وقتك ، فقال له يوقنا وكيف ذلك ؟ وما
الذي عندك من الخبر ؟ قال ان العلافة منهم قد خرجوا الى وادي بطنان وقد صالحوا
أهلهم وعلوفة العرب وميرتهم منه ، وقد رأيت منهم جمالا وبغالا ومعهم طائفة منهم
وعليهم القمصان الخلقة وبأيديهم الرماح المشبعة وهم يقصدون القرى في طلب الميرة
وهم قليلون وليس هم في كثرة . فلما سمع يوقنا ذلك من جاسوسه ، اختار الفا من

أصحابه وقال : لهم أصلحوا شأنكم فوحق المسيح لاضيقن على العرب مسالكهم ولا قطعن عليهم طرقاتهم . فلما أقبل الليل . فتح لهم الباب ، وسار الجاسوس أمامهم حتى استقاموا على الجادة وجعلوا يسرون تحت جناح الليل فبينما هم كذلك ، اذ هم براع ومعه سرح من البقر يريد بها بلده ، وقد خرج بها من بلد آخر وهو يسير بها سيرا عنيفا ، فلما نظروا إليه أسرعوا نحوه وقالوا احسست بأحد من العرب قد عبر عليك قال نعم والشمس عند الغروب قد اصفرت وهم نحو مائة رجل على خيول وهم مسرعون ومعهم جمال وبغال وهم يريدون الميرة من هذا الوادي من الدين هم في صلحهم ولسنا نخاف منهم ، فقال له المقدم عليهم الآن قد القيت علينا من صلح أهل هذا الوادي ما لم يكن عندنا منه خبر فبحق المسيح أخبرنا بأي طريق ذهبت العرب . فقال من ههنا وأوماً بيده الى الشرق فصار البطريق بمن معه ولم يعرفوا أن صاحب البقر منهم حتى اذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين وكان الأمير عليها يقال له مناوش ، فلما نظر مناوش الى خيل الروم قد أقبلت أقبل على أصحابه وقال يا بني العرب هذا بطريق من بطارقة الروم قد أقبل الينا فدوتكم اياه والجهاد والصبر على الشدة تنالوا الجنة ثم حمل وحمل معه أصحابه فحملت عليهم الروم فثبت لهم المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وقتل مناوش بن الضحاك والفطريف بن ثابت ومنيع بن ثابت ومنيع بن عاصم وكهلان بن مرة فقتل من المسلمين ثلاثون رجلا كلهم من طيء وانهزم الباقون وملكت الروم ما كان مع المسلمين من الابل والبغال وعاد المسلمون منهزمين فعند ذلك أقبل البطريق على أصحابه ، وقال ارموا الاحمال عن هذه الدواب واعقروها وسوقوا بقية الدواب بما عليها فانها لنا ميرة واطلبوا الجبل واختموا عن أعين العرب والا ففي هذه الساعة تطلع علينا خيول العرب كالرياح تهزمكم فأكمنوا حتى اذا جاء الليل طلبنا القلعة واعتصمنا بها ففعلوا ذلك وقتلوا الجمال وساقوا الدواب والتجؤا في الجبل الى قرية فأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا الى القلعة وأقاموا لهم ديدبانا . قال عوف صباح الطائي كنت في الخيل لما قتل عمي مناوش ، ونحن في قلة وقد دهمتنا الخيل ، فلما نظرنا الى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا أخذنا على أنفسنا واتيينا المسلمين فبادر الينا أبو عبيدة ، وقال لنا ما وراءكم قلنا : الحرب والطعان ، قتل منا مناوش وقتل معه خلق كثير من فرساننا وأخذ ما كان معنا من الزاد والدواب .

فقال أبو عبيدة وما الذي دهاكم وقد حاصر الله الروم وما يجسر أحد أن يخرج منهم قالوا لا علم لنا غير أنا رأينا بطريقا عظيما قد أشرف علينا وهو في عدة حصنة وخيول كثيرة مستعدين للقتال لا نعلم عددهم ولا من أين أتى مددهم فهجموا علينا ونحن سائرون فأصيب أميرنا وقتل رجالنا وأخذوا ما كان معنا من الدواب والزاد فلما سمع أبو عبيدة ذلك دعا بخالد بن الوليد اليه وقال يا أبا سليمان أنت لها والمعد لمثلها وأنا

وائق بالله ثم بك مع اني استخير الله في جميع اموري ، سر على بركة الله تعالى وخذ معك من المسلمين من اردت لعلك ان تقفو القوم وتعاني موضع اثر الواقعة دتبع آثارهم عسى الله ان يوقعنا بهم واطلبهم اينما كانوا وحيث ساروا لعلك تأخذ بشار المسلمين ، واعلم اننا صالحنا اهل الوادي واننا لا ننقض عهدنا ولا نحول عن قولنا الا ان يكون القوم قد مكروا بنا فنجد الى قتالهم سبيلا فاتق الله فيهم ، سر يرحمك الله . قال فأسرع خالد الى خيمته ولبس سلاحه واستوى على متن جواده وهم بالمسير وحده . فقال له ابو عبيدة الى اين يا ابا سليمان ؟ قال له اسارع الى ما امرتني به . فقال له خذ من اردت معك من المسلمين ، فقال خالد انا امضي وحدي وما اريد احدا فقال له ابو عبيدة كيف تمضي وحدك وعدوك في عدد كثير ؟ قال خالد لو كانوا في الف او الفين القاهم بمعونة الله تعالى . فقال له ابو عبيدة انك كذلك ولكن خذ معك رجالا قال فاخذ ضاررا وامثاله وسار حتى اتى الى موضع الواقعة فرأى القتلى مطروحين ورأى حولهم اهل الوادي وهم يبكون خوفا من المسلمين على انفسهم وذرائعهم وان العرب تطالبهم بهم ، فلما طلع عليهم خالد ومن معه كأنهم شعلة نار تصارخ القوم في وجهه والقوا انفسهم بين يديه ، فقال لهم خالد من هؤلاء القوم الذين قتلوا اصحابنا ؟ قالوا انا نحن بريئون من دماء اصحابكم ونحن في صلحكم فاستحلفهم خالد أنهم لا يعلمون من قتلهم فحلفوا له فقال لهم من الذي اوقع بأصحابي ؟ فقالوا بطريق بعثه يوقنا من القلعة ومعه الف فارس من أشد قومه وان لهم في عسكريهم عيوننا يخبرونه بما أنتم فيه كل ساعة ، فقال لهم وفي اي طريق قصدوا . قالوا في هذا الطريق ، فقال خالد او ما حلفتكم ان ما عندكم علم بهم ، قالوا هذا الذي يخبرك من اهل حلب قد اتى يشتري طعاما ولولا انك اقبلت في هذه الساعة ما كنا عرفنا من قتلهم ، فقال له خالد اعلى هذا الطريق اخذوا . فقال له الرجل نعم ورايتهم يطلبون الجبل ، فقال خالد لاصحابه ان القوم علموا انهم لا بد لهم من خيل تطلبهم وتتبعهم وقد عدلوا عن طريقنا حتى اذا هجم عليهم الليل رجعوا الى قلعتهم فعولوا على المسير في طلبهم . ثم انهم ارخوا الاعنة وخالد يقدمهم وقد اخذ معه رجالا من المعاهدين يقفون بهم اثر الطريق والقوم ، فلما حصلوا على الطريق . قال خالد لواحد من المعاهدين اهلهم طريق الى قلعتهم غير هذا ؟

قال : نعم ولكن كن ههنا فانك تفوز بهم ان شاء الله تعالى فنزل خالد ومن معه في الوادي ، وهم يرقبون الطريق فما مضى من الليل الا قليل اذ سمع وقع حوافر الخيل والبطريق امامهم والخيل من ورائه وهو يزجرهم ويحثهم على المسير ، فلما توسطوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب خالد كأنه الاسد وخرج عليهم هو واصحابه فما كان قصد خالد غير البطريق وظن أنه يوقنا فضربه ضربة رماه نصفين وقد وضعوا السيف فيهم وجعلوا يطلبونهم وهم في الهرب فلم ينج منهم الا من اطل الله اجله وحازوا جميع ما معهم وأتوا برأس البطريق الى ابي عبيدة على رأس رمح فوجدوه

متلهفا على قدومهم ، فلما اشرف خالد بمن معه من الاسارى والاسلاب والدواب هلّوا وكبروا . فأجابهم العسكر بالتهليل والتكبير . قال واثى خالد ومن معه بالراس والاسلاب والاسارى ، فكانوا ازيد من ثلثمائة أسير ورؤوس القتلى سبعمائة فعرضوا عليهم الاسلام فأبوا ، وقالوا نحن نعطيك الفداء . فقال خالد نضرب رقابهم قبال القلعة لنوهن بذلك عدو الله قال فضربت رقابهم قبال القلعة . فقال خالد انا كنا نظن انا محاصرون القوم واذا نحن بخلاف ذلك وهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا ، وقد قتلوا جمالنا والدواب والصواب ان نجعل عليهم حرسا في كل طريق يمكننا ولا نمكنهم ان يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم ما استطعنا . قال أبو عبيدة جزاك الله خيرا يا ابا سليمان ما أبصرك بالامور ، فلما كان من الفد وصلى أبو عبيدة بالناس صلاة الفجر دعا بعبد الرحمن بن أبي بكر وبضرار بن الازور وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا وأمرهم ان يمسكوا الطريق والمسالك على يوقنا حتى لو طار طائر منها أو اليها اقتنصوه وأقام القوم على ذلك مدة ، فلما طال عليهم ذلك ضجر أبو عبيدة لطول مقامه فأمر الناس بالرحيل عنهم وعزم أن يتباعد عنهم : أي عن القلعة لعل أن يجد منهم غفلة فينتهزها . قال فبعد عن المدينة فنزل بقرية بقرب منها يقال لها النيرب وهو يريد حيلة يصل بها الى يوقنا . قال ويوقنا لا ينزل من القلعة ولا يفتح بابها ، ففكر أبو عبيدة غاية الفكرة ، وقال لخالد يا ابا سليمان ان جواسيس عدو الله تكشف اخبارنا ويوصلها اليه وتخوفه فاني أقسم عليك يا ابا سليمان الا ما جلت في عسكرنا جولة واختبرت أمر الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه . قال فركب خالد وأمر الناس أن يدوروا في عسكرهم وأن يقبضوا على كل من أنكره . قال فبينما خالد في طوافه اذ نظر الى رجل من العرب المتنصرة وبين يديه عباءة يقلبها فجعل خالد يرقبه فاستراب الرجل منه فناداه ، وقال من أي الناس أنت يا أخا العرب ؟ . قال انا رجل من اليمن . قال من أيها ؟ قال فأراد أن يقول وينتمي الى غير قبيلته فجري الحق على لسانه ؛ فقال انا من غسان ، فلما سماع خالد كلامه قبض عليه ، وقال له يا عدو الله أنت عين علينا لعدونا . قال ما انا متنصر وانا مسلم فأتى به الى أبي عبيدة ، وقال أيها الامير قد رابني أمر هذا لانني ما رأيته قط الا يومي هذا وقد ذكر أنه من غسان ولا شك أنه من عباد الصليب . فقال أبو عبيدة اختبره يا ابا سليمان قال وكيف اختبره ؟ قال اختبره بالقرآن والصلاة، فان أجابك والا فهو كافر . فقال له خالد : فصل ركعتين واجهز بالقراءة فيهما فلم يدر ما يقول . فقال له خالد أنت يا عدو الله عين علينا . ثم استخبره عن شأنه فأخبره وأقر أنه عين عليهم ، فقال له خالد أنت وحدك ؟ قال لا ولكننا ثلاثة انا أحدهم والاثنان قد ذهبا الى القلعة ليخبرا يوقنا بخبركم ، وأنا قد تخلفت لانظر ما يكون من أمركم ، فقال أبو عبيدة أخبرني أيما أحب اليك : القتل أو الاسلام فليس بعدهما شيء . فقال الفساني انا أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، ثم رجع

أبو عبيدة إلى حلب وما زالت القلعة محاصرة أربعة أشهر ، وقيل خمسة أشهر ، وأبطأ خبر أبي عبيدة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فكتب إلى أبي عبيدة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله أبي عبيدة سلام عليك ، فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) ، وأعلم يا أبا عبيدة أن بانقطاع كتابك وإبطاء خبرك يكثر قلقي ويضني جسدي على أخواني المسلمين وما لي ليل ولا نهار إلا وقلبي عندكم ومعكم . فإذا لم يأت منك خبر ولا رسول فإن عقلي طائر وفكري حائر ، وكأنك لا تكتب إلي إلا بالفتح أو الغنيمة ، وأعلم يا أبا عبيدة أنني وإن غابا عنكم فإن هممتي عندكم واني داعي لكم ، وقلقي عليكم كقلق الوالدة الشفوقة على ولدها ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن للإسلام والمسلمين عضدا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعث الكتاب إلى أبي عبيدة . فلما ورد عليه وقراه عليهم . قال معاشر المسلمين : إذا كان أمير المؤمنين داعيا لكم وراضيا عنكم في فعالكم فإن الله ينصركم على عدوكم . ثم كتب جواب الكتاب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : إلى أبي عبدالله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، من عامله بالشام أبي عبيدة : سلام عليك ، واني أحمد الله تعالى وأصلي على نبيه ، وبعد يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى له الحمد قد فتح على أيدينا قنسرين ، وقد شننا القارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب صلحا ، وقد عصت علينا قلعته وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنا ، وقد كادنا مرارا وذكر له ما جرى له مع أخيه يوحنا وأنه قتل منا رجلا ورزقهم الله الشهادة على يديه . ثم انه ذكر له من قتل والله تعالى من ورائه بالمرصاد ، وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر وأردت الرحيل عنه وعن محاصرته إلى البلاد التي بين حلب وانطاكية ، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ، وبعث الكتاب مع عبدالله بن قرط وجعدة بن جبير فسارا إلى أن اخذا في طريق هيشمت العتيقة وجدا في السير حتى قطعاً أرض الجفار إلى صكاصكة وهي حصن العرب قريبة من تيماء ، فلما وصلا إليها عارضهما فارس وعليه درع سابغ وعلى رأسه بيضة تلمع ، وهو معتقل برمح كأنه قد برز إلى عدوه أو قاصد إلى قتال . فلما نظر إليهما قصدهما . فقال عبدالله بن قرط لجعدة ابن جبير : يا ويلك أما ترى هذا الفارس ، وقد عارضنا في مثل هذا المكان على مثل هذه الحالة فقال له جعدة : وما عسى أن نتخوف من فرسان العرب ورجالها ، وليس في هذا الموضع من رفع عمودا أو ضرب وتدا إلا وأصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفي شريعتنا ، فلما قرب الفارس منا سلم علينا ، وقال من أين أقبلتما وإلى أين قاصدان ؟ فقالا له نحن رسولان من الأمير أبي عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فمن أنت أيها الرجل ؟ قال أنا هلال بن بدر الطائي . فقالا له ما لنا نرى عليك آلة الحرب . قال اني خرجت في طوائف من قومي ونجاعة من أصحابي نريد الشام للجهاد ، لكتاب ورد علينا من عمر بن الخطاب . فلما رايتكما في بطن الوادي قصدتكما لأنظر ما قصتكما ، ولي أصحاب من ورائي مقبلون .

ثم سلم عليهما وولى فركضا مظهرهما وسارا واذا بالخيل قد أشرفت ، والابل قد أقبلت تتبع هلال بن بدر ارسالا يتبع بعضها بعضا الى أن لحقوه فأخبرهم بقصة صاحبي رسول الله (ص) ففرحوا بذلك وساروا يريدون الشام ، وأما عبدالله بن قرط وجعدة بن جبير فانهما وصلا المدينة ودخلا المسجد وسلمتا على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ودفعتا له الكتاب ، فلما قرأه استبشر ورفع كفيه الى السماء ، وقال اللهم اكف الناس شر كل ذي شر . ثم أمر مناديا في الناس الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس قرأ عليهم كتاب أبي عبيدة ، فلما قرأه قدم عليه من حضرموت وأقاصي اليمن من همدان ومدان وسبا ومارب يسألونه أن ينفذهم الى الشام ، فقال لهم عمر في كم انتم بارك الله فيكم ؟ قالوا نحن زهاء من أربعمئة فارس وثلاثمئة مطية مردفين ومعنا أناس يمشون على أقدامهم لا ركاب لهم ، فان كان عند أمير المؤمنين ما يحملهم عليه حتى نصل الى عدونا ، فقال لهم عمر وكم يبلغ الرجال الذين معكم ، قالوا أربعين ومائة رجل ، فقال لهم عرب أو موال ، قالوا عرب وموال اذن لهم ساداتهم في الجهاد والمسير الى الاعداء ، فعندها دعا عمر بعبدالله ابنه (رض) ، وقال امض الى مال الصدقات فأت القوم بسبعين راحلة ليعتقبوا عليها ويحملوا زادهم وميرتهم على ظهورها فأسرع عبدالله بن عمر وأتى بسبعين بعيرا وسلمها اليهم ، وقال لهم جدوا رحمكم الله الى اخوانكم المسلمين وأسرعوا الى حرب عدوكم ، ثم كتب الى أبي عبيدة . اما بعد فقد ورد علي كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على اعدائكم ومن قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرته من انصرافك الى البلاد التي بين حلب وانطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا رأي غير صواب تترك رجلا قد دنوت من دياره وملكت مدينته ، ثم ترحل فيبلغ الى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه ولم تصل اليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترى عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع اليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في أمرك فايالك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم اليك ان شاء الله تعالى أو يحكم الله ، وهو خير الحاكمين وبث الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة . . . واكناف الجبال والاودية . . . وشن الفارات في حدود المفازات ، ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين ، وقد أنفذت كتابي اليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال والمدد يأتيك متواترا ان شاء الله تعالى والسلام . وختم الكتاب وسلمه لعبدالله بن قرط وجعدة ، وجعل القوم يجدون في سيرهم ومع ذلك يسألون عبدالله بن قرط وصاحبه عن بلاد الشام وفتح البلاد ، وقتل الروم الى أن سألوهما عن مستقر العسكر ، فقال لهم عبدالله : ان جميع المسلمين وأميرهم محاصرون بقلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم ومعه أعلاج من أصحابه ، وقد تحصنوا في رأس قلعته ، فقالوا له يا ابن قرط ما لهؤلاء لا يدخلون في جملة من صالح من أصحابهم ، فقال لهم يا معاشر

العرب انا لم نر بعد وقعة اليرموك رجالا اشجع من هذا فلقد قتل رجالا وجندل ابطالا وانه ليفير على اطراف العسكر في وقت صلاتهم فيقتل رجالهم وينهب اموالهم ويرجع الى قلعته وربما انه يستتر في سواد الليل في طلب العلافة فيقع بهم فيأمر بهم ويأخذ دوابهم وجميع زادهم وميرتهم ، ثم يعود الى قلعته ونحن لا نعلم به ، وان المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون .

قال وكان فيمن سمع كلامه وفهمه مولى من موالي بني طريف من ملوك كندة ويقال له دامس ويكنى بأبي الاهوال مشهور باسمه وكنيته وكان اسود كثير السواد بصاصا كانه النخلة السحوق اذا ركب الفرس العالي من الخيل تخط رجلاه بالارض ، وان ركب البعير العالي تقارب ركبته رجلي البعير وكان فارسا شجاعا قويا قد شاع ذكره ونما أمره وعلا قدره في بلاد كندة وأودية حضرموت وجبال مهرة وارض الشحر وقد اخاف البادية ونهب اموال الحاضرة ، وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة ، وكان اذا ادركته العرب في باديتها تعجبت من صولته وشجاعته وبراعته ، فلما سمع دامس ابو الهول بذكر يوقنا وما فعل بالمسلمين كاد ان يتمزق غيظا وحنقا ، وقال لعبدالله ابن قرط ابشر يا اخا العرب فوالله لا اجتهدن في أن يخذله الله على يدي ، فلما سمع عبدالله كلامه جعل ينظر اليه شزرا ، وقال : يا ابن السوداء لقد حدثتك نفسك آمالا لا تبلغها وأشياء لا تدركها يا ويلك ألم تعلم أن فرسان المسلمين وابطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولاصحابه محاربون ومع ذلك لا يقدر احد له على شر وقد كاد ملوكا وقهرها . فلما سمع دامس كلام عبدالله بن قرط غضب ، وقال والله يا عبدالله لولا ما يلزمني لك من اخوة الاسلام لبدأت بك قبله فاحذر أن تزدري بالرجال وان احببت أن تعرفني فسل عني من حضر من أهلي وما قد تقدم من فعلي الذي من ذكره تطيش العقول وتضييق الصدور كم من عساكر قتلتها وجموع فرققتها ومحافل بددتها وغارات شننتها ولا يضام لي جار ولا يلحقني عار وبحمد الله انا فارس كرار غير فرار . ثم تركه مفضبا وسار امام الناس وان قوما من العرب قالوا لعبدالله بن قرط يا اخا العرب ارفق بنفسك فانك وايم الله تخاطب رجلا يقرب اليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد وانه لجليد فريد لا تهوله الرجال ولا تفزعه الابطال ان كان في حرب كان في اولها لا يدركه من طلب ولا يفوته من هرب ، فقال عبدالله لقد كثر وصفكم واطنبتكم في ذكركم وارجو ان يجعل الله فيه خيرا وفرجا للمسلمين ، قال ثم اخذ القوم في جد السير حتى قدموا حلب الى أبي عبيدة ، وهو منازل اهل قلعة حلب ومحاصرها وقد احاط المسلمون بالقلعة من كل جانب ، فلما اشرف القوم عليهم اخذوا في زينتهم وجردوا سيوفهم واشهروا سلاحهم ونشروا راياتهم وكبروا بأجمعهم وصلوا على نبيهم . فأجابهم اهل العسكر بالتكبير من كل جانب واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم وسلموا عليه ونزل كل قوم عند بني عمهم وعشيرتهم ، ويوقنا ما زال في كل ليلة ينشط اليهم برجاله ويناوشهم وذلك انه كان لا يقاتلهم الا قليلا ولا يظهر من القلعة نهارا ابدا وكان

أكثر خروجه في وقت خروج الناس ، فلما بات المسلمون القادمون في تلك الليلة وبظرت طيء وسنيس ونبهان وكندة وحضرموت. الى شدة الحرس وعظم حرسهم وحذرهم أقبل دامس أبو الهول على أهله الذين نزل عليهم من طريف وكندة ، فقال لهم دامس والله ما أنتم محاصرون لا محالة . فقالوا له وكيف ذلك . قال لان العدو في رأس قلعة وأنتم قدام العدو من الارض لقربكم ولا عسكر بازائكم تخافونه فما هذا الخوف ؟ . قالوا يا أبا الهول ان صاحب هذه القلعة عالج ميشوم يرتقب غفلتنا ويفير على اطرافنا ويأتينا من مأمنا فبينما دامس يخاطب القوم واذا بالضجة قد وقعت في طرف عسكر المسلمين ولها جلبة عظيمة فوقف دامس منتضيا حسامه متنكبا حجفته وطلب الناحية التي سمع منها الصوت حتى بلغ اليها واذا بيوقنا في خمسمائة رجل أبطال انجاد وليوث شداد وقد وجد غرة من القوم ، فلما نظر دامس الى الروم وقع في وسطهم ، وجعل يقول :

انا أبو الهول واسمي دامس أكر في جمعهم مداعس
ليث هزبر بطل ممارس مدمر كل عدو ناكس

قال وجعل يضرب في أعراضهم بسيفه ومعه طائفة من بني طريف من شجعانهم وفرسانهم ، فلما نظر يوقنا ما نزل به تفهقر الى ورائه ، وقد قتل من رجاله مائتان ودامس يكر عليهم ويتبعهم الى رأس درب القلعة وكندة من ورائه فناداهم أبو عبيدة : عزيمة مني عليكم ان لا يتبعهم منكم أحد في ظلمة هذا الليل ، فقال الناس يا أبا الهول ان الامير يعزم علينا وعليك بالرجوع فارجع رحمك الله فرجع دامس الى رحله ، وتراجع القوم الى رجالهم ، وقد أبلت كندة بلاء حسنا والناس قد خرجوا فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة مع أبي عبيدة ، فلما قضيت الصلاة تفرقوا ولم يبق الا نفر يسير من امراء المسلمين فجعلوا يذكرون ليلتهم . فقال خالد أصلح الله الامير لقد رأيت كندة وقد أبلت بلاء حسنا ، وقد تقدمت رجالها وثبتت أبطالها ، وما زالت تضرب حتى ازلت عنا جامية الكفر والعدو ، فقال أبو عبيدة : صدقت والله يا أبا سليمان ، والله لقد أسعدت الناس كندة بثباتها والله لقد سمعتهم يقولون : أحسن دامس وأجاد أبو الهول ، فقام الى أبي عبيدة رجل من رؤساء كندة يقال له سراقه بن مرداس بن يكر ، فقال أصلح الله الامير دامس هو أبو الهول ، وهو مولى طريف قدم مع هذا الوفد الذي ورد بالامس ، وهو رجل يفجر ويهول على الابطال ويفضح الشجعان ويدل الاقران ، لا يهوله جمع ولا يصعب عليه غارة ، فقال أبو عبيدة لخالد أما تسمع كلام سراقه في عبداهم دامس ، فقال خالد يوشك ان يكون صادقا في قوله ، ولقد سمعت بذكره وحديثه وشجاعته وبراعته ، ولقد أخبرني رجل يقال له النعمان بن عشيرة المهري ان دامسا هذا أغار وحده وهم على ساحل البحر في سبعين رجلا من أهل مهرة ، وكان دامس هذا يطلبهم لاجل ثار كان له عند القوم ، وكانوا يخافون منه ومن شره وبأسه ،

فكانوا مع ذلك يفتدون بأموالهم ودوابهم ويهربون الى أطراف الجبال وسواحل البحر حذرا منه ، وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم ، فلما أصبح عند نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتسأغلو ولم ينفر منهم أحد معه ، وكان خبيرا بالبلاد سهلها ورعرعها برها وبحرها ، فلما أيس من قومه دخل الى خبايته واحتمل رزمة على عاتقه فاتاه أناس من قومه وقالوا له : الى أين تريد وما هذا الذي معك ؟ ، فقال يا قوم انا أريد الفارة على بني الشعر وأخذ بالثأر واكشف العار ، فقال له مشايخ الحي ما رأينا أعجب من أمرك وانت تعلم أن بني الشعر سبعون ، فمن يريد أن يغير عليهم وحده ويأخذ منهم بالثأر ؟ وما سمعنا بهذا ابدا ، وانا نرى أن تقصد جواد ، وكانت جواد هذه أمة لبني حياس من الحضارمة ، وكانت بقرية من قرى حضرموت يقال لها أسفل ، وكان دامس هذا يهواها وكل ما يأخذه من الاموال والخيال والابل يدفعه اليها ولا يعظم عليه كثرته ، وكان لا يرضى لها بالقليل ولا يشبع لها بالكثير فظن القوم انه مضى اليها وقصد نحوها بحملته التي معه من رزمته ، فقال لهم وايم الله اني بطل فما تظنون ؟ وسوف تعلمون أن ما أفعله الحق واليقين . قال فرجع قومه وتركوه وسار الى أن أتى الى مرعى قومه فأخذ راحلته من ابلهم ورحلها وأخذ سيفه وحجفته ، وجعل الرزمة تحته وسار بقية يومه وليلته ، حتى اذ كان آخر الليل عطف بالراحلة الى بعض الاودية فأبركها وحل رحلها وعقلها ودورها ترعى معقولة ، ثم كمن بين حجرين ، وكان قريبا من القوم ويخاف أن يدوروا به ، فلما مضى عليه نهاره وأقبل ليله أتى الى راحلته وأبركها ورحلها واستوى في كورها ، وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحي ، وكان في ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزم شدقها لئلا ترغو فيسمع القوم رغاءها . ثم عمد الى رزمته فحلها واستخرج منها الثياب واتى الى تلك الشجرة ، فجعل على كل عود منها مثل عمامة الرجل ، ويأتي بالعود ينصبه ويسنده بالحجارة وي طرح عليه الازار ، ولم يزل حتى اقام اربعين عودا على هذه الصفة ، وجعل عليه حلة حمراء أرجوانية وهبط من ذلك الشرف الذي عليه الثياب وقصد الحي ودار حول بيوتهم وتفكر في أمره ، وكيف يحتال وقد مضى اكثر الليل . ثم صبر الى أن طلع الفجر وسار نحو الساحل ، فلما قرب منهم صاح فيهم وقال : دنا أجلكم انا ابو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر والبحر ، وجعل ينادي يا لثار طريف يا آل طريف يا آل كندة ، فلما وقع صوته في اسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساؤهم وفزع القوم بين يديه من البيوت هاربين والى الساحل نحو الجبل طالبين وهو من خلفهم ، فلما رأوه وحده شجع بعضهم بعضا ورجعوا اليه يقاتلونه وطمعوا فيه لما رأوه وحده ولم يروا أحدا من ورائه وأخذوا في طلبه ، فجعل يكر عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجلا بعد رجل ، فلما نظروا الى شدة بأسه وعظم مراسه وهول صولته وشدة حملته أرادوا أن يسبقوه الى الشرف ليأتوا اليه من ورائه ، فلما علم أنهم قد قاربوا الاعواد التي عملها وعليها الثياب خاف أن ينظروا اليها

ويعلموا ما فعله من المكر ، فسبقهم الى الشرف وسار امامهم واقبل على الاعواد مخاطبا لها كانه يخاطب الرجال وهو يقول : يا اهل كنبدة يا اهل طريف اياكم والقوم ، قد اتتكم الرجال فلا تحسبوا عليهم وأنا افديكم بنفسى ، فان رايتم على الحيف فاحملوا على القوم ، فمد القوم ابصارهم اليه فوجدوا عنده الثياب على الاعواد في انشقاق الفجر فلم يشكوا انهم رجال فانقلبوا راجعين نحو البحر ، وجعل دامس ينادي الا يا قوم اقسمت عليكم ان لا تبرحوا من اماكنكم وأنا اكفيكم مؤنة القوم وحدي فرجعت بنو مهرة ناكسين على اعقابهم . هذا قد اردف زوجته ، وهذا اولاده وهذا أمته وهذا اخذ ما قدر عليه من اثائه ورجع ابو الهول الى الحي ، فلم يصادف فيه الا العبيد والصبيان والمشايخ والعجائز فأمر العبيد ان يوقروا الجمال فحملوها وكتفهم وساق الجميع قدماه وعاد وأخذ الثياب من على الاعواد ولحقهم وأتى بهم ديار قومه فعجبوا منه ومن فعاله ، فلما سمع ابو عبيدة ذلك من خالد اقبل على سراقة وقال له : ادع لي عبدكم حتى انظر اليه واسمع كلامه فاتى به سراقة ، فقال له ابو عبيدة انت دامس . قال نعم أصلح الله الأمير ، فقال له بلغني عنك عجائب وانت وايم الله اهلها ، لانك جزل من الرجال واعلم انك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع ، ولقد اقتحمت البارحة اثر القوم اقتحاما منكرا فافرق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنا ، فقال له دامس أصلح الله الأمير لقد غزوت مهرة وأخذت أموالها ، وان جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر ، وما هذه بأمنع من تلك الجبال ، فقال ابو عبيدة انا اراك نجيبا فهل حدثتك نفسك من أمر هذه القلعة بشيء ؟ ، فقال دامس أصلح الله الأمير اني لما قدمت عليك في هذا الوقت كنت رايت في نومي رؤيا ، فقال ابو عبيدة وما الذي رايت ؟ اراك الله الخير . قال رايت كأنني سائر في وطاة من الارض واني مجد اطلب قومي ، فبينما انا في مسيري اذ اشرفت عليهم وهم حائرون لا يتقدمون ولا يتأخرون فناديتهم : يا قوم ما شأنكم واي شيء عرض لكم في طريقكم ؟ فقال لي القوم ما ترى هذا الجبل كيف قد عرض لنا في آخر هذا الطريق وليس لنا فيه مسلك ولا مطلع ، فقلت على رسلكم الا ترون هذه الفجوة في هذا الجبل ؟ فقالوا هيهات ليس لنا فيه منفذ ولا مطلع ، فقلت ولم ذلك . قالوا لان فيه ثعبانا عظيما لا يمر به أحد الا وأهلكه ، وقد قتل رجالا وجندلا ابطلا ، فقلت يا قوم الا تهجمون عليه بأجمعكم ؟ . قالوا لا نقدر على ذلك لان النار تخرج من أنفاسه وليس لنا عليه من سبيل ، فقلت لهم فالتمسوا لكم طريقا من وراء ظهره . فقالوا لا نقدر على ذلك من عظم جثته فتركتمهم والتمست لي طريقا فلم أجد الا طريقا صعبا حرجا فاقتحمته فما سلكته الا بعد المشقة واتييت الى الثعبان من ورائه فقتلته ، ثم اشرفت على قومي فاتبعوني ، فما وصلوا الا بعد جهد جهيد وهم آمنون من عدوهم ، ثم استيقظت فرحنا مسرورا .

فقال ابو عبيدة خيرا رايت وخيرا يكون يا دامس . أما رؤياك هذه فانها للمسلمين

بشارة ، ولعدونا خسارة ، ثم قال له اجلس مكانك ، وأمر أبو عبيدة أن ينادي المسلمين فحضر رؤساء المسلمين وأعيانهم ، فلما حضروا قال أبو عبيدة : الله أكبر فتح الله ونصر ، وحبانا بالظفر ، وخذل من كفر ، ثم قال : يا معاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيك دامس فانها عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن افتكر . قال فأقبلوا يسمعون له ، فعندها قام أبو عبيدة على قدميه وقال : الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم ، ثم قال يا معاشر الناس ان الله سبحانه وتعالى له الحمد قد وعدنا في كتابه على لسان نبيه محمد (ص) الغلبة على أعدائنا والظفر بمرادنا ، وما كان الله ليخلف وعده ، واني نذرت ان فتح الله هذه القلعة على يدي أصنع من البر ما استطعت ، والآن قد هجس في نفسي ووقع في قلبي انا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، لانه قد دلني على ذلك رؤيا هذا الفلام . ثم قبض بكفه على زند أبي الهول وقال له : رحمك الله حدث اخوانك بما رايت في منامك فقام دامس قائما وقال : اعلموا اني رايت في منامي كذا وكذا وجعل يقص على الناس رؤياه من أولها الى آخرها ، فلما فرغ منها أقبل المسلمون على أبي عبيدة وقالوا له ايها الامير قد سمعنا قوله . وحفظنا شرحه ، فما تأويل رؤياه ؟ . قال أبو عبيدة : اعلموا رحمكم الله ، أما الجبل الذي رأيته عاليا شامخا شديد الامتناع بين الشعب والقلاع فذلك دين الاسلام بلا شك وسنة محمد (ص) ، وأما الشعبان الذي رأيته وقد منع الناس وقد هجم عليه بسيفه فأمر حسن هو ان يفرج الله على يديه على المسلمين ففرح الناس بتأويل أبي عبيدة . وقالوا ايها الامير فما الذي تأمرنا به ، فقال أمركم بتقوى الله سرا وجهرا . ثم المكيدة على الاعداء طوعا وصبرا فارجعوا الى رحالكم حفظكم الله وأصلحوا شأنكم وآلة حربكم وما تحتاجون اليه فاني أقدمكم غدا غد الى أعاديكم الى ان يحدث لي رأي غير هذا ، فاني لست ادع الاجتهاد في الرأي والمشاورة لمن اثق به وبرايه من المسلمين ، فقالوا بأجمعهم وفق الله رأيك ايها الامير وظفرك بأعدائك انه سميع عليم ، فعال لما يريد ومضوا الى رحالهم ، فجعل هذا يحد سيفه ، وهذا يصلح آلة حربه وفرسه ، وهذا يتفقد درعه ، وهذا قوسه ونشابه ، وما زالوا كذلك بقية يومهم ، فلما أصبحوا دعا أبو عبيدة دامس ، فقال له ايها الولد المبارك . ماذا ترى في أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة ، فقال دامس : اعلى ايها الامير انها قلعة منيعة شامخة حصينة تعجز النوافد وتمنع القاصد في أهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال ، غير اني أفكر في حيلة احتالها او بلية اعملها وارجو من الله ان يتم ذلك عليهم ، فيكون تبديدهم ، ونملك بمشيئة الله ديارهم ، ونقلع آثارهم ، فقال أبو عبيدة : يا دامس وما هي ؟ فقال أصلح الله الامير انت تعلم ما في اذاعة الاسرار من الشر والاضرار ، ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه ، ويقال ان دامسا هذا اول من تكلم بهذه الكلمة فصارت مثلا ، فقال أبو عبيدة : فما الذي تشير اليه ، وما الذي تعتمد عليه ؟

قال تزحف بعسكرك وجملة من معك من أصحابك حتى تنزلوا بازاء القلعة ليظهر

لهم منك الحرص والهيبة ، واعلم ان في ذلك من الحيل ما أرجو من الله ان يتمها ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فأمر أبو عبيدة عسكره بالرحيل فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهللوا وكبروا وأظهروا سلاحهم وأرهبوا أعداء الله تعالى .

قال فأشرف عليهم الروم ونظروا الى جمعهم فهابوهم وألقى الله الرعب في قلوبهم حتى انهم اضطربوا في قلعته وهاجوا وجعل كبرائهم يستشيرون فيما بينهم . فقال قوم نقاتلهم ، وقال قوم بل نقعد في قلعتنا فانهم لا يقدرّون علينا ، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة وقعدوا على الابراج والبنيان وجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والسهم وقد أقاموا على ذلك ليلا ونهارا ودامس مع ذلك يعمل جيلة يصل بها اليهم بسوء . قال فلما كان بعد السبعة والاربعين يوما أقبل دامس على أبي عبيدة وقال له أيها الأمير قد عجزت وأنا اعمل حيلة فما صدر من يدي في حقهم شيء وقد افتركت في شيء وأرجو من الله ان يكون به الظفر والظهور على أعداء الله . فقال أبو عبيدة وما الذي دبرت ؟ قال تضيف الي من صناديد الرجال ثلاثين رجلا وتأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض علي فيما أمرهم به وأفعله وأراه . فقال أبو عبيدة سأفعل ذلك ، ثم ضم اليه ثلاثين رجلا من الشجعان حتى اذا اجتمعوا قال لهم أبو عبيدة معاشر المسلمين اني قد أمرت دامسا عليكم وأمرتكم بالطاعة والقبول لأمره واعلموا رحمكم الله اني ما أمرته عليكم لكونه أجل منكم حسبا ونسبا ولا أعظم موكبا ولا أشد بأسا ولا أكثر مراسا فلا يقل أحدكم اني قد أمرت عليكم عبدا احتقارا بكم ، وبالله أحلف مجتهدا لولا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر لكنت أول من ينطلق معه في جمعكم وأنا أرجو من الله ان يفتح على يديكم ، فأقبلوا عليه بجمعهم ، وقالوا أصلح الله الأمير ما نشك في أعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا ، ولقد كان كلامك الأول أثر في نفوسنا ، وبها نحن لك وبين يديك ولو أمرت علينا علجا أغلف لم نخرج لك من أمر ولا رأي اذ علمنا أنك لا تريد الا نصحا للدين وحياسة ، فالسمع والطاعة لله ثم لك ثم لمن وليته علينا من قبلك كائنا من الناس اجمعين . قال ففرح أبو عبيدة بما قالوه ووثق بكلامهم وجزاهم خيرا ، وقال لهم : اعلموا رحمكم الله تعالى ان نفسي تحدثني ان الله تعالى يفتح هذه القلعة على يد هذا العبد المقبل لانه دقيق الحيلة حسن البصيرة . فسيروا معه وثقوا بالله وتوكلوا عليه وقد تعلمون ان رسول الله (ص) قد ولى قوادا على سادات العرب من المسلمين والاشراف من عشيرته ، ثم أقبل على دامس . فقال له : يا دامس ما الذي تحب بعد هذا ؟ قال ترحل انت بجيشك من وقتك هذا فتكون منا على مسيرة فرسخ فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلّة الحركة وان يختفوا ما استطاعوا او يكون لك رجال تثق بشدتهم ونصحهم للمسلمين يتجسسون عن أخبارنا وآثارنا من غير ان يعلم بهم وبنا أحد ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر ، فاذا عاينوا منا الظهور على أعدائنا والظفر بهم لحقوك وبشرك بذلك فتلحق بنا ان شاء الله تعالى وليكونوا متفرقين في موضع واحد ، فان ذلك أسلم لهم وأبلغ لما يريدون من أمورهم والله المستعان في جميع الامور

والاحوال .

فعلم ابو عبيدة انه نصيح من الرجال صاحب راي وبصيره . تم ان دامسا اقبل على رفاقه الذين ولى عليهم وقال لهم يا فتيان العرب انهضوا بنا بارك الله فيكم حتى نكمن في بعض هذا الوادي ما دام الناس عازمين على الرحيل لثلا تشرف الروم فينظروا الى رحيلنا فلا يتفق لنا ان نطلب لنا مكمنا اذا اشرفوا من أعلى حصنهم وليكن مع كل رجل منكم سيفه وحجفنه وخنجره لا غير ، ففعلوا ذلك ، فلما تكاملوا لبس دامس لامة حربه وجعل خنجره تحت انوابه واخذ جماعته وخرج بهم حتى اذا فارق العسكر جعلوا يخفون آثارهم واشخاصهم وهو سائر بهم حتى اتى بهم كهفا في الجبل فأمرهم بالدخول اليه وجلس على بابه . قال واما ابو عبيدة فانه أمر الناس بالرحيل بعد ما رتب الرجال كما وصاه ابو الهول فارتحل العسكر واشرف عليهم أهل القلعة فراوهم يرحلون ففرحوا بذلك وسروا سرورا عظيما وصاروا يصيحون على المسلمين من أعلى القلعة وقالوا لبطريقهم أيها السيد افتح لنا الباب حتى نخرج وراء العرب فلعل ان نقتل احدا أو نأسره فنهاهم عن ذلك قال وداموا بقية يومهم الى العشاء . فقال دامس لاصحابه من فيكم ينهض الى تحت القلعة ويأتينا بخبر منها اذ يفدر على رجل يأسره فيأتينا به فنأخذ منه خبرا فلم يجبه احد ، فقال انا اعلم ان ما في هذه الجماعة الا من هو ضنين بنفسه كاره للموت وأنا لكم الفداء فانظروا كيف تكمنون ، تم تركهم دامس ومضى فغاب عنهم ساعة واذا به قد أتى ومعه علج وقال لهم يا فتيان العرب دونكم هذا فاسألوه فسالوه فلم يفقهوا قوله . فقال على رسلكم فغاب غير بعيد وأتى بثلاثة اخر نام يكن فيهم من يفهم بلغة العرب . فقال دامس لعن الله هؤلاء ما افطع لفتهم واكثر طمطمتمهم ثم اوثقهم كتافا وغاب الى ان مضى من الليل نصفه ولم يأت فقلق عليه اصحابه قلقا شديدا واغتموا عليه وقال بعضهم لبعض انا اقول ان دامسا قد فطن به فقتل او أسر وماجوا في ذكره وهموا ان يرجعوا الى العسكر فبينما هم في ذلك اذ دخل اليهم دامس وهو يقود رجلا من الروم فتواثبوا اليه وقبلوه بين عينيه وسألوه عن ابطائه وقالوا له يا دامس لقد حدثتنا نفوسنا بالعظائم وصعب علينا ابطائك عنا . فقال اعلموا رحمكم الله تعالى : اني لما فارقتكم سرت الى قريب من سور القلعة وكمنت لهم وهم يمرون علي وهم يرطبون بلفتهم وأنا لا اتعرض للقوم كل ذلك ، وأنا اطلب من يتعرض للعربية ويتكلم بها فلم ار احدا حتى ايسست وهممت بالرجوع خائبا اذ سمعت هدة شديدة قد وقعت من أعلى السور فأسرعت اليها لانظر اليها ما هي فاذا أنا بهذا الرجل وقدلقى نفسه من القلعة الى أسفل السور فبادرت اليه واخذته واتيت به اليكم فانظروا ما هو ؟ فدنوا اليه وخاطبوه فلم يكلمهم الا بلفته واذا به قد انفتحت جبهته . فقال لهم دامس اعلموا ان له شأننا وأي شأن ، واني اظنه هاربا من القوم وليس فيكم من يفهم ما يقول ولكن على رسلكم فأنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية ، ثم أسرع دامس من عندهم فلم يكن الا قليل واذا به قد عاد ومعه رجل قد نزلت عمامته

في رقبته وهو يقوده حتى مثله عندنا . فقالوا له من المدينة أنت أم من القلعة ؟ . فقال له دامس ممن أنت تكون أمن الروم أم من العرب المنتصرة ؟ . قال ولكني مع العرب المنتصرة ؟ فقالوا يا هذا هل لك أن تطلعنا على عورات القلعة أو عورة من عوراتها ، ونحن نطلق سبيلك ولا يتعرض اليك أحد بسوء . فقال يا هؤلاء لست أعرف لهذه القلعة عورة ولا طريقا ولو عرفت لما وسعني في ديني ولا رأيت أن أدلكم عليها وحق المسيح . قال فانفاظ منه دامس وقال له أسأل هؤلاء الاسارى هل فيهم أحد من أهل الربض فان بيننا وبينهم صلحا . قال فسألهم فلم يجد فيهم احدا من أهل الربض بل كلهم من أهل القلعة وأنا أعرفهم .

فقال له دامس فاسأل هذا الرجل لم طرح نفسه من السور وما دعاه الى ذلك ؟ فسأله فقال له انه يقول ان الملك يوقنا غضب على أهل الربض لاجل صلحهم لكم وبعث يتهدهم ، فلما انصرفت العرب نزل يوقنا فجمع رؤوسهم واصعدهم الى القلعة وأنا في جملتهم وطلب منا من الاموال ما لا طاقة لنا به ولا نقدر عليه ، فلما رأيت ما قد نزل بنا هربت والقيت نفسي من القلعة اطلب الفرج وأنجو من العقوبة فلم أشعر الا وانت قد قبضت علي وأنا من أهل الربض ، فان كنتم من العرب فأنا في ذمتكم وأمانكم فلا تنكثوا ولا تغدروا وان كنتم من غيرهم ، فاطلبوا مني ما أردتم من الفداء فاني قد هربت من العقوبة . فقال له دامس قل له نحن من العرب ولا بأس عليك ولا خوف ولا ينالك منا سوء وأراد دامس ان يرى الربض ما يفعل بأعدائه ، فأخرج الروم والمنتصرة وضرب رقابهم ولم يدع غير الربض ، ثم أطلقه واستمروا الى الليل وعمد دامس الى مزوده فاستخرج منه جلد ماعز والقاء على ظهره وأخرج كهكا يابساً وقال لأصحابه : بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه وأخفوا نفوسكم وقدموا الحزم في أموركم فاني معول على فتح هذه القلعة ان شاء الله تعالى . فقالوا سر على بركة الله تعالى فقاموا مسرعين ، وتقدم دامس وبعث رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم ويقولان له ابعث الخيل عند طلوع الفجر . قال فانطلق الرجلان وصعد دامس ومن معه تحت الظلام ودامس على المقدمة يمشي على أربعة والجلد على ظهره وكلما أحس بشيء قرض في الكعك كأنه كلب يفرض عظما وهم من ورائه يقفون أثره وهم يستترون بين الاحجار فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا السور وسمعوا أصوات الحرس وزعقات الرجال من اعلى القلعة والحرس شديد فلم يزل دامس دائرا بهم حول السور الى ان أتى الى مكان لم يجد به حسا واذا بحرسه قد ناموا وراء المكان ولم يروا في السور أقرب منه . فقال دامس لأصحابه انتم ترون هذه القلعة وعلوها ونحسينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس ويقظة القوم فما الذي ترون من الراي أن نصنع بها وكيف الحيلة في الصعود اليها الى ان نحصل في وسطها ؟ . فقالوا يا دامس ان الامير أمرك علينا وانت أدري منا واجر أجنانا ونحن لك بين يديك فمهما رأيت فيه الصلاح للمسلمين فلا نتأخر عنه

ووالله ان قتل نفوسنا وذهاب ارواحنا أسهل علينا من الرجوع بغير فائدة فممنك الامر ومنا السمع والطاعة فليس منا من يتأخر عنك ولا نموت الا تحت ظلال السيوف وفي طاعة الله ونصرة دين الاسلام . فقال دامس شكر الله فضلكم ورزقكم النصر على أعدائكم ، فان كانت هذه نيتكم فالتصقوا بنا الى هذا المكان . قال وكانوا ثمانية وعشرين رجلا واتنان كانوا أرسلوهم الى الامير يعلمانه بأن يأتي اليهم في الصباح .

فقال لهم دامس افيكم من يقدر على الصعود على هذه القلعة فقلنا له يا ابا الهول وكيف لنا ان نرقى اليها وعلى أي شيء نصل الى أعلاها بغير سلم فقال على رسلكم ، ثم انه اختار منا سبعة رجال كالاسد الضواري لو كلفوا حمل ذلك البرج على مناكبهم لما عظم ذلك عليهم ، ثم جلس على قرافيصه وقال لاحد السبعة اجلس على منكبي وارم بحيلك الى الجدار واجلس كما انا جالس ففعل الرجل ما امر به وأمر آخر ان يفعل ويصعد على منكبي الآخر وان يرمي بقوته على الجدار قال ففعل ، ثم انه لم يزل يصعد واحد بعد واحد الى ان صعد الثامن بقوته على الجدار وهم متمسكون به ، فعند ذلك امر الاعلى ان يقوم قائما وان يطرح حيله على الجدار فقام الاول وقام الثاني ثم قام الثالث ثم قام الرابع والخامس والسادس وكل واحد منهم قد طرح نفسه على الجدار ؛ ثم قام دامس آخرهم فاذا الاعلى قد وصل الى شرافة السور وتعلق بها فاستوى على السور ونظر الى حارس ذلك المكان فوجده نائما وهو ثمل من الخمر فأخذ بيده ورجله ورماه ، فلما وصل الى الارض قطعوه وأخفوا جسده ووجد من أصحابه اثنين سكارى وهم رقود فذبحهم بخنجره ورمى بهم ، ثم أرخى عمامته لصاحبه ونشله اليه فاذا هو معه على السور وكان دامس قد أعطاه حبلا فبقوا ينشلون به بعضهم الى ان تكاملوا على السور وأصعدوا من بقي معهم على الارض ، وكان آخر من صعد أبو الهول . فقال لهم مكانكم حتى اقفو الخبر واكشف لكم الاثر ، ثم انه اتى الى دار البطريق وهو في وسط القلعة واذا عنده سادات البطارقة واكابرهم وهم جلوس وبين ايديهم بوابى الخمر ، ويوقنا جالس في وسطهم على بساط من الديباج منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بفصاية من الجوهر والقوم يشربون والمسك والبخور يفوح عندهم فعاد دامس الى أصحابه وقال : اعلموا ان انقوم خلق كثير وان هجمنا عليهم فلا نأمن الفلبة من كثرتهم ولكن ندعهم فيما هم فيه ، فاذا كان وقت السحر هجمنا على يوقنا ومن معه من الملوك نقتلهم بسيوفنا فاذا ظفرنا بهم وذلهم الله لنا وعلى ايدينا فهو الذي نريد ، وان كان غير ذلك فيكون الصباح قد قرب ، ولا شك ان الرجلين من أصحابنا قد اعلما خالد بن الوليد فيأتينا . فقالوا ما نخالف لك أمرا ونحن قد صرنا في قلعة هؤلاء الاعداء وليس ينجينا الا صدق جهادنا والعزم والشدة من قوتنا . فقال لهم مكانكم فلعل ان يفتح الباب . قال وكان للقلعة بابان وبينهما دهليز والبوابون داخلهما والرجال تنام عندهم بالنوبة ، فلما وصل دامس الى الباب وجده مغلقا واذا بالقوم

رقود من السكر فعاجلهم بالذبح ، ثم افتتح البابين وتركهما مردودين ورجع الى أصحابه وقد قرب الفجر فقال لهم ابشروا فاني قد فتحت البابين وقتلت من كان وراءهما فدوونكم والباب فاسبقوهم اليه وخذوه عليهم فقد بقي القوم حصيدا بأسياف المسلمين ان شاء الله تعالى . قال وأرسل من يستعجل خالدا ويبشره بذلك ، ثم أرسل خمسة من أصحابه . يمسكون الباب وأخذ الباقيين ومشى نحو دار يوقنا فصاحوا عليه ووقع الصياح في القلعة فرجعوا بأجمعهم الى الباب وأخذ كل واحد منهم مكانا يحميه فعندها جاءت الإبطال وصاحت الروم ويلاه كيف تمت علينا هذه الحيلة وصرخ يوقنا بأصحابه فأتوا من كل جانب ، فعندها كبر المسلمون ونادوا بلسان واحد الله أكبر فخيّل للروم ان القلعة ملأنة منهم . قال ابن أوس وقاتلت الروم قتالا شديدا ، وأما المسلمون فكانوا كالأسد الضارية . فما رأيت أقوى بأسا ولا أشد مراسا من دامس أبي الهول في ذلك اليوم فلقد عددنا في بدنه بعد ما انفصلنا ثلاثة وسبعين جرحا كلها في مقدم بدنه . قال فبينما نحن في أشد القتال ونحن يحمي بعضنا بعضا وقد بقي منا ثلاثة وعشرون وقتل منا أربعة وهم أوس بن عامر الحزمي من بني حزم وأبو حامد بن سراقه الحميري والفرار بن مسيب التميمي وفزارة بن مراد العوفي .

(قال الواقدي) لقد حدثني نوفل بن سالم عن جده غويلم بن حازم وكان ممن صحب دامسا في قلعة حلب قال : لما قتل من قتل منا وقد قتل أيضا ملاعب بن مقدم بن عروة الحضرمي وكان ممن حضر مع رسول الله (ص) الحديبية وتبوك ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية وهو ابن أخي كعب الذي تخلف عن رسول الله (ص) في تبوك وأنزل الله فيه ما أنزل ، قال وبقينا عشرين رجلا وتكاثرت الروم علينا في أزيد من خمسة آلاف وهم سد من حديد ، قال ونحن قد أيسنا من الحياة اذ دخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدنا ونحن في أشد ما يكون من القتال ، فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنا . قال أوس فلما رأيناهم كذلك وانفرج عنا ما كنا فيه اشتدت قلوبنا فعندها كبرت المسلمون ودخل ضرار وأمثاله يضربون رقابهم ، فلما رأى الروم ذلك وعلموا انهم لا طاقة لهم بما وقع بهم ألغوا السلاح ونادوا الفوث الفوث وكفوا أنفسهم عن القتال فكفت المسلمون أيديهم عنهم فبينما هم كذلك اذ أقبل أبو عبيدة ومعه عساكر الاسلام فأخبروه ان الروم يطلبون الامان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل الى أن تأتي وتري فيهم رأيك ، فقال أبو عبيدة قد وفقوا وسددوا فأمر باحضار رجالهم ونسائهم وعرض عليهم الاسلام فكان أول من أسلم بطريقهم يوقنا وجماعة من ساداتهم . قال فرد عليهم أموالهم وأهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والاسر وأخذ عليهم العهود أن لا يكونوا الا مثل أهل الصلح والجزية وأخرجهم من القلعة . قال ثم أخرج المسلمون من الذهب والوانى ما لا يقع عليه عدد فأخرج منه الخمس وقسم الباقي على المسلمين وأخذ الناس في حديث دامس وحيله

وعجائبه وعالجوا جراحته حتى برأت قال وأعطاه أبو عبيدة سهمين ثم ان ابا عبيدة طلب امراء المسلمين واكابرهم وشاورهم في امره وقال ان الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على ايدي المسلمين وما بقي لنا موضع نخافه ، فهل نقصد انطاكية ، وهي دار الملك وكرسي عزهم وفيها بقية ملوكهم مع هرقل فما ترون من الراي ؟ . قال فعندها قام البطريق يوقنا وتكلم بلسان عربي فصيح وقال : ايها الامير ان الله تبارك وتعالى قد أيدكم وأظفركم بعوكم ونصركم وما ذاك الا ان دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم ونبىكم هو المشهور في الانجيل وهو لا محالة الذي بشر به المسيح ولا شك فيه ولا مرأ وهو الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وهو النبي الكريم اليتيم الذي يموت أبوه وامه ويكفله جده وعمه فهل كان ذلك أم لا ايها الامير ؟ فقال أبو عبيدة : نعم هو نبينا (ص) واني يا يوقنا قد حرت في امرك وانت بالامس تقاتلنا ومرادك ان تكسر عسكرنا وتقطع الطريق على علوفتنا واليوم تقول مثل هذا القول ، وقد بلغني انك لا تفهم بالعربية شيئا فمن أين لك حفظها . فقال لا اله الا الله ومحمد رسول الله وانك تعجب ايها الامير من هذا الامر قال نعم قال له اعلم ايها الامير اني كنت البارحة مفكرا في امركم وقد وصلت الى قلعتنا ونصرتم علينا وانه لم يكن عندنا أمة أضعف منكم وتوسوست في ذلك ، فلما نمت رايت شخصا ابهى من القمر وأطيب رائحة من المسك الاذفر ومعه جماعة فسألت عنه فقيل لي هذا محمد رسول الله فكأنني اقول ان كان نبيا حقا فليسأل ربه ان يعلمني العربية وكان يشير الي وهو يقول يا يوقنا انا محمد الذي بشر بي المسيح وانا لا نبى بعدي وان اردت فقل لا اله الا الله وابي محمد رسول الله فأخذت يده فقبلتها وأسلمت على يديه واستيقظت وفمي من تلك الليلة كالمسك الاذفر وانا أتكلم بالعربية ، ثم اني قمت الى منزل اخي يوحنا وفتحت خزانة كتب فوجدت في بعض الكتب صفة محمد (ص) وما يكون من امره ووجدت كل الصفات صحيحة وان أبفض الخلق اليه اليهود اكان ذلك ايها الامير أم لا .

فقال أبو عبيدة : نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم واخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم . قال يوقنا وجدت هذا في سيرته وجملة اخباره وان الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبالمسلمين وبالايتام والمساكين اكان ذلك أم لا ؟ قال أبو عبيدة نعم ، أما وصيته من الله على أصحابه . فقد قال الله تعالى - واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - ، وقال في حق اليتيم والمساكين - فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر - . فقال يوقنا كيف قال ووجدك ضالا فهدى فما معنى وصفه بالضلال وهو عند الله كريم . فقال له معاذ بن جبل (رض) وجدناك ضالا في تيه صحبتنا فهديناك الى مشاهدتنا وأيضا سهل لك الوصول الى سبل المكاشفة ووفقك للوقوف في مقام المشاهدة ووجدك ضالا في بحار الطلب على مركب العطب فهداك الى سواحل الحق وقربك الى ظل حقائق الصدق لتكون بقلبك مائلا عن الاغيار أو تهيم في قيعان

الاختيار متمنيا ساعات الوصول والتلاق وليس لك منا خبر ولا بمعك منا اثر الحنا لك
لوائح الرضا وكشفنا لك عن واضح القضا ، أما علمت يا يوقنا انه لا شيء عند المؤمن
أوفى من العلم ولا أربح من الحلم ولا حسب أوضح من الدين ولا قرين أزين من العقل
ولا رفيق أشر من الجهل ولا شيء أعز من التقوى ولا شيء أوفى من ترك الهوى ولا عمل
أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخرى من الكبر ولا دواء ألين من
الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق
ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أحسن من الصحة ولا معيشة
أهنأ من العفة ولا عبادة أفضل من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ
من الصمت ولا غائب أقرب من الموت ، فلما سمع يوقنا هذا الكلام من معاذ تهلل وجهه ،
وقال هكذا قرأته في كتب أخي يوحنا وهو مذكور في الانجيل والتوراة ثم خر ساجدا
وقبل الأرض شكرا ، وقال : الحمد لله الذي هداني الى هذا الدين ووالله لقد رسخ
هذا الدين في قلبي وعلمت انه الحق وسأقاتل في الله كما كنت أقاتل في طاعة الشيطان
ووالله لانصرن هذا الدين حتى الحق بأخي يوحنا ، ثم انه بكى بكاء شديدا على ما فرط
في امر أخيه . فقال له أبو عبيدة قال الله في حق اخوة يوسف - لا تثريب عليكم اليوم
يفغر الله لكم وهو أرحم الراحمين - ، وقال له ان خاك في عليين مع الحور العين ،
وأما أنت فساعة أسلمت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك فبكى لذلك وقال أشهد
علي المسلمين اني كلما جاهدت وقتلت من المشركين فتوابه في صحيفة أخي يوحنا ولا
بد أن أقاتل في سبيل الله وأمحو ما سلف من الفعال . فقال أبو عبيدة : يا عبدالله دلنا
اين نسير ؟ فقال يوقنا اعلم ايها الامير ان حصن عزاز حصن منيع وهو قوي بالرجال
والعدد والزاد وفيه ابن عم لي اسمه دراس بن جوفناس وهو ذو شدة وبأس وقوة
ومراس جلد في الحرب قوي عند الطعن والضرب وان أنتم تركتموه ومضيتم الى نحو
انطاكية أغار على حلب وقنسرين وإذا قههم شرا . فقال أبو عبيدة يا عبدالله قد أنطق الله
لسانك بالحق والصواب فما عندك من الحيلة ؟ .

فقال يوقنا عندي من الراي ان اركب جوادي وتضم الي مائة فارس من المسلمين
ولنكن على زي الروم ولباسهم واتقدم بهم ، ثم يتقدم أمير من العرب ومعه ألف فارس
على خفاف الخيل وأنا في المقدمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم
وأوائل الخيل الألف في طلبنا فاذا أشرفنا على عزاز نلقي الصوت ، فاذا نظر الينا
صاحبها دراس لا بد أن ينزل الينا ويلقانا ، فاذا سألني أخبرته اني أسلمت زورا ثم
هربت فخرجت العرب في طلبي فاذا سمع مني ذلك يصعد بنا الى حصنه وليكن مقدم
الألف بالقرب منا في قرية هناك فاذا كان نصف الليل سرنا في وسط الحصن ونضع
السيف في أعدائنا فاذا كان عند صلاة الفجر يأتينا أمير العرب بالالف الذي معه ، فلما
سمع أبو عبيدة ذلك استنار وجهه واستشار خالدا ومعاذا في ذلك فقالا يا أمين الأمة

راي سديد ان لم يفدر هذا الرجل ويرجع الى دينه . فقال ابو عبيدة - ان ربك
 لبالمرصاد - . فقال يوقنا انا والله رجعت عن ديني الى دينكم بعدما كنت اعظم من تلك
 الصور والصلبان وما بقي في قلبي سوى محبة الرحمن ومحمد سيد ولد عدنان والجهاد
 عن افضل الاديان والله على ما اقول وكيل ، وحق الذي لا اله الا هو ، وحق محمد عبده
 ورسوله (ص) الذي رايتته وعاينته في المنام ان كنتم تظنون في غير ذلك فلا تتركوني افعل
 شيئاً مما ذكرته لكم . فقال ابو عبيده يا عبد الله ان انت نصحت للمسلمين ولم تفدر
 بهم كان الله لك معيناً في كل ما تحاوله فاتبع الصديق تنج به فان ديننا مبني على الصديق
 واتبع سنن اخوانك المؤمنين ، واعلم ان المؤمن الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر
 ومسكنه ما وجد فلا يحزنك ما تركت من ملكك وحكمك وامارتك فان الذي تركته فان ،
 الوذي تطلبه باق لان نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وابقى ، واعلم انك في يومك هذا
 عار من الشرك ، واعلم ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والمؤمن يتيقن ان القبر
 مضجعه ، والحلوة مجلسه ، والاعتبار فكره ، والقرآن حديثه ، والرب انيسه ، والذكر
 رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع ادامة ، والحكمة
 كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمة ، والصبر معتمده ،
 والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة داره ، واعلم يا يوقنا ان
 المسيح قال : عجبت لمن ليله غافل وليس بمغفل عنه ومؤمل دنيا والموت يطلبه وپان
 قصراً والقبر مسكنه ، وقد قال نبينا (ص) من اعطى اربعا اعطى اربعا وتفسير ذلك في
 كتاب الله تعالى : من اعطى الذكر ذكره الله عز وجل لان الله تعالى يقول - اذكروني
 اذكركم - ومن اعطى الدعاء اعطى الاجابة لان الله تعالى يقول - ادعوني استجب لكم -
 ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة لان الله تعالى يقول - لئن شكرتم لازيدنكم - ومن
 اعطى الاستغفار اعطى المفرة لان الله تعالى يقول - استغفروا ربكم انه كان غفارا - .
 (قال الواقدي) حدثني عامر بن قبيصة اليشكري . قال حدثني يونس ابن عبد
 الاعلى قراءة عليه قال شهر بن حوشب عن جده عامر بن زيد قال كنت ممن شهد فتوح
 الشام وكنت في فتوح قنسرين وحلب مع ابي عبيدة وكنت كثيراً ما اصحب الروم الذين
 دخلوا في ديننا فلم ار منهم اشد اجتهاداً ولا اخلص اعتقاداً ولا اعظم نية ولا احسن في
 الجهاد حمية ولا ابلغ في قتال الروم من يوقنا ولقد نصح والله للمسلمين وجاهد في
 الكافرين وارضى رب العالمين ، ولقد فعل في الروم ما لم يقدر احد عليه من ابناء
 جنسه من بعد ما قاسى المسلمون منه على قلعة حلب وما تركهم ينامون ولا يقرون
 ليلاً ولا نهاراً وما قتل من المسلمين (رض) اجمعين .

ذكر فتح عزاز

(قال الواقدي) لما وعظ ابو عبيدة يوقنا وفرغ من وعظه ضم اليه مائة فارس
 والبسهم زي الروم قال وكان كل عشرة من قبيلة قال وهم من طيء وفهر وخزاعة

وسنيس ونمير والحضارمة وحمير وباهلة وتميم ومراد وجعل على كل عشرة نقيباً ، فأما نقيب طيء فخرزل بن عاصم وعلى فهر فهر بن مزاحم وعلى خزاعة سالم بن عدي وعلى سنيس مسروق ابن سنان وعلى نمير أسد بن حازم وعلى الحضارمة ماجد بن عميرة وعلى حمير ملكهم ذو الكلاع الحميري وعلى باهلة سيف بن قادح وعلى تميم سعد بن حسن وعلى مراد مالك بن فياض ، فلما كملوا قال لهم أبو عبيدة اعلموا رحمكم الله اني مرسلكم مع هذا الرجل الذي وهب نفسه لله ورسوله وكل طائفة منكم عليها نقيب وقد وليته عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ما دام مرضاة الله عز وجل قال فلبسوا وركبوا وساروا معه ، فلما بعدوا بفرسخ أرسل وراءهم ألف فارس وأمر عليهم مالكا الاشر النخعي وقال له سر في أثر القوم وانظر ما يكون من أمر هذا العبد الصالح . فاذا قربت من هذا الحصن فاكمن الى وقت السحر ثم تظاهر لآخوانك ، سر وفقك الله وارشدك ، فسار مالك يقدم قومه فساروا بقية يومهم ، فلما جن عليهم الليل كمنوا في قرية بالقرب من الحصن وهي خالية من السكان . وأما ما كان من يوقنا فانه اخذ على غير طريق وسار طالبا عزاز .

(قال الواقدي) حدثني سليمان بن عبدالله الشكري حدثني الشديد بن مازن عن جده خرزل بن عاصم قال كنت في خيل يوقنا لما وجهنا أبو عبيدة معه . قال لما شارفنا عزاز قال لنا يوقنا اعلموا يا فتیان العرب انا قد شارفنا هذا العدو فاياكم ان يتكلم احد منكم فان لفتكم لا تخفى على الروم وأنا المترجم عنكم وكونوا على يقظة من أمركم . فاذا رأيتموني وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى ، ثم ساروا وليس عنده خبر من تواتر القدر .

(قال الواقدي) حدثني سليمان بن عبدالله الشكري . قال حدثني عبد الرحمن المازني وكان ممن يكتب فتوح الشام . قال حدثني الاكوع بن عباد المازني . قال كنت مع مالك الاشر من جملة الالف حين سرنا في أثر يوقنا صاحب حلب حتى اذا كنا في تلك القرية ، ونحن ننتظر الصباح واذا نحن بجيش من ورائنا من غربي القرية فسار مالك الاشر وقصد الحصن فغاب عنا غير بعيد وعاد ومعه رجل من العرب المتنصرة وقد اقبل به ، فلما صار بيننا قال يا فتیان اسمعوا ما يقول هذا الرجل فقلنا وما الذي يقوله ؟ قال اسألوه فانه يخبركم فسألناه وقلنا من أي الناس انت قال من غسان من بني عم جبلة بن الايهم . فقال له مالك ما اسمك ؟ قال اسمي طارق بن شيبان . فقال له يا طارق بحق ذمة العرب لا تكتمننا أمرا تعرفه من أعدائنا قال والله لا أكتنم أمرا اعرفه ولكن خذوا على انفسكم قبل قدوم عدوكم قال مالك ، وكيف ذلك قال لانا البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو منا اسمه عصمة بن عرفجة ، وكان يسمع ما تناجيتم به من الحيلة التي أرادها يوقنا على صاحب عزاز ، فلما سمع الجاسوس منكم ذلك كتب رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه وأطلقه الى صاحب عزاز ، فلما

قراها أرسلني الى صاحب الراوندات لوقا بن شباس يستنجده عليكم فمضيت اليه بالرسالة وهو قادم في خمسمائة فارس وكانكم بهم وقد هجموا فخذوا حذرهم .

(قال الواقدي) واما ما كان من امر يوقنا فانه سار حتى وصل الى الحصن فوجد صاحبه قد تجهز بنفسه ومعه أصحابه وهو خارج الحصن وكان اللعين يركب في ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المنتصرة غير من التجأ اليه من السواد ، فلما قدم عليه يوقنا لم يوهمه في شيء من أمره بل استقبله وترجل اليه واقبل كأنه يقبل ركابه وكان في يده سكين أمضى من القضاء فقطع به حزام فرس يوقنا وجذبه اليه واذا به قد وقع على أم رأسه فأطبق الاربعة آلاف على أصحاب رسول الله (ص) ولم يمهلوهم حتى أخذوهم قبضا بالكف وشدوهم كتافا وبصق دراس في وجه يوقنا ، وقال لقد غضب عليك المسيح والصليب اذ فارقت دينك ودخلت في دين أعدائك وحق المسيح لا بد لي ان أبعثك الى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب أنطاكية بعدما أضرب رقاب هؤلاء العرب ثم انه اصعدهم الى الحصن .

(قال الواقدي) ومن خيرة الله للمسلمين ان الجاسوس لم يكتب لصاحب عزاز في مكاتبته بسير مالك الاشتر . قال وان مالكا الاشتر لما سمع كلام المتنصر ايقظ أصحابه وربط المتنصر عنده واقاموا ينتظرون صاحب الراوندات ، فلما راق الليل سمعوا وقع حوافر الخيل فلم يكلمهم مالك حتى توسطوا الكمين واطبقوا عليهم ، فكل اثنين ربطوا واحدا من الروم وأخذوهم بالكف ولم ينفلت منهم أحد ولبسوا ثيابهم ورفعوا رايتهم وصليبهم كما كانت ، ثم ان مالكا قال للمتنصر هل لك ان ترجع الى دين الله عز وجل ودين نبيه محمد (ص) فيمحو عنك ما سلف من الكفر بالايمان وتبقى لنا من جملة الاخوان ؟ . فقال ان قلبي ولبى عندكم فلا جزي الله من الجأنا الى الدخول في هذا الدين خيرا وانا والله من الطائفة التي هي اول من اسلم على يد عمر بن الخطاب وقد سمعنا عن محمد (ص) انه قال من بدل دينه فاقتلوه . فقال له مالك لقد صدقت في قولك ولكن انسخ هذا الحديث بقول لا اله الا الله ، فقد قال الله تعالى - الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات - الآية ، وقبل رسول الله (ص) توبة وحشي قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات ، فلما سمع الفسباني ذلك فرح وقال انا أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله والآن والله يا مالك قد طاب قلبي وانجبر كسري أخذ الله بيدك وانقذك الله يوم القيامة . قال ففرح مالك باسلامه ، وقال له وفقك الله وثبت ايمانك ، ثم قال له يا عبد الله اني أريد ان تمحو ما سلف منك بما تفعله . فقال وما تريد ايها الامير ؟ . قال تمضي الى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الراوندات الى نصرته . فقال افعل ذلك ان شاء الله تعالى وان كنت في شك من أمري فأرسل معي من تثق به حتى يسمع ما أقول فان الليل قد تنصف والحرس شديد وباب الحصن مقفول وانا أخاطبهم من شفير الخندق ، قال

فأرسل معه مالك ابن عم له يقال له راشد بن مقبس ووصاه أن يكون مستيقظا فسارا جميعا الى أن وصلا الى الحصن فوجدا الحرس شديدا والروم تضرب بوقاتها والصوت عال في وسط الحصن . فقال طارق لابن عم مالك ما هذا وحق أبي الاقتال وضرب

وحرب فأنصتا فإذا هو كما قال طارق .

(قال الواقدي) وكان السبب في ذلك أن ابن صاحب عزاز شاب شجاع يقال له لاوان كان أبوه دراس في وقت يرسله الى يوقنا بالهدايا والتحف لما بينهم من القرابة وكان يقيم عنده اشهرًا في أعز مكان وأنه حضر عنده في بعض المرات في عيد الصليب في البيعة التي هي اليوم الجامع ، وكان يدخل في كل وقت فرأى يوما ابنة يوقنا وهي بين جواربها وخدمها وحشمها فوق بقلبه حبها فكنتم أمرها وعاد الى عزاز وشكا حاله الى أمه وما كان لابيه ولد غيره وهي تجد له محبة عظيمة فقالت له أنا أخاطب أباك في ذلك والزمه أن يرسل ليخطبها من أبيها ويزوجك بها ونبدل له من المال ما أرادته وطلبه واشتغل قلب الشاب بحب الجارية ، وفي أثناء ذلك جاءت العرب الى بلادهم واشتغلت خواتمهم ، فلما وقع يوقنا في يد أبيه وكان من أمره ما كان وقبض عليه وعلى المائة من المسلمين وحبسهم جميعا في دار ولده لاوان ووصاه بحفظهم فقال لاوان في نفسه وحق ديني أن ابن عمنا يوقنا أعلم من أبي بالاديان ولولا أنه رأى الحق مع هؤلاء العرب ما تبعهم بعدما قاتلهم أشد القتال وأيضا أن جيوش الملك ما ساوتهم وإن الله قد نصرهم على ضعفهم وأنا قلبي متعلق بابنته واني أرى من الرأي السديد أن أحل هؤلاء القوم من الوثاق وأرجع الى دينهم بعد أن أثق من ابن عمي أن يزوجني ابنته فانه على الحق وأنال ما أطلب بعدها وأتزوج ابنته ، فلما حدثته نفسه بذلك أقبل الى يوقنا وجلس بين يديه وقال له يا عم اني عولت على أن أحل وثاقتك أنت وأصحابك ، وقد اخترتك على أهلي وأبي وملكي وانت تعلم أن فراق الأهل صعب واخترت الايمان على الكفر وقد علمت أن دين هؤلاء صحيح ، ولكن لي عليك شرط أن تزوجني ابنتك ومهرها عتقك أنت وهؤلاء الناس الذين معك . فقال يوقنا يا بني ما لك الى زواجها من سبيل اذا كنت تدخل فيه لاجل غرض الدنيا وليكن دخولك فيه خالصا من قلبك حتى أن الله يأجرك على ما تفعله وأنا أن شاء الله تعالى أبلغك ما ترومه وتنال عز الدنيا والآخرة فقال لا وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمد رسول الله ، ثم حل وثاق يوقنا وأعطاه سلاحه وحل المائة والمطاهم سلاحهم ، وقال لهم كونوا على أهبة وأنا أمضي الى أبي وهو ممل بالخمير فأقتله وثوروا على بركة الله تعالى في رضا الله فعندها قال يوقنا للمائة أشهدوا علي أني زوجته أبنتي وجعلت صداقها عتقنا فقبل منه ومضى الى دار أبيه فوجد أباه مقطوع الرأس وأخوته عنده ، فقال لهم من فعل هذا بأبي ؟ قالوا نحن قال ولم ذلك ؟ . قالوا أردنا بذلك وجه الله وقد سمعناك وما تحدثت به مع يوقنا وأصحابه فخفنا عليك أن لا يتم لك هذا الأمر ويتكاثر الجمع على القوم ويبلغ أبانا خبرك

فيقتلك فبطشنا به قبلك ، قال ففرح لاوان بذلك ورجع الى يوقنا واصحابه واعلمهم بما جرى فخرجوا من دار لاوان وتوسطوا الحصن ورفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير والسراج المنير ووضعوا السيف في الروم ، قال ووقع الصائح في الحصن كما وصفنا وتبادرت الروم لقتال المسلمين ، وفي تلك الساعة قدم طارق ورفيقه قال فسمعنا الاصوات قال فرجعنا الى مالك واعلمناه بما سمعنا هـ . فقال مالك لاصحابه اركضوا لاصحابكم فركضوا خيولهم وخلف منهم مائة يحفظون الاسرى ، فلما قربوا من الحصن وكان يوقنا قد قال للاوان ان نجدة من المسلمين تأتينا فأتى لاوان فرأى المسلمين قد اتوا ففتح لهم باب الحصن من باب السر وأدخلهم ، فلما حصل مالك الاشر في حصن عزاز نادى هو ومن معه الله اكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر ، فلما رأى أهل الحصن ذلك رموا سلاحهم ونادوا الفوث الفوث فرفعوا عنهم السلاح واخذوهم اسارى وشكروا ليوقنا ومن معه ، قال فحدث يوقنا مالكا الاشر بحديث الغلام لاوان فقال مالك اذا اراد الله امرا هيا اسبابه .

(قال الواقدي) حدثني قيس عن عقبة عن صفوان عن عمرو بن عبد الرحمن عن جبير عن ابيه . قال سألت ابا لبابة بن المنذر وكان ممن حضر فتوح الشام كيف كانت فتوح عزاز وقتل دراس فان نفسي تنكر هذا واريد صحته ؟ . فقال لما وضعت الحرب اوزارها وجمع مالك الاشر الاسارى والمال والثياب والذهب والفضة والآنية ، وأمر باخراج ذلك من الحصن ووكل به قيس بن سعد ، وكان ممن حضر واصابه سهم فعوره ، وكذلك ابو لبابة بن المنذر وكلاهما حضر بدرا مع رسول الله (ص) فلم يبق أحد في عزاز . ثم قام مالك فمشى في الحصن وتفقد دراسا فوجده مقتولا ، فقال من قتل هذا اللعين ؟ ، فقال لاوان قتله أخي لوقا وهو اكبر مني سننا فأمر مالك باحضاره ، وقال لم قتلته وهو ابوك ؟ وما سمعنا ولدا قتل اباه من الروم سواك . فقال حملني على ذلك محبة دينكم ، لان في بيعة هذا الحصن قسا من المعمرين ، وكنا نقرأ عليه الانجيل ويعلمنا بعلم الروم ، واني كنت في بعض الايام في البيعة انا وهو وليس عندنا أحد وكان اسمه ابا المنذر ، فقلت له يا ابا المنذر الا ترى الى بلاد الشام كيف استولت عليها العرب وملكوا اكثرها وهزموا جيوش الملك ؟ وما كنا نظن ان العرب تقدر على ذلك لانه ليس في الامم اضعف منهم وان الله تعالى نصرهم على ضعفهم ، فهل قرأت ذلك في كتب الروم او ملاحمهم او ملاحم اليونانيين ؟ فقال يا بني نعم اني قرأت ذلك ، ولقد اخبرنا الملك هرقل بذلك قبل وقوع هذا الامر وجمع اليه الملوك والاساقفة والبطارقة وغيرهم ، واخبرهم ان العرب لا بد ان يملكوا ما تحت سريري هذا ، ولقد بلغنا عن نبي القوم انه قال « زويت لي الارض فرايت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها » فقلت له يا ابانا فما تقول في نبي القوم ؟ قال له يا بني ان في كتبنا ان الله تعالى يبعث نبينا بالحجاز وقد بشر به عيسى المسيح بن مريم ، ولا ندري

أهو هذا أم لا ؟ فعلمت انه كتم عني امره محافة ان اذيع سره فكتمت ما قال لي البارحة . فلما رأيت يوقنا وأصحابه أسرى قلت هذا يوقنا قد قتل اخاه يوحنا وعاند العرب وقتلهم . ثم انه رجع الى دينهم . وما ذاك إلا انه قد علم الحق معهم ، فقلت انا لنفسي قم أنت واقتل أباك وخلص يوقنا وأصحابه وارجع الى دين هؤلاء فهو الدين الحق لا شك فيه ، فلما نام ابي بعدما شرب الخمر وسكر قتلتته وسرت الى خلاص يوقنا ومن معه فوجدت اخي لاوان قد سبقني الى ذلك ، فقال له مالك يا غلام لم فعلت ذلك ؟ قال محبة في دينكم وانا أسهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فقال له مالك قبلك الله ووفقك . ثم خرج مالك من الحصن وولاه سعيد بن عمرو الفنوي وترك معه المائة الذين كانوا مع يوقنا وقدموا اليه صاحب الراوندات ومن معه فعرض عليهم الاسلام فابوا ف ضرب رقابهم .

(قال الواقدي) حدثني عبد الملك بن محمد عن ابيه حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عبد الله بن قرط الازدي ان فتح عزاز كان هكذا ، والذي ذكر ان بنات دراس وزوجته قتلنه لم يصح والله اعلم ، ثم ان مالكا الاشتر اراد ان يرحل فعرض عليه سبي عزاز فكان ألف رجل من التسباب ومائتين وخمسة واربعين رجلا من الشيوخ والرهبان والفي امرأة من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزا ونظر الى شيخ من الرهبان مليح الشبيبة واضح البهية ، فقال ان صدقت الفراسة فهذا القس الذي اخبرني به لوقا واخوه لاوان فدعا بهما وقال : هذا هو القس الذي اخبرني به لوقا ، فقال نعم فقال له يا شيخ اذا كنت من علماء اهل الكتاب فكيف تكتم الحق عن مستحقه فقال : والله ما كتمت الحق عن مستحقه ، ولكن خفت من الروم ان يقتلوني ، لان الحق ثقيل وقد قتلوا الابناء والاخوة وذلك لاجل الحق فكيف أنا . فقال له مالك افتدخل في ديننا ؟

فقال : لست ادخل فيه الا اذا سألتكم عن مسائل وجدتها في الانجيل . فقال له مالك هات ما عندك ، فلما اراد القس ان يتكلم وقع الصياح في الحصن فارتاع الناس ووثب مالك لينظر ما خبر الناس ؟ وظن ان الروم قد غدرت بهم واذا بأناس من المسلمين الذين بالحصن يقولون ايها الامير خذوا حذرکم فانا نرى غيرة على طريق منبج وبزاعة ولا ندري ما هي فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون ما ذاك واذا قد لاح من تحتها خيول الاسلام وهم يسوقون السبايا والاموال والرجال وهم مشددون في الحبال ووراءهم الف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس (رض) ، وكان قد أرسله أبو عبيدة حتى غازي منبج والباب وبزاعة فوقع الكثير في الفريقين وسلم بعضهم على بعض وسأل الفضل مالكا عن قصته فحدثه أن الله قد فتح عزاز وأذل من فيها ، وحدثه بما كان من حديث يوقنا ، وانني ما منعني من الرحيل الا هذا القس وسؤاله ، فقال له الفضل ايها القس قل ما أنت قائل ، فقال القس اخبرني عن أي شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السموات والارض ؟ فقال الفضل : أول ما خلق اللوح والقلم ويقال العرش

والكرسي ويقال الوقت والزمان ، ويقال العدد والحساب ، ويقال أول ما خلق الله جوهرة فنظر اليها فصارت ماء ، ثم خلق العرش ياقوته وكان عرشه على الماء ، وانه نظر الى الماء فاضطرب وارتعد وصعد منه دخان فخلق الله منه السماء ، ثم خلق الارض ، وقيل خلق أولا العقل لانه اراد أن يستفيع به الخلق ، وقيل أول ما خلق الله نورا وظلمة ، ثم دعاهما الى الاقرار فانكرت الظلمة وأقر النور ، فخلق منه الجنة لرضاه عنه ، وخلق النار من الظلمة لسخطه عليها ، وخلق أرواح السعداء من النور وأرواح الاشقياء من الظلمة ، فلاجل ذلك كل منهم يرجع الى مستقره ، ويقال أول ما خلق الله نقطة فنظر اليها بالهيبة فتضعضعت وسالت ألعا فجعلها مبدأ كتابه العزيز فسبحان من ألف كتابه من نقطة ، وخلق خلقه من نقطة ، ثم يميتهم بقبضة ويحييهم بنفخة . فلما سمع القس ذلك من كلام الفضل ابن العباس . قال : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، هذا هو العلم الذي استأثر به انبياء الله تعالى . فلما نظر أهل عزاز الى قسهم وقد أسلموا عن آخرهم الا قليلا منهم والله أعلم .

(قال الواقدي) حدثني عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش عن جده . قال لما أسلم أهل عزاز باسلام قسهم الذي كان معتقدهم عول الفضل ومالك على المسير الى حلب ، فقال يوقنا أنا والله ما لي وجه أقابل به المسلمين ، لاني كنت قلت قولا ودبرت أمرا فلم يتم لي واني سائر الى انطاكية فلعل الله أن يظفرني بالاعداء وينصرني عليهم ، فقال له الفضل أن الله تعالى . قال لنبيه (ص) ليس لك من الامر شيء فلا تحمل قلبك هما ، فقال ودين الاسلام لا أرجع الا بأمر يبيض الله به وجهي عند اخواني المسلمين ، فنظر وقد صحبه مائتان من بني عمه ممن قد رسخ في قلوبهم الايمان ولهم عيال وأولاد في حلب فاخذهم يوقنا وسار يريد انطاكية ، فلما قرب من أرضها أخذ منهم أربعة وأمر الباقي أن يتعوقوا خلفه أربعة أيام ، ثم يأتوا كأنهم هاربون من العرب ليتم ما دبره في خاطره وسار هو والاربعة على طريق حارم والباقي على طريق أرناح ، وقال لهم الميعاد بيننا انطاكية ففعلوا ذلك وساروا وسار هو الى أن أشرف على دير سمعان المشرف على البحر ، فوجد هناك خيلا ورجالا يحفظون الطرقات ، فلما رأوا يوقنا والاربعة معه بادروا اليهم واستخبروهم عن حالهم ، فقال لهم يوقنا انا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل بهم صاحب الدرك جماعة وأمرهم أن يسيروا بهم الى الملك فأخذتهم الخيل واتوا بهم اليه فوجدوه في كنيسة الفتيان يصلي ، فوقفوا حتى فرغ من صلاته فاوقفوا يوقنا بين يديه ، وقالوا ايها الملك ان بطرس صاحب الحرس الذي عند دير سمعان ، قد وجه بهذا ومن معه اليك ويزعم انه صاحب حلب ، فلما سمع هرقل ذلك . قال له يا يوقنا ما الذي اتى بك وقد بلغني انك دخلت في دين العرب ؟ ، فقال ايها الملك لقد بلغك الحق ، وذلك اني ما اسلمت الا لمكيدة القوم حتى اتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم وبتن رائجتهم ، واني قلت

لهم اسلم اليكم حصن عزاز واقتل صاحبها واخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم ، وامرت ان ينفذ ورائي الف حتى اذا صاروا داخل الحصن اقبض عليهم وارسلهم اليك فعجل دراس علي ولم يفهم ما اضرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامي ، فقبض علينا فأتت العرب ووضعت السيف في اهلها ، وذلك ان لوقا قتل اباه رجل من العرب وانا من جملتهم ، فلما اشتغلوا بالقتال والنهب هربت انا وهؤلاء الاربعة وجئنا اليك ، ولولا محبتي في ديني ما كنت قتلت اخي يوحنا وصبرت على قتال العرب وحصارهم سنة كاملة .

(قال الواقدي) فاعانته البطارقة والملوك الذين كانوا حاضرين ، وقالوا صدق يوقنا ايها الملك ، وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده ، فانبش وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذي هو عليه وسوره ومنطقه وتوجه ، وقال له : ان كانت حلب اخذت منك فاني وليتك على انطاكية واعطاه وظيفة دمستقها وسكندرهما يعني واليها .

(قال الواقدي) فسمع يوقنا له ودعا له . فبينما هو كذلك اذ أتى اليه الموكل بجسر الحديد وأخبر الملك انه قد قدم عليهم مائتا بطريق من فرسان حلب ، وهم يزعمون انهم من بيت واحد من الرومية من بني عم يوقنا ، وانهم قد هربوا من العرب ، فلما سمع ذلك قال ليوقنا : ايها الدمستق والكندر قم واركب واشرف على هؤلاء القوم ، فان كانوا من بني عمك فأهل بهم وضمهم اليك ليكونوا عسكريك ، وان كانوا غير ذلك فات بهم لاري فيهم ما ارى ، واياك ان يكونوا من قبل العرب ممن رجع الى دينهم من أهل سيجر وحماة والرسطن وجوسية وبعلبك ودمشق وهوران ، فقال نعم ايها الملك فركب وركبت معه المفرسان من الملكية والسريرية ، واتوا الى جسر الحديد وأمر أصحاب الدرك ان يأتوا بالمائتين ، فلما رأهم يوقنا رحب بهم ونظروا اليه وهو في ذلك الزي والحشمة وخلعة الملك عليه ، فترجلوا وقبلوا ركابه ، فقال لهم كيف خلصتم من ايدي العرب ؟ ، فقالوا ايها السيد اننا خرجنا مع امير من امرائهم وأغرنا على منبج وبزاعة ، فلما رجعنا نريد حلب اخذنا على عزاز فوجدناهم قد ملكوها ، فلما كان الليل تركناهم وأتيننا .

(قال الواقدي) وهذا كله وحجاب الملك يسمعون ، فلما حضروا أخبروا الملك بذلك ودخل يوقنا بهم على الملك فخلع عليهم وأنزلهم وأمرهم ان يكونوا في خدمة يوقنا واعطاه دارا بازاء قصره ، فقال يوقنا ايها الملك انت تعلم ان هذه الدار لا يدوم نعيمها ، وأن السيد المسيح شبهها بالجيفة ، وطلابها بالكلاب يتجاذبونها . كما روى عن المسيح انه رأى طائرا حسنا مزيئا بكل زينة ، فنزع جلده فراه اقبح ما يكون منظرا ، فقال له من انت ؟ . قال انا الدنيا ظاهري مليح وباطني قبيح ، وانما ضربت لك هذا المثل ايها الملك لتعلم انه ما خلا جسد من حسد ، واذا اقبلت الدنيا على أحد كثرت حساده ، وانا اخاف من الحساد ان يتكلموا في عند الملك ويرمونني بالبهتان وبما لا افعله ، فان

كان الملك ينفر مني فليول هذه الوظائف غيري وأنا ما أبرح على ركابك . ثم انه بكى ، فقال له الملك أيها الدمستق ما وليتك هذا الامر الا وقلبي وخاطري وانق بك ، ومن تكلم فيك بشيء سلمته اليك تفعل به ما تريد ، فشكره يوقنا واراد الخروج الى وظيفته التي ولاه اياها ، واذا بخيل البريد قد أقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة ، وانها خائفة من العرب ، وهي تريد القدوم عليك حتى ترى ما يتول من الامر ، وانها تسألك ان ترسل لها جيشا يوصلها اليك ، فلما سمع الملك ذلك . قال ليس لهذا الامر الا الدمستق يوقنا ، فقبل الارض وقال السمع والطاعة لامرك فضم اليه الف فارس ومائتين من أصحابه من المدبجة والقياصرة .

(قال الواقدي) فسار بالالفين والمائتي فارس وقد رفع الصليب فوق رأسه وجنبت الجنايب وعليها الرخوة المذهبة ، وسار يجد السير الى أن وصل الى مرعش وأخذ زيتونة بنت هرقل ، وهي الصفري ، وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوجها بنوسطير بن حارس ، وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته ، وكان قد قتل على اليرموك من جراحات أصابته .

(قال الواقدي) فلما أخذ يوقنا ابنة الملك وعاد يطلب بها انطاكية أخذ على الجادة العظمى لعله يلقي احدا من جواسيس المسلمين او يرى معاهدا فيرسله ليعلم ابا عبيدة انه قد تمكن من الملك ومن البلد ، فلما وصل مرج الديباج ، وكان ليلا واذا بخيله التي على مقدمته قد أتته وهم مدعورون ، فقال لهم ما بالكم ، فقالوا له ايها السيد الدمستق ان هناك عسكريا نازلا فقربنا منهم فاذا هم عرب وهم نيام ولا شك انهم مسلمون ، فقال لهم خذوا أهبتكم وايقظوا خواطركم وانصحوا لدينكم وجاهدوا عدوكم وقاتلوا عن ابنة الملك ولا تسلموها الى أعدائها وكونوا خير جند قاتل عن نعمة صاحبه ، واذا تمكن الحرب بيننا وبينهم فاعتمدوا على الاسر واياكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرهم لا بد لهم ان يقصدوا الملك ومن معه ، فان أسروا منا احدا يكن عندنا الفداء ، فقد وجدت في كتاب حرفناس الحكيم : ان من نظر في عواقب زمانه توشح بوشاح امانه ، ومن أهمل أمره خاف حذره ، ومن أكثر الفدر حل به الامر ، سيروا على بركة الله .

(قال الواقدي) فشرعوا الاعنة وقوموا الاسنة وقصدوا ذلك العسكر ، فلما أحسوا بهم بادروا اليهم واستقبلوهم وهم ينادون بعيسى بن مريم والصليب المفخم من أنتم ؟ . فقال لهم يوقنا ومن أنتم ؟ فقالوا نحن أصحاب جبلة بن الايهم ، فلما سمع يوقنا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليه وسلمت العرب المنتصرة على الروم ، فقال جبلة من أين جئتم ؟ فقال له مرعش ومعني ابنة الملك وأنتم من أين جئتم ، فقال جبلة من العمق وقد أتينا بميرة أهلها ، فلما رجعت ووصلت الى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهم زيادة عن مائتي وهم لابسون زينا ، فلما وصلنا اليهم ابتدرونا

بعزم شديد وحرب عتيد وإذا مقدمهم لا يصطلي له بنار فلقد أباد منا رجالا وجندل منا ابطلا ونحن في الفي فارس وهم مائنان وكان فينا كالنار المحرقة فما زلنا نقاتلهم حتى أسرناهم بعدما قتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا وبقي أميرهم الى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهم حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه وأخذناه أسيرا . فاذا هو من أصحاب محمد وهو ضرار بن الازور ونحن قاصدون بهم الى الملك هرقل ليرى فيهم رايه فظهر لهم يوقنا الفرخ ، وقال وحق ديني لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الغلام ، فلقد بلغني عنه ما فعل بأبطال الشام وفرسان الروم ، ثم سار القوم جميعا يطلبون انطاكية .

(قال الواقدي) حدثني الشريد بن عاصم عن شروان بن مجزل عن قادم ابن بشر عن زائدة بن معمر . قال حدثنا بشار عن عوف عن صالح عن عبدالله عن جده مسروق ، قال المؤلف : وحدثني هذا الحديث عباد بن عاصم عن عمران بن حصين . قال لما فتح المسلمون حصن عزاز وترك مالك الاشتر عليها سعيد بن عمرو الفنوي والتقى بالفضل بن العباس ورجعا بالفنائم الى حلب استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس وبفتوح عزاز فسأل مالكا عن يوقنا فحدثه فيما بينه وبينه سرا وأنه قصد انطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود اليك به ، فقال أبو عبيدة الله ينصره ويظفره ويففر له ، فلقد ظهر لنا منه ما لم يكن لنا في حساب ، ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب (رض) كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة عامر بن الجراح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك . فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) أما بعد . فان الله سبحانه له المنة علينا التي يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين اذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذل لنا ملوكهم وأورثنا أرضهم وديارهم وان سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن عزاز وان البطريق يوقنا صاحب حلب قد أسلم وحسن اسلامه وقد صار عوناً للمسلمين على الكافرين من بعد ما قاسينا منه ما الله عالم به فالله يجازيه فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأباد المشركين ، وقد دخل انطاكية يدبر حيلة على كلب الروم ، وقد ألقى بنفسه الى الهلاك في طاعة الله ورسوله ، ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معولون على المسير الى انطاكية نقصد طاغية الروم فما بقي حصن سواه لاعدائنا قريبا منا ونحن طامعون في أخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله (ص) فزودنا بالدعاء منك فانه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين ، والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم انه أخرج الخمس وسلمه الى رباح بن غانم الشكري وضم اليه مائتي فارس من المسلمين فيهم قتادة وسلمة بن الاكوع وعبدالله بن بشار وجابر بن عبدالله ومثل هؤلاء (رض) فأخذوا الخمس وساروا . ثم ان أبا عبيدة دعا بضرار بن الازور وضم اليه مائتي فارس وأمره ان يشن الفارة فركب ضرار

وكان معهم سفينة مولى رسول الله (ص) ولم يزل ضرار سائرا هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يدلونهم على الطرق حتى وصلوا الى مرج دابق ، وكان وقت السحر ، فقال لهم المعاهد ارفقوا على خيولكم فنزلوا واراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى اذا كان وقت السحر فما شعروا الا وجبلة كبسهم ، فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو مائة فارس واما المائة الاخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكنوا من الركوب فقاتلوا رجالا فنفرت خيولهم ووصل اليهم عدوهم حتى انه قتل كل واحد خصمه وتكاثر عليهم الخيل فأسروا المائة واما ضرار فانه صاح بالمائة الثانية ، وقال يا فتیان العرب ان أعداءكم قد هاجبوكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقوموا عزمكم ولا تفشلوا فانتم تعلمون ان النبي (ص) . قال « الجنة تحت ظلال السيوف » وقد قال الله تعالى - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين - . قال ميسرة بن عامر ، وكان من جملة من حضر معنا في مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبي عوف وهو ابن عمر بن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لا يتكلم الا بالسجع كلامه ينظم بحسن مقاله وكنا نصفي اليه اذا سجع. ونحفظ منه ، فلما سمع ضرارا وهو يحرضنا . قال : يا فتیان العرب لن تنالوا الجنة الا بالصبر على المكاره ، والله لن يدخلها من هو للجهاد كاره :
ولله في عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

واعلى الدرجات درجة الشهادة ، فارضوا علم الغيب والشهادة فهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه واختفى بنفاقه في انفاقه اما انتم اصحاب نبي العصر ؟ ولم يثستم من الثبات والنصر ؟ بشروا روح المصطفى بثباتكم وقوا العزم بصفاء نياتكم ، واباكم ان تولوا الادبار فتستوجبوا غضب الجبار ، واعلموا ان النصر والثبات جندان منصوران فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى فصححوا طلبتكم تنالوا رحمة ربكم ، حققوا حملتكم تنالوا بفيتكم واطعنوا النحور تنالوا الحور وتسكنوا القصور وقوموا الاسنة تنالوا الجنة واعتمدوا على الصبر تنالوا النصر واياكم ان توافقوا الكفار في حالهم واعدلوا عن طريق قولهم . قال العالم بحالهم وفعلهم - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم - . قال سمرة ابن غانم : والله لقد دهشت انفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد :

لا فاحملوا نحو اللثام الكواذب	لترووا سيوفا من دماء الكنائب
وردوا عن الدين المعظم في الورى	وارضوا اله العرش رب المواهب
فمن كان منكم يبتغي عتق ربه	من النار في يوم الجزا والمآرب
فيحمل هذا اليوم حملة ضيفم	ويرضي رسولا في الورى غير كاذب

(قال الواقدي) ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبدلنا نفوسنا ورويتا سيوفنا

ورماحنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيهم كانه النار في الحطب
اليابس وجبله بن الايهم يتعجب من حملاته وضرباته فأمر قومه ان يقصدوا جواده
بسهامهم ، ففعلوا ذلك فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه واخذوه أسيرا
واخذوا بقية أصحابه وساروا يريدون انطاكية فالتقوا بيوقنا وابنة الملك كما ذكرنا .
(قال الواقدي) ولقد حدثني معمر بن رواحة عن القاسم عن خزيمة بن عمرو
وعن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله (ص) كان في حرب ضرار بن الازور أسيرا ،
فلما كان الليل انطلق هاربا يلتمس الوصول الى أبي عبيدة ، فاذا هو بأسد عارضه .
فقال سفينة يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله (ص) وكان من أمري كيت وكيت فقرب
منه وهو يبصبص بذنبه حتى وقف الى جانبه وأشار اليه برأسه أن سر فسرت وهو
الى جانبي حتى أتى بي الى بلد من صلحنا فتركني ومضى .
(قال الواقدي) فلما وصل سفينة الجيش حدث الناس بأسر ضرار ومن معه
فصعب ذلك على المسلمين وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم ، وقالوا لا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم وبلغ ذلك أخته خولة . فقالت - أنا لله وأنا اليه راجعون -
يا بن أمي ليت شعري في السلاسل او ثقوك ، أم بالحديد قيدوك ، أم في البيداء طرحوك ،
أم بدمائك خضبوك ، وأنشدت تقول :

الاه مخبر بعد الفراق يخبرنا	فمن ذا الذي يا قوم اشغلكم عنا
فلو كنت أذري أنه آخر اللقاء	لكننا وقفنا للوداع وودعنا
ألا يا غراب البين هل أنت مخبري	فهل بقدم الغائبين تبشرنا
لقد كانت الايام تزهو لقربهم	وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنا
الا قاتل النوى ما أمّره	وأقبحه ماذا يريد النوى منا
ذكرت ليالي الجمع كنا سوية	ففرقنا ريب الزمان وشتتنا
لئن رجعوا يوما الى دار عزهم	لثمنا خفافا للمطايا وقبلتنا
ولم انس اذ قالوا ضرار مقيد	تركناه في دار العدو ويممنا
فما هذه الايام الا معارة	وما نحن الا مثل لفظ بلا معنى
أرى القلب لا يختار في الناس غيرهم	اذ ما ذكرهم ذاكر قلبي المضنى
سلام على الاحباب في كل ساعة	وان بعدوا عنا وان منعوا منا

(قال الواقدي) ولقد بلغني عن واصل بن عوف انه قال اجتمعت النساء من
العربيات ممن كان لهم أسير مع ضرار عند خولة ومن جملتهم مزروعة بنت عملوق
الحميرية وكانت من فصحاء زمانها ، وكان ولدها صابر بن أوس فيمن أسر مع ضرار
فجعلت تندب ولدها وتقول :

أيا ولدي قد زاد قلبي تلهبا	وقد أحرقت مني الخدود المدامع
وقد أضرمت نار المصيبة شعلة	وقد حميت مني الحشا والاضالع

وأسأل عنك الركب كي يخبرونني
 فلم يكن فيهم مخبر عنك صادقا
 فيا ولدي ما غبت كدرت عيشتي
 وفكري مقسوم وعقلي موله
 فان تك حيا صمت لله حجة
 بحالك كيما تستكن المدامع
 ولا منهم من قال انك راجع
 فقلبي مصدوع وطرفي دامع
 ودمعي مسفوح وداري بلاقع
 وان تكن الاخرى فما العبد صانع

فقالت لهن سليمة بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وكانت من الزاهدات
 العابدات أبهذا أمركن الله ؟ انما أمركن بالصبر . ووعدكن على ذلك الاجر ، اما سمعتن
 ما قال الله سبحانه وتعالى - الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون
 أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - فاصبرن تؤجرن فسكتن
 عن البكاء .

(قال الواقدي) ولما ورد الخمس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وكتاب
 أبي عبيدة مع رباح بن غانم اليشكري وقع الصائح في المدينة بقدمه ، فاجتمع الناس
 الى المسجد ليسمعوا ما تجدد من أمر المسلمين ، فلما دخل رباح المسجد بدا بالسلام
 على قبر رسول الله (ص) وعلى قبر أبي بكر وصلى ركعتين واتى عمر وقبل يده وعرض
 عليه الكتاب فقراه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير ،
 واخذ الخمس وكتب الى أبي عبيدة يأمره بالمسير الى أنطاكية ولا يصدده عن ذلك شيء
 ورد الجواب مع رباح اليشكري .

(قال الواقدي) أخبرني مازن بن عبد ربه عن مالك بن أسيد عن جده مروان بن
 الجريز ان الجواب لما ورد على أبي عبيدة سار من يومه يطلب أنطاكية . قال وأما ما
 كان من أمر يوقنا رحمه الله تعالى وجبلته بن الإيهم لعنه الله فانهم ساروا الى أنطاكية
 وسبق البشير الى الملك هرقل بقدم ابنته مع يوقنا وقدم يوقنا ومعه المائتا أسير
 من المسلمين فأمر بتزيين البلد والبيع فأظهرت الروم زينتها ودفعت الصدقات الى
 الفقراء وأخرج موكب الروم الى لقائهم مع ابن أخيه في زينة عظيمة ودخل القوم وهم
 في زيهم وحشمتهم وكان يوما مشهودا وقد ترجلت الملكية والسريرية بين يدي ابنة
 الملك وخرج كل من بأنطاكية وقدموا اصحاب رسول الله (ص) امامها وهم مشدودون
 والروم تشتمهم وتبصق عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك
 الى قصر أبيها .

(قال الواقدي) ودخل جبلته بن الإيهم ويوقنا على الملك فخلع عليهما وعلى كبار
 أصحابهما ، ثم انهم أحضروا الصحابة وأوقفوهم بين يديه وهم في الحبال ، فلما وقفوا
 صاحبت بهم الحجاب اسجدوا الى الارض تعظيما للملك فلم يلتفتوا الى قولهم ولا
 اعتنوا به . فقال لهم الحاجب الكبير : ما منعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه ؟
 فقال لهم ضرار لا يحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا (ص) عن ذلك .

(قال الواقدي) حدثني سهل بن برقان (رض) عن السائب بن حازم عن الحكم بن مازن . قال لما وقف ضرار والصحابة بين يدي هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدثهم به حين بعث النبي (ص) ، وذلك أنه جمعهم إليه لما بلغه أن النبي (ص) قد ظهر وقال : هذا هو النبي المبعوث الذي بشر به عيسى بن مريم وهو صاحب الوقت ولا بد لدينه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب ، ثم أن هرقل دعاهم لاداء الجزية فأرادوا قتله فأراد ذلك اليوم أن يبين لهم حقيقة قوله وأنه أراد بذلك الإصلاح لهم ولجبالهم . فقال لضرار ومن معه من يخاطبني منكم عما أسأله من العلم ؟ فأشاروا الى قيس بن عاصم الانصاري (رض) وكان شيخا معمرًا وكان شاهد جميع احوال رسول الله (ص) ومعجزاته وغزواته ، فلما أشاروا اليه قال للملك قل ما أنت قائل أيها الملك . قال هرقل كيف نزل على نبيكم الوحي أول مبتدأ امره . فقال قيس ابن عاصم : سأل هذا السؤال لنبينا (ص) رجل من مكة يقال له الحرث بن هشام . فقال لرسول الله (ص) كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (ص) يأتيني أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فينفصم عني وقد وعيت عنه ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قال قيس : ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البارد فينقصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا ، فأول ما بدىء به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه : أي يتعبد الليالي ذوات العدد ، فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له اقرا . فقال لست بقارئ . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني وقال لي اقرا فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني وقال لي اقرا فقلت لست بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال - اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم - فرجع بها رسول الله (ص) يرجف بها فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) . فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فأخبر خديجة وقال لها لقد خشيت على نفسي . فقالت له خديجة : كلا لا يخزيك الله أبدا إنك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ونفوي الضعيف وتعين على نوائب الدهر والحق ، وذكر الحديث بطوله . قال رسول الله (ص) بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعبا فرجعت الى خديجة فقلت دنروني دنروني فأنزل الله تعالى - يا أيها المدثر قم فأنذر - الآية ، ثم حمى الوحي وتتابع ، ولقد كنت معه يوما في المسجد إذ دخل رجل ومعه بعير له فأنأخه بالباب وعقله ودخل وقال السلام عليكم فرددنا عليه السلام . فقال أيكم محمد ؟ فقلنا هذا الابيض الوجه . فقال له الرجل يا ابن عبد المطلب قد أتيت أسألك مشددا عليك فلا تجد علي في نفسك . فقال له سل

عما بدا لك . فقال بربك ورب من قبلك آله أرسلك الى الناس كلهم كافة ؟ . قال اللهم نعم . قال أنشدك بالله آله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ . قال اللهم نعم . قال أنشدك بالله آله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ . فقال اللهم نعم . فقال أنشدك بالله آله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ . فقال اللهم نعم . فقال الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي : أنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . فقال هرقل بحق دينك ما الذي رأيت من معجزاته . قال كنت معه في سفر فأقبل اليه أعرابي فدنا منه . فقال له النبي (ص) اتشهد أن لا اله الا الله واني محمد رسول الله . قال الاعرابي ومن يشهد بما تقول فقال النبي (ص) هذه الشجرة ، ثم ان النبي (ص) دعا الشجرة وهي بشاطئ الوادي فأقبلت اليه وهي تخط الارض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاث مرات . فقالت أنت محمد رسول الله ، ثم أمرها فرجعت الى منبتها . فقال هرقل انا نجد في كتابنا ان الرجل من أمتة اذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وان عمل الحسنة كتبت له عشرة . قال قيس بن عاصم هذا في كتابنا . قال الله تعالى — من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الا مثلها — فقال هرقل : اعلم ان النبي (ص) الذي بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة . فقال قيس هو نبينا ، قال الله تعالى في كتابه العزيز — يا ايها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا — الآية : أما شهادته في العقبي فهو قول ربنا في كلامه القديم — وجئنا بك على هؤلاء شهيدا — . فقال هرقل : ان الذي وصفته لك هو الذي يأمر العباد أن يمضوا اليه في حياته ويصلوا عليه في حياته وبعد وفاته . فقال قيس هو نبينا (ص) . قال الله تعالى في كتابه العزيز — ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما — قال هرقل ان الذي وصفه المسيح يعرج به الى السماء ويخاطبه العلي الاعلى . فقال قيس هو والله نبينا (ص) . قال الله تعالى في حقه — سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى — .

(قال الواقدي) وكان في ذلك الوقت بترك الروم وهو رأس دينهم جالسا يستمع هذا الكلام فالتفت هذا البترك الى الملك وقال له ايها الملك ان الذي ذكره عيسى لم يبعث بعده ولا قبله بل هي تأويل كاذبة . فقال ضرار بن الازور كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، أما تعلم ان عيسى قرأه في الانجيل وموسى قرأه في التوراة وقرأه داود في الزبور ، وان نبينا المبعوث بخير الاديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الانبياء من قبله ، وهو نبينا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب المكي ، ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته ، فلما ان سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له لقد أسأت الادب في المجلس اذ خرجت

واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم ، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنا وبنو عمه المائتان . فقال يوقنا لفلنطانوس : ايها الملك عولت على أن تكبس المسلمين فقال لا والقديم الازلي وانما انا قاصد اليهم وداخل في دينهم وملتهم وأكون من جملتهم ، فمن نظر الى الدنيا بعين الفناء عمل للأخرة فما الذي يمنعك يا يوقنا مما نحن عولنا عليه ؟ . فقال يوقنا ايها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم انه حدثه بحديثه وانه عازم على أن يغدر بالروم فقبله فلنطانوس وفرح بمقالته وقال له كيف تقدر على ذلك وما أرى معك الا نفرا يسيرا . فقال ايها الملك ان في داخل بيتي مائتين من المسلمين من اكابر اصحاب رسول الله (ص) في مقام عشرين الفا من الروم ، ولقد رأيت أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلا الى امير المسلمين يخبره بما نحن معولون عليه فاذا كان غدا تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل وأدخل انا البلد وأطلق المائتي اسير واعطيهم سلاحا ويحمل جيش العرب وتحمل أنت وعسكرك على مركب هرقل وتقصده بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت واسير انا ومن معي في داخل البلد فنملكها ان شاء الله تعالى ، وان أردت أن ترجع الى دار ملكك ويكون أسرك مكتوما علينا فحول أمر جيشك لمن تثق به من بني عمك . قال فلنطانوس ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا ، بل اذا قضى هذا الامر ونصر الاسلام قصدت مكة فأحج وأزور قبر النبي (ص) ، ثم أرجع الى بيت المقدس فأقيم فيه الى أن أموت ، فمن يذهب الى امير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عولنا عليه ؟ فقال له يوقنا : اعلم ان لهم عندنا عيونا وجواسيس ممن هو تحت ذمتهم وانا اعلمهم بما قد وقع ، قال فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل واذا بشيخ قصد اليهما فتأمله يوقنا فاذا هو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله (ص) فسلم على يوقنا وعلى من معه ، وقال ليوقنا ان الامير ابا عبيدة يقول لك جزاك الله خيرا عن الاسلام وانه رأى في المنام رسول الله (ص) واخبره بما كان من أمر صاحب رومية وما تحدثتما به وما وقع له مع قومه وما عزمتم عليه وبشره بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد تفتح انطاكية ويزلزل عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها .

(قال الواقدي) فتهلل وجه فلنطانوس فرحا وازداد ايمانا وقال : الحمد لله الذي هدانا للاسلام والايمان .

(قال الواقدي) وذلك ان ابا عبيدة (رض) رأى النبي (ص) في النوم وهو يقول يا ابا عبيدة ابشر برضوان الله ورحمته وغدا تفتح انطاكية صلحا وان صاحب رومية المدائن الكبرى قد جرى من أمره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهما بالقرب منك فأنفذ اليهما بنجاز الامر . قال فاستيقظ ابا عبيدة وقص رؤياه على خالد وأنفذ عمرو بن أمية كما ذكرنا . قال فلما سمع فلنطانوس ذلك اقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأشهد أن هذا

ولا ضاع عند الله ما تصنعانه
بصنعكما لي نلت خيرا وراحة
وما بي وايم الله موتي وانما
ضعيفة حال ما لها من جلادة
تعودها حب القفار مقيمة
وكننت لها وكننا تعد رحاله
وأطعمها من صيد كفى ارايبا
من الضب والفلان والبهت بعد
وأحمي حماها أن تضام ولم ازل
واني أردت الله لا شيء غيره
وأرضيت خير الخلق أعني محمدا
فمن خاف يوم الحشر أرضى الله
كذا جلت يوم الحرب في كل كافر
تقول وقد حان الفراق لحينه
الا يا أخي هذا الفراق فمن لنا
إذا سافر الانسان عن أرض أهله
الا بلغاها عن أخيها تحية
جريح طريح بالسيوف مشرح
الا يا حمامات الراك تحملي
حمائم نجد بلغي قول شائق
وقولي ضرار في القيود مكبل
حمائم نجد اسفغي قول مفرد
وان سألت عني الاحبة خبري
حمائم نجد خبري الاخت انسي
حمائم نجد عددي عند موطني
وقولي لهم اني اسير مقيّد
له من عداد العمر عشر وسبعة
وفي خده خال محته مدامع
مضى سائرا يبغي الجهاد تطوعا
الا فادفناني بارك الله فيكما
الا يا حمامات الحطيم وزمزم
عسى تسمح الايام منا بزورة
(قال الواقدي) لما كتب ابن يوقنا هذه الابيات كتب أبوه يوقنا الى أبي عبيدة

فقد خف عني ما وجدت من الضر
كذلك فعل الخير بين الوري يجري
تركت عجوزا في المهامة والقفر
على نائبات الحادثات التي تجري
على الشيوخ والقيصوم والنبت والزهر
واكرمها جهدي وان مسني فقري
من الوحش واليربوع والطبي والصقر
مع البقر الوحش المقيمات في البر
لها ناصرا في موقف الخير والشر
وجاهدت في جيش الملاعين بالسمر
لعلي انال الفوز في موقف الحشر
وقاتل عباد الصليب بني الكفر
وجندلته بالطعن في الكر والفر
الا يا أخي ما لي على البين من صبر
بحسن رجوع قادم منك بالبشر
فاما رجوع أو هلاك مدى الدهر
وقولا غريب مات في قبضة الكفر
على نصره الاسلام والطاهر الطهر
رسالة صب لا يفيق من السكر
الى عسكر الاسلام والسادة الفر
يعيد عن الاوطان في بلد وعر
غريب تيب وهو في ذلة الاسر
بان دموعي كالسحاب وكالقطر
قتلت بحد المرهفات من البتر
وقولي ضرار قد يحن الى الوكر
له علة بين الجوانح والصدر
وواحدة عند الحساب بلا نكر
على فقد اوطان وكسر بلا جبر
فوافاه ابناء اللثام على قدر
الا واكتبا هذا الغريب على قبري
الا خبرا امي ودلا على امري
لقلب غريب لا يرام من الفكر
(قال الواقدي) لما كتب ابن يوقنا هذه الابيات كتب أبوه يوقنا الى أبي عبيدة

يعلمه بما يريد أن يدبره وسلمه الى رجل يشق به وبعثه الى المسلمين .

قال المؤلف حدثني جابر بن عمران الدوسي ونحن في أرض يقال لها البلاط اذ جاء معن بن أوس من آل مخزوم ، ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لأبي عبيدة خذ هذا اليك فهو يزعم انه رسول فاستخبره أبو عبيدة في السر . فقال انا رسول اليك بكتاب . فقال ممن ، قال من يوقنا ومن أسير لكم بانطاكية يقال له ضرار بن الازور فأخذ أبو عبيدة الكتاب وقراه على من يعز عليه فبكوا من آيات ضرار وبلغ الخبر اخته فأتت الى أبي عبيدة وقالت يا أمين الامة اسمعني آيات أخي فقرا البعض عليها ولم يتمها فاسترجعت وقالت - انا لله وانا اليه راجعون - ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فوالله لاخذن بثأره ان شاء الله تعالى وحفظ الناس آيات ضرار وتداولوها بينهم فكان اشد الناس عليه حزنا خالد بن الوليد .

(قال الواقدي) حدثنا عبد الملك بن محمد عن أبيه حسان ابن كعب عن عبد الواحد بن عون عن موسى بن عمران الشكري عن عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش ان أهل حازم فتحوا قلعا كثيرة وحصونا منها الراوندات وما سواها من قورص وباسوطا ، ولم يزل أبو عبيدة سائرا بالمسلمين الى ان نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن الخوف من قلبه وأمر بطارقه بالتأهب للقتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر الحديد وضربت الملوك خيامها وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرقها على رجاله وأبطاله وخلع على يوقنا وقال له أيها الدمستق قد وليتك على جيشي هذا كله فكن أنت مدبره وسلم اليه صليبا كان في بيعة القيسان لا يخرجونه الا في الايام العظام عندهم وقال له أيها الدمستق قدم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك فأخذه وسلمه الى ولده وأمره ان يحمله بين يديه فعندها ركب الملك هرقل الى كنيسة القيسان ومعه الملوك والحجاب حتى يصلي صلاة النصر ، فلما وصلوا صلى الملك جلس وأمر باحضار المائتين من اصحاب رسول الله (ص) ليقربهم قربانا فقبل يوقنا يده وقال له : يا عظيم الروم ما ولاك الله على البلاد والعباد الا وقد علم ان عقلك يسع ذلك وقد قال ديسقور الحكيم : ان العقل مرقى جليل وصاحبه نبيل ، لانه عز الانسان ومصباح الانام ، واعلم أيها الملك ان العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها وقد نزلوا على جسر الحديد ولا بد لنا من القتال والمصاف معهم ولا ندري على من تكون الدائرة ، فان قتلت هؤلاء الاسرى ووقع أحد منا بأيديهم فانهم لا يبقون عليه ، والصواب تركهم الى ان نرى ما يؤول من امرنا ، فان أسروا من أصحابنا احدا أو من أعياننا بنفاديه ، فقال أرباب الدولة صدق الدمستق في قوله قال البترك أيها الملك احضرهم الى هذه الكنيسة فانها احسن كنائس بلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن هنا فاذا هم نظروا الى نسائنا وحسنهن وجمالهن وطيب رائحتهن مالت انفسهم اليهن فيرجعون الى ديننا فيكون ذلك وهنا على المسلمين .

قال فامر بذلك ، فلما حضروا رفعت القسوس أصواتهم بقراءة الانجيل فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا كذب الجاحدون وضلوا ضلالا بعيدا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، وكان في الاسرى رجل من اليمن من فضلائهم وعلمائهم ممن علم علم الحميريين وأقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وأنه لما نظر الكنيسة ملانة بأهل الكفر ورآهم يعظمون الصليبان ويسجدون للصور قال الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله كذب العادلون عن الله اصحاب الشيطان ولا اله الا الله الواحد الرحمن الذي ليس له اب محسوب ، وأنه فرد صمد لا الى شيء منسوب ، ليس له ضد ولا ند ولا حد اوجد الموجودات ، وصور المخلوقات ، وخلق الكائنات ، ودبر الارض والسماوات ، أول لا افتتاح لوجوده ، وآخر لا عدم لشهوده لا يموت ولا يفتنى ، ولا يزول ولا يبلى ، لا شريك له ولا وزير له ولا صاحب له ، ولا مشير له ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . قال فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القسوس بعكايزها اليه فأشارت الحجاب اليهم ان لا يكموه ويتركوه ففرقوا عنه . فقال له الملك هرقل ما اسمك يا اخا العرب . قال ايها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فتستخبروني ؟ ، فقال البترك صدق ايها الملك ليس هو من جنسنا ولا له علم ولا خبرة فعلام تسأله انما هو بدوي يعلم بسكنى القفار وصحبة الاشرار والحكمة من بلادنا ظهرت ، وفي حكمائنا اشتهرت ، لأنها نبعت من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون من اين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا الاسكندر وبطليموس وموريق ويوسطانيوس وارمويل وانطاميس وارجاس وجرجس واسطوس واسطانيس وسارغورس النوصيدي ، وهو الذي بنى انطاكية وسفليوس واريسا ، وكان نبيا ملكا ويلينوس وهو الذي بنى الرها ومنبج واسطبس وكان كاهنا وهو الذي اخبر ملك زمانه انه قد ولد مولود يخاطب الرب ويكون له شأن ونبا عظيم يهلك على يديه افلاطون وهو فرعون ، ومنافسطين الحكيم ومنا فجر العلوم ، ومنا منتهو وهو الذي بنى رومية الكبرى وباسمه ، ومناسطاليوس وهو الذي وضع الكتاب الاول الذي فيه حوزة الارض بجبالها وبحارها وبنائها وصوانها ووصف امة كل اقليم بألوانها وخواصها ووصف ما في كل اقليم من معدن ذهب أو فضة أو جوهر وأحصى عيون الارض جميعها بأسمائها وجبالها وأوديتها وشعابها وغدرانها وعجائبها ، ومنا ايردروس القلنسب الرومي وهو الذي يقول لاحشرنى الله مع الذين يقال لهم في الميعاد ادبروا مع ابليس وجنوده الى النار ، ألم تطهر نفسك ايها المسكين الناظر في كتابي القاري الآبي من ادناس الدنيا وشهواتها المظلمة للنفوس المعوقة للحس الروحاني النوراني أن ترقى الى عالم عليين فانظر في الحكمة فانها سلم العالم الروحاني فمن عدما فقد عدم القرب الى بارئه ومصوره ومنشئه .

(قال الواقدي) انما تكلم البترك بهذا الكلام بين يدي الملك هرقل وهو يظن أنه

يطعن في العرب ليسمع جبلة بن الايهم حكمته ، وكان جبلة وولده حاضرين وكان بين البترك وبينه عداوة سببها ان البترك كان بنى له ديرا عظيما وجعل له عيدا في السنة تقصده الروم من كل مكان بالندور والاموال والستور والشعوع ، وكان ذلك كله برسم البترك قال فاعطى الملك لجبلة تلك الارض التي فيها الدير فتغلب جبلة على الدير وبنى حوله مدينة وسمها باسمه وهي جبلة هذه .

حدثنا سليمان بن عامر عن منصور الجوني . قال حجاج بن جريج اخبرني يحيى بن عمار ابن ابي الحسن . قال لما سمع رفاعة بن زهير كلام البترك تبسم من قوله وقال : ايها البترك لقد مدحت اقواما ليس لهم الى الفضل سبيل ، ولا فيهم فاضل ولا نبيل ، ولا من وحد الملك الجليل ، الذي ليس له مثل ولا عدل ، وما الفضل الا لولد اسمعيل بن ابراهيم الخليل ، الذي لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام ، ومنهم التبابعة والاقبال والحماة والاشبال الذين ملكوا الارض في الطول والعرض ، ومنهم الملك الصعب الاسكندر الذي ملك قرني الارض ودخل الظلمات ودخل في طاعته اهل الارض ، وبلغ مطلع الشمس ومغربها واذل ملوكها وجعل له منهم جندا واعوانا وسماه الله ذا القرنين ، ومنهم سبا بن يعرب بن قحطان وشداد بن عاد وشديد بن عاد وعمرو ذو الاذقان وهو ابن سكسك والهدهد بن عاد ولقمان بن عاد وشعبان بن اكسير بن تنوخ وعباد بن رقيم ، وهاديل بن عتبان وكان يتكلم بالحكمة ومناجاة موسى (٧) بن جلهمة بن سياسة بن عجلان بن ياقد بن رخ وئمود بن كنعان ، ومنا سبا بن يشجب ، وهو اول متوج منا ثم ولى بعده حمير ثم منا تبع وهو متوج ومنا وائل بن حمير متوج ومنا عاد بن حمير متوج ومنا نبي الله حنظلة ابن صفوان من اهل الرس ، ومنا نفيل بن عبد المدان بن خثدم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود عليه السلام عاش خمسمائة سنة ، وهو الذي بني المصانع واستخرج الكنوز وقاد الجيوش وورثه الله علم نبيه حنظلة بن صفوان ، وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا اذ جعل محمدا (ص) منا فنحن السادة وانتم العبيد .

حدثنا سفيان عن عبد ربه . قال اخبرنا رحيم ، قال حدثنا الوليد بن زيادة عن حزام ابن حكيم قال : بلغني ان هذا الرجل يعني رفاعة بن زهير بن زياد بن عبيد بن سرية الجرهمي ، كان عالما بانساب العرب واخبارهم وملوكهم وكان طالع كتب هود وصالح وحنظلة عليهم السلام ، فلما تكلم بحضرة الملك هرقل بهذا الكلام اراد البترك ان يعجزه بسؤال يلقيه عليه ، فقال يا ذا الهمم العلية والقرائح الذكية بم تصل القلوب الى نسيم العقل الروحاني وترقى الى ملكوت اللاهوت والطيور الخفية الغائبة عن الابصار بالاقطار وترقى في رياضات الالباب المصفاة من الادناس والافكار النورانية بصفو اكدار الاخلاق المحيطة بالافكار من الهياكل الجسمانية ؟ فعند الصفو من مفارقة الكدر تعيش الارواح عيشة الابد الذي لا يصل اليه انحلال ولا اضمحلال ، فحينئذ

يختلط العنصر بالعنصر ، ويطفو الصفو بالصفو ، ويرسب الكدر الى الكدر ؟ فقال رفاعه بن زهير ما أصبت ايها البترك في مقالتك ، فقال ولم ؟ قال رفاعه كيف تدل القلوب الى علام الغيوب ، وقد حجب عنها صواب المصيب ، ام كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب من الكفر وكيف تحلى الافكار من غوامض الاسرار وهي في حجب الاغترار اذا تناهت الاهوال الى مفازاتها وقربت الهمم من مواضعها وعادت الفكر الى عناصرها وعادت متحركات الفكر الى مساكنها وغاليات الاذهان الى اماكنها فانحازت الاشكال عن الاشكال بلطف تأثير الهوى فيها وانكبت مشرفة عن هياكلها من اقطار عناصرها . قال ايها البترك هذا كلام العرب الذي زعمت أن الحكمة ليست من اخلاقهم ولا تباع في أسواقهم ولقد كان ملك من ملوك اليمن اسمه سيف بن ذي يزن الذي بشر نبينا محمد (ص) يتكلم بفوامض العلوم الحكيمية ووشح بوشاح شكر النعمة ، ومن جملة ما قال فصيح من فصحاءنا اسمه قيس بن ساعدة هذه الابيات :

الا اننا من معشر سبقت لهم	اياد من الحسنى فعوفوا من الجهل
ولم ينظروا يوما الى ذات محرم	ولا عرفوا الا التقية في الفعل
وفينا من التوحيد والفعل شاهد	عرفناه والتوحيد يعرف بالعقل
نعان ما فوق السماء جميعها	معاينة الاشخاص بالجواهر المجلى
ونعلم ما كنا ومن اين بدؤنا	وما نحن بالتصوير في عالم الشكل
وانا وان كنا على مركز الثرى	فارواحنا في عالم النور تستجلي
وما صعدت كي تستريح وانما	حقيقة ممثول وجلت عن المثل

(قال الواقدي) قال أبو سعيد حدثنا شيبه بن أبي عبدالله بن عيسى عن لقية بن هند عن عبدالله بن ربيعة ، قال قلت لرفاعة بن زهير لما خلاص من قبضة الروم يا عم كيف كان البترك يفهم ما تقول وتفهم ما يقول ، فقال يا بني ما رأيت أفصح من اللعين بلسان العربية ، ولقد سألت عن ذلك من عبد الله يوقنا ؟ . فقال أما علمت أن ملوك الروم والبطارقة لا يستقيم ملكهم الا أن يتعلموا لسان العربية . قال ولما حدث رفاعه المسلمين بمناظرة البترك كتبها كثير من الناس .

(قال الواقدي) وكان لرفاعة بن زهير الجرهمي ولد جاهل . قال وكان أسر معه . قال وكان قلبه يميل الى الكفر وكان رفاعه يدعو عليه ، فلما حضر الاسارى في كنيسة القيسان واشتغل رفاعه مع البترك بالمناظرة أقبل ولد عامر يحدق بنظره الى البيعة وزينتها وصورها وصلبانها ويتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر الى تقبيل الصلبان والاشراك بالرحمن ، فلما رآه أبوه رفاعه بكى ، وقال يا ويلك اكفرت بعد الايمان ، يا ويلك طردت عن باب الرحمن ، يا ويلك كفرت بالملك الديان ، يا طريد القدرة يا من بعد عن الحضرة فيا ولدي ما بكائي على فراقك ، وانما اذا سلكت انا في طريق وانت في طريق اذا مضيت انت الى دار الابالسة وحشرت مع الرهبان والشمامسة

وتكون في طبقة النار السادسة ، وأنا أمضي مع محمد الى دار فيها الارواح مستأنسة
يا بني لا تطلب حياة الدنيا ، يا بني لا تختار شهوتها على الآخرة واخجلني من فعالك
اذا وقفت بين يد العزيز الجبار . يا بني لقد فضحت شيبة أبيك اذ كفرت بعالم السر
والنجوى ، يا بني لقد خاب أملي فيك والرجاء . يا بني كيف طاب قلبك ان تتبرا من
محمد المصطفى . يا بني ممن تطلب الشفاعة غدا . يا بني غرتك الحياة فصرت تكفر
بالعليم . يا بني صرت الى الشقاء من بعد كونك في النعيم . يا بني اما تخشى العذاب
في الجحيم . اما تستحي من أحمد يوم القيامة . اما تعلم أن أباك قد غدا من أجل
كفرك في هموم . أين المفر اذا دعاك الله في اليوم العظيم ، ويقول يا عبدي كفرت بواحد
فرد . يا بني أنت في عيش ذميم . اما أبوك فانه يبقى بعز مقيم ، أسألك يا ولدي بما
قد كان في الزمن القديم من حنوي وتعطفي حال الرضاعة والفظام الا رجعت الى الذي
غطاك بالستر العميم . قال فقيل له ان ولدك قد اغلق الباب عليه وارخى الحجاب ،
فامر به البترك فحل من الوثاق ، وأمر به الى جرن ماء المعمودية فغمسوه فيه ، ودارت
به القسوس والشمامسة وبخروه ووقعت عليه الخلع من البطارقة والملوك ، ووهب له
البترك مركبا وجارية ومنزلا وضمه الى عسكر جيلة بن الايهم . ثم قال البترك يا
هؤلاء ما منعكم ان تدخلوا في ديننا كما فعل صاحبكم . قالوا منعنا من ذلك صحة ديننا
وثبات يقيننا ، وما نحن من الذين يبدلون ايمانهم بالكفر ولو قتلنا ، فقال لهم البترك
طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنبه .

فقال له رفاعة الله يعلم أين المطرود ومن هو عن رحمة ربه معبود ، فقال هرقل
يا معاشر العرب قد وصل الينا ان خليفتم وأميركم يلبس مرقعة وقد وصل اليه من
أموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف فما منعه ان يتزيا بزي الملوك ؟ فقال رفاعة يمنعه
من ذلك طلب الآخرة والفزع من جبار الجبابرة ، فقال هرقل ما صفة دار أمارته ؟
فقال رفاعة مبنية بالطين خالية من الحجاب آنسة بالفقراء والمساكين . قال فما
بساطه ؟ . قال العدل والتمكين . قال فما سريره . قال العقل واليقين ، قال فما
بدلة ملكه ؟ . قال الزهد والدين . قال فما خزائنه ؟ . قال الثقة برب العالمين . قال
فمن جنده ؟ . قال أبطال الموحدين . اما علمت أيها الملك أن جماعته قالوا له يا عمر قد
ملكك كنوز القياصرة وذللت البطارقة والا كاسرة فهلا لبست ثيابا فاخرة . قال انتم
تريدون زينة الحياة الظاهرة ، وأنا أريد رب الدنيا والآخرة ، فلما أبدى هذا القول
وأضمر اشار اليه منادي القدرة وبشر - الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر - ، قال ثم ان الملك هرقل أمر بهم الى
السجن الذي هو في كنيسة القيسان وخرج الى عسكره ليشرف على الخيام فرأى
السراقات قد ضربت لان البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونونيا الملوك قد
نصبت بازاء كل نونية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الاصانيع والنواقيس على

أبوابها وكان زي الروم ذلك وهذه البيع والخشب كانوا يتنافسون فيها وفي صنعتهما وتكون معهم في أسفارهم وعساكرهم وطاف هرقل على عسكره جميعه وأراد الدخول الى انطاكية واذا بفوارس تركض اليه ، فقالت لهم الحجاب وأصحاب السرير ما وراءكم ؟ قالوا : ملك جسر الحديد منا وقد حصلت العرب منا على داخل الجسر . قال فأيقن الملك بزوال ملكه ، وقال وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلثمائة من البطارقة الشداد ، قالوا أيها الملك ان المقدم الذي على الابراج هو الذي سلمهم .

(قال الواقدي) ومن حسن لطف الله بالمسلمين ان صاحب الملك كان في كل يوم يمضي الى الجسر ويوصي من في البرجين باليقظة والحرس الشديد وانه مضى في بعض الايام على عادته فوجدهم يشربون الخمر وليس عندهم حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهم يقتل مقدمهم . ثم انه أمسك عنه خوف الملك فعمل الحقد في قلوبهم فجاءهم يوقنا في بعض الايام يتجسس ليدبر فيه حيلة فراءهم حنقين من صاحب الملك فسألهم فانكروا منه ، فقال لهم اطلعوني على خبركم ، فقالوا له اتعطينا منك امانا فأعطاهم ، فقالوا نحن نسلم هذا الجسر للعرب . فلما صح عنده ذلك ، قال لهم ما مرادكم . قالوا نأخذ امانا من المسلمين ، فقال يوقنا انا اكتب لكم كتابا الى أميرهم بأن يعطيكم امانا ، وان دخلتم في دينهم فهو خير لكم ، فقالوا له وكيف أنت دخلت في دينهم . ثم رجعت ، فقال حاش لله وانما أتيت أدبرهم على تسليم انطاكية لهم ، فلما صح عندهم ذلك . قالوا ونحن نسلم اليهم الجسر ، فلما وافقهم على ذلك كتموا أمرهم ، فلما قدم المسلمون مضى اليهم صاحب الجسر من غير ان يعلم به أحد وأخذ له ولهن معه امانا وناوله كتاب يوقنا ففرح المسلمون بذلك بأن يأخذوا جسر الحديد من غير قتال فأعطوا للمقدم امانا ، فلما وصل عسكر المسلمين الى الباب الذي على الجسر فتح لهم فدخلوا ، فلما سمع هرقل بذلك أمر الناس ان يتأهبوا للحرب . قال ففعلوا ذلك .

(قال الواقدي) حدثنا ياسر بن عبد الرحمن عن منازل بن نزاف الصيدلاني وكان أعرف الناس بفتوح الشام . قال بلغني انه لما صار المسلمون بأرض انطاكية . قال أبو عبيدة لخالد يا أبا سليمان قد صرنا بأرض انطاكية بلد كلب الروم والساعة يأتينا عسكره فما ترى من الرأي . قال لخالد ان الله قال - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - الآية فأمر أصحابك ان يتأهبوا ويظهروا زينة الاسلام وقوة الايمان وسير كل أمير بجيشه ولتكن الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا . قال ففعل أبو عبيدة ذلك ، وأول من سير سعيد بن زيد أحد العشرة ومعه ثلاثة آلاف فارس فيهم المهاجرون والانصار وجعله على مقدمة الجيش ، وسير وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه ألف فارس ، وسير وراءه ميسرة بن مسروق العبسي في ثلاثة آلاف فارس ، وسار وراءه خالد في جيش الزحف ، وسار وراءهم أبو عبيدة في بقية العسكر ، وكان معه عمرو بن

معد يكرب الزبيدي وذو الكلاع الحميري وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وإبان بن عثمان ابن عفان والفطيل بن العباس وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن ضمرة وسعيد بن رافع وزيد ابن عمرو ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النساء اللاتي لهن الأسرى وفيهم خولة بنت الأزور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملوق وأم إبان بنت عتبة وليس فيهم أشد حزنا من خولة بنت الأزور .
(قال الواقدي) ومما بلغني أنها قالت في أسر أخيها من المراثي المبكيات :

أبعد أخي بلد الغمض عيني	فكيف ينام مقروح الجفون
سأبكي ما حييت على شقيق	أعز علي من عيني اليمين
فلو أنني لحقت به قتيلا	لهان علي إذ هو غير هون
وكنت إلى السلو أرى طريقا	وأعلق منه بالحبل المتين
وأنا معشر من مات منا	فليس يموت موت المستكين
وأنى أن يقال مضى ضرار	لباكية بمنسجم هتون
وقالوا كم بكاؤك قلت مهلا	أما أبكى وقد قطعوا وتيني

قال فسار أبو عبيدة في مواكبه كما ذكرنا ، فبينما الروم في خيامها وعسكرها إذ وقع فيهم الصائح بقدوم العرب ، فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم ، فأول من أشرف عليهم برأيته سعيد بن زيد وبعده المسيب بن نجبة الفزاري ، وبعده ميسرة بن مسروق العبسي ، وبعده أتى خالد بن الوليد ، وبعدهم أبو عبيدة في مواكبه ، فنزل كل أمير بقومه ، فلما نظر هرقل إليهم وأنهم قد نزلوا بفنائهم وبناؤه ترك على حفظ جيشه صاحبه الأكبر نسطاروس بن روميل ، وكان من شجعان الروم ، ودخل إلى كنيسة القيسان وجمع الملوك والبطارقة والسريرية والحجاب ، وقام هرقل فيهم خطيبا . وقال : يا أهل دين النصرانية ويا بني ماء المعمودية قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من أرض سورية ، وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني وأردتم قتلي ، وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وأنفسكم ، وإياكم والفضل لا يلحقكم في الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدي وأتلفت أموالي وخزائني ورجالي عن دينكم وملككم ، فلم تصادفني مساعدة ولا أدركت من القوم فائدة ، فإن أنتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم ، والا كان العار عليكم ، والدلة تصل إليكم ، أين أبناؤكم ومن سلف من آبائكم ؟ ماتوا كراما غير لثام وسكنت ديارهم العرب اللثام ، وكنائسهم صيروها جوامع ، وأخربوا البيع والصوامع ، وأذلوا ملوككم واستعبدوا أبناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم ، وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الأمر وقاتلوا ، فكم هلك من الأمم قبلكم على ممالكهم وعلى الغيرة على حريمهم ، ولقد كانت حكمتي انتجت لكم أن تنسجوا على منوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبيتم

ذلك ، لان ظلمة جهلكم قد اطفأت نور الحكمة . اما علمتم انه قد وجد لوح من الحجر على قبر طيماون تلميذ اقيانوس وفيه مكتوب : الحكمة سلم العالم الاعلى ، من عدمها فقد عدم القرب الى بارئه ، الحكمة حياة القلوب ، وبغية الازهان ، ونزهة النفوس ، ونور العقول ، من لم يكن حكيما لم يزل سقيما ، من تدبر نظر ، ومن نظر عرف ، ومن عرف عمل ، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله ، ومن انفتح عقله صفت نفسه ، فقام اليه جبلة بن الايهم ، وقال يا عظيم الروم انما قتال هؤلاء العرب بقتل خليفتهم عمر بالمدينة ، فلو انت ارسلت اليه رجلا من آل غسان يقتله فيكون سبب فشلهم وانتزاع الشام من ايديهم فقال هرقل هذا شيء لا يصح امله ولا ينقضي اجله ، لان الاجال مقدرة ، والانفاس مقررة ، ولكن هو شيء تطيب النفس عند سماعه فافعل ما اردت . قال فارسل جبلة من قومه رجلا يقال له واثق بن مسافر الفساني ، وكان جريئا مقداما في الحروب فقال له انطلق الى يثرب فلعلك تقتل عمر ، فان انت فعلت ذلك فانا اعطيك ما اردته من الاموال . قال : فانطلق واثق بن مسافر حتى دخل المدينة ليلا ، فلما كان الفد صلى عمر بن الخطاب (رض) بالناس صلاة الصبح ودعا وخرج الى ظاهر المدينة يتنسم اخبار المجاهدين بالشام . قال فسبقه المتنصر وجلس له بأعلى شجرة من حديقة بن الدحاح الانصاري واستتر بأغصانها ، ثم ان عمر قام عن ظاهر المدينة حين حميت الرمضاء وعاد وهو وحده فقرب من الحديقة ودخلها ونام في ظلها ، فلما نام هم المتنصر بالنزول من الشجرة وجرد خنجره واذا هو بأسد اقبل وهو بقدر البقرة الكبيرة وطاف حول عمر وجلس عند قدميه يلحسهما واقام حتى استيقظ ، فعندها نزل المتنصر وقبل يد عمر ، وقال له : يا عمر قد عدلت فأمنت . . . بأبي والله من الكائنات تحفظه والسباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ، ثم حدثه بأمره واسلم على يديه .

(قال الواقدي) وكانت هذه الفعلة قبل نزول المسلمين على انطاكية .

حدثنا ابو محمد قال اخبرني ابي عن حسان عن السدي عن يحيى الواقدي عن شهر بن عباس البيروتي ان عمر حدثه عن نزول ابي عبيدة بالمسلمين على انطاكية . قال وعظ هرقل قومه بكنيسة القيسان واستحلفهم انهم لا ينهزمون او يموتوا عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك الى عسكره ، وقد رفعت الصليبان وقرات القسوس والرهبان وارتفع الضجيج من اهل الكفر والطغيان واصطفوا للقتال ، وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم وأوقفوا كل امير في مكانه ونشرت الرايات والاعلام وأشار ابو عبيدة الى ربيعة بن معمر الشاعر ، وكان لسنا فصيحاً لا يتكلم الا بالكلام المنظوم . فقال له : يا ربيعة فوق سهام لفظك ووعظك الى المجاهدين وحرض المسلمين على قتال المشركين قال فتقدم ربيعة امام الصفوف وكان جهوري الصوت يسمعه القريب والبعيد . فقال ايها الناس الى متى هذه المهلة فتأهبوا للحملة ، فهذه طيور الارواح قد عولت على فراق اقفاص الاشباح وقد ارتاحت الى بارئها واجابت صوت مناديتها وها هي تخاطبنا

بلسان اشارتها عن نطق عبارتها ما هذا الوقوف على بذل انفسكم وقد اشتراها مؤيدكم ؟ افركنتم الى حب الحياة الفانية والانفس الدانية ، وهذه اوقاتكم بالنصر مؤيدة وهمتكم عن طلب زينة الدنيا متعيدة والمواعظ الصادقة بكلام الحق مقيدة : اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، وهذه طوالع سعادتنا بالاقبال طالعة وشجرة آمالنا بالتأييد يانعة ، فله درهم فلقد ظهرت زهرة نجوم المحبة في افلاك راياتهم وتبلج فجر العشق في سماء سماتهم واشرقت شمس المعرفة في مشارق عشقهم ، فلما هموا بالحيلة بأجمعهم واصطفوا وقدموا هم النفوس في رضا الملك القدوس واستبقوا وزاحموا بعضهم بعضا ولم يرفقوا نودوا من صفاء اسرارهم - من المؤمنين رجال صدقوا - .

(قال الواقدي) رحمه الله حدثني زيد بن اسمعيل الصائغ عن جعفر بن عون عن عياش ابن ابان عن جابر بن اوس . قال كنت حاضرا في مصاف ابي عبيدة على انطاكية حين وعظنا بسجعه ربيعة بن معمر ، فكان اول من خرج من الروم للبراز شجاع الروم نسطاروس بن روبيل وهو كانه برج من حديد ، فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج اليه دامس ابو الهول مولى بني طريف فاتح قلعة حلب ، وهو يومئذ فارس غطريف فحملا على بعضهما ، فلما اشتعلت نار الحرب بينهما عثر جواد دامس فسقط على ظهره فانقض عليه نسطاروس واخذه اسيرا وقاده ذليلا ورجع الى الميادين ، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائي وكان يشبه خالدا في حملاته وخفته ، فلما برز . قلل قائل من الروم ممن شاهد قتال خالد في المواطن وعرفه هذا فارس الشام والمسلمين الذي فتح بلادنا فصار كل من في انطاكية ينظر اليه وهم يظنون انه خالد فازدحمت خيل المشركين من كثرة النظر اليه فقطعت حبال السراقات التي لنسطاروس وغيروا سريره فخاف الغلمان على انفسهم وسراقاته على ذلك واذا رآها على تلك الحالة قتلهم ولم يجدوا احدا يعينهم على رفع السراقة لان كل من في العسكر مشغول بالفرجة على نسطاروس مع خصمه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس ابي الهول ، وقالوا له نحن نحلك من وثاقتك وتعيننا على شيل عمود هذا السراقة ونعيدك الى الوثاق . فاذا جاء البطريق نشفع فيك فانه يخلي سبيلك . فقال نعم فحلوه من وثاقه ، فعندها قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحد بواحد فصرعهما فماتا فهجم على الثالث فقتله وفتح صندوقا من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها وركب من الطوالة جوادا من خيارها واخذ بيده قنطارية وسيفا ولثم وجهه وقصد عسكر المتنصرة ووقف الى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة ، وكان قدمه على عسكر المتنصرة وجبلة وولده وبنو عمه في موكب الملك .

(قال الواقدي) ولم يزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان الى ان كل الجوادان ولم يقدر احد منهما على صاحبه فافترقا وعاد نسطاروس الى سرادقاته

ليستريح فوجد السراق على الارض والفراشين قتلى ولم ير دامسا فعلم ان المصيبة من قبله فمضى الى الملك واعلمه بذلك ، فقال وحق المسيح ما هؤلاء العرب الا شياطين . قال وهرج العسكر بصنع ابي الهول ، فقال الملك هو الآن في عسكرنا وما رايناه خرج وما هو الا مختف في عسكر المنتصرة لانه من جنسهم ، فلما رأى دامس هرج عسكر الروم ، وان ذلك بسببه انتضى سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يفوث فرمى رأسه عن بدنه فبهتت المنتصرة من فعله وأمسك الله عنه أيديهم ودهشوا لذلك وأطلق جواده وطلب عسكر المسلمين ، فلما رأوه صاحوا بالتهليل والتكبير فأتى الى ابي عبيدة وأخبره بما وقع له مع القوم . فقال لا شلت يدك . قال وبلغ الخبر جبلة من قتل ابن عمه حازم ففضب وأتى الى هرقل وصقع له ، وقال يا عظيم الروم انا لا أقدر على الصبر ولا بد لنا من الحملة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجعلوا قدرهم ، فأراد الملك ان يأمرهم بالحملة ، واذا قد أقبلت عليه خيل تركض ، فقال لهم ما وراءكم ؟ . قالوا ايها الملك انه قد قدم الى نصرتك فلنطانونس بن سطانيوس بن ارمونيا صاحب المدائن ورومية الكبرى وباسم جده سميت ، وكان قد وضع فيها هيكلًا عظيمًا يسمى ابا سرفيا وكان به صورة من نحاس مطلية بالذهب الاحمر ولذلك الهيكل سبعة ابواب من الذهب على كل باب هيكل مدور على رأسه شخص آدمي وبيده عدة ألواح من الذهب وفي كل عام يعلق منها لوح على الهيكل تلقاء الشمس ثم ينظر كاهن ذلك الهيكل في ذلك اللوح فيعلم ما يجري في الاقليم المختص بذلك اللوح ، وكان كل لوح مختصا باقليم من الاقاليم السبعة وكذلك لكل هيكل من تلك السبعة هياكل ، فيعلم اهل رومية الكبرى ما يجري في العالم بما وضعه حكماءهم الاقدمون وفي وسط تلك السبعة هياكل قبة مثمثة على ثمانية عمد من نحاس أصفر مطلية بالذهب محوط به سور مرقط ببياض وفيه بابها الاعظم وعلى رأسها صورة من حجر لا يعلم ما هو ؟ بل الحجر اسود . فاذا كان استواء الزيتون في مشارق الارض ومغارها يسمعون من تلك الصور صوتا هائلا تكاد القلوب تتفطر منه ، فاذا كان الفد تأتي من آفاق الارض زارزيرها وكل زرزور حامل ثلاث زيتونات واحدة في منقاره واثنتان في رجله فيلقونها على رأس تلك الصورة فلا تزال كذلك حتى يمتلىء ذلك المكان العظيم . قال فيعصرون منه زيتهم وما يأكلون من العام الى العام وكان في داخل الهيكل الاعظم بيت مقفل لم يفتح منذ بنيت رومية ولما أراد فلنطانونس الملك النهوض الى نصره هرقل احتاج الى مال يصرفه على عسكره فأتى الى ذلك البيت المقفل وهم بفتحه ، فقال له عظماءه وعظماوس ، وهو القيم على امر الهياكل كلها : ايها الملك ان هذا البيت منذ أقفل تاريخه سبعمائة سنة وذلك من قبل ظهور المسيح بمائة سنة وسبعين ، وما أحد من اجدادك تعرض اليه ولا أحد ممن ولى امر هذه الكنيسة الا ويوصي على هذا البيت أن لا يفتح فلا تزال حكمة أسسها من كان قبلك من الحكماء والملوك ، وقد بنى هذه المدينة وأسس هذا الهيكل وهذا البيت ، وهو بيت جدك رسيوي بن قطاوس وبقي

في ملكه على ما بلغنا ثلثمائة وسبعين سنة ووصي كوصية أبيه وتولى عليه أحد أجدادك حتى وصل اليك هذا الملك ولك فيه مائة سنة فلا تزل حكمة أجدادك الذين أسسوها وطلاسم وضعوها . قال فأخذه اللجاج في فتحه ، فلما فتحه لم يجد فيه شيئاً إلا أنه رأى في البيت صورة القدس ومدن الشام وصفة ملوكهم وعددهم وفي آخرهم صورة ليطن وهو هرقل كأنه ينظر في اللوح مكتوب باليونانية : يا طالب العلم عليك بكثرة القراءة فإنه كلما تكرر مرور النكت على مسامع من يتعلمها كان ذلك أشد لثبوته وأحكم لتصريفه ، اذ العلوم كلها إنما تستخرج بالعقل والقياس ، وإنما يكون بكثرة الرياضة ، والعلم مطية التدبير ، والتدبير موضع العلم ، والعلم موضع العقل ، هذا هو المتمم لأشكال العلوم ، وقد رأينا في الحكم والأسرار الخفية أن صاحب الفمامة إذا خيمت على صفحة الأرض وحلت الضلالة خرج مصباح الهداية من أرض تهامة فيذهب بظلام الجهل المظلم للحس ويدعو الناس بدينه إلى توحيد الصانع وهو صاحب الجمل الأورق فيذهب بالاديان والملك ، يضيق لدعوته السهل والجبل ، فإذا غلب نوره على كل كثيف انتقل إلى العلم الروحاني وولى بعده رجل نحيف الصورة قلبه منور بنور الصدق يشيد ملته ويصدق شريعته وويل للشام مما يحل بها من الرجل الأحمق الداهب بملك قيصر وهو الرجل الكثيف صولته الربعة صورته العدل صفته والحق منقبتة جبته مرقعة وسيفه درته ، في أيامه تذهب الدول وتتحول وتضمحل وتزول ، وأوانه إذا فتح هذا البيت المصور بالحكمة المحفوظ بحفظ النعمة فطوبى لمن رسخت الحكمة في قلبه ، وأشرقت مصابيحها في لبه واتبع الحق وعرفه ، وجانب الباطل وخالفه . قال فلما قرأ فلنطانوس ما في اللوح أخذه العجب ، وقال لعطماوس قيم الهياكل : أيها الأب الشفيق ما تقول في هذه الحكمة ؟ قال أيها الملك وما عسى أن أقول في حكمة وضعتها العظماء وعلمت بها الحكماء وإنما العلوم غامضة يصل إليها الخبر الجوهري بنور العقل ، وإنما أرى أن دولة هرقل وهي عز دولتها وأنهدت أركان ملكه من أرض سوريا وانتقل ملك الروم إلى أرض أسطور يعني قسطنطينية وبذلك أخبر ميرايس الحكيم في كتابه العزيز الذي وضعه وسماه أسلاوس يعني جواهر الحكمة ، ومن جملة : إذا ظهر نور اليتيمة المصفاة من الأدناس من جبال ثاران تصفت الأذهان بنور حكيمته وانصرفت الظلمة المتكاثفة في سماء الجهل بقوة عزيمته ، ودعا الناس إلى لطيف دعوته وقادهم بأزمة لطافته فيعلو على الأفلاك ، فويل لأرض أيليا من صولة صاحبه المتوشح بوشاح الهيبة المتوج بتاج العقل ، صاحب فتوح الأرض ومذل ملوكها العدل فسطاطه والمرقعة لباسه ، وفي زمانه ينكسر الصليب وتخرج الهياكل وتندرج المذابح ويدوب ماء المعمودية فلا نجاة من صولته إلا باتباع شريعته وصاحبه . قال فلما سمع ذلك فلنطانوس من القيم على الهياكل كتم الأمر في نفسه وقال لا بد لي من النظر إلى العرب والمسير إليهم وإلى نصره الملك هرقل وقد وصل إلى كتاب البتريك وندبني إلى نصره دين المسيح فان تأخرت حرميني ، ثم أنه اختار من جيشه في رومية

ثلاثين الفا وهم الكرجية وولى في موضعه ولده استغليوس وهو مثلث النعمة واستخرج من بيت الحكمة رايات الاسكندر اليوناني ، وكانت منسوجة بالذهب واللؤلؤ التي نشرها يوم قتحت الواحات من ارض باليوس ، وكانت لا تنشر الا في يوم واحد في السنة ببيعة ايا صوفيا وهو يوم عيد الصليب والشعانيين . قال فلما رفعت على راس فلنطانوس سار حتى ورد انطاكية ونزل على باب هاوس ومعناه باب فارس ، قال وركب الملك هرقل في موكبه الى لقائه وضربت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصر وضربت النواقيس ووقعت ضجة عظيمة في جيوشهم وارتفعت اصواتهم وجاءت عيون المسلمين فاخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع ابو عبيدة كفه الى السماء ، وقال : اللهم ان اعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم فاستت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل اقدامهم وعسر ايامهم واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك في يوم الاحزاب : اللهم رد كيدهم في نحركم وانصرنا عليهم قال : وامنت المسلمون على دعائه .

(قال الواقدي) حدثنا ابراهيم بن العلاء عن ابي يوسف الكندي عن ابي جعفر الهارمي عن الربيع بن انس عن جعفر بن ميسرة قال : قال لي عمي لما قدم صاحب رومية بجنوده يخاف المسلمون ولكن ثبتهم الله وبعث ابو عبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال له يا صاحب رسول الله ان الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ ان تؤتي المسلمون من قبلك قال ففعل ذلك معاذ وسار الى جبلة واللاذقية فاحتوش اموالها ، واخذ غنائمها ووجد على باب جبلة عنان بن جرهيم الغساني ابن عم جبلة بن الايهم ومعه ألف دابة محملة برا وشعيرا لعسكر الكفر ، وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصيدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل الى ابيه ، فلما وصلت مدينة جبلة سلمها العرب المنتصرة لابن عم جبلة وعادوا فوقع بها معاذ (رض) فاخذها ورجع قافلا الى عسكر المسلمين ، فلما راوها رفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير فسأل هرقل عن ذلك فاخبروه بما وقع فغضب على اخذ الميرة التي تتقوت بها عسكر اعدائه . فقال لبطارقنا ما بقي بيننا وبين هؤلاء الا المصاف ويعطي الله النصر لمن يشاء ، ثم انه امر عساكره بالاهبة للقتال ثم انه ركب والى جانبه فلنطانوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعة اسكبادنيس وهي قلعة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصا وصاحب قونية وصاحب ماصر وصاحب اقصر وصاحب قيسارية الروم الاقصر وصاحب قوماط وصاحب انطرايه وصاحب طبرزند وجبلة ابن الايهم .

(قال الواقدي) واقبل يوقنا يرتب الصفوف في الحرب ، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق باصحابه اراد فلنطانوس ملك رومية ان يتقرب الى هرقل بمبارز العرب فصقع له على قربوس سرجه وقال : ايها الملك ما تركت ملكي واتيت الى خدمتك

من مائتي فرسخ الا حتى ارضي المسيح واخدمه بين يديك وان كل سنكره قد قاتلوا
وجاهدوا واريد ان ابرز في هذا اليوم الى هؤلاء المحمديين واشفي قراذك وفؤادي منهم
فاراد الملك ان يطيب قلبه . فقال له الزم مكانك ولا تخرق بحرمتك وحشمتك حشمة
الملوك فانت اقدم مني في المملكة فدع غيرك يكون لهذا الامر فما بلغ من شأن العرب ان
تخرج انت اليهم بنفسك . فقال فلنطانوس ايها الملك واي حشمة بقيت لنا مع هؤلاء
وقد أهملوا عزنا واذلوا أعز ديننا وللجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا ، اما علمت
ايها الملك انه من نظر الى الدنيا بعين المحبة جذبتة الشهوات الى القلو في محبتها والتعلق
بزخارفها ، فاذا فعل ذلك ركب غيم كثافه الجهل على صفحة صدره فمنعه ذلك عن
طلب معاده ، ومن سارع الى طاعة خالقه بترك شهواته ارتقى الى دار دائرة القدس في
محل الانس ، ولما علم القديم الازلي بركون انفسكم المحجوبة بحجاب الفعلة الى طلب
ما يفني سلط عليكم اضعف أمة قد اخرجتكم من دياركم وابعدتكم عن اوطانكم وما ذاك
الا لخلودكم الى الاهواء الجاذبة الى مهاويكم والى ادراك الممالك لانكم حكمتهم بغير الحق
واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق والجور في اخذ اموالهم وفساد
احوالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلاجل ذلك لم تنصروا ، ودارت دائرة السوء عليكم .
قال ثم تكلم صاحب الملك هرقل الكبير واسمه سروند وصاح عليه وقال له ايها السيد
لا تحمل على قلب الملك من كلامك ما لا يطيق في مثل هذه الساعة ، فقد وعظه من هو
اكبر منك فلم يسمع قوله . قال ففضب فلنطانوس من صياح الحاجب عليه وكنتم
امره الى الليل ، فلما مضى من الليل ربه طلب حجاب وخواصه ، وقال لهم ارضيتكم
ان يزعم علي حاجب هرقل ويوبخني بين الملوك وانتم تعلمون ان بيتي اعظم من بيته
ونسبه ادنى من نسبي وملكي اقدم من ملكه ؟ ، ولقد قال قسيس حكيم بلاد الذكر
المشهور بحكمته وهو الذي وضع المنار الاعظم في يوم كبير كان بين بلاد الجرامقة وبلاد
الانجار وهي مسيرة اثني عشر يوما ولا يصل الى ارضها الا بعد عناء كبير قاحتفر لها
بئرا ووضع في وسطها عمودا على رأس حجر يدور من صنعة حكمتها يسمع له من حدة
النداء من حوله ويرشح له بقدر ما يملأ ذلك الجرن العظيم ، فانه قال : لا تسع بقدمك
الى من يراك دونه فتصفر عنده واجعل عز نفسك في مقابلة كبرياء عجبه ، فان عز
النفوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه لانها تجلب عليك السوء من
قبل ذلك ، فان ذلك الاحسان لا يزكو الا عند ذوي الاصول فانه يندسج عند السفهاء
والارذال لا تصنع اليهم النصيحة ، فانك انت تطلب منفعتهم وهو يريد هوى نفسه
بأذيتك وقد جئنا من مائة فرسخ واكثر الى خدمة رجل يرى اننا قد قصدنا داره وتاج
عزه واننا نحن من جملة خدمه وان نور العقل المجوهر للحس يمنعني من اتباع الجهل
المظلم للحواس ، وان نفسي تأبى ذلك ، والعز محل جليل ومقام نبيل ، والذل وبيل
وصاحبه قليل ، وقد عولت ان أسير الى هؤلاء العرب واختبر ملتهم فانها هي الملة
الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق ، ومن كان عليها أمن في معاده من الهول الاكبر فما

انتم قائلون ؟ . قالوا ايها الملك وكيف تطيب نفسك بتروك دينك وملكك وعزك وتبيع هؤلاء وهم لا فضل لهم ولا عندهم حكمة . فقال فلنطانوس : اما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفي نفوسهم موطنها . لان نور توحيدهم صفى اذهانهم ونور ايمانهم ببركة صاحبهم المسمى في علوم الفيوب ، لان مغناطيس حكمته الربانية جذب جوهر عقولهم الى متابعتة والاقتداء بشريعته ، ومن اراد ان يلقي هالم عليين فلا يقعد على صفحة ارض الجهل : اما علمتم ان النور انور من الظلمة والموت نهار الحياة . قال فلما سمعوا قوله قالوا ايها الملك نحن ما نمنعك من عز دائم يخرجنا من الدل ومهابة الغلبة ، فاذا كنت تطلب بنا طريقا يؤدي الى البقاء ويذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفي الباطل فنحن لك وبين يديك . قال فخذوا على انفسكم فاذا كانت ليلة غد ركبنا كانا نطوف حول البيت نحرسه ونطلب جيش العرب . قال ففعلوا ذلك واخذ فلنطانوس في امره . قال ابن وهب وابن صالح عن ابي موسى الاشعري . قال : لما عزم ان يسير الى جيش المسلمين اتى اليه يوقنا برسالة الملك هرقل ، فلما ادى الرسالة وهم بالقيام قال له فلنطانوس من انت من الحجاب ؟ قال انا يوقنا صاحب حلب . قال وكيف تركت بلدك ؟ قال استولت عليها العرب وحدثه بحديثه . فقال فلنطانوس : وما الذي ظهر لك من هؤلاء العرب . قال ايها الملك اني دخلت في دينهم واطلعت على امرهم وكشف سرهم فرايت القوم لا يستمعون الى الباطل ولا يحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الظالم ويواسي غنيهم فقيرهم ، الامراء منهم في زي المساكين ، والعزيز والدليل عندهم سواء . فقال له فلنطانوس فاذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم فما منعك ان تقيم عندهم وبينهم ؟ فقال يوقنا منعني من ذلك صحة ديني وصحبة قومي لاني لم ار فراقهم .

قال فلنطانوس : ان النفوس الزكية الباقية اذا رأت الحق جذبتها تجاذب اليقين الى حضرة طلب الاخلاص من المعيشة الدميمة الى ان ترقى الى اعلى عليين . قال فخرج يوقنا وقد رسخ كلام فلنطانوس في قلبه ، فقال والله ما تكلم بشيء الا وهو منقوش على صفحة صدري وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الاسلام ، واقام يوقنا على قلق من ذلك حتى اقبل الليل فأتى الى فلنطانوس فرآه وهو على نية الركوب الى ما ذكرناه ، فلما وقف بين يديه صقع له . فقال له فلنطانوس بأي حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفي عن من اتبعه . فقال يوقنا ايها الملك ما معنى هذا الكلام الذي اشرت اليه ؟ فقال لو انك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلا غيرهم وانما انت طلبت نعيما يثول الى الزوال الى النكال . قال فسكت يوقنا وخرج من عنده وجعل يتجسس عليه ومضى ووقف على الطريق الذي يمضي الى المسلمين فركب فلنطانوس وخرج من سرادقه فوجد بني عمه قد اخذوا اهبتهم وهم اربعة آلاف فارس وقدموا عزيمهم وساروا ايدا

واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم ، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنا وبنو عمه المائتان . فقال يوقنا لفلنطانوس : ايها الملك عولت على ان تكبس المسلمين فقال لا والتقديم الازلي وانما انا قاصد اليهم وداخل في دينهم وملتهم واكون من جملتهم ، فمن نظر الى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذي يمنعك يا يوقنا مما نحن عولنا عليه ؟ . فقال يوقنا ايها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم انه حدثه بحديثه وانه عازم على ان يغدر بالروم فقبله فلنطانوس وفرح بمقالته وقال له كيف تقدر على ذلك وما ارى معك الا نفرا يسيرا . فقال ايها الملك ان في داخل بيتي مائتين من المسلمين من اكابر اصحاب رسول الله (ص) في مقام عشرين الفا من الروم ، ولقد رايت ان تعود انت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلا الى امير المسلمين يخبره بما نحن معولون عليه فاذا كان غدا تقف انت وجيشك حول الملك هرقل وادخل انا البلد واطلق المائتي اسير واعطيهم سلاحا ويحمل جيش العرب وتحمل انت وعسكرك على مركب هرقل وتقصده بنفسك فتقبض عليه ونكون قد جاهدت واسير انا ومن معي في داخل البلد فنملكها ان شاء الله تعالى ، وان اردت ان ترجع الى دار ملكك ويكون امرك مكتوما علينا فحول امر جيشك لمن تشق به من بني عمك . قال فلنطانوس ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا ، بل اذا قضى هذا الامر ونصر الاسلام قصدت مكة فاجج وازور قبر النبي (ص) ، ثم ارجع الى بيت المقدس فاقم فيه الى ان اموت ، فمن يذهب الى امير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عولنا عليه ؟ فقال له يوقنا : اعلم ان لهم عندنا عيونا وجواسيس ممن هو تحت ذمتهم وانا املهم بما قد وقع ، قال فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل واذا بشيخ قصد اليهما فتأمله يوقنا فاذا هو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله (ص) فسلم على يوقنا وعلى من معه ، وقال ليوقنا ان الامير ابا عبيدة يقول لك جزاك الله خيرا عن الاسلام وانه راي في المنام رسول الله (ص) واخبره بما كان من امر صاحب رومية وما تحدثتما به وما وقع له مع قومه وما عزمتم عليه وبشره بان الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر وقد تفتح انطاكية ويزول عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها .

(قال الواقدي) فتהל وجه فلنطانوس فرحا وازداد ايمانا وقال : الحمد لله الذي هدانا للاسلام والايمان .

(قال الواقدي) وذلك ان ابا عبيدة (رض) راي النبي (ص) في النوم وهو يقول يا ابا عبيدة ابشر برضوان الله ورحمته وغدا تفتح انطاكية صلحا وان صاحب رومية المدائن الكبرى قد جرى من امره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهما بالقرب منك فانفذ اليهما بنجاز الامر . قال فاستيقظ ابو عبيدة وقص رؤياه على خالد وانفذ عمرو بن أمية كما ذكرنا . قال فلما سمع فلنطانوس ذلك اقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال : اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، واشهد ان هذا

الدين هو الحق اليقين ، نم انهم عادوا وطافوا بجيس الملك كأنما يحرسون ، فبينما يوقنا قد ذهب بأصحابه من عند صاحب رومية وقد قوي عزمهم على ما ذكرنا من أمر كبسهم الملك وإذا بالحاجب قد لقيه والمشاعل بين يديه وقد خرج من انطاكية ومعه ضرار بن الازور ورفاعة بن زهير والمائتا أسير وقد عول على قتلهم وان يرمي غدا برؤوسهم الى المسلمين ، فلما سمع يوقنا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له أيها الحاجب الكبير أنت تعلم ان المصاف غدا واقع بيننا وبينهم فان أنتم قتلتم هؤلاء ورميت برؤوسهم الى المسلمين فانهم لا يقعون بأحد منا فيبقون عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في أمرهم الى أن نرى ما يؤول أمرهم اليه . قال فتركهم الحاجب عند يوقنا ومضى الى الملك وأخبره بما قال يوقنا . فقال له دعهم عند المستق فرجع اليه وقال له الملك يقول لك احتفظ عليهم فأمرهم لك فأخذهم يوقنا وسار بهم الى خيمته وصعب عليه اخراجهم من انطاكية لانه كان قد عول على أن يملك بهم البلد ، فلما حلوا في خيمته حلهم من الوثاق وسلم اليهم العدد وأخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل . فقال ضرار والله لارضين الرب غدا بجهادنا وكانت قد ختمت جراحاته لانه كان في الاسر ثمانية اشهر وفرقتم مع بني عمه .

(قال الواقدي) حدثنا أبو محمد عن سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أيوب عن عبدالله بن مسعود أن الذي أمر باخراج الاسرى لم يكن هرقل وانما كان مملوكه الخاص واسمه تاليس بن رينوس وكان قد البسه تاجه ومنطفته وكان أشبه الخلق به وقال له كن غدا مكاني فاني أريد أن أكيد العرب وأكمن خلفهم وما ذاك الا أنه رأى في نومه كأن شخصا قد نزل من السماء وقلبه عن سريره وكأن تاجه قد طار من على رأسه ، وكان شحشا يقول له قد قرب ما بعد وقد زال ملكك من سورية وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق ، وكان ذلك الشخص قد نفخ في عسكره فلو قد نارا فاستيقظ مرعوبا وفسر منامه على نفسه بزوال ملكه ، وكان قبل نزول العرب قد عبي خزائنه وجمع ما يخاف عليه من التحف ووضعها في المراكب من حيث لا يعلم بذلك أحد من دولته وعبي الزاد والماء ، ثم انه أرسل أهل بيته في تلك الليلة بعدما رأى في المنام ولم يدع من حريمه وأولاده وعياله أحدا وبعده أمر مملوكه تاليس بن رينوس بما أمره أن يفعله . قال فلما ركب تاليس فما كان من أمره الا أن قال للحاجب اخرج الاسارى واضرب رقابهم فأخرجهم وأخذهم يوقنا كما وصفنا . قال حدثنا ياسر عن سليمان بن عبد الواحد عن صفوان بن بشر عن عروة بن مذكور عن محمد بن علي عن عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصديق الناجي عن ابن سعد . قال ما خرج هرقل من انطاكية الا وهو مسلم وذلك أنه كتب الى عمر بن الخطاب في السر عن قومه أن بي صداعا لا يسكن فانفذ الي بدواء أتدواى به فأرسل اليه قلنسوة فكان اذا وضعها على

رأسه سكن صداعه وإذا رفعها عاد إليه فتعجب من ذلك وأمر بفتحها فإذا فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم . فقال هرقل ما أكرم هذا الاسم وأعزه حيث شفاني الله به وكانوا قد توارثوا هذه القلنسوة إلى أن وصلت إلى صاحب عمورية ، فلما كان يوم المعتصم ونزل عليها عرض للمعتصم صداع فأرسل إليه صاحب عمورية بالقلنسوة ، فلما وضعها على رأسه سكن ما به فأمر المعتصم بفتحها فإذا الرقعة ومكتوب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم .

(قال الواقدي) وأما ما كان من أمر تاليس ، فلما أصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواكب حول تاليس بن رينوس ، وكان كل من رآه يظن أنه هرقل ولا يشك فيه ودار بمواكبه عسكر فلنطانوس صاحب رومية وركب يوقنا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح ، فكان أول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف . قال وتبعه سعيد بن زيد وتبعه قيس بن هبيرة وتبعه ميسرة . وتبعه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذو الكلاع الحميري وأمثالهم وأطبق الناس بعضهم على بعض ، فلما اشتبكت الحرب هجم يوقنا ومن معه وحمل ضرار فله دره لقد أعطى السيف حقه وأخذ بثأره من الروم وكلما قتل واحدا صاح وأثارات أسر ضرار بن الأزور ، وكان قد قصد عسكر المنتصرة هو وأصحابه ورفاعة بن زهير يشجعهم ويوبخهم ويقول خدوا بشاركم ممن أسركم وأحملوا ، وإياكم أن تفشلوا وأعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها وزينت خورها وقصورها وأشرق بنيانها ومرح ولدانها وتجلى ديانها ، ثم صاح يا فتيان العرب أيكم يرغب في زواج الحور فإن يذل النفوس هي المهور ومن يريد عرسا في الجنان ويقوم في خدمته الولدان ، من يرغب فيما قال الملك الديان - متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان - أين من شهد بدرا وحنين مع سيد الكونين ، أين من يزيل عن قلبه حجاب الففلة والرين ؟ وافقوا قوما صارت همهم إلى دار الازل فأنخوا بباب من لم يزل محبوبهم ، فأراد الحق أن يوقفهم على منازلهم ليزيدوا في حسن أفعالهم فكشف عن سرائرهم فراوا دارا بناؤها النور قواعدها من الرحمة حيطانها من الذهب ملاطها المسك مأوها من الحيوان حصباؤها الدر والجوهر ترابها الكافور والعنبر سورها المجيد اللطيف ستورها الكرم أشجارها لا اله الا الله أغصانها محمد رسول الله ثمارها سبحان الله والحمد لله عرضها السموات والارض سقفها عرش الرحمن ، فلما كشف لهم عن هذه الاسرار اشتاقوا إلى سكنى الدار ، قيل لهم لن تصلوا إليها الا ببذل النفوس في رضا الملك القدوس ، ثم خلع عليهم خلع الاحسان وتوجههم بتيجان الرضوان ونشر على رؤوسهم رايات الففران مرسوم على طرازها بقلم السر المكنون - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون - لقد بذلوا النفوس في رضا القدوس .

(قال الواقدي) فبينما ضرار يحمل في الاعداء ويذيقهم شراب الردى وإذا هو

بفارس يطحطح الكتائب ويفرق المواكب ويصيح واثارات ضرار بن الازور فتأمله فاذا هو اخته خولة فنادها دارك يا بنت الازور انا والله اخوك فأقبلت لتسلم عليه . فقال لها اليك عني ما هذا وقت سلام ، وان قتال الكفر افضل من كلامك يا بنت الازور فاجعلي عنائك مع عنائي وسنائك مع سنائي وجاهدي في سبيل الله ، فان قتل احدنا فالملتقى في الحشر عند حوض سيد البشر ، فبينما هم في ذلك اذ نظر الى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت وكان السبب في ذلك ان صاحب رومية رحمه الله لما رأى الحرب قد اضرمت نيرانها وعلا دخانها حمل بأصحابه وقصد تاليس بن رينوس فقبض عليه وهو يظن انه هرقل فصاح الصائح ان الملك هرقل قد قبض عليه فلنطانوس ملك رومية وغدر به فولت الروم الادبار وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها الا بأجنادين واليرموك ، وقتل من العرب المنتصرة زهاء من اثني عشر الفا وطلب جبلة ولده فلم ير لهم خبرا فقبل انهم واكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل في المراكب ، وكان جملة من هرب من سادات المنتصرة مع جبلة وابنه خمسمائة من جملتهم ابن عمه قرظة وعروة بن واثق ومرهف بن واثق وهمام بن سالم وشيبان بن مرة . قال فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الافرنج . قال واخذ المسلمون ما كان من السراذقات والخيام والديباج والمتاع والخزائن واسروا ثلاثين الفا وقتلوا من الروم سبعين الفا وولت العرب المنتصرة منهزمين ، فمنهم من اخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية الى قسطنطين بن هرقل ، فلما وضعت الحرب اوزارها وخمدت نارها جمعوا الاموال والاثقال والاسرى بين يدي ابي عبيدة ، فلما نظر الى ذلك سجد لله شكرا وسلم المسلمون بعضهم على بعض ، وجاء ضرار واصحابه ويوقنا وفلنطانوس واصحابه وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم ، فلما وصل فلنطانوس قام اليه المسلمون وقال كبار الصحابة سمعنا نبينا (ص) يقول اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه . قال فنظر فلنطانوس الى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال هؤلاء والله القوم الذين بشر بهم عيسى عليه السلام ، قال فأسلم بنو عمه عن آخرهم وجاهدوا في الكفار الى ان فتحوا جميع الامصار وبعدها مضى فلنطانوس الى مكة فحج وزار قبر النبي (ص) المختار ، وسلم على عمر (رض) ، فلما رآه وثب اليه قائما وصافحه هو وجميع المسلمين وعاد الى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى اتاه اليقين .

(قال الواقدي) ونظر ابو عبيدة الى جيش انطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لا يحصون فقال اللهم اجعل لنا الى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحا مبينا . قال وكان على انطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس ، وكان جاهلا في رايه فعزم على القتال من داخل السور فاجتمع اكابر البلد الى البترك في الليل وقالوا له اخرج الى هؤلاء العرب وصالح بيننا وبينهم على ما تقدر عليه . قال فخرج البترك الى ابي عبيدة وحدثه في الصلح فأجابه الى ذلك ، فكان جملة ما صالح عليه اهل انطاكية ثلثمائة الف

مثقال من الذهب ، فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة احلف لنا انكم لا تغدرون بنا فان
مدينتكم مانعة كثيرة الجبال والوعر . فقال خالد ومن يحلفه ؟ فقال أبو عبيدة يوقنا .
قال فوضع يوقنا يده على رأس البترك فوق يده وقال قل والله والله والله أربعين مرة ،
والا قطعت زناري وكسرت صليبي ولعنتني الشمامسة والديرانيون وخلعت دين
النصرانية وذبحت الجمل في جرن ماء المعمودية ونجستها ببول مولود من أولاد اليهود
وقتل كل الشهود ، والا خرقت شدائد مريم وعصبت راسي ، والا ذبحت القسوس
وصبغت بدماهم ثوب عروس ، والا جعلت مريم زانية به ، والا جعلت في المذبح حيضة
يهودية ، والا اطفأت قناديل بيعة جرجيس وجعلت عزيزا في مقام كالوس ، والا تزوجت
يهودية طامثة لا تلقي ابدا والا غسلت اثوابي صبيحة يوم الجمعة وهدمت الكنائس
والبيع واحللت الاعياد والجمع ، والا عبدت اللاهوت وجحدت الناسوت ، والا اكلت
لحم الجمل يوم الشعانين ، والا صمت رمضان عاطشا وكنت للحم الرهبان ناهشا ،
والا صليت في ثياب اليهود وقلت ان عيسى دباغ الجلود اننا لا نفدر بكم ولا كنا الا معكم

(قال الواقدي) فعندها قام أبو عبيدة ودخل انطاكية وكان دخوله لخمسة ايام
مضين من شعبان سنة سبع عشرة من الهجرة فدخله وبين يديه اللواء الذي عقده له
أبو بكر الصديق (رض) وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق
ودخلها والقراء بين يديه يقرأون سورة الفتح ، فلم يزل سائرا حتى وصل الى باب
الجنان فنزل هناك وخط هناك مسجدا وأمر ببنائه وبه يعرف الى يومنا هذا .
قال ميسرة بن مسروق فنظرنا الى بلد رطب طيب الهواء كثير الماء والخيرات ، فاستطابه
المسلمون ووددنا لو اقمنا فيه شهرا لنستريح ، فما كنا ابو عبيدة فيه غير ثلاثة ايام ،
ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب (رض) : سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله
الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) واشكره على ما فتح علينا ورزقنا من الغنيمة
والنصر واعلمك يا امير المؤمنين ان الله عز وجل قد فتح على المسلمين كرسي النصرانية ،
مدينة انطاكية وكسر الله عسكرها ، ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل في البحر واني لم
اقم بها لطيب هوائها واني خشيت على المسلمين ان يغلب حب الدنيا على قلوبهم
فيقطعهم عن طاعة ربهم واني معول على المسير الى حلب واني منتظر امرك ، فان
امرتنى ان اسير الى داخل الدروب فعلت ، وان امرتنى بالمقام اقامت ، واعلم يا امير
المؤمنين ان العرب قد نظرت الى بنات الروم فدعتهم انفسهم الى التزوج فمنعتهم من
ذلك ، واني اخشى عليهم الفتنة الا من عصمه الله ، فعجل الي بامرك والسلام عليك
وعلى جميع المسلمين . وظوى الكتاب وختمه ، وقال : معاشر المسلمين من يسير بكتابي
هذا الى امير المؤمنين ؟ فاسرع بالاجابة زيد بن وهب مولى حمير بن سعيد مولى عمرو
بن عوف ، فقال انا ايها الامير اوصله ان شاء الله تعالى ، فقال أبو عبيدة يا زيد انت
لست مالك نفسك ، وانما انت مملوك ، فان اردت المسير فسل مولاك ان يأذن لك في

ذلك ، فأسرع زيد الى مولاه عمير فانكب على يديه يقبلهما فمنعه من ذلك ، وذلك ان عميرا كان رجلا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . ما يملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبغيره ومزادته وقصعته ومصحفه ، وكان الذي يصيبه من الفنائم لا بدخر منه ولا يأخذ الا ما يقوته ، وكان يفرق الباقي على قرابته وقومه ، فان فاض شيء يرسله الى عمر (رض) يفرقه على فقراء المسلمين المهاجرين والانصار . قال فلما أراد زيد ان يقبل يد سيده منعه ، وقال له ما الذي تريد ؟ . فقال يا مولاي تأذن لي ان اكون رسولا للمسلمين بشيرا الى عمر بن الخطاب (رض) . فقال عمير بن سعيد يريد ان تكون بشيرا للمسلمين وامنعك من ذلك . اني اذا لآثم ، امض فانت حر لوجه الله تعالى ، وارجو بعثتك ان يجيرني الله من النار .

قال ففرح زيد بذلك وعاد الى ابي عبيدة فأخبره ان ببركة كتابه صار حرا فسر ابو عبيدة وسار زيد على نجيب من نجب اليمن دفعه اليه وكان سابقا . قال فجعل زيد يطلب اقرب الطرق حتى قدم المدينة ودخلها ، واذا بها ضجة عظيمة ولاهلها ضجيج وهم يهرعون نحو البقيع وقباء ، فقلت لنفسي ان لهم امرا فتبعتهم لارى ما شأنهم وانا احسب انهم يريدون حربا فرايت رجلا فعرفته فسلمت عليه فعرفني ، وقال انت زيد ؟ قلت نعم . قال : الله اكبر ما وراءك يا زيد ؟ . قلت البشارة والفتنة والفتح . قلت ما فعل امير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟ . قال انه خارج يريد الحج ومعه زواج النبي (ص) يحج بهن والناس يشيعونه . قال زيد بن وهب : فأنخت بعيري وعقلته وأسرعت مهرولا حتى وقفت بين يدي عمر (رض) وهو يمشي راجلا ووراءه مولاه بقود بعيرا وقد رجاه بعباءة قطوانية وزاده وجفنته عليه ، والهوادج بين يديه سائرة ، وعن يمينه علي بن ابي طالب ، وعن يساره العباس ابن عبد المطلب ، ومن ورائه المهاجرون والانصار وهو يوصيهم بالمدينة . قال زيد بن وهب : فلما وقفت بين يديه ناديت : السلام عليك يا امير المؤمنين انا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد اتيتك بشيرا . قال عمر بشرك الله بخير فما بشارتك ؟ قلت هذا كتاب من عاملك ابي عبيدة بخبرك ان الله قد فتح على يديه انطاكية . قال فلما سمع عمر بذكر انطاكية وان الله فتحها خر لله ساجدا يمرغ خديه على التراب ، ثم انه رفع رأسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته من التراب ، وهو يقول : اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابغة ، ثم قال هات الكتاب رحمك الله فناولته اياه ، فلما قراه بكى ، فقال له علي كرم الله وجهه مم بكاؤك ؟ . قال مما صنع ابو عبيدة بالمسلمين وبما استعقب رايه في الموحدين ، ثم قال ان النفس لامارة بالسوء ودفع الكتاب الى علي فقراه على المسلمين الى آخره . قال زيد بن وهب : ثم رأيت عمر قد هدا من بكائه ، وقد زاد فرحه واقبل علي ، وقال يا زيد اذا عدت فأمعن النظر في اتيانها واعنا بها واحمد الله كثيرا ، فقلت يا امير المؤمنين ليس هذا اوانه . قال ثم جلس عمر على الارض ودعا بدواة وقرطاس

وكتب الى ابي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر الى عامله بالشام ابي عبيدة عامر ابن الجراح ، سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه واشكره على ما وهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفا معينا . واما قولك لم نقم بانطاكية لطيبها ، فان الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فقال - يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا - ، وقال - يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله - الآية فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله ، واما قولك انك منتظر أمري فالذي أمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فانك الشاهد وانا الغائب ، وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب وانت بخضرة عدوك وعيونك تأتيك بالاخبار ، فان رأيت أن دخولك الى الدروب بالمسلمين صواب فابعث اليهم بالسراية وادخل معهم الى بلادهم وضيق عليهم المسالك ، ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووف لهم بما تقدر ، واما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج ، فمن أحب ذلك فدعه ان لم يكن له أهل بالحجاز ، ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه فان ذلك أصون لفروجهم وأعف لنفوسهم ، وما تحتاج أن أوصيك في أمر فلنطانوس صاحب رومية أوسع عليه في النفقة وعلى من معه فانه قد فارق أهله وملكه وأمره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين . وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب ، وقال له انطلق رحمك الله واشرك عمر في ثوابك ، فأخذ زيد الكتاب وهم أن يسير فأمره أن يقف ، وقال له على رسلك حتى يزودك عمر من قوته ، ثم ان عمر اناخ راحلته وأخرج له تمرا وأعطاه صاع تمر وصاع سويق وقال يا زيد اعذر عمر فهذا ما أمكنه ، ثم ان عمر قبل رأس زيد بن وهب فبكى زيد ، وقال يا أمير المؤمنين أو بلغ من قدرتي أن تقبل رأسي وأنت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين ، وقد ختم الله بك الاربعين فبكى عمر وقال أرجو أن يفر الله لعمر بشهادتك . قال زيد بن وهب : فاستويت على كور ناقتي وهممت بالمسير فسمعتة يقول : اللهم احمله عليها بالسلامة واطو له البعيد وسهل له القريب انك على كل شيء قدير . قال زيد بن وهب : ففرحت بدعوة عمر (رض) وعلمت أن الله لا يرد دعوته اذ كان لربه طائعا ولنبيه تابعا ، فجعلت أسير والارض تطوي لي تحت اخفاف مطيتي فكنت والله في اليوم الثالث عند ابي عبيدة ، وقد رحل عز انطاكية وقد نزلت على حازم . قال زيد : فلما وصلت الى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الاصوات فسألت رجلا من أهل اليمن ما سبب ذلك ؟ . قال فرحا بما فتح الله على المسلمين . وهذا خالد قد أتى وكان قد ضرب على شاطئه الفرات وأغار بخيله ، وقد صالحه أهل منبج وبزاعة وبالس وأتى برجالهم وأموالهم وافتتحها صلحا ، وقد فتح منبج وبزاعة وبالس وقلعة نجم في العشر الاوسط من المحرم سنة ثمانى عشرة من الهجرة وصالحهم بعد رد أموالهم على مائة الف وخمسين

الف دينار واخذها بعد ان نزل صاحبهم جرفناس وسار بأمواله وعبيده وخيوله الى بلاد الروم وولى علي منبج عباد ابن رافع التميمي ، وعلى الجسر نجم بن مفرج ، وولى على بزاعة أوس بن خالد الرابي وعلى بالس بادر بن عوف الحميري وبنى له بها قلعة الى جانب بالس من الشرق وسماها باسمه وعاد خالد بالاموال والاثقال يوم قدور زيد بن وهب . قال فأتيت أبا عبيدة وهو جالس وخالد الى جانبه ، وقد قدم مال الصلح فأنحت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت الكتاب الى أبي عبيدة ففضه وقراه على المسلمين ، فلما سمعت المسلمون ما فيه . قال أبو عبيدة : معاشر المسلمين ان أمير المؤمنين قد جعل أمر الدخول الى الدروب الي ، وقال انت الشاهد وأنا الغائب وأنا لا افعل شيئاً الا برايكم فما تشيرون علي ان افعل رحمكم الله ؟ فلم يجبه أحد ، وأعاد القول ثانيا فلم يجبه أحد ، والله اعلم .

تم الجزء الاول

ويليه : الجزء الثاني : اوله ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فهرس الجزء الاول

صفحة	صفحة
١٠١ - فتح قنسرين	٥ - المقدمة
١٢٨ - نزول المسلمين على حمص	٧ - اقبال الجند
١٣٤ - فتح الرستن	١٧ - عمرو بن العاص في فلسطين
١٤٤ - وقعة اليرموك	٢٣ - خالد بن الوليد في الشام
١٨١ - نساء المسلمين في المعركة	٤١ - خولة بن الازور
٢١٣ - فتح مدينة بيت المقدس	٥٩ - معركة اجنادين
٢٢٩ - فتح مدينة حلب وقلاعها	٨٥ - تولية ابي عبيدة
٢٥٨ - فتح عزاز	٩٥ - معركة ضرار

فتوح الشام

- ٢ -

تأليف

أبي عبدالله محمد بن عمر الواقدي

دار الجيل

للطباعة والنشر والتوزيع والطباعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنا فتحنا لك فتحا مبينا

ذكر غزوة مرج القباطل داخل الدروب

فقال أبو عبيدة : معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله إياه وأخرج عدوكم منه بالذل والهوان ، وأورثكم أرضهم وديارهم : كما قال الله تعالى في كتابه العزيز ، فما نشيرون به عليّ ؟ أندخل في هذه الدروب وراء أعدائنا ؟ فلم يجبه أحد فأعاد الكلام . ثم قال : ما هذا السكوت أفسل بكم بعد التسجاعة ، أم كسل بعد النشاط ، أم قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب ، وإن الحسنات لكم كثيرة ، ولم يبق عليكم خطيئة فالرغبة إلى الله أن يعينكم على الجهاد ، فهو خير لكم من الدنيا وما فيها . قال فكان أول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسي ، فقال : أيها الأمير أنا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا ، وإنما بعضنا ينتظر بعضا أجلا وأدبا ، وأعلم أيها الأمير أنه ما لنا تجارة ولا عمل غير الجهاد في أعداء الله ، وها نحن لك وبين يديك ومنك الأمر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك ، وأما أنا فلا أملك إلا نفسي فوجهني حيث شئت تجدني طائعا ، فقال أبو عبيدة : معاشر المسلمين من له رأي وحضرته مشورة فليقلها ويظهر ما عنده ، فقال خالد أيها الأمير إن أقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا في ديننا وطلبهم هو الغنيمة ، والنصر من عند الله ، والذي أشر به أيها الأمير أن تبعث الجيوش في كل درب من هذه الدروب . فإن ذلك يوهن العدو وتقرب به أعين المسلمين . قال فجراه أبو عبيدة خيرا ، وقال يا أبا سلمان : إنني قد رأيت أن أعقد لميسرة عقدا وأسير معه رجلا لأنه هو أول من سارع إلى هذا الأمر وأشار به ، فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ما قرب من البلاد ويرجع فيخبرنا عن خبر البلاد فنعمل على حسب ما نرى . فقال خالد : هذا الصواب . فعقد لميسرة وانتخب له من القباطل

ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان ، وجعل من كل قبيلة نقيبا ، وجعل على العبيد دامسا أبا الهول ، قال فلبسوا أكمل السلاح وكل منهم يقول انه يلقي الكتيبة وحده ، وجعل أمير القوم ميسرة ، وقال أبو عبيدة : يا أبا الهول كن أنت بجماعتك في أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به . فانه مبارك الطلعة . فقال سمعا وطاعة . قال وجهز القوم . ثم ان خالدا قال : ايها الامير ارسل معهم أدلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيوناً على أعدائهم ، فطلب لهم من أهل حطب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم ، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة واحسن اليهم وطرح عنهم الجزية ، وقال لهم : في أي درب يكون دخول المسلمين في طلب العدو ؟ فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا في الدرب الاعظم من بلد قورص .

ثم انهم قالوا ايها الامير ان هذه الدروب ليست كمثل البلاد التي فتحتموها بل هي بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضائق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات ، فقال أهل اليمن سيروا أنتم أمامنا فانكم ترون منا عجبا ، فسار أبو الهول والمعاهدون أمامه ، وسار ميسرة في أعقابهم بعدما ودعوا الناس ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن والمسلمون بدعوا لهم بالنصر والسلامة . قال عطاء بن جعيدة : وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة حنداس فقطعناها،وعبرنا نحو الساجور وأتينا قورص فنزلنا فيها وبتنا ، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضا وعرة وأشجارا ومياها جارية ومضائق ليس للفرس فيها مجال ، فها لنا وحشة ذلك المكان اذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة . فقلت في خاطري ان طالت علينا هذه الاودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوهم والادلاء أمام المسلمين ، وقد تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد الا وترجل عن فرسه ، قال ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والادلاء يقولون لنا كونوا على يقظة ، فان أخذ عليكم المجاز هلكتم ، فلما كان في اليوم الرابع خرجنا الى أرض واسعة ، وكان دخولنا الى بلاد الروم في أول الصبف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا الى تلك الأرض وجدنا بردا كثيرا ونظرنا الى الثلج، وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا . قال وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه ثيابا تدفئه فحصل له من البرد فقال يا أبا الهول ما لي أراك ترتعد ؟ فقال أخذني البرد وليس معي ما يدفئني . قدفع اليه فروة فلبسها فدفعه . فقال كساك الله من ثياب الجنة .

(قال الواقدي) وساروا الى أن وصلوا الى أرض طيبة كثيرة

المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها . ثم انهم ساروا فلم يروا أحدا لان الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين . فلما كان في اليوم الخامس ونحن سائرون اذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون وإذا هي خالية بل سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعا ولا دافعا فعرفنا انهم تواروا عنا فصاح ميسرة ، وقال خذوا حذرکم . فان القوم قد انهزموا . فدخل الناس الى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع . قال سعيد بن عامر : فرأيت أبا الهول، وهو يحمل على مائه ثلاثة أكسية وقطعتين . قال فقلت له : يا أبا الهول ما هذا ؟ فقال استعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبدا . قال وأخذوا ما كان في القرية من طعام وعلوفة وساروا الى أن وصلوا الى مرج يقال له مرج القبائل ، وهو مرج واسع ، فأنبثت الخيل فيه يمينا وشمالا ونزل الجيش هناك ، وميسرة يراود نفسه في الرجوع الى حلب، وذلك أن أبا عبيدة كان قد أمره أن لا يبطيء عنه ، وأن يكون حذرا ، فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدو يدهمهمه ، اذ أقبل بعض الخيالة ومعه عالج يقوده ، فلما وصل الى ميسرة ، قال له : ما شأن هذا ومن أين اخذته ؟ فقال : اعلم أيها الامير اني سبقت اصحابي فرأيت شخصا يلوح مرة ويختفي مرة فأسرعت اليه . فاذا هو هذا فأتيتته وسقته اليك . قال فتقدم اليه رجل من المعاهدين فسأله فحدثه فأطال معه الكلام والناس سكوت ، فلما أطال ، قال ميسرة : ويلك ما الذي يقول هذا العالج ؟

فقال أيها الامير انه يقول : ان الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من انطاكية ووصل الى قسطنطينية قصدته الروح من كل مكان من المنهزمين وغيرهم ، وبلغه ان انطاكية قد فتحت صلحا وأنه قتل من كان فيها من المقاومة فصعب عليه وبكى ثم قال : « السلام عليك يا أرض سوريا الى يوم اللقاء » ، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلق كثير ، فقال لهم ابي أخاف من العرب أن ترسل في طلبنا . ثم أنه جهز ثلاثين ألفا مع ثلاثة بطارقة وأمرهم ان يحفظوا له الدروب . فقال له ميسرة : قل له كم بيننا وبينهم ؟ قال يقول لكم فرسخان . قال فلما سمع ذلك ميسرة أطرق الى الأرض لا يرد جوابا ولا يبدي خطابا . فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمي ، وكان من أبطال الموحدين وشجعانهم ، وكان له عمود من حديد ، وكان يقاتل به لا يقله في الحرب سواه وكان ذميم الخلقة ، فقال لميسرة بن مسروق : ما لي أراك أيها الامير مطرقا الى الأرض اطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقابل ألفا من الروم .

فقال والله يا عبد الله ما أطرقت خوفا ولا جزعا ، ولكن خوفا على

المسلمين أن يصابوا تحت رايتي وهي أول راية دخلت الدروب فيلومني عمر بن الخطاب ، وكل راع مسؤول عن رعيته . فقال المسلمون : والله ما نبالي بالموت ولا نفكر في الفوت لاننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومن يعلم أنه ينقل من دار الفناء الى دار البقاء فلا يبالي بما وصل اليه من الكفار ، ثم انه قال أيها الناس أترون أن نلقاهم في موضعنا هذا أو نسير اليهم ؟ فسألوا المعاهد ، وقالوا ان كان موضعهم أفسح من هذا رحنا اليهم . فقال ليس من هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان ، فان عولتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم ، وان عديتم الى ورائكم كان خيرا لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوكم . قال فعرض ميسرة على العليج الاسلام فأبى ، وكانوا كالجراد المنتشر . وكان قد مضى النهار فأضربت النيران . فلما أصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر ، فلما قرغ قام في الناس خطيبا ، فقال أيها الناس هذا يوم له ما بعده ، وان رايتكم هذه أول راية ف ضرب عنقه ، فبينما هم على ذلك اذ أشرفت عليهم الروم فنزلوا بازائهم ما لا يحصل لغيره . فقال قبج الله نلك البلاد ، فاذا كان هذا البرد عندهم في الصيف فكيف يكون في الشتاء . وجعل يرتعد فرآه ميسرة ، دخلت الدروب . واعلموا أن اخوانكم مطاولون لفعلكم ، واعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا (ص) « الجنة تحت ظلال السيوف » ولا تنظروا الى قلتكم وكثرة أعدائكم ، فقد قال تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . فقال المسلمون : اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقهم بنا ، وانا لنرجو من الله النصر عليهم . قال فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبي الهول وأخذوا على أنفسهم قتال عدوهم واستنصروا بربهم ، وهو يوصيهم ، وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمي وعلى الميسرة سعد بن أبي سعيد الحنفي وقدم العبيد مع أبي الهول فلم ينطق بكلمة وركب جيش الروم ومدوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصليبان وهم في عددهم وعديدهم ، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين ، وقال ان الباغي بغيه يرديه ، أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمت هذه الجبال ؟ وأما ساقتم الآجال وهنا ثلاثون ألف عنان ، وقد حلفوا بالصليبان أن كلا منهم لا ينهزم وان وقع ميتا ، فان اردتم أن نبقي عليكم فاستسلموا للأسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد . فخرج أبو الهول والراية بيده ، وقال له صدقت في قولك ان الباغي يرد به بغيه . وأما قولك انا نلقى اليكم بأيدينا لتبقوا علينا فأنت اذا باغ بقولك هذا اذ نطقت بغير تجربة منكم وها انا عبد من عبيد العرب لا قدر اى ولا قيمة عند ذوي الرتب فاقرب مني حتى أجندلك صريعا تخور في دمك ،

ثم أن دامسا همز حصانه إليه وطعنه فأرداه عن فرسه قتيلا . ثم جال على فلوله وهز راينه ، وقال الله وأكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر . ونظرت الروم الى أبي الهول ، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم ، ففضبوا لذلك فخرج اليه آخر فما تركه يقرب منه حتى طعنه في نحره فأخرج السنان من ظهره . ونظر الروم الى ذلك ، فقالوا : هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون . قال فلم يجسر أحد أن يخرج اليه فأغار عليهم وقتل من القلب واحدا ورجع . قال فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيول فحملت العبيد وحملت المسلمون والتفئ الجمعان . قال ميسرة : قاله درّ العبيد لقد أبلوا بلاء حسنا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون : « نحن عبيد لآباد الله وضربنا مثل الحريق في سبيل الله ونقتل من كفر بالله » ، قال : ولم يزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس في قبة الفلك وحمي عليهم الحر وافترق الجمعان . قال وإن المسلمين موقنون بالظفر والنصر ، والمشركون قد أيقنوا بالهلاك ، وقد قتل منهم خلق كثير وأسر من الروم تسعمائة وقتل منهم زهاء من ألف . فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه ، فقال ميسرة : « أن كان أبي الهول قد قتل أو أسر فقد أصبنا به والى الله تعالى أشكو ما أصبنا من فقد أبي الهول » ، وأسر من المسلمين عشرة . ثم إن ميسرة قال : من فيكم يكتشف لنا خبرهم ؟ وإذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا بأجمعهم فقاتلوا قتالا شديدا فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون الى أن يقتلوه أو يأسروه ، وكانت العرب في أربعة آلاف والروم في ثلاثين ألفا ، فعظم بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب ، فله درّ ميسرة بن مسروق العبسي ، لقد جاهد في الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادي : أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا أنها أقرب لاحدكم من رجوعه لاهله فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الادبار عنها ، فإن أصاب القوم منا فاني أخشى أن ذلك وهن بنا . ثم انه نادى أحطموا أجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة .

قال زيد بن وهب : فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه ، فلما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه . وسميت تلك الواقعة باسمين : وقعة مرج القبائل ووقعة الحطمة ، لاجل حطم أغمدة السيوف . قال : واقتتلوا حتى أن الرجل يقول ان سيفه ما بقى يقطع ، والمسلمون يبتهلون الى الله والكفار تعج بكلمة كفرهم . قال وإن المسلمين يطلبون الفرج من الله ، والسودان تقاتل قتال الموت ، وكان شعار العرب في ذلك اليوم النصر النصر ، وشعار السودان يا محمد يا محمد . قال ابن نابت : وكنت قد اخذني القلق على المسلمين ، ونحن

في ركب عظيم اذ سمعت في الروم ضجة هائلة واذا بهم يقاتلون اناسا من ورائهم وهم في وسط عسكريهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلا يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله . فقلت هذه اصوات الملائكة . فاتبعت الصوت ، فاذا هو صوت دامس ابي الهول ، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم الى ان خلصوا من بيتهم ، وسمعته يقول هذه الابيات :

يوثقني الاعداء في الحديد وناصرى وسيدي المبيد
مهلك عاد ويني ثمود أغاثني بعونه الشديد
محمد الطاهر الرشيد فحل عني القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد صلى عليه الناصر الحميد

قال فحملت المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا في بحر دم ، ووالله ما قتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلا بواحد أو باثنين ، وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله أبو الهول وأصحابه في وسط عسكر الكفر . فلما نظر ميسرة الى دامس اراد ان يترجل اليه فأقسم عليه ان لا يفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامسا الى صدره وقبله بين عينيه وقال له : كيف كان أمركم ؟ قال اعلم ايها الامير ان الروم كانوا قد تكاثروا على فرسي فقتلوه ووقعت فأخذوني أسيرا وجعلوني في الحديد وفعلوا بأصحابي مثلي وقد أسنا من أنفسنا ، فلما جن الليل رأيت رسول الله (ص) وهو يقول لا بأس عليك يا دامس اعلم ان منزلتي عند الله عظيمة ، ثم انه أمر يده الكريمة على الحديد فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا أبشروا بنصر الله فأنا نبيكم محمد رسول الله . وقال لي أقرئ عني ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيرا ، ثم غاب عني فانتبهت فوجدت الموكلين بنا نياما مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله (ص) فقتلنا منهم من قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا . قال فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير .

النجدة

(قال الواقدي) ثم ان بطريق الروم كان اسمه جارس ، فلما رأى ما قد حل بأصحابه قال وحق المسيح خاب ملك انتم حماته ، فان لم تقاتلوا بعزم وشدة والا قتلتم ، قال فتحالفوا ان لا ينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم ، فلما وثق منهم أمر ان تضرم النيران على شواهد الجبال

وامر ان ينفذ النفير الى انبلاد بأسرها ، قال فأتت اليه الروم من كل جانب فأتى اليه يشرون ألفا ، ولكن المسلمين لم يكثرثوا بذلك ، فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أول من صلاها داخل الدروب وأول راية دخلت كانت رايته ، فلما فرغ من صلاته قام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال : أيها الناس اثبتوا لما نزال بكم فالصبر عند نزول المصائب ، وهذه رحمة من الله لنا اذ نحن في صدور الاعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش ونحن لا نقاتل الا بنصر الله لنا وان الامير ابا عبيدة كان قد أمرني ان لا أبعد بكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن ابو عبيدة اننا نلاقي جيشا .

فقال له سعيد بن زيد : يا ميسرة ما الذي تريد بهذا الكلام ؟ ان كنت تريد انك تعرضنا فنحن أشوق الى لقاء الله من الظمان الى الماء البارد . فقال ميسرة ما أردت بذلك الا مشورتكم ، وقد رأيت ان ننفذ الى امير المسلمين رجلا نعلمه بما قد بلينا به وان مدد القوم يزيد قلعله ينجدنا باخواننا . فقال سعيد : نعم ما قد أشرت به . فدعا برجل من الاربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره ان يأخذ معه آخر وأن يسير الى ابي عبيدة ويعلمه ان نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد ، وقد نزلوا بازائنا وان يحدثه بما قد رأى . قال فسار المعاهد والرجل الى حلب واجهدا نفسيهما في السير في طرق يعرفانها الى أن وصلا جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدة السير والتعب . فأمروا ان يرش عليهما الماء ، فلما أفاقا قال لهما : ما وراءكما أهلكت الكتيبة ؟ قالوا : لا والله ولكن نفر عليهم العدو من كل مكان ... وأخبراه بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أسر ابو الهول وكبف خلص وما هم فيه ؟ فقلق ابو عبيدة عند ذلك وقام مسرعا واتى قبة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه ، فلما رآه قام اليه قائما وقال ته خيرا أيها الامير فأخذ بيده وسار به الى أن أتى رحله وقال للرجلين قوما فحدثا الامير بما عاينتما فحدثاه بما كن من أمر المسلمين . فقال خالد ان الله سبحانه وتعالى منذ نصرنا ما خذلنا فله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عز من قال « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » ، وقال : ان الله مع الصابرين . وأما خالد فقال أحبس على الجهاد في سبيل الله ولا أبخل على الله ورسوله فلعل الله أن ينجيني من النار ويرزقني الشهادة .

ثم أسرع الى خيمته ولبس لامته وقلنسوته المباركة وركب جواده فوقع النفير في الناس . قال فاقبلوا من كل جانب فلولوا ان منعهم ابو

عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم . فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بالفين آخرين . اخبرنا أحمد بن هشام عن عياض عن حدثه قال . لما سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومن معه ، رفع خالد يديه الى السماء وقال : اللهم اجعل لنا اليهم سبيلا واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد . وسار نحو الدروب . قال واما ميسرة ومن معه فانهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم اشد القتال الى أن يقبل الظلام فيفترقون ، وفي كل يوم يزيد عددهم ومددهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل ، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت بأذن الله تعالى .

(قال الواقدي) حدثنا عمر بن راشد عن الزبيدي قال : لما سار خالد ليلحق ميسرة وينجده الى داخل الدروب سجد أبو عبيدة سجدة اطال فيها ، وقال : اللهم اني أسألك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرفت فضله لانبيائك ورسلك الا طويت لهم البعيد وسهلت لهم كل صعب شديد وألحقتهم بأصحابهم باقريب يا مجيب . قال وميسرة ومن معه منتظرون من الله فرجا يأتيهم ونصراً ينزل عليهم . قال عبد الله بن الوليد الانصاري حدثني ثابت بن عجلان عن سليمان بن عامر الانصاري قال : كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان الى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحا . قال سليمان بن عامر فخرج يوما من الايام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجواهر ويده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المتقدمين على الثلاثين الفا . قال : فجعل يدعو الى البراز ويطمطم ، فقال ميسرة للترجمان : ما يقول هذا الاغلف ؟

قال : انه يذكر انه فارس شديد ويطلب شجعانكم وأبطالكم . فقال ميسرة : من يبرز اليه ؟ فأسرع اليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم . فقلنا انه من المتنصرة وقد عاد الى الاسلام . فجعل العليج يتكلم وهو يظن انه يفهم كلامه ، فلما رآه لا يبرز اليه حمل عليه وضربه بعموده فزاع النخعي عنها وعطلها عليه فوق العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه ، وسار النخعي على قدميه فناده ميسرة : يا أخا النخع ارجع ، فرجع القهقري والعلج يطلبه والنخعي راجل والعلج فارس ، فسار اليه عبد الله بن حذافة السهمي وصاح بالعلج فأدهشه ، فالتفت اليه وسار النخعي الى أن وصل عسكر المسلمين وحمل عبد الله بن حذافة على العليج وحمل العليج عليه

وصعب بينهما المجال صار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيئا والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقىا بضربتين فبادره عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه وأراد الفرس أن يرجع الى عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل اليه وأخذ سلبه ورجع الى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم معظما وعند الملك، قال فبرز بطريق آخر وقال : هذا صاحب الملك قد قتل ولا بد لي من اخذ ثأره من الذي قتله اما بقتله أو أسره وأبعث به الى الملك يصنع به ما يريد . ثم انه أتى البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح : معاشر العرب لا شك ان الله سيهلككم ببغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز اليّ قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره .

فلما سمع عبد الله بن حذافة همّ بالخروج فمنعه ميسرة شفقة عليه لاجل راحته . فانه قد تعب وأراد ميسرة أن يلقاه بنفسه . فقال عبد الله : يدعوني ايها الامير باسمي وأتخلف ، إني اذا لعاجز . فقال له ميسرة : انني أشفق عليك . فقال عبد الله : اتشفق عليّ من تعب الدنيا ولا تشفق عليّ من حر النار وعيش عاش فيه رسول الله (ص) لا يبرز اليه غيري . ثم برز اليه وتحتته فرس المقتول وما غير من لامته شيئا وبيده سيفه وحجفته ، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم أنه قاتله فما أمهله حتى نفر اليه وحمل عليه عبد الله كأنه جبل قد انهد من علو وتشبث به وجذبه فأخذه أسيرا وذهب به الى قومه وقال أوثقوه بالحديد وأحملوه على خيل البريد وأذهبوا به الى الملك في هذه الساعة . قال : ففعلوا ذلك وساروا به ورجع البطريق الى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد أن يخرج اليه ، فقال ميسرة ما يخرج لهذا اللعين غيري واستدعى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسلم الراية اليه ، وقال له : كن للراية حافظا حتى أخرج الى هذا اللعين . فان عدت أخذتها . وان قتلني فأجري على الله . فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة الى البطريق ، وهو يقول :

قد علم المهيمن الجبار بأن قلبي قد كوي بالنار
على الفتى القائم بالاسحار سيعلم العلج اخو الاشرار
اني منه آخذ بالشار

قال وحمل عليه وتجاولا طويلا وعظم الامر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الابصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر الى صاحبا وتدعو له ، ثم اكشفا وهما للفرق اقرب منهما للتقارب فقال العلج

لميسرة : بحق دينك ما هذه الراية التي طلعت من وراء عسكريكم فلم يلتفت الى كلامه بل قال له : « وما ذلك على الله بعزيز » . فقال وحق ديني ما فلت لك الا حقا . قال وهو يحلف كاذبا . فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتي الله بالفرج وينظر حفيق ما قاله اللعين فحمل البطريق عليه ويمكن يده منه ليأخذه أسيرا ، واذا قد طلعت راية خالد بن الوليد وهي مشرقة بالنور وهي في يد خالد ابن الوليد . وكبر المسلمون يدا واحدة فمن عظم تكبيرهم ارتجت يد العليج عن ميسرة والتفت البطريق ليرى ما الخبر ، فقبض عليه ميسرة وهم أن يقلعه فلم يقدر لانه كان مرفلا في السرج ، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهم فرفع سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده فحاد السيف عن ميسرة ووقع على يد العليج الشمال فقطعها وانتزع ميسرة وانثنى البطريق الى أصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه . وأما خالد فانه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له مع الروم وكيف أسروا ، عبدالله بن حذافة السهمي فتأسف خالد واسترجع ، وقال : يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لا يفارقهم خالد أو يخلصه ان شاء الله تعالى . وأقام خالد ب قيد ذلك اليوم ، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بأزائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد ، وقال : ما الذي تريد ؟

قال : ان كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع ما تريدون وترجعون . فقال خالد : ما نرجع الا على انفصال ، وأما الأسير فاذا لم تطلقوه طوعا أطلقتموه كرها . قال : انت أمير هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : ان رايت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لندير ما بيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم الى ما تريدون . قال له أجبتاكم الى ذلك . فرجع الشيخ الى قومه ، وقال البطريق قد أجابوا ووضع الحرب أوزارها ونزل خالد والمسلمون بأزائهم في أماكنهم وأضرمت الروم النيران وزادوا فيها وحملوا أثقالهم وساروا من أول الليل ، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم أثرا فعلموا أنهم قد ولسوا الادبار . فتأسف خالد على ما فاتته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة ، وقال له انها بلادهم وهي وعرّة وان الصواب رجوعنا الى عسكر المسلمين . قال : فأخذوا ما تركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبدالله بن حذافة السهمي وساروا حتى اتوا حلب فلقاهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم وأقبل ميسرة يحدثه بما جرى لهم وكيف أسر عبدالله بن حذافة ، فتأسف عليه ، وقال : اللهم اجعل له من أمره فرجا ومخرجا . وكتب الى عمر بن الخطاب يخبره بما وقع له من أمر السرية الى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره بأسر عبد الله بن حذافة وبعث الكتاب .

كتاب عمر

فلما وصل الى عمر بن الخطاب فرح بسلامة المسلمين واغتم على عبد الله بن حذافة واسره لانه كان يحبه حبا شديدا ، فقال : وعيش رسول الله لاكتبن الى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة ، فان لم يفعل والا سرت اليه بالجيش والعساكر . ثم انه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وصلى الله على نبيه محمد المؤيد ، من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين . اما بعد فاذا وصل اليك كتابي هذا فابعث الي بالاسير الذي عندك وهو عبد الله بن حذافة . فان فعلت ذلك رجوت لك الهداية ، وان ابيت بعثت اليك رجالا واي رجال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى . ثم انه طوى الكتاب وبعث به الى ابي عبيدة وامره ان ينفذه الى هرقل . فلما وصل الكتاب الى هرقل ، قال له : من اين كتابك هذا ؟ قال من امير المؤمنين امير العرب . فقراه ، فاذا هو من عند عمر بن الخطاب . قال فدعا بعبد الله بن حذافة اليه . قال عبد الله بن حذافة فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله ، فلما وقفت بين يديه ، قال لي : من أنت ؟

قلت : رجل من المسلمين من قريش . قال أنت من بيت نبيك ؟ قلت لا انا من بني عمه . قال : هل لك أن تتبع ديننا وأزوجه ابنة بطريق من بطارقتي وأجعلك من أخصائي ؟ فقلت : لا والله الذي لا اله الا هو ، لا فارقت دين الاسلام أبدا وما جاء به محمد عليه السلام . فقال : اجب الى ديننا ، وانا أعطيك المال كذا وكذا ، ومن الغلمان كذا وكذا ، ومن الجواري كذا وكذا . قال عبد الله : ثم دعا بسفط من الجوهر وقال : اذا دخلت في ديني أعطيتك اياه . فقلت لا والله لو أعطيتني ملكك وملك قومك ما فارقت دين الاسلام أبدا ولو أعطيتني كل ما تملكه . فقال : اذا لم ترجع الى ديني قتلتك شر قتلة . فقلت : لست أفعل ولو قطعني قطعا ولو أحرقتني بالنار لا رجعت عن ديني فاصنع ما أنت صانع . قال ففضب من كلامي ، وقال : اسجد لهذا الصليب سجدة وأخلي سبيلك . فقلت : لست أفعل . قال : فكل من لحم الخنزير وانا أطلقك . قلت : حاشى لله ما كنت بالذي أفعل . قال : فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وأطلقك . قلت : لا والله لا أشرب أبدا . قال : وحق ديني لتأكلن وتشربين قهرا . ثم أمر بي فجعلني في بيت ، وجعل عندي من ذلك اللحم والخمر ، وقال : اذا أضر به الجوع والظما أكل وشرب . وأغلقوا علي الأبواب .

قال : حدثنا عامر بن سهل عن يوسف بن عمران عن سفيان بن خالد عن يثيق به أن هرقل كان قد مات بعد هزيمته من انطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال أنه مات مسلماً والذي فعل ذلك يعبد الله بن حذافة ولده سطيوس وكانوا لقبوه باسم هرقل . قال : فلما كان في اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للفلماني : ما فعل؟ قالوا لم يأكل شيئاً ولم يشرب وهو على حاله . فقال له وزيره : أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف في قومه لا يرى الذل فكل ما تفعله في هذا الرجل تفعله المسلمون إذا قبضوا على ملك منا . قال فاستدعاه ، وقال له : ما فعلت باللحم ؟ قال : هو على حاله . فقال : ما منعك أن تأكل ؟ قال : فزعا من الله ورسوله ، وأيضا أنه قد حلّ لي بعد ثلاثة أيام ، ولكن ما أردت أن تشمت بي الملحدون . وورد كتاب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلما قرأه أعطى عبد الله مالا كثيرا وثيابا وأعطاه لؤلؤا كثيرا هدية لعمر بن الخطاب وبعث معه خيلا إلى أن أخرجوه من الدروب ووصل إلى حلب ولقي المسلمين ففرحوا به . ثم أنه سار إلى عمر بن الخطاب ، فلما رآه سجد لله شكرا وهنأه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل وأخرج له اللؤلؤ . فلما رآه عمر عرضه على التجار ، فقالت التجار له هذا ما يقوّم ومن جاءك به ، فقالت الصحابة خذه اليك يارك الله لك فيه ، فقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إذا كنتم قد جعلتموني منه في حل فكيف أصنع بمن غاب من المسلمين ومن في بطون الأمهات وأصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والأنصار والمجاهدين في سبيل الله ، ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة . ثم باعه وجعل ثمنه في بيت المال .

حدثنا عمر بن سالم عن عبد الله بن غانم عن أبي بكر بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ، قالوا جميعا أنه لما فتح أبو عبيدة انطاكية صلحا ، وكان من أمر سرية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه أقام أبو عبيدة بحلب ينتظر ما يأتي إليه من عمرو بن العاص لما مضى إلى قيسارية في خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة وبلال بن حمامة وربيع بن عامر .

ذكر فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضميرة الحارثي : كنت مع عمرو بن العاص حين سار إلى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام ، وكان البرد شديدا ونظرنا إلى كرومها ونظرت إلى كرومة في دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود . فقلت قبح الله هؤلاء الملاحين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم

بارد وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم . قال فسمعني رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب اليّ لاداعبه ، فقال لي : يا أخا العرب ان كنت تجسد البرد من العنب فاشرب من مائه . قال سبيع : ثم انه دلنا على دنّ كبير فيه خمر فشربنا أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكرًا فأخبر بذلك عمرو ابن العاص ، فكتب إلى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب اليه أبو عبيدة : أما بعد فمن شربها فحده عليها وأقم حدود الله كما أمر ، ولا تخش الومة لائم ، فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا بسبيع ابن ضمرة وأصحابه فجلداهم بالسياط . قال سبيع : فلما ضربني عمرو وأوجعني . قلت والله لأقتلن العليج الذي دلنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحدة ، فأخذت سيفي ودخلت القرية أطلب العليج فلما رأيته ووقعت عيني عليه أردت قتله فولى هاربا فتبعته وهو يقول : ما ذنبي عندك ؟ فقلت أنت دللتني على ما يغضب الله حتى أكلت الضرب ، فقال والله ما علمت أنه محرّم عليكم . قال فناداني عبادة بن الصامت وقال يا سبيع اباك أن تقتله فانه تحت الذمة . قال فتركته ومضى العليج وأتى اليّ بتين وجوز وزبيب وقال كل هذا بذاك فانه يدفئك . قال فأكلته فوجدته طيبا فقلت لحاك الله أين هذا كان قبل أن أضرب بالسياط ؟

(قال الواقدي) ثم ان عمرا ارنحل فنزل بموضع يقال له محلّ وبلغ الخبر فلسطين بن هرقل ، وكان قد أتاها المنهزمون من عسكر أبيه ولجئوا اليه واكتمل جيشه في ثمانين ألفا ، ثم انه دعا برجل من المتنصرة وقال له : امض واحزر لي عسكر العرب واكشف لي أخبارهم فوصل اليهم ولجأ إلى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار ، فجلس بينهم يسمع حديثهم ، فلما أراد القيام عثر في ذيله . فقال باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه ، فلما سمعوا قوله علموا أنه متنصر جاسوس للروم فوثبوا اليه وقتلوه ووقع الصائح في العسكر فسمع عمرو الضجة . فقال ما الخبر ؟ قيل ان قوما من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم فقتلوه . قال فغضب عمرو وطلبهم ، وقال ما حملكم على قتل الجاسوس ؟ وهلا أثبتتموني به لاستخبره ؟ فكم من عين تكون علينا ثم انها ترجع فتصير لنا ، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء . ثم انه نادى في جيشه : من وقع بغريب أو جاسوس فليأت به اليّ . قال وان فلسطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عال وحزرهم وعاد اليه فأخبره أنهم في خمسة آلاف ، الا انهم كالأسود الضنارية أو كالعقبان الكاسرة يروون الموت مغنما والحياة مغرما ، فلما سمع ذلك . قال وحق المسيح والقربان لا بد من قتالهم . فأما أن

أبلغ المراد أو أموت صبورا ، ثم انه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شدادا وولى عليهم بطريقا اسمه بكلاكون وهو صاحب جيشه : وقال سر بهؤلاء فأنت طليعة جيشي فسار من ساعته ، ثم انه عقد صليبا آخر وسلمه الى دمستق العسكر واسمه جرجيس بن باكور وضم اليه عشرة آلاف وقال له الحق بصاحبك فسار في أثره ، فلما كان في اليوم الثاني خرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمه فسطاس في قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف . قال بشار بن عوف : فبينما نحن نازلون اذ أشرف علينا البطريق الأول في عشرة آلاف فارس ، فلما قربوا منا رأيناهم فحزرناهم فاذا هم عشرة آلاف . قال ففرحنا وقلنا نحن خمسة الاف وعدونا في عشرة آلاف ، فكل رجل منا يقاتل اثنين ، فبينما نحن كذلك اذ أشرف علينا البطريق الثاني في عشرة آلاف ، فقال عمرو رضي الله عنه : اعلموا أن من أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدو ولو تزايد المدد ، فان الجهاد أوفر متجرا وأعز قدرا ، وأي فخر عند الله ممن يقتل في سبيل الله . وصفوف الكفار ويكون حيا عند الله يرتع في مروج الجنة ونبال من الله سابغ النعمة والمنة ، فقد قال الله تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم - الآية ، ولو أن الجاسوس الذي قتلتموه لم تعجلوا عليه ، لأخبرنا بمسير هذا الجيش اليها وكثرته ، وكنا قد أخذنا حذرنا على انفسنا واحمطنا ، ولكن أمر الله لا يرد . ثم انه جمع أبطال الموحدين ، وقال قد رأيت أن ننفذ الى أبي عبيدة نعلمه ليمدنا بالخييل والرجال ، فان هذا جيش عظيم . ثم قال : أيها الناس من يركب ويسير الى الأمير أبي عبيدة ويعلمه بما قد صرنا اليه ؟ فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبي سفيان . وهو محاصر قنسرين وأجره على الله .

المعارك في فلسطين

فقال له ربيعة بن عامر : يا عمرو الق بنا العدو وتوكل على الله ، فان الذي نصرنا في مواطن كثيرة ونحن في قلة ينصرنا اليوم على بقية الفوم الكافرين . قال فقنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة ، وقال والله لقد صدقت وأمر الناس بالتأهب الى لقاء العدو ، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار ، ومن في تلك الأرض من العمار ، وقالوا : الهنا ومولانا انا نسمع أصواتا موحدة غير مشرقة ولا ملحدة في التوحيد ، وقد أسمعنا كلام التوحيد وأرئنا وجوه أهل التمجيد والتحميد ، الهنا ما أطيب سماع ذكرك ومن لنا أن نوفي

بشكرك • قال و ضجعت الوحوش والسباع الى مولاهما شاكرة لما أعطاها وأولاهما ، ونادت عالم سرها ونجواها : يا من جمع الوحوش راضية بما آتاها أخرج رزقها ومرعاها تغدو خماسا وتروح بطانا الى باب سيدها ومولاهما ، يا من لو توارت دودة تحت الأرضين السبع لرآها ، ولو كانت في غلس الظلمات تحت اليم المظلم حبة لرزق عبد لبلغه اياها ، الهنا انا سمعنا أصوات توحيدك في هذه الأرض وما كنا عهدناها ، ونسمع آيات ما كنا عرفناها ولا سمعناها ، سبحانك يا من قدرته لا ننساها ويا من احسانه وفضله لا يتناهى • قال : فهتف بهم هاتف من الجوّ ، كم لله من مسبح في الجبال وذرأها تحت تخوم الأرض وثرأها ، وفي فلولات البراري المقفرات ، وفي قعور البحار الزاخرات وماها • قال فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا في الجوّ هـ هذه الأصوات ، وكأنما الأرض وأقطارها وأهلها تجاوبهم ، وكان فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر الى جيش العرب وقد زاد في عينيه أضعافا فقال: وحق ديني لما أشرفت على القوم ما كانوا في هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف ، وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم ، ولا شك أن الله قد أمدهم بالملائكة ، ولقد كان أبي هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب ، وليس جيشني هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمني لما لقيهم باليرموك في ألف ألف ، ولقد ندمت على خروجي اليهم ، ولكن سوف أدبر حيلة على هؤلاء العرب ، ثم انه دعا بقس عظيم القدر عند النضرائية ، وهو قس قيسارية وعالمها وقال له اركب الى هؤلاء القوم وكلمهم بالتي هي أحسن ، وقل لهم ان ابن الملك يسألكم أن تنفذوا اليه أفصحكم لسانا وأجراكم حنانا فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب •

قال فركب القس وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليبا من الجوهر وسار حتى وصل الى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه • فقال : يا معشر العرب اني رسول اليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم ان تنفذوا اليه أفصحكم لسانا وأجراكم حنانا ، وانه والله يزيد صلحكم ولا يبغى قتالكم ، لأنه عالم بدينه بصير بأموره ، وليس يحب سفك الدماء ولا فساد الصور ، فلا تبغوا علينا فالباغي مقهور والمبغى عليه منصور ، وقد قال لنا المسيح لا تقاتلوا الا من بغى عليكم ، وان الملك يريد أن تبعثوا اليه رجلا من أفصحكم لسانا وأجركم حنانا ، ثم سكت • قال فلما سمع عمرو كلامه • قال أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا الأغلف ، فمن منكم يبادر الى مرضاة الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع ملك الروم ؟

فتقدم اليه بلال بن حماسة مؤذن رسول الله (ص) ، وكان غلاما أسود طويلا من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من السواد ، عيناه جمرتان كأنهما العقيق جهوريّ الصوت . فقال يا عمرو أنا أسير اليه ، فقال يا بلال انك قد حطمتك الحزن على رسول الله (ص) ، وأيضا انك من جنس الحبش ولست من العرب ، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطب والفصاحة . فقال بلال بحق رسول الله (ص) الا تركتني أمضي اليه . فقال عمرو لقد أقسمت عليّ بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه في الخطاب وأنصح في الجواب وعظم شرائع الاسلام . فقال بلال ستجدني ان شاء الله حيث تريد . قال فخرج بلال نحوهم وهو كالنخلة السحوق عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة ، وكان من عظم خلقتة اذا نظر اليه أحد يهابه ، وكان لابسا يومئذ قميصا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف منقلدا بسيف ومزوده على عاتقه وبيده عصا . قال فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر اليه الفس أنكره ، وقال ان القوم قد هنا عليهم فانا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا الينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم . ثم قال أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك يريد أميرا منكم حتى يخاطبه بما يريد ، فقال بلال : أيها القس أنا بلال مولى رسول الله (ص) ومؤذنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك ، فقال له القس قف مكانك حتى أعلم الملك بأمرك وعاد القس الى الملك ، وقال له : أيها الملك انهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك ، وما ذاك الا استصغارا لأمرنا عندهم ، وهو عبد أسود . قال فأرسل له رجلا يقول له : أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك ايما يريد أميرا منكم حتى يخاطبه . فقال له بلال أيها الرجل أنا بلال بن حماسة مولى رسول الله (ص) ولست بعاجز عن جواب صاحبكم . فقال فلسطين ارجع اليهم وقل لهم بعث اليكم ملك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم ؟

فرجع الترجمان الى بلال وقال له يا أسود : ان الملك يقول لك : لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤتمر عليكم ، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عمرا بذلك . فقال لشرحبيل أنا أمضي اليه . فقال شرحبيل يا عبد الله اذا مضيت أنت فلن ندع المسلمين ؟ فقال عمرو الله لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه ، ولكن خذ الراية واخلفني في قومي . فان غدر الروم فالله الخليفة عليكم ، فوقف شرحبيل في مقام عمرو وأخذ الراية وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارها على رأسه كورا وأرخی لها عذبة ، وفي وسطه منطقة ، وقد تقلد سيفه واعنقل رمحه وسار

عمرو حتى وقف بازاء الترجمان الذي أرسله فلسطين بن هرقل ، فلما رآه الترجمان ضحك ، فقال مم تضحك يا أخا النصرانية ؟ قال من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح ، ما الذي تصنع به ولم تحمله معك وما نريد حربا ؟ فقال عمرو ان العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم ، وانما حملت السلاح معي استظهارا ، ولعلي أن ألقى عدواً فيكون ذلك حصنا من عدوي وأحامي- به عن نفسي . قال الترجمان : شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب . ثم عطف الترجمان الى فلسطين بن هرقل وأخبره بما سمع من مقالة عمرو بن العاص ، وقال أيها الملك ان أمير العرب قد قدم علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القس ، وقال : قل له يتقدم إلينا . قال فلما قدم أخذ الملك في التأهب لقدم عمرو عليه ، وزين ملكه واوقف القسوس عن يمينه وشماله والحجاب بين يديه ، وأقبل على النرجمان ، وقال له يا أخا العرب قد أذن لك الملك ، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيه الى أن وقف على قبة الملك ، ثم ترجل ومشت الحجاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحب به وبش في وجهه ، وقال مرحبا بأمر قومه ، وأراد أن يجلسه على السريز فامتنع عمرو من ذلك ، وقال بساط الله أظهر من بساطك ، لأن الله تعالى جعل الأرض بساطا وأباحنا إياها فنحن فيها سواء ، وما أريد أن أجلس الا على ما أباحه الله . ثم جلس على الأرض باركا وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر ، فقال له فلسطين ما أسمك ؟

قال اسمي عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظمين في القوم . قال فلسطين : انك لفتى كريم من عرب كرام ، يا عمرو ان كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة ، ونحن وأنتم في النسب متصلون ومن يكونون متصليين في النسب ما لهم يسفك بعضهم دم بعض ؟ ، فقال عمرو ان أنسابنا لاحقة من أبنينا ونسبتنا الأعلى هو دين الاسلام ، واذا كان أخوان قد اختلفا في الدين كان حلالا أن يقتل أحدهما أخاه ، وقد انقطع النسب بيننا ، وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحدا ونحن قريش الكرام وأنتم بنو الروم ؟ قال يا عمرو أليس أبونا آدم ثم نوحا ثم إبراهيم وعيصو بن اسحق واسحق أخو اسماعيل وكلاهما ولد إبراهيم ، ولا ينبغي للأخ أن يبغى على أخيه بل يجود عليه . فقال انك لصادق في قولك الذي قلت وان عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن اسمعيل صلوات الله عليه وان كان نوح عليه السلام قسم الأرض شيطا حين غضب على ولده حام وعلم أن أولاد حام لن يرضوا بها فاقتتلوا عليها زمانا، وهذه

الأرض التي أنتم فيها ليست لكم وهي أرض العمالقة من قبلكم ، لأن نوحاً عليه السلام قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافت وأعطى ولده ساما الشام وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت وإلى غسان ، والعرب كلهم ولد سام ، وهو قحطان وطسم وجديث وعملاق وهو أبو العمالقة . حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العاربة ، لأن لسانهم الذي جبلوا عليه العربية ، وأعطى حاماً الغرب والساحل وأعطى يافث ما بين المشرق والمغرب - وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين - ونريد أن نردّ هذه القسمة فنأخذ ما في أيديكم من العمارة والأنهار عوضاً عما نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر ، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل مكر . فقال له : صدقت في قولك إلا أن القسمة قد جرت ، فإن نقضتموها كنتم من الباغين علينا ، واعلم أنه ما حملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم إلا الجهد العظيم ، فقال له عمرو : أيها الملك . أما زعمت أن الجهد أخرجنا من بلادنا ، فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فاذا رأينا طعامكم واستحسنناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيدا ونستظل تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة النمار ، فإن منعمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش ، فما عندنا إلا رجالاً أشوق إلى حربكم من حبكم الحياة ، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة . قال وأفحهم فلسطين عن جوابه ، فرفع رأسه إلى قومه و قال إن هذا العربي صادق في قوله وحق الكنائس والقربان والمسيح والصلبان ما لنا معهم نبات . قال عمرو فوجدت إلى وعظهم سبيلا ، وفلت : معاشر الروم إن الله عز وجل قد قرّب عليكم ما كنتم تطلبون . إن كنتم تريدون بلدكم فادخلوا في ديننا وصدقوا قولنا ، فإن الدين عند الله الإسلام .

قال فلسطين : يا عمرو أنا لا نفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا . قال عمرو : فإن كرهت الإسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون . قال فلسطين لا أجيبك إلى ذلك ، لأن الروم لا تطاوعني إلى أداء الجزية ولقد قال لهم أبي ذلك من قبل فأرادوا قتله ، فقال هذا ما عندي من الأعذار ، ولقد حذرتكم ما استطعت ولم يبق بيننا حكم إلا السيف ، والله يعلم أنني دعوتكم إلى أمر فيه النجاة فعصيتموه كما عصى أبوكم عيصو عن أمه فخرج من الرحم قبل أخيه يعقوب ، وأنتم تزعمون أنكم أقرباؤنا في النسب ، وأنا لبراء إلى الله عز وجل منكم ومن قرابتكم إذ أنتم تكفرون بالرحيم ، أنتم من والد عيصو بن اسحق ، ونحن من ولد اسمعيل بن إبراهيم

عليه السلام ، وان الله تعالى اختار لنبينا خير الأنساب من لادن آدم الى أن أخرج من صلب أبيه عبد الله ، فجعل خير الناس من ولد اسماعيل فتكلم بالعربية وتكلم اسحق على لسان أبيه فولد اسمعيل العرب ، ثم جعل خير الناس كنانة ، ثم جعل خير العرب قريشا ، وخير قريش بني هاشم ، ثم جعل خير بني هاشم بني عبد المطلب ، وخير بني عبد المطلب نبينا محمد (ص) فبعثه رسولا واتخذاه نبيا وأهبط عليه جبريل بالوحي ، وقبال له طفت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر أفضل منك . قال فخضعت جوارح القوم حين ذكر رسول الله (ص) ووجلّت قلوبهم ودخلت الكهيبّة في قلب فلسطين حين سمع كلام عمرو . فقال صدقت في قولك ، كذلك الأنبياء تبعن من خير بيوت قومها على لسان ربها ، ثم قال له يا عمرو : وهل في أصحابك رجل بيّن كلامه سريع الجواب اذا سئل ؟ فقال له : اعلم اني والله أحب أن أمضي وآتيك بهم لتقف على صحة قلبي ، ثم وثب وسار الى عسكره وركب وأتى جيشه فحمدوا الله المسلمون على سلامته وباتوا يتجادثون ، فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب الى قتال عدوهم . قال : فأسرعوا الى ذلك واستتوا على متون خيولهم ، واصطفوا للحرب والقتال .

المعركة

(قال الواقدي) حدثنا عمرو بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لما كان يوم الحرب صف فلسطين جيشه ثلاثة صفوف وقدم المشاة وعدل الميمنة والميسرة ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش فنظر عمرو الى فلسطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب ، فهياً المسلمين ، وصفحهم صفوا واحدا وجعل في الميمنة العجاة من أصحاب رسول الله (ص) ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحي وصابوب بن جبابية الليثي عن شماله و كان أحد فرينان المسلمين ، فبينما الناس كذلك اذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن ، وفي عنقه صليب من الذهب فحمل حتى خطى برمحه من الميمنة الى الميسرة ومن الميسرة الى الميمنة ، ثم الى القلب ثم وقف بازاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوق سهمها ورمى رجلا من الميمنة فاثبت السهم فيه فجرحه ورمى آخر من الميسرة فقتله فنظر اليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين : ألا ترون هذا العلي اللعين وما يصنع بقوسه ؟ فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره ، فخرج اليه رجل من ثقيف وعليه بردة دنسة وبيده قوس عربية قد فوق سهمها ، وخرج الى العلي يريد أن يرمي به فنظر اليه العلي وليس عليه شيء من الحديد يستتره الا فروة دنسة ، وما معه من السلاح غير القوس فازدري به ولبسه

وأطلق سهمها من كبد قوسه فوق سهمه في صدره فاشتبك في الفروة ووقع غير مصيب ، وكان اللعين أرمى أهل زمانه . ما رمى قط شيئا الا نفذ فيه ، فغضب لذلك وهم أن يرميه بسهم تان فامتعت الثقفي نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبلة في حلق العلي فخرجت من قفاه ، فما تمالك العلي الا ان وقع صريعا فأسرع الثقفي الى جواده فاخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه ، وجعل بسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع . ثم أقبل الى عمرو فاعطاه اياه فنظرت الروم الى فعل الثقفي فغاضبهم ذلك ، وجعلوا ينسرون الى السماء فلعلمنا أنهم يقولون ان الملائكة تنصرنا قال ونظر فلسطين الى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة اخرج الى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفي عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنبه وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفيين فجعل يسأل القتال ، فلما نظر المسلمون اليه أقبلوا اليه بنظرون ولا يخرج اليه أحد .

فقال عمرو : معاشر العرب من يخرج اليه ويهب نفسه لله عز وجل فخرج اليه رجل من العرب وهو يقول أنا أكون ذلك . فقال عمرو بارك الله فيما تريد وحمل صاحب المسلمين عند ما خرج مصمما واستقبله البطريق وجعل يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف الى أن خرجت لهما ضربتان فسبقة البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل اليه من الضربة شيء وضربه الرجل ضربة في أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق الى ورائه ولم يصل اليه أذى ، فلما رجعت اليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحا فاحشا فألوى الى أصحابه فصاح به رجل من العرب من وهب نفسه لا يرجع من بين يدي عدوه . فقال الرجل أما كفاك هذه الضربة حتى توبخني ان الله ليلومني بأن ألقى بيدي الى التهلكة ثم شد جراحه وعظم عليه ما قال ابن عمه ، فلما خرج قال له ابن عمه الذي خاطبه ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك فقال ثقتي بالله أعظم من حديدك ، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول :

يقول لي عند الخروج للقا	دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علي سوء قد بغى وقد طغى	أقسمت بالله يميننا صادقا
لأتركن البيض فوق المرتقى	وأدخل الجنة دار الملتقى

قال فدعا له المسلمون بالنصر وقالوا اللهم أعطه ما تمنى وحمل على

البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل في جيش الروم فقتل رجلا وجتدل أبطالا ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى . فقال عمرو : هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه : اللهم أعطه ما تمنى .

البطريق قيديمون

(قال الواقدي) وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين الى قيسارية بعث معه بطريقا من البطارقة وكان اسمه قيديمون وكان من أفرس الروم ويقال انه خال فلسطين ، وقد كان لقي عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة قال وكان اللعين يحفظ سائر اللغات . فقال فلسطين : لا بد لي من قتال العرب . قال وخرج وعليه لامة وخرج مبارزا ، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهى من أعلاه الى أسفله وهو يلمع من بريق الجواهر ضج المسلمون بقول لا اله الا الله ، فلما وقف في الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب البراز فأقبل العرب يهرعون اليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ما عليه ، فقال عمرو ثواب الله خير لكم مما عليه فلا يخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك وان قتل مات في سبيل ما خرج اليه ، وقد سمعت رسول الله (ص) يقول « من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » قال فخرج غلام من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام ، وأخته تقول له : يا ابن أُمي جدّ بنا في السير لنصل الى الشام فنأكل من خيرهِ ونعمه .

فقال لها أخوها انما أذهب لأقاتل لمرضاة الله عزّ وجل . وقد سمعت معاذ بن جبل يقول : ان الشهداء عند ربهم يرزقون . فقالت له أخته كيف يرزقون وهم أموات . قال سمعت رسول الله (ص) يقول « ان الله تعالى يجعل ارواحهم في حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو ارواحهم في حواصل تلك الطيور ، فهو الرزق الذي جعله الله لهم » فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام الى القتال بعد ان ودع أمه وأخته وداع الموت وقال لهم نجتمع على حوض رسول الله (ص) ثم خرج وبيده قناة وهي موصولة كثيرة العقد وتحته جواد هجين .

فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه . قال فاشتبك السنان في درع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قنا الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع

الغلام ميتا رحمه الله وجال قيديمون على مصرعه ، ثم طلب البراز ، فخرج اليه ابن قثم فقتله البطريق ، فلما نظر الى ذلك شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه اقبل يعاتب نفسه ويقول : تتفرجين على قتل المسلمين ، ثم خرج والراية بيده التي عقدها له أبو بكر (رضي) يوم خروجه الى الشمام ، فلما رآه عمرو قد عول على الخروج قال : يا عبدالله اركز الراية لثلاثتك . فركزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت في حجر كأنها منه فنفاه بالنصر وخرج الى لقاء قيديمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوه فلما رآه البطريق ضحك من زيه وكان للملعون صوت عال وهو ضخم من الرجال وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق في ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلعا بضربتين ، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف في لامة البطريق شيئا وثبت السيف في بيضته وحملا قيديمون على شرحبيل فشججه ثم تجاولا على الجواديين . قال سعيد بن روح وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما هما في المعركة اذ نزل المطر كأفواه القرب قال فنزلا عن الجواديين وجالا يتصارعان في وسط الطين وذلك ان قيديمون حمل على شرحبيل فضرب يده في مرق بطنه فاقتلعه من الارض ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهم أن ينحروا فنادى شرحبيل يا غياث المستغيثين فما استتم كلامه حتى خرج اليه فارس من الروم وعليه لامة مذهب ومن تحته جواد من عتاق الخيل فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظن قيديمون أنه انما خرج ليعطيه جواده ويعينه ، فلما قرب منهما ترجل وأمال البطريق برجليه عن صدر شرحبيل وقال يا عبد الله قد أناك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائما ينظر اليه متعجبا من قوله وفعله ، وكان الفارس متلمشا ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع رأسه ، وقال يا عبد الله خذ سلبه . فقال شرحبيل والله ما رأيت أعجب من أمرك واني رأيتك جئت من عسكر الروم فقال أنا الشقي المبعد أنا طلحة ابن خويلد الذي ادعى النبوة بعد رسول الله (ص) وكذب على الله وزعم ان الوحي كان ينزل عليه من السماء ، فقلت له يا أخي - ان رحمة الله قريب من المحسنين ، وقد وسعت رحمته كل شيء - ومن تاب وأقلى وأتاب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه والنبي (ص) يقول « التوبة تمحو ما قبلها » أما علمت يا ابن خويلدان الله سبحانه وتعالى لما انزل على نبيه - ورخصتي وسعت كل شيء - طمع فيها كل شيء حتى ابليس فلما نزل قوله تعالى - فسأكتبها للدين يتقون ويؤتون الزكاة - قالت اليهود نحن نؤتي الزكاة ونتصدق ، فلما نزل قوله تعالى - والذين هم بآياتنا يؤمنون - قالت اليهود نحن مؤمنون بما انزل الله في الصحف

والتوراة فأراد الله أن يعلمهم انها خاصة بأمة محمد (ص) بقوله - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي - . فقال طلحة بن خويلد مالي وجه أرجع الى الاسلام وهم أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له: يا طلحة لست أدعك تمضي ، بل ترجع معي الى العسكر قال ما يمنعني من المسير معك الا اللفظ الغليظ خالد بن الوليد ، واني أخاف أن يقتلني ، فقلت يا أخي انه ليس معنا وهذا الجيش لعمر بن العاص قال فرجع معي ، فلما قربنا من المسلمين تبادروا إلينا وقالوا يا شرحبيل من هذا الرجل معك ؟ فلقد صنع معك جميلا قال ولم يعرفوه ، لانه كان متلما بفضل عمامته . فقلت هذا طلحة بن خويلد الذي ادعى النبوة فقالوا أو تاب ورجع الى الله ؟ فقال أنا تائب الى الله سبحانه وتعالى . قال شرحبيل فاتيت به الى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش في وجهه ورحب به .

قال حدثنا حسان بن عمر لرباعي عن جده ان طلحة بن خويلد لما ادعى النبوة وجرى له ما جرى من الحرب مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وسمع ان خالدا قتل مسيلمة الكذاب وقتل الاسود العنسي أيضا لانه قال انه نبي فخاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته للشام واستجار برجل من آل كلب فأجاره الكلبي وأنزله في داره ، وكان الكلبي مؤمنا وبقي عنده مدة أيام الى أن استخبره عن حاله فحدثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوة فغضب الكلبي لكلامه وطرده من جواره فأقام طلحة بالشام ، وقد تاب من أمره ، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد قبض قال ذهب من جرئت السيف في وجهه فمن ولي بعده قالوا عمر بن الخطاب ، قال : اللفظ الغليظ . . . وهاب أن يمضي اليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله ، فقصد قيسارية ليركب في المراكب ويطرح نفسه في بعض جزائر البحر ، فلما نظر الى جيش فلسطين قد خرج الى قتال العرب قال أسير مع هذا الجيش فلعلني انكب نكبة وأغسل بها سيئا من أوزاري وتكون لي قربة الى الله تعالى والى المسلمين ، فلما نظر شرحبيل في عين الهلكة قال لا صبر لي عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه ، فلما وقف بين يدي عمرو بن العاص شكره وبشره بقبول التوبة . فقال يا عمرو اني أخاف من خالد بن الوليد أن يراني بالشام فيقتلني . فقال عمرو فاني أشير اليك بشيء تصنعه وتؤمن به على نفسك في الدنيا والآخرة . قال وما هو ؟

قال : أكتب معك كتابا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به الى عمر ابن الخطاب وتدفعه اليه وأظهر التوبة فانه يقبلها وسيندبك الى الفتوح

وفنال الروم فتمحو عنك ما سلف من خطاياك فأجابه طلحة الى ذلك فكتب له عمرو كتابا الى عمر بن الخطاب رضي الآ عنه بما صنع وأخذه طلحة ومنسى به الى مدينة رسول الله (ص) فلم يجد عمر في المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردھا فوجد عمر متعلقا بأستار الكعبة فتعلق معه وقال يا أمير المؤمنين اني تأئب الى الله عز وجل وحق رب هذا البيت مما كان مني . قال عمر من انت ؟ قال أنا طلحة ابن خويلد . قال فنفر عمر عنه وقال :

— يا ويلك ان أنا عفوت عنك فكيف الامر غدا بين يدي الله عز وجل بدم بن محصن الاسدي . قال طلحة : يا أمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدي وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لي بما عملته . قال عمر وما عملت فأخرج له كتاب عمرو بن العاص ، فلما قرأه عمر وفهم ما فيه فرح به وقال أبشر فان الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع الى المدينة فأقام معه أباما ، فلما رجع عمر الى المدينة وجه به الى قتال أهل فارس .

قال الواقدي رجعنا الى الحديث . قال لما قتل البطريق قيديمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع الى عمرو وكان المطر شديدا فقطع الناس القتال ولحق الناس الاذى لان أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت والتجئوا الى الجابية وتستروا بدورها وكان من رحمة الله بالمسلمين أن وقع في قلب فلسطين الفزع والرعب لما قتل قيديمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشااور أصحابه في الرجوع الى قيسارية وقال : يا معاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ما تبنت لهؤلاء العرب ، وان أبي قد ولى الى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقي غير هذا الساحل ، واني أخاف أن ندهي من قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام ههنا فأجابوه الى ذلك ، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل . قال سعيد بن جابر الاوسى : وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله عز وجل . قال فلما كان في اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نر لهم أثرا ، فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم فكتب عمرو بذلك الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمي الى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فيا صاحب رسول الله (ص) ، فان فلسطين بن هرقل قد أخرج الى لقائنا ثمانين ألفا من الروم وكان لقائنا معهم على موضع يقال له نخل وأخذ شرحبيل ابن حسنة وكان الذي ملك أسره قيديمون ابن خالة هرقل ، ثم خلصه الله على يد طلحة بن خويلد الاسدي وقتل قيديمون ابن خالة هرقل ، ثم وجهته بكتاب الى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين ، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته .

وبعث الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمي ، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح
بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال : اذا قرأت كتابي فانزل على قيسارية
وأنا في أنر الكتاب معوّل على السير الى صور وعكاء وطرابلس والسلام .
ثم سلم الكتاب الى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع .

ذكر فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

قال وعوّل أبو عبيدة على النهوض الى الساحل ، فقام اليه عبدالله يوقنا
وقال ايها الامير اعلم أن الله عز وجل قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين واني
أريد أن أسير قبلك الى الساحل لعلني أفوز من القوم بغزوة . فقال يا عبدالله
ان أنت عملت شيئاً يقرّبك الى الله تجده بين يديك فافعل فوثب يوقنا قائماً
وأخذ أصحابه وكان قد انضاف اليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا الى
الاسلام وكانوا أربعة آلاف ، وفي عسكر العرب أبضا ممن أسلم من البطارقة
ما يزيد عن ثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له جرفاس .
ولما انهزم فلسطين الى قيسارية وتحصن بها بعث
الى أهل طرابلس ان يبعثوا له بنجدة فبعثوا له بثلاثة آلاف فارس
قال وساروا يطلبون قيسارية ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا في مرج ليعلقوا
على خيولهم ، فبينما هم كذلك اذ أشرف عليهم يوقنا وأصحابه وكان قد صحبهم
فلنطانوس صاحب رومية وأصحابه وكانوا معوّلين على زيارة بيت المقدس
والمقام بها ، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيهم ما غيروا منه شيئاً ورآهم
جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم ، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحب بهم
وقال من أنتم قالوا نحن الذين لجأنا الى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا
أنهم على شيء فاذا هم طغاة لا دين لهم فهربنا بديننا ونحن أصحاب حلب
وقنسرين وعزاز ودارم وانطاكية ونحن قاصدون الى الملك هرقل لنكون في
جنابه ، فلما سمع جرفاس من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم وقال انزلوا
عندنا كي تستريحوا ساعة من التعب ، فلا شك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت
أنفسكم من العرب قال يوقنا أين انتم سائرون ؟ قال بعث الينا فلسطين
لنكون في طرابلس فقال يوقنا : تيقظوا لانفسكم فان أمير العرب أبا عبيدة
تركناه على نية القدوم الى الساحل . فقال جرفاس وماذا ينفع حذرنا ودولتنا
قد اضمحلت وأيامنا قد ولت ولست نرى الصليب يغني عن أهله شيئاً .

قال الواقدي : فنزلوا عندهم ساعة وقدموا لهم من أزوادهم فأكلوا ثم
ركبوا وهم جرفاس أن يركب لركوبهم . فقال يوقنا اشتغل بأصحابك
والبسهم أفخر نياهم ، فان ذلك مما يظهر الرعب في قلوب أعدائكم .
قال الواقدي : حدثني سليم بن عامر عن نوفل بن عبدالله عن جرير بن
البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال ما دخل يوقنا الى ساحل البحر حتى

أتفن الحيلة وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم من بني عمه يرعون ابلهم وكانوا في مائتي بيت من العرب فأغار عليهم يوقنا وأخذهم وشدهم كنافا ودخل بهم الى بلاد الساحل ، فلما جنّ الليل جمعهم اليه وقال لا تظنوا اني رجعت عن الاسلام وانما فعلت بكم هذا كي تسمع الروم بسواحلها اني غدرت بالعرب وأخذتهم ؟ قال فاطمأنت العرب الى كلامه وقالوا له ان كنت تريد اقامة دين الله فالله ينصرك وبالاعداء يظفرك . قال ووكل يوقنا رجالا تسوق الاموال وانما اطمأن جرفاس وأصحابه الى يوقنا لما رأى الاسرى من العرب والجمال والانعام ، فلما ركب يوقنا وأصحابه ورأى أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمن في الليل على طريق القوم . قال وان جرفاس فرق خزائنه النبي كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جنّ الليل وأكلت الخيل عليقتها ، ثم ركبوا واستقاموا على الطريق ، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنا وأصحابه وداروا بهم ولم بمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذا بالكف وانتشرت الخيل في تلك الارض لثلا يكون قد انفلت من الروم أحد ، فلما حصلوا في قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه ، فقال الحرث اني أرى من الرأي أن تتركونا على حالنا فان ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدو فانكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل الافتحة الله لكم . قال يوقنا هذا رأي صحيح ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى وكمن ألفين من أصحابه وأصحاب فلنطانوس مع الأسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال اذا جاءكم رسلي فاقدموا ، ثم ألبس أصحابه زي الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كل من في البلد الى لقاءهم كان كتاب فلسطين قد وصل اليهم اني قد بعثت اليكم بثلاثة آلاف فارس مع جرفاس بن صليبا ودخل يوقنا مع أصحابه حتى استقر قراره في دار الامارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم ، فلما حصلوا عنده أمر بهم وقبض عليهم وقال : يا أهل طرابلس ان الله سبحانه قد نصر الاسلام وأهله وقد كنا في عيش مظلّم نسجد للصليبان ونعظم الصور والفريسان ونجعل لله زوجة وولدا حتى بعث لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيهم (ص) وهو النبي المبعوث الذي ذكره الله في التوراة وبشر به عيسى المسيح وان الاسلام حق وقوله الصدق يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينطقون

بالحق ويتبعون الصدق ويوحّدون الله وينزهونه عن الصاحبة والولد ويجاهدون في سبيله وهو الذي أمر به أنبياءه ورسله فاما أن ترجعوا الى دين الاسلام أو تؤدوا الجزية والا بعثتكم عبيدا للعرب ، وهذا ما عندي والسلام .

قال فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنا اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك في الطريق . فقالوا أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به ، فمنهم من أسلم ومنهم رضي بالجزية وعدل يوقنا فيهم وبعث الى أصحاب الكمين فحلوا الاسرى فعرض عليهم الاسلام فأبوا فأمر بحبسهم وبعث الى أبي عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادي بني الاحمر وقال يا عبدالله كن للامير مبشرا بهذا الفتح . قال سأفعل ذلك ان شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل الى أبي عبيدة وسلم عليه وناولته الكتاب ، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم : ألم تستأذني أن تسير أنت وبنو عمك الى وادي بني الاحمر فمن أوصلك الى طرابلس ؟ قال أوصلني القضاء والقدر ، وذلك أن يوقنا أغار علينا وأخذنا أسرى . . . وحديثه بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة: وقال اللهم ثبتهم وأيدهم بنصرك . .

قال حدثني عامر بن أوس قال اخبرني ابن سالم قال حدثني موسى بن مالك . قال ان عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية ، وأما ما كان من أمر يوقنا فانه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الابواب وقال لا تدعو أحدا يخرج من الابواب وكان في المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع . قال وبعد أيام جاءت مراكب كثيرة زهاء من خمسين مركبا ، فتركهم يوقنا حتى نزل أكثرهم الى المدينة فأمر بهم اليه فاستخبرهم عن حالهم وقال من أين جئتم ؟ قالوا جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة أقریطش وقالوا معنا العدد والسلاح مضروبة لملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال اني أريد أن أسير معكم ، ثم أمر بهم الى دار الضيافة وبعث الى قواد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السمط ، فلما أكلوا قال اني أريد أن أسير اليكم الزاد والعلوفة وعدة السلاح الى بخدمة الملك ولكن تقيمون عندي ثلاثة أيام . فقالوا : أيها البطريق انا على عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى اذعنوا له .

فقال : أريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا في المدينة ليطمئن قلبي بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كل من في المراكب وما بقي في المراكب الا ثلاثة رجال ، فلما دبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان

الليل سلم طرابلس لبني عمه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمر المراكب
برجاله وهم بالصعود اليها واذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد
رضي الله تعالى عنه في ألف فارس من أصحابه ، فلما رأهم يوقنا سجد لله
شكرا وسلم على خالد بن الوليد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وما قد
عزم عليه فقاتل نصر الله وأيدك ، ثم ان يوقنا ركب من ليلته وسار وكان على
سور دمشق جيش فلسطين وهو أرمويل بن نشطة ومعه أربعة آلاف فما أصبح
يوقنا الا وهو في مدينة صور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف
الدمستق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحرالية . فقال هؤلاء أهل قبرص
وجزيرة اقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية في
خدمة الملك ، ففرح أهل صور بذلك وأمرهم بالنزول فنزل يوقنا وأصحابه
وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وكان قد استخلصهم لنفسه فصنع لهم
الدمستق طعاما ومد لهم سمطا عظيما وأحضر لقوادهم الخلع ويوقنا ينتظر
الليل حتى يثور بأصحابه ، وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل كما ذكرنا
ولترك الباقي في المراكب ، وقال ان لم يتم لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا
من مراكبهم وأنفذ الى خالد وأخبره بالقصة .

قال الواقدي : ما سمع بأعجب من هذه القصة ، ولقد حدثني ابن مزاحم
عن الارقط بن عامر عن عمار بن ياسر الربيعي . قال لما حصل « يوقنا »
والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سمطا الملك وخلع على كبرائهم أقبل
عليهم في السر رجل من بني عم يوقنا ممن استحكمت الضلالة في قلبه واحتوى
الكفر على أقانيم جسده فأقبل الى الدمستق وحدثه بأمر يوقنا وما قد عزم
عليه وأنه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق
جرمانس صاحب الملك ، فلما سمع الدمستق ذلك لم يكذب خبرا دون أن ركب
بأصحابه وقبض على يوقنا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع
بذلك أصحاب يوقنا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وأنه قبض عليهم فاغتنموا
لذلك غما شديدا وأخذوا على أنفسهم من عذر يقبل عليهم ، قال فلما استوثق
عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكل بهم ألف رجل وقال سيروا بهم الى
الملك يفعل فيهم ما يريد وأقبلوا يعنفون يوقنا وأصحابه ويقولون لهم : ما
الذي رأيتم في دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين آبائكم قد طردكم
المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه ، فلما هموا أن يسيروا بهم وقع الصياح من
الابواب ونفر أهل القرى ، ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم .
فقالوا قدمت العرب عليكم .

قال الواقدي : وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد

ابن أبي سفيان في الفي فارس الى صور ، فلما سمع الدمستق أمر بالابواب فأغلقت وصعدت الرجالة على الاسوار وعمروا الأبراج ونصبوا المجانيق وأدخل الدمستق يوقنا الى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتم عليه أمر منهم وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الاسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم ، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبي سفيان نظر اليهم الدمستق ، فلما رآهم قليلا استحققهم وطمع فيهم وقال : وحق المسيح لا بد لي من الخروج اليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة . ثم لبس الدمستق اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنا وأصحابه ابن عمه باسيل . قال وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والخبار الماضية وكان قد رأى النبي (ص) في دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى الى زيارة بحيرا ، فلما قدمت غير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله (ص) نظر بحيرا الى القافلة ورسول الله (ص) في وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس ، فلما تبينه قال والله هذه صفة النبي الذي يبعث من تهامة ثم أنتظروا واذا بالركب قد نزل ورسول الله (ص) نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى اليها فأورقت الشجرة بين يدي رسول الله (ص) ، فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعاما لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقي هو مع الابل ليرعاها ، فلما نظر بحيرا اليهم ولم يره في جملتهم قال يا معشر قريش هل بقي منكم أحد ؟ قالوا نعم بقي فينا من تخلف لحفظ القافلة ورعي الابل . قال ما اسم من يرعى الابل قالوا محمد بن عبد الله ؟ قال هل مات أبوه وأمه قالوا نعم قال هل كفله جده وعمه قالوا نعم ، قال يا قريش هو والله سيدكم وبه يعظم في الدنيا مجدكم ، قالوا: من أين علمت ذلك ؟ قال لما أشرفتم علي من البرية لم يبق صخر ولا مدر الا خرّ له ساجدا

قال الواقدي : فبقي باسيل في حيرة من أمرهم وكنتم سره وعلم أن بحيرا لا يتكلم الا بالحق ، فلما وقع يوقنا وأصحابه ووكله الدمستق على حفظهم قال ان الاسلام هو الحق وقد بشر به بحيرا الراهب ، ولعل الله يغفر لي اذا حللت هؤلاء القوم .

قال الواقدي : من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لما خرج الدمستق الى لقاء يزيد ابن أبي سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير الا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الاسوار ما يكون بينهم وبين العرب ، فلما نظر باسيل الى المدينة وخلوها واشتغل أهلها بالحرب أخذ رأيهم علي خلاص يوقنا ومن معه فأقبل اليهم بالليل والتفت الى يوقنا وأصحابه وقال أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعولت على دين هؤلاء العرب

وما الذي رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدا لها وجونا، قال له يوقنا : يا باسيل ظهر لي من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بي هاتف يقول لي ان الذي هداك الى دينه يخلصك وبشرني بالخلاص على بديك . قال فلما سمع زاده ايقانه وتحقق ايمانه وقال ليوقنا لقد أنطق الله لسانك بالحق وان الله تعالى كشف حجاب الغفلة عن قلبي منذ رأيت نبي هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو في قافلة لاهل مكة ورأيت من دلائله أنه لا يسير على الارض الا والشجر تسير اليه والسحابة على رأسه تظله ولقد استند الى شجرة يابسة فأورقت في الحال وأنبأني بحيرا الراهب أنه وجد في العلم أن جماعة من الانبياء استندوا اليها وجلسوا حولها فلم تورق ، فلما استند بظهره اليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك ، وسمعت بخيرا قول هذا والله الذي بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه ، فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت الى القسطنطينية بتجارة وطففت في بلاد الروم وأقمت ما شاء الله ، ثم عدت الى قيسارية فرأيت الروم في هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقليل قد ظهر نبي في الحجاز اسمه محمد بن عبدالله وقد أخرجه قومه من مكة وقد أتى الى المدينة التي بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت أسأل عن أخباره وهي في كل يوم تنمو وتزيد حتى مات ، ثم ولني صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأنفذ جيوشه الى الشام فلم يلبث الا يسيرا ثم مات وولى هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادنا وهزم جيوشنا وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم الى هذا الساحل حتى أتى الله بهم . فقال له يوقنا وما الذي عزمتم عليه ؟ قال عزمتم والله ان أفارق قومي وأتبعكم فان الحق بين ثم حل يوقنا وأصحابه وسلم اليهم العدد والسلاح وقال ليوقنا : اعلم ان مفاتيح أبواب المدينة عندي والعسكر خارج المدينة مشغول بقتال العرب وليس في المدينة من يخاف جانبه فانهض على اسم الله فقال يوقنا جزاك الله خيرا فلقد هداك الله الى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير. ويجب الآن علينا أن نظهر أنفسنا ونبعث في المراكب حتى ينزلوا الينا ونكون نحن يدا واحدة .

فقال باسيل : سنأفعل ذلك ثم انه خرج في حال الخفاء وفتح باب البحر ومعه رجل من بني عم يوقنا وركبا زورقا حتى وصلا الى البحر والمراكب وحدهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله اليهما وساروا الى أن نزل الجميع وحصلوا داخل المدينة أعني مدينة صور وأعمى الله أبصار الكفار ، فلما هموا أن يثوروا قال يوقنا : ليس هذا من الرأي وأين من يهب نفسه لله عز وجل ويخفي أمره ويخرج من الباب ويدور الى عسكر المسلمين ويتوصل الى أميرهم ويعلمه بما كان منا ويكون على أهبة واذا سمع بنا أحد لا يهوله وليصدم جيش العدو

فقال رجل من القوم أنا أكون ذلك الرجل ، ثم خرج متنكرا وأغلق باسيل خلفه ووصل الى يزيد بن أبي سفيان وحده على حقيقته وبما كان من أمر يوقنا فسجد لله شكرا وبعث من ساعته الى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم في الكبة على القوم ففعلوا ذلك .

وأما يوقنا رحمه الله، فلما علم أن الخبر وصل الى المسلمين قال لأصحابه: ليسعد منكم خمسمائة رجل الى السور ويقتلوا من عليه ، قال باسيل ليس هذا رأيا فان العوام لا اعتبار لهم ولعل الله أن يهديهم الى الاسلام ولكن مر أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لا ينزل أحد منهم ويزعقوا بالامان قال فاستصوب رأيه ووكل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا : لا اله الا الله محمد رسول الله فسمع كل من في المدينة ومن على السور ذلك فعلموا أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الاسر ووثبوا في المدينة وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم فبقوا في حيرة فسمع يزيد بن أبي سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا في المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الديمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الاسر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب في قلوبهم ونظروا الى النيران قد اشتعلت في عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبق لهم صبرا وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين في داخل المدينة وقيسارية محاصرة وليس لهم مدد من ولد الملك فولوا الادبار واتبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها ، فلما أصبح الصباح فتح يوقنا باب المدينة ودخل يزيد بن أبي سفيان ومن معه من المسلمين واحتلوا على أموال الروم ونادى من كان على السور الغوث الغوث فأمنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم ، فقال لهم يزيد : ان الله عز وجل قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد ، فما شئنا حكمنا فيكم ، ولكن نحن اذا عاهدنا وفينا ، واذا قلنا صدقنا ، وقد أعطيناكم الامان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على من لم يدخل في ديننا ومن أسلم منكم فله مالنا وعليه ما علينا ، فأجاب القوم الى ذلك وأسلم أكثر القوم وبلغ الخبر الى فلسطين بأن صور قد فتحت ، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم في المراكب بالليل وقلع يريد اللقوق الى قسطنطينية ، فلما نظر أهل قيسارية الى ذلك خرجوا الى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص الى قيسارية وأخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير وبذلك أمرهم عمر بن

الخطاب رضي الله تعالى عنه وبعث عمرو جيشا الى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخا كبيرا قد شهد مع رسول الله (ص) حنين والنضير وقتل أخوه حنين قتله مالك بن عوف النضيري فبعثه عمرو الى صور ومعه رجل من أصحابه ، وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية على مائة ألف درهم وما خلفه فلسطين من بقية ذخائره ، قال ودخلها يوم الأربعاء في العشر الاول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر الى الرملة وعكا وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية ، وملك الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين ، (ص)

ذكر فتوح مصر

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي . قال زياد بن عامر ، قال شام بن عبدالله العنبري : حدثنا شالم مولي عروة بن نعيم اليشكري ، قال : لما فتح عمرو بن العاص قيسارية صلحا كان لعمر في الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر الى أهل الرملة وعكا وبلقاء وعسقلان وصيدا وغزة ونابلس وطبرية فأتى كبرائهم الى أبي عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وأنفذ أبو عبيدة لعمر بن العاص أن يسير الى مصر بأمر عمر بن الخطاب (رضي) ، وملك المسلمون أقاصي البلاد ببركة نبينا محمد (ص) وعظم وكرم . قال وسكنها العرب وتفرقوا في البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادون فلم يبق في الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم الا أخذهم المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد (ص) .

قال محمد بن اسحق الاموي رحمه الله تعالى . قال حدثنا يونس بن عبيد الاعلى قراءة عليه بالخضراء بمدينة عسقلان . قال أخبرنا الميث بن سعد . قال حدثنا نوفل بن عامر ، قال أخبرني يحيى بن ساكن المدني قراءة عليه يوم الجمعة ، ونحن عند منبر يونس بن متى . قال لما فتح الله ساحل الشام على المسلمين في سنة تسع عشرة من هجرة رسول الله (ص) كتبوا بذلك الى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو ابن العاص الى أمين الأمة . أما بعد : فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد صلى الله (ص) وان الله جل وعلا قد فتح ما كان قد بقي من الساحل وأخذنا قيسارية صلحا وهرب منها فلسطين بن هرقل بأمواله وعياله ونحن بها ننتظر أمرك والسلام . وكتب أيضا يزيد بن أبي سفيان بما تم ليوقنا في صور وان الله قد عضد الدين ووصل الكتابان الى أبي عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل اليه الخبر وهو نازل على

الزراعة ، فلما قرأ الكتابين تهلل وجهه فرحا وضج المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبشره بما فتح الله على المسلمين وبما فعله يوقنا ووجه الكتاب مع عرفة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة . قال عرفة بن مازن وعليّ من ديباج الروم قباء فاخر وعلى رأسه مطرف خزّ مذهب . قال فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة أول ليلة من شهر رمضان قبل مغيب الشمس ، وعمر رضي الله عنه قد أتى يريد المسجد ، فلما أبركت نافتي وعقلتها وجئته لأسلم عليه نظر اليّ شزرا وقال من الرجل ؟ قلت عرفة بن مازن ، فقال يا ابن مازن أما كان لك برسول الله أسوة حسنة وان هذه ثياب الجبارين ، ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منا ولا يصلح الا للنساء وهذا الذي عليك تصدّق به على فقراء المدينة . أما والله لقد دخلت يوما على رسول الله (ص) وهو نائم على سرير مرمل بشريط ، وليس بين جلده وبين الشريط شيء ، وقد أنر الشريط في نعمة جلد رسول الله (ص) ، فلما رأيت ذلك بكيت .

فقال لي : يا عمر ما الذي أبكاك ، فقلت : يا رسول الله ان كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة .

فقال : يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة . قال عرفة فسلمت اليه الكتاب ، فلما قرأه نهلت أساري وجهه . قال عرفة : ثم نزلت على خالتي عفرات بنت أبي أيوب الانصاري وبنت عندها ليلتي ، فلما أصبحت لم أقدر أن أقابل عمر بذلك الزيّ فأعطيت الثوب والعمامة لخالتي فباعتهما ونصّدقت بئمنهما على فقراء المدينة ، قال وسرت الى عمر وعلى ثوب من كرايس الشام كان تحت ثيابي فلما رأيته تبسم في وجهي ، وقال يا ابن مازن ما فعلت بديباجتك ؟ قلت يا أمير المؤمنين باعتها خالتي وتصدّقت بئمنها على المسلمين فقراء عمر - وما تفعلوا من خير يعلمه الله - ثم انه كتب الى أبي عبيدة يقول : . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر ابن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح أما بعد ، فأني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ص) وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعدنا به رسول الله من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى ، والحمد لله على ذلك كثيرا وقد بلغني أن بادية الاعراب قد استلذوا الدنيا وزينتها ، وقد نصبت لهم سبائك محبتها ، وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفلوا في ثياب الديباج والخز وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة ولهاهم ذلك عن الآخرة ، وقد بلغني يا ابن الجراح أنهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات فجرّد عليهم عتاق الخيل ذوات الهمم وأغلظ عليهم ولا تكن لهم

خاملاً فيطمعوا فيك ، ومن أخل* منهم بشيء مما فرض عليهم فأقم فيهم حدود الله ، وأعلم بأنك راع مسئول عن رعيته . قال الله عز وجل - الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر - وقد قال فيك رسول الله (ص) : أبو عبيدة أمين هذه الامة فأعط الامانة حقها ومن ترك صلاته فأضربه عليها ، ولقد كان رسول الله (ص) يحدثنا ونحدثه . فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالا بالصلاة وبعظمة الله ، وعنه (ص) أنه قال « ان الله عز وجل يقول : ان بيوتي في الارض المساجد وان زوارى فيها عمارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر في بيته ، ثم زارني فحق على المزور أن يكرم زائره » وقال (ص) « جميع المفترضات افترضها الله علي في الارض الا الصلاة فان الله افترضها علي في السماء » واذ قرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه الى مصر بعسكره ويقدمهم عامر بن ربيعة العامري ومشايخ من أصحاب رسول الله (ص) يفضي بهم عند مشورته وأنفذ من قدرت عليه الى أرض ربيعة وديار الجند بن صالح والله أسأل أن يكون لكم عوناً ومعيناً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وسلم الكتاب الى عرفجة بن مازن وأمر له بنفقة من بيت المال .

قال عرفجة فأخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند بيت لحم ركبا من أهل وادي القرى ، فسألتهم عن أبي عبيدة فأخبروني أنه على غباغب وهو طالب طبرية . قال عرفجة أطلب الغور والجولان وأقصد طبرية ، قال فالتقيت بأبي عبيدة على الأردن ، فسلمت عليه وناولته كتاب عمر (رضى) فلما قرأه جمع المسلمين وقرأه عليهم ، فلما فرغ قال ما من رجل ترك الصلاة أو أخل* بشيء مما افترضه الله عليه الا جلده ، ومن الغد تى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وأنفذه الى عمرو بن العاص أرسل يحثه على المسير الى أرض مصر ، فلما وصل الكتاب الى عمرو أخذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبي سفيان وعامر بن ربيعة العامري وجماعة من الصحابة وسار معه يوقنا في أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسهم لله ورسوله فسار عمرو على البيداء من وراء العريش قال وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديور والصوامع وكان دير الزجاج في مملكة القبط ، وكان ملكهم يومئذ المقوقس ابن راعيل ، وكان هذا الملك من أهل الرأي والتدبير والفضل والحكمة ، وكان تلميذ الحكيم أعاشادمون وهو الذي لما غلبت الحيات على أرض مصر وأخربتها صنع لها جلجلا ، وكان ان حركه سمع صوته من مقدار ميل . قال فتخرج الحيات من حجرتها فمن هربت نجت ومن وقعت هلكت ، وكان المقوقس من أعلم أهل زمانه وكانت

القبط معه في عيشة مرضية وكان يتوقع ظهور رسول الله (ص) .
 وكان حكيم ذلك الزمان بمصر يقال له عظماس وهو الذي ضنّع
 دواليب الريح ورحى الهواء ، وكان عمّر في الأجيال واطلع على مكنون الحكم
 والأسرار وعرف عمل صنعة الأكسير وعمل الذهب والفضة والجواهر
 والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح وأجناس الأهوية في أجسامها
 وكان يجد في عمله أن الله يبعث نبيا من أرض تهامة ينشر دينه وتعلو كلمته
 وتملك أصحابه البلاد ، فعمل في أيام راعيل أبي المقوقس هيكلًا عظيمًا على
 أعمدة من نحاس بمكان يعرف بعين شمس وجعل عليه أشخاصًا مجوّفة
 وجعل وجهها إلى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية إذا دارت هذه الأشخاص
 إلى جهة الخجاز فقد قرب ملك العرب قال فبينما المقوقس راكب في بعض
 الأيام للصيد وقت هجرة رسول الله (ص) ، وقد انتهى سيره إلى عين
 شمس إذ هو سمع أصواتًا من الأشخاص فد علت ثم انها حوّلت وجهها نحو
 الخجاز فأيقن بتلف ملكه وزواله ، فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل قصر
 الشمع وجلس على سريره وجمع القسوس والرهبان وكبراء القبط ، وقال
 لهم يا أهل دين النصرانية اعلموا أن زمانكم قد مضى وهذا النبي المبعوث
 لا شك فيه وهو آخر الأنبياء ولا نبي بعده وقد بعث بالربوب ولا بدّ لرجل
 من أصحابه أن يملك ما تحت سريري هذا فانظروا إلى ملككم وأصلحوا ذات
 بينكم وارفقوا برعيّتكم ولا تجوروا في حكمكم وأمنّوا ضعفاءكم وإياكم واتباع
 الظلم فإن الظلم وبيل ومرتعه وخيم وأعطوا الحق من أنفسكم ولا يستطل
 قويكم على ضعيفكم وما دامت الدنيا لأحد من قبلكم حتى تدوم لكم وكما
 ملكتموها ممن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم من كان بعدكم فأصلحوا نياتكم
 فيما بينكم وبين خالقكم فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على أعدائكم ومن
 يريدكم ، وإن اتبعتم أهواءكم تبين هلاككم .

قال حدثنا ابن اسحق عن عبد الملك عن أبيه عن حسان بن كعب عن
 عبد الواحد بن عوف عن موسى بن عمران عن حميد الطويل عن أبي اسحق
 الراوي المغازي مع رسول الله (ص) قال : لما جاء النبي (ص) من مكة إلى
 المدينة وبايعه الأوس والخزرج كتب إلى ملوك الأرض ، وفي الجملة كتابا إلى
 المقوقس ملك مصر وكان الذي كتب الكتاب إليه أبو بكر الصديق رضي الله
 عنه ، ونسخة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عند رسول الله (ص) .
 إلى صاحب مصر . أما بعد : فإن الله أرسلني رسولا وأنزل عليّ كتابا قرآنا
 مبينا وأمرني بالإنذار والاعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بدينني ويدخل
 الناس فيه وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدة الله تعالى فإن أنت فعلت سعدت

وأن أنث أبيث شقيت والسلام ، ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه . قال أنس بن مالك فاستخرجه رسول الله (ص) من أصبعه وكان فسه عليه ثلاثة أسطر : السطر الأول محمد ، السطر الثاني رسول ، السطر الثالث الله ولا نقش أحد على خاتمه كنقشه . قال سمرة بن عوف قلت لحميد الطويل أكان لخاتم رسول الله (ص) فصّ أم لا ؟ قال : لا أدري ، قال وسأل رجل جابر بن عبد الله الأنصاري . فقال له في أيّ يد كان يتختم رسول الله (ص) ؟ . فقال : في يده اليمنى ويقول اليمنى أحق بالزينة من الشمال وفص الخاتم في يمينه ، وقال عبد الله بن عباس رأيت رسول الله (ص) يتختم في يمينه ثم حوله الى يساره .

حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله (ص) كان يتختم في يساره ، وحدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله (ص) وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعا يتختمون في اليسار .

(قال الراوي) فلما طبع الكتاب بخاتمه قال أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا الى صاحب مصر وأجره على الله قال فوثب اليه حاطب بن ابي بلتعة القرشي وقال أنا يا رسول الله . فقال له بارك الله فيك يا حاطب قال فأخذت الكتاب من يد رسول الله (ص) وودعته وأصحابه وسرت الى منزلي وشددت راحلتي وودعت أهلي واستقمت على الطريق الى نحو مصر . فلما عدت عن المدينة بثلاثة أيام أشرفت على ماء لبني بدر فأردت أن أورد ناقتي الماء واذا على الماء رجلان ومعهما ناقتان ومعهما رجل آخر راكب على جواد أدهم ، فلما رأيتهم وقفت واذا بالفارس أتى اليّ ، وقال لي : من أين أقبلت وأين تريد ؟ فقلت يا هذا لا تسأل عما لا يعنيك فتقع فيما يحزنك ويخزيك أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق . فقال ما اياك أردنا ولا نحوك قصدنا نحن قوم لنا دم وثار عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على أن ندهمه على غفلة فلعلنا نجد منه غرة فنقتله . قال حاطب والله لقد أمكنني الله منهم فلاجعلن جهادي فيهم ولو بالخديعة ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول « الحرب خدعة » .

فبينما أنا أخاطب الفارس واذا بالراكبين قد وصلا اليّ وقالوا لي بغلظة و فظاظة ويحك لعلك من أصحاب محمد ؟ فقلت لهما لقد كاد أن يتبدّل لكما الطريق عن سبيل التحقيق واني رجل مثلكما أطلب ما تطلبون وأنا قاصد يشرب ، وقد عوّلت عليّ صحبتكم لأكون معكم ، ولكن سمعت في طريقنا هذا ممن أثق به أن محمدا أنفذ رسولا من أصحابه الى مصر بكتاب فلعله في هذا الوادي فان وقعنا به قتلناه . فقال صاحب الفرس أنا أسير معك ثم انه

تقدّم أمامي وتركنا صاحبيه واقفين ينتظران ، قال حاطب : فلما بعدت به عن أصحابه وغبنا عنهما ، قلت ما اسمك ؟ قال اسمي سلاب بن عاصم الهمداني ، قلت يا سلاب اعلم أنه لا يقدر أن يدخل على ينرب الا من كان له جنان وقلب وغدر ومكر لان بها سادات الأرض وأبطالها مثل عمر وعليّ ، ولكن كيف سيفك قال سيفي ماض ، قلت أرني اياه فاستله من غمده وسلمه اليّ فأخذت السيف من يده وهزّزته وقلت سيف ماض ثم قلت :

سيوف حداد يالؤي بن غالب مواض ولكن أين للسيف ضارب

فقال ما معنى هذا الكلام ؟ قلت يا ابن عاصم ان سيفك هذا من ضرب قوم عاد من ولد شدّاد ، وما ملكك العرب سيفاً مثله ولا أمضى من هذا السيف ، ولكن وجب عليّ اكرامك وأريد التقرب اليك بحيلة أعلمك اياها تقتل بها عدوّك . فقال بذمة العرب افعل ذلك . فقال حاطب اذ كنت في مقام حرب وقتال وخصمك بين يديك وتريد قتله فهز هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوّك بحرفه فانه أسرع للقتل والقطع ، وملت بالسيف على عنقه واذا برأسه طائر عن بدنه ، فنزلت اليه وأمسكت الجواد لثلا ينفلت فينذر أصحابه ، وتركته مربوطاً الى شجرة وأسربت الى صاحبيه واذا هما ينتظراننا ، فلما رأياني أقبل أحدهما اليّ فقال : ما وراءك وأين سلاب ؟ فقلت أبسر بأخذ الثأر وكشف العار واعلم بأننا وجدنا رجلين من أصحاب محمد وهما نائمان ، وقد وجهني سلاب بأن يمضي أحدهما حتى نتمكن منهما ويقف أحدهما ههنا ، فان هذا الوادي ما خلا ساعة من اصحاب محمد . فقال نعم الرأي الذي قد أشرت به وسار معي ، فلما غيبته عن صاحبه قلت : ما اسمك ؟ قال عبد اللات . قلت كن رجلاً واياك والخوف فانك اذا رأيتنا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظ . فقال لا بد أن أفعل ذلك ، فقلت له : اني أرى غبرة ولا شك أن تحتها قوما ممن صبأ الى دين محمد ، فجعل يتأمل كأنه الواله الجيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت رأسه عن بدنه وعدت الى الثالث ، فلما رأيته وحدي تيقن بالشر فقارعني وقارعتة وصدمني وصدمته ، الا ان الله أعانني عليه فقتلته ، وأخذت الراحلتين والفرس وأسلابهما ، ووضعت الجميع عند رجل من أصحابي ، وكان رفيقاً لي من زمن الجاهلية وهو من عبدة شمس ، ثم توجهت أريد مصر ولم أزل الى أن أتيتها ، فلما وصلت الى باب الملك ، قالوا من أين جئت ؟ قلت أنا رسول الى ملككم ، فقالوا من عند من ؟ قلت من عند رسول الله (ص) ، فلما سمعوا بذلك أحاطوا بي وأوصلوني الى قصر الشمع بعد أن استأذنوا لي وأوقفوني

على باب الملك فأمرهم باحضاري بين يديه ، فعقلت راحلتي وسرت معهم عند المقوقس واذا هو في قبة كثر الجوهر في حافتها ولمع الياقوت من أركانها ، والحجاب بين يديه . فأومأت بتحية الاسلام ، فقال حاجبه يا أخا العرب أين رسالتك ؟ قال فأخرجت الكتاب فأخذه الملك من يدي بيده . قال فباسه ووضعته على عينيه ، وقال مرحبا بكتاب النبي العربي ، ثم قرأه وزيره الباكلمين ، فقال له اقرأه جهرا فانه من عند رجل كريم ، فقرأه الوزير الى أن أتى الى آخره . فقال الملك لخادمه الكبير : هات السفط الذي عندك فأتني به ، ففتحه واستخرج نمطا ففتح ذلك النمط واذا فيه صفة آدم وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وفي آخره صفة محمد (ص) فقال لي صف صاحبك حتى كأنني أراه . قال حاطب ومن يقدر أن يصف عضوا من أعضاء رسول الله (ص) فقال لا بدّ من ذلك . قال فوقفت بعدما كنت جالسا وقلت ان صاحبي وسيم قسيم معتدل القامة ، بعيد الهامة بين كتفيه شامة وله علامة كالقمر اذا برز ، صاحب خشوع وديانة وعفة وصيانة صادق اللهجة واضح البهجة أشمّ العرنيين ، واضح الجبين سهل الخدين رقيق الشفتين براق الثنايا بعينه دعج وبجانبه زجج ، صدره يترجرج وبطنه كطي الثوب المدبج له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح ، قال والملك ينظر في النمط ، فلما فرغت قال : صدقت يا عربي هكذا صفته ، حينما هو يخاطبني اذ نصبت الموائد وأحضروا الطعام ، فامرني أن أنقذ فامتنعت فتبسم وقال : قد علمت ما أحلّ لكم وجرّم عليكم ، ولم أقدم لك الا لحم الطير فقلت اني لا آكل في هذه الصحاف الذهب والفضة فان الله قد وعدنا بها في الجنة ، قال فبدلوا طعامي في صحاف فخار فأكلت ، فقال أي طعام أحب الى صاحبك ؟ فقلت : الدباء يعني القرع فاذا كان عندنا شيء منه آثرناه على غيره فقال : ففي أي شيء يشرب الماء ؟ .

فقلت في قعب من خنسب . قال أوجب الهدية قلت نعم فانه قال (ص) « لو دعيت الى كراع لأجبت ولو أهدى اليّ ذراع لقبلت » . قال أياكل الصدقة قلت لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة ، وقد رأيتاه اذا أتى بهدية لا يأكل منها حتى يأكل صاحبها . فقال الملك أيمتجل ؟ قلت نعم ، في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنتين ، وقال من شاء اکتحل اكثر من ذلك أو أقل وكحله الأئمد وينظر في المرأة ويرجل شعره ويستاك . فقال المقوقس اذا ركب ما الذي يحمل على رأسه ؟ فقلت راية سوداء ولواء أبيض وعلى اللواء مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله . فقال أله كرسي يجلس عليه أو قبة ؟ قلت نعم له قبة حمراء تسع نحو الأربعين . قال فما الذي يحب من الخيل ؟ قلت

الأشقر الأرتم الأغرّ المحجل في الساق ، وقد تركت عنده فرسا يقال لها المرعد . قال فلما سمع كلامي انتخب من خيله فرسا من أفخر خيول مصر الموصوفة ، وأمر به فأسرج وألجم فأعده هدية لرسول الله (ص) وهو فرسه المأمون وأرسل معه حمارا يقال له عفير ، وبغلة يقال لها دلدل وجارية اسمها بريرة وكانت سوداء ، وجارية بيضاء من أجمل بنات القبط اسمها مارية ، وغلّام اسمه محبوب وطيب وعود وندّ ومسك وعمائم وقباطي ، وأمر وزيره أن يكتب الى رسول الله (ص) كتابا ، يقول فيه : باسمك اللهم منن المقوفس الى محمد . أما بعد ، فقد وصل اليّ كتابك وفهمته ، وأنت تقول : ان الله أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآنا مبينا ، فكشفنا يا محمد خبرك ، فوجدناك أقرب داع الى الله وأصدق من تكلم بالصدق ، ولولا أنني ملكت ملكا عظيما لكنت أول من آمن بك لعلمي أنك خاتم النبيين وامام المرسلين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته مني الى يوم الدين . قال وسلم الكتاب والهدية اليّ وقبلني بين عيني وقال : بالله عليك قبل بين عيني محمد عني هكذا ، ثم بعث معي من يوصلني الى بلاد العرب والى مأمني . قال فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهي تريد المدينة فصحبته الى أن وردت المدينة فأتييت المسجد وأنخت ناقتي ودخلت وسلمت على رسول الله (ص) وأنشأت أقول :

أنعم صباحا يا وسيلة أحمد	نرجو النجاة غداً بيوم الموقف
اني مضيت الى الذي أرسلتني	أطوي المهامه كالمجدّ المعنف
حتى رأيت بمصر صاحب ملكهم	فبدا اليّ بمثل قول المنصف
فقرا كتابك حين فك ختامه	فأطلّ يرعد كاهتزاز المرهف
قال البطارقة الذين تجمعوا	ماذا يروعك من كتاب مشرف
قال اسكتوا يا ويلكم وتيقنوا	هذا كتاب من نبيّ المصحف
قالوا وهمت فقال لست بواهم	اني قرأت بيان لفظ الأحرف
وبكل سطر من كتاب محمد	خط يلوح لناظر متوقف
هذا الكتاب كتابه لك جامعاً	يا خير مأمول بحبك نكتفي

(قال الراوي) ورجعنا الى الفتوح ، قال حدثني أحمد بن عبيد عن عبد الله بن عمر السلمي عن محمد الزهري عن عبد الله بن زيد الهذلي عن أبي اسحق الأموي وهو المعتمد عليه في فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس .

حدثنا عمر بن حفص ولم ينفرد بهذه الرواية سواء ، وكان أصحاب السير قد اشتغلوا بوقائع العراق وفتوحه ، وما تجدد من سعد بن أبي وقاص

وبني كسرى أنوشروان وتركوا فتوح الشام وأرض مصر فيما بعد ، وكان قد ارتحل عنهم فتركوه لأجل الزيادة والنقصان فيه ، وإنما انفرد ابن اسحق لأنه انفرد عن مشايخ ثقات قد وثق بهم من آل مخزوم اجتمع بهم في البرملة بعد الفتوح أحدهم نوفل بن ساجع المخزومي وكان عمه خالد بن الوليد وكان من المعمرين ، شهد تبوك مع النبي (ص) ، وشهد بعدها الحديبية ، وشهد يوم اليمامة ومسيلمة ، وكان مع عمرو بن العاص بأرض مصر في جميع فتوحها ، والثاني فهد بن عاصم بن عمرو بن سهل بن عمرو المخزومي وغيرهما من الثقات ممن شهد فتوح أرض مصر والوفائع كلها قالوا جميعا ، ومنهم من قال : ان عمرو بن العاص لما انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجها يريد أرض مصر ، فلما كان بمكان يقال له رفح قال له يوقنا : يا عمرو أنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها ، وأنا ممن يمكنني ذلك لأن ثواب الله أجل غنيمة ، فإن قلبي ملوث بحب الدنيا واني كنت ممن أشرك بالله سواء ، وأنا أجتهد في الخلاص وأقاتل من كنت انصره على الكفر وعبادة الصليبان والسجود للصور من دون الله ، وقد أخذت الاسلام بنية وقبول لأنه الحق وأريد أن أتقدم الى أرض مصر فلعلي أجد لكم بالحيلة سبيلا . فقال عمرو : وفقك الله وأعانك وحفظك وصانك . قال فسار يوقنا ليلا من رفح يطلب الفرما ولم يقرب من العريش ولا القاربا وكلها حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة ، وكانوا يؤدون المال الى الملك المقوقس بن راعيل ، وسنذكر فتوحها فيما بعد ان شاء الله تعالى . قال وان يوقنا أشرف على الفرما ، وكان بها وال من قبل المقوقس اسبمه الرندبان ، والفرما على جانب بحيرة تنيس من الشرق . فرأى يوقنا خياما منصوبة وقبابا مضروبة ، فلما رأوا يوقنا وقع الصائح ، فركب من كان هناك وكانت الأخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة ، فلما بلغهم أن قيسارية فتحت اغتموا لذلك ، لأنه كان فلسطين بن هرقل قد تزوج بابنة المقوقس ارمانوسة ، وكان قد جهزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها الى بلبيس ، ثم انها وجهت حاجبها تميلاتوس الى الفرما في ألفى فارس لحفظ ذلك المكان .

الاستعداد

حدثنا ابن اسحق أخبرنا موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي عن أسامة ابن زيد بن أسلم . قال ابن اسحق حدثني رجل من القبط رأيتته وقد دخل في دين الاسلام فقربت اليه وسألته فاخبرني أنه من قبط مصر من جند المقوقس فقلت له : كيف كان من أمركم لما سمعتم بقدوم

المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل ، قال لما بلغنا ذلك بعث المقوقس رسله الى جميع اطراف بلاده مما يلي الشام بأن لا يتركوا أحدا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر ، كل ذلك لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجندود هرقل فيدخل الرعب في قلوب قومه فلأجل ذلك أنه لما دخل يوقنا أرض مصر لم يعلم به أحد فلما ركبوا الى لقائه ورأوا حشبه وعسكره وكانوا بزي الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر في طريقه من حصن كيفا وأعلموه بابتعاد فلسطين عن زوجته أرمانونسة . . وان أباهما قد جهزها وهي على مدينة بلبيس . فقال يوقنا : ومتى تزوجها ؟ قالوا تزوجها والمسلمون على حصن حلب .

فقال لهم انه قد ركب في البحر وترك قيسارية وقد أرسلني حتى آخذها في المراكب من دميـساط ، ومضى يوقنا يقول : أنا قد جئت رسولا من الملك فلسطين الى الملك المقوقس حتى يرسل معي ابنته الى زوجها ، فلما سمعوا كلامه قالوا ان الملكة في بلبيس وقد أنفذها اليه وما منعها من المسير الا خوف العرب وهروب فلسطين من قيسارية فسار يوقنا حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها اليها وعرفها بما قاله يوقنا . فقالت عليّ به فأتى اليه الحاجب ، وأمره بالمير فركب وركب أصحابه وهم بأحسن زيّ وأتوا الى عسكر أرمانونسة واذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف . قال فترجل يوقنا وترجل قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فأذنت لهم بالدخول ، فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فأمرت لهم بكراسي فوضعت لهم فأمرتهم بالجلوس فجلسوا ووقفت الحجاب والماليك والخدم فقالت الملكة أرمانونسة له من غير ترجمان كم لكم عن الملك فقال شهر . فقالت إكان رحل من المراكب أم قبل رحيله فقال يوقنا بل قبل رحيله وحين ركب منهزما ، ولما وصلت الى غزة بلغني أنه سار وقد قال لي في السرّ بيني وبينه لا طاقة لنا بقتال هؤلاء العرب ، فان أبي هرقل ترك أنطاكية وذهب وقد قاتلهم بجميع جنوده واستنصر عليهم بجميع دبن النصرانية وأنفذ اليهم ما هان الأرمني الى اليرموك في ألف ألف فهزموه وقتلوه واني أريد أن آخذ خزائني وأطلب القسطنطينية ، ثم انه وجهني اليك أيتها الملكة لتركبي في المركب اليه .

قال فلما سمعت ذلك أطرقت برأسها الى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت اني لا أقدر أن أصنع شيئا الا بأمر الملك أبي واني مرسله اليه . قال فقام يوقنا وصقع لها ودعا ثم خرج من عندها فوجد ثلثمائة قد ضربوا خيامه فنزل بها وارسلت اليه العلوفة والضيافة . قال ابن اسحق الأموي (رضى) : ولقد بلغني نه لما جنّ الليل أتت اليها الجواسيس وأعلموها بفتح قيسارية ومدائن

الساحل جميعها وبتوجه عمرو بن العاص الى مصر وبحديث يوقنا صاحب حلب وحذروها منه وعرفوها بجميع الأخبار مفصلة وانه هو الذي فتسح طرابلس وصور وجبلة . قال فلما سمعت ذلك دخل في قلبها الرعب وعلمت انه محتال فطلبت حاجبها وقالت له : مر العسكر بلبس السلاح وأن يكونوا مستيقظين فقد جرى من الأمر كذا وكذا ثم انها أوقفت مماليكها وغلماؤها وقالت لهم اذا دخل هذا الرجل وخواصه فاقبضوا عليهم فاذا نحن ملكناهم انخذل عسكر المسلمين ، فلما رتبت هذا أرسلت تطلب يوقنا فذهب حاجبها اليه وقال له أيها البطريق الكبير ان الملكة تطلبك لتوصيك بما تقوله لأبيها : فقال له السمع والطاعة ها أنا راكب وأصحابي فذهب القاصد . فقال يوقنا لأصحابه اعلموا أن الملكة شعرت بنا والقوم قد عولوا على قتلنا فان حصلنا في أيديهم قتلونا لا محالة وتضرب بنا الأمثال لمن يأتي بعدنا فموتوا كراما ولا تلقوا بأيديكم الى القتل بأيدي الكفار وكونوا نصرة لدين الاسلام وما عسى نرجو من هذه الدنيا الغدارة التي ما صفت لأحد الا وغيrote بالكدر فاعمروا دار البقاء وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده فلعلكم ترضونه بذلك . قال فأخذ القوم على أنفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله في جميع أمورهم .

حدثنا ابن اسحق قال : لقد بلغني أن الملكة أقامت تنتظر فدومهم— لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولا ثانيا تستحثهم . فقال له يوقنا ارجع الى صاحبتك وقل لها ما جرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل الا لأمر يحدث وقد كنت عندها فما الذي تريده نصف الليل مني ؟ فعاد الرسول وأخبرها بما قاله فركبت من وقتها وتقدمها حاجبها وأمرت الجيش كله أن يركب ودارت بيوقنا وأصحابه ولم تحدث بشيء الى الصباح فأقبل صاحب الملكة اليهم وقال: ما حملكم أن تركتم دين آبائكم وهجرتم دين المسيح وأمه وقد جئتم تحتالون علينا ألا وان المسيح قد غضب عليكم . فقال يوقنا أن المسيح عبد من عبيد الله لا يقدر على شيء لانه مأمور مكلف وقد أنطقه الله بذلك وهو في المهد فقال — اني عبد الله وقال : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا والسلام علي* يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا — ، ومن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس باله انما هو عبد الله مكلف بالعبادة مثل واحد منا وان الله لا يتشبه بأحد منا وان الله لا يشبهه شيء ولا يتشبه بأحد، ولقد أضلكم من صدكم عن ذلك وزاغ بكم عن طريق الحق بقوله على الله والمسيح ، ولقد كنا مثلكم نسجد للصلبان ونعظم القربان ونسجد للصور ونجعل مع الله الها آخر الى أن تبين لنا دين محمد (ص) فشنفانا بعد العمى وشرح صدورنا للهدى ، ودين الاسلام هو الدين الواضح وكنا نقول مثل

قولكم ان المسيح ابن الله ، وان ابراهيم واسحق كانا نصرانيين فكذبنا الله بقوله في كتابه - ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين - وقال سبحانه - ومن يبتغ غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين - وهانحن قد جئناكم لنجاهدكم : اما أن تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله واما الجزية واما القتال • قال فلما سمع الحاجب كلامه قال لقومه دونكم وهؤلاء فقد جاءوا يريدون قتلكم وأخذ أموالكم وأولادكم وحریمكم • قال فحملوا على بوقنا وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم ؛ فلما كان من الغد ركبوا وداروا بهم وتصايحت عليهم القبط ودارت بهم الخيل والرجال فبلى بوقنا ومن معه بما لا طاقة لهم به وقتل منهم جماعة وقتلوا هم من القبط خلقا كثيرا ولكنهم صبروا لأمر الله وقالوا والله لا نسلم أنفسنا أو نموت كلنا فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضا ربنا • قال ابن اسحق :

حدثنا سيف بن شريح عن يونس بن زيد عن عبد الله بن عمر بن حفص عن عبد الله بن الحرث • قال لما أخبرت الجواسيس أرمانيوسه بقصة بوقنا أنفذت كتابا الى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وأنها مغلوبة معهم وان العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا منتظرة جوابك • قال فلما وصل الكتاب اليه دعا أرباب دولته وقال لهم قد تم من الأمر عليّ كذا وكذا فما تشيرون به عليّ ؟ • قالوا أيها الملك نرى لك من الأمر أن تنفذ جيشا الى الملكة ينصرها على عدوها ، وتنفذ الى جلاباب ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب وتنفذ الى مازع بن قيس ملك البجاة ينفذ لك جيشا وتنفذ الى من بالاسكندرية يأتون والى من بالصعيد يأتون فاذا اجتمعت اليك هذه الأمم فائق بهم العرب ولا تأمن لهم فيطمعوا فيك • فقال يا أهل دين النصرانية اعلموا أن الملك محتاج الى سياسة ، ومن ملك عقله ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وانما هي بحسن التدبير ، والله لقد كان قيصر أكثر مني جندا وأوسع بلادا وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم الى اليونانية ومن أقاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد وبلاد الاندلس واستنصر بنا وبغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيئا ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه ، وأعلموا أن العقل أساس الآدمي المخاطب المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض ، فمن ملك عقله ملك أمره ومن لم يجد منه حظا كان بجهله أرضيا ، ولن تنال الحكمة الا بالعقل •

قال الحكيم ماسوسى : ان الحكمة مرقى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لانها غذاء الارواح وقوت القلوب ، واعلموا أني لست أتكلم الا بالصدق ،

وأنتم تعلمون أن محمداً في أيامه بعث إلينا يدعونا إلى دينه فاستدليت على صدق قوله بكتابه وما ظهر من معجزاته وقد سمعتم أنه لما بعث ما سمع أحد بذكره إلا وخاف منه ، وقد سمعتم أن الفمر انتشق له والذراع المسموم كلمه وقال : يا رسول الله اني مسموم فلا تأكلني وقد كلمه الضبّ والحجر والنسجر والمدر وعرج به إلى السماء وركب أوج الماء وأول من تغلب عليه قومه وحاربه عثميرته حين أنكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه ، وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام وما أنكرت من أمرهم شيئاً فانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الله التي أمر بها وما في كتابهم شيء إلا وفي الإنجيل مثله وقد أضلكم بولس وأغواكم حين غرّ بكم وبدل شرعكم وسماكم باسم لا يليق بكم ، وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحلّ لكم جميع ما حرّم عليكم من قبل ، وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعدوا ما قال نبيكم وكيف نبغي لروح الله عيسى بن مريم أن يكلمكم بما لم يرسله الله إليكم . ثم إن بولص قال لكم انه أحلّ لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصي ما ظهر منها وما بطن فأطعتم أمره وصدّقتم قوله وحاشا المسيح أن يفعل ذلك ، وما كان أحد من الأنبياء إلا على ما جاء به محمد ، وهؤلاء الحكماء الأولون ما منهم إلا من يتكلم بوحداية الله تعالى ، وهذا الحكيم دمونا الذي صنع في براري أخيم أرصادا وجعلها مثلاً للامم الآتية ، وذكر فيها من يأتي من الامم والاجيال إلى آخر الزمان وصور الحكماء منفردة به والنسر يعقد رأس الحمل والنسر يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيم ، وكان قدر صور صورة وكتب علي رأسها بقلم اليونانية أربعة أسطر . الاول من خاف الوعيد سلم مما يريد . الثاني : من خاف ما بين يديه صان دموعه بما في يديه . الثالث : ان كنت تريد الجزيل فلا تنمّ ولا تقيل . الرابع بادر قبل نزول ما تحاذر ، فمن كان هذا كلامهم فكيف صنع سواهم ، وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين . قال فأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض غيظاً على الملك . قال وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف ، لانه كان قد سمع ما جرى لقيصر وهرقل مع بطارقتة لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله . أما المقوقس فانه استوثق بمماليكه حتى لا يطمع فيه . قال فلما تكلم بذلك قال له وزيره : أيها الملك رأيك راجح وأنا أول من يؤمن بما تقول . فقال للوزير اكتب إلى ابنتي كتاباً تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الامان وتنفذهم إلينا حتى نخلع عليهم وتطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون من يريد قتالنا ، وما أراد بذلك إلا أن يسلم مثل يوقنا وأصحابه اذ هم على الحق . قال فكتب الوزير إلى

الملكة كتابا بما قاله أبوها ، فلما وصل الكتاب اليها وقرىء عليها أمرت أصحابها أن يرجعوا عن قتل يوقنا ومن معه فرجعوا وأرسلت الى يوقنا تعلمه بكتاب بيها وأرسلت اليه الكتاب ، فلما قرأه قال لرسولها : امض اليها حتى استخبر الله تعالى في ذلك .

فقال « يوقنا » لأصحابه : أن الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ما ظهر لنا من الحق فما الذي ترون من الرأي ؟ قالوا نحن نسمع من رأيك . فقال دعوني هذه الليلة . قال فلما جنّ عليه الليل قام بصلي وأمر أصحابه أن لا ينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم فبينما هو يصلي وإذا بشخص قد دخل عليه فارتاع منه ثم تأمله فإذا هو عمر بن أمية الضمري ساعي رسول الله (ص) ، فلما رآه يوقنا فرح وكان قد رآه مرارا فقال له مرحبا يا عمرو من أين ؟ فقال ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثني الى عمرو بن العاص لأخذه على المسير الى مصر فوجدته قد وصل وها هو منك قريب وقد أرسلني اليك لأعرفه خبرك فأخبره بما وقع له وقال له امض يا عمرو ودعه يعجل بالمجيء يعيننا على هؤلاء القوم وحدثه بجميع ما جرى علينا . فرجع عمرو مسرعا الى عمرو بن العاص وأعلمه بفصة يوقنا . قال فتبرك عمرو بن العاص الاثقال ومعها من يحفظها وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الاثقال عامر بن ربيعة العامري ، فما كان قبل طلوع الفجر الا وهو عند يوقنا فدار بالقوم فلما أحس بهم يوقنا كبر هو ومن معه ورفع الجميع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيوف في القبط فما طلعت الشمس الا وقد قتل من القبط أكثر من ألف وأسر منهم خلق كثير وولى الباقي منهزمين ، وأخذت أرماتوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الاموال والرجال والجواري والغلمان . فقال عمرو بن العاص لأصحاب رسول الله (ص) مثل يزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد الطائي والقعقاع بن عمرو التميمي وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار وصفوان وأمثالهم : أن الله سبحانه وتعالى قد قال - هل جزاء الاحسان الا الاحسان - وهذا الملك قد علمتم أئمة كاتب رسول الله (ص) وبعث هدية ونحن أحق بمن كافأ عن نبيه (ص) هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها وقد رأيت أن ننفذ الى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نشبع سنة رسول الله (ص) وقد سمعته يقول « ارحموا عزيز قوم ذل » ، وغني قوم افتقر » فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد (رضي) .

ذكر فتح مدينة مصر

قال ابن اسحق الاموي (رضي) : لما ورد المنهزمون على الملك وأخبروه بما تمّ عليهم وعلى ابنته . . . ضاق صدره وبقي متفكرا فيما يصنع وليس له

نية في القتال مع الصحابة ، فبينما هو متفكر اذ جاءه البشير بقُدوم بنته وما معها فخف عنه. بعض ما كان يجده ، فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنئونه بابتنته ، فلما حضر قيس بن سعد سأل الملك عن أنبياء لعل أصحابه أن تلين قلوبهم الى الاسلام . فقال يا أخا العرب أخبرني عن صاحبكم ما الذي كان يركب من الخيل . قال الاشقر الارتم المحجل في الساق وكان اسمه المترجل . فقال لقد بلغنا أنه كان لا يركب الا الجمال . فقال قيس ان الله أكرم الأبل وشرفها قال لها كوني فكانت وأخرج ناقة من الصخر وخص بها العرب من دون غيرهم من بني آدم وكان يركبها لكونها قد جعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر عن الماء أياما وقد ذكرها ربنا في قوله في كتابه العزيز . فقال - وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - وقال - والبدن جعلناها لكم من شعائر الله -

ولما غزا رسول الله (ص) من غزواته غزوة بدر كان معه مائة ناضج من الأبل وكان معه فرسان يركب أحدهما المقداد بن الاسود الكندي ويركب الآخر مصعب بن عمير وانا لقينا قريشا في عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله (ص) ، وكان أصحابه يتعاقبون في الطريق ، وكان عليه الصلاة والسلام وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب وغيرهم يتعاقبون شامخا ، وكان أيها الملك يركب الحمار الذي أهديته اليه ويردف وراءه معاذ بن جبل ، وعلى الحمار ركاب من ليفي وخطامه ليف ، واعلم يا ملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول « من رغب عن سنتي فليس مني » ، وكان قميصه من القطن قصير الطول والكمين ليس له أزرار ولقد أهدي اليه ذويزن حلة اشتراها له قومه بثلاثة وتلاثين بغيرا فلبسها رسول الله (ص) مرة واحدة وأهدى له جبة من الشام فلبسها حتى تخرقت وخفين فلبسهما حتى نخرقا ، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعات ونصف ، وكان له ثوب بخز يلبسه للوفد اذا قدموا عليه ، وكان يأنصح الناس اذا تكلم بكلمة يرددها نلانا ، وكلما رأى قوما سلم عليهم ورأيتهم كلما تحدث تبسم في حديثه ، وكان اذا اجتمع اليه أصحابه وأراد أن ينهض . قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك ، قلنا يا رسول الله أن هذه الكلمات اتخذتهن عادة . قال أمرني بهن جبريل وأخرجت لنا زوجته لما قبض كساء وازارا غليظين ، وقالت قبض رسول الله (ص) فوق هذين .

فقال المقوقس : هذه والله أخلاق الانبياء فطوبى لمن اتبعه ، فان أمته هي الامة الموصوفة في الانجيل ، فقال بعض من حضر أيها الملك ما تكون أمة عند

الله أفضل من هذه الامه وهم نحن فغضب الملك من قوله ، وقال وبأي شيء أنتم أفضل عند الله أباكلكم الحرّيم وأرتكابكم الآثام وصنعكم المنكرات وتجنبكم الحسنات وظلمكم في الرعية وميلكم الى الدنيا أين أنتم من قوم عبر عليهم الاسكندر فرآهم ليس بينهم قاض ولا حاكم ولا أمير قائم عليهم ولا فيهم من يختص بالغنى دون أخيه ، بل هم سواء في كل ما هم فيه ، أكلهم وشرابهم واحد غير متناف ، ولا متضاد وملبسهم غير متناف ولا متباعد ، فتعجب الاسكندر منهم وسأل الأكابر منهم عما رآه من أحوالهم . فقالوا أيها الملك انا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب : يا ابن آدم ما خلقت الا من التراب ، وقد خلوت بما قدمت اما صالحا فيسرك ، واما طالحا فيضرك فتندم حيث لا ينفعك الندم ولم يكن لك الى الدنيا مرجع ، فطوبى للكيس العاقل الذي ليس ببليد ولا غافل ، يتزود الى ما اليه يصير ولا يلقي الاتكال على التقصير ، فبادر الى الخير قبل الموت واغتنم حياتك قبل الفوت ، وكأنك بالحي وقد هلك وترك كل ما ملك ، فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة ولبسنا أثوابها السابغة ، فقال ما بال مساجدكم شاسعة نائية وقبوركم دانية ؟ فقالوا أما مساجدنا فبعيدة ليكثر الاجر بكثرة الخطا وقبورنا قريبة لنذكر الموت فننتهي عن الخطا ، فقال مالي أرى أبوابكم بغير غلاق ؟ ، قالوا لاننا ما فينا خائن ولا سارق . فقال ما لي لا أرى فيكم أميرا ولا حاكما ؟ فقالوا لاننا ما فينا معتد ولا ظالم . . .

فقال : ما لي لا أرى فيكم معسرا ولا فقيرا؟ ، قالوا لان رزق الله فينا الكبير والصغير ، ثم انهم أخرجوا له جمجمتين عظيمتين فقالوا : أيها الملك هذه جمجمة رجل عادل سالم وهذه جمجمة رجل ظالم وكلاهما صار الى هذا التصير ولم يغن عنهما الجمع والتدبير . أما العادل فمسرور ريان ، وأما الظالم فنادم حيران فاز المتقي وخسر الشقي ، فاختر ما تراه قبل الحين أيها الملك لانك قد ملكت النواصي ونفذ أمرك في الداني والقاصي واستخلفك الله في الارض وأمرك بالقيام بالنقل والفرض ، فتذكر مرجعك ورمسك واعمل لنفسك وأعلم أنه لا ينفعك جدك اذا قبضت روحك واشتمل عليك لحدك ، فاترك أوامر الشيطان ودواعيه وخذ بأوامر الرحمن ونواهيته ولا يغرنك البعير فتبوء بالاثم العظيم ، اذكر ايها الملك ما فعل الشيطان بأبيك حين نصب له مكيدته وأدار عليه حيلته فنصب له فخ العداوة وغره فيه بحبة البر . فقال قيس أيها الملك أتدري من أولئك ؟ قال لا . قال هم قوم مؤمنون قال الله عنهم في كتابه - وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون - وقد رآهم نبينا (ص) ليلة عرج به ، فلما عاد أخبر أصحابه بهم ، قالوا يا رسول الله أهم قوم مؤمنون بما أنزل

عليك ؟ فأراد أن يعلمهم أن أمة محمد أفضل منهم فأنزل الله - وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون - فقال المقوقس لقيس بن سعد يا أخا العرب ارجع الى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم . فقال قيس أيها الملك لا بد لنا منكم ولا ينجيكم منا الا الاسلام أو أداء الجزية أو القتال . فقال المقوقس أنا أعرض ذلك عليهم واعلم أنهم لا يجيبون لان قلوبهم قاسية من أكل الحرام .

حدثنا ابن اسحق (رضي) حدثنا عبدالله بن سهل عن عدي بن حاطب عن سليمان ابن يحيى قال : ان الملك المقوقس كان من عاداته أنه في شهر رمضان لا يخرج الى رعيته ، ولا يظهر لأحد من أرباب دولته ، ولا أحد منهم يعلم ما كان يصنع ، وكانت مخاطبته لقيس بن سعد في أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة ، فخرج قيس من عنده ومضى الى عمرو بن العاص وحدثه بما كان منه . قال ابن اسحق : وكان ولي عهد الملك ولده اسطوليس وكان جبارا عنيدا وانه لما سمع ما تحدث به أبوه رأى ميله الى الاسلام وعلم انه لا يقايلهم وربما أسلم وسلم اليهم ملكه صبر الى أن دخل أبوه الى خلوته التي اعتاد أن يدخلها ويختلي فيها كل سنة فجمع أرباب الدولة في الخفية لئلا يدري به أحد فيعلم أباه وقال لهم : اعلموا أنكم قد ملكتم هذا الملك وإن أبي يريد أن يسلمه الى العرب لانني فهمت من كلامه ذلك . فقالوا أيها الملك أنت تعلم أن هذا الامر مرجعه اليك ، وأنت ولي عهده فاعمل أمرا يعود صلاحه عليك وعلينا . قال فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعد به بكل جميل وأعطاه سما وقال له ضعه في شرابه . قال ففعل الساقى ما أمر به وسقى الملك فمات فأتى الساقى الى أرسطوليس وأعلمه ان أباه قد مات فذهب اليه ودفنه في الخفية وقتل الساقى وجلس على سرير الملك ، كأنه نائب عن أبيه اذا غاب كعادته في كل عام ولم يعلم أحد بموته ، هذا ما كان منه وأما عمرو بن العاص فانه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب وبعث الى أهل البلاد والقرى وطيب خواطرهم وقال لهم : لا يرحل أحد من بلده ، ونحن نقنع بما نوصلونه الينا من الطعام والعلوفة فأجابوا الى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على بحر الحصى فارتجت بنزولهم اليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج وأغلقوا الدروب والدكاكين ووقف أهل كل درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم . قال وأما عمرو بن العاص فانه أمر أهل اليمن ومن معه من العربان أن يحدقوا بالبلد ، وأن أهل البلاد أقبلت اليهم بالعلوفة والطعام والخيرات وهم يردون عليهم من كل فج .

ثم ان عمرا أراد أن يرسل الى صاحب مصر رسولا ، وكان عنده غلام له

من أهل الرملة ، وكان اسمه وردان ، وكان يعرف سائر الأسن ، فقال له عمرو . يا وردان اني أريد أن أرسلك الى هؤلاء القبط ، فانك تعرف بلسانهم ولا تظهر لهم أنك تعرفه ، فقال سمعاً وطاعة ، فقال أريد أن أكتب معك كتاباً وهم أن يكتبوا اذا برسول أرسطوليس قد أقبل وقال : يا معشر العرب ان ولي عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلاً منكم ليخاطبه بما في نفسه فلعل الله ان يصلح ذات بينكم . فقال عمرو ليزيد بن ابي سفيان ولهاشم الطائي ولعبدالله بن جعفر الطيار وللنعمان بن المنذر ولسعيد بن وائل : اعلموا اني قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى من يتكلم مثلي وما يسير الى هؤلاء الا أنا فاني أريد أن أرد القوم وأنظر حالهم وما هم فيه من القوة وأن لا يخفى عليّ شيء من أمرهم ، فقالوا يا صاحب رسول الله (ص) قوّى الله عزمك وما عندنا الا النصيحة للدين والنظر في مصالح المسلمين فافعل ما أردت ثغان . فقال لشرحبيل قد قلدتك أمور المسلمين فكن . مكاني حتى أمضي الى القوم وآتيكم بما فيه . فقال له شرحبيل الله يوفقك ويسددك .

قال فلبس عمرو ثوباً من كرايبس الشام وتحتته جبة صوف وتقلد بسيفه وركب جواده وسار معه غلامه وردان وسار السلالة الى قصر الشمع ، واذا هم بالموالكب مصطفى والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد ، وقد أظهروا ما أمكنهم من القوة ، فلما وصلوا الى قصر الملك أخبروا أرسطوليس أن رسولك أتى يوأحد من العرب فأمرهم باحضاره فدخل عمرو راكباً وهو متقلد بسيفه ، فأراد الحجاب أن ينزلوه عن جواده فأبى وان يأخذوا سيفه فأبى ، وقال ما كنت بالذي أنزل عن حصاني ولا أسلم سيفي . فان أذن صاحبكم ان أدخل على حالتي والا رجعت من حيث أتيت فافئنا قوم قد أعزنا الله بالايمان ونصرنا بالاسلام فما لنا أن ننزل لأهل الشرك والطغيان ، وأنتم طلبتمونا ونحن لم نطلبكم فأعلموا الملك بما قاله . فقال أرسطوليس دعوه يدخل كيف شاء ، فخرجوا اليه وقالوا له ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل الى قبة الملك ورأى السريرية والحجاب وقوفا والبطارقة وهم في زينة عظيمة ، فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ - فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خيرا وأبقي للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون - . قال وكان قصر الملك قد بناه الريان بن الوليد بن أرسلاووش وهو الذي استخلف يوسف على مصر بعد العزيز . ثم خرب وأقام خراباً خمسمائة سنة وما بقي إلا أثره ، فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفع الله اليه وافترقت أمته فرقاً وادعوا فيه ما ادعوا من الالهية وتقوّل الكذب ولي مصر رجاليس بن مقراطيس فبنى ذلك القصر الخراب ، وهو في وسط قصر الشمع ، وانما سمي قصر الشمع لانه لا يخلو من شمع الملوك ، فلما بناه أحضر الحكماء الذين كانوا

قد بنوا في بريّة احميم ، وكان المقدّم عليهم قربانس . فقال لهم اني قد قرأت كثيراً من الكتب التي أنزلت على الانبياء من الله وقرأت صحف موسى ، ورأيت أن الله يبعث نبيا قوله حق ودينه صدق ، أخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة ، وقد بشر به المسيح فما تقولون فيه ؟ فقال قربانس الحكيم : ان الذي قرأته هو الصحيح . قال فثم من يخالف ذلك ؟

قالوا نعم : قال الحكيم أريد أن أصنع تمثالا من الحكمة ونجعله بيتا للعبادة ، ونجعل على هيكلها تماثيل يكون وجوها مما يلي التمثال بأعلى قصر ك . فاذا جاء وقت مبعث هذا النبي يحوّل كل تمثال وجهه عن صاحبه . وأما الذي يجعل على الكنيسة . فانه عند مبعث النبي العربي يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم واقامة شرعهم . قال فأخذوا في عمل الحكمة وأقاموا التماثيل على ما ذكرنا ، فلما بعث النبي (ص) حوّل كل شخص وجهه عن صاحبه وسقط الذي كان على سطح الكنيسة ، وهو الجامع اليوم . وأما التمثال العالي فبقي على حاله بأعلى القصر ، فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال صوتا عظيما . ثم انه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته وصكوا وجوههم ودخل الرعب في قلوبهم ، وقالوا بلسانهم ما وقع هذا التمثال الا عند دخول هذا العربي وما جرى هذا الا لأمر عظيم ، ولا شك أنه هو الذي يفلح دولتنا ويأخذ ملكنا فامروا عمرا أن ينزل عن جواده فنزل وترجل وجلس حيث انتهى به المجلس وأمسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبض سيفه ونظر الى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرا - ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكثون وزخرفا وان كل ذلك لمن متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين - ، ثم قال اعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء ، والآخرة هي دار البقاء . أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر ، وقبّ قال نبينا (ص) « ان الله أوحى الى عيسى أن نح على نفسك في الفلوات ، وعاتبها في الفلوات ، وسارع الى الصلوات ، واستعمل الحسنات ، وتجنب السيئات ، وإبك على نفسك بكاء من ودّع الاهل والاولاد ، وأصبح وحيدا في البلاد ، وكن يقظان اذا نامت العيون خوفا من الامر الذي لا بد أن يكون » فاذا كان روح الله وكلمته خوفا بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف ، وأول من تكلم في المهدي . قال اني عبدالله فاذا كان أقر لله بالعبودية فلم تنسبون اليه الربوبية ، تعالى الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ولا أشرك في حكمه أحدا ، جل عن صاحبة والاولاد ، والشركاء والاضداد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك له ولا وزير ،

ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء ، ولا يحويه مكان ، ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس لا يوصف بالسكون والحركات ، ولا بالحلول والكيفيات ، ولا تحتوي عليه الكميات ولا المنافع ولا المضرات . ثم انه قرأ - ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدّهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا - . فقال له الوزير أصبح عندكم معاشر العرب ان المسيح تكلم في المعهد ؟ قال نعم : قالوا له فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الأنبياء ، فقال عمرو قد تكلم في المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم ، فقالوا يا عربي أتكلم نبيكم بغير العربية ؟ قال لا قال الله في كتابه - وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء - قالوا : أبعث الله منكم أنبياء غير نبيكم ؟ قال نعم : قالوا من ؟ قال صالح وسعيب ولوط وهود . قال فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر ، قالوا بالقبطية للملك ان هذا العربي فصيح اللسان جريء الجنان ، ولا شك أنه المقدم على قومه وصاحب الجيش فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنا . قال وغلّام عمرو وردان يسمع ذلك ، فقال الملك انه لا يجوز لنا أن نغدر برسول ، لا سيما ونحن استدعيناها اليها ، فقال وردان بلسان آخر ما قالوه ففهم عمرو كلامه .

ثم ان الملك قال يا أخا العرب ما الذي تريدون منا ؟ وما قصدنا أجد الا ورجع بالخيبة وانا قد كاتبنا النوبة والبجاوة وكأنكم بهم قد وصلوا اليها . فقال عمرو : اننا لا نخاف من كثرة الجيوش والأمم ، وان الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض ونحن ندعوكم الى خصلة من ثلاث . اما الاسلام . واما الجزية . واما القتال . فقالوا انا لا نبرم أمرا الا بمسورة الملك المقوقس ، وقد دخل خلوته ، ولكن يا أخا العرب ما نظن أن في أصحابك من هو أقوى منك جنانا ولا أفصح منك لسانا . فقال عمرو أنا ألكن لسانا ممتن في صحابي ومنهم من لو تكلم لعلمت أني أقاس به . فقال الملك هذا من المحال أن يكون فيهم مثلك ، فقال ان أحب الملك أن آتية بعشرة منهم من يسمع خطابهم . فقال الملك ارسل فاطلبهم ، فقال عمرو لا يأتون برسالة ، وانما ان أراد الملك مضيت وأتيت بهم . فقال الملك لوزرائه اذا حضروا قبضوا عليهم والأحد عشر أحسن من الواحد ووردان يفهم ذلك ، ثم ان الملك قال لعمرو امض ولا تبطئ عليّ فوتب عمرو قائما وركب جواده ، فقال الملك بالقبطية لاقتلنهم أجمعين ، فلما خرج من مصر ، قال له وردان ما قاله الملك ، فلما وصل الى الجيش أقبلت الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون والله با عمرو لقد ساءت بك الظنون ، فأقبل يحدثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله

وردان فحمدوا الله على سلامته وكان أفبل الليل ، فلما أصبح صلى عمرو بالناس صلاة الفجر وأمرهم بالنأهب للقتال وإذا برسول الملك قد أقبل وقال له أن الملك ينتظرك أنت والعشرة ، فقال عمرو : ان الغدر يهلك أصحابه وأهله وان على الباغي تدور الدوائر ، يا ويلكم ينفذ صاحبكم يطلب منا رسولا ، فلما أتيته أراد أن يقص عليّ ، وقال كذا وكذا فأنت يا ويلك ما الذي يمنعني عنك اذا أردت قتلك ولسنا نحن ممن يخون ويغدر ارجع اليه وفل له اني فهمت ما قاله وما بقي بيننا وبينه الا الحرب . قال ابن اسحق رحمه الله ورضي عنه هكذا وقع له مع القبط ، وكان عمرو اذا ذكر ذلك يقول لا والذي نجاني من القبط . قال وعاد الرسول وأخبر الملك بما قاله عمرو ، فعند ذلك قال : أريد أن أدبر حيلة أدهمهم بها ، فقال الوزير : اعلم أيها الملك ان القوم متيقظون لانفسهم لا يكاد أحد أن يصل اليهم بحيلة ولكن بلغني أن القوم لهم يوم في الجمعة بعظمونه كتعظيمنا يوم الأحد ، وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأي أن تكمن لهم كميننا مما يلي الجبل المقطم . فاذا دخلوا في صلاتهم يأتي اليهم الكمين ويضع فيهم السيف . قال فأجابه الملك الى ذلك وأفاموا ينتظرون ليلة الجمعة . قال وأما عمرو فانه أرسل يوقنا الى القرى التي صالحوها ليأتيه منها بما يأكلونه ويعلفون به خيلهم قال فركب يوقنا الى القرى التي صالحوها وسار في عسكره وبني عمه الى ما يأتي به ومضى نحو الجرف ، وكان معهم جواسيس الملك في عسكرهم فاتوا الى الملك وأخبروه بما جرى من المسلمين ، فعندها دعا بابن عمه ماسيوس وهو المقدم على جيوش مصر ، وقال له اخبر من جيوشنا أربعة آلاف وأمض بهم واكمن وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل ، واياك أن يظهر عليكم أحد وليكن لكم ديدبان . فاذا دخل القوم في صلاتهم فاحملوا عليهم وضغوا فيهم السيف . قال ففعل ماسيوس ما أمره به الملك ومضى في الليل من نحو مغارة السودان ولم يعلم بهم أحد ، فلما كان وقت صلاة الجمعة أتاهم الديدبان وأعلمهم أنهم دخلوا في الصلاة وكانوا قد أخذوا بغالا ودواب وحملوها برا وشعيرا وكان قد قال لهم اذا أردتم أن تحملوا عليهم فقدموا الحمول أمامكم فانهم يأمنون ويحسبون أنها هي التي مضى صاحبهم يأتي بها قال ففعلوا ذلك .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمار بن وهب عن سعيد بن عامر سليمان بن ناقد عن عروة عن جابر عن محمد بن اسحق قال : هكذا دبر عليهم القبط وكان بين القوم وبينهم نصف ميل ، وليس عند المسلمين خبر ما صنع المشركون ، وكان سعيد بن نوفل العدوي يقول لعمرو أيها الأمير ما الذي يمسكنا عن قتال هؤلاء القبط فيقول والله ما تأخري جزع وانما قد علمتم

فصد هذا الملك المقوقس وما عليه من الدين والعقل وهو مقررٌ بنبوته نبينا وقد دخل الى خلونه التي سنّها لنفسه في هذا الشهر المعظم ، وقد بقي منه خمسة أيام ويظهر وينبعث اليه رسولا ونرى ما يكون جوابه ؟ فاما الصلح ، واما القتال . قال فبينما هم يتجادلون في ذلك اذ اتاهم رسول من عند أرسطوليس بن المقوقس ، وقال لهم معانشر العرب ان ولي عهد الملك يسلم عليكم ويقول لكم اني لا أقدر أن أحدث أمرا حتى يخرج الملك من خلونه ، وقد بقي له خمسة أيام وهو يدبر في رعيته بما يشاء . فقال له عمرو : قد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه أنه يحب نبينا وأنه مؤمن به ما أمهلناكم طرفة عين ، فمضى الرسول . قال ابن اسحق وما بعث هذا اللعين هذا الرسول الا ليطمئن المسلمون وليقضي الله أمرا كان مفعولا واذا جاء القدر لا ينفع الحذر واذا أراد الله أمرا هيا أسبابه .

(قال الراوي) فكان المسلمون قد أطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقربت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذر فيها وأنذر ، فلما فرغ أقيمت الصلاة وأقاموا مواليهم يرقبون مخافة العدو أن يكبسهم في صلاتهم . قال صابر بن قيس ونحن لا نرى أحدا من أهل مصر لا فارسا ولا راجلا قال فاصطففنا خلف عمرو للصلاة ، وليس بينا لنا عدو نخافه ، فلما أحرمنّا وفرأ عمرو ركعنا وأومأنا للسجود اذ أشرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الأحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذي أكمّنه أعداء الله وهم على عدد أصحابنا الذين مع يوقنا فلما رأهم موالينا ظنوا أنهم أصحابنا وقد أقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا جاء يوقنا وأصحابه ولم يكلمهم العدو حتى أتونا ونحن في الصلاة ووضعوا السيوف فينا ونحن ساجدون السجدة الأخيرة ونحن بين يدي الله تعالى قال واذا بالسيوف تفرقع في لحومهم وما أحد منهم قام من سجوده وكان القتل في آخر صف من المصلين والصف الذي يليه وهم من اليمين ومن بجيلة ومن وادي القرى ومن الطائف ومن وادي نخلة ، ثم قال ابن عتبة وكنت قد شهدت وقائع السام وحضر موت واليرموك فوالله ما قتل منا في وقعة من الوقائع مثل ما قتل منا يوم بحر الحصى في أرض مصر بالحيلة التي دبرها عدو الله علينا ، وقال والله ما منا من انحرف عن صلاته ولا حول وجهه عن ربه وقد أيقنا بالهلاك عن آخرنا حتى أشرف علينا يوقنا بأصحابه ، فلما نظروا ما حلّ بالمسلمين صاحوا ورموا ما على رؤوسهم من المعائم وقال يوقنا لبني عمه والله من قصر منكم عن عدوه فالله يطالبه به يوم القيامة وما أرى الا أن الاعداء قد غدروا وكبسوا المسلمين فدوروا من حولهم وضعوا السيوف فيهم واحذروا أن ينفلت منهم

أحد، فحملوا وأطبقوا على القبط فدفعوهم عن أصحاب رسول الله (ص) ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة هو ومن معه وثاروا ثوران الاسد وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا في العدو وطحنوهم طحنا . قال جابر بن أوس وحلنا بينهم وبين الوصول الى مصر فوالله ما نجا منهم أحد وبقوا كأنهم طيور وقعت عليهم شبكة صياد ، فلما وضعت الحرب أوزارها هنا المسلمون بعضهم بعضا بالسلامة وشكروا الله على ما أولاهم من نصره وأثنوا على يوقنا خبرا وافقدوا قتلاهم فكانوا أربعمئة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة . قال واتصل الخبر الى أرسطوليس بقتل ابن عمه ، ومن معه وانهم لم ينج منهم أحد فصعب عليه ذلك وأيقن بهلاكه ، فدعا ببطارقتة وأرباب دولته وشاورهم في أمره فقالوا أيها الملك أنت تعلم بأن الدنيا ما دامت لأحد ممن كان قبلك حتى تدوم لك وما زالت الملوك تنكسر وتعود وما أنت بأكثر ممن انهزم من ملوك الارض ، وقد سمعنا أن داونوس بن أردن بن هرمز بن كنعان بن يزحور الفارسي هزمه الاسكندر الرومي سبعين مرة فأخرج الى لقاء الروم واضرب معهم مصاف ولا تياس وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والمطران والبتريك يدعون لك بالنصر . قال فعوتل على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وأنفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج وبعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاة وأقام مدة ينتظر قدرهم .

قال حدثنا محمد بن اسحق القرشي عن عقبة بن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه قال : لما كان من أمر المسلمين ما ذكرنا مما قدره الله عليهم من كبسة عدوهم كتب بذلك عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب (رضي) : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو ابن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، سلام عليك واني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه . أما بعد فقد وصلت الى مصر سالما وجرى لنا على بلدة بلبيس مع ابنة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم ورحلنا الى بحر الحصى وقد كنا صالحنا قوما من أهل قرى بلاد مصر ببلاد يقال لها الجرف حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا إلينا الطعام واني أرسلت عبد الله يوقنا ليشتري لنا منهم طعاما ومضى في خيله وسرت بنفسي رسولا الى مخاطبة القوم فهموا بالقبض عليّ ونجاني الله منهم وانهم أكمنا لنا كميننا من الليل وأشغلونا برسول والكمين كان من الليل ، فلما استوت صفوفنا للصلاة كبسوا علينا ونحن في الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيف وقتلوا منا أربعمئة وستة وثلاثين رجلا والاعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة ، ونحن الآن في بحر متلاطم أمواجه من كثرة القوم والعساكر فانجدنا يا أمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على عدونا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وختم الحبيب واعطاه عبدالله بن قرط ، فسار من ساعته وجدته في السير الى أن وصل المدينة فقدمها في العشر الاوسط من شوال سنة اثنتين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب عند قبر رسول الله (ص) . قال ابن قرط فدفعت الكتاب اليه فنظر اليه ، وقال عبدالله ؟ قلت نعم : قال من أين أتيت ؟ قلت من مصر من عند عمرو بن العاص . قال مرحبا بك يا ابن قرط ثم فك الكتاب وقرأه وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم قال من ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فسيحات الخطا ، والله ما علمت عميرا الا حازم الرأي مليح التدبير ، ضابط الامر ، حسن السياسة ولكن اذا نزل القضاء عمي البصر ، ثم انه كتب كتابا الى أبي عبيدة وذكر له ما جرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره أن ينفذ اليه جيشا عرمرما ، وأنفذ الكتاب مع سالم مولى أبي عبيدة قال عبدالله بن قرط فأقمت في المدينة يومين واستأذنته في المسير فزودني من بيت المال وكتب الى عمرو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص . أما بعد : فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي وأسلم على سيدنا محمد (ص) ، وقد بلغني ما جرى لكم بمصر من غدر عدوكم كما سبق في أم الكتاب ، وكان يجب عليك يا بن العاص أن لا تطمئن الى عدوك ولا تسمع منه حيلة ، وما كنت أعرفك الا حسن الرأي والتدبير ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، فاستعمل النشاط في أمرك ولا تأمن لعدوك واستعمل الحذر فان الامام ما يكون الا على حذر والله يعيننا واياك على طاعته وقد أنفذت الى أبي عبيدة أن يرسل اليكم جيشا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وختمه وسلمه لعبدالله ابن قرط . قال فأخذته وسرت وأنا أجده السير حتى أتيت مصر ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون اخوانهم .

كبسة الجيش

حدثني ابن اسحق حدثني سهل بن عبد ربه عن موسى عبد الرزاق . قال : لما كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ورجعت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه انه لا بد له أن يأخذ بثأرهم ، ثم أنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا بالكنيسة المغلقة في داخل قصر الشمع فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبا . فقال : يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اعلموا أن ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممن كان قبلكم وقد ملكها عدة ملوك ممن احتوى على الاقاليم وملكها مثل الملك المعظم من آل حمير ومثل مستفان والبستق

والمملحان وهو باني هذه الاهرام ونمروذ ابن كنعان ولقمان بن عباد ، وذوي القرنين الملك العظيم وانقضى منكم منها ورجع الى سبأ وأرضها وحضرموت وفصر عمان ، ثم تولى هذه الارض القبط من آبائكم وأجدادكم افسليس وبليينوس والريان بن الوليد وهو الذي استخلص يوسف لنفسه والوليد وهو المكشي بفرعون ، وبعدهم طبلهاوس ثم جدي راعيل ، ثم أبي المقوقس وجميع ملوك الارض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة ، وليس في العرب أطمع منهم فاني أراكم قد كسلتم وفتسلتم عن لفائهم فطمعوا فيكم وفي ملككم كما طمعوا في ملك النمام وانتزعوه من أيدي القياصرة فقاتلوا عن أموالكم وحریمكم وأولادكم ، وأما أنا فواحد منكم ، واعلموا أن الملك المقوقس قد أمرني بلقاء هؤلاء العرب وقال انه لا يظهر اليهم حتى أرى ما يظهر من قومي وأرباب دولتي فما نقنون وما الذي اجتمع عليه رأيكم ؟ فقالوا أبها الملك انما نحن عبيد هذه الدولة وغلماؤها فانها قد استعبدت رقابنا بنعمتها واحسانها ، ونحن نقاتل لمحبتها فاما أن نرزق النصر من المسيح واما أن نموت فنستريح . قال فسكرو قولهم وخلع علي أكابرهم وقال لهم اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد مع القوم وطاولوهم بالمبادرة الى أن يأتي الينا نجدة من ملك النوبة والبجاة فأجابوا الى ذلك وأمروا غلمانهم بأن يضربوا الخيام خارج البلد فضربوها مما يلي النور والرصد .

قال ابن اسحق : وفي ليلتهم تلك جاءتهم الأخبار بأنه رفع بين ملك النوبة وملك البجاة حرب وانه ما يجيبكم منهم أحد وأخرجوا للملك ارسطوليس مرادقا معظما وسط جيش القبط . قال وأخذ المسلمون على أنفسهم وأقبلوا يحرضون بعضهم ويحرسون قومهم بالنوبة ، فكان عمرو في أول الليل يطوف حول العسكر ومعاذ اذا انتصف الليل ويزيد بن أبي سفيان في آخر الليل والنور على عسكرهم والايمان لائح عليهم وأصواتهم مرتفعة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيه (ص) قال ابن اسحق ، فلما وصل كتاب عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة وقرأه على المسلمين قال لخالد بن الوليد يا أبا سليمان ما ترى من الرأي ؟ فقال اذا كان أمير المؤمنين أمرك أن ننجد عمرو بن العاص فانجده . فقال أبو عبيدة ان الطريق الى مصر بعيد وان أنا أرسلت جيشا كبيرا خفت عليه من بعد الطريق ومن المشقة فقال خالد كم جهدك أن ترسل ؟ قال أربعة آلاف فارس . فقال خالد ان الله كفاك ذلك قال وكيف ذلك يا أبا سليمان ؟ قال ان عزمت على ما ذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس . فقال أبو عبيدة من الأربعة ؟ قال خالد أنا أحد الأربعة والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث ،

فلما سمع أبو عبيدة ذلك تهلل وجهه وقال يا أبا سليمان افعل ما تراه فدعاهم خالد وأعلمهم بما عزم عليه ، فقالوا سمعنا وطاعة فقال خذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة . قال فلما صلى أبو عبيدة بالناس صلاة المغرب قدم الثلاثة الى قبة خالد فركبوا وودعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلا يدلهم على الطريق الى وادي موسى والنشوبك وأخذوا معهم ما يحتاجون اليه وساروا يريدون مصر فما زالوا يجدون الى أن قربوا من عقبة أيلة وإذا هم بخيل ومطايا يزيد على ألف فارس فأسرعوا اليهم فاذا هم من تقيف وطي ومرداس قد وجههم عمر بن الخطاب الى مصر مع رفاعه بن قيس وبنسار بن عون . قال فلما رأوهم سلموا عليهم ورحبوا بهم واستبشروا بالنصر لما رأوا خالدا وعمارا والمقداد ومالكا وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وساروا بأجمعهم .

^١ قال حدثنا يوسف بن يحيى عن دارم عن منصور بن ثابت قال كنت في جملة الوفد الذي وجهه عمر (رضى) مع رفاعه وبنسار والثقيفا بخالدا بن الوليد وأصحابه عند عقبة أيلة وسرنا معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنا وبقي بيننا وبينها يومان ، فبينما نحن نسير في بعض الليالي وكانت ليلة مظلمة لا يكاد الرجل أن يرى من شدة الظلام اذ سمعنا حسا بالبعد منا فوقفنا . فقال خالد أيكم يأتينا يا فتيان العرب بخبر هؤلاء الذين في هذا الجيش قال نصر بن ثابت وكنت راكبا فقفزت من ظهر الراحلة وسمعت على قدمي وأخفيت حسبي الى أن تبين لي جيش كثير فتحققنت أمرهم فاذا هم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبنا المطايا والخيل . فقلت والله لاعدت الى أصحابي الا بالخبر اليقين . قال فانبعث أثرهم لأسمع ما يقولون وما يتحدثون فمشيت معهم قليلا فأسمعهم يقولون أذل الصليب أعداءنا فانا قد أصابنا التعب ولحقنا الجهد ومن وقت خروجنا من مدين لم نجد أحدا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لناخذ راحة ونريح مطايانا ونعلق على خيلنا وإذا بمقدمهم يقول : وحق المسيح ما بغيتنا الا في الخلع والأموال من ملك مصر ولكن اذ عولتم على الراحة فانزلوا قال فنزل القوم على ماء يعرق بالغدير وأقبلوا يجمعون الشيوخ ويصنعون لهم الزاد وعلقوا على خيولهم وتركوا ابلهم ترعى . قال نصر بن ثابت فعلمت أن القوم من متنصرة العرب فتركتهم وأتيت الى أصحابي وحدثتهم بذلك فحمدوا الله كثيرا وأثنوا عليه وقالوا لخالد ما الذي ترى ؟ فقال أرى أن تركبوا خيلكم الآن وتستعدوا للحرب ونسير اليهم ونكبسهم فانهم قد أتوا لنصرة صاحب مصر وما أتوه الا بمكاتبة لهم يستنجد بهم على أصحابنا ، قال فلبسوا

سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا مواليهم مع المطايا والرجال وساروا خيلاً ورجالا الى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فتسللوا عليهم كتسلل القطاة فقال خالد : دوروا بالقوم ولا تدعوا أحدا منهم ينفلت من أيديكم فيثير عليكم عدوكم ، قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق وأعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظ أعداء الله الا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة في القوم وهم في أنر النوم فقتل بعضهم بعضا ووقف ابن قيس ومعه جماعة على البعد منهم وبشار ورفقته وكل من انهزم أخذوه ، فلما أصبحنا راينا القتلى منهم ألفا وأسروا منهم ألفا فعرضوهم على خالد فقال حدثوني من أين جئتم وإلى أين مقصدكم ؟

فقالوا انا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام ، فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله أن يأذن لنا أن نكون من أصحابه ونكون له عوناً عليكم ، فلما أجابنا الى ذلك بعثنا الخيل العربية الى وليّ عهده وصاحب الامر من بعده ، فلما كان في هذه الايام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول الى مصر فرحلنا اليهم فوقعت بنا ، فلما سمع خالد منهم ذلك قال « من حفر لمسلم قليبا أوقعه الله فيه قريبا » ثم عرض عليهم الاسلام فأبوا فأمر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وقسمنا رجالهم وما كان معهم ووجدنا معهم الخلع التي وجهها اليهم ابن المقوقس ففرقها خالد على المسلمين وفيها خلعة سنينة وكانت لمقدم القوم فأعطاها رفاعه وساروا حتى قربوا من الجبل المقطم فرأوا جيش القبط فأرسل خالد رجلا من قبله وهو نصر بن ثابت وقال له : امض الى هذا الملك وقل له ان العرب أصحاب مدين قد أتوا لنصرتك قال فمضى الرجل الى أن وصل الى عسكر القبط فأخذه الحرس وقالوا له من أنت ؟ قال أنا مبشر الملك بقدوم العرب المتنصرة الى نصرته قال ابن اسحق فأخذوا نصر بن ثابت وأتوا به الى سراق الملك . قال فلما وقفت بين يديه ناداني الحجاب أن اسجد للملك ففعلت وأنا أسجد لله تعالى حتى لا ينكروا عليّ وكان قد صبح عندهم أنه من امتنع من السجود فهو مسلم . قال فلما رفعت رأسي قال لي الوزير يا أبا العرب أوصل أصحابك الى نصره الملك فقلت نعم وها هم في دير الجبل المقطم . قال فلما سمع الملك ذلك أمر من حجاب أناسا أن يمضوا الى لقائهم وسرت في جملتهم وأخذوا معهم الجنائب وأظهروا زيّ الفراعنة وخلع على نصر بن ثابت عوض بشارته وساروا الى لقاء المتنصرة .

قال حدثنا عسكر بن حسان عن رفاعه بن وس عن موسى بن

عون عن جده نعيم بن مرة . قال : كنت فيمن وجه عمر بن الخطاب من أهل نخلة وكان خالد يحبني ويقرّ بني لان أبي كان يسافر له ببضاعة الى سوق بصرى . قال فلما رأى خالد أصحاب الملك قد أتوا قال لي خالد : يا ابن مرة أريد أن أوصيك . فقلت بماذا قال : اعلم أن العدو قد أرسل يلاقينا وهو يظن أننا من متنصرة العرب ولا شك أن عمرو بن العاص ومن معه تجفّل قلوبهم منا وأريد أن تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فإذا خلا لك الطريق فانسِلْ نحو عسكر المسلمين وحدتهم بأمرنا وما قد عزمنا عليه من غدر القوم ، فإن عمر لا يطمئن لغيرك وأقرئه سلامي وقل له يكن على أهبة فإذا سمع تكبيرنا يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالنهليل والتكبير ، فإن ذلك مما يزيد في رعب أعدائنا فقال نعم . قال وفعلت كما أمرني خالد ونزلت عن فرسي وأسلمتها لغلامي دارم ومضيت نحو الجبل وكمنت بين الأحجار .

(قال الراوي) وان خالد أمر أصحابه بلبس الخلع التي أرسلها لهم ابن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاة بن قيس وبشار بن عون أحسنها وغير خالد زيه والمهداد وعمار ومالك الاشر . قال فلما وصل مقدم جيش القبط . قال خالد لرفاعة وبشار ترجلوا له واصنعوا بين يديه وصلبوا على وجوهكم فليس عليكم في ذلك حرج واحلفوا بالمسيح والسيدة مريم وإياكم والغلط بأن تذكروا محمدا (ص) فيظن القوم بنا واجعلوا الجهاد نصب أعينكم وتوكلوا على الله في جميع أموركم قال ففعلوا ما قال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصنعوا .

قال **حدثنا** نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار قال : يا عم اعلم ان الله اذا أراد أمرا هيا أسبابه ، وذلك أننا لما أشرفنا على اول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرا عامرا بالرهبان ، فلما نزلنا عليه أشرف علينا أهله وقالوا من أنتم ؟ قلنا نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فإنه قد أرسل الينا يستنفرنا لأجل هؤلاء العرب . قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدم عليهم في دينهم شيخا كبيرا وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدبتهم وأعرف الناس بآل غسان وكانت الضيحا قد أقطعها هرقل للملك جبلة ابن الأيهم وكان قد جعل على جبايتها ولد هذا القس وكان اسمه نونلس ، وان المسلمون لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس بأمواله وأولاده الى طرابلس وركب البحر في مركب وتوصل الى مصر وبلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن حاله فحدثه بأمره فخلع عليه وجعله قيما في الكنيسة المعلقة التي في قصر الشمع وصار من أصحاب سكناه في دير مرقص ولا يدخل مصر الا في أمر مهم ، فلما نزل

عمرو بمن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج الى رأي البتريك فأرسل
 اليه وأنزله في الكنيسة وولي البتريك مكان هذا القس نونلس بن لوقا فكان
 في الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير . قال عامر بن المبارك
 النعلبى فأشرف علينا وتأملنا وكان أعرف الناس بخالد ابن الوليد لانه رآه
 في مواطن كثيرة من الشام وكان صاحب حمص فد أرسله رسولا الى أبى
 عبيدة ليصالحوهم . قال فجعل يتفقدهم وينظر في وجوههم ، ثم قال وحق
 المسيح ما أنتم من آل غسان وما أنتم الا من عرب الحجاز وقد جئتم لتحتالوا
 علينا فاني رأيت أمامكم الذي فتح الشام وقتل ملوكها وسوف أكتب الملك
 بقصتكم ليقبض عليكم ، فقالوا ما عندنا خبر من الذي تقوله وقد خيل لك
 ذلك : أما علمت أن المسلمين ما خلوا لنا حالا وقد نهبونا وأصبحنا
 بالذل بعد العز والفقر بعد الغنى وقد كتب اليينا ملك مصر
 بأن نجى اليه فأرسل اليينا بالخلع وطيب قلوبنا . قال عامر فضحكك
 اللعين من قولي وقال لي : ان آل غسان أكثرهم يعرف بكلام الروم وحق
 ديني ما أنتم منهم وقد صح قولي : انكم مسلمون . فقلنا له يا ويلك لو
 كنا من الذين تقول عنهم ما كنا نأتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير في الليل
 حتى نصل الى أصحابنا وانك استحققت المسيح اذ جعلتنا من أصحاب محمد
 فقد وقعت في ذنب عظيم ، ثم اننا بالقرب منهم . فقال أصحابه يا أبانا ليس
 هؤلاء القوم ممن ذكرت فلو كانوا مسلمين ما جسروا أن يدخلوا أرض مصر
 في ضوء النهار ولا يقربوا العمران . فقال وحق ديني : أنا أعرف الناس بهم
 وانهم مسلمون بلا شك فامتنعوا منهم ولا تخرجوا لهم طعاما ولا ماء وسأنفذ
 خبرا للملك بذلك فيكون منهم على حذر . قال عامر بن هبار وكان من
 لطف الله بنا أن الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض
 يجب علينا أن نأخذ لنا منهم صلحا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نبرح من
 ديرنا هذا . فقال أكبرهم ان أنتم فعلتم ذلك فانا لا نعلم من بنصر من
 الفريقين أصحابنا أم العرب ، فان كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القس
 أن يعلم بنا الملك أننا صالحنا المسلمين بغير أمره فانه يقتلنا ، وان هذا
 اللعين تعلمون أنه على غير مذهبنا وهو في كل يوم يكفرنا لانه نسطوري
 ونحن يعقوبية ، فان أنتم أردتم صلح هؤلاء العرب فدوونكم وهذا القس
 فاقبضوا عليه وسلموه لهم وخذوا منهم أمانا . قال ففعلوا ذلك وقبضوا عليه
 وأشرفوا علينا وقالوا لنا : بحق ما تعتقدون من دينكم أنتم من أصحاب محمد
 أم لا فانا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد أن نسلمه نكم وانكم تعطوننا أمانا
 فانا قوم لا نعرف حربا ولا قتالا . فقال لهم مالك الاشتهر : يا هؤلاء اما ما زعمتم

من صلحنا فانا نصلحك وما كان أمرنا بالذي يخفى ولا نرضى بالكذب فانه أشنع شيء عندنا ، ولا سيما ان الاسلام يمنعنا من استعماله ، ولو أن السيف على رأس أحدنا اذا سئل عن دينه أجاب به وتكلم بوحداية الله تعالى ، ونحن من أصحاب محمد (ص) ولكم الأمان وهذا أمان الله ورسوله .

قال فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلموا لنا القس . فقال له خالد : يا عدو الله أردت أمرا وأراد الله بخلافه ، ثم انسه عرض عليه الاسلام فأبى وقال أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعني المسيح في أيديكم وما أظن الا أن المسيح مسلم فافعل ما أردت فضربوا عنقه . قال عامر بن هبار : وخرج الينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا واقمنا عندهم الى الليل . فقال شيخهم الذي أشار عليهم بقبض القس الرومي لخالد : أيها السيد اني قد تفرست فيك الشجاعة فبالله من أنت من أصحاب محمد . فقال أنا خالد بن الوليد المخزومي . فقال أنت وحق دبرني الذي فتحت بلاد الشام وأذلت ملوكها وبطارقها وان صفتك عندي ثم انه دخل الدير وأتى ومعه سيف ففتحه واذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب (رضي) وزيه وصورته وصورة أبي عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف في يده مشهور . قال ما زلت أسمع أخبارك كلها فلم عز لك عمر بن الخطاب وولي غيرك . فقال خالد : اعلم أن عمر هو الامام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلا نخالفه فان الله أمرنا بذلك في كتابه فقال تعالى - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم - فطاعته فرض علينا لانه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وانا قد وجهنا اليه خمس الغنائم من الفتوح كلها من الأموال فما ازداد في الدنيا الا زهدا ولا آثر الدنيا على الآخرة بل مجلسه على التراب ولباسه المرقعة ويمشي في سوق المدينة متواضعا راجلا ، فالتواضع لباسه والتقوى أساسه والذكر شعاره والعدل في الرعية دتاره وما زال يعطف على اليتيم ويرفق بالأرملة والمسكين ويرفد أبناء السبيل ، فظ في دين الله غليظ على أعداء الله قائم بنبيئات الله لا يستحي من الحق ولا يدهن الخلق . فقال القس : أكانت له الهيبة على عهد نبيكم ؟ قال خالد نعم سمعت سعد بن أبي وقاص يقول « استأذن يوما عمر فأذن له فدخل ورسول الله (ص) يضحك » فقال عمر أضحك الله سنك يا رسول الله قال عجببت من هؤلاء اللواتي كن عندي ، فلما سمعن صونك ابتدرن الحجاب . فقال عمر : أنت أحق أن يهبنك وقال لهن يا عدوات أنفسكن أتتهبنني ولا تهبن رسول الله (ص) فقلن نعم أنت فظ غليظ دون رسول الله (ص) فقال رسول الله (ص) : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا

غيره » . قال فلما سمع القس ذلك قال بركة نبيكم عادت على امامكم .
وعليكم فقال خالد وما يمنعك من الدخول في ديننا . فقال حتى يشاء صاحب
هذه الخضراء ، ثم قال لخالد أريد أن أعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل
حيلتكم . قال وأخرج لهم صلباناً كثيرة فأخذها خالد ودفعها لرفاعة بن
قيس وبشار بن عون وتزيوا بزى الذين قتلوهم من آل غسان وارتحل خالد
بعد ما وكل بالدير عشرة من أهل وادي القرى لثلا يخرج أحد بأخبارهم
ويقربوا للملك بذلك . قال وعدنا الى سياق الحديث ، فلما أشرف أصحاب
ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك وعلقوا الصلبان وشدوا
الزنانير ورفعوا صليباً من فضة كان قد أخرجه لهم القس فلما صفعوا
للحجاب ركبوا وساروا حتى وصلوا الى سرادق الملك فترجلوا وقد أخذوا
لهم اذنأ فأذن لهم فدخلوا ودخل أولهم رفاعة وبشار ومن معه وخدموا
الملك وسجدوا له ولم يدخل خالد ومن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج
السرادق ، وان الملك لما رآهم قال لهم : يا معاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا
لكم وتقريبنا لكم وقد طلبتم أن تكونوا لنا عوناً على هؤلاء العرب فان نصحتهم
لنا في دولتنا شاركناكم في مملكتنا وقاسمناكم في ملكنا ونعمتنا . فقال له
رفاعة أبشر أيها الملك سوف ترى ما نبذله في محبتك يوم الحرب . فقال
فخلع عليه وخرج من عنده وأمر لهم بخيام تضرب في عسكرهم .

قال **حدثنا** عامر بن أوس عن جرير بن صاعد عن نوفل بن غانم عن
سهل بن مسروق . قال لما قدم الجيش الذي وجه عمر بن الخطاب مع رفاعة
وبشار وكان من أمرهم ما ذكرناه ، ونظر اليهم عمرو بن العاص ومن معه
من أصحاب رسول الله (ص) أقبلوا ينظرون اليهم والى زيهم . فقال معاذ
لعمر : ما هؤلاء من المتنصرة وان نفسي تأبى ذلك . فقال عمرو والله يا أبا
عبد الرحمن لقد نظرت بنور الله وانني نظرت فيهم واحدا واحدا ورأيتهم
بزي وادي القرى وزى الطائف . فقال شرحبيل بن حسنة وأنا نظرت
أعجب من ذلك أني رأيت خالد بن الوليد في بجملتهم ولاحت لي عمامته
وقلنسوته وثيابه التي كانت عليه يوم دخول طرابلس . فقال يزيد بن أبي
سفيان أنا والله رأيت مالكا الاشتهر النخعي وعرفته بطول قامته وركبته على
فرسه ، ثم قالوا لا بد أن ينكشف لنا خبرهم على جليلة فهم في الحديث اذ
قد اتاهم نعيم بن مرة ، فلما رأوه تهللت وجوههم فرحا وسرورا ، فلما وصل
اليهم وسلم عليهم وحدثهم بالحديث كله سجدوا لله شكرا ، وقال بعضهم
لبعض أيقظوا هممكم وكونوا على يقظة من أمركم ، فاذا سمعتم التكبير في
عسكر العدو فبادروا اليهم . قال ابن اسحق والله في خلقه تدبير ، وذلك أنه

لما جنَّ الليل جمع أرسطوليس بن المقوقس أرباب دولته ، وقال لهم قد ضاق صدري من هؤلاء العرب ، وقال لهم قد غلا السعر عندنا ، لان أهل البلاد قد أجلت من خوفهم ، وان خيلهم تضرب الى الريف من هذا الجانب ، والى الصعيد من هذا الجانب والنوبة والبجاوة ما يأتينا منهما أحد للفتنة التي هي بينهم والرأي عندي أن نحارب هؤلاء العرب صبيحة عيدهم . قالوا أيها الملك هذا هو الرأي . فقال : أخرجوا السلاح وفرقوه على من ليس معه سلاح . . هذا ما جرى عنده ، وليس عنده خبر بما جرى في قصره بعد .

نتائج المعركة

(قال ابن اسحق) وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين أنه كان للمقوقس أخ شقيق واسمه ارجانوس وكانا متحابين وكان المقوقس لا يقطع أمرا دونه وكانا اذا ركبوا لا يفترقان واذا جلسا يجلسان معا على السرير وكان المقوقس قد دخل في خلوته التي ذكرنا وكان أخوه من محبته قد رتب هناك من يعرفه لما يخرج من خلوته ، فلما كان في هذه النوبة استبطأه فأتى الى ابن أخيه فرآه على السرير . فقال له ما فعل الملك ؟ فقال انه في خلوته الى الآن وقد رأى ان طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب وقد أمرني أن أكون مكانه حتى يرى ما يريد من قتالهم أو صلحهم قال فكتم ارجانوس الأمر في نفسه وعلم ان أخاه قد قتل وكان ارجانوس ممن يعتقد نبوة محمد (ص) ويعلم أن دعوته تطوف المشرق والمغرب ، وان الملوك تضمحل في أيام أصحابه وسينزلون على البلاد فترك ارجانوس الأمر موقوفا ولم يبد ما في نفسه لأحد ، فلما خرج ابن أخيه مع العسكر جمع ارجانوس الذين تركهم ابن أخيه لحفظ البلد في قصر الشمع ، وقال لهم : اعلموا أن العقل هو عمدة قوى ابن آدم ، لان الله قد خصه به دون سائر المخلوقات وان أخيه قد قتله ولده لا محالة وقد كان محبا لكم ومشفقا عليكم ، واعلموا ان هؤلاء العرب قد كان قدامهم من ملكه أعظم من ملككم وما ثبت بين ايديهم ، وليس بين دولتكم وبين أن تزول وتضمحل الا أن يلتقي هذان الجيشان ، وان ظفر بكم هؤلاء العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا في مساكنكم وأيثموا أولادكم . فقالوا أيها الملك فما يكون عندك من الرأي وما تفعل ؟ قال اني أرى من الرأي أن تستيقظوا لأنفسكم وتغلقوا أبواب هذا القصر ولا تدعوا أحدا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو نفسه فانهم لا يقدر أن يقاتلوكم ، والعرب من ورائهم ، وانه يعدني الى الجانب الغربي ويمضي الى اسكندرية ونعقد لنا صلحا مع هؤلاء العرب على أنفسنا وأولادنا وحرينا ونسلم لهم بعد ذلك ، فمن أراد يتبعهم ومن أراد يعطيهم الجزية . قال فاستصوبوا رأيه واعلموا أنه نطق

بالحق ، كان أرجانوس له في سرايته ألف مملوك . قال فاحتوى على قصر الملك وأخذ الخزائن والأموال وفلق أبواب قصر الشمع وفعل ما فعل وليس عند ابن أخيه خبر الى أن ذهب من الليل نصفه أو أكثر فجاء اليه بعض خدمة وأخبره بما فعل عمه فأيقن بتلفه وخروج ملك مصر منه . قال فبينما هو في حيرة في أمره اذ كبر خالد بن الوليد ومن معه في وسط عسكره فسمع عمرو وأصحابه التكبير فكبروا ووقعت الخذلة على الكفار وحملت فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف ، فلما نظر أرسطوليس الى ما نزل به والكبسة التي وقعت بعسكره لم يكن له دأب الا أن ركب وأحدثت به ممالك أبيه وأرباب دولته وطلبوا الهزيمة وقصدوا البحر وعدوا الجانب الغربي وطلبوا اسكندرية فجازوا على مدينة مريوط وفيها الموبدان الساقى ومعه ثلاث آلاف من عسكره ، فلما اذ صبح الصائح في مصر بأن الملك انهزم وما ثبت احد من عسكر القبط وولوا والسيوف يعمل فيهم وغرق منهم في البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين وانهزموا .

قال ابن اسحق حدثني من أثق به أنه قتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف وغنم المسلمون أثقالهم وما كان فيها من الأموال ، فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنؤهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دورها وأحاطوا بقصر الشمع فأثرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس ، وقال لهم يا فتيان العرب : اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر وقد فعلت في حقكم كذا وكذا ولولا حيلتي على ابن اخي لما انهزم منكم ، وقد ظفرتهم الآن ونحن نسلم اليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدون أيديكم لنا بسوء ، ومن أراد منا أن يبقى على دينه يؤدني الجزية ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم . فقال له معاذ بن جبل : قد نصرنا الله على الكفار بصدق نيائنا وصلاح أعمالنا واتباعنا للحق ، وانا ما قلنا قولا الا وفيناه ولا استعملنا الغدر ولا المكر ، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريةكم وأولادكم ، ومن بقي منكم على دينه فلن نكرهه ، ومن اتبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا ، فلما سمع أرجانوس ذلك نزل اليهم بالمفاتيح فأمنوه وأمنوا من كان معه في القصر ، وجمعوا أكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم : ان الله قد نصرنا عليكم ، وقد انهزم ملككم منا وأنتم الآن في قبضتنا وقد صرتم ممالكنا ومن أسلم منكم قبلناه ومن أبى استعبدناه ، فقالوا أيها الملك ما هكذا بلغنا عنكم . قال وما الذي بلغكم عنا ؟ قالوا سمعنا عنكم أن الله قد أسكن الرحمة في قلوبكم وأنتم تعفون عن ظلمكم وتحسنون الى من أساء اليكم وأنت تعلم أننا قوم محكوم علينا ولو كان الأمر الينا لاتبعناكم فافرقوا بنا وانظروا في

أحوالنا ، فقال عمرو لأصحابه وللأمراء : ما ترون من الرأي في أمر هؤلاء القوم ؟

فقال شرحبيل ابن حسنة اصنع ما أمر الله به من العدل فيهم وأحسن اليهم وطيب خواطرهم فأننا اذا قصدنا غير هذه المدينة وسمع أيها الأمير عنك أهل المدينة الأخرى بما فعلته مع أهل مصر يسلمون بغير منازعة ولا حرب ، فقال معاذ بن جبل وخالد بن الوليد والمقداد وعمار ومالك وربيعة ويزيد : القول الذي قاله كاتب وحي رسول الله (ص) هو المعمول به ، فقال عمرو لأهل مصر : قد أمناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم منة منا عليكم وقد وضعت عنكم جزية هذه السنة ، وفي السنة الآتية نأخذ منكم الجزية من كل محتلم أربعة دنانير ، ومن أسلم منكم قبلناه ، قال فلما سمع أرجانوس ابن راعيل كلام عمرو ، قال : لقد أنصفت وان الله بهذا نصركم وقد وقفت الآن على صحة دينكم وأنا أشهد أن الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، واشهدوا على أن كل ما تركه أخي من الأموال والأصول والثياب والمتاع هو هبة مني اليكم بما فعلتم مع أهل بلدي . قال فلما نظر أهل مصر الى أرجانوس وقد أسلم دخل أكثرهم في الاسلام ، وعمد عمرو الى الكنيسة وعملها جامعا وهو المعروف به الى يومنا هذا ، وجمع الأموال التي أخذها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وما كان في قصر الملك وأخرج الخمس وأعطى كل ذي حق حقه ، ثم كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى) وبعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية ، وسلم المال والكتاب له وسير معه مائة فارس وأمره بالمسير الى المدينة ، فاستلم الخمس وسار حتى قدم المدينة وسلم المال والكتاب لعمر بن الخطاب (رضى) ، فلما قرأه سجد لله شكرا وأمر بالمال الى بيت المال . فقال علم بن سارية ، يا أمير المؤمنين ان عمرا يسلم عليك ويقول لك ان القبط كانوا استسمنوا سنة في نيلهم في كل سنة وذلك أنهم كانوا اذا أبطأ عليهم الوقاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجواري ويزينونها بأحسن زينة ويرمونها في البحر فيأتي الماء ويفي النيل وقد قرب ميقات ذلك ، ولا يفعل عمرو شيئا الا باذنك . قال فكتب عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى نيل مصر ، أما بعد فان كنت مخلوقا لا تملك ضرا ولا نفعا وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك ، وان كنت تجري بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام . وأمره أن يدفعه لعمر بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة اليه ثم انه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالسلام عليك واني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه ، واذا وصل اليك كتابي

فاطلب أعداء الله حيث كانوا ، وإياك أن تلين جانبك لهم وانظر في أحوال الرعية واعدل فيهم ما استطعت ، واطلب العفو بالعفو عن الناس وأجر الناس على عوائدهم وقوانينهم وقرر لهم واجبا في دواوينهم وأعل رسوم العافية بالعدل فانما هي أيام تمضي ومدة تنقضي ، فاما ذكر جميل واما خزي طويل ، ثم انه سلم الكتاب الى علم بن سارية فسار هو ومن معه الى أن قدموا مصر وسلم الكتاب الى عمرو ، فأما كتابه فقراه على المسلمين ، وأما كتاب النيل فانهم قد كانوا عدوا ليالي الوفاء وتوقف النيل عن الوفاء ، وقد يئس الناس من الوفاء في تلك السنة ، فمضى عمرو الى النيل وخاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب (رضى) . قال فلما رماه فيه هاج البحر وزاد فوق الحد ببركة عمر بن الخطاب ، وانقطعت عن أهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر (رضى) .

حدثنا محمد بن يحيى بن سالم عن عدي بن يحيى بن عوف قال : لما بلغنا أن عمرو افتتح مصر وأتى الى الكنيسة المعظمة عندهم وجد في مذبحها بيتا مغلقا واذا فيه صورة من الفضة وأمام الصورة شخص آخر وفي يده أعلام وهي على صفة الصورة التي وجدها النبي (ص) في الكعبة لما فتح مكة ، فدعا عمرو بالقسوس ، وقال لهم : ما هذه الصورة ؟ قالوا له هذه صورة ابراهيم وأبيه آزر ، فتبسم عمرو وقال - ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين - فقال معاذ بن جبل لما قدمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : « يلقي ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قتره ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصني فيقول آزر : اليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم يا رب انك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأبى خزي أخزى من هذا ؟ فيقول الله حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول له يا ابراهيم انظر الى ما تحت قدميك ، فينظر الى الريح وقد أخذت أباه فتلقيه في النار » قال ثم أمر عمرو بالصورتين فكسرتا ، وعبر عسكر المسلمون الى الجانب الغربي ، وقد تقدم خالد فترجل الى نحو الاسكندرية وتقدم على مقدمته عبد الله يوقنا وسار يوما وليلة هو وبنو عمه وهم بزي الروم .

ذكر فتوح مدينة مريوط

قال ابن اسحق وكان قد بلغ الموبدان الذي مع الثلاثة آلاف وهم في مدينة مريوط ، وقد حصنها ما حصل ، فلما قدم عليه يوقنا ، قال له الموبدان : ما الذي أقدمك علينا ؟ فقال يوقنا ان المسلمين وجهوني اليك وهم يحرضونك على خلاص نفسك ويأمرونك بتسليم هذه المدينة اليهم ولك

الأمان على نفسك وأهلك ومالك ومن أردت ، ولك الخيار في المقام تحت يد الاسلام أو الانفصال فان اخترت المقام فلا مانع يمنعك وأن اردت المسبب أوصلناك الى أي موضع أردت ، فلما سمع الموبدان ذلك قهقه ضاحكا • وقال : وحق ديني ان الغدر شعاركم والمكر دثاركم ؛ فلا فلاح من آمن لكم ، وأما أنا فلا أخون الملك في بلده وأنا وهو في أرض واحدة وسوف أبعث اليه بأن أقدم اليه وأساعدك عليكم جزاء بما عملتموه من الخديعة وستعلمون على من تدور الدائرة ومن يكون المغبون في الآخرة وأنت يا معشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة أمّ النور وخرجتم من ملة الحواريين وأردتم هؤلاء العرب الجياع الاكباد العراة الاجساد ولن يغنوا عنكم شيئا ووحق المسيح لأبعثن بكم الى الملك فيقتلكم على كفركم ، وكان يوقنا قد ترك جماعته ومضى في عشرين رجلا منهم لعله يعمل عليه حيلة ، فلما دخل عليه أنزله في دار الضيافة فوضعوا سلاحهم ، فلما أكلوا الطعام وتحادثوا وكان قد فطن بهم وأمر غلمانهم أن يكونوا على حذر وأن يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلك أن يرسلهم الى الملك الى الاسكندرية ورماهم في بيت مظلم في دار امارته وأقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد أحاطوا بالبلد ووكّل بهم جارية اسمها رينا وهي أخت مارية التي أرسلها المقوقس الى رسول الله (ص) •

وكانت أختها شقيقتها وسلم اليها المفاتيح لمعزتها عنده وقال لها احفظي عليهم لأرى ما أنظر فيهم قال فلما جنّ الليل واشتغل عدوّ الله الموبدان بالشراب قال فصبرت رينا الى أن غرق في سكره هو ومن معه وناموا وأمنت على نفسها فأتت الى الباب وفتحت على يوقنا وأصحابه وقالت لهم أبشروا لا خوف عليكم فان الله قد جعل رحمتكم في قلبي وأنا أخت مارية التي أهداها المقوقس لنبيكم واني أريد منكم أن توصلوني عند أختي مارية • فقال لها بوقنا أبشري بما يسرك ، ولكن أخاف عليك من عدوّ الله فما ترين ؟ فقالت والله ما جئتم حتى سكر ونام • فقال يوقنا فعرفينا الطريق التي نسلكها الى قومنا قالت ان هذا المكان فيه سرب يخرج الى ظاهر البلد وهو مبني من قديم الزمان وبابه الخارج مبني عليه قبة على أعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكل من رآه يظن انه قبر ، وان الذي بنى هذه المدينة امرأة يقال لها فمعمان بنت عاد وصنعت هذه المقابر التي وراء التل وهي كأنها قصور مشيدة ، وكان فيها أناس سكنوها • فقال يوقنا : افعلي بنا ما يقربك الى الله تعالى ورسوله ولعلك أن تنزلينا من هذا السرب حتى نذهب الى أصحابنا ونأتي بهم من هذا ما دام الموبدان سكران وهو نائم ، فقالت : سأفعل ذلك ان

شاء الله تعالى غير أنني أريد أن أفتح لكم باب السرب قبله حتى لا تتعوقوا .
(قال الراوي) وقد مضت رينا أخت مارية وأشرفت على الموبدان .
فاذا هو ومن معه صرعى من الخمر فتركهم وعادت الى باب السرب لفتحه ،
واذا هي تسمع وراءه حسا ففزعت ووقفت تسمع .

قال حدثني عبد الرزاق بن يحيى عن سليمان بن عبد الحميد . عن
سفيان الأعمش عن أوس بن ماجد ، وكان ممن شهد فتوح مصر
والاسكندرية . قال لما نزل خالد بن الوليد على مريوط بجيشه تفقد يوقنا
وقال لأصحابه انه من وقت أن بعثته برسالتى الى مريوط للموبدان ما عاد
قالوا أيها الامير انه من وقت ما دخل اليه ما خرج ونحن في انتظاره ، فعلم
خالد أن يوقنا مقبوض عليه فبات مهموما من أجله ، وكان خالد صاحب همة
وعزيمة لا ينام من خوفه على المسلمين وكان معه جواسيس قد أخذهم معه من
كل إقليم وقد اصطفاهم لنفسه وهو يحسن اليهم وأينما ذهب يكونوا معه
ليأتوه بالأخبار فبينما هو في غم بسبب يوقنا ، واذا هو بواحد منهم قد دخل
عليه وأعلمه أن ولد الموبدان قد أتى من اسكندرية من عند أرسطوليس ومعه
خلع وهدايا لأبيه ومعه خمسمائة فارس ، وقد بلغه أنكم محاصرون أباه فترك
العسكر وما معه بالبعد وانفرد ومعه خادمان وأتى وما نعلم ما يريد . قال فلما
سمع خالد ذلك قام وأخذ معه غلامه هماما وأربعة ممن يعتد بهم وأبعد وقعد
على سفح التل من نحو اسكندرية ونظروا الى التل واذا بولد الموبدان ومعه
الخادمان قصدوا الى وراء لتل عند تلك المقابر التي وصفتها رينا ليوقنا
وقصدوا القبة فمشى خالد وراءهم وفرق جماعته من أربع جهات القبة
وكبسهم واذاهم قد فتحوا طبقا في وسط القبة فأخذهم خالد فلما رآه الموبدان
ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد ان صدقتموني أمنتكم وان لم تصدقوني
رemit رقابكم . فقال الغلام أنا أصدقك أنا ولد الموبدان وكنت عند الملك في
اسكندرية وقد أنفذ معي خمسمائة فارس عونا لأبي وحفظا لهذه المدينة فنحن
في الطريق ، واذا قد جاءني الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فأوففت
العسكر وأتيت الى هذه القبة ، فقال له خالد : وما الذي تريد من هذه القبة
ألكم فيها سلاح أم مطلب فيه مال ؟ قال لا قال فما تريد منها . قال الغلام ان
أمنتني قلت لك الحق .

فقال له خالد قد أمنتك على نفسك فقبل يده وقال يا مولاي أريد
أمانا لأبي ، ومن يلوذ به فأعطاه ، فقال : اعلم أن هذه القبة على سرب
والسرب ينتهي الى دار الامارة ودار الامارة في وسط هذه المدينة ، قال فلما
سمع خالد ذلك تهلل وجهه فرحا وسرورا وقبض على الغلام وعلى الخادمين

وأمرهما مع واحد آخر ممن معه أن يفتحوا السرب ففتحوه فأرسل هماماً إلى العسكر وأمره بأن يأتي بهم في السرب وأن يأنوا معهم بالنار والزيت والقناديل وأن يسرع بذلك وكان ذلك الثلّ عالياً والذين في المدينة لا ينظرون ما وراءه ، فلما أقبل همام بما طلبه خالد أوقدوا المسارج ونزلوا في السرب وابن الموبدان أمامهم فوصلوا إلى الباب وإذا برينا عند الباب تريد فتحه ليوقنا ومن معه ، فلما سمعت حسهم قالت من أنتم ؟ فقال خالد لابن الموبدان ان كلمها فقال أنا فلان بن الموبدان افتحي ولا تعلمي أبي قال فلم يبق لها بد أن تفتح الباب ففتحت فصعد خالد ومن معه فقبضوا على رينا . فقالت لهم يا قوم دعوني فاني أردت أن أخلص أصحابكم وجئت لأفتح لهم هذا الباب وأنزلهم إليكم وتملكوا هذه المدينة من ههنا ، وقد أتى بكم رب العالمين وأنا رينا أخت مارية زوجة نبيكم ، فلما سمع خالد فرح وقال لها وأين أصحابنا ؟ فأتت بهم عندهم فحلوا وثاقهم وأتوا إلى دار الامارة فوجدوا الموبدان لا يشعر بنفسه من الخمر فوكل به جماعة وأمر الباقى أن يملكوا السور وقبضوا على الحرس ونزلوا إلى الابواب وكان لها بابان فكسروا أقفالهما وفتحوهما وأرسل إلى بقية العسكر فدخلوا المدينة والكل في حالك الليل ، فلما أصبح الصباح استيقظ الموبدان ومن معه وإذا بالمسلمين حولهم ، وكل من في المدينة قد أسر . فقال له خالد يا عبدالله لولا أنني أعطيت ولدك الامان كنت قتلتك شر قتلة ، ولكن خذ أهلك وانصرف فاننا قوم اذا قلنا قولاً نعمل به ، وفهم الموبدان أن ولده قد دلهم على السرب ، فلما خرج الموبدان بأهله قال ولده لخالد يا مولاي ان أب مضيت معه قتلني ولست أريد بغيركم بدلاً ، وأنا أقول : أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقال له خالد ان قصر أبيك وما فيه لك ، وعرض خالد الاسلام على أهل مريوط فأسلم أكثرهم ثم ان خالداً قال ليوقنا رحمه الله : أبشر من الله بالرضوان والغفران والنواب فبصبرك على الشدائد فتح الله علينا هذه المدينة ، فقال والله ما فتحها الا بفضلته وبركة نبيه (ص) ، فكتب إلى عمرو بن العاص يبشره بفتح مريوط ونحن معولون على الدخول إلى اسكندرية وأرسل الكتاب إليه .

قال ابن اسحق : وأقام خالد بمريوط لاجل ذي الكلاع الحميري لانه مرض معه ، وكان مرضه شديداً فجلسوا عنده شهراً ولم يفارقه خالد فقدّر الله له بالوفاة فحزنوا عليه حزناً شديداً عظيماً ، فكان ذو الكلاع ملك حمير ، وكان قبل دخوله في الاسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم . قال أبو هريرة الدوسي (رضي) : ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشي في سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لما قدم من اليمن إلى الجهاد في أيام أبي بكر

الصدّيق (رضى) ، فلما مات رثاه ولده تنوخ بما رثى به حمير أباه سبأ بن يشجب في الزمن المتقدم وهو :

عجبت ليومك ماذا فعل	وسلطان عزك كيف انتقل
وسلمت ملكك ذا طائعا	وسلمت للامر لما نزل
فيومك يوم رفيع النزال	ودورك في الدهر دور رحل
فلا يبعدنك فكل امرئ	سيذكره بالسنيين الاجل
لئن صحبت نائبات الزمان	وشت مع الدهر وجه الامل
لقد كنت بالملك ذا قوّة	لك الدهر بالعزّ عان وجل
بلغت من الملك أقصى المدى	نقلت وعزّك لم ينتقل
فططحت آفاقه والمدى	وجئت من العرب حول الدول
حويت من الدهر اطلاقه	ونلت من الملك ما لم ينل
وحملت عزمك ثقل الامور	فقام بها حازم واستقل
صحبت الدهور فهنأتها	وما مر عيشك فيما فعل
بنيت القصور كمثل الجبال	ذهبت فلم يبق الا الطلل
نعمنا بأيامك الصالحات	ومشربنا بك وبطل وطل
تؤمل في الدهر أقصى المنى	ولم تدر بالامر حين نزل
فزالت لعزمك شم الجبال	ولم يك حزمك فيها هبل

ذكر فتوح اسكندرية

قال : وعوّّل خالد على المسير الى اسكندرية .

حدثنا زياد بن أوس الطائي عن معمر بن الرشيد ، قال لما نزل خالد بعد رحيله عن مريوط ، قال له عيونه انه لما انهزم ابن المقوقس وأتى الى اسكندرية وبلغه فتح مصر صعب عليه ، قال وكانت اسكندرية عامرة كان فيها الخلق كثيرا والمراكب فأرسل مراكب وعمرها بالرجال وأمرهم أن يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين ، فقالوا سمعنا وطاعة ومضوا الى ساحل الرملة فوجدوا بالليل نيرانا كثيرة فسألوا من كان خبيرا بالبلاد ، فقالوا هذه نيران المسلمين النازلين ههنا ، فقالوا : هذه حاجتنا التي جئنا في طلبها ، فنزلوا وقصدها واذا بها حلل من حلل دوس بني عم أبي هريرة ، وكان معهم طائفة من بجيلة وفي جملتهم ضرار بن الازور وهو مريض وأخته خولة معه تمرضه وكان أبو عبيدة أمرهم بالنزول هناك لاجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم ، لان دولة الروم قد انصرفت وأيامهم قد ولت ، فما فطن القوم الا وقد كبسهم القبط في حندس الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا

منهم رجالا وأخذوا منهم أسارى ومن جملتهم ضرار وأخته وأخذوا ما قدروا على حملة وأتوا بهم المراكب ، وكان جملة من أسروه من الرجال والنساء والاولاد والعبيد ألف ومائة فوضعوهم في المراكب وأقلعوا بهم من ليلتهم وسارا طالبيين اسكندرية .

قال ابن اسحق : وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها في وسط البلاد وهي قريبة من الاردن والشام والسواحل ، وان أبا هريرة قد أتى ليزور قومه في تلك الايام ويسأل عن حال ضرار وكانوا يحبونه لشجاعته فأتى أبو هريرة ومعه حليف له من بني بجيلة فأصبحنا تلك الليلة في الحي وإذا بهم قد أخذهم القبط وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة ووجدوا من الذين انهزموا أناسا مجروحين فسألوهم فقالوا ما عندنا خبر حتى كبسنا قوم نصارى وما نعلم من أي الطوائف هم ولم نفق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ما ترون وأسروا الباقين وأخذوهم في مراكبهم . فقال أبو هريرة : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، وساروا الى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرا ، فلما غولوا على الرجوع اذا بلوح من ألواح المراكب تلعب به الامواج ، وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل وإذا به أمير دوس وحيان ابن عم أبي هريرة ، فلما رآه ترجل له وعانقه وهنأه بالسلامة وقال له يا ابن عم ما وراءك . فقال هجم العدو علينا ليلا وأسرونا وساروا ، فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا ، وقد نجاني الله على هذا اللوح . فقال له : ومن أعداؤكم قال من قبط مصر ، واني سمعتهم يذكرون اسكندرية كثيرا . قال فرجع أبو هريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمه الى مكان الحلة حتى يلم شعث الناس ويداوي المجروحين فجمع ما تركوه وأتى بهم الى الرملة . وأما أبو هريرة فأتى أبا عبيدة وأخبره بما جرى فاسترجع وبكى ، وقال أعوذ بالله من الساعات الرديئة ، ثم قال والله لئن وصلوا الى اسكندرية ما يبقينهم صاحبها طرفة عين ويموت ضرار ويمضي دمه هدرا وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بذلك ويحذره من صاحب الاسكندرية وانه أسر ألفا ومائة من جملتهم ضرار وأخته ، وكانت تدأويه وهي عنده فاذا وصل اليك كتابي هذا فاجتهد في خلاصهم وان وقع في أيديكم أحد من القبط ففادوهم به ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره أن يسير الى مصر ، فلما قدم زيد الخيل الى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص ، فلمها قرأه صعب عليه ، وكان يحب ضرارا فأرسل الكتاب الى خالد بن الوليد ، وكتب اليه يحثه بالمسير الى اسكندرية وانه يفتقد حال الاسرى ، فلما وصل الكتاب الى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأخته خولة .

حدثنا ابن اسحق قال حدثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزي عن

سلمة عن عبدالله ابن المبارك عن عبد العزيز عن أبيه . قال لما أخذت النصارى حبل دوس وضرارا واخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقي الى اسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد قتلهم فقال له أرباب دولته أيها الملك لا تعجل عليهم ، واعلم أن العرب متوجهة اليك ولا بد لنا من قتالهم فان أسر أحد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نعادي به ولعل أن نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال ادفعوا هؤلاء الاسرى الى دير الزجاج وأرسل معهم ألفي فارس يوصلونهم الى الدير فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد الى الدير قبل وصول الأسارى ومن معهم ، فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه مباحا وكان تلميذا لبحيرا راهب بصري ، وكان مؤمنا بالله وبأنبيائه . فقال له خالد يا راهب كيف ترى الدنيا . قال تنحف البسطن ، وتجدد الامل ، وتقرب المنية ، وتقطع الامنية قال فما حال أهلها قال من نال منها شيئا نفضته ومن فاته منها شيء حسرته ، قال فما خير الاصحاب فيها قال العمل الصالح والتقوى ، قال فما شر الاصحاب فيها ؟ قال اتباع النفس والهوى . قال خالد صدق رسول الله (ص) اذ قال الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ، ثم قال كيف طابت لك الوحدة ؟ قال ألفتها قال فهل نلت منها فائدة . قال نعم : الراحة من مداراة الناس . قال فما أحسن هذا الاعتقاد لو كان في دين الاسلام والتوحيد ، قال فما أعرف غيره ، قال فما تقول في محمد ابن عبدالله (ص) ؟

قال : سيد الرسل وخاتم الانبياء وصفني الاصفياء وحجة الجبار على الورى ، قال فلم لا تكون في بلاد الاسلام فهي أصلح لك من ههنا ، قال قلبي ملوث بحب الدنيا . قال خالد أعندك خبر بالعرب الاسرى الذين أرسلهم الملك ههنا ، قال لا والله ، ولكن مرّ بي البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتهما ؟ فقالا من الاسكندرية واننا رسل الملك كيماويل صاحب أرض برقة وانه أرسلنا الى ملك القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة ونا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك . فقال لخالد لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام قال خالد نحن هم . فقال الراهب ان أخباركم عندي في كل وقت وأعلمك أنني رأيت نبيكم (ص) وهو في قافلة قريش وأنا عند بحيرا ، فلما مات بحيرا انتقلنا الى هذا الدير ، واعلموا أنه ما بقي من أرض الكنائس ولا بأرض العقبة ولا بأرض الرمادة أحد ولا ديار من راهب ولا قس إلا وقدّم لزيارتي ويسألني عنكم وعن نبيكم ، ويقولون لي أنت كنت على

طريقهم ورأيت نبيهم وشرحت لهم دينكم وأوصلتهم الى ما ظهر من معجزات نبيكم (ص) ، ولقد جرى بيني وبين راهب منهم بالقرب مناظرة ، وقال لي ان النبي الذي بشر به عيسى المسيح ابن مريم ليس هذا ، فقلت له بلى هو والله النبي العربي . فقال لي اننا سمعنا في العلم أن الرسول الذي يظهر من أرض الحجاز يعرج به الى السماء ، وما سمعنا أن هذا عرج به ، فقلت بلى والله أنا سمعت بأنه عرج به الى السماء وخاطب العليّ الاعلى ، وأصبح فأعلم بذلك قريشا ، ثم قال لخالد : اعلم أن في وسط هذا الجبل ديرا يقال له دير المسيح ، وقد استوى عليه بطريق ومعه جماعة وهو يقطع الطريق على قوافل العرب ، وانه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها شخص من بلادكم وهو مسلم ، فأخذ القافلة وعرض أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم وأخذ ماله ، ووضعته عنده في العذاب الشديد ، والرجل يستجير فلا يجار ، ويقول له ما أطلقك حتى تكفر بالرحمن وتسجد للمصلبان ، ثم انه يأتيه بصورة من نحاس وعلى رأسه عمامة سوداء ، ويقول له هذه صفة نبيكم وينصبه قبالة ويصب فضلة كأسه على رأس هذه الصورة ، وذلك الرجل يستجير من فعاله . قال فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد والقعقاع ورفاعة ، وترك بقية العسكر بحيطه بالدير ومضوا الى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا اليه ، واذا بالطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح ، وقد قصد الى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين ، فنزل على العين وصاح بغلمانة فأتوا اليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر ، وقال لهم هاتوا الحمدي ، فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر ، فلما رآه قال له : أنت قد غلبتني بتجلك على العذاب ، وحق ديني لا أرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك الى ديني ، فقال له اصنع ما بدا لك فاني أعلم أن الكل بمشيئة الله وبارادته ، واني صابر على مرّ البلاء وما أرجع عن دين محمد المصطفى . قال فهم أن يقوم اليه يضربه فصباح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانة وخلصوا المسلم ونزلوا على العين ، ولم يكن لأهل الدير سرب إلا من تلك العين ، فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير ، وقالوا : ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم ، وقد نهاكم نبيكم عن قتل الرهبان ، فقال خالد : سئلوا لنا مال هذا الطريق وعباله وأطفاله ونحن نترككم في ديركم ، ففتحوا لهم وسلموا لهم جميع موجوداته ، وأخذوا الاسير وساروا وسأله خالد بن الوليد من أين أنت ؟ فقال أنا أمية بن حاتم أخو عديّ ، وقد أخذني هذا في أواخر أيام أبي بكر الصديق (رضي) فاني كنت طالب برقة مع قافلة ومعني بضاعة

فأخذها وأخذني ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . قال فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم إلا والراهب صاح ، وقال لهم استعدوا للقاء عدوكم فانهم قربوا منكم ، فتجهزوا للقاء العدو وإذا بهم قد أقبلوا ، وضجيج الاطفال وبكاء الناس وأنين الرجال وصراخ المأسورات ، وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم ، وزئير الفرسان ، وهفيف الصلبان والعرييات ، تنادي بالويل والهوان ، وخولة بنت الأزور على مقدمة الأسارى وهي تقول :

جلّ المصاب وزاد اتويل والحرب	وكل دمع من الاجفان ينسكب
ومادت الارض مما قد بليت به	حنى توهمت أن الارض تنقلب
جالت يد القبط فينا عند غفلتنا	واستحكم القبط لما زالت العرب
لهفي على بطل قد كان عدتنا	فيه العفاف وفيه الدين والادب
قد كان ناصرنا في وقت شدتنا	أعني ضرار الذي للحرب ينتدب
فيه الحمية والاحسان عادته	فيه التعصب والانصاف والحسب
لو كان يقدر أن يرقى مرآكبه	كان العدو فني والحرب تلهب
أو كان خالد فينا حاضرا وطنا	لزال عنا الذي نسكو وننتحب
لو كان يسمع صوتي صاح بي عجلا	مهلا فقد زال عنك البؤس والعطب

قال : فلما سمع خالد نداءها ، قال : لبيك يا بنت الأزور ، قد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج فأطبقوا على القبط ، فما كان ببعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفا وثلاثمائة ، وخلصوا الأسرى وسلموا على ضرار ، وهنثوه بالسلامة وودعوا الراهب ، بعدما كتب له خالد كتابا بأن له من طعام الاسكندرية صاعا ، ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته ، ثم انهم ساروا طالبين الاسكندرية وهم سائقون الأسرى من القبط بين أيديهم . قال وكان الملك أرسطوليس لما سمع بأن العرب قد أتوه أخرج عسكره ، وضرب خيامه خارج باب السدرة . قال فلما قدم المسلمون وقع الصايح بقدمهم ووقع الخوف في قلب الملك وعسكره وقالوا له : أيها الملك ما الذي تدبر في أمر هؤلاء العرب ؟ قال وما عسى أن أدبر والخوف قد ملأ قلوبكم ، وهم طمعوا فيكم ورأوا أنكم تنهزمون ولا تخافون العار ، وإذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة وأهواؤكم غير متفقة وقد أسروا رجالكم ولم يرهبوا قتالكم ولا مانع يمنعهم ، ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم الى دير الزجاج عندي لكنت صالحتهم باطلاقهم ودفعناهم عنا ، وقد فرطنا أيضا في الالفين الذين أرسلتهم معهم ، فلو كانوا فينا لقاتلوا معنا . فقال له وزيره : أيها الملك هل لك أن ترسل اليهم وتتحدث

معهم في أمر الصلح ، ونحن نسلم اليهم أصحابهم • فقال انهم لن يقبلوا منكم رسولا منذ صبأنا عليهم ببحر الحصى ، فبينما هم في ذلك واذا بصاحب البحر، قد أتى اليه وهو الموكل بالنار ، وأخبره أنه رأى مركبا قد ظهر من قبل الغرب ، ولا أعلم من أين أتى • فقال لا شك أنه من صاحب برقة الملك كيماويل ، وقد أنجدنا ، فأقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهيب مليح الشبيبة ظاهر الهيبة ، وعليه ثياب من الصوف الاسود ونزل معه عشرون شخصا من القسوس والرهبان ، فلما نزلوا الى البر جاءتهم الخيول بالمراكب المذهبة والغلمان والحجاب وعظّموا شأنهم وأركبوهم وساروا بين أيديهم الى أن أوصلوهم الى الملك وأدخلوهم عليه ، فقام لهم وعظم شأنهم وأجلس ذلك الشيخ معه على السرير •

(قال الراوي) : وكان أرسطوليس قد أرسل هدية الى الملك صاحب برقة ، وأرسل اليه يعلمه بما فعله العرب في مدّة قيصر وانهم قد أتونا ، ومن جملة ما أرسل له يقول : أيها الملك اعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال ، فما وهبت الا واستردّت ، ولا فرحت الا وأحزنت ، فالمغرور من تشبث بذيلها واطمأن اليها ، والسعيد من لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار المقر ، أما ترى أيها الملك الى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال ملكه ؟ وذلك عند ما رمته الدنيا بمصائبها ، وشتتته بسهام نكائبها بعدما كانت في وجهه مشرقة ولا يخطر له همّ الاعداء على بال ، وما ضربت لك هذا المثال الا لعلمي أن الدنيا لا تبقى على حال ، وهؤلاء العرب قد استولوا على البلاد ، وأذلوا بسيوفهم العباد ، وقد أقاموا لهم شرعا بالسيوف الحداد ، وقد ملكوا القياصرة وقد جاءت طائفة اليينا ، وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك ، والصواب أن تشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم ، فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام •

(قال الواقدي) : فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببغض والذي أشار اليه هو الحق وان العرب اذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور الى بلادنا ، فأبعث اليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة ، فالمسيح يعطي النصر لمن يشاء فأجابته الى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس أن يمضي في أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب اسكندرية ، ثم انه أرسل خادمه الى عالم أرضهم والمشار اليه في علم النصرانية وهو البترك واسمه سطيس ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ، وكان تلميذ زيروسا وزيروسا تلميذ مرقس ومرقس تلميذ يوحنا ويوحنا أحد

حواري عيسى المسيح وكان هذا البترك سطييس مؤمنا بالله وموحدا وسمع
 بأخبار رسول الله (ص) ومعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغته
 أخباره (ص) وأنه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لاحد مدة
 من الزمان ، وقد بنى له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فمما
 مرّت به قافلة الا واستخبرها عنه ويسأل عن جلس بعده للمسلمين خليفة؟
 فقالوا أبو بكر الصديق وبلغه موته وولاية عمر ، ثم بلغه فتوح الشام وقدم
 الصحابة الى مصر وفنحها ، فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة
 وأرسل أخاه أرسل هذا البترك في مركب ببشره بقدم اسطفانوس الى نصرته ،
 فلما وصل اليه وبشره فرح بذلك وقال يا أبانا أريد من انعامك أن تسيّر الى
 هؤلاء العرب وتختبر دينهم ونبیهم وتدعوهم الى الصلح وتعلمهم أن في أيدينا
 جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة وقد أنفذت بهم الى دير الزجاج ، فان
 أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيئا من مالنا واعقد لنا ولهم الصلح
 بأنهم لا يرجعون اليينا ولا يتعرضون لنا . فقال البترك سأفعل ذلك واني قد
 قرأت في الكتب السالفة فوجدت فيها ان الله يبعث نبيا من أرض تهامة تعرض
 عليه مفاتيح الارض وكنوزها فلا يلتفت اليها ولا يعيرها نظره ولا يختار الا
 الفقر على الغنى وان أصحابه ينبعون سننته وأنا أستخير حالهم قبل سيري
 اليهم . فقال الملك وكيف تستخير حالهم يا أبانا؟ قال أيها الملك أرسل بغلة
 من مراكبك وعليها مركب من ذهب وهو مرصع بالمعادن وتأمر غلمبانك أن
 يسيروا بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين ، فان أخذوها فنعلم أنهم يحبون
 الدنيا ولا يريدون الآخرة وان ردوها فنعلم أنهم يطلبون ما عند الله . قال
 ففعلوا ذلك وأرسلوها وكانوا في حندس الليل ، وكان في الحرس شرحبيل
 بن حسنة ، فلما رأى البغلة وما عليها من الزينة ضحك وقال : ان أعداء الله
 يريدون اختبارنا ومعرفة أحوالنا ان كنا نطلب الدنيا أو الآخرة ، فوالله ما منا
 من يميل الى ما يفنى وانما بغيتنا فيما يبقي ثم قرأ - انما الحياة الدنيا لعب
 ولهو وزينة وتفاجر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثلي غيث أعجب الكفار
 نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من
 الله ورضوان وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور - ثم أمسك بعنان البغلة وأطلقها
 نحو عسكر القبط . قال فلما رأوها صلبوا على وجوههم وقال الملك والله بهذا
 نصروا وخذلنا والله ان أبي كان على بصيرة من أمرهم ، ثم أمر البترك سطييس
 أن يتوجه اليهم فمضى ، فلما قرب منهم رأى أقواما قد هجروا الدنيا ، فمنهم
 القاريء ، ومنهم الذاكر ، لباسهم الصوف ، صغيروهم يوقر كبريهم وكبيرهم
 يرحم صغيروهم وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر ، الذكر كلامهم والقرآن

شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم ، فلما دخل على عسكريهم
سأل عن أميرهم وصاحبهم فدلوه على موضع خالد فقصده ، فلما وصل اليه
وجده في ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف أمامه وأومأ اليه بالسجود
فمنعه خالد . فقال له أنت أمير هؤلاء القوم قال كذا يزعمون اني أميرهم ما
دمت على الحق واتباع العدل والانصاف والخوف من الله محسنا للمحسنين
منهم لمشدادا على المسيئين منهم فمتى حدث عن هذه الاشياء فلا إمارة لي
عليهم . فقال البترك أنتم والله القوم الذين بشر بكم عيسى ابن البتول ، وان
الحق معكم لا يفارقكم ، قال فأمره خالد بالجلوس فجلس وقال : يا معاشر
العرب أخبروني عن نبيكم ؟ . فقال خالد ان الله اختار من ولد آدم العرب واختار
من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشا واختار من
قريش بني هاشم واختار من بني هاشم عبد المطلب واختار من عبد المطلب
عبدالله محمدا (ص) وقال « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وقال : لما خلق
الله العرش كتب عليه لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما وقع آدم في الزلة
رأى على ساق العرش لا اله الا الله محمد رسول الله . فقال يا رب من هذا ؟ .
قال ولدك يا آدم الذي لولاه ما خلقتك قال يا رب فبرحمة هذا الولد ارجم هذا
الوالد . فقال يا آدم لو تشفعت الينا بمحمد في أهل السموات والارضين
لشفعناك ، ثم ان الله جعل اسمه مقرونا باسمه وذكره مع ذكره ورسمه بما
وسم به نفسه . فقال - ان الله بالناس لرءوف رحيم - ، وقال في حقه - بالمؤمنين
رءوف رحيم - وقال - من يطع الرسول فقد أطاع الله - وقال - النبي أولى
بالمؤمنين من أنفسهم - وقال - يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك -
وان الله عز وجل رفع ذكره وعظم فخره وأعز قدره فقال تعالى - ورفعنا لك
ذكرك - وهذا غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال : يا محمد لا
أذكر حتى تذكر فمن أحببك فقد أحبني ، ومن سبك فقد سبني ، ومن جحدك
فقد جحدني ، ومن أنكروا نبوتك فما عرفني بها أنا أشهد على نبوتك . فقال
عز من قائل - ويقول الذين كفروا لست مرسلنا قل كفى بالله شهيدا بيني
وبينكم - ، وقال في موضع آخر - وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله - ، قال
فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال لقد نجا من اتبعه وخسر من فارقه
ثم جدد اسلامه على يد خالد وحدثهم بأمره من أوّله الى آخره ، ثم حذرهم من
أخي صاحب برقة وانه وأصل ومعه أربعة آلاف فارس واني قد سبقته في
البحر ، وهذا الملك القبطي يريد صلحكم ويقرر لكم على انكم تصالحوه أن
يعطيكم شيئا من المال ويسلم اليكم قوما من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل
الرملة . فقال خالد ان أصحابنا قد فك الله أسرهم وجمع بنا شملهم وقد

نصرنا الله على القبط الالفين الذين كانوا مع الاسارى فاننا أخذنا ألفا وثلثمائة أسير وقتلنا سبعمائة ، ثم انه عرضهم عليه وعرض الاسلام عليهم فأبى أكثرهم وأسلم بعضهم فأمر خالد بضرب رقابهم بين العسكرين ثم ان البترك عاد الى صاحب اسكندرية وقال له هؤلاء لا نملك غرتهم لانهم حذرون من أعدائهم وعرفه بفصة أصحابه وانهم هؤلاء الذين ضربوا رقابهم قبالك فقال له يا أبانا ومن أين هؤلاء قال قد وقعوا بهم وخلصوا أصحابهم وأسروا من أصحابك ألفا وثلثمائة وقتلوا سبعمائة . قال فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط في يده وأيقن باتلاف ملكه ، وقال لأرباب دولته وعسكره خذوا أهبتكم للقتال وكأنكم بعسكر الملك كيماويل صاحب برقة ، وقد أقبل عليكم ونقائل هؤلاء العرب بقلوب قوية وأسرار نقية ويعطي الله النصر لمن يشاء وباتوا وهم معولون على القتال .

(قال ابن اسحق) ولقد بلغني أن الملك نام بقية ليلته فرأى في منامه كان شخصا أشقر عريض الصدر قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم في عينيه دعج وله نور يسطع كأنه قمر . فقال ابن المقوقس للاشقر من أنت ؟ قال ابن العذراء البتول أنا المسيح بن مريم ، وهذا الذي بشرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربي الامي من آمن به فقد اهتدى ، ومن جحد نبوته فقد اعتدى ، وقد جئنا لنصرة أصحابه ومقامنا على القبة .

(قال ابن اسحق) ولقد بلغني ان برج القبة مما يلي باب البحر و ذلك ان الاسكندر لما بنى الاسكندرية و سماها باسمه كان الخضر وزيره ، وهبو الذي بنى الباب الأخضر وصنع تلك القبة باسمه ورسمه وكان يأوي اليها فصار ذلك الباب منستهرا به الى يومنا هذا . قال ثم ان عيسى عليه السلام قال للملك في نومه ان كنت من أمتي فاتبع شريعة هذا النبي وذهب عنه ، فلما أصبح حدث أرباب دولته بما رأى في نومه فقالوا أيها الملك هذه أضغاث أحلام وما كان عيسى المسيح يماشي العربي وهو عدوه ، وانما الشيطان قد خيل لك ذلك فلا تلتفت اليه قال فأصغى الملك الى كلامهم ثم انه أمر عسكره بالقتال فركبوا وصافوا المسلمين . وأما الملك فانه نظر الى برج القبة واذا بالقبة يسطع منها نور فدخل الوهم في قلبه مما رأى في منامه ، وقال والله ما هذا النور الا نور المسيح ومحمد وان هذا هو الحق لا شك فيه .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عامر بن بشر عن الاحوص قال : كنت في خيل خالد بن الوليد يوم قتالنا على اسكندرية قال لما وقفنا في ميدان الحرب

وقف يقاتلنا فارس وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لبس يلمع وتحتة جواد عربي فننادانا بالعربية بلسان فصيح ، وقال يا عرب انصرفوا عنا فاننا لا نريد حربكم وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقي في أيدينا هذه الجهة وما نحن بمنازعونكم فيما أخذتموه منا ، ونحن لا نقلدكم في البغسي ونصالحكم صلحا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل في رعيتنا وان أبيتم صلحنا لقيناكم بأسرار نقية وقلوب للجهاد قوية فنردكم على أعقابكم منهزمين ، وفي أذيال الذل متعثرين ، لأنه ما عدا أحد على أهل هذا الدين الا ذل وإنهزم لاننا قوم لنا الكنائس الأربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذابح والقربان والانجيل والصلبان ثم سكنت عن كلامه .

(قال الراوي) وكان هو الملك بن المقوقس فكان أول من بادر الى رد جوابه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) فقال له : لقد افتخرت بما يؤدي صاحبه الى البوار ، ويعقبه سوء الدار ، يا ويلكم أفتفتخرون علينا بالشرك والطغيان وعبادة الصليب والكفر بالرحمن ، ونحن أولو التقى والايمان ، والفوز والرضوان ، والقبلة والقرآن ، والحج والاحرام ، والصلاة والصيام ، والاجتهاد والاحترام ، ديننا أفضل الاديان ، ونبينا المبعوث بالمعجزات والبيان ، وبآيات والبرهان والمنزل عليه القرآن ، ومن اتبعه نال من ربه الغفران ، ومن جحد صحبته باء بغضب الملك الايمان الذي كان ولا مكان ، ولا دهر ولا زمان ، ولا وقت ولا أوان ، شهد لنفسه بالربوبية ولصفاته بالأزلية ولذاته بالأحادية ، ولملكه بالأبدية سلطانه قاهر وكرمه ظاهر وتديبره محكم وقضاؤه مبرم وعرشه رفيع وصنعه بديع ، وليس بوالد ولا مولود ولا لذاته حد محدود ولا لبقائه أجل محدود خضعت الأعناق لعظمته وخشعت الاصوات لهيبته وعنت الوجوه لعزته وذلت الاقوياء لقوته لا يحصى نواله ولا يفنى كماله ولا تبديد نعمه وافضاله يا ويلكم كيف طاب لكم الكفر بالهيته والاشراك بربوبيته وان تجعلوا له ولدا من خلقه وبريته وتسجدون للصليبان في دار مملكته ولا تفزعون من عظمته ثم انه قرأ - ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ماؤجاها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدت علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون - ثم قال شرحبيل ان لله عبادا لو أقسموا على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل ، وكانت اشارته الى سور المدينة فغار السور في الأرض وبانت المنازل والدور . قال فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك من عظيم القدرة فلولى عنان جواده الى عسكره وأفتدتهم قد طارت وأفكار القبط قد حارت ، فلما جن الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله

وحريمه وعياله وركب في المراكب وسار يريد جزيرة أقریطش ، فلما أصبح الصباح وقع الصايح بالمدينة بأن الملك قد انهزم فاجتمع الأكابر وقالوا : ان الملك قد انهزم وما لنا من يدفع هؤلاء العرب . قال فخرجوا بأجمعهم الى أصحاب رسول الله (ص) ووقفوا بين يدي خالد ، وقالوا ان الله قد نصركم بحق وأيدكم بصدق ، وانا نريد منكم ان تعاملونا بالنصفة وتنظروا اليينا بعين الرحمة ، والعدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم ، فقال خالد ما فعل ملككم ؟ . قالوا وانهزم بأهله وماله في البحر . فقال قوم قد أسكن الله الرحمة في قلوبنا وبصرنا بمعالم ديننا ، وأظهرنا على أعدائنا ، وفضلنا على سائر من كان قبلنا من الأجناس . فقال تعالى - كنتم خير أمة أخرجت للناس - ، ونحن نجريكم على أحسن عوائدنا مع سائر من فتحنا بلادهم ، وقد أمسكنا عنكم ولو أردنا أن نملك البلد بالسيف لهان علينا ، ولكن خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك الى الاسلام ، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل و غلام بلغ الحلم أربع دنانير ونشروط عليكم شروطا أن لا تتركبوا دابة ولا تعلقوا دوركم على دور المسلمين ولا ترفعوا أصواتكم عليهم ولا تبنيوا كنيسة ولا صومعة ولا ديرا ولا تجددوا ما دثر وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار وتسارعوا في قضاء حوائجهم وما يريدون في اصلاح شأنهم لا تعدلوا عن تعظيم أهله ، ومن أذنب منكم ذنبا حددناه ومن ارتد عن قولنا قتلناه ، وان تشددوا الزناير على خصوصكم اظهارا لدينكم ، وأن لا تظهروا ناقوسا ولا صليبا ولو آمنتم بالله ورسوله لكان خيرا لكم . فقالوا أيها الأمير ما نترك ديننا فقرا - . وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره اليينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليهم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ - فقالوا أيها الأمير نريد أن تولي علينا رجلا منا حتى يجمع المال الذي تقرر علينا فيلمه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابكم ، فقال خالد اني لا أعرف أحدا من أجايديكم فاخترتوا لأنفسكم برضاكم من أوليه عليكم فأشاروا الى رجل منهم اسمه شيعة بن شامس ، وكان مقدما في القبط فولاه خالد على جمع المال ورياسة البلد ونادى معه قيس بن سعد وأوصاهم ، وقال خذوا من كان واحد ما يحتمل حاله ومن كان معسرا

صعيفا فدعوه ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين . ولا تظلموا يتيما ولا فقيرا ولا أرملة ، فتعجب القبط من حسن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا في دار الامارة وبعث شيعا غلمانا يجمعون الناس .

قال حدثنا جرير بن عاصم عن نعيم بن موسى الداراني عن سليمان بن عوف عن جده مازن بن سعيد . قال وقع القسط على أهل اسكندرية فكان أكبرهم في الحنمة وأغزرهم في المال يزن عشرة قراريط وأوسطهم حالا يزن قيراطين ولقد أتى برجل من أغنيائهم اسمه براس لا يدري ما يملك من المال والدبش والغنم وكان أبخل أهل زمانه ، فقال له شيعا قد وجب عليك في هذا المال دينار ، قال وحق المسيح ما أنا بالذي يؤديه ولو مت وان تصدقت به كان أفضل من عطيتي للعرب . فقال له قيس بن سعد : ان في الذي تأخذه منكم صونا لأنفسكم وحفظا لدمائكم ونحن ما تأخذه على وجه الصدقة منكم بل تأخذه حلالا لا حراما ياويلك لو دخلنا مدينتكم بالسيف ألسنت كنت أنت أول من قتل ومالك أول ما نهب ، وقال له شيعا خذ لك الله ولعنك كل من في اسكندرية يعلم أنك كنت أولا فقيرا لا تقدر على شيء من أمور الدنيا وقد آتاك الله من فضله ووسع عليك رزقه . فقال ألسنت ورثته عن آباء كرام وأجداد عظام وما لله عليّ من فضل . قال فغضب قيس وقام اليه وقمعه بمقرعة كانت معه ، وقال له كذبت يا عدو الله ورسوله الفضل والحمد والمنة لله لأنه رزقنا من فضله وأسبغ علينا من نعمه - وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم قال قيس : اللهم انه جحد نعمتك فأزلها عنه . قال فوالله ما مضى يومه حتى جاء الخبر بان أغنامه قد هلكت جميعا وبساتينه يبست ودياره قد تهدمت وأمواله ذهبت . قال قيس : الله أكبر هذا والله حديث سمعته من رسول الله (ص) وأبو هريرة بجانبني . قال « ان ثلاثة من بني اسرائيل كان أحدهم أبرص ، والآخر أقرع . والآخر أعمى . فبعث الله اليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له أي شيء أحب اليك ؟ . فقال : الجلد الحسن والابل ، فأتى الأقرع فقال له أي شيء أحب اليك ؟ قال الشعر الحسن والغنم ، وأتى الثالث فقال له أي شيء أحب اليك ؟ . فقال النظر والبقر . قال ثم ان الملك مسح بيده على جلد الأبرص فعاد أحسن جلدا وأعطاه ناقة عشرةا فبارك الله له فيها حتى ضاقت بابل الديار ، وأما الأقرع فأتاه ومسح بيده على رأسه فأثبت الله له شعرا حسنا وأعطاه نعجة عشرةا فتوالدت الى أن ضاقت بها تلك الديار . ثم أتى الأعمى ومسح بيده على عينيه فعادت أحسن عيني وأعطاه بقرة عشرةا فتوالدت الى أن ضاقت بها تلك الديار . قال ثم أتاهم ليمتحنهم ، فأتى الأبرص . فقال له كنت أبرص فقيرا لا تملك شيئا فتأعطني مما آتاك

الله من هذه الابل ناقة أتسبب عليها ، فقال له ما كنت فقيرا ولا أبرص وانما ورثت هذا المال من آبائي . قال فذهب الى الأقرع ، وقال له مثل ما قال للأبرص ، فقال مثل ما قال الأبرص ، فذهب الى الثالث ، وقال له مثل ما قال لصاحبيه . فأجاب وقال : بسم الله والله لقد صدقت . فذهب الى هذا البقر فاقسمها بيني وبينك ، فقال له بارك الله لك في مالك وقد رد الله صاحبك كما كانا فانهما كفرا نعمة الله .

(قال الراوي) وجمعوا المال ومضوا به الى خالد وبني فيها المساجد وأخذ كنيسةهم العظمى فجعلها جامعا وترك لهم أربع كنائس ، وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بفتح اسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أباذر الغفاري وذهب الى الاسكندرية وبني فيها جامعا في الرض ، وهو معروف بجامع عمرو الى يومنا هذا .

ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها

(قال الراوي) وأتت اليه أهل رشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وابيار والبحيرة وصالحوه على بلادهم . ثم انه بعث المقداد ومعه أربعون فارسا وهم ضرار وشاكر ونوفل وراجح وعاصم وفارس وعروة وسهل وعمير وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وغيرهم وأمرهم بالمسير الى دمياط وأمر عليهم المقداد بن الأسود الكندي فساروا الى البرلس ، ودمياط كان بها خال الملك المقوقس ، وكان عسكره اثني عشر ألفا ، وكان قد حصن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره ، قال فلما أشرف عليه الصحابة ونظر الى قتلهم ضحك وقال : ان قوما ينفذون الينا منهم أربعين ليملكوا بلدنا لفي عجز وقلة عقل ، قال وكان ولده الأكبر فارسا مشهورا في جميع بلاد النيل وكان اسمه هريرا وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس في عينيه الفرسان شيئا ، فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز اليهم وهو لابس لامة حربه وطلب البراز فخرج اليه ضرار بن الأزور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فالتجأهم الى حيطان البلد وهو كأنه النار في الحطب فاستعاذ منه الجيش . ثم ان خال الملك وكان اسمه البامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فأحضروه ، وقالوا له أيها الحكيم العالم ما الذي تشير به علينا في أمر هؤلاء العرب ؟

فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استضاء به أحد الا هداه الى سبيل نجاته وقاده الى معالم مصالحة ، وهؤلاء القوم لا تذلل لهم

راية ولا تلحق لهم غاية قد فتحوا البلاد وأذلوا العباد واشتهر أمرهم ، وعلا
 ذكرهم ، وفشا خبرهم ، وعلت كلمتهم ، وطافت الأرض دعوتهم ، فما أحد
 يقدر عليهم ، ولا يصل اليهم ، وما نحن بأشد من جيوش الشام ولا امنع بلدا
 وهؤلاء القوم قد أيدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وإن الرحمة في قلوبهم فعاهدهم
 فما عاهدوا عهدا وخانوا وما حلفوا يميننا فكذبوا وقد بلغك ما هم عليه من
 الدين والصيانة ، والصدق والأمانة ، والرأي عندي ان تصالحهم لتنال بذلك
 الأمن وحقن الدماء وصون الحریم ودفع الأمر العظيم ونكون قد صالحناهم
 ودفعناهم بشيء من مالنا . قال فلما سمع البامرك ذلك من الحكيم أمر بضرب
 عنقه فلما عرف الحكيم أن المنية قد غشيتة قال : اللهم اني بريء مما يشركون
 بك لا شريك لك ولا ولد ولا صاحبة لك ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله ، وأن
 محمدا رسول الله . قال فلما سمع البامرك كلامه ضربه فقتله وأمرهم بأن
 يأخذوا على أنفسهم للحرب ، فلما كان الغد خرجوا الى ظاهر دمياط ونصبوا
 خيامهم . قال وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه ، وكان فيه فطنة وعقل
 وتدبير . فلما قتل أبوه أظهر الفرح والدعة للملك البامرك ، وقال لقد
 أراحني الملك منه ومن شره فبلغ اليامرك ما قاله ابن الحكيم فأرسل اليه وخلع
 عليه وطيب قلبه ، فلما كان الليل قال والله لأخذن بنار أبي من هذا اللعين
 ومن أولاده ، وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبا واسعا وخرج منه وقصده
 الصحابة ، فلما رأوه قالوا له من أنت ؟ قال ان أبي قد قتل من أجلكم وقد
 نقبت نقبا وخرجت منه فقوموا على بركة الله وعونه حتى تملكوا المدينة منه .
 فقال له ضرار يا ويلك ، وان الذي بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك أما علمت ان
 الحذر شعارنا واليقظة دثارنا ، وهم بقتله . فقال له المقداد : أمهل يا ضرار
 وفقك الله الى الخير ووقاك الألم والضير . ثم قال المقداد اني رأيت رسول الله
 (ص) في المنام وهو يشير الى شخص بين يديه وكأنما يقول
 على زي هذا الغلام ، وكأنما أتأمل الى هذا الغلام فرأيتة على ما
 هو عليه الآن وكان على وسطه منطقة من الأديم وفيها جلق فضة
 وهي تحت أنوابه . ثم ان المقداد . قال يا غلام اكشف عن أثوابك
 فكشف عن أثوابه واذا المنطقة بعينها ، فقال أشهد ان لا اله الا الله وأشهد أن
 محمدا رسول الله (ص) ، فقام المسلمون فصافحوه ومضى الغلام أمامهم الى أن
 دخل بهم النقب ووسعوه بأيديهم حتى دخلت خيولهم . ثم ردوا الحجارة
 والطين والبناء على حاله وأعمى الله أبصار القوم عنهم ، فلما كان الغد نظر
 أعداء الله فلم يروا للصحابة أثرا ولا خبرا فضجوا بكلمة كفرهم وماجوا وقالوا

هزبت العرب ووقع الصائح في العسكر فظهر أهل البلد ليقفوا على صحة الخبر ولم يبق في البلد سوى النساء والأطفال . قال ابن اسحق وكان للحكيم بنو عم ثمانون رجلا وان ولده طاف عليهم بالليل وأعلمهم بما فعل فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم ، فلما كان الغد وخرج كل من في البلد بادر بنو عم الحكيم واخوته الى الأبواب فأغلقوها وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على النبي النذير فوقعت الخدمة على النساء والصبيان واستوثق القوم من المدينة بالثمانين رجلا فأمسكهم الأبواب وخرج الصحابة (رضى) ورفعوا أصواتهم يكبرون ويدعون الله عز وجل ، فلما نظر لهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذي فعل ذلك بنو عم الديار جان الحكيم وقد أغلقوا الأبواب وقفلوها وملكوا السور ، فوقف الملك ينظر الى ما فعله الصحابة وعلم أن المدينة أخذت منهم وكان في أولاده ولد عاقل لبيب كامل الذات والصفات وافر العقل وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك عقله ما أكل لحم خنزير ولا كشف ذيله على محرم ولا سجد لصورة ولا لصليب ، وكان هم أن يبني صومعة وبنفرد فيها فلم يمكنه أبوه من فرط محبته له وكان لا يستطيع فراقه وهذا الغلام اسمه شطا وكان يحب أن يسمع أخبار رسول الله (ص) ويبحث عنها ؛ فلما نظر الى الصحابة وقد ملكوا منه البلد وشطا عن يمين أبيه نظر شطا الى الصحابة والى زيهم والى نور الايمان وهو ساطع منهم .

قال فشخص شطا نحو السماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه . قال فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة ، فلما أفاق قال له أبوه يا بني ما وراءك ؟ قال ظهر الله والحق وبان وقد تبينت لي حقيقة الايمان ، وقد نظرت الى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم ومعهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهم قبتان معلقتان في الجو بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال ما رأيت أحسن من وجوههم ، ولا شك أنهم الشهداء ورأيت في إحدى القبتين حورا لو برزن لأهل الدنيا لماتوا شوقا اليهن ، وان الله تعالى ما كشف عن بصري وأراني ذلك الا وقد أراد لي الخير ، وما كنت بالذي بعد هذه الرؤيا أبقي على الضلال ولا أتبع المحال ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وحرك جواده وقال : من أحبني من رجالي وغلماني فليتبعني . قال فتبعه القوم ألف رجل ولحقوا أحبني من رجالي وغلماني فليتبعني . قال فتبعه من القوم ألف رجل ولحقوا ما فعل ولده شطا . قال والله ما فعل ولدي شطا ذلك الا وقد رأى الحق ولست أشك في عقله ودينه . ثم انه أسلم ولحق بولده ، فلما نظر أرباب دولته ذلك ، قالوا اذا كان الملك وولده قد أسلما فما وقوفنا نحن فاسلموا جميعا على يد

صحاب رسول الله (ص) ودخلوا المدينة ، فمن أسلم تركوه ومن أبى أخرجوه الى بلاد الأرياف . قال وفتح المقداد النقب الذي دخلوا منه وأمر ببناؤه بابا فسماه باب اليتيم وهو ابن الحكيم وترك عندهم المقداد رجلا من الصحابة يعلمهم شرائع الإسلام وهو يزيد بن عامر (رضى) ورجع المقداد وأصحابه الى أسكندرية وحدثوا عمرا بما فتح الله عليه من دمياط وفرح بذلك وكتب كتابا الى عمر بن الخطاب (رضى) بفتح مريوط والاسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهوور وإبيار والبحيرة وبعث الكتاب مع عامر بن لوئى .

ذكر فتح جزيرة تنيس

قال حدثني زياد عن حميد الطويل عن يونس بن الصامت عن نصر بن مسروق . قال : لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان . قال البامرك لولده : يا بني ان الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا الى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا في القدم ، وهذه تنيس بالقرب منا وهي جزيرة ولا يمكن التوصل اليها الا في المراكب ، والصواب أننا نكتب صاحبها أبا ثوب وندعوه الى الله والى دين نبيه . فان أجاب والا قصدناه والله ينصرنا . فقال شطا هذا هو الرأي وأنا أكون الرسول اليه بنفسى . فقال يا بني اعزم على بركة الله وعونه . قال فركب شطا في مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص ، فلما نظر يزيد بن عامر الى ذلك . قال وأنا أسير معك الى صاحب تنيس . فانه لو سألك عن ديننا ومعامله لم يكن عندك به علم بأن تكلمه ونحن بحمد الله ما فينا من يتكبر ولا من يتجبر وما طلبتنا الا الآخرة والعمل بما يقربنا الى الله . ثم سار معه يزيد ابن عامر صاحب رسول الله (ص) حتى وصلوا الى جزيرة تنيس وفيها رجال يحفظونها ، فلما نظروا الى شطا وغلمانه وبينهم رجل بدوي . قالوا من أنتم . قال لهم شطا أنا ابن الملك البامرك صاحب دمياط ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله (ص) وقد جئناكم رسلا . قال فأرسلوا منهم واحدا يستأذن لهم فأذن لهم أبو ثوب . قال فنزلوا في الزورق واذا به قد أرسل لهم دوابا ليركبوها فامتنع يزيد من الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجلا الى أبي ثوب فاستأذنوا عليه فأذن لهم ، فلما دخلوا قصر أبي ثوب واذا به في حشمه وخدمه وزينته والحجاب والغلمان بين يديه وهو في مرتبه امارته ، وكان قد تكبر وتجبر منذ نزل أصحاب رسول الله (ص) على مصر ومنع المال والخراج أن يؤديه للمقوقس وولده ، وقد اجتمع عنده مال عظيم ، فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله (ص) وشطا وغلمانه

ونظروا الى أبي ثوب وغلما نه ونجبره بدأ يزيد بالسلام ، فقال السلام على من اتبع الهدى - انا قد أوحى اليها أن العذاب على من كذب وتولى -

(قال الواقدي) حدثنا ابن سالم عن جرير بن أحمد عن أبيه عبيدة عن ابن جرير وكان أعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب . قال : كان أبو ثوب هذا من أرض العريش من متصرة العرب من آل غسان ، وهو قريب جبلة وكان صاحب مال ورجال ، وأنه لما وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة هرب معهم أبو ثوب هذا بماله وأهله واخوته الى أرض الجفار ونزل في البرية ما بين العريش ورفح ، وأن المقوقس خرج في بعض الايام يريد الصيد في عسكره فانتهى في سرحته الى أرض العريش ، فانطرد قدامهم وحش كبير فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده الى أن رماه في حبل العرب في حلة أبي ثوب ، فقام اليه وعظمه وبجله وعلم أنه الملك فأمسك ركابه وأنزله في بيته وذبح له الاغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش . قال فأضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرابع ، ركب في خدمة الملك وشيعه وعاد ، فلما دخل المقوقس الى مصر أمر وزيره بأن يكتب الى أبي ثوب بولاية تنيس وأعمالها وأرسل له الخلع والاموال والماليك والغلما ن ، فلما وصل اليه منشور الملك وخلعه فرح أبو ثوب وركب وسار الى الفرمة وركب منها في المراكب الى تنيس ، فلما مكث في ولايته بعث الى أهله واخوته فأتوا اليه ، فولى أخاه أباسيف على جزيرة الصدف وولى أخاه الناني أبا شق على جزيرة الطير ، وولى ولده على دنيوز ، فلما طال عليه الامر طغى وتجبر ومرت الايام والليالي حتى قدم أصحاب رسول الله (ص) الى أرض مصر فمنع دفع الخراج الى مصر والى المقوقس وولده ورأى نفسه في تلك الجزيرة فتحصن بها وقال ما أحد يقدر أن يصل الي ، فلما قدم شطا ويزيد بن عامر ونظر اليهم أبو ثوب أظهر الاعجاب والتكبر ولم يلتفت اليهم ولم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم بالجلوس ، فلما نظر الى ذلك يزيد بن عامر قرأ - ان الارض لله يورنها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين - وجلس الى جانبه شطا ، ونظر يزيد الى سرير أبي ثوب فاذا هو من الذهب وفيه صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح في حجرها فقرأ - فنادها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وفرثي عينا فاما ترين من البشر أحد فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا الى قوله اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرثا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت

ويوم أبعث حيا - . قال فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد ، التفت اليه بغضب وحنق وقال : ما هذا الكلام الذي نطقت به ؟ قال يزيد هذا كلام الله جل جلاله الذي أنزله على نبيه محمد (ص) الذي لا تفنى عجائبه ، ولا تنفذ غرائب ، ولا تبدل كلماته ، ولا تمل آياته . فقال ما معنى الذي ذكرت ونطقت به ، وما تفسيره ؟ فقال يزيد : أما قول الله اخباراً عن عيسى حين قال : اني عبد الله فانه يعلم الخلق أنه عبد الله وليس بولد ، جلّ الواحد الأحد الفرد الصمد . وأما قوله آتاني الكتاب فمعناه أعلمكم الاحكام وأعرفكم الحلال والحرام ، وأما قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة فمعناه اني مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فان في مالي حقاً لله ، وأما قوله : والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت فيعلمهم أنه يموت ، ومن يموت لا يكون له العزة والجبروت ، وأما قوله ويوم أبعث حيا ، فيعلمهم أنه واياهم مبعوثون في يوم القيامة وقوف يوم الحشر والندامة ، ولو كانا الهين لكان لهما ارادتان ووقع الخلف بينهما ، وان الحكمة غير ذلك ، وهي على وحدانيته شاهدة . قال فلما سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال ، قال : لقد مثلتم بالباطيل وغرقتم في بحر الاضاليل . فقال يزيد الله أعلم من هو تائه في تيه المحال مشرك بالملك المتعال ، الذي لا سماء تظله ولا أرض تقله ، ولا ليل يؤويه ولا نهار يأتية ، ولا ضياء يظهره ولا ظلام يستتره ، ولا يقهره سلطان ، ولا يغيره زمان ، كل يوم هو في شأن ، أما لكم بصائر أما منكم من ينظر ويعتبر في قدرة الله القادر ؟ اما منكم من يعظ نفسه بذهاب النهار واقبال الليل ؟ اما آن لكم أن تنزهوه ؟ أما آن لكم أن توحدوه ، أما سمعتم ممن تعبدونه ، وتبرءون اليه وتعظمونه ؟ فان المسيح قد أقرّ له بالعبودية وتبرأ من دعوى الربوبية ، وقال اني عبد الله ، ولقد بشر بنبينا قبل مبعثه وعرف بني اسرائيل بقربه من الحق وكرامته ، أما سمعتم بمعجزاته ، وما ظهر من دلالاته أما انشق له القمر ؟ أما كلمه الضب والحجر ؟ أما خاطبه البعير والشجر ؟ أما هو من أطيب بيت من مصر ؟ قال فعجز أبو ثوب عن رد الجواب ، ولم يكن له ما يزيل حجته الا أن قال ليزيد بن عامر : لقد علمنا ما فعل ، ولكنه كان ساحرا ، وان كان قولك هذا حقاً ، فادع الله وتوسل اليه بمحمد أن يسقينا الغيث ، فان جاء الغيث علمنا أن قولك ليس فيه شك ، ونؤمن بالله ونصدق برسالة محمد (ص) . قال يزيد بن عامر : ان الله يقدر على ما ذكرت ، فان الله على كل شيء قدير ، ان العبد المخلص اذا دعاه أجاب دعوته ، ولكنه يفعل ما يشاء ، وأنا أتوسل الى الله بخير خلقه وصفيه وهو الفعال لما يريد ، ثم ان يزيد قام وخرج من مجلس أبي ثوب . فقال له الى أين ؟ قال : أدعو الذي لو شاء أنزل عليكم رجلاً من السماء ، ثم قرأ - بل

اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم ممن
ناصرين -

قال حدثنا عاصم عن رويم عن ابن جبير قال : انما طلب أبو ثوب الغيث
واقترع عليه لانه كانت له مزرعة بالبعد من النيل ، ولا يقدر أن يسقيها
ولا يصل اليها ماء ، وكانت قد أسرفت على الهلاك واليبس ، وكانت منه ببال ،
وكان قد غرس فيها من جميع النمار والاشجار وصنع لها مصطنع تمتلئ بماء
المطر فيسقيها وقت الحاجة اليها ، وكان المطر قد أمسك عنها والمصانع نشفت ،
فلما خرج يزيد الى البحر توضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع رأسه نحو السماء
وقال : اللهم انك قد أمرتنا بالدعاء ووعدتنا بالاجابة ، فقلت وأنت أصدق
القائلين - واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان - وقد
دعوت كما أمرت ، فاستجب كما وعدت يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا ولا
يحصيه غيرك . قال ابن جبير : لقد بلغني ممن أتق به أن يزيد بن عامر ما
برح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجو ووقف وقفة الخاضع ، ورفع جناح
السائل المتواضع وارتفعت سحابة وتألفت ، والرعد يصول حولها صولة
الغاضب ، وهو لها بصوت البرق يزجر بصاصلة وقعقة وهرير وهو على ذلك
سميره ومسيره ، وقد أحاطت بالسحابة ملائكة الرحمة متمنطقة بنطاق الخدمة
يسوقونها من خزائن رحمته ، ويجذبونها بأزمة القهر الى ملك أبديته وهو واضع
أجنحة عبوديته ، موسوم بوسم - يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته - ،
والركام يسري ويسرع اسراع الوجل يسبح من بسجد لجلاله - فتري الودق
يخرج من خلاله - فاذا هي أسرفت وتكاملت بالماء ووسقت ، والبروق من
أركانها قد انسقت ، وهبت عليها رياح قدرته من مواضع خزائن رحمته - وهو
الذي يرسل الرياح بشرايين يدي رحمته - فعندها تفتح مغاليف أبوابها وترفع
ستر حجابها فهمت بدموع أشجانها على أيدي خزانها ، فتستبشر الارض عند
ورودها وتنتظم عقود الزهر عند ورودها في جيد وجودها ، وتخرج كنوز
ذخائرها - فانظر الى آناز رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها - . قال
ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم ، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر
مجلس أبي ثوب وقال له : كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفل بأرزاق العبيد .
قال فضحك أبو ثوب ، وقال ان سحركم لعظيم وان مكركم لجسيم وان سحركم
يفعل أكثر من هذا . فقال انما ذلك رحمة من الله ، قد أبرّ من أقسم باسمه
عليه ، فلما رأى نزول المطر وظهرت بركات صاحب رسول الله (ص) قال على
سبيل المكر : الآن تحققت أن دينكم الحق وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله ،
ومصدق برسالة رسول الله (ص) وسوف أعرض دين الاسلام على أهل جزيرتي

وأصحابي وأهلي ، وأبني المساجد وأمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر . فقال يزيد ان أنت فعلت ذلك رشدت ، وان نافقت فان ربك لبالمرصاد ، ثم خرج من عنده هو ومن كان معه شطا وغلمانا ومضوا الى دمياط الى البامرك وحدّثوه بما كان من أبي ثوب . فقال والله لقد خدعكم بخديعتة ورماكم بسهم مكيدته . فقال يزيد بن عامر - ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - فما لبثوا أياما فلائل حتى وصل الخبر أن أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم ، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد بن عامر : ما الذي ترى من الرأى في أمر هذا العدو ؟ فقال يزيد نستعين بالله ونتوكل على الله ، ومن قاتلنا قاتلناه .

(قال بن اسحق) وان البامرك أرسل ولده شطا الى البرلس ودميرة وطناح ومن تحت يده يطلبهم فجاءوا من كل جهة ، وكتب بزبد الى عمرو بن العاص يعلمه أن أبا ثوب قد جمع الجموع ، فلما وصل اليه الكتاب أرسل اليهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة أحد بني لؤى ومعه ألف فارس وأمره بالمسير الى دمياط ، وذلك فى العشر الاول من شعبان سنة عشرين من الهجرة ، وكان لعمر بن الخطاب في الخلافة أربع سنين ونصف . أما ما كان من أبي ثوب ، فانه لما نفر اليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس ، فكانوا عشرين ألفا من الرجال ، ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعدّاهم في المراكب ، وأتوا نحو دمياط فخرج شطا بن البامرك فقتل رجالا وجندل أبطالا ، وانه اشترى الجنة من الله بنفسه ، ولم يزل يقاتلهم بقية يومه ، ثم انه عاد من قتال اللثام الى الصلاة والصيام ، ولم يزل على قدم الخوف والوجل وهو منكس الرأس من الخجل من الله تعالى عز وجل ، فلما مضى أكثر الليل وطلع نجم سهيل اضطجع ، فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكي العين . فقال له أبوه : يا بني ما الذي أبكاك ؟ فقال رأيت شيئا في منامي أبصرته وسمعت منه كلاما وعاينته وحفظته وحررته ، والدنيا هي طالق واني بعون ربي واتق ، ولا شك أني لك مفارق . فقال أبوه أعوذ بالله يا بني ما هذا الكلام ؟ ولعل ذلك أضغاث أحلام .

فقال : لا والله ما هي أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلام الذي أجرى الاقلام وخلق الضياء والظلام وبعث سيد الانام بشرائع الاسلام ، واني رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت ، وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت ، ثم تفتحت أبواب السماء الثانية ، ثم رأيت ملائكتها سجودا على جباههم لا يقومون وركعا لا ينتصبون وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون وباكين لا تجف لهم دموع ، ثم كذلك رأيت سماء بعد سماء الى السماء السابعة ، ثم رأيت قبة من زمرد أخضر وفيها قناديل من الجوهر وهي تسرج من الانوار وتوقد من غير نار وفيها

أربعون حوراء عليهن حلل ما رأيت قط مثلها ولا أبصرت شكلها بوجوه تفتن
الانس وفي أرجلهن نعال الياقوت الاحمر يطآن بها على النمارق والزرابي ،
فصاحت بي احداهن وهي كبيرتهن ، وقالت : يا مفتونا بدار الدنيا أما آن لك
أن تذكرنا فقد خلقنا الله لك منذ خلقك ، وجعل مهرنا منك الجهاد في مرضاة
رب العباد ، وقد ألفت الجفاء ، وما هكذا صنع أهل الوفاء ، انظر الى ما أعدت
لك وللشهداء ، قال فنظرت واذا بقباب معلقة حيث لا يدرك لها نهاية بعدد
النجوم وقطرات الغيوم ، وقد نفذ الميقات ، وانقضت الساعات والاوقات ،
فتيقظ في المنام وارجل الى دار السلام ، وقالت : في كل قبة مثل ما رأيت ،
فقلت : ما هذه القباب ؟ فقالت : هذه قباب قوثم الليل والشهداء يأوون اليها
في جنة المأوى ، ثم أنها جعلت تقول :

أنت يا مفتون دوما في الدنا ثم المنام فدع النوم وبادر مثل فعل المستهام
وابك بالوجد دوما بدموع وانسجام ثم نوح ياذا كثيرا في نهار وظلام
أيها اللائم دعني لست أصغي للملام في عروس قد تبدت فاقت البدر التمام
طرفها يرشق بالبحر غدا مصيبا كالسهم ولها صدى منير مثل نون تحت لام
احسن الاتراب قدا في اعتدال وقوام مهرها ان قام ليلا وهو باك في الظلام
يا عمادي ورجائي ومنائي والمرام فاستمع مني قولي ثم فكر في النظام
وغدا بساذر لحرب والى ضرب السهام سرعا تاتي الينا بعد ترحال الظلام

فقال أبوه : اعلم يا ولدي أن من المنام ما بصدق وما يكذب فلا تشغل
نفسك بما رأيت . فقال لا والله يا أباه ما بقي لي في الدنيا طمع ولم يزل باقي
ليلته ببكي ويتضرع ويقوم على أقدام الخشوع ويخضع وأجفانه بالدوام تدمع
الى أن أصبح الصباح وأشرق بحيائه ولاح فودع شطا أباه وأهله وخرج الى
الحرب فتعلق به أبوه وقال له : يا بني بحقي عليك لا تبلي بفراقك . فقال
شطا دع عنك العتاب ، فقد قرب لقاء الأحباب ، فعندها قامت على أبيه
المواسم وانهل الدمع الساجم ودنا الفراق وقامت الاشواق وجرى دمع كل
عين وأقبل البامرك يودع ولده ويقول يا بني ان صح منامك وضربت في دار
السلام خيامك فاذاكرنا بحسن طريقة الوفاء وأقرب سلامي على النبي
المصطفى ، فبرز شطا الى الحرب ودعا للبراز فخرج اليه واحد فقتله وثان وثالث
حتى قتل اثني عشر فارسا .

(قال ابن اسحق) فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفارسانه لم يطبق
الصبر دون أن خرج اليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة ، فلما سار شطا في
الميدان قال له يا شطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه وصغيت الى

هؤلاء اللئام واتبعت دين الاسلام ، لقد عمل فيك القوم واستوجببت العتب واللوم يا فتى عد الى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فأى شيء رأيت من هؤلاء المساكين حتى تبعت دينهم ، فلما سمع شطا كلام أبي ثوب أقبل عليه مغضبا وقال له يا لئيم أتأمرني أن أدع الدين المستقيم الذي كان عليه الخليل والكليم ، وأنا لي بذلك وقد رأيت الليلة مالي من الكرامة عند الله ، وقد طلقت الدنيا ثلاثا ، فلما سمع أبو ثوب كلامه حمل عليه ومدة سنانة اليه فتلقاه بقلب قوي وجنان جري وعزم مضى وحسام سري وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فأراد الله أن يطيب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التي رآها في المنام والحدوراء التي أنشدته الأبيات وفي يدها كأس من شربها لا يفنى ولا يسقم وفيه من الرحيق المختوم ، وهي تقول يا شطا هذا شراب من شرب منه لا يسقم ولا يفيق والساعة تصل إلينا وتقدم علينا . قال فلما نظر شطا الى ذلك وسمع منها ما قالت صاح الله أكبر - هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - وأخذ الدمع والبكاء خوفا من الله . فقال له أبو ثوب مم بكاؤك ؟ قال : رأيت كذا وكذا فضحك أبو ثوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا قتالا شديدا أعظم من الأول الا أن أبا ثوب سبق شطا بطعنة في صدره فأطلع السنان من ظهره فخر صريعا ، فلما نظر البامرك الى ولده مطروحا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو وأصحابه . قال وأظلمت آفاق تلك الأرض من الغبار وترادف القطار فوقعت الهزيمة على البامرك وأصحابه فاجأهم الى أبواب دمياط وطمع فيهم عدو الله أبو ثوب واذ قد أتاهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم في أبي ثوب وأصحابه وهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحامي أصحاب البامرك وحملوا من قبلهم . قال : وأما أبو ثوب وأصحابه فانهم أيسوا من أنفسهم قال فهم في ذلك اذ التقى يزيد بن عامر بأبي ثوب . فقال له يا عدو الله أما اتعظت بآيات الله أما ظهر لك الحق من أصحاب رسول الله (ص) ؟ وأطبق عليه فأخذه أسيرا وصاح الصائح أن أبا ثوب أسر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعد ما قتل منهم خلق كثير ، ثم انهم عزوا البامرك في ولده شطا . فقال احتسبته عند الله . فقال له يزيد بن عامر ان في الجنة درجات لا ينالها الا الصابرون قال الله تعالى - وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . (قال ابن اسحق) ودفنوا شطا في ثيابه بعد ما صلوا عليه ودفنوه في موضع قتله . قال فلما كان الغد أقبل البامرك الى يزيد بن عامر ، وقال رأيت الليلة ولدي في النوم وهو في القبة والحدور بين يديه . فقلت : ما

فعل الله بك قال قبلني بأحسن قبول وجاد علىّ وأ نزلني بجوار الرسول .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمر بن الأسقع عن جده عامر بن خويلد قال قتل شطا في ليلة نصف شعبان فجعل له تلك الليلة موسما في كل سنة ، وذلك انه لما يبق أحد الا زار قبره تلك الليلة . وان هلال بن أوس نزل وأحضر أبا ثوب وعرض عليه الاسلام فأسلم وأسلم من الاسرى أناس وأبى منهم أناس وبقوا على دينهم وقرروا عليهم الجزية ودخل المسلمون في المراكب الى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعاً وبنوا في جميع الجزائر جوامع ، وأخرج أبو ثوب الخمس من ماله وأموال قومه وبعثوه الى عمرو بن العاص مع أموال من قتل وان هلال بن أوس نزل على التل الأحمر بظاهر تنيس وأقر أهـال الجزائر في أماكنهم . فقالوا أيها الأمير قد أمنتنا من جانبك وبقي علينا الخوف من جانب آخر . قال هلال من أين ؟ قالوا من أصحاب القلعة المسماة الفرما . قال : وأين هي : قالوا : على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها وفيهم أقوام وعليهم الصامت ابن مرة من آل مرداس ، فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى اليها بجميع من معه ، فلما وصلوا اليها أشرف عليهم الصامت بن مرة وأمر أصحابه أن يرموهم وكان بها ألف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد ألف سهم فسمعتها العرب من الفرما فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يوماً فلم يقدر عليها فبعث الى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فأرسل اليه المقداد ابن الأسود الكندي في خمسمائة من عسكر الاسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط .

ذكر فتوح الفرما والبقارة والقصر المشيد

قال فلما نزل المقداد على الفرما تأهب أهلها للقتال فنزل بالصامت بن مرة ما نزل به فعلم أنه بيد القوم ، لأنه ليس له ناصر ولا معين فصالح المقداد على أن يؤدي لهم أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمئة ناقة وألف رأس من الغنم وأن يمهلوه الى تمام السنة فان شاء دان الى الاسلام والا ارتحل بأمانه ، فأجابته المقداد الى ذلك وارتحل المقداد وهلال بن أوس ونزلوا على البقارة وكان عليها بن الأشرف فأسلم هو ومن معه ومضوا الى القصر المشيد ففتحوه صلحاً ثم ارتحلوا ونزلوا على الوردية وكان اسمها الوردية فسلمها أهلها وارتحلوا الى العريش فصالحهم أهلها وكذلك أهل رفح وبيدا وميلاس ونخلية وعسقلان .

(قال ابن اسحق) **حدثني** يوسف بن عبد الأعلى قراءة عليه بجامع الرملة سنة مائتين وعشرين من الهجرة . قال حدثني موسى بن عامر عن

رفاعة عن جده عبد العزيز بن سالم عن أبي يعلي العبدى عن طاهر المطوعى
عن أبي طالب الفشارى عن وهبان بن بشر بن هزان قال سمعت الشرح كله
من محمد بن عمر الواقدى وهو يومئذ قاضى بغداد فى الجانب الغربى .

ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة

حدثنا عدنان بن يحيى الخزنى عن معمر الجونى ومن طريق آخر عن
ابن عمير التميمى والابتداء عن المهلب وطلحة ومحمد قالوا جميعا أو من قال
منهم أنه لما فتح الله الشام على يد أبى عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد
بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمى كتب
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة يقول له : بسم الله الرحمن
الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عامر بن الجراح سلام عليك فانى
أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو وأصلى على نبيه محمد (ص) . أما بعد :
فقد أجهدت نفسك فى قتل الكفار وسارعت الى رضا الجبار ، وقدمت لك
ما تجده يوم عرضك ولم نر منك يوما معرضا عن أداء فرضك وقمت بسنة
نبيك وجاهدت فى الله حق جهاده تقبل الله منا ومنك وغفر لنا ولك ، فاذا
قرأت كتابى هذا فاعقد عقدا لعياض بن غنم الأشعرى وجهز معه جيشا الى
أرض ربيعة وديار بكر واني أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يفتحها على
يده وأوصيه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد فى طاعته ولا تلحقه التواني فى
الجهاد وينبع سنن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيد المرسلين مما أنزل
عليه رب العالمين يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين والسلام عليك وعلى
جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم كتب كتابا آخر الى عياض بن غنم
بالولاية والمسير الى أرض ربيعة الفرس وديار بكر . قال وبعث بالكتاب مع
ساعده بن قيس المرادى وزوده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فصار
الى أن ورد على أبى عبيدة فى طبرية فسلم اليه كتاب عمر وسلم الكتاب
الثانى الى عياض بن غنم الأشعرى ، فلما قرأه أبو عبيدة قال السمع
والطاعة لله ولأمير المؤمنين وهيا عياضا بمسيره الى الجهاد وعقد له عقدا على
ثمانية آلاف منهم ألف صحابى من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر
وصرار بن الأزور بن سابق وضمرة وعمرو بن ربيعة وذو الاداغير بن فيس
والحكيم بن هشام اليسع بن خلف وطلحة وعامر بن بهرام والمقداد بن الاسود
وعمار بن باشر وعبد الله بن يوقنا وكانوا قد قدموا على أبى عبيدة بعد فتوح
مصر وكان قدومهم فى شهر سنة ال ستين ست وعشرين من الهجرة وسار
عياض بن غنم من طبرية فى ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل

سهل ابن عدي فلم يزل سائرا حتى نزل على بالس وكان خالد قد فتحها
 صلحا فأقام عليها وسرح سهيل ابن عدي الى الرقة فنزل على حصارها وكان
 عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قبل صاحب رأس العين ، وكان قد
 استعد للحرب وعبي آلة الحصار ، فلما رأى أهل الرقة أن صاحبهم معول
 على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا : أي شيء أنتم بين أهل الشام
 وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدي هؤلاء القوم قال فمشوا الى عياض بن غنم
 بالصلح فرأى أن يقبل منهم فبعث الى سهيل بن عدي أن يصلحهم على ما
 وقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم عن بالس ونزل على الرقة البيضاء ،
 وفي ذلك قال سهيل بن عدي :

وصادفنا الغزاة غداة سرننا	بجود الخيل والاسل الطوال
أخذنا الرقة البيضاء لما	رأينا الشهب نلعب بالثلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض	وقد كانت تخوف بالزوال
سنقصد رأس عين بعد عين	أجد بحملتي جيش الضلال
قصدك يا سهيل تبيد جيشا	وتقتل في البطارق لا تبالي
فنحن أولو التقية والمعالي	ونحن الصابرون لكل حال
صحابة أحمد خير الموالي	رقبي العلياء والرتب العوالي
الى رب السماء دنا علّوا	وخاطبه شفاهها بالمقال

ذكر فتح القلعتين : زبا وزلوبيا

(قال الواقدي) لما فتحت الرقة صلحا عول عياض بن غنم على
 المسير الى رأس العين وكان يملك يومئذ الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال
 شهر ياض بن فرون وكان جيشه مائة ألف وتحت يده وفي عمله من العرب
 المنتصرة السلطان بن سارية التغلبي وهييرة وهم ثلاثون ألفا من الأبطال
 وانهم لما اتصلت بهم الاخبار بفتح الرقة وان المسلمين قاصدون اليهم مع
 عياض بن غنم وخالد والمقداد أتوا الى الملك شهر ياض برأس العين وقالوا له
 اعلم أيها الملك ان أصحاب محمد (ص) قد أتوا ديارنا وقصدوا نحونا ،
 ونحن علينا الطلب أكثر منكم ومطلب القوم أننا ندخل في دينهم فاضرب
 خيامك بظاهر البلد واطهر بجيشك حتى نلقاهم فاما لنا ، واما علينا فأجابهم
 الى ذلك وقال غير أنني أخاف أن تنهزموا عني فأعطوا رهائن واستوثق منهم
 ورتب آلة الحصار وأخرج الخزائن والأموال ورتب الحرس على الأسوار ،
 وزاد في عمق الخندق وعرضه وأرسل الى جملين وكفرتوتا ودارا ومارديسين
 وحران والرها وتل مرزة والسن والموزر وأقام ينتظر عياض بن غنم .

قال **حدثنا عبد الله بن أسلم** عن **عاصم بن عبد الله** عن **ابن اسحق** الأموي عن **يزيد ابن أبي حبيب** عن **راشد مولاة** قال لما **عول عياض بن غنم** الأشعري على **المسير** الى **رأس العين** الى **قتال الملك شهر ياض** بعث قبل مسيره أشعث بن عويلم وعبد الله بن غسان الى **القلعتين المعروفتين** بزبا وزلوبيا . فقال عبد الله يوقنا لعياض بن غنم : اعلم أيها الأمير : ان هاتين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينتان منيعتان احدهما من الجانب الشرقي والاخرى من الجانب الغربي وهما كانتا تحت ولايتي وان صاحبهما كان من قبلي وهو أحد بني عمي واسمه اشفكياص بن مارية كني باسم أمه وكنت قد زوجته ابنتي فأخذت في صداقها الحصن الشرقي من الفرات وقد رأيت أنك تأمرني بالتقدم على هذين الحصنين حتى أحل في القلعة الغربية فان فتحتها كانت الأخرى في قبضتنا . فقال له الله درك يا عبد الله لقد نصحت الاسلام وأهله فجزاك الله خيرا أحسن ما جازى به أوليائه ، سر على بركة الله وعونه فاذا استقر بك المكان ثلاثة أيام أنفذت إليك شعيبا وعبد الله ومن معهما من المسلمين ، وبعد الفتح ان شاء الله تنزلون اليئنا . فقال يوقنا استعنا بالله وتوكلنا عليه ، ثم انه أخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلا سوى جنيب من الخيل واحد وسار من أول الليل وترك عياض بن غنم علي الباسل فجدوا السير بقية ليلتهم فلما كان قبل الفجر أشرفوا على الخائوة فوجدوا فيها ألفا من الأرمن وهم بالعدة الكاملة ، فلما أشرف عليهم يوقنا ومن معه وهم يتحدثون بلغة الروم أنسوا بهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا هذا البطريق المعظم يوقنا صاحب حلب قد هرب من العرب وأقبل لنصرة صاحب هذه القلعة ، فلما سمعوا بذلك فرحوا وصنعوا بين يدي يوقنا وأرسل المقدم عليهم خيالا وأمره بالسرعة لينبشرو اشفكياص بقدوم يوقنا اليه وهروبه من العرب وانه يستأذن عليه فمضى الرجل وأخبر اشفكياص فأطرق الى الأرض ، ثم قال لوذيره وحق المسيح والأنجيل ما جاء الا لينصب علينا ويملك هاتين القلعتين منا كما فعل بطرابلس وصور وما أنا بالذي يأمن ، فما ترى أيها الوزير ؟

(قال ابن اسحق) ولقد بلغني ان هذا الوزير كان من أهل القراءة ، وكان أديبا عاقلا ليبيبا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال ، وكان منذ بعث النبي (ص) يسكن في دير مترهبا وهو ما بين السر (٣) وحلب فتعبد فيه زمانا طويلا حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية ، ثم بعد ذلك أخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمصار المسيح فكانت الروم يندرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسما ذكره

